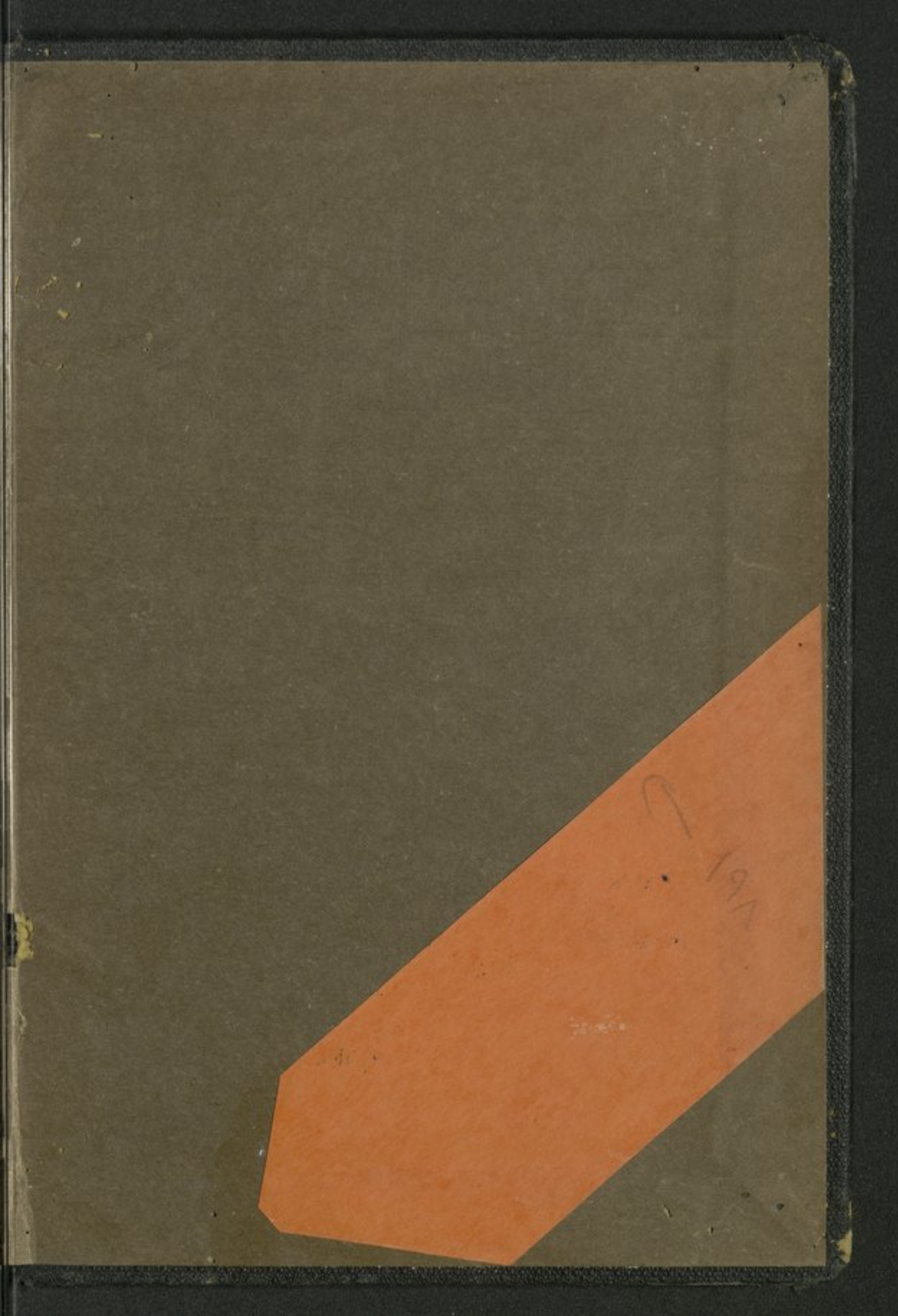
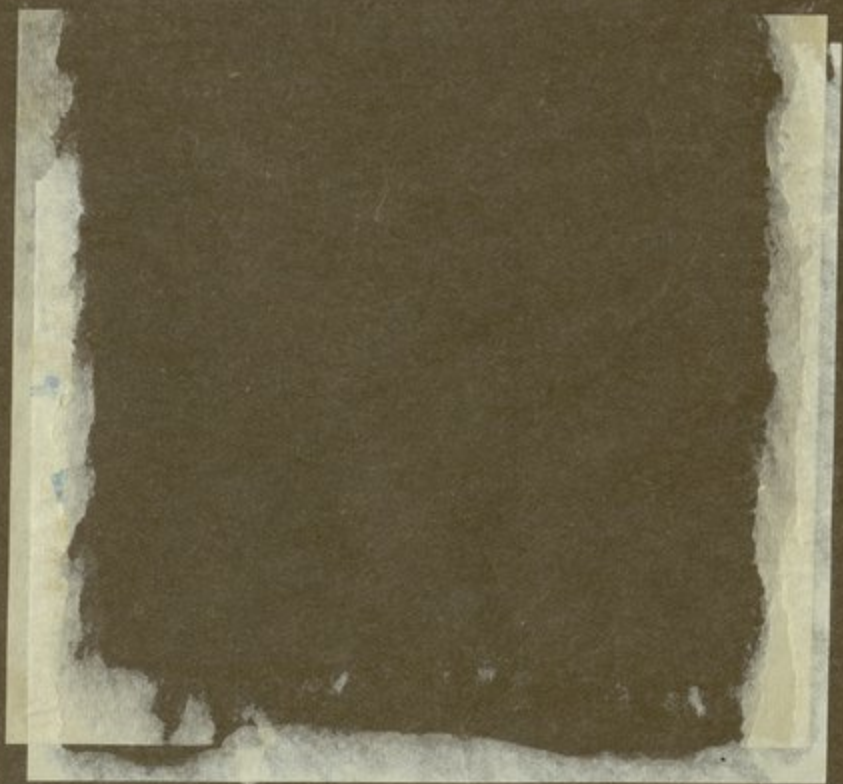


96
A
C







962.03
A96FA
C.2

٤٤٤١
ل٢

فَتْحُ مِصْرَ الْعِزَّةِ أَوْ

نَا بُولْيُون بُونَابَارْت فِي مِصْرَ

هدية من الأستاذ محمد
والقائم المحقق سماهك
تدبيره في كتابه
في سوريات
بذلنا
محمد
١٩٤٩

تأليف
١٩٤٩

احمد حافظ عوض

مناصب جريدة الكوكب الشرق

Oct. Sept. 1934

49873

مطبعة مصر شارع كوتة جيزة



فصل في معرفة...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا...

هذا كتاب في معرفة...

من تأليف...

تمت في...

هَذَا الْكِتَابُ

الى زوجهي العزيزة التي لو لا تقضيتها
وساعدتها ما امكن تأليف هذا الكتاب

عمرها وولدها



ناپوليون الاول — امپراطور

«Est-ce que nous écrivons l'histoire, nous ? Est-ce que nous essayons d'extraire d'un texte, d'un document la moindre parcelle de vie ou de vérité ? Nous publions les textes purement et simplement. Nous nous en tenons à la lettre. La lettre est seule appréciable et définie. L'esprit ne l'est pas ; les idées sont des fantaisies. Il faut être bien vain pour écrire l'histoire ; il faut avoir de l'imagination.» Balzac

« أفى استطاعتنا أن نكتب التاريخ ؟ وهل
قى استطاعتنا أن نستخلص أو نستخرج ، من
نص أو من وثيقة ، أقل أثر من روحها أو
حقيقتها ؟ إنما أمرنا أن نعتمد على صيغة النص
بساطتها ، ونتمسك بعبارتها . فالصيغة هنا
هى التي لها القيمة والوضوح . أما زوح التأليف
فليس بمحدود ، وأما الأفكار والمعاني فأنما
يسار فيها على الهوى ! . . لا بد أن تكون
عظيم الغرور وواسع الخيال حتى تقدم على
كتابة التاريخ ! »

بالزك

مقدمة الكتاب

لكل شيء تاريخ ، وللتاريخ تاريخ ، ولهذا الكتاب تاريخ !
وأول ما يجب ان يبدأ به ، بعد حمد الله وشكره على توفيقه وإلهامه ، هو
ذكر السبب الذي دعا إلى وضع هذا الكتاب أو تاريخ الفكرة فيه ، وكيف تقلبت
به الأحوال ، حتى ظهر على هذا الشكل والمنوال
وفي اعتقادي ان مصارحة الناس بالحقيقة عن فكرة وضع كتاب ، أو إتمام
عمل من الاعمال العامة التي تعيش بعد صاحبها ، أو يقدر لها الخلود بين النفائس
الأدبية ، والآثار القومية ، لما يساعد الأجيال الخالفة على تقدير الكتاب ، وتقدير
ظروف واضعه ، وتجلبو صدأ الحقيقة عن قيمة العمل ومنزلته ، في الفترة الزمنية التي
وضع فيها هيكله ، وتم فيها بناؤه . وتلك مهمة تاريخية أيضاً ، وكأنها تاريخ للتاريخ !

منذ عدة سنوات قام بنفسى خاطر أن أضع كتاباً في تاريخ مصر الأحدث ،
أى في القرن التاسع عشر . يبتدىء بالحملة الفرنسية ، وينتهى بعهد اللورد كرومر .
ولكن هذا الخاطر لم يتجسم ، ولم يأخذ شكلاً محدداً ، ولم تساعد الحياة
الصحفية القلقة ، التي قضت على بها المقادير ، على الانتفاع لعمل كهذا ، خصوصاً وأنا
أطمع ، فيما أطمع ، أن لا أضع كتاباً في التاريخ ، على الأسلوب الذي اعتاده كتاب
اللغة العربية ، من جمع وتنسيق ، بغير بحث ولا تدقيق ولا تحقيق ، مما يحتاج إلى
دراسة وانتفاع ، ومحاكاة للأسلوب الغربي الحديث في كتابة التاريخ والخوض
في عبايه

وكل ما كان له من الأثر في نفسى ، من جراء تلك الفكرة ، الرغبة في الاطلاع
على الكتب الأفرنجية التي وضعها المؤلفون والسياح عن تلك الفترة ، من العهد
الأول ، أى قبيل الحملة الفرنسية وخالها وبعدها . وبقيت هذه الرغبة تتنازعنى بشدة

مرة، وبلطف أخرى، ثم تعقبها فترة إعمال وترك، حينها تنلقفني أيدي المقادير من حياتي التي أشرت إليها كالمسحوق الذي لا يترك أثراً، ثم تنلقفني أيدي المقادير من
ومرت عدة سنوات ولم أجمع إرادتي مرة للجلوس على مكتب لوضع خطة
لتنفيذ ذلك العمل الذي ملت إليه . وهكذا بقيت فكرة وضع هذا التاريخ أشبه
بما وصفه اللورد روزبري - في كتابه عن نابوليون في سانت هيلين - « بشيطان
أدبي »^(١) متسلط على جسمي، أغاليه ويغالبي، وأطارده ويطاردني، حتى أراد الله
ولا راد لإرادته، أن يندلع لهيب الحرب الأوربية الكبرى في شهر أغسطس
سنة ١٩١٤

وكننت في ذلك الوقت أنولى رئاسة تحرير جريدة المؤيد بعد وفاة مؤسسها
المرحوم الشيخ علي يوسف ، وكان المؤيد لسان حال السراى الخديوية ، وصلتي
الشخصية والعمومية بسمو الخديو السابق عباس حلمي باشا معروفة ، ولها في
تاريخ مصر السيامي صحيفة ذات قيمة عظيمة لم يؤن بعد أوان نشرها . فكان
من مقتضى هذه العلاقة ، أن يصيبني رشاش من النكبة التي أصابته بفقدان عرشه
وملكه . ففقدت كل ما لدى ، وكل عمل أتكسب منه . فتركت تحرير المؤيد ،
ونار الحرب مشتعلة ، والظروف قاسية ، والريبة بين الناس فاشية ، وسيف السلطة
العسكرية وصلت على الرقب ، ولى زوج وأولاد صغار ، أخشى أن يحال بيني
وبينهم بالنفي أو الاعتقال ، فاخترت العزلة ، مع التلطف والاحتياط ، وانتقلت بأسرتي
الى الاسكندرية . ثم قضت بعد ذلك السلطة العسكرية الانجليزية بأن لا
أبرح ذلك الثغر ، وأن أبقى فيه تحت إشرافها وسيطرتها ، حتى تضع
الحرب أوزارها .

وحدت الله ، (الذى لا يحمد على مكروه سواه) ، على الخلاص من النفي أو
الأسر أو الاعتقال ، الى غير ذلك من ظروف الاضطهاد التي لا قاها المشتغلون
بالسياسة الوطنية ، وخصوصاً كل من كانت لهم علاقة مثل عيالاتي ، أو أقل منها
بكثير ، مع سمو عباس باشا حلمي الخديو السابق

ومع أنني كنت في بيتي ، مع زوجي وولدي في مدينة واسعة الأكناف ،
إلا أنني كنت مع هذا أقامى ألم الاعتقال والضغط على الحرية ، ورضوخي للاستبداد ،
واضطرابي الى الانقطاع عن الحياة العمومية ، الصحفية والسياسية
فتحرك في صدري ذلك «الشیطان الادبی» ، وذكرتني بكتاب تاریخ مصر
في القرن التاسع عشر، ووسوس الي بأن الاشتغال بتأليف هذا الكتاب مما يساعد
على قطع رقبة الفراغ بسيف العمل . فكان من أثر ذلك انني استعنت بالله وبدأت
في وضع الهيكل الذي يشاد عليه بناء الكتاب ، وقسمته في الهيكل الى أربعة
اجزاء بحيث يكون في كل جزء رجل أو رجلان كبيران . الاول عن الحملة الفرنسية،
حتى خروج الفرنسيين من مصر بيد الترك والانجليز ، وبطلا هذا الجزء نابليون
بوناپرت وكليبر . والثاني من خروج الفرنسيين الي وفاة محمد علي وبطلاه محمد علي
وابراهيم . والثالث من وفاة محمد علي الى الاحتلال الانجليزي ، ورجله اسماعيل .
والرابع من الاحتلال البريطاني الى الحرب الاوروبية وبطلاه عباس وكرومر
هكذا كان الهيكل ، وهكذا كانت النية !

وبدأت أبحث وأتقب، وأجمع وأرتب، ثم بدأت اكتب، فرأيت انه لا بد لي من
الحالة السياسية والاقتصادية والادبية والاجتماعية، التي كانت عليها مصر قبل قدوم الحملة
الفرنسية، من أن أضع مقدمة وافية. واستطردت في ذلك، وخصوصاً لما وقعت في يدي
كتب قيعة قديمة لم أكن قد قرأتها، وفيها معلومات غريبة، مثل كتاب (ثورة
على بك الكبير) المشار اليها في صحيفة (٦٠) من هذا الكتاب، وغيره من كتب
السياح مثل فولني، وبروس، وبراون، وسونيتي، وسافاري، ودينون. فطال
البحث حتى بلغ في المقدمة اربعا وستين صحيفة من هذه الطبعة بحرفها الصغير هذا
ثم رأيت من الضروري أن أضع للقارىء العربي مقدمة أخرى عن تاريخ
« فكرة الحملة الفرنسية » على مصر، واسبابها السياسية والدولية، وكيف تطورت
الفكرة في عصور مختلفة. وكان لا بد كذلك من فصل موجز واف عن نشأة وتاريخ

نابوليون الذي فتح مصر للعالم الاوربي ، وكان له في هذه الديار ، وفي العالم اجمع ،
شأن عظيم

ولا بد من بيان كيف اختمرت فكرة الحملة في رأسه ، وهل جاء مصر راغباً
أو مكرهاً ، واستغرق هذا البحث وذلك ما يقرب من مائة صحيفة .
كل ذلك قبل الدخول في الحملة الفرنسية

وتفتحت معي الابواب ، وتشعبت المسالك ، ووجدت نفسى أسبح في بحر خضم
من عويص المباحث ، ومختلف الكتب والرسائل ، والمذكرات الشخصية والعمومية
عن الحملة الفرنسية ، بحيث لم أصل - بعد مزاولة العمل خلال سنوات أربع ، تتخللها
فترات انقطاع واشتغال بشؤون الحياة - إلى نقطة يحسن الوقوف عندها ، إلا نقطة
مبارحة نابوليون أرض مصر ، وجاء ذلك في هذا المجلد الضخم بهذا الحرف الصغير :
وكل ذلك لم يزد على نصف الجزء الأول من هيكل الكتاب كما كنت قد
رسمته وصورته في مخيلتي . فوقفت ثم أخذت ابحت عن كتب لم اطلع عليها ،
ومذكرات لم تصل يدي إليها ، فاتسع المجال ، وانفسح ميدان الخيال .

والقت الحرب أوزارها وارتفع كابوس الاعتقال ، فطويت محائف الكراريس
والمسودات والتعليقات والمذكرات ، وهرعت إلى ميدان العمل في النهضة الوطنية ،
والحركة السياسية والصحافية ، على أمل ان اعود إلى الكتاب فأتمه واكمل ما فيه من
نقص في فرصة أخرى

ومرت على ذلك سنوات خمس والكتاب في محائف مبعثرة . وأوراق متناثرة ،
ومذكرات ومقتطفات متنوعة ، وتعليقات متوزعة . . . وقد مل شيطاني ، وهجر
دماغى ، لأنها امتلأت كخلية النحل ، بكثير من المشاكل التي تلهي عنه ، وكدت
أنسى ما كتبته حتى أهملته ، لولا حينئذ كان يتولاني من آن لآخر ، ولولا ان
زوجي القاضلة كانت تذكرني به في أوقات مختلفة ، لانها اشتركت فيه معي بروحها ،
وبمساعدهتها لي في تعريب بعض القطع من الفرنسية إلى العربية ، في الأيام التي قضيتها
معه في شبه منفى بالاسكندرية . ومع كل هذا فلم أقدم على مباشرة طبع الكتاب

أو تنقيحها، لأنني أعتقد أنه عمل ناقص، وأنه ليس في مقدوري ولا من رغبتي أن أنهه. وكنت أسوف، وأؤمل أن أقطع له مرة أخرى، ولكن الفرص لم تهباً، والظروف لم تساعد.

وحدث أنني مررت ذات مرة في صيف العام الماضي وتولاني بأس من الحياة وخيل لي أن المنية عدت قاب قوسين أو أدنى، فكان أشد ما يحزنني أنني قد أموت قبل أن أبرز للوجود هذا الذي عملته! فلما من الله بالشفاء نظرت إلى مسودات هذا الكتاب، وقلت في نفسي: قد أمرض ثانية وأموت ولا يتم هذا العمل ولا يطبع ولا ينشر، وهيهات أن يتولى إنسان تنقيحه وطبعه بعدى. وهكذا يزول من الوجود أثر من عمل أجهدت فيه نفسي، وانصرفت إليه بكل ما في روعي من الذة معنوية ورغبة صادقة أدبية ووطنية.

فخطر لي أن أبدأ بطبع ما كتبت، وأن أكتفي بما إليه وصلت، ولئن يظهر هذا العمل على غير ارادتي، ناقصاً — أو بعبارة أخرى، أقل مما كانت تصبو إليه نفسي، وتوجه إليه مطامعي، — فذلك أولى من أن لا يظهر مطلقاً، وأولى من أن تعمرو عليه العوادي فتذهب به كأن لم يكن، وكأن لم أقض في مزاولته عدة سنين من

زهرة الحياة! والاختيار لهذا الرأي بنفسي فاقدمت، وشرعت في طبع ما كتبت. وأنا أسف على أن الزمن لم يسمح لي بأن أصل بالكتاب إلى ما أردت، أو ما إليه طمحت!

ومع ذلك كانت تعاودني رغبة الإصلاح والاتقان فكنت أعمق في البحث والفحص، وكثيراً ما كنت أوقف المزمرة أسبوعاً وأسبوعين حتى أحقق بعض النقاط في بعض المصادر التي كتبت أعثر عليها في المكاتب. ثم أحوّر وأغتر، وأزبد شوايقص، وقد سببر لمعى القائلون « بمطبعة مصر » صبراً جميلاً يشكرون عليه، حتى

وأصلت إلى النتيجة التي يراها القارىء بين يديه. ولها هو الآن بين يدي قراء اللغة العربية وأترك لهم الحكم عليه وعلى قيمته لستحقه في المنزلة التأريخية والعمل الأدبي. وكيفما كان حكمهم الذي يصدرونه عليه، فإني الوثائق من شيء واحد وأهو أنهم سيترفون معي أنني وضعت أسلوباً جديداً

في كتابة التاريخ العربي ، وأنني رسمت خطة لمن يريد أن يقتني أثرها ويريد في تحسينها واتقانها ، وأنني بعبارة أوجز قد أزلت بعض الألقاض ، ودفعت قليلا من الأتربة المترامية في طريق من يريد السير في إتمام هذا العمل .
ويرى القارىء في صحيفة ١٥٥ و ١٥٦ من هذا الكتاب إشارة الى ما كابدته وقاسيته من صعوبة البحث ، ومن اظهار الأسف من أن الحكومة المصرية ، وكتاب اللغة العربية منذ زمن محمد علي ، لم يظهروا أقل عناية بوضع كتاب مفصل عن تاريخ الحملة الفرنسية ، من المصادر العديدة والمجلدات الضخمة الموضوعة عن هذه الفترة باللغة الفرنسية ، مع تحقيق كان أقرب سهولة في أيام محمد علي باشا وإبراهيم باشا مثلا ، منه في هذا الزمن بعد طول المدة وانقراض الذين عاشوا في تلك الأيام القريبة .
فأوجه نظر القارىء الى تلك الملاحظة

ومن هذا البيان يظهر للقارىء المفكر أنني في هذا الكتاب لم أقم إلا بنصف الجزء الأول من الأجزاء الأربعة التي وضعتها هيكلًا لكتاب تاريخ مصر في القرن التاسع عشر . فهل من يقدم على إتمام الأجزاء الباقية على هذا النمط أو أحسن منه ؟ أما أنا فلا أؤمل أن أوفق للزيادة على هذا الذي فعلت ، إلا أن يشاء الله غير ذلك

ولما لم يعد الكتاب تاريخًا كاملاً لمصر في القرن التاسع عشر ، كما أردت ، ولم يصبح تاريخًا كاملاً للحملة الفرنسية من بدئها الى نهايتها ، اخترت له اسمه الحالي (فتح مصر الحديث) لأن اليوم الذي وطئت فيه قدم نابوليون بوناپارت أرض مصر بحملته ، كان يوماً فاصلاً بين القديم والحديث ، وكان فتحاً لباب مصر ومسألها على مصر اعياه للتدخل الأوروبي . وقد قلت في هذا الصدد :

« كان ظهور السفن الفرنسية ، بمن تقل من جنود وضباط وقواد وعاماء ، وذخائر وبنادق ومدافع ، فاتحة عصر جديد لمصر ، بدأ بالاحتلال الفرنسي ، تحت قيادة أعظم القواد الحربيين الذين أظهرهم هذا الوجود ، ثم عقب النزاع بين أوروبا ، حول هذه البقعة المسماة وادي النيل . . ذلك النزاع الذي ما برح يظهر على

جميع الاشكال ، وغريب الأحوال ، من مطاردة الفرنسيين وإخراجهم ، إلى معاضدة المالك ، بانزال قوة انكليزية على الشواطئ المصرية ، ثم بمقاومة محمد علي ، وإيقافه عند حد لا يتعداه ، في مشروعاته ومطامعه ، ثم بالمعارضة في فتح قناة السويس ، إلى التدخل في أمور مصر المالية ، حتى كانت الثورة العربية ، والاحتلال الانكليزي ، والحماية الظاهرة ، والمقنعة . . . كل هذه الحوادث والمشاكل خلقتها وضع فرنسا قدمها في مصر ، فإنه من ذلك الحين ، أوجست انكترا خيفة من تعاضم تقوؤ أية دولة أوربية في وادى النيل ، أو تقوية أية سلطة محلية ، مما قد يكون عائقاً في تنفيذ سياستها القاضية بأن يكون طريقها إلى الهند في يدها — فكان لها القدرح المعلي في كل هاتيك الحوادث والمشاكل ، إلى ان استقر قدمها في مصر ، عقب الثورة العراقية . . . ومع ذلك فستبقى مصر سبيلاً لمشاكل أوروبا ومنازعاتها وحروبها ، حتى تنال استقلالها التام بطريقة تجعل الباب مفتوحاً ، والثقة في التساوى كاملة ، أو يحكم الله بأمر من عنده وهو خير الحاكمين »

* * *

لهذا سميت (فتح مصر الحديث) أى فتحها للنزاع الدولى ، والمدنية الأروبية ، والمستقبل السعيد لوادى النيل — من البحر الابيض المتوسط الى بحيرة فكتوريا نيانزا !

ولن يقف في سبيل الوصول الى هذه الغاية ، بهمة الجيل الجديد ، والقومية الحديثة ، والتقدم الى الامام أحد ، كائناً من يكون !
هذا هو اعتقادى في مستقبل مصر الكبرى ، أضعه أمام أبنائنا وأحفادنا مناراً يهتدى به ، وغاية تتوجه اليها النفوس والقلوب والعقول
والله سبحانه وتعالى يحقق للناس ما يتوجهون اليه باخلاص ومثابرة وعزم صادق
القاهرة في ١١ ديسمبر سنة ١٩٢٥
صمد حافظ عوض

مصر قبل الحملة الفرنسية

- ١ -

بمجل تاريخ الممالك - الممالك والدول الاسلامية - نشأتهم - طبقاتهم
في مصر - رقى الممالك البحرية - عمائرهم وتمدينهم - مصدر ثروتهم

قبل الدخول في الكلام على الحملة الفرنسية على مصر وأسبابها ، وكل ما يتعلق
بها مما هو موضوع هذا الكتاب ، نرى من الواجب علينا أن نستفتح بمقدمة
وافية عن الحالة التي كانت عليها مصر قبل تلك الحملة
فنقول : -

كانت الديار المصرية منذ منتصف القرن الثالث عشر ، الى نهاية القرن الثامن
عشر الميلادي ، أي الى يوم سقوطها في يد نابليون ، تحكمها وتتحكم في رقاب
أهلها ، طغمة الممالك من بقايا الطبقة الثانية منهم . ولكي نوفي التاريخ حقه يجب
علينا أن نشرح القارىء ، بل يجاز يليق بالمقام ، من هم الممالك ، وما هو أصل نشأتهم ،
وأسباب قوتهم ، وبقاء سطوتهم ، ونوضح بقدر الاستطاعة ، الدور الذي لعبوه ،
في تاريخ الشرق والاسلام ، الى يوم انقراضهم

يبتدىء تاريخ الممالك باقبال أو اخر خلفاء الفاطميين على شراء الممالك
الشبان بكثرة من قارة آسيا ، لاتخاذهم عبيداً وحراساً وبطانة . واستمرت هذه
الحال حتى زمن الدولة الايوبية . وقد استفاد بهم صلاح الدين أعظم الفوائد ، فانه
ألف من أولئك الممالك الأشداء الاقوياء جيوشاً قهر بها أوروبا في جميع الحروب
الصليبية . ولكن خلفاءه ضعفوا عن أن يستخدموهم كما استخدمهم صلاح الدين ،
حتى اذا ولى الحكم الملك الصالح ، أكثر من ابتياع الممالك وجعل منهم أمراء
دولته ، وخاصة بطانته ، فصار لهم من النفوذ ما جعلهم يتخذون لهم دوراً خاصة ، في

جهات منيعة تحكم على المدينة (في جزيرة الروضة بالنيل) ومن أجل ذلك لقبوا «بالمالك البحرية» ثم اشتد ساعدهم، وقوى جاههم، وفعالوا بالدولة الايوبية على ضفاف النيل، مثل ما فعل أشباههم، وأبناء نوعهم، في الدولة العباسية على ضفاف الدجلة، إذ انتهى الامر بهم الى قتل آخر ملوك الدولة الايوبية وهو السلطان «توران» المعظم في نفس الوقت الذي كان فيه لويس الحادى عشر، — الذى يلقبه كتاب الافرنج بالقدس لويس — يحاول بعد حبسه أن يعقد معهم اتفاقية سياسية فى عام ١٢٥٠ ميلادية

مثل المالك فى تاريخ الدول الاسلامية، والمالك الشرقية، دوراً مما جعل من الواجب على المؤرخين، أن يضعوا له بحثاً خاصاً، وتحقيقاً دقيقاً، ليظهر واما كان لملك الطغمة من الانر الطيب أو السى، وليشرحوا أيضاً ما اذا كان فى ظهورهم، وتقوية شأنهم، بل وفى ذكائهم ونشاطهم، وقوة بأسهم، فائدة للأمم الاسلامية، بحيث استطاعت أن ترد وقتاً ما بأولئك المالك غارات الامم المسيحية، من القرن الثالث عشر الى القرن التاسع عشر؛ أو هل كان ظهور أولئك المالك على مسرح السياسة الشرقية الاسلامية، سواء فى آسيا، أو شمال أفريقيا، — سبباً فى اضمحلال النهضة العربية الاسلامية الصحيحة، وقضاء على الحياة العلمية الفكرية، التى ابتدأت فى الازهار على شواطئ دجلة والفرات والنيل، فى عهد الدول الأموية والعباسية، والفاطمية، وامتدح من الدولة العباسية من الدول الصغيرة، كدول بنى بويه وحمدان وغيرهما

ان الجواب الصحيح على هذه الاسئلة يحتاج الى بحث مفصل، وتحليل دقيق، فى مؤلف خاص بهذا الموضوع، وهو ما لا يحتمله هذا الكتاب الذى وضع لغرض آخر، وزمن أحدث. ولكننى أغتم هذه الفرصة لألفت اليه نظر محبي المباحث التاريخية: وفى رأى أن الحكم فى هذا الباب مجازفة لا تصح، قبل عرض جميع الحوادث ونتائجها، وأسبابها، ومسبباتها، من وجوهها المختلفة.

على أن الذى يهمنى من بحثى هذا من الوجهة المصرية الوطنية القومية ، هو
أننى أميل الى رأى ، بأن الممالك وخصوصا الطبقة الثانية منهم ، — كانوا سبباً فى
بلاء هذه الديار ، وعذاب أهلها مدة طويلة من الزمان ، اذ صيروا وادى النيل ،
ميداناً للسلب والنهب والمظالم ، كما سترى ذلك مفصلاً فى باب



كلمة « مملوك » ، اسم مفعول من « ملك » ، وهو ظاهر المعنى لا يحتاج لايضاح
وقد ذكر المؤرخون أن منشأ الممالك فى جهات « قفجان » من شمالى آسيا ، وأنه
لما غزا المغول تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيزخان ، ساموا أهلها
الذل ، وفتكوا بهم فسكا ذريعاً ، حتى هاجر سكان الولايات القسبينية والقوقاسية
ديارهم ، فضعمت قبائلهم وتشتتت فى بلاد آسيا الصغرى . وكانت تجارة الرقيق
الأبيض والاسود فى شدة انتشارها ، فكان النخاسون يتناعون أحسن أبنائهم
وأجملهم وأقوامهم ، من أقاربهم أو آبائهم ، أو كانوا يختطفونهم فيبيعونهم لمن أرادوا
من امراء وأغنياء الديار السورية والعربية والمصرية ، فيشب الفتى وقد نسى قومه
وجنسيته ، واندمج فى سلك أمثاله الممالك تحت رعاية كبير منهم ، أو أمير من
امراء العرب أو غيرهم ، يقربونهم اليهم ، ويحبونهم لجمالهم وذكائهم وولائهم
فى خدمتهم ، فيرقونهم بعد أن يشتد ساعدهم فى بطانتهم ، وعند ذلك تتطلع
نفوسهم الى مراتب العز ومنازل الامارة والشرف بل الى الملك ذاته ، لأنهم
كانوا يعرفون أن أمثالهم من الممالك الأرقاء الذين ابتيعوا صغاراً ، وربوا فى أحضان
أسيادهم وملوكهم ، شبوا على الفروسية والاقدام ، ووصلوا الى أرقى مناصب
الملك والسيادة . ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم أن سلاطين الممالك — بعد
الدولة الأيوبية — من عهد الملك الظاهر بيبرس ، فالملك المنصور قلاوون . فالسلطان
حسن ، وبرقوق ، وبرس باى ، وقايت باى ، وجميع ملوك هذه الدولة وسلاطينها
لم يكونوا الا ممالك ، أو أبناء ممالك مثلهم . ولقد روى الاسحاقى فى تاريخه
رواية — وهى وان تكن من قبيل الاقاصيص التى لا يعتمد عليها المؤرخ ، الا أنها مثال

للتصورات العقلية ، والآمال النفسية ، التي كانت تدور بخلد المملوك وهو رقيق صغير . روى الاسحاق عن عبد الملك الاشرف قايت باى المحمودى ، أنه لما جلبه الخوجا (كذا) محمود الى مصر وكان معه رفيقه أحد المالك الذي جلب معه تحديداً مع الجمال « قائد الجمل » الذي يحملهما الى مصر في ليلة مقمرة ، فقالا لعل هذه الليلة هي ليله القدر التي يستجاب فيها الدعاء ، فليدع كل منا بما يحبه . فأما قايتباى فقال أنا أطلب من الله تعالى سلطنة مصر ، وقال الثانى وأنا أطلب من الله أن أكون أميراً كبيراً . أما الجمال فقال أما أنا فأطلب « حسن الخاتمة » فصار قايتباى سلطاناً وصاحبه أميراً ، فكأننا اذا اجتماعيقولان « فاز « الجمال » من بيننا !! » فانظر كيف كانت تحدث المملوك نفسه بالرقى الى مصاف الملوك !! فهل كان هذا رقاً واستعباداً ؟

لم يكن « الرق » الذي ينسبونه الى المالك الا كلمة لا معنى لها ، لأنهم لم يكونوا هم الارقاء ، بحق البيع والشراء ، بل كان الارقاء ، فى الواقع ونفس الأمر ، هم المصريون من جميع طبقاتهم !



يقسم المؤرخون الحديثون من كتاب الشرق تاريخ المالك فى مصر الى دولتين يسمون الاولى دولة « المالك البحرية » وقد سمو بهذا الاسم لأنهم فى مدة حكم الملك الصالح ، ابدنوا دوراً كبيراً ، ومعامل متينة ، عند الروضة حيث يتفرع نهر النيل الى فرعين ، ويسمى بالبحر الكبير ، فلقبوا لذلك بالمالك البحرية ، ومدتهم على هذا التقسيم من سنة ١٢٥٠ الى ١٣٨١ ميلادية ، ويسمون المالك الذين خلفوهم من أول السلطان برقوق من سنة ١٣٨١ الى سنة ١٥١٧ ، أى الى حين الفتح العثمانى ، بدولة المالك البرجية ، « نسبة الى الابراج » ، أو الشرا كسة « نسبة الى أصلهم » ولما كان الفتح العثمانى لم يقض على سلطة المالك ، بل زادها بعد ذلك عتواً وتجييراً ، كان الاولى — على رأى — أن يقسم تاريخ المالك فى الديار المصرية الى قسمين على النمط الآتى :

الاول من سنة ١٢٥٠ أى بعد انقراض الدولة الايوبية الى سنة ١٥١٧ وهو تاريخ الفتح العثماني

الثاني من ١٥١٧ الى ١٨١١ أى الى أن قضى « محمد على » على البقية الباقية منهم في منبجة المالك المشهورة بالقلعة

ولا عبرة بقولهم ان القسم الأول من الممالك البحرية كان من جنس غير جنس الممالك الشرا كسة (الذين يتندئون على حسب آراء المؤرخين الحديثين ، من تولية السلطان الظاهر برقوق الجركسى) لأن الممالك فى أول أمرهم فى أواخر الدولة العباسية ، الى منبجة القلعة ، لم يكونوا من جنس خاص ، ولا من أمة معلومة ، بل كانوا دائماً خليطاً ممن يباع ويشترى من الفتيان الحسان الأقوياء ، سواء أكانوا من شواطئ بحر قزوين ، وأواسط آسيا ، من تتر ومغول وشركس ، أم كانوا من بحرايجه من الأروام ، وجزر البحر الأبيض المتوسط . وهذا السلطان الظاهر « حوشقدم » ، من ممالك الطبقة الاولى ، يلقب بالرومى ، لأنه يونانى الأصل ، ويلقب بالناصرى ، ومع اسلامه ، كان له ولع بالعلوم والآداب اليونانية القديمة . وربما كان فيهم من أجناس مختلفة من الشعوب القائمة حول الادرياتيك ، أو من جزائر ايطاليا والبحر الأبيض على الاجمال .

ولولا أن الممالك كانوا فى القسم الثانى ، أتباعاً للدولة العثمانية ، ولو بالاسم ، وانهم لم يلقبوا أنفسهم بألقاب « الملك » « والسلطان » — اللهم الا أن يكون واحد منهم وهو على بك الكبير سنة (١٧٦٣ — ١٧٧٤) م . — لما كانت داع الى تقسيم مدتهم الى دورين ، ولا كتفيننا ، واكتفى المؤرخون بالقول بأن الممالك حكوا مصر من عام ١٢٥٠ الى حوالى ١٨١١ ، مع استثناء مدة الاحتلال الفرنسى ، وأول ظهور سلطة محمد على

* *

القسم الاول

كان ممالك القسم الاول من عام ١٢٥٠ الى الفتح العثماني ١٥١٧ أرقى أخلاقاً وأفضل سياسة ، وكان يظهر فيهم من وقت لآخر نخول سياسة ورجال عدل

ونظام ورفق بالرعية ، وكان مما يصلح شأنهم ، أن الورثة كانت توجد بينهم من وقت لآخر مما ثبت دعامة الملك ، ولم يدعها مطمعا لكل سفالك للدماء طامح للسلطة والامارة

امتاز ممالك هذه الطبقة بما تركوه في القاهرة وضواحيها من الآثار النفيسة ، والمساجد البديعة النادرة المثال ، وما أبقوه من العماير التي تدل على ذوق راق ورفاهية تضرب بها الأمثال

يقول العلامة (لاين بول) في كتابه المسمى « القاهرة »

« لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات التي لم تجمع في طبقة من الامراء في أى زمان أو مكان ، فبينما نعرف أنهم عصابة من الأفقيين ابتيعوا ببيع السلع ، ونشأوا أرقاء ، وربوا سفاكين للدماء ، ظالمين للعباد ، مخربين للبلاد ، نجد منهم ميلا غريباً للفنون ، يحق لأى ذى عرش ووصولان ، أن يفخر به على الأنداد والاقران ، ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى لباسهم ، وفراشهم ومسكنهم ، وعمائرهم ذوقاً سامياً ، ورفاهية بالغة ، يصعب على أوروبا الآن ، فى عصرها « الاستاتيقي » المحب للجمال والتأنق ، أن تدانهم فيه »

أنظر الى ما يوجد الآن فى القاهرة من المساجد الكبيرة التى تناطح ما ذنبا السحاب تجد أنها بنيت فى عصر ممالك الطبقة الاولى . . أنظر الى جوامع قلاوون ، والناصر ، والناصر بن قلاوون ، والسلطان حسن ، وبرقوق والمؤيد ، والاشرفية وقايتباى ، ثم انظر الى قباب قبور المماليك بالصحراء ، تر من جلال البناء ، وبديع العمارة ما لا يدانى وكل ما بنى بعد ذلك فى العصر الاخير من القرن التاسع عشر ، انما هو تقليد وتشبيه بهاتيك العماير ، التى تفخر بها القاهرة على مدن العالم

من أين للمماليك بتلك الثروة ؟

هنا لا يجد المؤرخ المحقق مناصاً من النظر الى الحالة الاقتصادية التى كانت عليها مصر فى تلك المدة ، لأن موارد مصر معروفة ، وهى فى كل عصر من حيث الثروة الزراعية ، والتى لا يوجد فى وادى النيل مصدر سواها . ولم تكن

تربة مصر في ذلك الحين كانت أخصب مما هي الآن ، بل لم تكن لحاصلاتها أسواق تباع فيها بأزيد مما تباع به اليوم . فمن أين كان للماليك ذلك اليسار وتلك الثروة الواسعة ، وتلك الاموال التي استطاعوا الانفاق منها على بناء هاتيك العائر ، وعلى ما كانوا ينفقونه على ترفهم ونعيمهم ، وشراء المالك والسراري — ولم يكن ثمن المملوك مما يستهان به ، فكثيراً ما ذكر المؤرخون أنهم كانوا يتعاون المملوك أو الجارية بألف أو ألوف من الدينارين . وقد جاء في بعض التواريخ أن السلطان سليمان لما فتح مصر ووضع نظام حكومتها — ذلك النظام الذي سشير اليه ، والذي ترك السلطة في يد المالك وأدى الى خراب هذه الديار — وأراد العودة الى بلاده نقل معه ألف حمل محملة ذهباً وفضة ، فضلاً عن أسلاب اخرى وهدايا ثمينة . ولم تكن في أرض مصر مناجم للذهب ، ولا مصادر أخرى للثروة غير محصول الزرع . وكان المزرع منها قليلاً ، والنيل يغمر أكثر بلادها فلا يستفاد به في زمن الفيضان . فمن أين كانت لمصر وللمالك كل هذه الثروة ؟

لم أجد بين المؤرخين الذين نقبت في كتبهم من عنى بهذه النقطة ووفاهها حقها من البحث العلمي والتاريخي مثل مستر « كامرون (١) » فانه وقف مثلما وقفنا عند حالة مصر الاقتصادية وسأل كما سألنا من أين كان يأتي المال ؟ ثم جاء بالجواب الشافي بعد بحث واستقراء في المصادر الانجليزية المختلفة من كتب وتقارير رسمية ، فقال ما خلاصته :

انه لما كان المالك أصحاب السلطة المطلقة في مصر ، وفي سوريا أيضاً فقد ، وقعت في قبضتهم جميع الموانئ وطرق القوافل التي توصل الى أوربامتاجر البلاد الهندية ، وغيرها من بلاد الشرق الاقصى ، بذلك تمكنوا من فرض الضرائب التي يريدونها على كل كمية من البضاعة الهندية التي تمر من طريق البحر الاحمر الى القاهرة ، ثم الى الاسكندرية ، وكذلك من طريق الخليج الفارسي الى البصرة ، وطريق القوافل منها فينساء ،

(1) Egypt in the Nineteenth Century by A. D. Cameron.

اسكندرونه لتنقل منها الى فينيسيا (البندقية) التي كانت واسطة لهم في ايصال المتاجر الشرقية الى أوروبا . وقد بقي هذا الاحتكار الاقتصادي ، المنتج للعالم ، في أيدي المماليك حتى اكتشف (فاسكودي جاما) البرتغالي ، طريق رأس الرجاء الصالح الى المياه الهندية — ولم يكن قد دار أحد حول أفريقيا بجزراً مثله . ولكي يصور القارىء لنفسه مقدار الثروة التي كانت تدخل في أيدي المماليك ، نضرب له مثلاً ، جاء به مستر كامرون ، كما هو .. قال :

« فلنفرض أن تاجراً من العرب ابتاع من البضائع الفارسية أو الهندية ، أصنافاً كالحرير والبهارات والنيلة ، مائتيه عشرة آلاف جنيه ، ثم أرسل هذه البضائع بجزراً الى البصرة من طريق الخليج الفارسي ، أو بجزراً الى السويس من طريق البحر الاحمر ، — وكان في الغالب يفضل ارسال تجارته عن طريق السويس فالقاهرة فالاسكندرية ، لأن البصرة ، وان كانت أقرب اليه برّاً ، ولكن طريق القوافل من البصرة الى حلب فاسكندرونه أبعد شقة ، وأصعب مشقة ، وأكثر تعرضاً للصوم ولهذا كانت طريق مصر عند التجار أضمن وأروج .

قدرنا بضاعة التاجر بنحو ١٠٠٠٠ جنيه وهذه البضاعة حين تفرغ من السفن في ميناء السويس تضرب عليها ضريبة لا تقل عن ٤٠٠٠ جنيه فيكون ثمنها على التاجر ١٤٠٠٠ جنيه ، وتقدر في أرض مصر بجزراً وبراً بعشرين الف ، وفي مرور هذه البضاعة في أرض مصر يضاعف ثمنها حتى تباع في الاسكندرية بنحو ثلاثين ألفاً (بما يدفع للمماليك الحكام من الضرائب المشروعة وغير المشروعة) لتاجر من تجار البندقية « فينيسيا » فلا يستطيع شحن هذه البضاعة في السفن لاوريا ، قبل أن يدفع مبلغ ٥٠٠٠ جنيه ضريبة الاصدار ، فيكون مجموع ما وصل — من ثمن البضاعة التي كلفت الاوربي ٣٥ الف جنيه — الى سلاطين المماليك وأمرائهم في أرض مصر ، ما يقرب من ١٠٠٠٠ جنيه أي نحو ربع ثمن البضاعة في تقديرها الأخير أوقية ثمنها الاساسي ، وقس على ذلك

وضرب المستر كامرون مثلاً آخر نقله عن كتاب اسمه « تقرير عن المحفوظات

القديمة لوزارة الهند» بقلم السير جورج بر دوود ما يأنى «ولامبالغة فيما ذكرنا فإنه جاء في التقرير المشار إليه أنه في سنة ١٦٢٠ صدرت الشركة الهندية الانسكلينزية (التي امتلكت الهند) ٢٠٠٠٠٠٠ رطلا من النيلة، ابتيع الرطل منها في مدينة «آجرا» (في شمال الهند) بمبلغ ١٤ بنس (خمسة قروش ونصف) وبيعت في لندره على حساب الرطل الواحد بخمسة شلنات (أى بخمسة وعشرين قرشا)»

ولاحظ أن هذا المثال المأخوذ من المصادر الرسمية كان في عام ١٦٢٠ بعد أن استبدل طريق البحر الأحمر، والخليج الفارسي، بالطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح، لأن اكتشاف هذا الطريق وقع في سنة ١٤٩٨ وقد قدر التقرير المشار إليه نفقات طريق مصر والشام بثلاثة أمثاله في الطريق البحري ولذلك يصح أن يقال أن ثمن الرطل النيلة كان يصل الى ١٥ شلنا بعد خمسة

ومما يجب ذكره في بيان اثر المالك من مراكز مصر، انه يضم الى هذه أن المسيحيين في مقابل زيارتهم للقدس الشريف، كانوا يدفعون مبالغ من المال لمن تكون له السيادة على فلسطين من المالك البحرية. فقد جاء في تاريخ الدولة العثمانية تأليف المرحوم محمد بك فريد «أن السلطان سليم لما فتح مصر وعاد الى أدرنه وصل اليه سفير من قبل مملكة اسبانيا ليكلمه في شأن حرية زيارة المسيحيين للقدس الذي كان قبلا تابعا لسلطة مصر، وتبعها في دخولها تحت ظل الدولة العلية — في مقابل دفع المبلغ الذي كان يدفع سنويا للمالك .»

ومن هذا يظهر للقارىء أن التيار الذهبى الذى كان يسيل بتجارة الهند والشرق كله الى شواطئ البحر الابيض المتوسط، سواء من طريق مصر وهو الاكثر، أو من طريق سوريا، كان يمر في أيدي المالك فيأخذون منه ما يشاؤون من ضرائب ثم هدايا، ثم رشاوى، وهذا غير السلب والنهب، وبذلك استطاع المالك في الدور الاول بناء كل هاتيك العمائر وشراء المالك والبذخ والانفاق .

وكان لهذا الحال الاقتصادية تأثير كبير على ادارة الاحكام في البلاد المصرية، فانثروة عادة تغطي العيوب، وتندراً المصائب، فكان المصريون من تجار وعمال

يستفيدون من تلك التجارة، الشرقية الغربية، بين بيع وشراء، وقيامها تستلزمه من نقل وتوزيع، ولذلك كان اليسار فاشياً بين المصريين، وكان المالك من جهة أخرى قانعين بما يفرضونه من الضرائب على المتاجر الأجنبية وما يدخل في خزائهم من المال بحيث لم يروا ضرورة لظلم الفلاحين، ومصادرة التجار المصريين، واستلاب مافي بيوت الناس من خير وبركة، كما اضطر أن يفعله خلفاؤهم المالك بعد الفتح العثماني، الذي حصل بعد اكتشاف طريق الرجاء الصالح وتحويل المتاجر الآسيوية بجرأاً إلى أوروبا، بزمن قصير جداً (الأول في ١٤٩٨ والثاني في ١٥١٧)

﴿ اكتشاف الوصول الى الهند بحرا وتأثيره على ثروة مصر ﴾

و - أثر اكتشاف طريق البحر حول أفريقية، على ثروة مصر تأثيراً كبيراً اضطر معه سلطان مصر في ذلك الحين، الى أن يبعث بعارة بحرية الى مياه الهند لمحاربة البرتغاليين، واتلاف سفنهم، لأن « فاسكو دي غاما » البرتغالي لما دار حول رأس الرجاء الصالح، ثم وصل الى الهند سنة ١٤٩٨، وعاد منها الى بلاده، عرض قومه (كما فعل قرينه كلومبوس بعد اكتشاف أمريكا) على امتلاك البلاد الهندية التي زارها، وفعلا احتلوا جزءاً كبيراً من الجهة الغربية من الهند ولا تزال لهم مستعمره برتغالية صغيرة للآن

قال جورجى زيدان: في سلطنة « قانصو » الغورى (من ١٥٠١ — ١٥١٦) مانصه « ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغورى عن أمام ما كان يقصده من البناء والتحسين (في جامعه ومدرسته في أول شارع الغورية) لأن البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند ائقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قانصو الغورى إلى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر » اه

بهذه العبارة الخفيفة مر المؤرخ جورجى زيدان على أكبر حادث في تاريخ « مصر الحديث » دون أن يقدر له قيمته، فأولا لم يذكر لنا كيف بعث الغورى بهذه

الحملة العظيمة برآ أم بجرأ... وقوله انقلوا على العلاقات التجارية، لا يدخل في ذهن القارئ نوراً يضيء له سلسلة الحوادث، وتأثير وجود البرتغاليين في الهند على ثروة مصر، بل وثروة الشرق كله، لأن الدولة العثمانية لم تدرك الخطر المحيق بأملأها في مصر وآسيا من استيلاء الأوربيين على البلاد الهندية، ولو أراد الله وأوتى رجال الدولة العثمانية سعة في المدارك السياسية، لفضلوا الاستيلاء على شواطئ الهند الغربية، على التوغل في أوروبا فكانوا بذلك يمنعون المتاجر الهندية من الذهاب الى أوروبا، قبل أن تمر ببلادهم، مصر أو سوريا، ثم كانوا ينشرون الدين الاسلامي في بقية البلاد الهندية، وكان الترك، بدلا من محاربتهم لجمهورية البندقية، واستيلائهم على جزر البحر الابيض— تلك الجزر التي لم تبق في يدهم طويلا، وكلفت من الاموال والرجال مالا يدخل تحت حصر — يتهمون مع فينيسيا على عدوهم وعدوها، وهو الاستعمار الأوربي في آسيا

ويرى الباحث من هذا أن سوء سياسة الدولة العثمانية كانت سبباً في الاضرار بمصلحة مصر وثروتها، كما كانت من بعد سبباً في تركها في أيدي ممالك الطبقة الثانية يسومون أهلها سوء العذاب، حتى صارت الى ما صارت اليه، عند قدوم الحملة الفرنسية تحت قيادة نابوليون بونابارت

والحق يقال ان جمهورية فينيسيا كانت أعرف بالخطر المحيق بثروتها و ثروة مصر من الاتراك، فانها هي التي حرضت السلطان العورى على ارسال تلك الحملة الى المياه الهندية، وهي التي أرسلت له بالاخشاب اللازمة لبناء السفن في البحر الاحمر، وكانت هذه الاخشاب تنقل على ظهور الجمال من الاسكندرية الى السويس ويتولى عمال مهرة من الفينيسيين إنشاء السفن، ويؤكد السير برودون في تقريره الذي سبقت الاشارة اليه، أن الفينيسيين اشتركوا بجميوش في الحملة المصرية البحرية. وذكر: أن ذلك الاسطول المصرى سافر من السويس والتقى بالاسطول البرتغالى على شواطئ بومباي وأن الاسطول المصرى قهر البرتغالى وحطم سفنه ومات قائده واسمه « لورانزو المائيدا » (Lorenzo da Al Maeyda) وهو ابن

حاكم الولايات البرتغالية في الهند الغربية وأخذ الهنود يقاومون البرتغاليين ،
ويقلبون لهم ظهر الحن ، فخاف البرتغاليون العاقبة وجمعوا أسطولا جديداً قهروا به
الأسطول المصرى الفينيسى ، في شهر فبراير سنة ١٥٠٩ على مقربة من جزيرة
ديو (Dio) ولا شك أن هذه المعركة البحرية كانت من المارك الفاصلة في
التاريخ ، اذ لو أتيح للمصريين الفوز الاخير ، لتضى على الاستعمار الأوربى في
الهند الى زمن طويل ، ولبقيت مصر ، وبلاد الدولة العثمانية ، تتمتعان بثمار التجارة
الهندية .

وعلى مثل هذه الحوادث الكبرى يمز مؤلفو تاريخ مصر ، الحديث ، مروراً
غير لائق بمقام التأليف .

وكانت نتيجة تحويل التجارة الاسيوية عن طريق مصر عظيمة في ادارة
البلاد ونظاماتها و ثروتها ، الى درجة أدت الى خراب مصر ، اذ بقى الممالك ،
وبقى بذخهم ، وبقي تعودهم على الترف والنعيم ، وقل الوارد من الخارج ، فتحولوا
الى امتصاص دماء المصريين حتى أوصلوهم الى ما يقرب من الفناء كما سيمر
على القارىء فيما يلى :

الفتح العثماني لمصر

بعد ثمانية أعوام مرت على تلك المعركة البحرية في المياه الهندية أقبل السلطان
سليم العثماني على مصر بجيش جرار وبعد وقائع ومعارك مع السلطان الغورى في
مرج دابق ، قرب حلب — وبعد معارك مع خلفه « طومان باى » بالقرب من
الخانكة — دخل القاهرة (في شهر يناير سنة ١٥١٧) عنوة ولاقت العاصمة من
جيوش العثمانيين الامرين ، اذ دار القتال في شوارعها وحرارتها ، وأمعنوا فيها
قتلا وسلباً ، ونهباً وحرقة ، حتى لقد بلغ عدد من قتل من جنود الممالك ، ومن
أهالى المدينة ، أكثر من خمسين ألفاً بشهادة مؤرخى الترك أنفسهم
ومن هنا يتبدى ، القسم الثانى لحكومة الممالك (١٥١٧ — ١٧٩٨) لأن

السلطان سليم لما افتتح مصر كان في امكانه القضاء المبرم ، على المماليك الجراكسة وغيرهم ، وكانت مصر استراحت من مظالمهم ، وتمكنت الدولة العثمانية من وضع نظام ادارى يجمع بين النفوذ العثمانى ، وبين تقدم الامة المصرية ، واستعمار هذه الديار على الطرق الحديثة . ولكنه على ما يظهر - من جميع أقوال مؤرخي هذه الفترة الثقات - خاف لبعده مصر عن مركز الحكومة العثمانية (ولم يكن ثمة سكك حديد ولا سفن بخارية) أن يستضعف أحد الولاة جانب المصريين ، وهم دائماً مستضعفون ، ثم ييسط نفوذه في البلاد ، ويستقل بها . وفي هذا الصدد يقول المرحوم على باشا مبارك ، في الجزء السابع من « خططه التوفيقية » ما خلاصته .

لما أخذ السلطان سليم مصر ورأى غالب حكامها من المماليك التي ورثوها عن ساداتهم رأى ان بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة ، وتطلبه للاستقلال . فجعل حكومة مصر منقسمة الى ثلاثة أقسام وجعل في كل قسم رئيساً ، وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة وهي كلمة وزير الديوان الكبير ، وجعله مركبا من الباشا الولى من قبله ، ومن بكوات السبع وجات وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان الى المجلس ، وحفظ البلاد ، وتوصيل الخراج الى القسطنطينية ، ومنع كل من الأعضاء عن العلو عن صاحبه ، وجعل لأعضاء المجلس مزية تقض أوامر الباشا بأسباب تبدو لهم وعزله ان رأوا ذلك ، وجعل حكام المديريات الأربع وعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج الخ ثم استورد فقال : وبهذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من ابقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتى سنة ، ثم أهملت تلك القوانين ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك في الأمور الخلة بالنظام فضعفت شوكة الدولة وهيبتها التي كانت لها على مصر واخذ البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية في الديار المصرية قال الامر والنهى لهم في الحكومة ، وصارت سلطة الدولة في مصر صورية غير حقيقية - ولو كانت الدولة العلية تنهت لهذا الامر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ما وضعها السلطان ، ولكنها غفلت عن هذا الامر كما

غفلت عن أمور كثيرة ، ومن ذلك لحق الاهالى الذل والاهانة وهاجر كثير منهم الى الديار الشامية والحجازية وغيرها ، وخربت البلاد وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين ، وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان التي عليها مدار الخصب وصار للبكوات الكلمة النافذة وانفردوا بالتصرف . اه

وقد أراد المرحوم على باشا مبارك بقوله (منع بيع الرقيق) هو شراء المماليك وتجنيدهم بواسطتهم أسيادهم الذين بقى لهم النفوذ المطلق في الديار المصرية على الرغم من توالى الولاة الذين كانوا يلقبون بالباشوات من الدولة العلية . ولخوف الحكومة العثمانية من ولايتها ، ولرغبتها دائماً في استرضاء المماليك ، لكيلا يمنعوا الخراج عنها - كانت لا تمكاد تبعث بوال من عندها حتى تعزله وتعين بدله ، وحتى لقد بلغ عدد ولايتها منذ الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي - أى من ١٥١٧ الى ١٧٩٨ ، أى نحو ٢٨٠ سنة - أكثر من مائة وال ، قل من أقلم منهم أكثر من عامين ، وأكثر من بدل كل عام ، ولقد كان بعض أولئك الولاة ، كما أثبت المؤرخون ، من أهل الكفاءة والاخلاص ، وذوى الرغبة فى اصلاح ما اختل من شئون هذه البلاد ، فلا يكاد يشعر المماليك برغبته فى الضرب على أيديهم ، وكف مظالمهم ، حتى يقرروا عزله ، كما ترك لهم هذا الحق فى النظام الذى وضعته الدولة لهم كما تقدم . فكان الوالى بمقتضى هذه الظروف ، يوجه همته الى ارضاء المماليك والتقرب منهم ، وأخذ ما يستطيع أخذه من الاموال والطرف ، ليعود الى الاستانة مملوء الوفاض بادى الثراء .

وعلى الرغم من حيطة الدولة ورغبتها فى أن لا يستبد أحد من المماليك بالسلطة فى الديار المصرية ، ومع ما كانت تبدله من الوسائل للتفريق بينهم وغرض بندور الاحقاد فى صدورهم ، فانهم كانوا فى الواقع ونفس الامر مستبدين بحكومة البلاد وطلما ما اطلوا الدولة فى ارسال الخراج ، بدعوى الحاجة اليه فى اقامة الجسور أو حفر الترع وهم لم يفعلوا شيئاً من هذا ، أو بحجة قلة الفيضان وعجز المحصول وتأخر الاهالى عن دفع الضرائب ، كما أن ذلك لم يمنع من اغتصاب الملك مراراً من الباشا الوالى وطرده

من الديار المصرية، وبلغ الامر في منتصف القرن الثامن عشر — أى عام ١٧٤٦ — أن قام المدعو ابراهيم بك القازضلى، كخيا الانكشارية (ميرالاي وجاق أى فرقة الانكشارية) واتحد مع اسماعيل رضوان كخيا العزب، وقادوا الاحزاب الاخرى حتى استطاعا القضاء على عثمان بك الذى كان وقتئذ زعيم المماليك — أى شيخ البلد — وصارت مشيخة البلد لابراهيم بك المذكور فصادر ممتلكات كثيرين من الاغنياء فى القاهرة، ووضع يده على جميع محصولات البلاد والكمارك والقرى والمخازن، ولما عينت الدولة والياً جديداً لمصر عامه ابراهيم بك بالاحتقار فأراد الباشا الوالى التفتك به فلم يتيسر له ذلك. ثم لما ولى وال آخر غير ذلك وكان اسمه «راغب محمد» اتفق مع ابراهيم بك وحزبه مدة من الزمن، فلم يوافق ذلك سياسة الدولة فسعت للايقاع بين واليها وبين البكوات، فبعثت له بالوامر القاضية عليه ببادتهم، فحاول ذلك ولكنه فشل، فلما عرف ابراهيم بك بمقاصده عزله

وكان من مماليك ابراهيم بك المذكور (وكانوا يبلغون الالفين عدا) قتي يدعى (على) اشتهر بالفروسية والاقدام، فرقاه سيده ابراهيم بك الى رتبة البكوية. وكان لهذا المملوك شأن كبير فى تاريخ مصر، لانه خرج على الدولة لما وصل بدسائسه الى مشيخة البلد، ثم أراد أن يستقل بملك مصر فتم له ما أراد، وفوق ما أراد

ذلك انه فى سنة ١٧٦٣ ميلادية تمكن على بك هذا من أن يكون كبير المماليك، ولقب بشيخ البلد، ولكنه لم يصل الى هذه الدرجة، الا بعد منازعات وحروب مع أقرانه، ومنافسة مع المماليك أنداده، أدت الى تخريب البلاد، والاساءة الى العباد، الى درجة أخرجت الشيخ الحفناوى أحد علماء الجامع الازهر، (على ما بهم من جبن وفزع من المماليك) فقال لهم، كما روى الجبرتي، «لقد خربتكم الاقاليم والبلاد، وكل ساعة خصام وحروب مع على بك».

ومع ذلك بقى النزاع بين على بك وأقرانه البكوات، حتى أجبروه على

الفرار الى بلاد اليمن ، ولكنه عاد باستدعاء أنصاره في عام ١١٨٠ هجرية - ١٧٦٦ ميلادية ، وحين استقرت قدمه في القاهرة ، قتل أربعة من البكوات في ليلة واحدة ، ونفى أربعة آخرين . وكان من مماليكه ابراهيم بك الذى بقى حتى الحملة الفرنسية ، وعاش حتى بعد منبجة محمد على في القلعة . ومن مماليكه أيضاً أحمد بك الجزائر المشهور الذى حارب نابليون فى عكا وصدده عنها . ومن مماليكه كذلك محمد بك أبو الذهب الذى غدر به وكان سبب القضاء على آماله ومطامعه . ومنهم مراد بك المشهور فى الحملة الفرنسية

ولما خلا الجو لعلى بك ، أخذ فى مناهضة نفوذ الدولة العثمانية ، فشرع فى عزل وابعاد جميع مستخدمى الملكية والجهادية ، ورؤساء الوجاقات ، وابداهم بمن هم على دعوته . وسعى فى تقليل العساكر العثمانية ، واكثر المالك من دعاته ، وعمل ما لم تعمله الدولة حين استيلائها على مصر ، بان منع البكوات الذين كان يخشى من تغيرهم عليه ، من أن يقتنى أحدهم أكثر من مملوك واحد أو مملوكين . ولم يحفل بسلطة الوالى ونفاه من مصر ، فلما شعرت الدولة بمقاصده ، حاولت القضاء عليه ، ففشلت فى مساعدتها ، ولما علم بمقاصد الدولة نحوه ، فعل كما فعل (محمد على) بعده ، فأعلن استقلال مصر وطرده الوالى الجديد ، واتحد مع الشيخ ظاهر أمير عكا ، منتهزاً فرصة اشتغال الدولة العثمانية بمحاربة روسيا ، وعلى الرغم من النزاع الذى كان بين زعماء مماليكه «أى أحمد بك الجزائر ، ومحمد بك أبو الذهب» فإنه توصل بدهائه وحزمه ، الى بسط نفوذه على جزيرة العرب ، واستولى على جده وعين عليها والياً من مماليكه ، اسمه حسن بك ولقبه بالجدوى نسبة الى جده (وكان لهذا الرجل شأن فى حوادث مصر مع الفرنسيس ، سيأتى دورها فى هذا الكتاب) ، واستدعى اليه «روسقى» المشهور فى الحوادث الفرنسية (وكان هذا الاخير تاجراً صغيراً من أهالى البندقية وبقى فى مصر من

ذلك الحين ، الى أيام الحملة الفرنسية (١) وكلفه بتنظيم التجارة الخارجية والمحابر الدولية ، ونصح اليه روسي بأخذ جدة مركزاً للتجارة مع الهند ولم يكتب على بك بهذا بل أعلن الحرب على الدولة العثمانية ، وحاربها في اليمن والشام ، حتى امتد نفوذه في جميع شواطئ البحر الأحمر وبحر القلزم وبسط رواق سلطته على الحجاز ومكة المشرفة ، وعزل شريفها ، وأقام مقامه ابن عمه الذي لقبه « بسطان مصر وخالق البحرين » وأمر بأن يخطب باسمه في المساجد وضرب النقود (٢) باسمه في القاهرة

(١) روسي هذا اسمه كارلو روسي (Carlo Rossetti) أصله تاجر صغير في فينيسيا . وحين كان براون (Browne) الرحالة الانجليزي بالديار المصرية في زمن مراد بك حصل روسي المذكور على لقب أو وظيفة فتصل جنرال لامبراطور ألمانيا . ومع ذلك فقد كان موظفاً عند مراد بك اذ عينه وكيلا أو مأموراً لجهة الطرانة لتحصيل الضرائب المفروضة على الاهالي (هذه رواية براون في سنة ١٧٩٢ — أي قبل الحملة الفرنسية بست سنوات فقط) — وذكر براون ان روسي حصل على امتياز من مراد بك يتحول له احتكار النظرون الذي كان يطلب في ذلك الزمن الى مرسييا و فينيسيا وليفورتيا . ولكن روسي لم ينجح في استثمار ذلك الامتياز لاختلال الامن . واضطراب الاحوال . ومع ذلك فقد أرسل روسي ابن أخ له يدعى السيوز فيراري (Sr. Ferrari) الى مديرية البحيرة وجعل اقامته في بلدة الطرانة وقد رآه براون في تلك البلدة ونزل عليه ضيفاً كما ذكر ذلك براون في كتابه . وكان عند فيراري حرس من جنود سلاقونية وصفهم (براون) في رحلته الاسماة (سياحه في أفريقيا ومصر وسورية من سنة ١٧٩٢ — ١٧٩٨ ومطبوع في لندن سنة ١٧٩٩ وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية مهداة من شخص اسمه عثمان افندي سنة ١٨٢٥

(٢) يوجد في دار الكتب المصرية كتاب باللغة الانجليزية مطبوع في سنة ١٧٨٤ تأليف ستافرو لاسنجيان الرومي عنوانه (ثورة على بك) . وفي هذا الكتاب شرح مسهب لحياة على بك الكبير بقلم المؤلف الذي عرفه وعاشره واشتغل معه ، ولولا خوف الاطلة فيما ليس من غرض هذا الكتاب لتقلت للقارئ شيئاً كثيراً من هذا السفر القيم . ولكني أرى من الفائدة العلمية والتاريخية نقل البيانات الآتية عن النقود الذهبية في زمن المماليك لنتخذ ذلك البيان قاعدة في المعلومات التاريخية في هذا الكتاب . قال :

كانت النقود الذهبية في زمن على بك على ثلاثة أصناف

١ — المحبوب — ٢ الزنجيرى — ٣ الفندقى .

والمحبوب يساوى بالعملة الانجليزية الحاضرة	١٠ ر ٥	بنس	٥	شلتن
الزنجيرى	»	»	٧	٧
الفندقى	»	»	٦	٩

وعقد له « روسي » المشار اليه، معاهدة سلمية مع الفينيسيين وعهد الى رجل
أرمني يدعى يعقوب، عقد معاهدة دفاعية هجومية مع روسيا، ثم سير حملة الى
الشام تحت قيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب فالتحق مع صديق مولاه الشيخ «ظاهر
العمر» صاحب عكا، واستولى على غزة والرملة و نابلس وبيت القدس ويافا وصيدا
وحاصر دمشق وافتتحها عنوة .

وليس غرضنا شرح تاريخ على بك فإن الغرض من هذه المقدمة هو بيان ما كانت
عليه أحوال مصر عند الحملة الفرنسية، وإنما أردنا، من ذكر قيام هذا المملوك
بمناوأة الدولة العثمانية، اظهار ان سياسة الدولة في مصر كانت عقيمة، وانها تركتها
العوبة في أيدي أولئك المماليك الآفاقين ، السفاكين للدماء ، الطامعين في
الاستزادة من الملك والسلطان . ويكفي في هذا المقام أن نقول في بتمية تاريخ على
بك (سلطان مصر و خاقان البحرين، كما كانوا يلقبونه) ان مملوكه محمد بك ابو
الذهب — (الذي لقيه (فولني) الرحالة الفرنسي في غارته على سوريا ووصف
جنوده المماليك وصفاً بليغاً في كتابه (١) وكنا نود أن نأتي عليه لولا خوف الاطالة—
أصغى لمساعي رجال الدولة العثمانية ، وصادف ماقلوه له هوى في نفسه فانقلب على
مولاه ، وولى نعمته ، وعاد بالجيش الذي افتتح به سوريا ليحارب سيده به ، وبعد
تقلبات يطول شرحها فر على بك الى الشام ، ثم عاد منها معضداً بالدولة الروسية
ولكنه فشل ، وقبض عليه محمد بك أبو الذهب ثم مات مسموماً بيده . وقد
روى الجبرتي : انه لما مات على بك أنعم محمد بك أبو الذهب على مراد بك

وكانت العملة الفضية كما يأتي:

قطعة البارة = ٣ البنس واسمها عند المصريين (مصرية) - ٥ باره وتسمى عند الترك
« بشلك » خمسية وجمعها خماسي - ١٠ باره واسمها روييه و ١٥ باره و ٢٠ باره وتسمى عند
الترك يارم قروش وعند المصريين نصف قرش و ٤٠ باره وتسمى القرش — وعلى هذا يكون
القرش المصري في ذلك الزمن مساوياً ٣٠ بنس اي نحو ١٢ قرشاً من العملة الحاضرة

(1) Voyage En Egypte et en Syrie pendant les années
1783-84-85 Par C. F. Volney 2. V.

الذى سيكون له معنا في الحملة الفرنسية شأن كبير ، بسريته « نفيسة المرادية » التي اشتهرت بالمسكارم والهمة . وسيأتي معنا ذكرها في أيام الفرنسيين وفي زمان محمد علي باشا أيضاً . أما محمد بك أبو الذهب فإنه أعاد مصر تحت سلطة الباب العالي ، وهذا يؤيد ما ذهب اليه المؤرخون من أن انقلابه على مولاه ، كان بدسيسة من الدولة واستقر هو في وظيفة شيخ البلد ، أى الحاكم المطلق فعلاً ، وأخذ يعيث في البلاد ظلاماً ، وجعل الضرائب ضعفين ، وأثقل كاهل الاهالي بالمغارم والمظالم ، والقتل والنهب والسلب ، وكان من المحتمل أن لو أستتب قدم على بك ، ولم يقدر به مملوكه ، أن يسير بالبلاد سيرة حسنة ، ويوطد فيها دعامة ملك أثبت من نظام ذلك التنازع بين المالك والدولة ، ولكن مصر دائماً مقضى عليها بمثل هذه الظروف السيئة

* *

مات محمد بك أبو الذهب بالحفي في الشام وقد ذهب اليها محارباً ومنتقماً من الشيخ ظاهر العمر وترك وراءه بحاراً من الدماء ، واشلاء من القتلى ، وخرائب من السلب والنهب ، فكان من مماليكه المقربين اليه ابراهيم بك ، ومراد بك ، اللذان كانا يحكمان الديار المصرية عند قدوم نابليون بونابرت بحملته التي هي موضوع هذا الكتاب .

* الحالة الادارية والحالة الاقتصادية لمصر قبل الحملة الفرنسية *

لما احتل الفرنسيون هذه الديار ، ونقبوا في آثارها ، وألفوا الكتب في أحوالها ، كتب بعضهم من رجال البعثة العلمية مباحث دقيقة في نظام حكومة المالك قبل احتلال الفرنسيين ، وعلى هذه المباحث نعتمد فيما نكتبه في هذا الباب ، لان ما كتبه المؤرخون باللغة العربية ، ممن شهدوا تلك الايام كالجبerty ، ونقولا الترك ، والشيخ الشرقوى ، لا يشفي الغليل ، والكثير منه خط وخبط لا يهتدى الباحث في ظلماته الى قبس نور يستضيء به في وضع مختصر عن نظام حكومة المالك في عهدها الاخير ، ولا في بيان الحال الاقتصادية

للبلاد . ولقد تعبت كثيراً في معرفة عدد سكان القطر في ذلك الحين لما وجدته من التناقض البعيد في الروايات . الا أنه بضم أقوال السياح وأقوال المؤرخين المتأخرين الى بعضها ، يصح الاستنتاج أن سكان القطر في ختام القرن الثامن عشر كانوا بين المليونين والثلاثة

وإنه من المفيد كثيراً معرفة عدد سكان القطر المصري ، قبل الفتح العثماني ومقارنته بعددهم الذي أشرنا اليه

كان النظام الاداري الذي وضعه السلطان سليم لمصر ، ونقحه وزاد عليه السلطان سليمان بعده ، يلخص فيما يلي :

أنشئ ديوان تحت رئاسة الباشا الوالي يحضر اجتماع كليهما وهو جالس وراء ستار ولا صوت له في أحدهما ، وما يقره الديوان ينفذه الباشا الذي يحدد تعيينه كل سنة .

وأما واجبات الديوان الاول فهي المفاوضة والاقرار على ما يتعلق بالامور الداخلية التي لا علاقة للدولة بها ، وأما أعضاؤه فهم أغوات الوجاقات (الاورط او الفرق العسكرية) الست ، ودفتر داربوها وروزنجيوها (يعني قومندانات الآليات ورئيس كتابها ومدير وحساباتها) ونواب من جميع فرق الجيش ، وأمير الحج ، والقاضي الاكبر ، وأعيان المشايخ ، والاشراف ، والباشا الحق في اصدار الاوامر بعقد جلساته . ولم يكن ذلك الا في الحوادث الهامة

وأما الديوان الصغير فيعقد يومياً في قصر الباشا وأعضاؤه هم كخيا الباشا (وكيله) والدفتر دار والاغا وكبار رجال المتفرقة ونائب من كل وجاق (فرقة) وينظر هذا الديوان في الاعمال ، وما تحتاج اليه البلاد من الامور

ورسم السلطان سليم بأن يكون مقر الوالي قلعة الجبل ، وأن لا تزيد مدة ولايته عن سنة واحدة ثم تعطى لغيره ، وزاد في نظام الجند فأنشأ وجاقا سابعاً من بقي من المالك الشرا كسة ، ورتب لكل وجاق ديوانا ينظر في شؤونه وكان مجموع الوجاقات (أي الحامية العسكرية) عشرين الفا

وجعل السلطان سليمان للبكوات المالك ، الذين أقامهم السلطان سليم ، امتيازات خاصة وأضاف إليهم ١٢ بيكا فوق العادة وهاك أسماء الموظفين الذين يتمخبون من البكوات المالك وهم السكخيا ، اونايب الباشا ، والقباطين الثلاثة ، وهم قومندانات نغور السويس ودمياط واسكندرية ، والدفتردار ، وأمير الحج ، وأمير الخزينة ، ومديرو المديرية الخمس ، وهي جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية .

وكانت وظيفة الدفتردار ضبط الحسابات ، وحفظ الدفاتر والسجلات ، ولا ينفذ أمر بيع عقار الا بعد توقيعه عليه ، اشارة الى تسجيله في دفتاره ، وأمير الحج يحمل الهدايا والصدقات التي كانت ترسل من السلطان سنويا ، الى الحرمين الشريفين . وأما أمير الخزينة فيحمل الجزية السنوية للأستانة ، من حاصلات مصر براً ، وكانت مديريات القليوبية والمنصورة والجزيرة والفيوم في عهدة كشاف (مديرين) لافرق بينهم وبين البكوات في النفوذ ، ولهم في كل مديرية من هذه المديرية ديوان خاص من الوجاقلية والشرعية

وكان هم الباب العالي منصرفا الى العناية بالسويس ودمياط واسكندرية ، لانها أبواب الغاتحين لمصر ، فكان يرسل حاميتها من الأستانة ، تحت قيادة ضباط أتراك ، ولا تحسب هذه الحاميات من جيش مصر ، وان كانت نفقتها على الخزينة المصرية .

وقرر السلطان سليمان بأنه المالك الحر لجميع أرض مصر ، فلذلك كان يوزعها اقطاعات على الملتزمين (على نظام الاقطاعات في أوربا في القرون الوسطى) والفلاحون هم الذين كانوا يقومون بزراعة الارض كانوا مجبورين على العمل فيها ، دون أن يكون لهم حق التصرف بالبيع أو بالشراء ولا يرث أبناؤهم الا حق الخدمة فيها وتنتقل الارض بالميراث لابناء الملتزمين .

وأذا مات الملتزم من غير وارث ، تعود الأرض للسلطان مالكا فتعطى للملتزم جديد ، وكان على كل الملتزمين والفلاحين ضرائب أو خراج يدفعونه إما

تقدأوأما عيناً وكان لايجل لاحد الفلاحين ترك مافي يده من الارض ، أو التخلي عن تعهدھا بالحرث والزرع ، بل كان يجبر على ذلك ويجلد بالسياط أو يقوم بدفع ماعليها من الخراج الى أولئك الملتزمين . ولم يكف هذا النظام العسكري الذي لم يدع للمصريين ظلاً من معنى الوجود، حتى تطاولت مطامع الاتراك الى سلب القضاء الشرعي من يد علماء المصريين۔ ذلك القضاء الذي أبقى لهم شيء من النفوذ الديني في الاحكام والموارث والقضاء ، فأصدر السلطان سليمان (سنة ٩٢٨ هـ) أمره بابطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف في القضاء بديار مصر ، وتسليم جميع الاحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم (أى الترك) بحيث لايصح لأحد أن يوقف وقفاً ، أو يعقد عقداً ، أو يكتب وصية أو اجازة ، أو حجة ، أو غير ذلك من الامور الشرعية ، حتى تعرض على قاضي العسكر الذي يعين من الاستانة .

وروى المؤرخون أن أول قاضي من الترك عينه السلطان سليمان كان اسمه « سيدى جلبي » وهذا عين له وكلاء قضاة للمذاهب المختلفة من الترك أيضاً ، وجعل لكل قاض منهم نائباً من المصريين وأحدث هذا القاضي من أساليب امتصاص دماء الأمة ضريبة على التركات فجعل على كل تركة الخمس منها لبيت المال مع وجود الورثة من الذكور والأناث ، ولا ندرى بأى حق ، ولا على أية قاعدة شرعية ، وضع هذه الضريبة الفادحة . وغريب أن علماء مصر ورجال الأزهر لم يعارضوا في ضريبة كهذه ، وبقى معمولاً بهذه البدعة الى الزمن الأخير من سلطة المالك فقد ذكرها الاسحاق في حوادث سنة ١٠٢٨ (أى بعد فرض تلك الضريبة بمائة عام تماماً : وقال « وهذا العام وقع الطعن والطاعون بمصر المحروسة وقرها ، ومكث نحو شهرين فاشتغل الناس بموتاهم ، وأقفل غالب الاسواق في مصر وحوائيتها ، ماعدا أسواق الاكفان فانها مفتوحة لیسلاً ونهاراً ، ومنع جعفر باشا (الوالى التركي) عامل الأموات من التعرض للموتى ، فصار الناس يدفنون موتاهم من غير اذن ، وحصل بذلك رحمة للعالمين . قال هذا المؤرخ « فياسبحان

الله!! يموت اليهودى ، وهو صاحب مائة الف ، فلا يتعرض له أحد من الظلمة ، ولا يسأل عما خلف واذا مات مسلم لم يدفن حتى يشاور عليه وتأتى الظلمة تخرجه من بيته ويختمون عليه (كندا فى الاصل) مع ان له اولادا (كندا) وأخوة وزوجة فالحكيم لله العلى الكبير . ألم يسمعوا قول العزيز الجبار « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نراً وسيصلون سعيراً » اه

هذه المنظمات الادارية والعقارية والقضائية بقيت مرعية الجانب مادام نفوذ الدولة قوياً ، ولكن لما استبد المالك بالامر انهار جدار هذه المنظمات التى لا تخرج عن كونها نظاماً عسكرياً لم تراعى فيه مصلحة البلاد ، ولا ترقية شؤونها الاقتصادية أو السياسية ، حتى ولا العمل على حفظها من التدهور الى هاوية الفقر المدقع ، فلم تقرر فى ذلك النظام خطة مالية لحفر الترعى وصيانة الجسور ، أو أى أمر يساعد على اصلاح الاراضى أو صيانتها ، وهى مصدر حياة سكان البلاد ، ومصدر خراج الدولة ، ومغرم المالك ، وما يلزمهم من الاموال للبدخ والترف ، والاتفاق على « بيوتهم » ومما ليكهم الذين بلغ عددهم — فى أواخر القرن الثامن عشر عند زيارة (فولنى) لمصر نحو ٨٥٠٠ مملوك من الكبار الذين ينفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته وسراريه ، نحو الفين وخمسمائة جنيه فى العام ، على تقدير « فولنى » وهو شاهد عيان

وكان البكوات الكبار من المالك يتخلعون على أتباعهم فى أيام المواسم ، اخلع النفيسة المصنوعة فى فرنسا أو فينسيا ، ومن كشمير الهند وحرير دمشق ، وكانوا اذا اعتنقوا مملوكا ورقوه درجة يمنحونه منزلاً فاخراً مؤثناً بالرياش الفاخر ، ويزوجونه ، ويهبونه الجوارى الحسان ، من بيض وحبشان ، فاشته بذلك ساعدتهم ، وتخلص ظل الدولة شيئاً فشيئاً .

ثم كان التنافس بين زعماء المالك سبباً فى تخريب البلاد فاذا خاف أحدهم على نفسه من فتك الآخرين ، يغير بجماعته على مديرية من المديريات ، ويستولى على

خراجها ، ويشولى أخذ ضرائبها من الملتزمين والفلاحين ، وكثيرا ما يستحل المديرية أو المديريتين لنفسه ملكا حلالا ؛ فكيف كان من الممكن أن يستتب نظام ادارى أو عقارى ، فى أحوال فوضى واضطرابات كهذه مستمرة بلا انقطاع. وزاد الطين بلة ، على المصريين الفلاحين ، أن الملتزمين ، - وكان غالبهم من محاسب المالك وأنباعهم الذين ، اما بعجز منهم عن التطلع الى مقام البكوات ، واما لضعف فى أجسامهم يعوقهم عن مجازاة الأقران فى ميادين الفروسية ، واما لرغبة منهم فى البعد عن غمرات التحزبات ، وأخطار المنافسات - ، كانوا يفضلون الإقامة فى الريف بعد نيل الالتزامات الواسعة - ونقول زاد الطين بلة على الفلاحين أن أولئك الملتزمين مدوا أيديهم الى مافى أيدي الفلاحين من الاراضى وجعلوها وسايا (جمع وسية) لهم وحثموا على الفلاحين العمل فيها بغير أجر كما كانوا كذلك يكفون بالخدمة المجانية فى أراضى الأوقاف والحبوسات ، التى قل أن يصل شىء من ريعها للاتفاق على ماخصص له .

مثل هذا النظام لم يكن ليؤدى مطلقاً الا الى هوة الخراب والافلاس وطالما حاقت بمصر المجاعات الحادة كما تراه مفصلاً بأبلغ العبارات فى صحائف الجبرتى ، ولا يخفى أن الغزوات التى قلم بها على بك الكبير من سنة ١٧٦٦ - ١٧٧٥ كلفت مصر وأهلها أكثر من ستة وعشرين مليوناً من الجنيهات وقد ذكر « فولنى » أن على بك الكبير إبتاع خنجر امرصعاً بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٢٥٠٠٠ جنية ولقد وصل الحال بالفلاح المصرى انه لم يجد سكناً يقيم فيه فكان يلتحف العراء ، وذو اليسار منهم يعيشون فى أكواخ من الطين ولا يجد الواحد منهم ما يأكله سوى الخبز الحقيق المصنوع من الذرة والحلبة ، يتناوله بالبصل النيء أو الأعشاب التى يجمعها من جروف الترع والمجارى ، ويطبخها بغير لحم ولا ادم ، وكان رداؤه قطعة من القماش المصنوع بالنيلة ، وهى ميراث الفلاحين واليهما ينسبون (أصحاب الجلايب الزرقاء) وأما البندخ والترف ، والذهب والفضة ، والملابس المزركشة ، والغلائل الرقيقة ، وانخيل المسومة ، والسلاح المنمق بالجواهر الكريمة ، والدور الفسيحة ، والقصور

الفاخرة ، والنعيم على وجهه الاكمل ، فلم يخرج عن دور المالك وأتباعهم ، وذوى
المحسرية عليهم من لصوص الانسانية

ذكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار) ، وهو مؤرخ
هذه الفترة وجامع شتات أخبارها ، وله ميل للمالكي ، عند كلامه عن مراد بك ،
أنه جعل اقامته بقصر الجزيرة ، وزاد في بنائه وتنميته ، وبني تحته رصيفاً محكماً ،
وأشأ بداخله بستاناً عظيماً نقل اليه أصناف النخيل والأشجار والكروم ، واستخلص
غالب اقليم الجزيرة لنفسه شراء ومعارضة ، وغصباً ، وعمر قصر جزيرة الذهب
وجعل به بستاناً عظيماً ، وكذلك قصر (ترسا) وبستان (المجنون) وصار ينتقل
في تلك القصور والبساتين الخ . واليك وصف كاتب فرنسي لقصر مراد بك بعد
انخداله في واقعة امبابه ، وفراره للصعيد ، ودخول الفرنسيين في منزله ، قال « ولما
وصل المعسكر العام الى الجزيرة في الساعة التاسعة مساءً نزلنا دار مراد بك فلم نجد
فيها انساناً ، ولم يكن هذا القصر يشابه في حجارته ، وتوزيع طرقاته ، قصور أوروبا ،
ولسكننا وجدنا فيه مما تركه رجال مراد بك ، ولم يحفلوا بنقله ، فراشاً فاخراً ، وحرائر
موشاة الأطراف بالذهب والفضة ، وأشياء من مفاخر الصناعة الاوربية الخومثل
هذا الوصف بالنص ورد في كتاب (فيفان دينون) (١) الذي قدم القاهرة آتياً
من رشيد بعد مدة من سقوط القاهرة في أيدي الفرنسيين . وروى كتاب الحملة
الفرنسية أن الجنود الفرنسيين كانوا يجدون في ملابس كل واحد من المالك
الصرعى في ميدان القتال (واقعة امبابه) الا يقل عن نحو مائتين أو مائتين
وخمسين قطعة من الذهب ، عدا ما تقدر به ملابس الواحد منهم وطيلسانه وسلاحه
وسراج جواده ، من المبالغ الطائلة

(1) Vivant Denon - Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant la campagne du General Bonaparte - Paris 1803.

تجارة مصر قبل الحملة الفرنسية

لم يكن من الممكن مع حكومة لحكومة المماليك، أن تنمو التجارة ، أو تنسج
المعاملات الداخلية والخارجية ، وقد سبق لنا أن شرحنا ، في هذه المقدمة أن
مصر لم تعد بعد طريق التجارة الشرقية القادمة من موافى آسيا الى أوروبا ، بعد أن
اكتشف طريق الرجاء الصالح . ولو كانت على ضفاف النيل حكومة عادلة ، لفضل
التجار ارسال متاجرهم عن طريق البحر الأحمر ، ونقلها من السويس الى الاسكندرية
بدلاً من تعرضها لاختار البحار العظمى حول أفريقيا، وراسع المحيط الاطلاطيقى .
(وسنزيد هذه النقطة ايضاً عند الكلام على تجارة الهند) .، ولو أن الحكومة العثمانية ،
بعد فتح مصر ، فكرت في صالح نمو التجارة ، وقدرت خسارة مستعمرتها
الجديدة ، من اكتشاف طريق الرجاء الصالح ، خصوصاً وقد حاربت بأساطيلها
البرتغال الذين كانوا يهددون تجارة مصر ، كما سبق لنا بيانه ، نقول لو أن الحكومة
العثمانية فكرت في هذا الامر ، واعادت حفر خليج أمير المؤمنين (الذى احتفره
عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب لنقل المؤونة الى الحجاز ، والذى
أمر بردهه ، في سنة ١٣٤ هجرية ، الخليفة المنصور أبى جعفر ثنى الخلفاء العباسيين
لكي يمنع وصول الامداد الى العلويين الذين طالبوا بالخلافة فى المدينة المنورة)
لسهلت للتجارة النقل بمرأ من الهند الى أوروبا ، عن طريق مصر ولكنهم لم يفعلوا
هذا ، ولم يتمكنوا من نشر سيادتهم البحرية فى المياه الهندية ، وزد على ذلك أن
مظالم المماليك وتعدبهم على التجار الاوربيين الذين كانوا يأتون لشراء حاصلات
مصر ، وما يصل اليها من الممالك الشرقية الآسيوية بطريق القوافل ، كانت من
أكبر الضربات على التجارة المصرية ولقد انحط مقام الاسكندرية حتى لم يبق
فيها من السكان الاثمانية آلاف (١) وزاد الطين بلة فيها أن الحكومة العثمانية

(١) يقدر مستر براون فى كتاب رحلته فى مصر سنة ١٧٩٢ — ١٧٩٨ عدد

احتكرت لنفسها الجزء القديم من الميناء وهو الجزء الذي يصلح لرسو السفن فكانت السفن الاجنبية القادمة بالمتاجرة والشراء مضطرة أن ترسو خارج الميناء الجديدة معرضة للزواجع والزعازع ، ورى مؤرخو الافرنج (في سنة ١٧٦٦) انه بينما كان على بك الكبير يحارب الدولة هبت ريح عاتية أغرقت اثنين وأربعين سفينة كانت راسية في ميناء اسكندرية، ولم تكن الاسكندرية متصلة بالنيل بقناة تنقل لها الماء الحلو ، وكانت هناك قناة مرسومة في الخرائط الفرنسية وهي التربة المسماة بالمحمودية، نسبة الى السلطان محمود، ولكن ما كانت توصل المياه الا في زمن الفيضان فقط ، فكان اعتماد سكانها على مياه الامطار يحفظونها في الصهاريج

° °

وحاول جماعة من تجار الانكايز تسيير القوافل بين السويس والقاهرة ونقل المتاجر الهندية الى عاصمة القطر ، ثم نقلها بواسطة النيل ، الى دمياط أو رشيد ، ولكن مظالم المالك ، وتمدى العربان على القوافل ، وأوقف تلك المشروعات التي كانت تساعد على نمو التجارة المصرية . وليست هذه الاقوال لكاتب أوربيين حتى يتهموا بالتعصب لقومهم ، فان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي يقول في ترجمة مراد بك « فأحدث المترجم ديواناً خاصاً بشعر رشيد على الغلال التي تحمل الى بلاد الافرنج وسموه ديوان البدعة ، واذن يبيع الغلال لمن يحملها الى بلاد الافرنج وغيرها ، وجعل على كل أردب ديناراً خلاف البراني (يعني الرشوة والمغارم) ، والتزم بذلك رجل من أعوانه الموصوفين بالجور وسكن برشيد ، وبقيت له بها وجاعة ، وكلمة نافذة ، فجمع من ذلك أموالاً وإيراداً عظيماً ، وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيين وطمعهم في الاقليم المصري ، بعد ما أضيف الى ذلك من أخذ أموالهم ونهب تجارتهم وبضاعتهم ، من غير ثمن ، واقتدى به أمراؤه (أمراء مراد بك)

سكان الاسكندرية في ذلك الزمن نحو عشرين ألفاً من المصريين والاجانب ، أما تقديري هذا فمصدره كتب الفرنسيين عند الحملة ، والتقديران غير مونتوق بصحتها تماماً لان الاحصاء كان متعذراً . وسواء كان سكان الاسكندرية في ذلك العهد عشرة أو عشرين . فما لا نزاع فيه ان هذا قد كان نهاية الاحتطاط لمدينة كانت عروس الشرق في زمن اليونان والرومان وفي أيام الدول العربية

وتناظر وافي ذلك وفعل كل منهم ما وصلت اليه همته واستخرجته فظنته « وقال عنه أيضاً: » واختص بالسيد محمد كريم السكندري ورفع شأنه بين أقرانه فهبد له الامور بالنظر وأجرى أحكامه به، وفتح له باب المصادرات والغرامات ودله على مخبئات الامور، وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الافرنج، حتى تجسست اعداوة بين المصريين والفرنسيين الخ « وقال في ترجمة السيد محمد كريم المذكور « وقلده مراد بك أمر الديوان والجارك بالنظر فزاد في المكوسات ومصادرات التجار، خصوصاً الافرنج »

ومن رأى «جودت باشا» في تاريخه أن الذي دعا الفرنسيين للحملة على مصر هو ما أنه المعلم نقولا النصراني الذي جعله حسن باشا قبودان رئيساً للقونجية (البحارة) في الترسانة التي شادها هذا بالجيزة لانشاء السفن، فانه بعد أن اشتد نفوذه وعظم شأنه، أ أكثر من التعدي على سفن الاسلام والافرنج معاً. (١)

وكانت نتيجة ذلك كله أن مصر تد هورت الى هوة الخراب الاقتصادي الذي تجرعت منه الامرين، وقلبي منه أهلها الجوع والعراء والمظالم، نحو ثلاثة قرون من الزمان حتى اضمحل شأنها، وفقدت منزلتها التي كانت لها في العالم القديم والحديث، وحتى هجرها أهلها، وهي البلاد التي لا يجب أهلها هجرها، ولا غرابة أن تتضاءل مصر في ثلاثمائة عام حتى تعود خيالاً لما كانت عليه من قبل، وحتى ينقص عدد سكانها من نحو ١٥ مليوناً الى نحو مليونين ونصف

ولسكن بالرغم عن كل هذا فانه بقيت لمصر تجارة ترد اليها بالقوافل من اليمن وبلاد الحبشة وسوريا شرقاً، وطرابلس وتونس والجزائر والصحراء غرباً. فكان يرد من اليمن، البن وبهارات الهند والاقشة الهندية الجميلة، ويرد من الحبشة الصمغ والعاج والريش، ومن دمشق الأقمشة الحريرية المشهورة ومن بلاد الغرب والصحراء

(١) يقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه ان الذي انشأ هذه الترسانة (دار صناعة السفن) في الجيزة. هو مراد بك وليس حسن باشا قبودان وان مراد بك هو الذي عين نقولا المذكور رئيساً لها. ولهذه الرسالة ورئيسها نقولا كلام طويل سيأتي عند قدوم الحملة الفرنسية الى مصر قبل واقعة امبابه

الصوف والجلود . والتمر وما أشبهه ذلك . وكانت التجارة الاوربية بين الاسكندرية ورشيد ودمياط وموانى أوربا متواصلة الأخذ والعطاء فكانت يرد السفن من فرنسا بالأقمشة والمعادن والخردوات والمصنوعات، وتعود حاملة الأقمشة القطنية والبن اليمنى والريش والعاج والصمغ والتمح والايصر

استعمار إنجلترا في الهند

وتأثيره في تجارة مصر في ذلك العهد

لما اتسعت مطامع الشركة الانجليزية الهندية في استعمار تلك الاقطار، وكانت تلك الشركة تحت سيطرة الحكومة الانجليزية في لندن ، توجهت الانظار بالطبع الى هذه الديار المصرية لانها طريق الهند في التجارة (والداء قديم وتعبير «مواصلات الامبراطورية البريطانية» ليس بالشىء الحديث)

وعلى الرغم من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح حول افريقيا بمرافقة كان طريق التجارة الطبيعي الى أوربا هو البحر الاحمر ، ومصر ، والبحر الابيض المتوسط ، وقد حدث في منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ثلاث حوادث اثرت على الحالة السياسية في العالم، وأهمها تأثيراً على تجارة مصر ومستقبلها معاهدة باريس التي تنازلت فيها فرنسا عن كل دعوى لها في الهند اجابة لطلب إنجلترا ، والحادثنان الثاينتان هما ثورة على بك الكبير وخروجه على الدولة في سنة ١٧٦٦ (كما سبق لنا القول)، والحرب التي شبت نارها بين الترك والروس سنة ١٧٦٨ . وكان نتيجةها معاهدة « كاتنارجه »

وكان من أهم النتائج لهذه الحوادث الثلاثة، زيادة نفوذ إنجلترا بفضل مركزها الجديد في الهند، ولهذا وجهت أنظارها منذ ذلك الحين الى مصر وكانت مطامعها في أول الامر تجارية

وكان في مقدمة الرجال الذين اهتموا بالعلاقات التجارية بين الهند وإنجلترا عن طريق مصر رجل اسمه جامس بروس (James Bruce) الرحالة المشهور

الذى ساح فى البحر الاحمر وبلاد الحبشة وتقرب من على بك بواسطة روسيتى
الفينيسى الذى سبق ذكره . وقد تمكن بروس هذا من الحصول على اذن من على
بك والى مصر ، يجيز للانجليز حرية سفر السفن الانجليزية ، ودخولها ميناء السويس
وسافر بروس الى الحبشة وفى أثناء غيبته عرض روسى على على بك مشروع
ترويج التجارة بين مصر والهند لفائدة الجارك المصرية ، فانغم على بك فرصة
نشوب الحرب بين تركيا وروسيا فى سنة ١٧٦٩ واستولى على الحجاز عنوة
بجد السيف .

وفى سنة ١٧٧١ اقترح انجليزى مقيم فى جده على على بك فتح طريق
تجارى من الهند الى السويس مباشرة ، وخبر على بك حاكم البنغال فى هذا
الصدد ولكن قبل أن ينفذ هذا المشروع الاقصادى خسر على بك ملكه فى الحجاز ،
وفى مصر أيضاً

وفى يناير سنة ١٧٧٣ عاد « بروس » من سياحته من الحبشة وكان محمد بك
أبو الذهب هو الحاكم المطلق التصرف فى مصر فتقرب اليه « بروس » واتهم هذه
الفرصة للاتفاق مع محمد بك أبو الذهب على أن يسمح للانجليز بحلب بضاعتهم
من الهند الى ميناء السويس

وقد ذكر بروس شيئاً عن هذه المخبرات فى كتابه المعنون « سياحة الى منابع
النيل من سنة ١٧٦٨ الى ١٧٧٣ » (١) ولكن الحكومة الانجليزية لم تحفل كثيراً
بمساعي بروس وخسرت التجارة المصرية والانجليزية سواء بسواء

ولم يقف الامر عند هذا الحد من معاكسة التجارة بين مصر والهند وأوربا
بل أن الباب العالى اى تركيا ، ارتأت أن سفر البضاعة الهندية من طريق السويس
مضر بتجارة الاستانة عن طريق حلب ، فأرسل الباب العالى فرماناً الى باشا
القاهرة يأمره بايقاف كل تجارة تأتى عن طريق السويس ، ولم تكن هذه هى المرة

(1) Travels to discover the sources of the Nile in the years
1768 - 1769 - 70 - 71 - 72 - 73 By - James Bruce of Kinnaird. 3rd
Edition - London 1813.

الاولى، ولا الأخيرة التي عاكس فيها الباب العالى مرور التجارة الهندية من طريق مصر

ولم تنجح محاولات «وران هاستنج» حاكم الهند، واتفاقية مع محمد بك أبو الذهب في سنة ١٧٧٥، مادامت تركيا قد رأت، في ذلك الوقت، أن مرور التجارة الهندية من طريق مصر مضر بصالحها. وهكذا خسرت مصر واشتدت بها الفاقة والضنك

الماليك والمال

لم يكن شره الماليك في جمعهم للمال قاصراً على حاجتهم اليه في البذخ والترف والانفاق على منازلهم وقصورهم وشبواتهم، اذ لو كان الأمر كذلك لما اشتدت وطأتهم على البلاد واستنزفوا ثروتها، وامتصوا دماءها الى النقطة الأخيرة، بل لقد كانت حاجتهم الى المال أشد واقوى من قضاء أوطارهم الشخصية، فقد قضى نظامهم بأن لا يقوم لواحد منهم شأن، الا بالاكتثار من المال، فأولا لا يكون لمملوك بعد عتقه عزوة، الا اذا أكثر من شراء الماليك خاصة له ليكون له منهم سند وجاه، والماليك الذين يكونون من أتباعه، لا يداومون على التعلق بأهدابه، الا اذا أغدق عليهم المال، ومدهم بجميع ما يحتاجون اليه من فاخر اللباس، وجميل الهندام، والاسلحة الغالية الأثمان، ثم اذا تطلعت نفس الواحد منهم الى الامارة، اضطر الى بناء الدور الواسعة لاستقبال الزوار، ومدّ رواق نفوذه على الاقران، وكانت الدسائس والمنازعات بين البكوات وبعضهم، قاضية عليهم بالاكتثار من المال في حوزتهم، ليكون آلة قوية في تصيد الاحزاب، وكانوا لا يراعون عهداً، ولا يعرفون الوفاء الا نادراً، فبينما نرى محمد بك أبو الذهب مملوكاً وتابعاً ثم قائداً للجيش على بك الكبير في الشام، نجده قد عاد بهذا الجيش للقضاء على مولاه. وبينما ترى اسماعيل بك مرسلًا من قبل على بك الكبير على رأس ثلاثة آلاف مقاتل لمقاومة خائن عهده أبي الذهب، نجد هذا قد انضم الى الخضم، وعاد معه لقتال من أرسله لقتاله، وقس على هذا مئات

من الأمثلة يجدها القارئ - ان أحب - منشورة على صفحات الجبوتي ، وانما كان الوفاء للمال حاجتهم اليه في قضاء أوطارهم ، وادراك مطامعهم وقد ذكر الثقة أن على بك الكبير حين خذله رجاله وأنصاره، التجأ الى صديقه الشيخ ظاهر عمر أو (العمر) (١) في عكا وكان مقدار ما أخذ معه من الاموال ثمانمائة ألف محبوب ذهباً (أى نحو أربعة وعشرين ألف جنيه تقريباً) يحملها على ٢٥ جملاً وقالوا أيضاً أنه نقل معه من المصاغ والحلى ما يساوى أربعة أضعاف ذلك .

وقد قابل (فولني) في سياحته بالشام ، جيوش على بك الكبير وهي ذاهبة لفتح سوريا، فقال ان الجيش المشار اليه كان مؤلفاً من نحو ٤٠٠٠٠ مقاتل ، ولكن لم يكن فيه من المالك انخيالة غير خمسة آلاف ، ونحو ألف وخمسمائة من المشاة وهم من المغاربة والباقي خدم وأتباع، وبعد وصف هذا الجيش بالفوضى والاضطراب، والسلب والنهب ، أخذ يصف ملابس المليك وصفاً بديعاً فقال ان ملابسهم لم تكن تصلح لامطاء صهوات الجياد ، وانها تتكون من أربعة أو خمسة أردية وطيلسانات تتدلى الى أرجلهم، وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الابيض، والثوب المتدلى فوق القميص من القماش الهندي الخفيف، وفوق ذلك القفطان من حرير مزر كمش تمتد أكامه حتى أطراف الاصابع، ثم «السكر» بأكام قصيرة، ويطوف حول الرقبة فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه في الحفلات يلف به جسمه جميعه !!! وهذا يحتاج الى المال الوفير ، ومصادر مصر كما سبق لنا القول ضئيلة ، وزادتها هاتيك الحروب والمنازعات، واهمال حال البلاد، فقراً على فقر ، فلا غرابة أن تصل الامة الى حال لا تستطيع معها الحياة . ولو طال

(١) جاء في تاريخ جودت باشا عن تاريخ آل العمر ما خلاصته:

كان جد هؤلاء الجماعة رجل اسمه زيدان قدم من المدينة المنورة الى بلدة صفد فأولد عمر وعمر أولاد الظاهر عمر وبعد انقراض أولاد «معين» دخلت ديار صفد في يد بني شهاب . وفي ابتداء أمرهم تولى ظاهر عمر على تلك الديار من طرفهم . ثم ارتقى أمره يوماً بعد يوم الى أن قوى شأنه، وارتفع ذكره، فصار متصرفاً في كافة بلاد عكا وصيدا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وصفد وجعل عكا مركز إمارته وولى أولاده على النواحي . وأصبح في الحقيقة مستقلاً عن الدولة العثمانية لا يبالي بها ولا بأمرها

أمر المليك على هذا الحال ، ربع قرن آخر من الزمان ، لما بقى في مصر من يحرث الارض أو يرعى الماشية .

محاولات الباب العالي

القضاء على المليك

ولقد ذكرنا في هذه المقدمة عند الاشارة الى الفتح العثماني ، أن السلطان سليمان خطأ في عدم قضائه على سلطة ونفوذ المليك مع مقدراته عليهم اذ ذاك ، ولكن فانت العثمانيين الفرصة وندموا عليها ، خصوصاً وقد قويت شوكة البكوات بما كانوا يشترونه من المليك الجدد ، وبما وصل الى أيديهم من أموال الأمة المغلوبة على أمرها ، ولم يعد للدولة العثمانية ، ولا لوالياها هيبة ولا سلطان . ليت شعري لو أن السلطان سليمان فعل ما نذهب اليه من ابادة المليك ومنعهم ، عن استجلاب الرقيق من المالك ، الى أن يضمحل حالهم في زمن قريب ، ووضعت الديار المصرية تحت حكم الدولة العثمانية مباشرة ، أكان يكون حالها بعد ثلاثة قرون ، من الزمان ، أصح مما وصلت اليه من الخراب والدمار؟؟؟ فقد كان من الممكن والمتصور أن لا يقع ما وقع فيها من تلك الحوادث المشؤمة ، التي أتت على الحرث والنسل من جراء مظالم المليك ومطامحتهم ، وكانت رقت نظاماتها على حال أرقى وأصلح من تلك النظامات ، وعمرت البلاد ، ونما النسل ، وحفظت الثروة ، وتحسنت التجارة ، بل وحصنت شواطئ البلاد ، ولم تصبح في حال من الغوضى بحيث استطاع نابليون غزوها على أسهل ما يمكن ..؟؟

الحكم في هذا صعب جداً ، فان تاريخ الدولة في ممالكها الاخرى ، كالشام والمراق ، لا يضع في نفس المؤرخ أملاً أوسع ، بأن تكون أحوال مصر أرقى وأصح ، ولكن ربما قيل في هذا أن موارد مصر وخيراتها الطبيعية ، ونيلها الذي يجري بالبركة في كل عام ، وسلاسة أخلاق أهلها ، كانت تساعد على ترقيتها ، ونموها أكثر مما جاز للدولة في بلادها الاخرى . وعلى كل حال في كل ما أصيبت به مصر

في تلك المدة لا يصبح عدلاً أن يلقي ذنبه كله على أكتاف المالك ، بل تتحمل الدولة منه جزءاً كبيراً ، لأنها أخطأت في توجيه همتها الى الفتوحات في أوروبا ، بدلاً من توجيهها الى الشرق ، لوضع سيادتها البحرية على المياه الهندية ، لتحول تيار التجارة الشرقية الى طريق مصر والشام ، بدلاً من ذهابها الى أوروبا ، حول أفريقيا ، ولأن الدولة لم تتبع سياسة رشيدة مع المالك بالقضاء عليهم مرة واحدة ، بدلاً من خطة الايقاع بينهم ، ويترك باب الاسترقاق بشراء المالك مفتوحاً . ولكن الجزء الاكبر من ذنب سقوط مصر واضمحلالها ، يلقي عدلاً على أكتاف المالك ومظالمهم وبلاياهم في هذه الديار

في فجر القرن الثامن عشر وجه الباب العالي همته الى القضاء على المالك ، ولكن لا بمحاربتهم ، ولا ابادتهم ، اذ يظهر أن ذلك كان متعذراً على الدولة وقتئذ ، أو انه لم ترده خوفاً من مروق القائد ، الذي تبعث به ، عن طاعتها ، واستبداده بملك مصر ، فلخترت خطة ايقاع النفرة والمنافسات بين البكوات وبعضهم بواسطة ولائها . ويظهر للمتمعن في تاريخ هذه الفترة ، أى من سنة ١٧٠٠ الى حين الاحتلال الفرنسي ، في سنة ١٧٩٨ ، انه وجد بين المالك ، وبين الباب العالي حرب سرية ، فكان المالك يعرفون أن الدولة تسعى لابادتهم باغرائهم على بعضهم ، ولكنهم كانوا في الدهاء والسياسة أقل كفاءة من مناظرهم الاتراك ، وكان نفوذ الدولة الدينى والسياسى ، مساعداً لرجال الدولة على المالك ، وزد على ذلك أن مطامعهم الشخصية ، وشهواتهم الذاتية ، وفساد أخلاق بعضهم ، وقلة ولائهم لآسيادهم وأقرانهم ، الى غير ذلك من صفات الشره والانانية ، كانت من أكبر الاسباب التى ساعدت الدولة عليهم فأضعفت شوكتهم ، وان لم تقض عليهم . ولا نرى بدأ من الاشارة الى الحوادث والوقائع التى تبرهن على استنتاجنا هذا ، لأننى لم أجد من المؤرخين من صرح بهذا الرأى مع الايضاح الكافى ، أو وضع النقطة على العين (كما يقولون) !!

فقد حدث في سنة ١١١٩ هـ في أيام حكم السلطان احمد (١١١٤ - ١١٤٣ هـ - ١٧٠٢ - ١٧٣٠ هـ) ان ولى مصر حسن باشا ، وهو الذى بدأ بلقاء بنور الشقاق بين القاسمية والفقارية ، وقد كانت المنافسات والحاربات ، بين هاتين الطائفتين من المماليك ، سبباً فى شقاء مصر وخرابها ، وفى هذا يقول الجبرتى - (وان كان قد أخطأ فى حكايته الطويلة الخرافية عن أصل القاسمية والفقارية) - « ولم يزل الامر - أمر الخلاف - يفسو ويزيد ، ويتوارثه السادة والعييد ، حتى تجسم ونما ، وأهريقته له دما ، فكم خربت بلاد ، وقتلت أمجاد ، وهدمت دور ، وأحرقت قصور ، وسبيت أحرار ، وقهرت أخيار » اهـ

وحدث فى سنة ١١٤٧ هـ و ١٧٣٤ م (فى أيام حكم السلطان محمود ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ و ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م) ان عين بكير باشا واليا للدولة فى مصر ، و يظهر أنه كانت لديه أوامر بالايقاع بالمليك ، قال عنه المؤرخون : أنه لما وصل الى القاهرة فى يوم السبت ١٤ شوال سنة ١١٤٧ وصعد الى القلعة ، فى موكب حافل ، فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه ، وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكاف ، وفساد العملة ، فلم يحفل بصراخهم وصار حتى وصل القلعة ولم يلبث طويلا حتى أخذ يدس الدسائس بين الامراء لافساد أمورهم ، وتفريق كلمتهم ، ثم شغله تفشى الطاعون فى البلاد عن تنفيذ ما ربه مدة ، ولكنه بعد ذلك استغوى بعضهم ، ودبر معه مكيده للقضاء على بقية البكوات ، فاستدعاهم بدعوى النظر فى أمور الخزينة ، الى بيت الدفتردار وهناك وقعت مذبحه دموية تعد صورة مصغرة لمذبحه محمد على المشهورة بالقلعة ، عام (١٨١١) أى بعد ذلك الميعاد بنحو ثمانين سنة - (قال فيها الجبرتى) « قتل فيها أحد عشر من كبار أمراء المماليك وسبب بذلك فتنة اندلع لسان لهيبها فى القاهرة وضواحيها » وقال المؤرخون لهذه الفترة « ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح الكاشف ، رأس هذه الفتنة (أحد آلات الوالى) الى بكير باشا ليلا من باب الميدان ، وأعلمه بما جرى ، فخلع عليه رتبة الأمانة ، فطلب منه مالا يفرقه على العسكر المجتمعين معه ، فوعده بأن يرسل له ما طلب . فنزل صالح الى جامع السلطان حسن ، فوجد محمد ككتخدا

الجاوشية وأتباعه وجماعة آخرون فلبث معهم ينتظر المال ، وصعد عمر جلبي ، ابن علي بك قيطاس (منافس صالح المذكور) بطائفة من قومه الى بكير باشا ، يطلب بثأر أبيه (محمد بك قيطاس أحد كبار البكوات الذين قتلوا في المذبحة المشار اليها) ، وكان وصوله بعد نزول صالح ككشف نفع عليه الباشا امارة أبيه ، ورسم له بقتال قاتلي أبيه ومن معهم ، وكان الباشا يود لو أنهم يقطعون بعضهم بعضاً ، فنزل ابن قيطاس وأصحابه ، وأمامهم بيرق من الحجر ، خلف جامع المحمودية وبيت الحضري وزاوية الرفاعي ، وعملوا متاريس على باب الدرب قبالة جامع السلطان حسن ، وجعلوا يطلقون بنادقهم ، على كل من يمر بهم من الخوصوم ، وعلى من هم بجامع السلطان حسن ... ثم قال « ولما رأى كبار الوجاهت ما بلغت اليه هذه الفتنة وانما هي بايعاز من بكير باشا ، قاموا على قدم وساق ، وأحاطوا بالقلعة ، وأنزلوا بكير باشا ، ذليلاً مقهوراً وسجنوه ، وكتبوا الى دار السلطنة ، بما وقع وطلبوا ارسال وال آخر ، فأرسل السلطان الأمير مصطفى باشا أمير ياخور لضبط أموال من قتلوا في هذه الفتنة الخ . وقد أحسنت الدولة معاملة بكير باشا هذا وعينته في أرقى وظائف الدولة !!

ثم أرادت الدولة اتمام خطتها السياسية ، فعينت في سنة ١١٥٢ ، سليمان باشا الشامي المعروف بابن العظم ، وكان أول عمل له في مصر ايقاد نار الفتنة بين البكوات ، فوقعت فتنة بين أمراء المماليك فقتلوا بعضهم بعضاً ولكن لما انضح لهم أمر الوالي ، أنزلوه وعين بعده وال آخر ، وتعاقب ثلاثة من الولاة مدة ست سنوات ، ثم هبت الدولة مرة ثانية للقضاء على المماليك ، فعينت محمد رجب باشا والياً ، قال المؤرخون « فلما استقرت به الولاية أخذ يدبر الحيل القتل من يقي من الامراء ، ثم استمال اليه حسين بك الخشاب وكاشفه بما في نفسه ، وأقما الايمان على أن لا يتخونا بعضهما ، وأعلن أن السلطان محمود يريد قطع دابر القمامشة والدمايطة وهم أصحاب الكرامة يومئذ ... ثم دبر لهم مؤامرة كالتى دبرها قبله بكير باشا ، ولكن هذه المرة في القلعة في ديوان الوالي ، ليشراف بنفسه على هلاكهم ، وهي أشبه بمذبحة محمد علي أيضاً من حيث وقوعها في القلعة ، واشراف الوالي ، كما

أشرف محمد على عليها . ولكنهم لم ينجحوا هذه المرة أيضاً ، كما كانوا يؤملون ... حقيقة قتل بضعة من كبار الامراء ولكن ابراهيم جاويش ، وهو سيد على بك الكبير ومربيه ، أخذ عدته وأدرك المكيدة ، فجمع قومه وانتهت هذه الفتنة كما انتهت مشيقاتها بانزال الباشا وعزله .

وعلت كلمة ابراهيم بك كما سبق لنا بيانه في موضع آخر من هذه المقدمة ، ولكن الدولة بقيت مصرة على تنفيذ سياستها بتلك الخطة العقيمة ، خطة تقليبيهم على بعضهم ، ولو خربت البلاد ، وأبيدت العباد ، فمن ذلك أن حمزة باشا الوالي في سنة ١١٩٨ هـ في أوائل ظهور نجم على بك الكبير ، أراد الفتك بالبكوات في القلعة كما فعل الولاة أسلافه ، قال مؤرخو هذه الفترة « وجاءت أيام عيد الفطر فركب الامراء في ثاني يوم شوال الى قرة ميدان ليهنئوا حمزة باشا بالعيد ... فلما حضروا في ذلك اليوم وهنأوا الباشا ، وخرجوا الى دهليز القصر يريدون الانصراف الى بيوتهم ، برزت لهم طائفة من الجنود وسيوفهم بأيديهم مسلوطة ، وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم ، فأطلقوا البنادق ، وأعملوا السيوف ، فأصيب عثمان بك الجرجاوي بضربة سيف في وجهه ، وأصيب حسين بك كشكش بطلق نارى في خاصرته ، وجرح كثيرون جراحاً بليغة ، فعند ذلك ارتفعت الأصوات وعلت الجلبة ، وصاح الأمراء بماليكمهم ، فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم ، وحالوا بينهم وبين المتأمرين ، وانتهت هذه المؤامرة الدينئية ، كما انتهت سابقاتها بانزال الباشا وعزله !! وولى بعد حمزة باشا ، محمد راقم باشاسنه ١١٨٢ هـ فبينما نراه يعضد خصوم على بك ، الذى لقب بالكبير بعد ، ويساعد على ارسال حملة لتقاومته تحت رئاسة حسين بك كشكش ، ويجمع لهذه الحملة المال بمصادرة التجار والأهالى ، تجده يقابل على بك ، بعد انتصاره على جيش حسين بك كشكش المشار اليه ، ودخول الأول القاهرة ظافراً ، فيخلع عليه ويقره شيخاً للبلد ، وكان ذلك مبدأ نفوذ على بك وعلو نجمه ، وكان قد حلب أشطر الدهر ، وعرف أن لأمانته مع هذه السياسة العثمانية ، فعزل الوالى وأعلن

استقلاله بمصر ، ولكنه لم ينجح من فتح الدولة والسقوط في الهوة التي اتقاهها ، إذ تمكن رجال الدولة من التأثير على مملوكه محمد أبو الذهب كما سبق لنا بيانه . واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى زمن مراد بك وإبراهيم بك مملوكي محمد أبو الذهب ، فإن الدولة أرادت هذه المرة أن تتخذ خطة حاسمة ، تليق بشرف الملك وشرف السياسة ، فأصدر السلطان عبد الحميد الاول أمره بإرسال قوة الى مصر لتخليصها من أيدي المماليك ، فوصلت القوة العثمانية في عمارة كبيرة تحت قيادة قبودان حسن باشا الى ثغر الاسكندرية سنة ١٢٠٠ هـ أي قبل الحملة الفرنسية بثلاثة عشر عاماً ، فصمم مراد بك - كعادته من العناد ، وحب الاستقلال - على مقاومة القوة العثمانية ، قال المؤرخون « فسار مراد بك بمن معه ونزلوا الرحمانية ، فلاقهم الجنود العثمانية (كما لاقت بعد ثلاثة عشر سنة في هذه البقعة العساكر الفرنسية) فاندرعت جنود المماليك ، من قنابل العثمانيين فشنت شملهم ، وفر مراد بك وإبراهيم بك كذلك الى الصعيد ، كالعادة . ودخل حسن باشا الذي لقب بالغازي لفتح مصر من جديد فتحاً لم يدم أكثر من سنة واحدة ، لأن حسن باشا استدعى للاستانة بسبب الحرب مع روسيا قترك الاحكام في مصر في يد اسماعيل بك أحد المماليك يشاركه في الحكم حسن بك الجداوى ، كما كان مراد وإبراهيم ، ولم تستفد مصر من هذه الحملة العثمانية شيئاً ، اللهم الا ما ذكره المؤرخون من أن الجيش العثماني أعاد فعالة المعتادة ، اذا خربت العساكر كل ما مروا به من المدن والقرى ، ونهبوا ما فيها ، ولولا همة حسن باشا نفسه ما بقوا على شيء فانه كان يهدد الجنود حتى اضطر الى رمي بعضهم بالرصاص ليردعهم عن أعمالهم الوحشية

وبعد أربع سنوات عاد مراد بك وإبراهيم بك الى السيادة الفعلية على البلاد ، وبقيا يسومان أهلها الذل والاستعباد ، حتى داهمتها الحملة الفرنسية ، كما سيأتى لك بيانها ، في مكانه

ويصح لنا أن نقول هنا من اتمام الفائدة في موضعها ان الباب العالى حاول بعد جلاء الفرنسيين عن مصر القضاء على البقية الباقية من المماليك لتخليص مصر

من شرهم . ولكن لم تنجح سياسة تركيا حتى استطاع محمد علي في مذبحجة القلعة أن يخلص مصر من المماليك ، ويستخلصها لنفسه

« الأوبئة التي فتكت بأهل مصر »

في عهد المماليك

ما كفى هذه الديار التعسة مالاقتنه من مظالم المماليك وعسفهم وتخريبهم وحرورهم ، التي أفقرت البلاد من أهلها ، ومن خيرها ، ومن أرضها ، ومائها ، حتى بليت في تلك الفترة بأوبئة فتاكة ، تسببت طبعاً من سوء الاحوال الصحية ، ومن نتائج الغزوات ، والحروب والتعفن ، وعدم تصريف المياه الآسنة في الجداول والخلجان ، والبرك ، فحدث في سنة ١٠٥٢ هـ (١) ما يأتي بيانه :

في أثناء ولاية مقصود باشا ، من قبل السلطان ابراهيم بن احمد ، داهم الوباء بولاق أولاً ثم ظهر في القاهرة ففتك بأهلها ، وبكافة أهل القطر فتكا ذريعاً حتى كان اضطر الناس لكثرة الموتى ، الى دفنهم بغير صلاة ، وروى المؤرخون أن ٢٣٠ قرية صارت خراباً لفناء أهلها بذلك الوباء

وحدث في سنة ١١٠٨ هـ وباء شديد سببه أن وقع في البلاد غلاء كبير مدة ولاية علي باشا قليج ، من قبل السلطان مصطفى ، فقل ورود الغلال ، وعزت الأقوات ، وضاق العيش على الفقراء ، ومتوسطي الحال واشتد بالناس الجوع ، قال المؤرخون « فأكل الناس الجيف وجذور الاشجار ، فنارت النفوس ، حتى اجتمع السواد الأعظم رجلا ونساء وأطفالا ، وصعدوا الى القلعة ووقفوا بجوش الديوان ، وصاحوا من الجوع ، واستغاثوا بالبasha ، فلم يجبهم أحد فرجوا ديوانه بالحجارة ، وأكثروا من الجلبة والصياح ، فركب الوالى وطردهم ، فنزلوا الى الرميطة ونهبوا ما بها من حواصل الغلال ، وكذلك حواصل كتبخدا الباشا ، وكانت ملاءى بالشعير والفول ، وأصناف الحبوب فلم يقدر أحدهم على ردهم ... واشتد الغلاء وضاق بالناس الخناق ، وعم الخطب ، ومات الكثير منهم جوعاً ، والعياذ بالله ،

(١) صاحب التوقيعات الالهامية يحدد هذا الوباء في سنة ١٠٥٠

وخلت أ كثر القرى من أهلها ، وخطف الناس الخبز من الأسواق والافران ، مع ندرته ، ومات الناس ، قتركت جثثهم في الطرقات ، فانشب الوباء أظفاره بالعباد فأراحهم من حياة مرة ، وشقاء مستمر ، فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات ، ويذهبون بهم الى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن فمات من جراء ذلك خلق كثير » اه ملخصا

وفي سنة ١١٤٧ هـ دام البلاد وباء في زمن باكير باشا ، الذى أوقع الفتنة بين الامراء وبعضهم - قال المؤرخون في هذه الفترة : ان هذا الطاعون لم يسبق له مثيل ، اذا انتشر في البلاد قاطبة ، وفتك بالناس فتكا ذريعاً ، فكان الناس يدفنون موتاهم على ضوء المشاعيل لاشتغالهم ليلاً ونهاراً بدفن الموتى ، الذين يقعون في الشوارع والطرقات قتلى الوباء فتبقى جثثهم ملقاة بعض الليالى والايام وطالت مدة هذا الوباء وفي سنة ١١٧١ هـ . هاجم البلاد وباء آخر في أول مدة استقلال على بك . قال المؤرخون « وكان ظهور الوباء عقب أن أمطرت السماء مطراً غزيراً جداً سالت منه السيول وامتلات الأودية ، واشتد الطاعون شدة بالغة فكثير الموت وصارت جثث الموتى تلقى في الطرقات والحارات لكثرتها ، وعدم وجود من يدفنها ، وكثرت الجثث واجتمعت حولها الكلاب تنهشها . وطالت أيام الوباء وسمته العامة (قارب شيجه ، اللى ياخذ المليح والمليحه) ولم يرتفع الوباء من أرض مصر في تلك المرة الا في السنة التالية .

ثم في سنة ١٢٠٥ - بعد الحملة العثمانية التي جاء فيها قبودان حسن باشا الغازى وتعيينه اسماعيل بك كبيراً للماليك . قال المؤرخون « وفي هذه السنة طرأ على البلاد ، ولا سيما القاهرة ، وباء شديد الوطأة لم تقاس البلاد مثله من قبل ، فان عدد الموتى في القاهرة بلغ نحو الألف في يوم واحد وتقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام ، وسبب ذلك أن اسماعيل بك أصيب بالوباء فأقيم آخر من بيته مكانه فمات أيضاً ، حتى فني كل من كان في بيت اسماعيل في يوم واحد ، ولم يبق منه الاعثمان بك الطبل الذى مهد لمراد و ابراهيم سبيل العودة الى السيادة في مصر ، وسمى هذا الوباء بوباء اسماعيل . »

أفبعد كل هذه الأوبئة التي تناوبت على القطر في كل عهد المماليك ، وبعد كل هاتيك الحروب والمنافسات والمشاحنات بين المماليك وولادة الدولة ، وبين المماليك وبعضهم بعضاً ، وغارات أعراب البادية ، ومظالم الحكام ، يمكن ان يبقى في هذه الديار المصرية الامن فاته الموت ، أو عجز عن المهاجرة ؟ لا غرابة أن يقول على مبارك باشا بعد وصفه النظام الذي وضعه السلطان سليم لمصر بعد فتحها « وخربت البلاد وهاجر الكثيرون منهم الى الديار الشامية والحجازية وغيرها »

كلمة عامة عن المماليك

لم تمنع أخلاق المماليك الفاسدة، ومظالمهم ومظالمهم ، من أن يوجد بينهم من أن لاخر ، بعض ذوى الكرامة وأصحاب التدبير ، وأن يوجد بينهم من ذوى الرغبة في اصلاح أحوال البلاد ، ورفع المظالم عن الامة، فقد روى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي وغيره من الرواة ، عن اسماعيل بك ايواض ، وهو ابن ايواض بك القاسمي ، الذي قتل في احدى فتنهم ، مع نحو سبعة من رجاله في « الرميلة » بتحريضات والى الدولة ، كما سبقت الى ذلك الاشارة ، ولى ولده المشار اليه ، وسار في امارة الحج ثم اشتعلت نار الفتنة فهرب واختفى ، ثم عاد ، وبعد فتنة أخرى استقرت له السيادة المطلقة فعلا في القطر المصري نحو ستة عشر عاماً الى أن قتل غدرًا في ديوانه بتحريض من الوالى أيضاً . وقال الجبرتي عن اسماعيل بك هذا « ان أيامه كانت سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والاقليم في أمن وأمان ، من قطاع الطريق وأولاد الحرام ، وكان صاحب عقل وتدبير ، وسياسة في الاحكام ، وفضانة ورئاسة وفساسة في الامور » وذكر الجبرتي وهو ثقة فيما رواه عنه - عدة روايات تدل على عدل اسماعيل بك ، وكرم أخلاقه ، وبعده عن نقائص المماليك أمثاله ، فما ذكره عنه أنه جدد سقف الجامع الأزهر ، وكان قد آل الى السقوط ، وأنشأ مسجد سيدي ابراهيم الدسوقي بدسوق ، ومسجد سيدي على المليجي بمليج ، ومن مآثره عن نفس صاحب الرواية انه كان يرسل غلال الحرمين في أولها ، ويجعل في بندر السويس

والمويلح وينبع ، غلال سنة قابلة في الشون ، لكي نشحن السفائن وتساfer في أوانها ، ثم يرسل خلافها على هذا النحو . قال الشيخ الجبرتي « ولما مات سنة ١١٣٦ هـ ، ووصل خبر نعيه الى أهل الحجاز حزنوا عليه وصلوا عليه صلاة الغيبة عند الكعبة ، وكذلك فعل أهل المدينة فصلوا عليه بين المنبر والمقام ، ومات صغير السن على روايتين للجبرتي فهو يقول مرة في الثامنة والعشرين ، ولكنه بعد أن ذكر أنه تولى الأحكام وعمره ستة عشر عاماً ، وأنه حكم البلاد ستة عشر عاماً وطلع أمير الحج ست مرات . وهذا خلط من الجبرتي ، قال ورثاه الشعراء ثم ذكر في كتابه قصائد مطولة خير ما فيها قول بعضهم :

وكان جديراً بالرئاسة والعلـا فقد سار فينا سيرة سارها عمر
وكان له حزم ورأى ومنعة ولكن اذا جاء القضاء عمى البصر
به غدر الجبار جر كس ما كرراً نعماً قليل سوف يجزي بما مكر

وكانت ألف الناس قتل الأمراء بعضهم واحداً بعد واحد ، فلهذا أشار الشاعر ببساطة (فعما قليل سوف يجزي بما مكر) وأغرب من هذا أن شاعراً آخر من شعراء ذلك الزمن رثى اسماعيل بك هذا بأبيات ، يقول في ختامها
ولا بد أن الله يأخذ من سطا عليه بتاريخ « سيقتل قاتله »

فالذا جمعت جمل كلمتي « سيقتل قاتله » نجد تاريخ سنة ١١٣٦ التي قتل فيها اسماعيل بك ، وكان قاتله مملوكاً اسمه ذو الفقار بتحريض من الوالي ، ومحمد جر كس بك الطاغية الذي أنعم عليه اسماعيل بك ، وعفا عنه مراراً ، وكان نصيب ذي الفقار ، بعد أن صار شيخ البلد وأمير الأمراء ، رصاصة قضت على حياته سنة ١١٤٢ ، بدسيسة من نصيره الأول محمد جر كس ، الذي مات غرقاً في النيل من مطاردة رجال ذي الفقار ، وهكذا كانوا يفعلون !! :

ومن ذكروا بالخير ، من أولئك الطغاة الظالمين ، مملوك آخر اسمه عثمان بك الذي ولي الأحكام ، بعده قتل ذي الفقار ، وغرق محمد جر كس ، وفي مدته نكبت مصر بالوباء . كتب الجبرتي عن عثمان بك ذي الفقار ، وقال أن ما رواه عنه ، هو

عن لسان والده الشيخ حسن الجبرتي، لان عثمان بك، كما روى الشيخ عبد الرحمن، « كانت له مع الوالد صحبة أكيدة، ومحبة زائدة، وصاحبه في سفر الحج ثلاث مرات، وكان لا يجالس الا أرباب الفضائل مثل المرحوم الوالد... وقرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك، والمقامات الحريرية الخ»، ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام قول الجبرتي « ان عثمان بك لما فر من مصر عاش بعد خروجه منها نيفاً وثلاثين سنة، وجلالة شأنه جعل أهل مصر سنة خروجه منها تاريخاً لأخبارهم، وروايتهم ومواليدهم الى الآن، من تاريخ جمع هذا الكتاب يعني سنة ١٢٢٦هـ. فيقولون جرى كذا، سنة خروج عثمان بك الخ». وهذه الاشارة مهمة جداً لانها ترشدنا الى السنة التي بدأ فيها الجبرتي جمع كتابه وهي سنة ١٢٢٦هـ. — أي بعد خروج الفرنسيين من مصر بنحو عشرة سنوات، وفي أيام سلطة محمد علي ونفوذه، بل هي السنة التي وقعت فيها منبجحة المالك في القلعة، فهل معنى كلمة « جمع » أنه بدأ بالتأليف أو أنه جمع مذكراته وما كتبه من الحوادث في أوقاتها منذ بدأ يكتب؟ ويغلب على الظن أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بدأ قبل ذلك بكثير، وانه كان يدون الحوادث في أيام وجود الفرنسيين بمصر. فقد جاء في مقدمة كتابه « يقول الفقير عبد الرحمن بن حسن الجبرتي اني كنت سويت أوراقاً في حوادث القرن الثاني عشر وما يليه، وأوائل الثالث عشر الذي نحن فيه، جمعت فيه بعض الوقائع اجمالية، وأخرى محققة تفصيلية، وغالبها نحن أدركناها، وأمور شاهدها، الخ... مما يدل على أن حوادث القرن الثالث عشر، أي من ١٢٠٠، وهي السنة التي دخلت فيها الجنود العثمانية تحت قيادة حسن قبودان باشا — كان يقيدتها في أوراق مختلفة وانه لم يبدأ بجمع مسوداته في أوراق منسقة النظام، مرتبة على السنين والأعوام، الا في سنة ١٢٢٦هـ. باعترافه هو كما تقدم. ومما يزيد هذا الرأي تأكيداً قول الجبرتي في الجزء الرابع في نهاية سنة ١٢٢٥ هجرية « انقضت السنة بحوادثها التي قصصنا بعضها، اذ لا يمكن استيفائها للتباعد عن مباشرة الامور، وعدم تحققها على الصحة، وتحرير النقل وزيادتهم ونقصهم في الرواية، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار، وغالبها من الامور الكلية التي

لا تقبل الكثير من التحريف ، وربما أخرت قيد حادثة أنبتها ، ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها في « طيارة » حتى أقيدها في محلها ان شاء الله تعالى ، عند تهذيب هذه الكتابة - وكل ذلك من تشويش البال ، وتكدر الحال ، وهم العيال . وكثرة الاشغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن »

وقد توسعنا في هذا الاستطراد قليلاً لأنه تحقيق تاريخي جدير بالاهتمام . ونعود الى عثمان بك ، فنقول انه كان من المماليك الأقوياء ، الاشداء في الحق ، وأن أحوال مصر قد تحسنت في الفترة القليلة التي حكم فيها من ١١٤٢ — ١١٥٦ أي نحو أربعة عشر عاماً وقد وصفه الجبرتي فقال :

« وطلع بالحج وعاد في أمن وأمان ، وانتهت اليه الرياسة ، وشمخ على أمراء مصر ونفذ أحكامه عليهم » ، قهراً عنهم . وعمل في بيته دواوين لحكومات العامة ، وانصف المظلوم من الظالم ، وجعل لحكومات النساء ديواناً خاصاً ، ولا يجري أحكامه الا على مقتضى الشريعة . ولا يقبل الرشوة ، ويعاقب عليها ، ويباشر أمور الحسبة بنفسه ، ومنع المحتسب من أخذ الرشوات وهجج الشهود — شهود الزور — من المحاكم ولم يعهد عليه أنه صادر أحداً في ماله أو أخذ مصلحة على ميراث ، ومات كثيرون من الأغنياء ، وأرباب الاموال العظيمة ، فلم تطمح نفسه لشيء من أموالهم وكان على المهمة ، حسن السياسة ، يحب اقامة العدل والحق في الرعية ، وهابته العرب ، وأمنت الطرق والسبل البرية والبحرية ، ولم يأت بعد اسماعيل بك بن ابواظ في أمراء مصر من يشابهه أو يدانيه الخ » وسرد الجبرتي عدة حكايات تدل على عدله وصلابته في الحق .

ولكن ما يكاد يتوطد قدم أمير من المماليك ، وينال ثمة الرعية ، ويقبض على مقاليد الامور بيده ، حتى تتحرك ضده الاحقاد والدسائس سواء من أقرانه البكوات ، أو بواسطة الوالي ، فتثور الفتن ، ويقتل ذلك الامير ، أو يفر هارباً بحياته ، ويندلع لسان الفوضى ، وتلقى الامة والبلاد المحن والنكبات

ولم يكن لأحد من طبقات الامة المصرية ، — لا من التجار ولا من الفلاحين

صفة أو كرامة ، أو هيئة ، اللهم الالفئة علماء الأزهر ، لما كان لهم من النفوذ
الديني على الممالك والعامّة على السواء ، فكنت ترى الامراء يجتمعون بهم
ويزورونهم ، ويشاورونهم . وهذا الشيخ الحفناوى وقف في وجه الامراء لما
اجتمعوا بالقاهرة وقرروا ارسال حملة لمحاربة على بك (الكبير) وصالح بك
ومحمد معهم « الذين استقروا بالمنيا وبنوا حولها سورا وأبراجا ركبوا عليها المدافع
وقطعوا الطريق على المسافرين والبحرين والمقبين ، وقال لهم « خربتم البلاد
والاقاليم ، وعلى أى شىء هذا الحال ، وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد » الى
آخر ما قال . فلم يسع الامراء الا الامتنال : قال الجبرتى « فلم يلبث هذا الشيخ
الا أيام ومرض ورمى بالدم ، وتوفى فيقال انهم أشغلوه وسموه »

والدليل على أنه لم يبق من الامة المصرية بأسرها الا هيئة علماء الدين وغالبهم
أهل ضعف ومسكنة وزهد وذل ، أنه على الرغم من كل هاتيك المصائب والرزايا
والنكبات ، التي كانت تتساقط كالصواعق على رؤوس هذا الشعب المسكين ، لم
نسمع في كل هذه المدة ان حدثت في البلاد فتنة ، أو وجدت حركة تدمر ، الامرة
واحدة على أيدي بعض العلماء في سنة ١٢٠٩ ، أى قبل احتلال الفرنسيين بأربعة
أعوام فقط ، وحكاية هذه الثورة الأهلية الوحيدد في بابها ، كراواه الجبرتى عن يافى
حوادث شهر الحجة من تلك السنة قال « وفيه وقع من الحوادث أن الشيخ
الشرقاوى له حصّة بقرية بشرية بلبس ، حضر اليه أهلها وشكوا من محمد بك
الألفى واستغاثوا بالشيخ فاغتاط وحضر الى الأزهر ، وجمع المشايخ ، وأقفلوا ابواب
الجامع ، وذلك بعد ما خاطب مراد بك و ابراهيم بك ، فلم يبديا شيئاً ، وأمر العلماء
الناس باغلاق الاسواق والحوانيت ، ثم ركبوا في ثانی يوم ، واجتمع عليهم خلق
كثير ، وذهبوا الى بيت السادات ، وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة
الباب والبركة ، بحيث يراهم ابراهيم بك ، فبعث اليهم أيوب بك الدفتدار ،
فحضر اليهم ووقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا ، نريد العدل ورفع الظلم
والجور ، واقامة الشرع ، وابطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها
وأحدثتموها ، فقال لا يمكن الاجابة الى كل هذا فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا

المعيش والنفقات ، فقبل له هذا ليس بعذر عند الله ، ولا عند الناس ، . وما
الباعث على الاكثار من النفقات ، وشراء الممالك ، والامير يكون أميراً بالاعطاء ،
لا بالاخذ ، فقال اصبروا حتى أبلغ . ولم يعد لهم بجواب وانفض المجلس ، وركب
المشايخ الى الجامع الأزهر واجتمع أهل الاطراف من العامة والرعية ، وابتوا
بالمسجد »

وما يشير الى دسائس البكوات ضد بعضهم أن ابراهيم بك اتهمز هذه الفرصة
للايقاع بمراد بك شريكه في الحكم ، على الرغم من تحالفها ، فبعث للمشايخ يعضدهم
ويقول لهم أنا معكم ، وهذه الامور على غير خاطري وأرسل الى مراد بك يخيفه
من عاقبة ذلك فبعث مراد بك يصالح المشايخ . وعقد مجلساً حضره المشايخ والامراء
وانتهى الامر كما يقول الجبرتي ، بأن تاب الامراء والتزموا بما اشترطه المشايخ
عليهم ، وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة ، وعلى أن
يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون ، وأموال الرزق ، وييطاوارفع المظالم
المحدثة ، والكشوفيات والتفاريذ (جمع فرده - ضريبة) والمكوس وأن يكفوا
أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ويسيروا في الناس سيرة حسنة ...
وكتب بذلك حجة « فر من » من فرمان - عليها الباشا ، وختم عليها ابراهيم بك
ومراد بك ، فانجلت الفتنة ورجع المشايخ ، وخلف كل واحد وأمامه جملة عظيمة
من العامة وهم يتادون حسب مارسم سادتنا العلماء ، بأن جميع المظالم والمكوس ،
« بطالة » من مملكة الديار المصرية وفرح الناس ، وظنوا صحته وفتحت الاسواق
وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان ، مما ذكر وزيادة ! - اه عن الجبرتي
بلغته وتعبيراته

وهناك نورة أخرى صغيرة جداً وقعت في الاسكندرية وتكلم عنها « بروان »
الرحالة الانكليزي ، وكان زعيمها الشيخ محمد المسيري كبير علماء الاسكندرية في
ذلك الوقت ، وله معنا شأن في مدة الحملة وبعدها وكانت تلك الحركة ضد الكاشف
المتولى زعامة الجند في الاسكندرية ، وقد روى أن مراد بك أرسل من القاهرة حملة
صغيرة مؤلفة من كاشفين وبعض جنود من أتباعهما فأظهر الشيخ المسيري كفاءة

في حمله الاهالى على التسليح وترميم الاسوار ، والاستعداد للمحاربة فلما علم الكاشفان القادمان بذلك ، أعلنوا أهل الاسكندرية انهما لا يريدان حرباً ، وانتهى الأمر بأن عاد أحدهما يحمل هدية قدمها اليه أهل الاسكندرية ، وأخرى من التجار الأجانب (١)

وللشيخ المسيرى هذا شأن يذكر عند قدوم الحملة الفرنسية كما انه عاش الى زمن محمد علي ، وكان له شأن معه

وبهذه المناسبة نذكر ان (براون) قدّر سكان الاسكندرية عند قدومه اليها في سنة ١٧٩٢ بنحو عشرين الفا بينهم عدد كبير من الاروام ، ويتولى ادارة الاحكام فيها قاض يمين من الاستانة ومعه مشايخ المذاهب الاربعة ولكن (سافارى) الذى زار مصر ، وكان في الاسكندرية في ٢٤ يوليو سنة ١٧٧٧ ، يقول إن سكان الاسكندرية في ذلك الزمن ، لم يكونوا يتجاوزون الخمسة الآلاف. والحقيقة بين هذين العددين ، أى حوالى الاثني عشر ألفاً

✽ مراد و ابراهيم ✽

لا ننسى هذه المقدمة التى ألمعنا فيها ، بعض الامام ، بحالة مصر من الوجوه السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، قبل قدوم الحملة الفرنسية — دون أن نأتى على ذكر لتاريخ الرجلين الذين كانا يحكمان مصر ، فى ذلك العهد ، وعلى وصف موجز لأخلاقهما ، وظروفهما وأحوالهما .

كانت السكامة العليا فى البلاد المصرية ، عند قدوم الحملة الفرنسية ، فى يد رجلين من مماليك محمد بك أبو الذهب ، وعما مراد و ابراهيم ، أو ابراهيم ومراد ، لأنه من الصعب أن يقدر الباحث فى حلكتك تلك الفترة ، من كان منهما أولى بالتقديم من صاحبه . ذلك لأنه فى لحظة من اللحظات ، أو فترة من الفترات ، كانت تبدو القوة والنفوذ والسيطرة ، فى يد مراد ، وماهى الا أيام أو شهور حتى ترى مراد أمزويّاً فى قصوره بين اخداه ونساءه ، والامر كل الامر فى يد ابراهيم .

(1) Browne's Travels P. 11 & 12.

كان مراد رجلاً جريئاً مقداماً ممتلئاً ثقة بنفسه ، أو بعبارة أخرى ، مخدوعاً مغروراً فيها . وكانت له حركات تدل على أنه عصبي المزاج حلاه ، على أنه قد كان مع ذلك شديد الغيرة على مركزه ، لا يقبل الضيم ، ولا يرتاح الى السكون والدعة ، بعكس مناظره أو شريكه إبراهيم ، فانه كان على جانب كبير من الدهاء والحيلة ، لا يقدم رجلاً دون أن يفكر في العاقبة ، ولذلك كنت تراه ينزوى ويترك الامر في يد منافسه حين يرى منه ميلاً لذلك ، فلا يعارضه ولا يقاومه ، ولكن يعمل لتحسين الفرص لاسقاطه

مات مراد بك في الصعيد ، والفرنسيون في مصر ، ولكن إبراهيم عمر طويلاً وهرب الى الشام ، وعاد مع الاتراك والانجليز لاجراج الفرنسيين ، وبقى الى زمن محمد علي ، وكان من الذين طاردهم محمد علي الى بلاد النوبة ، ومات فيها وكان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي معاصراً لها ، وعارفاً بطباعهما وأخلاقهما ، فأراؤه من هذه الوجهة ، حجة ثقة ، وان كان الشيخ الجبرتي حاقداً بعض الحقد ، لاسباب لا نعلمها ، على مراد بك ، كما يظهر ذلك من الكلام عنه ، كلما عرض ذكر اسمه فيما كتبه من حوادث تلك الأيام

وخلاصة تاريخه عند الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، انه كان من ممالك محمد بك أبي الذهب ، ومحمد بك ، مملوك على بك الكبير ، وعلى بك ، مملوك إبراهيم كتنخدا القاصد على

اشترى محمد بك مراد بك في سنة ١١٨٢ هـ . ثم أعتقه وأمره ، وأنعم عليه بالاقطاعات الجميلة وقدمه على أقرانه ، وتزوج بامرأة الامير صالح بك ، وسكن داره العظيمة بخط الكباش . ولما مات على بك تزوج بسريره أيضاً ، وهي الست نفيسة المرادية الشهيرة الذكر بالخير . ولما انفرد محمد بك بامارة مصر ، كان هو وإبراهيم بك أكبر أمرائه . فلما سافر محمد بك أبو الذهب الى سوريا محارباً للظاهر عمر ، أقام مقامه في الحكم إبراهيم بك ، وسافر مراد بصحبته . فلما مات محمد بك أبو الذهب بعكا ، اجتمع أمراؤه على رأس مماليكه في رياسة مراد بك ، فلما حضروا الى مصر

بجثة محمد بك ، اتفق رأى الجميع على امارة من استخلفه سيدهم وهو ابراهيم بك ورضى جميعهم برياسته « لوفور عقله وسكون جأشه » (كذا عن الجبرتي) . . . وعكف مراد بك على لذاته وشهواته في دوره وقصوره . كل ذلك (كما يقول الجبرتي) على مشاركتة لابراهيم بك في الاحكام ، والنقض والابرام ، والابراد والاصدار ، ومقاسمة الأموال والدواوين ، وتقليد مماليكه واتباعه ، الولايات والمناصب . وأخذ في بذل الاموال وانفاقها على أمرائه وأتباعه فانضم اليه بعض أمراء على بك وغيرهم ممن مات أسيادهم ، فأكرمهم وواساهم . ورخص لماليكه في هفواتهم ، وسامحهم في زلاتهم ، فانقلبت أوضاعهم ، وتبدلت طباعهم ، وشرهت نفوسهم ، وعلت رؤوسهم »

ولما قدم حسن قبودان باشا الى مصر ، كما ذكرنا في غير هذا المكان ، هرب مراد بك وأتباعه ، وكذلك فعل ابراهيم بك ففر الى الصعيد . فلما اتقضت غزوة حسن قبودان باشا ، واطمحل شأن اسماعيل بك الذي أمره حسن باشا على مصر ، عاد مراد و ابراهيم الى سابق عهدهما . ومن ذلك الوقت داخل الغرور مراد بك ووطن في نفسه أنه هو الذي استرد مركزه ومركز زميله ابراهيم بك في مصر وصف الجبرتي مراد بك فقال :

« وكانت صفته أنه أشقر اللون ، مربع القامة ، كث اللحية ، غليظ الجسم والصوت ، بوجه أثر ضربة سيف ، ظالماً غشوماً متهوراً ، مختالاً ، معجباً متكبراً ، إلا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم ، وينصت لسكلامهم ، ويقبل شفاعتهم » ووصف مارسيل- (١) وهو من العلماء الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر ، وكان مديراً للطبعة الفرنسية بالقاهرة ، وعضواً بالمجمع العلمي ، وسمع ، من المماليك وأهل القاهرة ، عن ابراهيم بك ومراد بك ، فقال عنهما في كتابه

(1) J. J. Marcel de L'institut d' Egypte.

وكان مسيو مارسل هذا مستشرقاً متمكناً من اللغة العربية وقد ترجم القصيدة التي نظمها المعلم تقولا الترك في نابليون ، من العربية الى الافرنسية وألقى محاضرات في المجمع العلمي عن كثير من الشؤون العربية والاسلامية

(مصر منذ فتح العرب الى الاحتلال الفرنسي) (١) ما تعريبه :

« كان ابراهيم بك ومراد بك ينافس أحدهما الآخر ، ويفار منه ومع ذلك اتحدا ليظل الحكم في أيديهما ، على الرغم من اختلاف طباعهما . وكان أولهما أكبر سناً ، وقد زادت السنون الطوال خبرة ومعرفة بفنون السياسة ، وقدرته على كبح جماح عواطفه ، وإخفاء ما في نفسه ، فكان دائماً على حذر من زميله الذي كان يعرف فيه السكر والعجرفة ، ولكنه كان يشعر أيضاً من نفسه ، بأنه أقل منه شجاعة ، وقوة وكفاءة في الشؤون العسكرية . فاجتنب ابراهيم بك سلوك أي سبيل يضطدم فيه مع مراد بك ، أو يضطره للحرب والقتال معه .

وكان ابراهيم بك أقل جرأة من مراد بك ، ولكنه لم يكن أقل منه جوراً وطعماً ، إلا أنه كان يخفي غلظ قلبه وقسوته ، بما كان يتصنعه من الحلم والرفقة ، على خلاف مزاحمة الذي كانت تبدو عليه دائماً علامات الحدة ، وسرعة الغضب . ولم يظهر ابراهيم بك ، سواء قبل ولايته الحكم ، أو بعده ، شيئاً من حسن الاخلاق بل كان سىء السيرة ، لا قلب له ولا ذمة ، جباناً كشير الاوهام ، حليف الوسواس ، سيء الظن بالناس ، كثير الوعود لا يبر بشيء منها ، خادعاً ما كراً ، يظهر المحبة والاخلاص لمن يريد قتله !! ولا يحجم عن اتيان أي عمل ، ولكن لا يصل اليه الا بطرق خفية ملتوية .

أما مراد بك فبالعكس لم يكن يطلب شيئاً بطريق الخيلة والخداع بل بالقوة . تظهر عليه علامات القوة والغلظة ، متين الاساطين ، قوى البنية ، مقتول الساعد ، حتى انه كان يستطيع أن يقطع رأس الثور بضربة واحدة من حسامه ، وتلوح عليه ملامح الجندي ، وهيبته كهيبة الليث الغضنفر . لم يباره أحد في ميدان القتال ، وإذا غضب ارتعش الواقف أمامه من قمة رأسه الى أخمص قدميه . ولم يكن يعرف كيف يكتم حقدته وبغضه . ومع هذا فقد كان كريماً جواداً ، قريب العفو سريع الرضاء ، يقدر كفاءة الناس حتى أعداءه ، مخلصاً لأصدقائه ، باراً بوعده ، تظهر عليه أحياناً علامات الحدة والطمع ، وأحياناً يميل للحرية والاسراف ، ولكنه كان مع كل

(1) EGYPTE — Depuis la conquête des Arabes jusqu'à la Domination Française

هذا نخورا بنفسه سفا كاللدماء ، سريع الغضب ، اذا ملكته سورتها ضحى كل شىء ،
حتى مصلحته الشخصية فى سبيل الانتقام . « اه . رأى مارسيل
ومن يوثق بروايته تمام الثقة فى وصف مراد بك ، الضابط « سونينى »
الفرنسي (١) الذى ساح فى مصر سنة ١٧٧٧ . وذلك لأنه أولا بعيد عن
الغرض الذى يمكن أن ينسب الى الشيخ عبد الرحمن الجبرتنى ، أو الى مثل
مارسيل الذى سمع عنه ولم يره ، لأن مراد بك بعد فراره من واقعة امبابه ،
لم يعد الى القاهرة حين كان مارسيل بها ، وقد روى « سونينى » فى كتابه أنه قابل
مراد بك مرات عديدة وقال عنه ما يأتى :

« وكنت فى بعض الأوقات أدخل قصر مراد بك بواسطة شاب فرنسي
تمتع بثقته . وقد قابلني البك برقة ولطف ، وأجلسني الى جانبه ، وجعلني أدخل
من غايونه ، وهذا يعتبر شرفا ممتازا فى هذه البلاد ، غير أنى لم أخدع به على
الاطلاق . وقد طرح علىّ ألفاً من الأسئلة ، كان السؤال الواحد منها أسخف
من الآخر ، وظهر لى منها كلها أن الرجل على جانب من الجهل العظيم . وأخيراً
قام مقدمى اليه بشرح أمرى ، فأظهر البك ارتياحا من الأجوبة التى أجبت بها
على الأسئلة ، وكانت النتيجة أن أقترح علىّ ادخالى فى خدمته بوظيفة مزدوجة
ككاتب ومهندس ، وقدم لى داراً كبيرة فى القاهرة ، مع جميع أنواع الخدم
والحراس ، وأقوات يومية وافرة للغاية التى ليس وراءها غاية ، كما خصص لى
مرتباً كبيراً ، ومن المعقول أن يغتر بهذه الهبات أى واحد ، على غير معرفة
بهؤلاء البكوات ، الذين لا مبادئ لهم ، وبتقلباتهم فيما يقدمون من هبات
ويمنحونه من القاب الشرف ، أى هؤلاء الذين يثقلون كاهل الرجل باللكارم

(١) سونينى (Ch. Micholas Sigisbert de Manocourt)

ولد فى لوفيل سنة ١٧٥١ وتوفى سنة ١٨٢١ بباريس . عالم طبيعى وضابط فى البحرية الفرنسية
واحسن من كتب عن مصر قبل الحملة الفرنسية . وكتابه مجموعة من وصف اخلاق وعادات المصريين
فى ذلك العهد ، ووصف لأقارم مصر وحيواناتها ونباتاتها . وقد طبع كتابه فى باريس والحملة . ووجوده
فى مصر ، وترجم الى الانجليزية مرتين وطبع فى لندن سنة ١٨٨٠ . والاصل والترجمة موجودان
فى دار الكتب المصرية ، وكانت سياحته فى مصر لغرض سياسى كما سيأتى ذلك فى الفصل الآتى .

في يوم، وفي اليوم التالي يفاجئونه بوضعه في الأصفاة والاغلال الحديدية، أو قد يأمرون بإعدامه .

ومراد ، الذي كان له من الشجاعة ما مكنه من مقاتلة الفرسيين ، رجل جميل جداً ، وذو مظهر حربي ، وذقن مغطاة بلحية سوداء شعناء ، وحاجبان كثيفان يرسمان قوسين فوق عينيه المملوءتين ذكاء وحماسة وناراً . وعلى أحد وجنتيه أثر لجرح زاد منظر سحنته حدة وعنفاً . وقد جمع الى الشجاعة العظيمة مظهراً فريداً فنداً ، وقوة خارقة للعادة ، بحيث أنه اذا ركب ومر بجانب نور يستطيع أن يقطع رأسه بضربة واحدة من مهنده . وكان مقاتلاً لا يقل له عزم ، بحيث كان يستطيع أن يتحمل أشد المشاق ، كما كان فارساً مغوراً قادراً ماهراً في استعمال السيف ، وشجاعاً وقت المحنة والضيق ، وجسوراً يقدم على جلائل الاعمال والمشاريع ، ورزيناً متبداً في العمل ، ولكن له مرعب في المبدأ والمستهل ، بحيث لو تعلم مراد لكان قائداً عظيماً . وكان له شكل يدل على الكبرياء ، وسلوك يشف عن الجود والسخاء ، فأكسبه هذان الأمران ، ذلك المظهر الجليل الذي يبدو على ملك من الملوك . ولكن الحق والجهل والتساوة كانت من الصفات التي صيرته ظالماً جباراً عتياً . اه

مراد بك وحكاية اصلاح جامع عمرو

من الاعمال الطيبة الباقية الاثر والمنسوبة الى مراد بك، انه أصلح جامع عمرو بن العاص ، بل وأوجده من العدم ، ومن الناس ، من يعد له هذه المأثرة ويذكرها له بالمدح والثناء . وغريب أن يقوم رجل مثل مراد بك بهذا العمل الصالح الا أن يكون له من ورائه ما أرب ، كما كتساب قلوب الناس والجند ، من المالك بنوع خاص ، ليستأثر بالامر دون شريكه ومنافسه ابراهيم بك . وهناك روايتان ، أو وجهتا نظر مختلفتان ، في السبب الذي حمل مراد بك على ذلك العمل النافع . فالجبرتي ، وهو



مراد بك

(نقل عن كتاب مارسيل)

شاهد عيان، وخبير بأحوال ذلك الزمان ، يصف ذلك الاصلاح الذى قام به مراد بك بأنه « خطرات من وساوسه » وفى هذا الصدد يقول : (١)
« ومما سوت به نفس المترجم (مراد بك) بارشاد بعض الفقهاء ، عمارة جامع عمرو بن العاص وذلك انه لما خرب هذا الجامع ، بنحراب مدينة الفسطاط وبقية تلالا وكيماناً ، وخصوصا ما قرب من ذلك الجامع ، ولم يبق لها بعض العمار الا ما كان من الاماكن التي على ساحل النيل ، وخربت فى دولة القاصدغليه ، وأيام حسن باشا (قبودان) لما سكنتها عساكره (الاتراك) ولم يبق بساحل النيل الا بعض اماكن جهة دير النحاس (كتبها الجبرتي دار النحاس) وفم الخليج والجامع العتيق (جامع عمرو) لا يصل اليه أحد لبعده وحصوله بين الأتربة والسكان ، وكان الناس فيما أدر كنا ، يصلون فيه آخر جمعة فى رمضان فتجتمع به بعض الناس على سبيل التسلى من القاهرة ومصر وبولاق ، وبعض الامراء أيضاً ، والاعيان ، ويجمع بصحنه أرباب الملاهي من الحواة والقرادانية وأهل الملاعب والنساء الرافصات المعروفات « بالغوازي » . فيبطل ذلك أيضاً من نحو ثلاثين سنة (٢)
لهدمه وخراب ما حوله ، وسقوط سقفه وأعمدته ، وميل شقته اليمنى ، بل وسقوطها بعد ذلك ، فحسن ببال المترجم هده وتجديده بارشاد بعض الفقهاء ، ليرقع به دينه الخلق ، كما قال شاعرهم

ومسجد فى فضاء ما عمارته فوق الصيانة الالهو مخلوق

كأن عمراً دعا ياعاص هم به وره رقعة فى دينك الخلق

ثم ذكر الجبرتي ان مراد بك قام بعمارة ذلك المسجد وصرف عليه أموالاً عظيمة « أخذها من غير حلها ، ووضعها فى غير محلها » صلى الناس صلاة آخر جمعة من رمضان سنة ١٢١٢ (أى قبل وفاة مراد بك بثلاث سنوات فقط)
ثم قال الجبرتي « فلما حضرت الفرنسية فى العام القابل (١٢١٣) جرى

(١) كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار شيخ عبد الرحمن الجبرتي صحيفة ١٧٠

من الجزء الثالث (طبعة بولاق) (٢) هذه العبارات واردة فى وفيات سنة ١٢١٥

على الجامع ماجرى على غيره من الهدم والتخريب وأخذ أخشابه، حتى أصبح بلقماً أشوه مما كان فياليتها لم تزن ولم تتصدق . « ثم انتهى بهذه العبارة الى وصف لتاريخ مراد بك فقال :

« وبالجملة فمناقب المترجم لأنحصى ، وأوصافه لاستقصى ، وكان من أعظم الاسباب في خراب الاقليم المصرى ، بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور ، والتهور ، فلعل لهم بزواله »

هذه رواية الجبرتي عن إصلاح جامع عمرو ، ولكنني اطلعت على الرواية الآتية في كتاب (مارسيل) الذى سبقت الاشارة اليه ، فقد ذكر في ترجمة مراد بك الحكاية الآتية أعربها ليطلع عليها قراء اللغة العربية ، ولتسجل في التاريخ ، اظهاراً للصورة من أخلاق ذلك الرجل ، الذى وقف بجيشه أمام نابليون بونابارت في واقعة امبابه الفاصلة . قال مارسل عن مراد ، ما تعريبه : « وفرض ضريبة جديدة على تجار اليهود ، لافى القاهرة وحدها ، بل فى مصر كلها ، وكانت هذه الضريبة سبباً لاجتماع كبار الاسرائيليين فى معايدهم ، وبعد المناقشة فيما بينهم ، أرتأوا أن يرسلوا كبيرى أبحارهم ، الى مراد بك يسألوه أن يرفع مقته وغضبه عنهم . ولما وقف الخبران امام مراد بك قال له : « أيها الامير اننا فقراء ولو أردنا أن نبيع أملاً كنا ونساءنا وأولادنا ، بل وأنفسنا ، فاننا لانستطيع أن تقدم لك عشر الضريبة التى ضربتها علينا ، ولكن لو تكرمت علينا باعفائنا مما لانستطيع دفعه ، كان ذلك شفقة منك ، واننا فى مقابل ذلك نذلك على كنز عظيم حفظنا سره ، خلفاً عن سلف ، ونوصي به أبناءنا حتى لا يعرف مكانه أحد سوانا . »

فلما سمع مراد بك هذا القول أرهف أذنيه وقال « اني ألقى أمر الضريبة ، فأين السكندر ؟ فأجابه الخبران : ان السكندر مدفون فى جامع عمرو بن العاص ، فى مصر القديمة ، وكان قد وضعه ذلك الفاتح العظيم فى صندوق حديدى وخبأه فى بطن الأرض ولا يعرف محله سوانا . »

أعطيت هذه المعلومات بدقة واتقان حتى كأنها حقيقية لا مكنوبة، ومع ذلك
فكانت توجد ضمانات أخرى وهي رأسا الخبرين المبلغين!!

لم يسرع مراد بك في وضع يده على الكنز الذي أصبح يعده ملكاً له ،
خوفاً من ان يتهم بتخريب الجوامع . ولكي يضع يده على الكنز دون أن يثير
سخط الشعب عليه ، رأى أن يتظاهر بخروجه الى الصيد ، وعند عودته مر بالجامع
ودخل فيه متظاهراً بالصلاة ، فلما قبله فيه المشايخ ، قال لهم مراد بك ، : وقد رأى
الجامع وأطلاله خربة — « مادام الله قد قادني الى هذا المكان المقدس ، فانه أراد
بذلك من دون شك ، أن أكون أنا الشخص الذي يتولى اصلاحه ونجديده ، وان
يقرن اسمي باسم مؤسسه عمرو بن العاص في دعائكم . . وغداً سأرسل العمال
والصناع للبدء في اصلاحه . »

وفي اليوم التالي جاء العمال ولكن بدلا من أن يشتغلوا باصلاح الخرائب
عمدوا الى هدم المباني ، وحفر الأرض في المكان الذي رسمه لهم وكيل مراد
بك وكاتم أسرارته المخلص

وبعد بضع دقائق ظهرت أرض الجامع وأخطر مراد بك فجاء مسرعاً يشهد
بنفسه اخراج الصندوق الحديدي كما أخبره الخبران . فوجد الصندوق وكان
نصفه أحمر من الصدأ واقفاله لا مفاتيح لها ، ولما كسر الصندوق وجد فيه بعض
أوراق من الرق مكتوبة عليها آيات قرآنية بخط كوفي على الطراز الذي كان
يكتب به في عصر عمرو بن العاص .

وكان من حسن حظ الخبرين انهما تواريا بين الجمهور وهربا قبل أن يظفر بهما
مراد بك الذي عند ما عاد الى القاهرة اتقم من اليهود بفرض ضريبة مضاعفة عليهم
وكان يجلد من تأخر في دفع ما عليه «

هذه رواية مارسيل . ولا ندري من أين جاء بها . كما أننا لا نتصور كيف
يستطيع اختلافاً ، ونستغرب أيضاً كيف لم يصل خبرها الى مسامع الجبرتي وهو
عاش في تلك الفترة من الزمن ، مختلط بالعلماء والمشايخ والامراء والحكام ، واليهود

والنصارى على السواء . ولعلها من الاشاعات والحكايات التي كانت تروى للاجانب قبل الحملة الفرنسية وبعدها . ومن تلك الاقاصيص ، التي رويت عن مراد بك فيما كتبه كتاب الافرنج ولم نجد لها أثراً في كتاب الجبرتي ، وهو العمدة الوحيد في هذه الفترة - حكاية مراد بك وكيف وجده أبوه بعد أن اختطف من أحضانه طفلاً ، وبيع كغيره من المماليك ، ثم ارتقى حتى صار شبه ملك في مصر . وهي حكاية رواها « سافاري » في خطاباته الموجهة الى شقيق ملك فرنسا ، قبل الثورة الفرنسية في سنة ١٧٧٩ (١)

ولقد كان من الامور الطبيعية أن طفلاً يخطف من بين أحضان أمه وأبيه ، ويباع بيع الرقيق ، فيصير مملوكاً لسيد من الاسياد ، ثم ينهض به الجد الباهر ، من قتي حقير ، الى زعيم ثم أمير ، وأخيراً يصل الى السيادة على مصر كانه يوسف الصديق . وكان من الامور الطبيعية أيضاً أن يفكر هذا الولد في أهله وامه وأبيه ، ويفكر كيف يبعث اليهم فيحضرهم ويبرهم ، كما حدث ليوسف الصديق ، حين دخل عليه اخوته وهم له منكرون

وأما رواية « سافاري » التي رواها عن مراد بك وأبيه ، فهي كما جاء في الخطاب الثالث والعشرين سنة ١٧٧٩ كما يأتي :

« واختم هذا الخطاب يا مولاي بالرواية الآتية التي تريك ان حوادث يعقوب وولده يوسف (عليهما السلام) تتجدد في هذه الديار . ففي العام الماضي حصل قحط عظيم أتى على الحرث والنسل في الديار الشامية ، وكان ثمت رجل طاعن في السن يقيم في ضواحي دمشق ، وضافت الخال بهذا الرجل وعز عليه اطعام أولاده الصغار ، وبينما هو يبيع في أسواق تلك البلدة شيئاً من بقايا متاعه ليبتاع بثمنه غذاء لأولاده ، سمع القوم ، في القافلة القادمة بالارز من دمياط ، يتحدثون عن

(1) Lettres Sur L' Egypte par M. Savary

هذا الكتاب مطبوع في باريس سنة ١٧٨٥ ومقدم الى شقيق ملك فرنسا وترجم الى الانجليزية في سنة ١٧٨٦ ، وموجود بالفتن في دار الكتب المصرية

مراد بك وقهره لاعدائه ، ودخوله القاهرة ظافراً . ثم سمع منهم وصفهم لذلك الامير ولاخلاقه ، وخلقه ، وطول قامته ، ولون عينيه ، وخيل لذلك الرجل الهرم انه يرى في تلك الاوصاف ملامح ولده الذي أختطف منه وهو في سن الثانية عشرة من عمره ، فصمم في الحال على السفر الى مصر ، وفعلا سافر ووصل اليها ، وقابل ولده المفقود ، وتعرف به ، ولا تسئل عما دار بين الولد وأبيه من ذكري الماضي والحاضر ، فحن اليه مراد وأجلسه الى جانبه ، وطلب اليه أن يبعث في طلب اخوته في الحال ، ودعا أباه الى اعتناق الدين الاسلامي ، فاعتذر الشيخ ، ثم بعد مدة رغب في العودة الى بلده فأمدته مراد بمبلغ طائل من المال ، وأرسله محفوظاً بالاكرام والاجلال ، الى دمشق . . اه

هذه رواية سافاري ، وغريب أنها فانت الجبرتي وهو معاصر لمراد بك !!!
وقد تكون من نوع الاشاعات والروايات التي أشرفنا اليها .
وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فمن المؤكد ان هذا الحادث حصل مع علي بك الكبير في سنة ١٧٦٦

ولمّا كان علي بك المشار اليه ، رجلاً استقل بملك مصر ، وصار ملكاً عليها وعلى الحجاز ، وعلى جزء كبير من البلاد السورية ، فان رواية كالتى سنذكرها عنه ، جديرة بان تدون في صحائف التاريخ ، خصوصاً وأنه لا أثر لها مطلقاً في أى مصدر من المصادر العربية ، فقد روى (ستافرو لاسنيان) الرومى مؤلف كتاب « ثورة على بك » — ذلك الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه في صحيفة ١٩ (حاشية نمرة ٢) — الرواية الآتية بجزءها . قال (١)

« وفي سنة ١٧٦٦ بعث علي بك باحد أمرائه الملقب طنطاوى بك — وهو أحد محاسبيه الذى تقدم ذكرهم ، وأحد الذين رقاهم الى رتبة البكوية — الى الاستانة مع « الخزنة » أى الجزية التى كانت تدفعها مصر للباب العالى سنويا ، وأمره أن يرسل

(1) The Revolt of Aly Bey — London 1784 Page 83

(ثورة على بك) صحيفة ٨٣ تأليف ستافرو لاسنيان المحفوظ بدار الكتب المصرية

حين وصوله الى الاستانة ، رجلاً موثقاً به الى أماسيا (في الاناضول) ليبحث عما اذا كان أباه وأمه لا يزالان في قيد الحياة ، حتى اذا وجدتهما كذلك يدعوهما الى السفر الى الاستانة ليحضرا الى مصر مع طنطاوى بك عند عودته . وقد قام طنطاوى بك بتنفيذ ارادة مولاة فأوفد خازن داره الى بلدة أماسيا فوجد المدعو داوود ، والد على بك حياً (١) فافضى اليه الرسول بمهمته فسر الشيخ الهرم سروراً عظيماً لعشوره على ولده المفقود ، وسرعان ما سوى مهامه وشؤونه المنزلية وسافر مع الخازن دار ، ومعه أصغر بناته وحفيد له ، تاركاً أكبر بناته في المنزل مع زوجها .

ووصل الى الاستانة ، في وقت انتهاء طنطاوى بك من مهمته ، وفعلاً حضر هو وابنته الى القاهرة بعد رحلة دامت أربعين يوماً . ووصلت البشائر الى على بك بمقدم والده ، فخرج من المدينة ومعه كثيرون من أتباعه لتقابلته ، وحين رآه جثا على ركبتيه وقبل يديه .

ووصف الكاتب الفرع الذي استولى على الوالد وولده ، ثم قال وبعد ذلك أم الجميع منزل على بك السكائن في الازبكية (٢) وتولى المالك والاتباع غسل أقدام القس داوود ، ثم دخلوا به الى الحريم ، وهناك قدم له على زوجته مريم (٣) قال المؤلف ، وأقيمت الافراح في المدينة وتلقى على بك التهناني من

(١) جاء في الفصل الاول من كتاب ثورة على بك ان داوود هذا كان قسيساً من قساوسة الروم الارثوذكس وان على بك لما ولد في سنة ١٧٢٨ م. سمي يوسف . رانه خطف لما كان سنه ثلاث عشرة سنة .

(٢) كان لعلى بك دار واسعة في شارع عبد الحق المطل على بركة الازبكية وهذه الدار احتلتها بعده محمد بك ابو الذهب وتزوج فيها الست نفيسة المرادية . وتقع هذه الدار في الطرف الغربي من العمارة التي كانت فيها الاوبرا بار والسنترال اليوم ولا يزال اسم الشارع المجاور لها شارع (عبد الحق السباطي)

(٣) كان على بك متزوجاً من امرأة مسيحية يونانية الاصل اسمها مريم وكانت تتظاهر بانها اعتنقت الاسلام بناء على اتفاق بينها وبين زوجها

البكوات والأمرء ، وأرسل الباشا ، والى الدولة ، تهنئته مع كتبخدائه ، وأبدى رغبته
في مقابلة الوالد داوود

قال أيضاً: ثم أقلم داوود سبعة أشهر في القاهرة وصمم على العودة الى أماسيا
ولم تنفع معه توسلات ولده بالبقاء ، فسافر من مصر محملاً بالهدايا النفيسة ، وأقلته
سفينة خاصة الى الاستانة . وصدرت الاوامر الى كجو كتبخدا مصر في الاستانة ،
ليقوم بما يلزم لترحيل داوود الى بلده

وأهم أنباء هذه الرواية هو ان على بك بذل مجهودات كبيرة لدى والده
لحمله على تزويج أخته المسماة « يهود » (كذا في الاصل) الى محمد بك ابو الذهب
ذلك الذي غدر به بعد ، وكان سبب نكته وسقوطه من ذلك العرش الذي صعد
اليه بهمته وكفاءته .

هذه الرواية موثوق بسندها اكثر كثيراً من رواية سافارى ، عن مراد بك
ووالده ، وليس من البعيد أن يكون سافارى قد سمع هذه الحكاية من أفواه الناس
ونسبها الى مراد بك ليفكه بها مولاه شقيق ملك فرنسا !! .

وكيفما كان الحال فان هذه الروايات تضع أمام القارئ صورة صادقة ، لنشأة
أوائك المالك الآفاقيين الذين قضى على مصر بان يتولوا حكمها ، وسيطروا على
حياتها ووجودها ومستقبلها ، في ذلك الزمن العصيب

ذكرنا أن مراد بك مات في سنة ١٢١٥ هـ - ١٨٠١ م . وأما ابراهيم بك
فانه بقى الى ما بعد مذبحه المالك ، على يد محمد على باشا بالقلعة سنة ١٨١١ م . ،
ومات في بلاد النوبة . وهذه رواية الجبرتي عن وفاته قال في الجزء الرابع (١) :
في وفيات سنة ١٢٣١ هـ . « ومات الامير الكبير الشهير ابراهيم بك الحمدي

(نسبة الى مولاد محمد أبو الذهب) ، مات بدقله متغرباً عن مصر . . وكان موصوفاً بالشجاعة والفروسية ، وبأشر عدة حروب وكان ساكن الجأش صبوراً ذا تودة وحلم ، قريباً للانقياد الى الحق ، متجنباً للهزل الا نادراً مع السكالم والحشمة لا يحب سفك الدماء . . . »

ثم ذكر سيرته مع مماليكه وسأهله معهم حتى داخلهم الغرور ، وغرتهم الغفلة عن عواقب الأمور ، واستضعفوا من عداهم ، وامتدت أيديهم لأخذ أموال التجار ، وبضائع الافرنج الفرنسيين وغيرهم بدون الثمن مع الخفارة لهم ولغيرهم فكان هذا من الأسباب التي عجلت بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، أو كان من الاسباب التي توسلوا بها لغزو مصر .

وقد وصف «مارسيل» حالة مراد بك و ابراهيم بك قبيل الحملة الفرنسية فقال في كتابه الذي سبقته الاشارة اليه ما تعريبه :

« ساءت حالة مراد بك ولم يستطع مناوئة زميله ابراهيم بك و بقيت مراجل الغيظ والحقد تغلي في نفس كل منهما ، ولكن كان الاهالي يدفعون دائماً النفقات اللازمة لرجلها بوسائل متنوعة ، وضرائب شتى تضرب من وقت لآخر على سكان القاهرة ، وسكان الاقاليم . لأن مراد بك ، و ابراهيم بك لم يكونا ليتفقا الا على سلب الاهالي ، وسحق مصر ، سواء أ كانا غالبين أو مغلوبين ، في يديهما القاهرة ، أو مطرودين منها الى الصعيد

وكان الغرض الوحيد الذي يرميان اليه هو الاستيلاء على أموال المصريين . وبعد أن نصب معين تلك الاموال ، عمدا الى التجار الاجانب ، لا سيما الفرنسيين في القاهرة ورشيد والاسكندرية ، فتحمل محل (فارسي) في رشيد ومحلات نيدورف وكاف ، وهنريسي و بودوف (١) وبري ريال ، في القاهرة ، مالا تطيقه

(١) صار مسبو بوديف وكاف هذان. في وقت من الاوقات ، أثناء الاحتلال الفرنسي في مصر ، عضوين في الديوان وورد ذكرهما في الجبرتي كما يراه القارىء في مكانه

نفس أحد ، ووضعت عليهم ضرائب ناهوا بحملها . ولم يجد تدخل الباشا شيئاً
ولم تقابل الطلبات التي عرضت في الاستانة على السلطان سليم الثالث الا بالصمت
والاغضاء وكان ذلك سبباً في استمرار الظالمين على مظلماهما اذ أدركا عجز
الباب العالي عن ردهما

ولما بلغت الامور حدها ، وعيل صبر التجار الفرنسيين ، أرسلوا عريضة الى
حكومة الديركتوار في الجمهورية سنة ١٧٩٥ فحالتها على القنصل « ماجلون » . ولم
يهتم مراد بك بالرد على عرائض القناصل الاوربيين الا بتشديد الحملة على التجار ،
بل أراد فوق ذلك أن يدمر محلاتهم في القاهرة ويعطل تجارتهم »

..

تلك كانت حالة مصر كما وصفناها باسمها قبيل الحملة الفرنسية . وهكذا
كانت أخلاق الرجال الذين يحكمونها عند وقوع ذلك الحادث الجلل ، في تاريخ
السياسة والجنس البشري ومصر بنوع خاص ، وأعنى به قدوم نابليون بونابرت
لفتح مصر ، بل لفتح أبوابها الى العالم الاوربي ، والسياسة الاستعمارية ، والمدنية
الغربية أيضاً

وذلك كانت هي الاسباب السياسية والتاريخية التي جرت بسلسلتها الطبيعية
الى الاحتلال الفرنسي

وسأتى في الجزء الثاني من هذا الكتاب على الاسباب التي سافت فرنسا ،
والسياسة الاوربية ، الى فتح باب المسألة المصرية ، في اللحظة الاخيرة من القرن
الثامن عشر ، وفي مستهل القرن التاسع عشر

الفصل الثاني

تاريخ فكرة الحملة الفرنسية

على الديار المصرية

لا بد لنا قبل الكلام على الحملة الفرنسية ؛ وما تم على يديها ، وما حصل لها في هذه الديار المصرية ، أن نفرّد فصلاً خاصاً للأسباب التي حملت حكومة الجمهورية الفرنسية ، على القيام بهذه الحملة ، في الوقت الذي كانت فيه تلك الادارة الفرنسية ، مبعوضة ممقوتة من جميع دول أوروبا المعتبرة في ذلك الحين ، حتى أنها كانت في الحقيقة في حرب مع النمسا وجمهورية إيطاليا ، (وإن يكن نابليون قد أخضع هاتين الأخيرتين) وعداوة مستحكمة مع روسيا ، وحرب مستمرة مع انكلترا ، هذا فضلاً عن أن الجمهورية الفرنسية ، لم يكن قد توطدت بعد أركانها ، أو ثبتت دعائمها .

قد يقال لنا إن هذا فصل من تاريخ فرنسا ، وعلاقتها بالدول الأخرى ، وأن لا شأن له في تاريخ مصر ، الذي هو الغرض من هذا الكتاب ، ولكن اعتراضاً كهذا لا يصدر إلا عن نظر سطحي ، لأن الوقوف على حقيقة مركز مصر في السياسة الأوروبية ، وعلاقة هذا المركز بالحركة الاستعمارية ، التي قامت بها أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل التاسع عشر ، لا يكون إلا بمعرفة المصريين الأسباب التي دفعت فرنسا الى فتح الديار المصرية . ثم إن إدراك العوامل التي حاربت فرنسا في مصر ، وأجبرتها على الجلاء عن هذه الديار ، بل وفهم الحوادث التي سنأتى عليها في هذا الجزء من كتابنا ، وفيما وقع من اتفاق الدولة العثمانية مع انكلترا ، والقضاء على كل أحلام نابليون والفرنسيين كافة في الشرق ، — لا يكون إلا بفهم الأسباب التي حملت فرنسا للغارة على وادي النيل

واننا مع ما نعلمه من صعوبة هذا البحث، والتحقيق التاريخي بشأنه، لم نر بداً من الخوض فيه، مع أنه قد كان في إمكاننا التجاوز عنه. وصعوبة هذا البحث لا ترجع لقلّة المواد أو لثمتها، أو لغموضها، فهي هنا أكثر وضوحاً وجلاءً من البحث السابق، عن مصر قبل الحملة في المقدمة. والمصادر التي يرجع إلى الأخذ عنها كثيرة، وقد وضع فيه الكتاب الفرنسيون فصولاً طويلة، بل وضعت له كتب خاصة وأحسنها وأوفاهها كتاب « أسباب الحملة الفرنسية على مصر (١) » تأليف (شارل رو)، وهو كاتب بجائز كان موظفًا بوكالة فرنسا السياسية في القطر المصري، وكتابه هذا متوّج برضاء الأكاديمي الفرنسية. ولكن صعوبة هذا البحث ليست في قلّة مواده، ولكن في اختصاره ووضع في الصيغة اللائقة المتناسبة، مع قيمة الحوادث في هذا الكتاب، وصعوبته أيضاً ترجع إلى أن قراء العربية في حاجة إلى إيضاح أمور لم يدرسوها، ووصف رجال كثيرين لم تسبق لهم معرفة بتاريخهم، هذا فضلاً عن ضرورة إيقاف قراء العربية على مختصر من تاريخ نابليون، وعلاقته بحكومة بلاده ورجال السياسة الذين كان لهم شأن في فكرة الحملة الفرنسية على مصر، وهذا المطلب وحده كان جديراً بأن يلوى عنان الكاتب ويرد منه الطرف حسيراً.

ولكننا وقد وطننا العزم على تأدية هذا الواجب، فلن نرجع حتى نجول فيه جولة بقدر المستطاع، فإن وفيناها حقّه فهو غاية المرام، وإن قصرنا، فيكون ما نضعه في هذا الباب أساساً يبني عليه من يكتب بعدنا فيه، ممن هم أغزر مادة، وأفصح بياناً. ولن يذهب باجتهاد المجتهد أنه لا يصيب

كانت مصر منذ القدم، ولا تزال إلى يومنا هذا، عروس الشرق، وخريدة عقد العالم المتوسط، ولذا كانت دائماً مطمح أنظار الدول التي يقوى شأنها في هذه الدنيا. ولو كانت مصر هذه، بنيلها وأرضها الخصبية، وأهلها

أسباب
الحملة الفرنسية

(1) Les Origines de L' Expedition D' Egypte.
Par François Charle Roux

الذين سلس قيادهم ، وسهل حكمهم ، في مكان غير مكانها الجغرافي الذي هي فيه ، كأن تكون في آسيا أو في أمريكا مثلاً ، لما تطلعت اليها الأنظار ، ولما تسابق نحوها القواد العظام ، والدول العظيمة الشأن ، لأن ثروة مصر الطبيعية القاصرة على الأرض والزرع ، ليست في حد ذاتها مما يبعث على الطمع والجشع ، فشكل ما يخرج منها يكفي لأبنائها ، ولكن وجودها على مفرق الطرق ، وملتقى أشعة العالم ، وكونها « الطريق السلطاني » لمتاجر الشرق والغرب ، هو الذي جعل لها هذه الأهمية ، ووجه اليها المطامع منذ القدم وإلى اليوم .

فلذلك لم يكن غرض الاستيلاء على مصر ، في كل الأوقات ، موجهاً لها بالذات ، بل كثيراً ما كان للقضاء على نفوذ دولة من الدول ، أو عرقلة لنمو أمة من الأمم ، ولا شأن لنا أن نضرب على هذه النظرية الأمثلة من التاريخ القديم ، إذ تكفيننا حوادث القرن الماضي وما تقدمه ، للتدليل على ما نقول ، وخصوصاً فيما نحن بصددده من تاريخ الحملة الفرنسية على مصر ، فإن تاريخ هذه الفكرة يرجع إلى عهد أبعد ، حين لم يكن يحلم أحد فيه بالثورة الفرنسية ، أو جمهوريتها ، ولا نابليون وفتوحاته ، وأميراطوريته .

فقد كان ليبنتز (١) Leibnitz أول من فكر في ذلك إذ كان لويس

(١) ليبنتز Gatterfreed Wilhelm Leibnitz فيلسوف كبير . ورياضي شهير ، وسياسي ومؤرخ . ولد في ليبزج من أعمال المانيا سنة ١٦٤٦ وتوفي سنة ١٧١٦ . كان المانيا ورأى من سياسة لويس الرابع عشر انه ينوي الغارة على المانيا فسافر إلى باريس ليحبل لويس الرابع عشر على تغيير سياسته وليقتنعه انه ليس من الصواب محاربة اوربا المسيحية لبعضها . وعرض عليه فكرة الحملة على مصر باسم المسيحية ظاهراً . ولكن الحقيقة في الباطن هي اسقاط الدولة الهولندية . وكتب مذكرة بل كتاباً مطولاً باللغة اللاتينية وفي هذه المذكرة فذلك من تاريخ الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع على مصر (اشرنا إلى هذه الحملة في صحيفة ٤) ثم تدرج إلى علاقة فرنسا بتركيا ومصالح فرنسا في احتلال وادي النيل وقد بقي أمر هذه المذكرة سراً مدة . ومما من ذلك العهد حتى احتل نابليون بلدة هانوفر سنة ١٨٠٣ وهناك وجدوا في مكتبها نسخة من المذكرة المشار إليها . ومنها عرف ان فكرة الحملة الفرنسية على مصر ليست حديثة العهد . وحصلت الحكومة الإنجليزية على نسخة من هذه المذكرة اللاتينية ، ونشرت في لندن خلاصة لها باللغة الإنجليزية في أواخر سنة ١٨٠٣ لايقاف الشعب البريطاني على فكرة احتلال فرنسا مصر والغرض منه . وفي ظل ذلك تحرير من الأمانة الإنجليزية على احتلال مصر . وقد عثرت على نسخة من هذه الخلاصة الإنجليزية (طبعة ثانية) وهي موجودة في دار الكتب المصرية مرة ٤٥٧٢ تاريخ — وتاريخها سنة ١٨٠٣

الرابع عشر في سنة ١٦٧٢ بحارب بلاد الفلمنك (هولانده) التي كان لها في ذلك العصر نفوذ كبير ، ومستعمرات ومناجر واسعة في الشرق والغرب - تلك المستعمرات التي من بقاياها الآن صومترا وجاوه الاسلاميتان - فكتب ذلك الرجل الكبير الى لويس الرابع عشر يقول « اذا كان مولاي يريد القضاء على جمهورية هولاندة فأحسن وسيلة لذلك هي ضرب هذه الأمة في مصر - هناك حيث يوجد طريق الهند ، وحيث يمكن تمويل التجارة الهولندية الى طريق مصر : »

ثم لما قويت سلطة روسيا ، وامتد رواق فتوحاتها على الممالك العثمانية ، في أواخر القرن الثامن عشر ، أي في الوقت الذي حاول علي بك الكبير الاستقلال بملك مصر ، خافت فرنسا من استيلاء روسيا على الاستانة ، ومزيق شمل الدولة العثمانية ، فارتأت حكومة لويس السادس عشر ، قبل الثورة الفرنسية بضع سنوات ، أن تحتل مصر غنيمة لها من ميراث الدولة العثمانية ، وفي هذا الصدد قال مسيو ده سارتين M. de Sartine وزير البحرية ، اذ ذلك ، في مجلس الوزراء : « ان احتلال مصر هو الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتنا في البحر الأبيض ومتى توطدت قدمنا في مصر ، صرنا اصحاب السيادة على البحر الاحمر وصرنا نستطيع أن نهاجم انكلترا في الهند ، أو ننشئ في تلك الاصقاع متاجر تنافس بها الانجليز ... الخ »

ووافق هذا الرأي حكومة لويس السادس عشر فأوفدت في سنة ١٧٧٧ لمصر البارون ده توت (١) Baron de Tott بدعوى إنه قادم لعمل مباحث فلكية

(١) بارون دي توت François Baron de Tott ولد في شامبني سنة ١٧٣٣ وكان موظفاً في سفارة فرنسا في الاستانة وعين قنصلاً لدولته في القريم في سنة ١٧٦٧ ثم وظفته الحكومة التركية في عهد السلطان مصطفى الثالث ، وقام بتحصين الدردنيل ضد هجمات الروس ، وأنشأ في تركيا معالم للأسلحة النارية ، ثم استقال وعاد لباريس وله مؤلف في ثلاثة أجزاء عن الترك والتتار... جاء في رحلة «سونبني» ما يأتي بحروفه : عيّنت الحكومة الفرنسية مسيو «توت» مفتشاً لموانئ البحر الأبيض (شواطيء سوريا وأفريقيا) وأصدرت أمرها بأعداد فرقاطة

وعلمية « لا كادىي العلوم » ، ولكنه كان مكلفاً بعمل خرائط لشواطئ مصر وسوريا وجزر اليونان وجزيرة كريد أيضاً ، وكلف بنوع خاص أن يدرس النقطة الواقعة من ساحل مصر ، بين الاسكندرية وأبي قير ، ومعرفة أى نقطة تصلح لانزال الجنود الى البر ، وكان معه ضابط من البحرية لقياس عمق النقط المجاورة للساحل ليعرف ما يصلح منها لسير السفن ، وكلف « سونيني » الذى سبق ذكره ، أو آخر بالسفر الى السويس لمثل تلك المباحث ولرسم خريطة عن مدينة القاهرة فى أثناء مروره بها ، وقد فعل ذلك كله فى الوقت الذى كان فيه مراد بك و ابراهيم بك يتطاحنان مع اسماعيل بك ، أحد مماليك على بك الكبير ، الذى ولى مشيخة البلد :

قال المؤرخون الفرنسيون : ومرت بضع سنوات لم توطد فيها حكومة لويس السادس عشر العزيمة على تنفيذ ما صممت عليه ، حتى كانت سنة ١٧٨١ كتب الكونت ده سان بريست Saint-Priest سفير فرنسا فى الاستانة يستحث حكومته على فتح مصر وقد ورد فى كتاب السفير المشار اليه قوله « إن روسيا قد صارت على مقربة من القسطنطينية وربما استطاعت أن تقضى على تركيا فى أوروبا (١) قبل أن تستطيع دولة ما مساعدتها ، فعلى فرنسا أن تسرع فى احتلال مصر التى لا تكلف فرنسا صعوبة ، لان مصر خالية من أى تحصين ما ، ولأنه لا يوجد فيها من الجيوش أكثر من خمسة أو ستة آلاف مملوك ، لم يقفوا فى ميدان حرب منظمة ، وليس لديهم مدفع واحد ، وفعلا صممت الحكومة على تنفيذ هذه السياسة ، وأعدت ثمانية وعشرين ألف جندي لهذه الحملة ، وجهزت السفن لنقل هذه القوة الى الاسكندرية وأبي قير ودمياط

لسفره من ميناء طولون وأمرت أن أسافر معه فى نفس الباخرة وأن أبقى فيها حتى تؤدى ما أمرت بها ولكن الأوامر صدرت بعد ذلك متناقضة للاولى فلذلك غادرت السفينة فى الاسكندرية لا واصل رحلتى فى الديار المصرية . . . وهذا يشعر بأن الأوامر صدرت له بارتداد الديار المصرية وأنه لم يكن سائحا بسيطاً كما يدعى فى كتاب رحلته الذى سبقت الإشارة اليه فى ذيل صحيفة ٥٣ من هذا الكتاب

(١) . . . واقضت مائة وثلاثة وأربعون سنة من ذلك التاريخ ولا تزال تركيا فى أوربا وروسيا الى اليوم مفككة العربى ، ولله فى خلقه شؤون

وكانوا يعتمدون على مساعدة المسيحيين العديدين المقيمين في القاهرة وفي الوجه القبلي والذين يتولون ادارة الاعمال للبيكات (١) واسكن حوادث الحرب في أمريكا عطلت سفر هذه الحملة ثم قامت الثورة الفرنسية على قدم وساق وسقطت الملكية وسالت الدماء أنهاراً في باريس فأعمل شأن مصر وغير مصر .

ويظهر مما تقدم أن فكرة احتلال فرنسا لمصر قديمة وقد ظهر جلياً من المستندات العديدة أن سافاري وسونيني ، لم يكونا سائحين فقط ، بل كانا من رسل الحكومة الملكية في باريس . وفي رسائل سافاري ما يثبت جلياً أنه كان يجرى حكمة فرنسا على احتلال مصر ، فقد ورد في إحدى رسائله قوله :

« لو أن في مصر حكومة عادلة وتوجهت نية هذا الشعب المصرى الذكى الى خدمة أرض مصر الخصبه ، فأى جوخ ينسج من صوف أغنام مصر الجميل ، وأى قماش يعمل من كتانها الناعم ، وأى أقمشة تصنع من قطنها بنوعيه (٢) وأى حرير ينسج من نتاج دود القز الذى ينمو فى بلد كهذه ، صافية لا مطر فيها ولا غمام ؟؟ وأى خير لا يبغى اذا حفرت الترع ، وأقيمت الجسور لجعل الارض صالحة للزراعة ؛ وهى التى دفنت ثلثها الرمال ؛ واى نجاح لا يناله الانسان اذا بحث عن مناجم الزمرد الذى يقال أنه يوجد فى تربة هذه البلاد ؟؟ . اه كلام سافاري ثم قامت الثورة الفرنسية وتأجج لهيبها ، واكثرت بعضها حتى بدأت نارها فى الخلود ، وعلا نجم نابليون بونابرت بعد انتصاراته فى شمال ايطاليا وقهره للنمسا ، ففكر فى الغارة على مصر للأسباب التى سنأتى عليها .

وهنا يلزمنا أن نأتى على خلاصة موجزة من تاريخ حياة نابليون لسكى يقف القارى . العربى على قيعة الرجل الذى قدم لفتح مصر وكانت له فيها حوادث أشبه بالقصص الروائية ، منها بالحقائق التاريخية ذلك الرجل الذى جالس علماء الأزهر وناقشهم فى الأديان ، وشرب معهم

(١) دانيس لاكروا Denis Lacroix فى كتابه Bonaparte En Egypte

بونابارت فى مصر
(٢) هذه الاشارة تدل على أن القطن كان يزرع فى مصر قبل الحملة . وتداول بين الناس والمؤرخين أن محمد على هو الذى أدخل زراعة القطن فى مصر

القهوة جالسا القرفصاء مثلهم على الوسائد والحشايا ، ودخن التبغ مثلهم في الشبكات ، حتى ارتدى اللباس العربي مثلهم ، وشهد مع المصريين حفلاتهم في مولد النبي ، وفتح الخليج ، وتناول في شهر رمضان الطعام على الموائد الشرقية ، في منزل السيد البكري ، والسيد السادات ، ولقبوه في مصر بالسلطان الكبير ، وكان يذكره الجبرتي في كتابه باسم « ساري عسكر الفرنسيس بونابرت »

°

إن مجرد ذكر « نابوليون بونابرت » يجلب امام مخيلة الذين وقفوا على شيء من التاريخ تصورات كثيرة ، وخيالات كبيرة . من ذا الذي لم يسمع باسم هذا الرجل العظيم الذي ملأ الدنيا بذكره حتى دوى صيته في الخافقين ، ولا يزال يرن صدى هذا الدوى في الأذان ، وسيتبقى كذلك مادام على سطح هذه الكرة الأرضية انسان ! نابوليون بونابرت ، ذلك الفتى الذي صعد من التراب ، الى السحاب ، فارتقى من ضابط صغير فقير ، الى قمة أكبر عرش في العالم .. نابوليون ذلك الرجل القائد الذي دوخ أوروبا بأسرها ، وركعت له القياصرة ، وسجدت له الملوك ؛ الكلام على هذا النمط لائق بالشعراء ، وذوى الخيال . وليس أفصح ، ولا أعلى قيمة في البلاغة ، من مقال السيد توفيق البكري ، - حفيد البكري الذي جالس نابوليون في منزله - عن نابوليون .. تلك الدرة القيمة التي كتبها السيد توفيق البكري عند زيارته لمقبرة البانتيون ، وهي منشورة في كتابه « صهاريج الأؤلؤ » وإنما يليق بنا في مقام التاريخ أن ننزل من ذروة الشعر والخيال ، الى أرض الحقيقة الجامدة ، والحوادث البارزة الباردة ، فنقول :

ولد نابوليون في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ (وفي نفس هذا العام ولد محمد علي مؤسس العائلة العلوية) في مدينة اجاكسيو من أعمال جزيرة كورسيكا ، من أب اشتهر بالأقدام والوطنية ، والميل الى الشعر والفصاحة ، ومن أم كانت مثال الكمال والاخلاص ، وحسن الاحدوثة وطيب الخلق . ولقد وصفها باولي Paoli (١) في

(١) باولي هو باسكال باولي بطل كورسيكا وزعيم نورتها وقائدها للحرية وكان اسمه يدوي في جميع العواصم الاوربية

سنة ١٧٩٣ ، بأنها امرأة جديرة بأن تلد الأبطال ، وكان أهل هذه الجزيرة مشهورين بالشجاعة ، وحب الحرية . حتى طالبوا بها في ثورات اشتركت فيها أم نابوليون ، وهي حامل فيه ، وفي أهل كورسيكا كثير من صفات العرب العرباء من حيث الكرم والشجاعة والصبر على المكاره ، والتمسك بأهداب الحرية، ومن هذا العنصر ولد نابوليون العظيم

لما بلغ نابليون التاسعة من عمره أرسله أبواه في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٧٨ الى « اوتون » Autun في فرنسا لتلقي العلوم ودراسة اللغة الفرنسية وكانت أمه لاتحسن الكلام بهذه اللغة فبقي في فرنسا نيفاً وسبع سنوات متوالية لم تقع فيها عينه على وطنه ولما عاد الى مسقط رأسه في سبتمبر سنة ١٧٨٦ - أي قبل قدومه لمصر قائداً عظيماً بنحو اثنى عشرة سنة - كان عمره سبعة عشر سنة وقد صار ملازماً ثانياً في الطوبجية . قال المؤرخون الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة ، من حياة نابوليون ، سواء وهو طفل على مكتبه ، أو امبراطور على أريكته ، إن نابوليون لما كان تلميذاً بمدرسة بريين Brienne كان يشعر كأنه غريب بين أقرانه ، لانه لم يكن فرنسياً وكان التلامذة يحقرونه لهجته الاجنبية ، ولعدم انسابه الى الاسر العريقة في النسب ، وفوق ذلك ، لضيق ذات يده أيضاً ، فكان ذلك من ادعى الاسباب الى تكوين نفس الفتى ، وعدم اشتغاله باللهو ، وانفراده بذاته ، في غدواته وروحاته ، وثار المطامع تتأجج في صدره ، وتسرى في شرايين جسمه ، وتأكل في خلايا قلبه . وكان ميالاً الى العلوم الرياضية أكثر من سواها . وكانت رسائله التي يبعث بها الى أبويه ، وهو في سن الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، تدل على نمو عقل ، ورجاحة فكر ، حتى قال عنه أحد كتاب الانجليز المدققين (١) « ولقد يخيل لنا أن نابوليون لم يكن أبداً صغيراً » ولقد أدرك هذا الفتى في صغره أن الجندية كحرفة ، هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها الوصول الى إدراك المعالي ، وأن القواد العظام الذين أحسنوا الاستفادة من

(١) هربرت فيشر مؤلف حياة نابوليون، وصاحب المباحث العويصة البديعة في كتابه
Bonapartism & Studies in Napoleonic Statesmanship.

ظروفهم، هم الذين استطاعوا قلب الممالك، وقل العروش، ولبس التيجان، فلذلك كان شغفه بالتاريخ والجغرافيا عظيماً حتى لقد كان يخيل لنفسه بنفسه أنه واحد من أبطال بلوتاركه (١)

وكانت نيران الثورة الفرنسية في ذلك الحين تتأجج في أوتونها، ولم يكن تمت قد اشتعل لهيبتها، وعلا شرارها. ولا بأس من أن تقول هنا لفائدة القارىء العربى، ان تلك الثورة الهائلة التي فكت العالم من أغلال الاستبداد، وغيرت كثيراً في أصول الاعتقادات القومية والدينية في أوروبا، لم تكن بنت ساعتها، بل هي من نفثات أقلام الكتاب الفرنسيين من نهاية القرن السابع عشر، الى نهاية القرن الثامن عشر: أولئك الكتاب الذين فقتوا ذهن الامة، وفتحوا عيون الشعب الى أن النظام الذى كانوا يعيشون تحت سلطانه، نظام استبدادى، وإن معتقداتهم التي يرضخون تحت نفوذها، معتقدات قائمة على أسس واهية، وانها لا تختمل التحليل والبحث في ضوء العقل والقياس المنطقى. وقائده هذه للكتيبة في ساحة الوغى، الكاتب الفرنسى العظيم «فولتير» بذلك القلم الساحر، والاسلوب الباهر، ومن هذه الآراء تغدى عقل نابوليون في مطالعته مدة سبع سنين قضاها في الجيش، حتى نشأ جاحداً للأديان، متسع الفكر واسع الصدر

واندلع لهيب الثورة في سنة ١٧٨٩، ففتحت لنا نابوليون أبواب الرقى، وأسباب النهضة لادراك ماصورته له تخيلته من آمانيه وآماله، فكان أول خاطر قام بنفسه قيادة الثورة في جزيرته، لتحريرها من رق فرنسا، وفعلاً سافر الى كورسيكا وتولى قيادة فرقة من الثائرين، إلا أن الحكومة التي وجدت في باريس، أعلنت من تلقاء نفسها في (٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٩) استقلال الجزيرة وجعلها مملكة منضممة الى الجمهورية الفرنسية، فغير ذلك في خطته وعاد الى باريس وهو شديد التحمس للثورة، ولكن لم تأت سنة ١٧٩٢ حتى بردت نار حماسه وميله لزعماء الثورة، وذلك لما رآه من ارتكابهم للفظائع، واهراقهم للدماء، فقد كان حاضراً صيف ذلك العام هجوم الثوار

(١) بلوتاركه الرومانى مؤلف كتاب عظماء الرجال

على قصر التويلرى فى ٢٠ يونيو، وكذلك ذبحهم جنود الحرس السويسرى فى ١٠ أغسطس. وكانت هذه المناظر تؤلم فيه فكرة النظام العسكرى، حتى قال «لبورين» Bourienne صديقه، وسكرتيره بعد ذلك، «كيف تسمحون لهؤلاء الغوغاء بارتكاب هذه المساوىء، ولماذا لا يكتسحون منهم أربعائة أو خمسائة بالمدافع فيفر الباقون الى بيوتهم؟» !

ثم عاد فى نهاية ذلك العام الى جزيرته برتبة كابتن (بوزباشى) وحصلت بين أسرته وبين «باولى» وأنصاره منازعات أدت الى مهاجرة اسرة نابليون الى قرية بجوار طولون فى فرنسا. وكانت انكلترا قد أعلنت العداء على الحكومة الجديدة فى فرنسا، وجمعت حولها ممالك النمسا وروسيا وأيدها بالمال، واستردت بلجيكا حريتها من تحت سلطة فرنسا، وطردت الجنود الفرنسية من «كونده» و«مينس» «وفلنسين»، وهددت قلب فرنسا، وكذلك احتلت طولون على البحر الابيض المتوسط، فكانت تلك الحوادث سبباً لان تحرك عوامل الغيظ فى قلب نابليون ضد خصوم بلاده فمال الى زعماء الثورة وانضم اليهم قلباً وقالباً واندمج فى جيش الجمهورية المحارب لطولون (فى ١٦ سبتمبر ١٧٩٣) بوظيفته قومندان الطوبجية. وهنا ظهرت مواهب نابليون الحربية اذ استطاع بنموغه العسكرى، وبما درسه فى فن الطوبجية وهندستها، وعلوم الحرب الحديثة، من طرد الانكليز والاستيلاء على طولون فى (١٩ ديسمبر ١٧٩٣) فكافأته حكومة الجمهورية بترقيته الى رتبة جنرال. ولكن بعد سقوط حكومة روبسبير Robespierre الذى كان نصيراً لنا بوليون، استدعى نابليون الى باريز وألقى فى غياهب السجن، ولكن ظهرت براءته من التهمة التى وجهها أعداؤه اليه. وبعد حوادث، وتقلبات لا دخل لها فى موضوعنا، ضاق صدره من أعمال حكومة فرنسا وشطب اسمه من قائمة الجنترالات وعوّل على الذهاب الى الأستانة ليتولى تدريب الطوبجية العثمانية، ولكن نجم سعه الأخذ فى الصعود خدمه، كما خدمه سنين طويلة مقبلة.. ذلك أنه حدثت ثورة فى باريس قام فيها نحو ثلاثين ألف من الحرس الأهلى. *Guarde Nationale*.

ضد حكومة الكونفسيون ، التي لم يكن لها من القوة أكثر من خمسة آلاف ، وكانت الحكومة قد اختارت براس Barras قومنداناً لجيش الحكومة في باريس ، ولما لم يكن «باراس» من رجال العسكرية ، وكان صديقاً لنابوليون محباً له ، اختاره لقيادة الحامية ، والدفاع عن العاصمة ، فتمكن هذه المرة بمهارته من قهر أعداء الحكومة وحماية العاصمة . قال المؤرخون الثقة إنه لو لا مهارة نابليون في وضع المدافع وتصويبها على النقط التي اجتمع فيها الثأرون ، لسقطت الحكومة ، ولوقعت فرنسا من جديد في دور الفوضى والخراب ، وكافأت الحكومة نابليون بتوليته قيادة جيش الداخلية ، وبذلك دوى اسم نابليون من هذا التاريخ في جوانب فرنسا ، وذاع صيته في البلاد

في هذا الوقت ، وقت لمعان شهرته ، وقع في حياثل غرام سيدة على جانب عظيم من الجمال والرفقة وهي «جوزفين بوهارنيه» وكانت أرملة للمركيز اسكندر بوهارنيه أحد الجنرالات الذين سقطوا ضحية لآلة القتل في الايام الاولى من الثورة ، فاقترن بها (٩ مارس سنة ١٧٩٦) وكان قبل هذا التاريخ بيومين ، قد عين قائداً للجيش الذي جهز لفتح ايطاليا ومحاربة النمسا اللتين كانتا متحالفتين مع انكلترا ضد فرنسا ، فلما تولى نابليون قيادة الجيش كان فيه من القواد من هم أكبر منه سناً ، ولكن لم يكونوا أعلم منه بفنون القتال ، فلما رأوه ، ولم يكونوا من قبل قد عرفوه الا اسماً ، ورأوا منه قتي في الخامسة والعشرين من عمره ، ضئيل الجسم ، قصير القامة ، ناحل البدن ، ورأوه كذلك يحمل صورة عروسه ويكثر من النظر اليها ، ويربها للضباط معه ، - ظنوا أن ترقيته لهذا المركز الكبير ، راجعة الى المحسوبة ولنفوذ النساء ؛ ولكن - كما قال الجنرال ماسينا Masséna « ما كاد يضع على رأسه قبعة الجنرال حتى خلفناه قد طالت قامته شبرين ، وأخذ يسألنا عن مواقع فرقتنا ، ويستفسر عن القوى الفعالة في كل فيلق من الفيالق ، ثم ألقى الينا الأوامر وأعلن أنه سيستعرض الجيش غدا ، وبهاجم العدو بعد غد ... فعرفنا ان هذا ليس بقتي ، ووثقنا من أنه قائد عظيم »

وتوالت انتصارات نابوليون في شمال إيطاليا والنمسا، وطبقت شهرته الخافقين
فالتف به القواد العظام، وأعجب به الى درجة التقديس ناشئة الضباط، ورجال
المستقبل، ولقبته أوروبا بهانيبال الثاني، لما أتى على يديه من المعجزات في فنون
الحرب، واستفاد نابليون من تجاربه في هذه الحرب، ومن مناطحته لرجال السياسة
وكبار دهاة الحرب في النمسا، ما ساعده كثيراً في مستقبل حياته الباهرة.

ولما تم له الفوز كما أراد، وأرادت فرنسا - عقد مع النمسا صلحاً في ١٧
أكتوبر سنة ١٧١٧ سمي « صلح كامبو فورميو » نسبة الى البلد التي تم فيها،
وأعدت فرنسا تحت رايتها بلجيكا وحدود الرين، ومحت جمهورية البندقية
من صحيفة الوجود، بعد أن عاشت عصوراً طويلة محتكرة تجارة الشرق بسبب
علاقتها بمصر، ولطالما حاربت الدولة العثمانية في مواقع بحرية أشهرها واقعة
« ليبانت » المشهورة في أكتوبر سنة ١٥٧١... ولم يمض على عقد هذه المعاهدة
عشرة شهور حتى كان نابوليون يجيشه في أرض مصر

بقي علينا، قبل الانتقال بهذا القائد العظيم الى حملته على مصر، وبيان الاسباب
التي دعت الى هذه الحملة، والاعراض التي قامت بنفسه هو، أن نقول كلمة موجزة
في تعليل فوز هذا الرجل تمهيداً لمعرفة القوة الحربية الجديدة، التي داهم بها الممالك
في مصر فنقول: أجمع الباحثون المدققون على أن فوز نابليون الباهر السريع في
شمال إيطاليا والنمسا، راجع الى أن الفن العسكري كان قد دخل في طور جديد
في خلال القرن الثامن عشر، بسبب الاختراعات العديدة التي ادخلت على البنادق
والمدافع، ففي سنة ١٧٢٠ أدخل على البندقية تحسينات بحيث صار في امكان
الجندي أن يطلق منها عدة طلقات في الدقيقة الواحدة، ثم اخترع للميدان
مدافع أخف حركة وأسهل في النقل وأخيراً في سنة ١٧٦٥ اخترع جريبو فال
Gribeauval أحد ضباط جيش لويس السادس عشر بطارية ميدان تجمع بين
أكثر مما يجمع من القوة مع أخف ما يمكن من صعوبه النقل. ثم قال الاستاذ فيشر
في كتابه عن نابليون وارتقاء الفن العسكري ما تريبه:

« ونتيجة هذا كله ، ليست فقط أن المدافع صارت لها أهمية جديدة في الحرب ، أصبحت ، لأول مرة ، عاملاً ضرورياً في القتال الذي تقوم به المشاة ، بل كانت النتيجة أيضاً ، أن تغير الفن الحربى بمخاديفه فاستطاعت الجيوش الآن ، أن تنقسم الى فرق . والفرقة ، اذا حلت في مركز موافق لها ، تستطيع أن تدافع عن نفسها تلقاء قوة متفوقة عنها ، أو على الأقل تستطيع أن تقاتل حتى تحوز السلامة بواسطة قتال يقوم به التسم المعدلجاتها في المؤخرة . ولهذا صارت اهم مسألة متعلقة بالفن الحربى ، أن يبحث الباحثون عن الكيفية التي يستطيع بها الاستفادة كل الاستفادة ، من القوة الجديدة التي تكون لقسم مرن يستطيع التحول من جهة الى أخرى ، في ساحة واسعة . وتعلم القواد كيف يقذفون بالفضائل والشراذم المؤلف من الجنود المعدة للمناوشات ، وكيف يبعثون الى القتال بالفرق التي كانت مرابطة في بقاع ثانية في الخريطة الحربية ، والخلاصة ان نابليون بونابرت استفاد من الانقلابات في الفن العسكرى ؟ وكان أول من استخدم هذا التطور بمهارة ونبوغ . فادهش العالم ومادو عليه فترة من الزمن طويلة »

ونعود الآن الى فكرة الحملة الفرنسية على مصر فنقول : ^{١٦} ^{١٧} ^{١٨} ^{١٩} ^{٢٠} ^{٢١} ^{٢٢} ^{٢٣} ^{٢٤} ^{٢٥} ^{٢٦} ^{٢٧} ^{٢٨} ^{٢٩} ^{٣٠} ^{٣١} ^{٣٢} ^{٣٣} ^{٣٤} ^{٣٥} ^{٣٦} ^{٣٧} ^{٣٨} ^{٣٩} ^{٤٠} ^{٤١} ^{٤٢} ^{٤٣} ^{٤٤} ^{٤٥} ^{٤٦} ^{٤٧} ^{٤٨} ^{٤٩} ^{٥٠} ^{٥١} ^{٥٢} ^{٥٣} ^{٥٤} ^{٥٥} ^{٥٦} ^{٥٧} ^{٥٨} ^{٥٩} ^{٦٠} ^{٦١} ^{٦٢} ^{٦٣} ^{٦٤} ^{٦٥} ^{٦٦} ^{٦٧} ^{٦٨} ^{٦٩} ^{٧٠} ^{٧١} ^{٧٢} ^{٧٣} ^{٧٤} ^{٧٥} ^{٧٦} ^{٧٧} ^{٧٨} ^{٧٩} ^{٨٠} ^{٨١} ^{٨٢} ^{٨٣} ^{٨٤} ^{٨٥} ^{٨٦} ^{٨٧} ^{٨٨} ^{٨٩} ^{٩٠} ^{٩١} ^{٩٢} ^{٩٣} ^{٩٤} ^{٩٥} ^{٩٦} ^{٩٧} ^{٩٨} ^{٩٩} ^{١٠٠} ^{١٠١} ^{١٠٢} ^{١٠٣} ^{١٠٤} ^{١٠٥} ^{١٠٦} ^{١٠٧} ^{١٠٨} ^{١٠٩} ^{١١٠} ^{١١١} ^{١١٢} ^{١١٣} ^{١١٤} ^{١١٥} ^{١١٦} ^{١١٧} ^{١١٨} ^{١١٩} ^{١٢٠} ^{١٢١} ^{١٢٢} ^{١٢٣} ^{١٢٤} ^{١٢٥} ^{١٢٦} ^{١٢٧} ^{١٢٨} ^{١٢٩} ^{١٣٠} ^{١٣١} ^{١٣٢} ^{١٣٣} ^{١٣٤} ^{١٣٥} ^{١٣٦} ^{١٣٧} ^{١٣٨} ^{١٣٩} ^{١٤٠} ^{١٤١} ^{١٤٢} ^{١٤٣} ^{١٤٤} ^{١٤٥} ^{١٤٦} ^{١٤٧} ^{١٤٨} ^{١٤٩} ^{١٥٠} ^{١٥١} ^{١٥٢} ^{١٥٣} ^{١٥٤} ^{١٥٥} ^{١٥٦} ^{١٥٧} ^{١٥٨} ^{١٥٩} ^{١٦٠} ^{١٦١} ^{١٦٢} ^{١٦٣} ^{١٦٤} ^{١٦٥} ^{١٦٦} ^{١٦٧} ^{١٦٨} ^{١٦٩} ^{١٧٠} ^{١٧١} ^{١٧٢} ^{١٧٣} ^{١٧٤} ^{١٧٥} ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨} ^{٣٥٩} ^{٣٦٠} ^{٣٦١} ^{٣٦٢} ^{٣٦٣} ^{٣٦٤} ^{٣٦٥} ^{٣٦٦} ^{٣٦٧} ^{٣٦٨} ^{٣٦٩} ^{٣٧٠} ^{٣٧١} ^{٣٧٢} ^{٣٧٣} ^{٣٧٤} ^{٣٧٥} ^{٣٧٦} ^{٣٧٧} ^{٣٧٨} ^{٣٧٩} ^{٣٨٠} ^{٣٨١} ^{٣٨٢} ^{٣٨٣} ^{٣٨٤} ^{٣٨٥} ^{٣٨٦} ^{٣٨٧} ^{٣٨٨} ^{٣٨٩} ^{٣٩٠} ^{٣٩١} ^{٣٩٢} ^{٣٩٣} ^{٣٩٤} ^{٣٩٥} ^{٣٩٦} ^{٣٩٧} ^{٣٩٨} ^{٣٩٩} ^{٤٠٠} ^{٤٠١} ^{٤٠٢} ^{٤٠٣} ^{٤٠٤} ^{٤٠٥} ^{٤٠٦} ^{٤٠٧} ^{٤٠٨} ^{٤٠٩} ^{٤١٠} ^{٤١١} ^{٤١٢} ^{٤١٣} ^{٤١٤} ^{٤١٥} ^{٤١٦} ^{٤١٧} ^{٤١٨} ^{٤١٩} ^{٤٢٠} ^{٤٢١} ^{٤٢٢} ^{٤٢٣} ^{٤٢٤} ^{٤٢٥} ^{٤٢٦} ^{٤٢٧} ^{٤٢٨} ^{٤٢٩} ^{٤٣٠} ^{٤٣١} ^{٤٣٢} ^{٤٣٣} ^{٤٣٤} ^{٤٣٥} ^{٤٣٦} ^{٤٣٧} ^{٤٣٨} ^{٤٣٩} ^{٤٤٠} ^{٤٤١} ^{٤٤٢} ^{٤٤٣} ^{٤٤٤} ^{٤٤٥} ^{٤٤٦} ^{٤٤٧} ^{٤٤٨} ^{٤٤٩} ^{٤٥٠} ^{٤٥١} ^{٤٥٢} ^{٤٥٣} ^{٤٥٤} ^{٤٥٥} ^{٤٥٦} ^{٤٥٧} ^{٤٥٨} ^{٤٥٩} ^{٤٦٠} ^{٤٦١} ^{٤٦٢} ^{٤٦٣} ^{٤٦٤} ^{٤٦٥} ^{٤٦٦} ^{٤٦٧} ^{٤٦٨} ^{٤٦٩} ^{٤٧٠} ^{٤٧١} ^{٤٧٢} ^{٤٧٣} ^{٤٧٤} ^{٤٧٥} ^{٤٧٦} ^{٤٧٧} ^{٤٧٨} ^{٤٧٩} ^{٤٨٠} ^{٤٨١} ^{٤٨٢} ^{٤٨٣} ^{٤٨٤} ^{٤٨٥} ^{٤٨٦} ^{٤٨٧} ^{٤٨٨} ^{٤٨٩} ^{٤٩٠} ^{٤٩١} ^{٤٩٢} ^{٤٩٣} ^{٤٩٤} ^{٤٩٥} ^{٤٩٦} ^{٤٩٧} ^{٤٩٨} ^{٤٩٩} ^{٥٠٠} ^{٥٠١} ^{٥٠٢} ^{٥٠٣} ^{٥٠٤} ^{٥٠٥} ^{٥٠٦} ^{٥٠٧} ^{٥٠٨} ^{٥٠٩} ^{٥١٠} ^{٥١١} ^{٥١٢} ^{٥١٣} ^{٥١٤} ^{٥١٥} ^{٥١٦} ^{٥١٧} ^{٥١٨} ^{٥١٩} ^{٥٢٠} ^{٥٢١} ^{٥٢٢} ^{٥٢٣} ^{٥٢٤} ^{٥٢٥} ^{٥٢٦} ^{٥٢٧} ^{٥٢٨} ^{٥٢٩} ^{٥٣٠} ^{٥٣١} ^{٥٣٢} ^{٥٣٣} ^{٥٣٤} ^{٥٣٥} ^{٥٣٦} ^{٥٣٧} ^{٥٣٨} ^{٥٣٩} ^{٥٤٠} ^{٥٤١} ^{٥٤٢} ^{٥٤٣} ^{٥٤٤} ^{٥٤٥} ^{٥٤٦} ^{٥٤٧} ^{٥٤٨} ^{٥٤٩} ^{٥٥٠} ^{٥٥١} ^{٥٥٢} ^{٥٥٣} ^{٥٥٤} ^{٥٥٥} ^{٥٥٦} ^{٥٥٧} ^{٥٥٨} ^{٥٥٩} ^{٥٦٠} ^{٥٦١} ^{٥٦٢} ^{٥٦٣} ^{٥٦٤} ^{٥٦٥} ^{٥٦٦} ^{٥٦٧} ^{٥٦٨} ^{٥٦٩} ^{٥٧٠} ^{٥٧١} ^{٥٧٢} ^{٥٧٣} ^{٥٧٤} ^{٥٧٥} ^{٥٧٦} ^{٥٧٧} ^{٥٧٨} ^{٥٧٩} ^{٥٨٠} ^{٥٨١} ^{٥٨٢} ^{٥٨٣} ^{٥٨٤} ^{٥٨٥} ^{٥٨٦} ^{٥٨٧} ^{٥٨٨} ^{٥٨٩} ^{٥٩٠} ^{٥٩١} ^{٥٩٢} ^{٥٩٣} ^{٥٩٤} ^{٥٩٥} ^{٥٩٦} ^{٥٩٧} ^{٥٩٨} ^{٥٩٩} ^{٦٠٠} ^{٦٠١} ^{٦٠٢} ^{٦٠٣} ^{٦٠٤} ^{٦٠٥} ^{٦٠٦} ^{٦٠٧} ^{٦٠٨} ^{٦٠٩} ^{٦١٠} ^{٦١١} ^{٦١٢} ^{٦١٣} ^{٦١٤} ^{٦١٥} ^{٦١٦} ^{٦١٧} ^{٦١٨} ^{٦١٩} ^{٦٢٠} ^{٦٢١} ^{٦٢٢} ^{٦٢٣} ^{٦٢٤} ^{٦٢٥} ^{٦٢٦} ^{٦٢٧} ^{٦٢٨} ^{٦٢٩} ^{٦٣٠} ^{٦٣١} ^{٦٣٢} ^{٦٣٣} ^{٦٣٤} ^{٦٣٥} ^{٦٣٦} ^{٦٣٧} ^{٦٣٨} ^{٦٣٩} ^{٦٤٠} ^{٦٤١} ^{٦٤٢} ^{٦٤٣} ^{٦٤٤} ^{٦٤٥} ^{٦٤٦} ^{٦٤٧} ^{٦٤٨} ^{٦٤٩} ^{٦٥٠} ^{٦٥١} ^{٦٥٢} ^{٦٥٣} ^{٦٥٤} ^{٦٥٥} ^{٦٥٦} ^{٦٥٧} ^{٦٥٨} ^{٦٥٩} ^{٦٦٠} ^{٦٦١} ^{٦٦٢} ^{٦٦٣} ^{٦٦٤} ^{٦٦٥} ^{٦٦٦} ^{٦٦٧} ^{٦٦٨} ^{٦٦٩} ^{٦٧٠} ^{٦٧١} ^{٦٧٢} ^{٦٧٣} ^{٦٧٤} ^{٦٧٥} ^{٦٧٦} ^{٦٧٧} ^{٦٧٨} ^{٦٧٩} ^{٦٨٠} ^{٦٨١} ^{٦٨٢} ^{٦٨٣} ^{٦٨٤} ^{٦٨٥} ^{٦٨٦} ^{٦٨٧} ^{٦٨٨} ^{٦٨٩} ^{٦٩٠} ^{٦٩١} ^{٦٩٢} ^{٦٩٣} ^{٦٩٤} ^{٦٩٥} ^{٦٩٦} ^{٦٩٧} ^{٦٩٨} ^{٦٩٩} ^{٧٠٠} ^{٧٠١} ^{٧٠٢} ^{٧٠٣} ^{٧٠٤} ^{٧٠٥} ^{٧٠٦} ^{٧٠٧} ^{٧٠٨} ^{٧٠٩} ^{٧١٠} ^{٧١١} ^{٧١٢} ^{٧١٣} ^{٧١٤} ^{٧١٥} ^{٧١٦} ^{٧١٧} ^{٧١٨} ^{٧١٩} ^{٧٢٠} ^{٧٢١} ^{٧٢٢} ^{٧٢٣} ^{٧٢٤} ^{٧٢٥} ^{٧٢٦} ^{٧٢٧} ^{٧٢٨} ^{٧٢٩} ^{٧٣٠} ^{٧٣١} ^{٧٣٢} ^{٧٣٣} ^{٧٣٤} ^{٧٣٥} ^{٧٣٦} ^{٧٣٧} ^{٧٣٨} ^{٧٣٩} ^{٧٤٠} ^{٧٤١} ^{٧٤٢} ^{٧٤٣} ^{٧٤٤} ^{٧٤٥} ^{٧٤٦} ^{٧٤٧} ^{٧٤٨} ^{٧٤٩} ^{٧٥٠} ^{٧٥١} ^{٧٥٢} ^{٧٥٣} ^{٧٥٤} ^{٧٥٥} ^{٧٥٦} ^{٧٥٧} ^{٧٥٨} ^{٧٥٩} ^{٧٦٠} ^{٧٦١} ^{٧٦٢} ^{٧٦٣} ^{٧٦٤} ^{٧٦٥} ^{٧٦٦} ^{٧٦٧} ^{٧٦٨} ^{٧٦٩} ^{٧٧٠} ^{٧٧١} ^{٧٧٢} ^{٧٧٣} ^{٧٧٤} ^{٧٧٥} ^{٧٧٦} ^{٧٧٧} ^{٧٧٨} ^{٧٧٩} ^{٧٨٠} ^{٧٨١} ^{٧٨٢} ^{٧٨٣} ^{٧٨٤} ^{٧٨٥} ^{٧٨٦} ^{٧٨٧} ^{٧٨٨} ^{٧٨٩} ^{٧٩٠} ^{٧٩١} ^{٧٩٢} ^{٧٩٣} ^{٧٩٤} ^{٧٩٥} ^{٧٩٦} ^{٧٩٧} ^{٧٩٨} ^{٧٩٩} ^{٨٠٠} ^{٨٠١} ^{٨٠٢} ^{٨٠٣} ^{٨٠٤} ^{٨٠٥} ^{٨٠٦} ^{٨٠٧} ^{٨٠٨} ^{٨٠٩} ^{٨١٠} ^{٨١١} ^{٨١٢} ^{٨١٣} ^{٨١٤} ^{٨١٥} ^{٨١٦} ^{٨١٧} ^{٨١٨} ^{٨١٩} ^{٨٢٠} ^{٨٢١} ^{٨٢٢} ^{٨٢٣} ^{٨٢٤} ^{٨٢٥} ^{٨٢٦} ^{٨٢٧} ^{٨٢٨} ^{٨٢٩} ^{٨٣٠} ^{٨٣١} ^{٨٣٢} ^{٨٣٣} ^{٨٣٤} ^{٨٣٥} ^{٨٣٦} ^{٨٣٧} ^{٨٣٨} ^{٨٣٩} ^{٨٤٠} ^{٨٤١} ^{٨٤٢} ^{٨٤٣} ^{٨٤٤} ^{٨٤٥} ^{٨٤٦} ^{٨٤٧} ^{٨٤٨} ^{٨٤٩} ^{٨٥٠} ^{٨٥١} ^{٨٥٢} ^{٨٥٣} ^{٨٥٤} ^{٨٥٥} ^{٨٥٦} ^{٨٥٧} ^{٨٥٨} ^{٨٥٩} ^{٨٦٠} ^{٨٦١} ^{٨٦٢} ^{٨٦٣} ^{٨٦٤} ^{٨٦٥} ^{٨٦٦} ^{٨٦٧} ^{٨٦٨} ^{٨٦٩} ^{٨٧٠} ^{٨٧١} ^{٨٧٢} ^{٨٧٣} ^{٨٧٤} ^{٨٧٥} ^{٨٧٦} ^{٨٧٧} ^{٨٧٨} ^{٨٧٩} ^{٨٨٠} ^{٨٨١} ^{٨٨٢} ^{٨٨٣} ^{٨٨٤} ^{٨٨٥} ^{٨٨٦} ^{٨٨٧} ^{٨٨٨} ^{٨٨٩} ^{٨٩٠} ^{٨٩١} ^{٨٩٢} ^{٨٩٣} ^{٨٩٤} ^{٨٩٥} ^{٨٩٦} ^{٨٩٧} ^{٨٩٨} ^{٨٩٩} ^{٩٠٠} ^{٩٠١} ^{٩٠٢} ^{٩٠٣} ^{٩٠٤} ^{٩٠٥} ^{٩٠٦} ^{٩٠٧} ^{٩٠٨} ^{٩٠٩} ^{٩١٠} ^{٩١١} ^{٩١٢} ^{٩١٣} ^{٩١٤} ^{٩١٥} ^{٩١٦} ^{٩١٧} ^{٩١٨} ^{٩١٩} ^{٩٢٠} ^{٩٢١} ^{٩٢٢} ^{٩٢٣} ^{٩٢٤} ^{٩٢٥} ^{٩٢٦} ^{٩٢٧} ^{٩٢٨} ^{٩٢٩} ^{٩٣٠} ^{٩٣١} ^{٩٣٢} ^{٩٣٣} ^{٩٣٤} ^{٩٣٥} ^{٩٣٦} ^{٩٣٧} ^{٩٣٨} ^{٩٣٩} ^{٩٤٠} ^{٩٤١} ^{٩٤٢} ^{٩٤٣} ^{٩٤٤} ^{٩٤٥} ^{٩٤٦} ^{٩٤٧} ^{٩٤٨} ^{٩٤٩} ^{٩٥٠} ^{٩٥١} ^{٩٥٢} ^{٩٥٣} ^{٩٥٤} ^{٩٥٥} ^{٩٥٦} ^{٩٥٧} ^{٩٥٨} ^{٩٥٩} ^{٩٦٠} ^{٩٦١} ^{٩٦٢} ^{٩٦٣} ^{٩٦٤} ^{٩٦٥} ^{٩٦٦} ^{٩٦٧} ^{٩٦٨} ^{٩٦٩} ^{٩٧٠} ^{٩٧١} ^{٩٧٢} ^{٩٧٣} ^{٩٧٤} ^{٩٧٥} ^{٩٧٦} ^{٩٧٧} ^{٩٧٨} ^{٩٧٩} ^{٩٨٠} ^{٩٨١} ^{٩٨٢} ^{٩٨٣} ^{٩٨٤} ^{٩٨٥} ^{٩٨٦} ^{٩٨٧} ^{٩٨٨} ^{٩٨٩} ^{٩٩٠} ^{٩٩١} ^{٩٩٢} ^{٩٩٣} ^{٩٩٤} ^{٩٩٥} ^{٩٩٦} ^{٩٩٧} ^{٩٩٨} ^{٩٩٩} ^{١٠٠٠} ^{١٠٠١} ^{١٠٠٢} ^{١٠٠٣} ^{١٠٠٤} ^{١٠٠٥} ^{١٠٠٦} ^{١٠٠٧} ^{١٠٠٨} ^{١٠٠٩} ^{١٠١٠} ^{١٠١١} ^{١٠١٢} ^{١٠١٣} ^{١٠١٤} ^{١٠١٥} ^{١٠١٦} ^{١٠١٧} ^{١٠١٨} ^{١٠١٩} ^{١٠٢٠} ^{١٠٢١} ^{١٠٢٢} ^{١٠٢٣} ^{١٠٢٤} ^١

ديزيرييه لاكروا Desiré Lacroix في كتابه الذي وضعه عن بونايرت في مصر،
من محفوظات وزارة الخارجية بباريس خطاباً مطولاً بعث به الى تاليران
Talleyrand وزير الخارجية في ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ نقمطف منها العبارة الآتية :

« اذا قضى علينا الصلح مع انجلترا بالتنازل عن رأس الرجا الصالح، فلا بد
لنا من أن نعتاض عنها بالديار المصرية ، التي لم تقع أبداً في حيازة دولة أوروية . نعم
كان للفينسين (البنديقيين) فيها نفوذ منذ بضع قرون ، ولكنه كان نفوذاً مزعزاعاً .
وفي استطاعتنا - بارسال خمس وعشرين ألف جندي - للاستيلاء على تلك الديار .
وعندي أن مصر ليست تابعة الآن للدولة العثمانية ، وأرجو من مواطني الوزير (١)
عمل التحريات اللازمة للوقوف على ما يحدثه احتلالنا لمصر من الأثر على حكومة
جلالة سلطان تركيا . وأن جيشاً كجيشنا الذي يستوى عنده جميع الأديان ،
يتساوى لديه المسلمون والاقباط والأعراب والوثنيون على السواء الخ . »

فأجاب « تاليران » بخطاب مؤرخ ٢٣ سبتمبر قال فيه انه موافق على فكرة
الحملة على مصر التي يعوض احتلالها على فرنسا ، خسارتها في جزائر الأنتيل (٢)
وتفتح لنا طريق التجارة للهند الخ

ويظهر أن عقارب الحسد لنا بوليون دبت في نفوس أعضاء الحكومة الجمهورية
في ذلك الوقت ، فخافوا من اتساع شهرته ، ومن مكانته في قلب الجيش الذي يقوده ،
ولا يبعد أنه يكون قد خيل لهم في ذلك الوقت أن نابوليون ، بما أصبح له من
الحبة لدى الشعب الفرنسي ، وما يلتف به من الجنود والقواد ، قادر على أن يضع
يده على السلطنة في باريس ويستبد بالملك (كما فعل فعلاً) ولا يبعد أن تكون هذه
الافكار قد دمرت بمخيلة نابوليون ، لما رأى من القابضين على زمام الحكومة الرغبة
في فصله عن جيشه ، الذي أحبه وحارب تحت قيادته ، ولكنه كان حكماً فنظر الى

(١) Citoyen Ministre ولفظ استوين استعمله الجبرتي بحاله في عدة مواضع ولم يعبره
(٢) جزائر الأنتيل أو الهند الغربية واقعة في بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية في
الحيط الاطلانطيقي وفيها أكثر من ثلاثة ملايين من السكان ومنها جزائر كوبوهايتي وجاميكا
وبورت ريكو وكها جزائر خصبة التربة غنية ببحيراتها وكانت أول الاراضي التي اكتشفها
كولومبوس من أمريكا . وقد أصبحت كلها مستقلة مع الولايات المتحدة

فرنسا وقال - كما روى يورين في مذكراته - «إن الثمرة لم تنضج بعد»
رأت الحكومة في باريز فصله من جيش ايطاليا، وأصدرت أمراً بتعيينه قائداً
عاماً لجيش انكاترا (أى الجيش الموجه لمحاربة انجلترا) وبعد يومين من صدور
هذا الأمر، أصدرت الحكومة المركزية في باريس أمراً آخرًا بانتدابه سفيراً
مفوضاً من قبل الجمهورية الفرنسية لمؤتمر راستاد Rastadt مع مندوبين آخرين
قال أحد المؤرخين: ولم يكن يخفى على ذكاء نابليون، أن هذا الانتداب إنما
يراد به ابعاده عن جيشه، وان حسد رجال الحكومة لشهرته هو الذى حملهم على
ارساله فى مهمة وهمية، ولكن نابليون مع هذا كان أحكم من أن يظهر لهم تدمره
من هذا النفي السياسى، وهو فى الوقت بعينه كان يفكر فى الجبهة التى ينوى أن
يسير اليها بالجيش الظافر الذى حارب تحت زعامته^(١) وقبل أن يبرح مكانه استعرض
الجيش فى ميلانو (١٤ نوفمبر) وخاطب الجنود بكلمات تثير فى صدورهم الحماسة
وتذكرهم به على الدوام، فقال فى خطابه لهم:

«أيها الجنود. سأذهب فى مساء غد الى راستاد، ولا أجد تعزية على فراقكم، الا
فى أملى بأنى سأجتمع بكم عن قريب للدفاع ضد أخطار جديدة. أيها الجنود كيفما
كانت الوظائف التى تسندها الحكومة الى رجال هذا الجيش، فاتهم سيكونون دائماً
جديرين برفع رايات الحرية، والمحافظين على مجد فرنسا وشرفها. أيها الجنود! ان
تحدثتم بالملوك والأمراء الذين قهرناهم، وبالأمم التى خلصتموها من ربة الاستبداد،
فى ميدانين (ايطاليا والنمسا)، فاعلموا أنكم ستفعلون أكثر من ذلك فى ميدانين
آخرين!»

وفى الاشارة الأخيرة كان نابليون ينطق بما يكن فؤاده نحو مصر والشرق.
لا تتبع نابليون فى سيره الى راستاد، ولا عودته الى باريس، واحتفال الحكومة،
به، ولا لزوم لنشر خطابه الذى أشعل به قلب الأمة الفرنسية، ولا رحلته لارتباد
الشواطيء الفرنسية لفكرة غزو انكاترا، فكل ذلك خارج عن موضوعنا، مهما

(١) ديزيريه لاکروا

بلغت قيمته من الفائدة التاريخية، ولكننا ننقل عن لسان صديقه، وكاتب مذكراته،
بوربين، بعد عودته مع نابليون من سياحة الشواطئ التي أشرفنا اليها، العبارة الآتية:
«وما رأى مولاي القائد في رحلته»؟ فهز نابليون رأسه وقال « انى لأرى
أملاً في غزو انكلترا. انى لأجازف بمستقبل فرنسا الجميلة » وقال بوربين في مكان
آخر من مذكراته. « وأخذت أفكار نابليون تتوجه الى مسألة غزو مصر، فصارت
موضوع فكره ليل نهار: قال لى مرة: « ان أوروبا بأسرها ليست الاجر فأر،
وما صدرت الشهرة العالية، وما دوى من الصيت الخالد، الامن الشرق وفى الشرق! »
والمخالصة أن نابليون وحكومته فرنسا عدلوا عن غزو انكلترا الاستحالة نقل الجيش
الفرنسى فى مضيق المانش، وفكروا فى أن أحسن وسيلة لقبور انكلترا، هى بالاستيلاء
على مصر، فان كان المانش متعذراً، فان السير فى البحر الأبيض متيسر، ومتى
امتلكت فرنسا مصر، عطلت تجارة انكلترا فى الشرق. وخيل لنابليون أنه
يستطيع، بالاتفاق مع ارجات الهند، الذين احتلت انكلترا بلادهم، طرد الانكليز
من تلك الديار، كما ان احتلال فرنسا لمصر يقضى عليها بتحويل معظم أساطيلها
الى البحر الأبيض المتوسط، فتستطيع فرنسا أن تعبر المانش بجيش تغزو به تلك
الدولة الرابضة على أمواج البحار

وكان لابد لفرنسا من الارتكاز على حجة تبرر بها حملتها على مصر وهى من
أملاك الدولة العثمانية، تلك الحكومة السلطانية الوحيدة التى لم تكن على عداء
مع فرنسا، وكانت أول من اعترف بالجمهورية فكان من الأعداء التى قلت بها
فرنسا، وما ورد فى خطاب نابليون لتاليران وزير الخارجية، من أن مصر ليست فى
حيازة تركيا، لأن المالك استبدوا بالأمر فيها، ثم وجدت فرنسا من تقارير قنصلها
فى مصر، مسيو ماجالون Magallon - تلك التقارير التى أظهر فيها من الشكوى
من معاملة المالك للتجار الفرنسيين سواء فى اسكندرية وورشيد ودمياط والقاهرة -
حجة ترتكز عليها.

ويذهب بعض المؤرخين الى أنه قد كان من أكبر الأسباب التى حملت



نابوليون
بونابرت
حوالى العهد
الذى افتتح
فيه القطر
المصرى
(نقلا عن
صورة
للمصور
«أبيانى»

الحكومة الفرنسية على تقرير الحملة على مصر ، رغبتها فى الخلاص من نابوليون بونابرت بإبعاده عن باريس ، وأن نابوليون بعد تخمسه لمشروع الحملة على مصر ، بردت نار حماسه ، لما أدرك ما وراء هذا الأبعاد ، من الرغبة فى القضاء على شهرته ، قبل أن تمتد يده لإدارة الأحكام فى فرنسا . ولكنه كان قد تورط فى مشروع الحملة ، فلم يعد فى إمكانه الانسحاب منه . وشهادة « بوريين » فى مذكراته تؤيد رأى هذا الفريق فقد قال مانصه : « ولقد يلوح لى من جميع مآرائته ووعيته ، أن الرغبة فى الخلاص من شاب طموح ، وولدت شهرته الحسد فى قلوب الزعماء ، هى التى تغلبت على خطر تجريد فرنسا ، لمدة غير معلومة ، من جيش عظيم ، مع ما كان كثير الاحتمال ، من تحطيم الاسطول الفرنسى . وأما نابوليون فلم يبق أمامه الا أن يختار

بين قيادة حملة غير مأمونة العواقب، أو القضاء على مستقبله. ولما كانت حملة مصر ،
هي الوسيلة الوحيدة لبقاء علم شهرته خافقاً ، لم يتردد في قبول القيادة العامة
التي صدر له بها الأمر في ١٢ ابريل سنة ١٧٩٨ » (١)

وأما الفريق الثاني من المؤرخين، فيقول: ان رجال الحكومة لم يريدوا ابعاد
نابليون ، وفي مقدمتهم وأكثرهم عناداً كان لاريفالير ليبو - La Revalliere-
Lépeaux. فانه عارض واحتج على تجريد فرنسا من ثلاثين أو أربعين ألفاً من
خيرة الجنود الفرنسية، وتعرض بعضهم ، مع سفن الأسطول ، الى معركة بحرية مع الاسطول
الانكليزي في البحر الأبيض المتوسط ، وابعاد القائد العظيم الذي تخافه النمسا
وتحشاه ، هذا عدا حمل الباب العالي على محاربة فرنسا لتعديها على ولاية من ولاياته ،
فكان نابليون ، على رأى هذا المؤرخ ، يرد هذه الاعتراضات بأنه لا خوف من الأساطيل
الانكليزية ، وان سحب ثلاثين أو أربعين ألف جندي من فرنسا ، ليس بالشئ ،
الذي يذكر مادام جيشها أكثر من ثلثمائة الى اربعمائة الف جندي ، وأن الباب
العالي قد فقد مصر لاستبداد المماليك بالأمر فيها . واشتد الجدل بين نابليون
ومعارضيه ، حتى هدد بالاستعفاء من منصبه ، فكان جواب لاريفالير بشدة
« اني أبعد من أن أقبل استقالتي ولكني أرى أنك إذا قدمتها ، فعليهم
قبولها » فصمت نابليون ولم ينطق بكلمة الاستقالة بعدها . والروايات في هذه
النقطة متناقضة ، اذ قال بعض المؤرخين ان الذي أجاب نابليون ذلك الجواب
هو روبيل ، وقال آخرون انه باراس ، ورأى « تيير » المؤرخ العظيم Thiers ان
هذا الفصل حدث مع لاريفالير كما ذكرنا .

وكيفما كان الحال فان الحكومة الفرنسية قد قررت الحملة ، وعينت نابليون

(١) يظهر من التعقيقات التاريخية أن تاريخ تقرير الحملة واعطاء القيادة لنابليون كان
في ٥ مارس لافي ١٢ ابريل من تلك السنة كما ورد في هذه العبارة التي عربناها من مذكرات
بوربين والظاهر ان تقرير الحملة كان في ٥ مارس وصدور الاوامر الرسمية في ١٢ ابريل

قائداً عاماً على جيش البر والبحر لهذه الحملة، وبلغ من أمر التكتّم بشأنها أن القواد وكبار الضباط، لم يكونوا يعلمون إلى أين هم سائرون، ولم يأمن رئيس الحكومة (الديركتور) إلى كاتب بكتابة أمر الحملة وقيادتها، فكاتبهما بخط يده

وليس من شأننا أن نأتى على بيان التحضيرات الحربية، البرية والبحرية، إذ يكفيننا أن نقول أن الحملة كانت مؤلفة من اثنين وثلاثين ألف جندي من البرية والبحرية، تحملها ١٣ قايقاً و ١٤ بارجة و ٤٠٠ سفينة لنقل العساكر والمهمات، وتقرر أن تسير السفن من غور طولون ومارسيليا وجنوا في فرنسا، وسيغافا قشياً، في إيطاليا ولقد أظهر نابليون، بإجماع الباحثين والمدققين، مهارة عظيمة، ونظراً ناقباً، وقريحة وقادة، في تجهيز هذه الحملة، إذ رووا أنه فكر في كل شيء من دقائق الأمور، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا رتبها ورتبها وأحصاها. فبدأ باختيار زهرة القواد، وخالصة الضباط، ولم ينس أصناف الصناعات، وأرباب الحرف اللازمة للجيش، وجلب من روما المطبعة العربية واليونانية، وأحضر معها فئة من العارفين بصف الحروف وطبعها، وجمع عدة آلات وأدوات علمية. ولم ينس انتقاء مكتبة جامعة للكاتب عن مصر والشرق، ليقرأها مع ضباط جيشه أثناء سفرهم

وانتهت كافة التجهيزات في ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ وأمضى الأمر بتكوين «جيش الشرق» وتعيين نابليون بونابرت قائداً عاماً، وفوض له الاستيلاء على الديار المصرية، وطرد الإنكليز من جميع البلاد التي يمتلكونها في الشرق ما استطاع لذلك سبيلاً وعلى الأخص القضاء على تجارة الإنجليز في البحر الأحمر. وفوض له أيضاً خرق برزخ السويس، واتخاذ الوسائل اللازمة لضمان امتلاك البحر الأحمر واختصاص جمهورية فرنسا به، فما كان أحلاها أحلاماً! وما كان أبعدها تحقيقاً! والمملك لله الواحد القهار.

وكادت حادثة الاعتداء على سفير فرنسا^(١) في فيينا توقف سير هذه الحملة، لأن

(١) كان السفير اذ ذاك هو برنادوت الذي صار بعد ملكاً للسويد...

حكومة الجمهورية خافت من تحرك النمسا فأصدرت الأوامر لنابوليون ولكنه اكتفى
بكتابة خطاب شديد الى الكونت « كو بنزل »، فهدأت الأحوال ورح باريز في ٣ مايو
ووصل طولون في ٩ منه ونشر على الجيش في اليوم التالي اعلاناً حماسياً ملاً
عباراته الضخمة، بالفاظ مختارة لتحريك الأشجان، والتأثير في النفس والوجدان،
وقال لهم في طولون « إن أوروبا تنظر الى أعمالكم » كما قال لهم بعد ذلك، تحت ظل
الأهرام، « إن أربعين قرناً من الزمان تراقبكم » ؛ وسنرى ماذا يقع تحت عيون
أوروبا بأسرها، وأربعين قرناً من الزمان بسررها وسحرها :

والجدول الآتي يبين مجموع القوة الفرنسية وطريقة نقلها على السفن من الموانئ المختلفة

موانئ السفر	بوارج	فرقاطات	سفن وطرادت	نقلات	جنود	خيول
طولون	١٣	٧	٦	١٠٦	٢٠ر٠٠٠	٤٧٠
مرسيليا			٢	٣٠	٣ر٢٠٠	٦٠
كورسيكا			١	٢٠	١ر٢٠٠	
جنوا		١	١	٣٥	٣ر١٠٠	٧٠
سفانافيتشيا		١	١	٤١	٤ر٣٠٠	٨٠
المجموع	١٣	٩	١١	٢٣٢	٣١ر٨٠٠	٦٨٠

وكان تكوين القوة (من حيث الاسلحة) من ٢٤ر٣٠٠ من المشاة (البيادة)
٤ر٠٠٠ خياله (سوارى) وطوبجية ٣ر٠٠٠ ونحو ألف من الاتباع، والمجموع
بالضبط ٣٣ر٣٠٠ (لا أربعين ألفاً كما يتساهل المؤرخون) وكانت قيادة الاسطول
تحت رئاسة الفيس أميرال برويز Brueys وتحت قيادة الكونت أميرالات
Decrés, Blanquet-Duchyl, Villeneuve. ورياسة أركان حرب
الاسطول لغانتوم Ganteaume وأما الجيش البرى فكان برتيه Berthier رئيس

أركان الحرب وكفاريللي على المهندسين ، ودومرتين Doumartin على الطوبجية
وتحت رئاسته على الفرق القواد Songis و Faultrier و Desaix و Kleber
و Dugua وعلى الأورط Lannes و Murat و Lunusse و Vial و Veaux
و Rampon و Davout و Friant و Belliard و Dumas و Leclere
و Verdier و Andreossy ومن ياورات نابوليون الضباط Junot
و Beauharnais (ابن زوجته) و Louis Bonaparte (أخوه)
و Sulkowski و Jullien و Duroc و Croizier .

ولقد جئنا على ذكر أسماء أولئك القواد والضباط الذين صاحبوا نابوليون في
حملته لأن الكثير منهم بلغ بعد ، من الشهرة في تاريخ أوروبا مكاناً قصياً ، ولأن
الكثيرين منهم كانت لهم في الديار المصرية ، حوادث ووقائع مشهورة ، ومنهم من
قتل في هذه الديار ، ولا بد من معرفة أسمائهم ، وتبعية حرركاتهم . وأهم ما فكر فيه نابوليون
أنه ارتأى أن تكون معه بعثة علمية محضنة لدراسة طبيعة البلاد المصرية ، ويبحث آثارها
ونباتها وحيوانها ، ونبيلها وأرضها ، وسماها وسكانها ، وكانت هذه البعثة تتألف من نحو
مائة عالم من مشهورى علماء فرنسا الذين امتازوا بدراسة خاصة في كل فرع من فروع العلوم ،
وكانت هذه البعثة تحت رياسة الرياضى الشهير صديق نابوليون مونج Monge
أحد أعضاء الأكادى وكان معه من رجال الأكادى Berthollet
و Dolomieu و Denon ومن مهندسى الكبارى والقناطر Le Père
وجيرار ومن الرياضيين Corancez ، Costaz ، Fourier ومن علماء
الفلك Nouet و Beauchamp و Méchin ومن علماء الطبيعة والنباتات
Saint-Hilaire Geoffroy و Savigny ومن الكيماوين Descotils
و Champy ومن الرسامين والموسيقين والشعراء وعلماء فن المعاز عدد كثير .
ولا نزاع فى أن هذه أول بعثة علمية رافقت ، مرافقة رسمية ، حملة من الحملات
العسكرية فى تاريخ العالم . والفضل فى ذلك بلا نزاع راجع لنابوليون دون سواه

ولنا كلام على الاعمال التي قامت بها هذه البعثة العلمية من حيث فائدها
لمصر وأهلها، ومن حيث فائدها للعلم عامة في أوروبا، ربما أتينا عليه في مكان آخر .
وفي اليوم التاسع عشر من شهر مايو نشرت سفن أسطول هذه الحملة أعلامها
وسارت تخرج عباب البحر الابيض المتوسط ، قاصدة جزيرة مالطة وكان نابوليون
وياورا في السفينة أوريان - Orient - « المشرق » التي يسميها الجبرتي « نصف الدنيا »
ومعه قائد الاسطول برويس ، ومعه أيضاً بها من رجال البعثة العلمية مونج وبرتلو ،
ومن القواد كفاريللي المهندس وغيرهم . وهنا نذكر أن الحكومة الانكليزية
علمت بأمر هذه الحملة ولكنها لم تكن على بينة من معرفة الجهة التي تقصدها لما
أخذته الحكومة الفرنسية من وسائل التكميم الزائد . وكان الفكر الراجح لدى
حكومة انكلترا ، أن هذه العارة الفرنسية تنوى السفر من مياه البحر الابيض
المتوسط الى جبل طارق قاصدة احتلال ايرانده . ومع ذلك فقد أصدرت الحكومة
الانكليزية للأدميرال نلسون أمراً براقبة هذه الحملة ، وأصدرت اليه الأوامر الصريحة
بأن يفعل كل ما في إمكانه لأسر ، أو اغراق ، أو حرق ، هذه العارة الفرنسية مهما
كلفه ذلك ، ما دام قادراً على تسيير سفنه ولديه من الزاد والمؤونة والذخيرة
ما يكفيه ، وكان نلسون يخالف حكومته في ظنها من حيث وجهة العارة الفرنسية ،
وبعد أن أجبرته زوبعة كبيرة على الالتجاء بسفنه الى جزيرة سردينيا ، حيث
رغم بعضها ، التي أضرت بها هذه الزوبعة ، - تمكنت العارة الفرنسية من السفر
دون أن يقف لها الاسطول الانجليزى على أثر . ثم قصد نلسون شواطئ ايطاليا
وكتب في ١٥ يونيو على مقربة من نابولي قائلاً : « اذا كانت السفن قد مرت
من سيسيليا (جزيرة صقلية) فانها لا بد وأن تقصد تنفيذ مشروع الاستيلاء على
الاسكندرية ، لكي ترسل من مصر حملة الى الهند بناء على اتفاق مع « تيبو
صاحب » وليس تنفيذ هذه الخطة بالأمر العسير

أما العمارة الفرنسية فوصلت مالطة في ٩ يونيو (١٧٩٨) وأُنزلت قوة في اليوم الثاني لاحتلال الجزيرة. وليس من موضوع عملنا أن نشرح حال مالطة وما جرى في استيلاء نابليون عليها، أما يكفيننا من قبيل الفائدة التاريخية، ولما له من علاقة بهذا الكتاب، أن نذكر أن استيلاء نابليون على مالطة كان ضرورياً لحفظ مواسلاته مع فرنسا وكانت هذه الجزيرة مستقلة تحت إدارة حكومة تدعى « فرسان مالطة » وهم جماعة من المسيحيين من جميع ممالك أوروبا، أشبه بفرسان الحروب الصليبية، وقفوا أنفسهم للدفاع عن صوالح النصرانية، لما شبت الحروب بين الدول الإسلامية وممالك أوروبا المسيحية. وكان لقبهم في الأول فرسان « رودس »، فلما فتح السلطان سليمان جزيرة رودس، منحهم الامبراطور شارل لكان جزيرة مالطة - وكانوا يتقربون الى ممالك أوروبا، ويستدرون خيرات أبنائها، بدعوى أنهم يحاربون قرصان أفريقيا، ويقون السفن المسيحية والمسافرين فيها، من المسلمين، ودام هذا حالهم حتى فاجأهم نابليون بخيله ورجله، وبعد مقاومة ضعيفة استولى على الجزيرة وترك فيها أحد قواده الجنرال فوبوا Vaubois ومعه ثلاثة آلاف جندي كحامية في الجزيرة، وقبل أن يبرح الجزيرة، فكر في أن يوطد العلاقات الودية في المياه اليونانية في ألبانيا وأبيروس. وكان في حروبه مع البندقية قد استولى على جميع الجزر والسواحل والتغور التي كانت ملكاً لتلك الجمهورية في بحر الادرياتيك سنة ١٧٩٧، وحينذاك راسله على باشا والي « ينينا » المشهور، ولم يكن اذ ذلك قد خرج عن طاعة الدولة، مؤكداً له حسن ولائه. فكان أول خاطر لنا نابليون قبل مبارحته مالطة، لتوطيد علاقاته الحسنة في ألبانيا وأبيروس، هو أن بعث بخطاب الى على باشا والي ينينا وأوفد به أحد ضباطه

واستعاض نابليون، عن القوة الفرنسية التي تركها في الجزيرة (٣٠٠٠ جندي) بقوة تعادلها من الممالطين والفرنسيين، الذين كانوا مع فرسان الجزيرة، وغنم من الجزيرة نحو ١٢٠٠ مدفع وكميات كبيرة من الذخائر، أخذت منها الطوبجية الفرنسية

مارأته لازماً في حملتها على مصر . وكان في الجزيرة نحو ثمانمائة من الاتراك الأسرى فأطلق نابليون سراحهم ، وأحضرهم لمصر في السفن لارسالهم الى بلادهم . وقد عمل هذا ، كما يظهر من منشوراته في مصر ، بقصد التودد للمسلمين ولحكومة الباب العالي . ثم ضم الى الحملة عدداً وافراً من المالطين والأسرى المغاربة الذين يعرفون اللغة العربية والفرنسية بصفة تراجم ، وكان لهم شأن في حوادث مصر كما سيأتي ذكره في مكانه ، وأرسل من مالطة في سفينة عدة آثار غالية وغنائم بقصد إيصالها الى فرنسا ، فغنمها الانجليز قبل أن تصل الى فرنسا .

وفي ١٩ يونيو أفلعت العارة الفرنسية من مالطة قاصدة جزيرة كريد . أما نلسون فانه تتبع العارة الفرنسية باسطوله ، وقد روى كتاب الانجليز أن نلسون كان في ٢٠ يونيو ماخراً باسطوله جنوب جزيرة صقلية ، وكانت العارة الفرنسية قد خرجت في اليوم السابق من مالطة ، بحيث كان الاسطولان على مقربة من بعضهما ، ولكن لم ير أحدهما الآخر . وكانت وجهة الاسطول الانجليزى نهر الاسكندرية ليدرك العارة الفرنسية ، كما قرر نلسون ذلك في ذهنه . وقال كتاب الانجليز إن نلسون كان في صباح يوم ٢٤ يونيو على مسافة بضع فراسخ من العارة الفرنسية ، جنوبي جزيرة كريد ، ولكن لم يرها أيضاً واستمر قاصداً الاسكندرية فوصلها ، كما سيأتي بيانه ، بثلاثة أيام قبل العارة التي يتعقبها .. فما أعجب حوادث التاريخ !! فلو أن نلسون أبصر العارة الفرنسية في مكان من المكنين المشار اليهما ، لتعقبها وربما مزقها إرباً ، قياساً على ما فعل معها في أبي قير بعد ، وقياساً على انتصاراته على أساطيل فرنسا وحلفائها في حروب تلك السنين ، ولو تم له ذلك لتغيرت صفحة كبيرة من صفحات التاريخ . ولما ظهر لنا بوليون من الشهرة والمجد ما ظهر ، ولما حلق بمصر ما حلق بهامن المحن والمنافسات والمنازعات ، التي لم تكسب من ورائها فائدة مباشرة

في يوم ٢٦ يونيو وصلت العارة الفرنسية الى جزيرة كريد ، وهناك في صبيحة اليوم التالي اجتمعت بها الفرقاطة التي كان قد بعث بها للاستعلام في جهات نابولي وأخبر نابوليون بان نلسون على رأس أسطول ضخم . كان قريباً من مياه نابولي في يوم ٢٠ ، وأنه سار قاصداً مالطة . فلما وصل هذا النبا الى مسامع نابوليون أصدر أوامره في الحال

بالسفر الى جهة أفريقية وعند ذلك كشف الغطاء للجنود والضباط عن الجهة التي
تقصدها الحملة ، بعد أن بقي سرها مكتوماً عن الجميع ، إذ أصدر الجنرال بونابرت
أمراً وزعه على جميع السفن لمتلوه الجنود . ولما كان هذا المنشور من الأهمية بمكان
من وجهة تاريخ مصر ، وبيان الخطة التي وضعها نابليون لنفسه وجيشه في مبدأ الأمر ،
فأتى على تعريبه : -

منشور الى الجيش البري (١)

من المعسكر العام على ظهر الباخرة أوريان ٤ مسيدور سنة ٦ للثورة (٢٢ يونيو

سنة ١٧٩٨

من بونابرت عضو الانستيتو ناسيونال ، وقائد عام جيش مصر
أيها الجنود !

انكم ستخوضون غمار حرب سيكون لها تأثير عظيم على المدنية وتجارة العالم
أجمع . وستضربون انكلترا ضربة حساسة في صميم فؤادها ، على أمل أن تتمكنوا
بعد من إيصال هذه الضربة للقضاء على حياتها .

سنضطر الى قطع مسافات متعبة على الاقدام ، وستقاتل في عدة مواقع ، وستنفوز
في جميع المعارك ، لأن العناية معنا

وبعد وضع أقدامنا في أرض مصر ببضعة أيام سنمحي من صحيفة الوجود
أولئك البيكوات المماليك الذين يعضدون التجارة الانجليزية دون سواها ،
والذين أهانوا تجارنا ، وعاملوا سكان وادي النيل بالظلم والاستبداد .

واعلموا أن الشعب الذي سنعيش معه يدين بدين الاسلام ، وأول قواعدهم
(أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله) فلا تعارضوهم في معتقدتهم ، وعاملوهم
كما عاملنا اليهود والاطاليين ، واحترموا مشايخهم وعلماءهم ، كما احترمنا الرهبان
والقساوسة

(١) هذا المنشور كتب وطبع في الباخرة أوريان في ٢٢ يونيو ولكنه لم يوزع على الجيش
الا في يوم ٢٨ قبل مساء اليوم الذي أنزلت فيه الجنود

وليكن في نفوسكم من التسامح للتقاليد التي تقضى بها الشرع ، والمساجد ،
متلما كان لكم من التسامح مع الكنائس والصوامع والبيع ، ومع المتدينين بدين
عيسى وموسى . ولقد كانت الجيوش الرومانية قبلكم تحمى الأديان وترعاها .
وستجدون في هذه الديار عادات تخالف العادات في أوربا ، فلا بد من أن تألفوها
وتعتادوها . وأعلموا أن الناس الذين ستمكونون بينهم ، يعاملون النساء على غير
مألوفنا ، وقد أجمعت الأمم على أن من يتعدى على حرمة المرأة ، إنما هو حيوان
وبهيم .

وأما النهب والسلب ، فلا يغنى الا فئة قليلة من الأفراد ، ولكنه يحط من
قدرنا ، وينقص من شرفنا ، ويبغض فينا قلوب الناس الذين من مصلحتنا أن نكون
معهم على صفاء ووداد » اه

ولقد جئنا على نص هذا المنشور لأسباب كثيرة ، منها أنه غير موجود
باللغة العربية ، بخلاف منشوراته الأخرى ، التي عربت تعريباً قبيحاً ، ونشرها الجبرتي
وغيره ، ومنها أنه يعبر عن عواطف نابليون وميوله الأولى قبل أن يحطم نلسون
أسطوله في أبي قير ، ويقطع عليه آمالا كبيرة ، ومنها أنه لم يقصد بهذا المنشور
الذي وزع على الجنود دون سواهم ، مراعاة المصريين . ومن هذه الأسباب أيضاً
رغبتنا في تطبيق هذه النصائح والارشادات ، التي وجهها لجنوده ، على ما وقع
منهم من الامور المغايرة لروح هذه القواعد ، أثناء وجود نابليون بمصر ، وبعد
سفره منها .

الفصل الثالث

الحملة الفرنسية

في الاسكندرية

كان ظهور السفن الفرنسية ، بمن ثقل من جنود وضباط وقواد علماء ، وذخائر وبنادق ومدافع ، فأنهت عصر جديد لمصر ، بدأ بالاحتلال الفرنسي ، تحت قيادة أعظم القواد الحربيين الذين أظهرهم هذا الوجود ، ثم عقب النزاع بين أوربا ، حول هذه البقعة المسماة وادي النيل ... ذلك النزاع الذي مابرح يظهر على جميع الأشكال ، وغريب الأحوال ، من مطاردة الفرنسيين وإخراجهم ، إلى معاضدة المماليك بانزال قوة إنكليزية على الشواطئ المصرية ، ثم بمقاومة محمد علي ، وإيقافه عند حد لا يتعداه ، في مشروعاته ومطامعه ، ثم بالمعارضة في فتح قنال السويس ، إلى التداخل في أمور مصر المالية ، حتى كانت الثورة العرابية ، والاحتلال الإنكليزي ، والحماية الظاهرة ، والمقنعة ... كل هذه الحوادث والمشاكل خلقتها وضع فرنسا قدمها في مصر ، فانه من ذلك الحين ، أوجست انكناز خيفة من تعاطم نفوذ أية دولة أوربية في وادي النيل ، أو تقوية أي سلطة محلية ، مما قد يكون عائقا في تنفيذ سياستها القاضية بأن يكون طريقها إلى الهند في يدها — فكان لها القدر المعلى في كل هاتيك الحوادث والمشاكل ، إلى ان استقر قدمها في مصر ، عقب الثورة العرابية .. ومع ذلك فستبقى مصر سبباً لمشاكل أوربا ومنازعاتها وحروبها ، حتى تنال استقلالها التام بطريقة تجعل الباب مفتوحا ، والثقة في التساوي كاملة ، أو يحكم الله بأمر من عنده وهو خير الحاكمين

والآن وجب علينا أن ندخل في تاريخ الحملة الفرنسية وحروبها وأعمالها في مصر مدة الثلاث سنوات التي حكم فيها الفرنسيون هذه الديار ، وعاملوا أهلها بما علموهم به من عدل وظلم ، وأكبار واحتقار ، وتعمير وتدمير ، إذ قد جمع في

تلك المدة من المناقضات ما سيظهر للقارئ على صفحات هذا الجزء الخاص
بهذه الفترة .

دفع الشيخ عبد الرحمن الجبرتي هذه الفترة بقوله ، في فاتحة الجزء الثالث من
كتابه ، (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) ، ذلك الكتاب الذي سنذكره ،
ونأخذ عنه ونجاده كثيراً فيما سنكتبه - بالعبارة الآتية فقال :

«وهلت سنة ١٢١٣ هجرية وهي أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث
الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، . وتضاعف الشرور ، وترادف
الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ،
وتتابع الأهوال ، واختلال الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ،
وعوم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها
مصلحون »

ولو وضعت حوادث الحملة الفرنسية في مصر ، ونتائجها ومعاركها ، في هيكل
أوتابوت ، وأريد أن تنفس لها كلمة تذكر ، لما وجد الباحثون أفضل من
عبارة هذا الشيخ الأزهرى ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي !!

كان الثغر الاسكندري في ذلك الوقت بلدة حقيرة لا يزيد عدد سكانه
عن عشرة آلاف نسمة تقريبا ، وكانت تجارته قد اضمحلت ، وثروته قد نزلت
وقلت ، وكان الرئيس اذ ذاك فيها «والمشار اليه بالابرام والنقض» ، هو السيد محمد
كريم السكندري ، وهو رجل لم أقف على حقيقة جنسيته ، والغالب على الظن أنه
مغربي الأصل استوطنت أسرته الاسكندرية ، وكان كما رواه الجبرتي في ترجمة حياته ،
في أول أمره قبانيا يزن البضائع في حانوت بالثغر ، وعنده خفة في الحركة وتودد في
المعاشرة ، فلم يزل يتقرب الى الناس ، بحسن التودد ، ويستجلب خواطر حواشي
الدولة ، وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ، ومن له وجهة وشهرة ، في أبناء
جنسه ، حتى أحبه الناس ، واشتهر ذكره في الاسكندرية ورشيد ومصر ، واتصل
بصالح بك حين كان وكيلا لدار السعادة ، وله الكلمة النافذة في ثغر رشيد

ثم اتصل بواسطته الى مراد بك فتقرب اليه ، ووافق الغرض منه ، وقلده أمر
الديوان والجمارك بالثغر فعملت كلمته ، ونفذت أحكامه ، وكان قبود ان الميناء
التركي أدرس بك

وقد سبق أن قلنا في ختام الفصل السابق إن الأميرال نلسون الانكليزي
جاوز باسطوله العمارة الفرنسية جنوبى كريد ولم يرها ، فقصد الاسكندرية لكي
يدرکها على ظنه ، فوصلها قبل العمارة الفرنسية بثلاثة أيام فقط ، لا بعشرة كما رواه
الجبرتي ، وتابعه المؤرخون الخديشون ، بغير تمحيص ولا تحقيق . وللجبرتي العذر
في أغلاطه التاريخية ، فانه انما كان يكتب في القاهرة ويقول « وردت مكاتبات
على يد الساعة من الاسكندرية ، ومضمونها أن في ثامن (محرم) وصلت عمارة
انكليزية » ، فلا معنى اذن لمتابعتة ، والنقل عنه ، بغير ترو ، وأوقات وصول
هاتيك الاساطيل ، وأولئك القواد العظام ، مضبوطة بالساعات ، إن لم يكن بالدقائق
في كتب القوم ومنذ كراتهم . ومع ذلك فلو أنهم قرأوا الجبرتي حق قراءته ، أي
أنهم درسوا كل كتابه ، ولم يكتبوا بالنقل ، لوجدوا إن الجبرتي في وفيات سنة ١٢١٥
عند ترجمة حياة مراد بك ، يقول بعد ذكره وصول العمارة الانكليزية ومغادرتها
المياه المصرية مانصه « فاهو الا أن غابوا في البحر نحو الاربعة أيام الاوالفرنسيس
قد حضروا وكان ما كان » وهو قريب من الصواب أو هو الصواب بعينه .
ومن أغلاطهم التي لا تغتفر تقريهم ان القوة التي قدم بها نابليون كانت تبلغ
أربعين ألفاً ، وأن عدد البوارج كان أربعمائة سفينة ، مع أن البيان الرسمى موجود
في كتب القوم ، ومنها يظهر في الحال أن القوة التي برح بها أوروبا كانت ٣٢ ألفاً
فقط ، وأنه ترك منها في الماطة ثلاثة آلاف اعتاض عنها بألفين من المالطين ،
وأن عدد السفن لم يزد عن ٣٢٠ سفينة .

فلما أتى الاميرال نلسون مراسيه في الاسكندرية ولم يجد العمارة الفرنسية
بعث بقارب وفيه (على رواية الجبرتي) عشرة أنفار ، فوصلوا الى البر ، واجتمعوا
بالسيد محمد كريم ، ومن معه من أعيان البلدة ، فكلموهم ، واستخبروهم عن

غرضهم فأخبروا أنهم انكايز حضروا للتفتيش على الفرنسيين لانهم خرجوا
بعارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندرى أين قصدهم ، فربما دهموكم
فلا تقدرن على دفعهم ، ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كريم
منهم هذا القول وظن أنها مكيدة منهم ، وجاوبهم بكلام خشن ، فقالت رسل
الانكايز « نحن نقف بمراكينا في البحر محافظين على الثغر ، لا نحتاج منكم الا
الامداد بالمال والزاد بضمنه » ، فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان ، وليس
للفرنسيين ، ولا لغيرهم ، عليها سبيل ، فعادت رسل الانكايز وأقلعوا في البحر
ليمتاروا من غير الاسكندرية ، وليقتضى الله أمراً كان منفعولاً

ولو كان السيد محمد كريم أو غيره في الاسكندرية واقفاً على شيء من حوادث
أوروبا ، ومنازعات الانكايز مع الفرنسيين ، لامتدّ أسطول نلسون بما أراد من ماء
ومؤونة ، لا سيما وقد طلبوا شراء ذلك بالمال ، ولترك لهم حريتهم حتى يتخابر مع
حكام البلدة البكوات ، ونائب السلطان ، ولو تم ذلك ، وبقيت العارة الانكايزية
ثلاثة أيام أخرى ، لكان لها ، مع نابليون وحملته ، حال الله بها أعلم

ويظهر أن رواية الجبرتي هي أصح الروايات ، لان الذي حمل نلسون على
الاقلاع من مياه الاسكندرية ، هو حاجته الشديدة للزاد والماء ، بدليل أنه أقلع في
الحال الى شواطئ آسيا الصغرى بجزيرة سراقوزة ، حيث امتار وعاد الى الاسكندرية
ثانية ، فوصلها في أول أغسطس ، أي بعد نزول الفرنسيين أرض مصر بشهر كامل .

وفي اليوم الاول من شهر يوليو سنة ١٧٩٨^(١) وصلت العارة الفرنسية الى
مياه الاسكندرية عند مطلع الفجر ، فبرزت أمام الجنود والقواد ما ذن الثغر
ومبانيه مجلبة بازار الفجر ، وراء قاعدة من زرقة البحر ، وأدرك الجيش أنه وصل الى
محط رحاله ، ونهاية أسفاره ، ولما ارتفع ذيل النهار ، وعلت الشمس في الافق .
أبصر أهل الثغر سفن العارة الفرنسية ، فأدركوا حين ذلك أن الانكايز صدقوهم ،

(١) أول يوليو سنة ١٧٩٨ يوافق يوم الاحد ١٧ محرم سنة ١٢١٣ والجبرتي يقول
أن الحملة الفرنسية نزلت في الاسكندرية يوم الاثنين ١٨ محرم

ولم يخمد عوهم ، وكان أول ماعمله نابوليون أن بعث بالفرقاطة La Junon الى البر للوقوف على حال البلدة ، ولطلب قنصل فرنسا ، وكان في ذلك الوقت هو ابن أخ «ماجallon» الذي سبقت الاشارة اليه ، فعارض السيد محمد كريم في ذهاب القنصل ، ولكنه عاد فسمح به ، ويقول الجبرتي ، وتابعه المؤرخون الحديثون ، إنه ذهب مع القنصل بعض أهل البلد ، ولم يرد ذكر ذلك في الكتب الفرنسية التي وقفنا عليها وهي أحق بالمعرفة ، فلما وصل القنصل الى بارجة الاميرال أخبر نابوليون أن العمارة الانكليزية ، تحت قيادة نلسون ، كانت هنا منذ ثلاثة أيام (أي ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨) وروى له ما قاله الانكليز من تفتيشهم على العمارة الفرنسية ، وأن الترك قد داخلهم الغزع ، فأخذوا في تحصين المدينة ، واقامة المتاريس ، وأن المسيحيين في الشرف في أشد درجات الخطر ، بحيث صار من اللازم الاسراع في احتلال المدينة . ولم يكن نابوليون في حاجة للتحريض على الاسراع ، فانه ما كاد يسمع بعفريته نلسون قريباً من الاسكندرية ، حتى داخله الغزع ، وأصدر أمره في الحال بالتحويل الى جهة العجمي . وبرز مرابوت (قلعة قابتبای) لانزال الجنود ليلا الى البر فعارضه الاميرال في ذلك لان الجو قد تغير في آخر النهار قائلاً ، إن نلسون لا يمكن أن يعود قبل بضعة أيام

قال بوريين في مذكراته عن ذلك اليوم (وكان بوريين مرافقاً لنابوليون في باخرته) « فلما قال الاميرال إن نلسون لا يعود قبل بضعة أيام ، عارض نابوليون واحتد قائلاً « يلزمنا أن لا نضيع دقيقة واحدة ، فقد أعطاني الحظ ثلاثة أيام فاذا لم أتبهزها خسرنا كل شيء »

فاضطر الاميرال الى أن يصدر أمره بانزال الجنود في الحال فبدأ في ذلك العمل على الرغم من هياج البحر وغرق بعض العساكر . قال بوريين في مذكراته : « كانت الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يوليو حين وضعنا أقدامنا في أرض مصر عند نقطة تبعد نحو ثلاثة فراسخ من الاسكندرية (جهة المكس) وفي الساعة

الثالثة بدأ بالزحف على الاسكندرية ثلاث آليات تحت قيادة كليبر و بونومورات
تحت رياسة القائد العام »

وغريب مع هذا التدقيق فى التاريخ ، وكون بوربين كان كاتب يد نابوليون
فهو شاهد عيان ، أن يوجد بين المؤرخين من يقرر أن موعد نزول الجيوش
الفرنسية كان فى يوم ٣ يوليو لا فى ٢ منه ، كما يقول به « برييه » فى كتابه (تاريخ
مصر من سنة ١٧٩٨ الى ١٩٠٠)^(١) هو من خيرة الكتّاب المحققين . وصاحب
التوفيقات الالهامية ، وهو ممن يعتمد على تدقيقهم فى التاريخ ، يقول أيضاً إن نزول
الجنود الفرنسية فى أرض مصر كان فى يوم الثلاثاء ١٩ محرم ، الموافق ٣ يوليو ،
مع أنه قرر وصول العارة الى الاسكندرية يوم الاحد ١٧ محرم فكأنه يرى أن
الجنود لم تنزل فى مساء ذلك اليوم ، ولا يتفق هذا مع إسراع نابوليون ، وخوفه من
نلسون . والجبرتى يقول « وردت الاخبار بأنه فى يوم الاثنين ١٨ محرم وردت
مراكب و عمارات للفرنسيس ، فأرسو فى البحر » . وهو فى هذا الخطأ التاريخى
مخطىء ومعدور معاً .

وتقطعة الخلاف هى هل كان دخول نابوليون مدينة الاسكندرية يوم الاثنين
(٢ يوليو ١٨ محرم على رواية بوربين وهو شاهد عيان ، وعليه أكثر اعتماد كتاب
الافرنج) ، أو فى يوم الثلاثاء (٣ يوليو و ١٩ محرم)
ومما جاء فى مذكرات « بوربين » عند نزوله من السفينة أنه لما مد الأмирال
يده لمساعدة نابوليون على النزول الى القارب ، رأى القارب قد ابتعد عن مكانه
فصرخ قائلاً « إن حظى بدأ يخوننى ! ولكنه بعد صعوبة ومخاطرة وضع قدمه
فى أرض مصر الساعة الاولى بعد منتصف الليل :

وتكوّن الجيش الزاحف على الاسكندرية فى الساعة الثالثة من صباح يوم الاحد
٢ يوليو (١٨ محرم سنة ١٢٢٣) من ثلاث فرق فقط (منو) على الجناح الايسر
(وكليبر) فى القلب ، (وبون) فى الجناح الايمن ، وكان نابوليون بونابرت القائد
العام ، يسير على قدميه لانه لم يكن قد أنزل من الخيول القادمة مع الحملة جواداً

(1) L'EGYPTE de 1798—1900 par LOUIS Bréhier

واحداً ، ولم يكن ذلك بالشئ الكثير على قائد طبقت شهرته الخافقين ، وهو لا يزال في التاسعة والعشرين من عمره يوم وطئت قدمه أرض مصر !
أما أهل الاسكندرية فقد أزعجهم ظهور الاسطول في النهار ، ولكنهم لم يكونوا ينتظرون أن يداهمهم العدو ليلاً ، إذ المألوف عندهم ان الجيوش التي تنزل ارض مصر تأتي من جهة أبي قير ، وأنه يلزمها عدة أيام لافراغ شحن هذه السفن ، وتنظيم قوة لمهاجمة المدينة . ولكنهم لم يعرفوا نابوليون وسر نجاحه ، وهو الاقدام وعدم ضياع الوقت .

إلا أنه لما انزلت الجنود الفرنسية في البر ليلاً في تلك الليلة الممطرة أسرع بدوي على فرسه بالسير إلى الاسكندرية ، وأبلغ الخبر للسيد محمد كريم ... ومن يدري كيف كان ، وأين كان في تلك الساعة مع سراريه واخذانه ، على نحو ما ألف أهل ذلك الزمن ، من الترف والنعيم والهوى ، فأخذ معه نحو عشرين من المالك الانكشارية (على رواية الفرنسيين إذ ليست لدينا رواية من مصادر أخرى) فالتقت هذه القوة الصغيرة عند مطلع الفجر بطليعة من الجيش الفرنسي فظنوها كل القوة القادمة ، فهاجمها الانكشارية وقتلوا ضابطها وقطعوا رأسه وعادوا بها ظافرين الى شوارع الاسكندرية .

وأخذ بعض عربان قبيلة الهنادي وهم على خيولهم يناوشون تلك المقدمة ، ويقطعون حبل مواصلاتها مع القوى التي بقيت لانزال بقية الجيش ، وكانت تحت قيادة الجنرال ديزيه Desaix . قال أحد المؤرخين : لو كانت القوة البدوية التي نأوشت الجيش الفرنسي ، مؤلفة من نحو خمسمائة من شجعان المالك ، لحدثت ضرراً كبيراً في مبدأ الحركة لان الجنود الفرنسيين ، لم يكونوا قد تنبهوا ، ولا أنهم ما كانوا مستعدين لقبول أي مؤنرات جديدة

وما زال بونايرت سائراً برجاله حتى أشرفوا على مدينة الاسكندرية ، فكان أول ما لاح لهم في نور الفجر عمود السوارى ثم المنائر والمباني ، وصعد نابوليون في الساعة الثامنة صباحاً ، على قاعدة عمود السوارى لاستطلاع المدينة ، واعداد الحملة عليها .

وليس من غرضنا ، ولا من خطتنا في كتابة هذا التاريخ ، أن نتوسع في دقائق الحركات العسكرية ومواقع القتال ، لأن وجهتنا سياسية محضة ، وغايتنا هي بيان حالة البلاد والأمة ، وما نقلب عليها من الحوادث والأحوال ، وأما الحركات الحربية ، وذكر أسماء القواد والضباط ، وتنقلات الأورط والأليات ، وإيضاح نقل الذخائر والمهمات ، فهو من خصائص التاريخ الحربي . وقل أن يدعو إلى اهتمام القراء الذين وضع لهم هذا الكتاب .

ويكفينا أن نقول : إن الاسكندرية لم تكن محصنة ، ولم يكن لها جيش كاف للدفاع ، لا من جانب الدولة ، ولا من جانب المالك . فلم يأت ظهر ذلك اليوم ، حتى كان نابوليون قد دخل المدينة ونزل في دار القنصل الفرنسي . والتجأ السيد محمد كريم ، ومن بقي حوله من الملتفين به إلى حصن فرعون - وأما الاهلى فسلموا . ودارت المحاربات مع السيد محمد كريم طول ليلة الاثنين . وانهى الأمر بان جاء هو ، ومن معه مستسلمين . وهكذا سقطت الاسكندرية ، التي أسسها القائد اليوناني الكبير ، أعظم قواد العصور الأولى ، في يد نابوليون بونابرت ، أعظم قواد العصور الحديثة ! وهكذا الدهر بالناس قآب .

قال الجبرتي « فنأدى الفرنسي بالأمان في البلد ، ورفع بنديراته عليها وطلب أعيان الثغر فحضروا لديه ، فأمرهم بجمع السلاح واحضاره اليه ، وان يضعوا « الجوكاد » في صدورهم فوق ملبوسهم . والجوكاد ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك ، مستديرة في قدر الزبال ، سوداء وحمراء وبيضاء ، توضع بعضها فوق بعض ، بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تحتمها حتى تظن أن الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض »

قال كتاب الفرنسي : أما السيد محمد كريم فانه قبل أعتاب نابوليون وقال له إنه أصبح عبده ومولاه ، وخطب بين يديه ، فرضى عنه نابوليون وطلب منه أن يكون خادماً للجمهورية الفرنسية ، مساعداً لها على إيادة المالك ، وتأييد سلطة خليفة المسلمين ، سلطان آل عثمان !! فأجابه السيد كريم إلى ما طلب ، فعين قومنداناً

لبوليس في الثغر فقام بواجبه خير قيام إذ أعاد النظام في المدينة وجمع السلاح وقدم للجيش الفاتح كل ما يحتاجه .

ويظهر من قول نابليون للسيد كريم « إنه يريد ابادة المالك ، وتأييد سلطة خليفة المسلمين سلطان آل عثمان » انه كان في أول الامر مصمما على اتباع السياسة التي اتبعها الانكليز فيما بعد في مصر ، وهي حفظ سيادة آل عثمان ، ودعوى المحافظة على حقوق الدولة ، وأن الغرض الذي جاء من أجله بالحملة الفرنسية هو لإبادة المالك ، كما كانت دعوى الانكليز ، اخضاع الثورة العرابية .!!

وأحسن ما وقفت عليه من بيان الخطة التي وضعها نابليون نصب عينيه في سياسة مصر ، هو ما كتبه ذلك المؤرخ الكبير ، والسياسي الخطير ، مسيو تيير Thiers^(١) في تاريخ فرنسا الحديث ، قال :

« ان نابليون الذي جمع بين كفاءة قائم العسكى ، ودرية الادارى ، ومهارة السياسى ، أدرك بثاقب فكره الخطة السياسية التي يجب اتباعها في مصر بمجرد وضع قدمه فيها ، فكان عليه أن ينظف البلاد من الذين يحكمونها فعلا ، وهم المالك الذين وجبت محاربتهم سواء بالسيف أو بالسياسة ، وكان ذلك من حقنا لانهم ظالموا أساءوا إلى الفرنسيين ، وظالموا عاملوهم بالظلم والاستبداد ، واما فيما يختص بالباب العالى فكان من الواجب التظاهر بعدم الرغبة فى التعمدى على حقوق سيادته ، واطهار احترام تلك الحقوق ورعايتها ، وكيفا كانت صفة تلك السيادة قائمها لم تكن ذات تأثير مهم ، وفى الامكان الاتفاق مع الباب العالى إما على أن يتنازل عن مصر باعطائه تعويضات عنها فى مكان آخر ، وأما بتوزيع السلطة فيها توزيعاً لايسيوئنا ، لان سباحنا بقائمة الباشا فى القاهرة ، كما كان من قبل مقبياً ، مع تولينا السلطة التي كانت فى يد المالك ، هو غاية مطلبنا . أما فيما يختص بالاهالى . فكان أول واجب علينا لتأليف قلوبهم معنا هو أن نكسب الاغلبية ، وهم المصريون

(١) هو أودلف تيير ولد قبل الحملة الفرنسية على مصر بسنة واحدة أى سنة ١٧٩٧ وألف تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى وتاريخ الديركتوار والقتضلية والامبراطورية . وكان وزيراً لملك فرنسا «لوى فيليب» ثم رئيساً للجمهورية منذ سنة ١٨٧١ - ١٨٧٣

المسلون، وذلك يكون باحترام المشايخ وتخليق كبيرياتهم، وتوسيع دائرة نفوذهم، وبالضرب على أوتار قلوبهم الحساسة بنعمة كالنعمة التي ضربنا عليها في إيطاليا، والتي توجد دائماً في كل زمان ومكان - تلك هي نعمة إعادة مجد الوطن القديم، وذكرى الدول العربية الاسلامية، وبذلك نتأكد من التسلط على البلاد وحكمها تماماً، وزيادة على ذلك، فإننا باحترامنا للحق في معاملة الناس وممتلكاتهم، - عند شعب اعتاد أن يعتقد أن فتح البلاد يعطى للفاتحين الحق في القتل والسلب والنهب، - مما يبعث فيهم الدهشة، ويرفع مكانة الجيش الفرنسي في عيونهم، وفوق كل هذا وذلك، فإننا بحفاظتنا على الاعراض، واحترامنا لاسم النبي صلى الله عليه وسلم، نستطيع أن نستولى على القلوب، كما استولينا على البلاد»

ويؤيد الاعتقاد بان نابليون وضع لنفسه أساس هذه السياسة، الخطاب الذي بعث به إلى أدريس بك قبودان السفن العثمانية في الميناء، وكانت ثلاث سفن فقط، وكبراهن السفينة المسماة «عقاب بحري» وهي سفينة القبودان، إذ كتب له في اليوم الاول من وصول العمارة الفرنسية لبياداسكندرية يقول ما نصه: «ان البكوات أكثر من سوء معاملتهم لتجارنا، وقد جئت للمطالبة بحقوقنا وسأكون غداً في الاسكندرية، فلا يكون ذلك داعياً لقلقك لأنك تابع صديقنا العظيم، ومولانا سلطان تركيا، ولكن خطتك تبعاً لمقتضيات هذه السياسة. أما اذا بدر منك أقل معاملة عدائية للجيش الفرنسي، فإنني أعلمك معاملة الأعداء وتكون أنت السبب فيه، الامر الذي هو أبعد الاشياء عن مرادى وفؤادى» (١)

وقد روى سرهنك باشا في كتابه «حقائق الاخبار عن دول البحار» رواية اخرى، لم يذكر فيها بالطبع هذا الخطاب، ولكن قل في باب البحرية بمصر في عهد ولاية الدولة العثمانية ما يأتي «وفي عهد السلطان سليم خان الثالث ازدادت أهمية البحرية العثمانية بما أدخل فيها من الاصلاحات وكانت عناية السلطانية موجبة لزيادة قوة «الدونمة»، فعززها بالسفن الجسيمة التي أمر بتشييدها، كالاباين والفرافيط

والشبهية ، وغير ذلك وخصص بعضها لحماية الثغور وأرسل بعضها للديار المصرية فكان في نغر الاسكندرية منها ثلاث سفن حربية تحت قيادة ادريس بك قبودان السفينة المسماة « عقاب بحرى » عند ما فاجأ بونايرت الديار المصرية بجيوشه وأساطيله ، ولما طلب بونايرت من ادريس بك أن يرفع العلم الفرنسي بدلا من العثماني ، توقف عن إجابة هذا الطلب وطلب الاقلاع عن الميناء فصرح له نابليون بذلك ، فأقلع الى الآستانة وأخبر بما حصل وكان أبو بكر باشا والى مصر وقتئذ قد هرب الى غزة^(١)

وهذه الرواية مضطربة ، لان طلب نابليون لرفع الراية الفرنسية بدل العثمانية لا يتفق مع روح خطابه ، ولا يسير مع خطته السياسية التي شرحناها . وها هو نابليون في منشوره الذي وزعه على أهالي مصر يسمح لهم برفع الرايات العثمانية إذ يقول في المادة الثالثة « كل قرية تطيع العسكر الفرنسي تنصب أيضاً صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاءه » . . . وقوله إن ابا بكر باشا ، والى مصر وقتئذ هرب الى غزة إنما هو من باب التساهل أيضاً ، لان ابا بكر باشا ، لم يفر الى غزة إلا بعد انهزام المماليك في واقعة امبايه وخذلانهم في واقعة الصالحية في مديرية الشرقية ، على انه لم يكن ثمة من داع لذكر هذه العبارة الاخيرة لان القبودان العثماني لم تكن له صلة بوالى مصر ، وكانت علاقته مع الباب العالي مباشرة^(٢)

ومما يؤيد ان نابليون وضع نصب عينيه إتباع سياسة « دعوى المحافظة على السيادة العثمانية » قوله في المنشور الذي سبقت الاشارة اليه آنفاً ، وسنأتى على نضه بعد في مكانه « ومع ذلك فان الفرنسيين في كل وقت من الاوقات صاروا محبين لمخلصين لحضرة السلطان العثماني ، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه » وقوله أيضاً في ختام ذلك المنشور « أدام الله اجلال السلطان العثماني » .

ومن الوسائل التي تدرع بها نابليون لتشر دعوته في الشرق ، وللتقرب

(١) لم يشر جورجى زيدان ولا حنا شارويم الى هذه النقطة المهمة وذلك لاعتمادها في النقل على الجبرتي وحده

(٢) راجع النظام العثماني بمصر صحيفة ٢٢ و ٢٣ من هذا الكتاب .

من المسلمين والدولة العثمانية ، أن أصدر أمره ^(١) بإعادة السبعائة أسير تركي ، الذين فك إسارهم من العظة الى بلادهم بطريق البر وكان بعض اولئك الاسراء من أهالي طرابلس والجزائر وتونس ومرآ كش ودمشق وسوريا وازمير ومن الآستانة أيضاً . وأمر بان يصرف لهم الغذاء الحسن واللباس الجيد وأن يعاملوا معاملة خاصة ووزعت عليهم مبالغ كافية من النقود يستطيعون بها السفر وسلم اليهم بعض نسخ من المنشورات التي أعدت لتوزيعها على الشعب المصري ، وقصد بذلك أن يذيعوا خبر انتصار الفرنسيين وقوتهم ونياتهم الحسنة نحو المسلمين . قال لاكروا « ولم يسكت اولئك الاسرى عن نشر مكارم نابليون فكانت أقوالهم هذه سبباً لالتفاف القلوب حوله وأثرت تأثيراً حسناً في الشرق كله »

ولم تقف رغبة الفرنسيين في التقرب من المسلمين ، ودعوى ابقاء السيادة العثمانية على مصر عند هذا الحد ، بل اتخذوا أيضاً من الوسائل السياسية ما يلزم لذلك ، فكلف باليران ، وزير الخارجية ، سفير الجمهورية الفرنسية في الآستانة أن يؤكد للباب العالي ، إن فرنسا لا تريد إلا أن تجل في مصر محل المالك الذين استبدوا بالامر وخلصوا سلطة جلالة السلطان ، وأساءوا الى الجمهورية الفرنسية ، بسوء معاملتهم لابنائها الذين قضت عليهم أشغالهم بالوجود في الاسكندرية « (من نص تعليمات وزير الخارجية) وسيظهر للقارىء أن كل هذه الجهود والمساعدات ، لم تفد أمام مساعي انكسارها وسياستها ، وتجر يضها الدولة على استرداد مصر .

الحال نابليون بونابرت

لما استقر قدم نابليون بالاسكندرية شرع أولاً في وضع نظام لحكومتها فكان أول ما عمله ان أصدر أمراً الى القواد يقضى باحترام الدين ، وحقوق الاهالي ويمتلكاتهم ، وقد جاء في هذا الامر .

« يريد القائد العام أن يترك للاتراك (يريد الاهالي) الحرية التامة في تأدية واجباتهم الدينية في المساجد كما كانوا يفعلون من قبل ، ويشدد كذلك في أن لا

(١) أمر نابليون بتاريخ ٣ يوليو ١٧٩٨ عن محفوظات وزارة الحرية في باريس

يدخل أي فرسي، جندي كان أو غير جندي، في المساجد ولا أن يحتشدوا على أبو أيها،
وعليكم أيها القواد أن تصدروا الأوامر لكل ضابط فرقة بتلاوة هذه الأوامر على الجنود
وأن يقرأ عليهم أيضاً الأمر الخاص بتجنب النهب والتعدي ولكم أن تعاقبوا كل
مخالف لهذه الأوامر بالقتل رمياً بالرصاص، ومن المهم جداً أن يدفع الجنود نمناً لكل
ما يتعاونونه في المدينة، وأن لا يسب الترك ولا يتعرض لهم إذ يجب علينا أن
نكون معهم على صفاء وأن لا نحارب إلا المالك»

وترك أمر الأحكام والفصل في القضايا للقضاة المسلمين ثم شكّل ريو أنا أو مجلساً
بلدياً، مؤلفاً من المشايخ وأعيان البلدة. قال أحد المؤرخين: إن نابوليون اختار
سبعة من كبار الاسكندرية ولم يذكر منهم الا اثنين هما السيد محمد كريم السابق
ذكرة والشيخ محمد المسيري كبير علماء الاسكندرية^(١) وفوض اليهم النظر فيما
تحتاجه المدينة وأمرهم أن يجتمعوا كل يوم مرة لتقديم لهم الشكاوى ويتقاضى الناس
أمامهم. وتوالى صدور أوامر نابوليون بتلك السرعة المدهشة والذكاء الباهر فكان
من أوامره: (٣)

أمر بتشكيل قوميون لتحديد قيمة النقود المختلفة
أمر بإبدال سبائك الذهب والفضة التي مع الحملة وصكها نقوداً من نقود البلاد
أمر بجمع الضرائب التي كانت مفروضة من قبل وجباية مبلغ قدره مائة
وخمسون ألف فرنك (ستة آلاف جنيه) كعقوبة حربية

(١) تعرب لقارىء، حكم نابوليون على هذين الرجلين الذين كانا لها شيء من النفوذ في
الاسكندرية عند قدوم نابوليون توطئة لما سيظهر من أمرهما فيما بعد قال:
« كان الشيخ محمد المسيري عالماً وشريفاً ومن كبار رجال الدين في المدينة وكان رجلاً حكماً
واسع المعرفة متمقناً في أصول الدين معروفاً بالطهارة والذمة
ولما كان اوسع معرفة وأكثر خبرة من مواطنيه فقد كانت آرائه صائبة عادلة، وإدارته
حسنة. بخلاف الذين كانوا يحيطون به، وهكذا كان لسيرته بفضل جرأته وشجاعته وقوة
أعدائه وعبيده وسعة تروته أما الشيخ المسيري فكان نفوذه مستمداً من علو نفسه وشفقته
ورقة قلبه وفضائله وعدله الذي كان ظاهراً في كل أعماله. » اهـ عن مذكرات نابوليون في
سانت هيلان

(٢) نصوص هذه الأوامر المختلفة موجودة في مكاتبات نابوليون وفي أوراق نظارة
الحرية الفرنسية بنمر متعددة

أمر بإنشاء كورتينية

أمر بإنشاء مطابع مختلفة للغات الفرنسية والعربية والتركية واليونانية
 لاشك أن نابوليون قد أثبت بهذه النظمات والأوامر ، شديد رغبته في
 إرضاء المصريين والتقرب اليهم بكل الوسائل ، ولكن ضريبة مبلغ مائة وخمسون
 ألف فرنك على مدينة الاسكندرية ، في حالها التي كانت عليها ، تعمدن باهظ المغارم
 التي تنمو تحت حملها البلاد وقت فتحها . وقد يقال وما هو مبلغ ستة آلاف جنيه
 على ثغر كالثغر الاسكندري ، يتبرع أهله للصليب الاحمر في زمن الحرب الكبرى
 (عن طيب خاطر كما يقولون !!) بمبلغ اثني عشر ألف جنيه ؟؟ ولكن يجب أن تقارن
 بين ثروة الاسكندرية وتعداد سكانها في ذلك الحين ، وثروتها وتعداد أهلها في
 الوقت الحاضر ، فقد كان سكان الاسكندرية ثمانية آلاف فقط على رواية الفرنسيين
 أنفسهم ، فعنى ضريبة ستة آلاف جنيه في ذلك الزمن هي كضريبة سبعمائة وخمسون
 ألف جنيه على مدينة الاسكندرية في الوقت الحاضر ، هذا إذا كانت المقارنة بنسبة
 السكان فقط فكيف بالمقارنة مع الثروة ؟؟ . . .

ولم يخسر الفرنسيون في فتح الاسكندرية أكثر من نحو أربعين قتيلا مع
 ثمانين إلى مائة من الجرحى . ولكي يبعث نابوليون الحماسة في قلب الجيش أمر
 أن يدفن جميع الذين قتلوا في الاستيلاء على الاسكندرية بجانب عمود السوارى ،
 وأن تحفر أسماؤهم عليه ؛ وذكر المؤرخون أنه قتل من عساكر الانكشارية والانهالي
 نحو مائة نسمة

وكان أول ما فكر فيه نابوليون هو تحصين ثغر الاسكندرية ابقاء البوارج
 الانكليزية ، فأصدر أمر للضابط كريتين Cretin أحد رؤساء الفرق الهندسية ، فقام
 بذلك الأمر خير قيام ، وأظهر من المهارة والعلم ، ما جعل نابوليون يطريه اطراء
 عالياً في مذكراته ، التي كتبها بعد ذلك بسنين طوال

وأخذ يستعد نابوليون لسير بجيشه لفتح مصر ، والقضاء على المماليك ، فكان
 أول ما فكر فيه ، طبع منشور باللغة العربية ، كتبه هو بنفسه بالفرنسية ، كما يدرك
 الثقافة ، وعربه ، بلغة ركيكة غير مضبوطة ، وليست منطبقة على الاصل الفرنسي تماماً ،



(صورة من الطبيعة)

(نابليون قبل الهجوم على الاسكندرية من كتاب مذكرات السكايت نورمان
الذي كان في فرقة المهندسين العسكرية مع الحملة)

بعض المستشرقين والترجمة الذين أحضرهم معه ، وطبع هذا المنشور في المطبعة
العربية التي أحضرها وتاريخه ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ ، الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ و ١٤
ميسودور سنة ٦ للجمهورية الفرنسية: ونحن مضطرون إلى أن نأتي على نص هذا المنشور
بجروفة، وتعبيراته الشاذة الركيكة ، كما نقله الجبرتي، واعتمد عليه المؤرخون الحديثون،
ثم نقب عليه ببيان الفوارق بين الاصل الفرنسي وترجمته : قال الشيخ الجبرتي:
« وقد كان الفرنسي حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوماً وطبعوه
وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التي يقدهون عليها، تطميناً لهم، ووصل هذا المکتوب
مع جملة من الاسارى الذين وجدوهم بالطلة ، وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم
جملة الى بولاق ومعهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة ، ومنهم جواسيس ، وهم على
شكلمهم من كفار ماطلة، ويعرفون بالغات. وهذه صورة المکتوب:

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله الا الله . لا ولد له ولا شريك له في ملكه
من طرف فرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية
والسر عسكر الكبير أمير الجيوش فرنساوية بونايرته... يعرف أهالى مصر
جميعهم انه من زمن مديد ، الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون
بالذل والاحتقار في حق الملة فرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتهمي
فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة طويلة هذه الزمرة المالك المجلوبين
من بلاد الابازة والجر اكة يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد
في كرة الارض كلها ، فأمر اب العالمين القادر على كل شىء ، فانه قد حكم على انقضاء
دولتهم . يأيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا القطر إلا بقصد إزالة
دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفتربن اننى ما قدمت إليكم الا
لاخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى اكثر من المالك أعبد الله سبحانه وتعالى ،
واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله
وأن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المالك
والعقل والفضائل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يملكوا
مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى الحسان ، وانليل العتاق ،
والمساكن المفرحة ! فان كانت الارض المصرية التزاماً للمالك فليرونا الحجة التى
كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤوف وعادل حكيم . ولكن بعونه تعالى
من الآن فصاعداً لا يئاس أحد من أهالى مصر عن الدخول في المناصب السامية ،
وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء منهم سيدبرون الامور وبذلك
يصلح حال الامة كلها ، وسابقاً كان في الاراضى المصرية المدن العظيمة ، وانخلجان
الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المالك
أما المشايخ والقضاة ، والائمة والجر بجية ، وأعيان البلد ، قولوا لامتم أن فرنساوية
هم أيضاً مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا في رومية السكبرى وخر بوا
كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة
مالطة وطر دوا منها الكوا الليرية^(١) الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم

مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنسية في كل وقت من الاوقات صاروا محبين
مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه . ومع ذلك ان
الماليك امتنعوا عن إطاعة السلطات غير ممثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً الا
لطمع أنفسهم

طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون مع نابلا تأخير فيصلح حالهم، وتعالى
مراتبهم ! طوبى أيضاً للذين يعمدون في مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين
المتحاربين ، فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا إلينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل
للذين يعتمدون على الماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص
ولا يبقى منهم أثر »

ثم اتبع هذا بخمس مواد للارهاب، واتسكون بمثابة تعليمات للمصريين ، نأتى
على نصها :

المادة الاولى : - جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن
المواضع التي يمر بها عسكر الفرنسية فواجب عليها أن تبعث للسر عسكر من
عندها وكلاء لكيما يعرف المشار اليه أنهم أطاعوا وإنهم نصبوا علم الفرنسية
الذى هو أبيض وكحلى وأحمر

المادة الثانية : - كل قرية تقوم على العسكر الفرنسية تحرق بالنار

المادة الثالثة : - كل قرية تطيع العسكر الفرنسية أيضاً تنصب صنجاق

السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه

المادة الرابعة : - المشايخ في كل بلد يختمون حالاً جميع الارزاق والبيوت
والاملاك التي تتبع الماليك وعليهم الاجتهاد التام لتلا يضيع أدنى شيء منها .

المادة الخامسة : - الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون
وظائفهم ، وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً وكذلك تكون
الصلاة قائمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه
وتعالى لا تقضاء دولة الماليك قائلين بصوت عال :

أدام الله اجلال السلطان العثماني :

أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى :

لعن الله المماليك :

وأصلح حال الامة المصرية :

نقل هذا المنشور المرحومان جورجى بك زيدان وشارو بيم بك فى كتابيهما
عن تاريخ مصر الحديث، وغير فيه الاول بضع كلمات بما يقابلها فى كلمة « شرع »
بدل (متساوون) فى قوله « متساوون عند الله » « والكراج » بدل « الجركس »،
ونسى الثانى كلمة « دينكم » فى قوله « اننى جئت لازالة دينكم » فكتبها
« لازالتكم » (وما أظن ذلك عن قصد) وكان الاولى بهما مقارنة الاصل بالترجمة.
ونحن قبل أن نأتى على ما بين الاصل والتعريب من الفوارق ، نقول إن نابوليون
قد أتعب نفسه وترجمته ومطبعته، بغير فائدة، لان هذا المنشور بما فيه من حقائق -
من حيث صفة المماليك وتخريبهم أرض مصر ، وتوبيهات كدعوى الاسلام وعبادة
الله ، واحترام النبي والقرآن ، وبما فيه من ترغيب ، وترهيب « لايساوى عند
المصريين بصلة » كما يقول العوام فى تعبيراتهم . وذلك لاسباب كثيرة . منها
أن المصريين مغلوبون على أمرهم ، ولا حول لهم ولا قوة ، فقد كانوا اذ ذاك كالأغنام
والحمير ، لمن غاب وركب ، ومنها أنهم مع ما أصيبوا به من الذل والهوان ، تحت
نير المماليك والأتراك ، لا يميلون لقبول سلطة مسيحية ، ولا يرضون بغير الأتراك
المسلمين بديلا . والدليل على ذلك اضطرابهم عند قرب الفرنسيين وقيام الكثيرين
منهم بمهاجرة الديار ، وما أظهره من الجزع ليلة قدوم الفرنسيين فى الجهة الشرقية
من النيل ، واستعدادهم جميعاً لمقاتلة القاديين ، ولو بالعصى والنبايت . ومن أكبر
الادلة أنهم على الرغم من حسن معاملة الفرنسيين لهم ، وترتيب نظام ادارى عادل
لاحوالهم ، ناروا ضد نابوليون وجنوده ورجاله وعلمائه مرتين فى مدة أقل من
سنتين كما سيحىء تفضيل ذلك ، وهم لم يثوروا ضد مظالم الأتراك والمماليك طول
هاتيك القرون مرة واحدة، اللهم الا أن تكون تلك « الهيصبة » التى قلم بها الشيخ

الشرف قوى، لتعدى الالفى بك على ممثل كانه، حيث جمع فيها بعض المشايخ، وانتهت كأنها لم تكن. ولكن نابوليون معذور في تصويره أن في مصر، كما في غيرها من البلاد، أمة تحكم العقل، وتفهم قيمة صوالحها، وأن لها شيئاً من المقدرة على رد مكروه، وانها تعزز، أو تضعف، إن مالت الى جهة، أو انحرفت عن اخرى، فلذلك كتب ذلك المنشور البديع في بابه معنى وسياسة، من الوجهة السياسية الفرنسية، ولا غضاضة عليه في ذلك.

أما الخلاف بين الأصل والتعريب - مع التجاوز عن سوء الترجمة وأغلاطها - فهو أن الأصل في خزائن وزارة الحربية الفرنسية، والموجود في مكاتبات نابليون تحت نمرة ٢٧٢٣، ليس فيه ذكرى في مقدمته « لاسم الله الرحمن الرحيم لاله الا هو لاشريك له » وليس فيه عبارة « ومن طرف الفرنسية المبنى على أساس الحرية والتسوية » بل جاء في أوله: « من بونابرت عضو الانستيتوت ناسيونال، والقائد العام، وأوله « أنه من زمان مديد الخ... وجاء في الأصل: « وأننى أكثر من المالك احتراماً لله ولنبية ولقرآن » وفي التعريب « أكثر من المالك أعبد الله سبحانه وتعالى أحترم نبيه والقرآن العظيم » وليس في الأصل مطلقاً قوله « قولوا إن الفرنسية وبينهم أيضاً مسلمون مخلصون »، والذي فيه هو: « قولوا إننا أصدقاء للمسلمين الصادقين » وفرق بين العبارتين كبير. ولسنا ممن يظن أن هذا الخلاف قد جاء عفواً من سوء الترجمة، بل هو مقصود، لأن نابليون لا يكتب بلغته عبارات يعرف أنها ستحفظ عليه في التاريخ، وتعرض من أعدائه، أمام قومه، لتشويه سمعته. وكان أحرص الناس وأنفذهم نظراً الى هذين الأمرين، وإنما حور المترجمون عباراته ووافق هو على ذلك التحوير. وأعقب نابليون هذا المنشور بخطاب كان قد كتبه وأعدده وهو على ظهر الباخرة « أوربان » في ٣٠ يونيو، أى قبل الاشراف على الاسكندرية بيوم واحد، وهذا الخطاب موجه للسيد أبى بكر باشا الذى كان والياً على مصر من قبل الدولة العثمانية، وقد بعث الخطاب المذكور مع ضابط تركي من ضباط السفن التي كانت راسية بمليناء، وهذا هو نص الخطاب:

« إن الادارة التنفيذية للجمهور الفرنسية طالما طلبت من الباب العالى

معاينة البكوات المالك لسوء معاملتهم للتجار الفرنسيين ، فكان جواب الباب العالي دائماً أن أولئك المالك أشخاص أدنياء طماعين، ولا يحترمون مبادئ العدل وأن الباب العالي لا يكتفي فقط لعدم السماح لأولئك المالك بإساءة أصدقائه الصادقين من الفرنسيين، بل يشملهم برعايته وعنايته كما تيسر له ذلك .

فلذلك قررت الجمهورية الفرنسية إرسال جيش عظيم للقضاء على مظالم المالك في مصر ، كما اضطرت الى عمل مثل ذلك مراراً في خلال القرن الحالى مع باي تونس ومع الجزائر ، فأنت الذى كان من الواجب أن تكون السيد المطاع على البكوات ، وقد أصبحت بغير جاه ولا نفوذ، جدير بأن تتلقى نبأ قدومى بالسرور والانشراح . وأنت بالطبع تعلم أننى لم آت للتعرض للدين والشرع، ولا للقيام بأمر ضد السلطان، وكذلك لا بد أنك تعرف ان الامة الفرنسية هي الحليفة الوحيدة للسلطان في اوربا . فهل اذاً الى مقابلتنا والعن معنا المالك وعنصرهم الخبيث^(١)

« بونابرت »

والظاهر ان هذا الخطاب لم يصل الى يد بكير باشا أو ان وصل اليه ولم يجب عليه

بعد هذه المنشورات التى وزعها ، والسكتب التى بعث بها الى الباشا الوالى وقومندان السفينة التري ، شرع نابوليون - كما سيراه القارئ مفصلاً بعد - فى تفهم النفسية المصرية ، فأخذ يكثر من الاجتماع بالشيخ المسيرى ، ومحمد كريم ، ويدعو العربان الى المآذب ، ويشترى منهم الخيول ، ويعد العدة للسير بالحملة الى القاهرة ، وامتلاك مافى القطر المصرى من قرى وبنادر ... فلنسر معه حتى نرى !.

(١) لم ينشر هذا الخطاب باللغة العربية. لا فى الجبترى ولا فى كتب مؤرخينا الحديثين الا انى عثرت على القطعة الاخيرة منه معرفة تعريباً قريباً فيبعضاً شاذاً فى كتاب تاريخ فرنسا الحديث التى اجترمته أحد السكتبين قطعة تاريخ نابوليون فى مصر وطبها فى كتيب على حدة وقال انه مأخوذة عن تاريخ فرنسا الحديث الذى كتبه الطيب الذكر المرحوم سليم البستاني وذكر أن البستاني قال انه كتبه فى أيام حداثة. ونسره فى جريدته الجنان. على ما تقتضيه سرعة كتابة الجرائد» وهذا خطأ محض لان كتاب تاريخ فرنسا الحديث، وان يكن قد نشر فى مجلة الجنان النصف شهرية، التى كان ينشرها سليم البستاني فى سنة ١٨٧١ و١٨٧٢. الا انه لم يكن هو كتيبه بل كان معر به هو الشيخ خطار

الفصل الرابع

استعداد الحملة للسير في فتح مصر

كانت إقامة نابوليون في الاسكندرية سبعة أيام فقط ، وما كان ليقيم فيها هذه المدة على قصرها ، لما جعله أساساً لنجاحه من قيمة الزمن ، لولا حاجته الى امور كثيرة : منها تدبير مسألة الاسطول ، وإنزال ما فيه من المدافع الثقيلة ، وآلات الحرب العديدة ، ومنها حاجته الى الخيول للخيالة ، لانه لم يحضر معه كما ورد في الجدول السابق اشتره ، سوى ٦٨٠ جواداً ، مع أن معه أربعة آلاف جندي من الخيالة ولم ينس أن يحضر معه السروج والأعنة والادوات اللازمة لكل جواد

ولم يكن في الاسكندرية ما يكفي لهذا القدر من الخيول ، فالتزم أن يستعين بالسيد محمد كريم على شراء الخيول اللازمة من عرب البحيرة ، وكان من اللازم له عد اشراء الخيول منهم ، أن يتوود اليهم لكيلا يمس كسوه ، ويقطعوا خطوط مواصلاته في سيره ، ولما كان للسيد محمد كريم ، بصفته أكبر حاكم في الاسكندرية ، من النفوذ على الاعراب ولحاجتهم دائماً الى النقود ، لبوا الامر سراعاً فأجتمع منهم في يوم ٤ يوليو ثلاثون شيخاً من شيوخ قبائل الهنادى ، وأولاد على ، وبنى يونس ، في ساحة المعسكر الفرنسي فاحسن نابوليون مقابلتهم وتوود اليهم ، وكتبوا معه عقداً تعهدوا فيه بأن يجعلوا الطريق من الاسكندرية الى دمنهور آمناً ، وأن يوردوا ثلاثمائة رأس من الخيل ، في مقابل مائتين وأربعين جندياً^(١) ذهباً ، وخمسمائة هجين في مقابل مائة وعشرين جندياً وأن يقدموا ألف جمل مع قادتها لحمل الاثقال ، وأن يطلقوا سراح الاسرى الفرنسيين الذين قبضوا عليهم في مناوشاتهم قرب الاسكندرية . وقبضوا مقدماً مبلغ ألف بنتو ذهباً فسر نابوليون بهذه النتيجة سروراً كبيراً

الدحداح كما هو وارد في أعداد الجنان نفسها . وقول الكنتي « سرعة كتابة الجرائد ، عن مجلة في ثلاث ملازم ، تصدر كل خمسة عشر يوماً ، من الاعتذارات « الظريفة » عن ركافة عبارة الكتاب المذكور !!!

(١) هذه البيانات مأخوذة من مذكرات نابوليون

وشرب وأكل مع أولئك الاعراب وقد حضروا في اليوم الثاني وقدموا ثمانين حصاناً ، ونحو مائة جمل ، ووعدوا بالباقي في الايام التالية ، وجاءوا باثني عشر جندي افرنسي كانوا لديهم اسرى

وكانت رغبة نابوليون قائمة على الوصول الى القاهرة قبل فيضان النيل الذي يفيض في شهر اغسطس ، ولذلك صمم على متابعة السير في الحال الى عاصمة البلاد فبدأ أولاً بوضع حامية مؤلفة من ثمانية الى تسعة آلاف جندي في الاسكندرية تحت قيادة الجنرال « كليبر » الذي جرح في محاولته دخول الاسكندرية ولم يكن قد شفي من جراحه وأصدر اليه عدة أوامر في خطاب مطول (١) نكتفي باقتطاف ما يأتي منها :

« انك تتولى يا مواطني الجنرال قوموندانية الاسكندرية واني قير والصف المتحرك (٢) المخصص للبقاء في ساقفة الجيش لتسهيل المواصلات فيه . وعليك مراقبة انشاء السكورتينية ، وإعداد مستشفياتين واحد للجرحى وآخر للمرضى . وأرجو أن تكون علاقاتك مع العربان ، ووقوفك على حركاتهم ، على غاية مايرام ، وأن تحافظ على احترام العلماء وأعيان البلد ، وسيدهب الاسطول ليرسو في مياه ابي قير ويلزم أن يرسو في جهة بحيث يكون في مأمن من الطواري ، تحت حماية الطوابي التي يلزم اقامتها هناك ، ولعلك تدرك من هذا أهمية الاسراع في انشاء تلك الاستحكامات . ومن المهم جداً أن يسارع الصف المتحرك الذي تحت قيادة الجنرال دومي (Dumay) الى احتلال نقطة الكريون (٣) الواقعة بين الاسكندرية ودمههور حيث توجد مياه كثيرة ، وأن ينصح له بتنظيف الآبار الموجودة في جهة « البيضة » ومن الضروري جداً أن تبقى مواصلات الاسكندرية ورشيد على غاية مايرام بواسطة القوارب في البحيرة وسيبعث لك ديوان اركان الحرب بالنظام الذي وضعه لادارة الاحكام في البلاد ، فمن الواجب كثيراً تعويد القوم تدريجياً على أخلاقنا وتصرفاتنا ، وأن تترك في أيديهم مجالا واسعاً من سلطة ادارة امورهم

(١) نس هذا الخطاب محفوظ في دفترخانة ديوان الحربية بنمرة ٢٧٧٨

(٢) فرقة متنقلة Colonne Mobile

(٣) السكربون بلدة في مركز كفر الدوار

الداخلية ، وبالاخص يلزم عدم التدخل في شئ من المسائل التي لها مساس بالشرع والدين . وفوق ذلك كله أرجوكم أن لا تفرط في إجهاد نفسك بحيث تضرب بصحتك ، التي هي أهم لدى واللجيش ، من كل شئ ، ولك السلام

« بونابرت »

وفي هذه الأوامر من دقائق الحكم ، وحسن الإدارة ، واجتذاب القلوب ، ما لا يخفى على المفكر في تاريخ ذلك الرجل العظيم . وأهم ما في هذه الأوامر إشارته الى حماية الأسطول من غارة نلسون ، التي وقعت على الرغم من كل ذلك بعد شهر واحد من وصول الجيش الفرنسي الى الاسكندرية ، كما سنشرحه في مكانه ، ولكن المهم ذكره هنا ، هو أن نابوليون كان على حذر من الاسطول الانكليزي ، وكان يعلم علم اليقين انه إن قضى على سفنه بالدمار ، فقد قضى على كل آماله ومشاريعه في مصر خصوصاً ، والشرق عموماً ، ولذلك كان همه منذ وصل الى الاسكندرية أن يبحث عن طريقة تقي الاسطول من الخطر ، فكتب الى الأميرال برويس يقول (تاريخ ٣ يوليو)

« إن القائد العام يريد منك اتخاذ كل الوسائل لانزال كل ما يخص الجيش الى البر . ويعتقد القائد العام أنك ولا بد قد جسست عمق البحر ولذلك يود أن يدنو الاسطول من الميناء لأن وجوده بعيداً غير موافق لمصلحة مواصلاتنا » (١)

وكان نابوليون يميل الى دخول الاسطول في ميناء الاسكندرية لحمايته بأسرع ما يمكن ، ولكن حصل خلاف بين رجال البحرية فيما يختص بسعة قاع الميناء لقبول سفن كبيرة كالتى مع الاسطول ، فقال القبودان باريه Barré بإمكان ذلك ولم يوافق عليه الأميرال وبقية القبودانات الآخرين ، وكان من أمر رسوه في ميناء أبى قير ما كان .

وقد أوضحنا هذه النقطة لعظيم أهميتها في مركز الفرنسيين بالقطر المصرى ، ولأن نابوليون طالما ندد بالأميرال برويس وشكاً نتيجة تساهله وعدم الحيطة اللازمة . ولمؤرخى الفرنسيين مجادلات في هذه المسألة يطول شرحها .

(١) من محفوظات ديوان الحرية

وكان آخر ما كتبه نابوليون بالاسكندرية الخطاب الآتي الذي بعث به الى السيد محمد كريم :

المعسكر العام - ٧ يوليو ١٧٩٨ - إلى السيد محمد كريم (١)

« لقد سر القائد سروراً كبيراً بحسن سلوككم منذ دخول الجيش الفرنسي فلذلك يمنحك وظيفة محافظ دائرة الاسكندرية وسنبعث لكم أوامراً على يد الجنرال كليبر ، قومندان عموم الجهة . وذلك لا يمنع السيد محمد كريم من أن يكتب للقائد العام في جميع الأحوال متى أراد . وعليكم أن تقدموا للجنرال كليبر كل ما يطلبه من مستلزمات الجيش الفرنسي وبوليس دائرة العريان »

« بونابرت »

ولكن السيد محمد كريم هذا ، على الرغم من هذه المعاملة الحسنة ، وتلطف نابوليون في مخاطبته وثقته به ، لم يحفظ للفرنساويين حرمة ، ولم يرع لهم عهداً . وكان كعادة أبناء جنسه وزمنه ، وكعادة أبناء وطنه ، إلى وقتنا هذا ، لا يهتمون على رأى واحد ، اذ يبتاعهم مع هؤلاء ، اذ هم مع أولئك .!! وعذرهم في هذا قصر نظرهم من جهة ، وخوفهم من التقلبات من جهة أخرى ، زيادة عما ربوا عليه من أثر الذلة والمسكنة وضعف الارادة ، فقد وجد الفرنسيون معه بعد ذلك ، مكاتبات بعث بها وراء ظهورهم الى مراد بك ، يحرضه على الغارة على الاسكندرية ، فجاءوا به من الثغر ذليلاً ومثلوا به تمثيلاً ، الى غير ذلك مما سيأتى في مكانه مفصلاً . .

ومن أسرار نجاح نابوليون في حروبه ، الاسراع والحيلة ، فإنه ما كاد يضع قدمه يوم ٢ يوليو في الاسكندرية ، حتى أصدر أمره مساء ذلك اليوم للجنرال ديزيه بالتقدم بفرقة للاستيلاء على قرية « البيضة » ، وهي على بعد ثلاثة فراسخ من الاسكندرية لكي يكون ذلك بمثابة النقطة الامامية لقوى الجيش التي تتقدم دائماً الى الامام ، وتندر بالخطر ان كان هناك هجوم من العدو . وثما يجب ذكره ما أوصى به نابوليون الجنرال ديزيه قبل تحركه لتلك النقطة الامامية ، اذ قال له في أوامره

(١) محفوظ في ديوان الحربية ومكاتبات نابوليون بنمرة ٢٧٨٥

« ان لا تستعمل المدفعية ما استطعت ولا تسلط المدافع على المساكن ، وأهم شيء لدينا هو اخفاء ما عندنا من وسائل القوة الغربية ، فلا تستعملها الا حيث تضطر لمقاومة قوة كبيرة جداً » (١) ثم أصدر أمراً آخر بأن تكون فرقة الجنرال « بون » على بعد فرسخ واحد من الاسكندرية بحيث تكون واسطة المخبرات بينه وبين الجنرال ديزيه .

ومما يجب ذكره هنا انه كان أمام نابوليون طريقان لنقل جيشه الى شاطئ النيل ، أحدهما من رشيد والثاني من الاسكندرية الى دمنهور فالرحمانية ، والأولى سهيل لوجود الماء ، ولكن رشيد كانت لا تزال في حوزة المماليك ، وربما خشى مقاومة منهم فيها ، وهو يريد الاسراع للاستيلاء على القاهرة ، فلذلك اختار الثاني ووضع نظامه على ذلك .

جاء في المذكرات التي أملاها نابوليون في سانت هيلانة ما يأتي :-
« وكنا في شهر يوليه وقد قرب النيل أن يغمر الأرض بمياهه ، فأراد بونايرت أن يصل الى القاهرة قبل الفيضان . ولم يكن بونايرت يجهد أن تحت ستار التقاليد القديمة تختفي الحقائق أحياناً ، وأنه يجب على الانسان أن يدرس الامور قبل أن ينشر نفوذه على البلاد التي يريد افتتاحها ، وأن يفهم أن القوة المسلحة وحدها ، ليست الضمان الوحيد . وكان يعرف ، طبقاً للتقاليد المألوفة ، ان احتلال القاهرة هو بمثابة احتلال مصر كلها ، فمن الواجب عليه أن يسرع في وضع يده على المدينة المقدسة ليقتضى بقوة الذعر والخوف ، على روح الخرافات والاهام التي تسود الشعب ، فيحرك جيشه ليصل الى غرضه . وترك حامية مؤلفة من ثمانية أوتسعة آلاف رجل في الاسكندرية وسلم قيادتها ، وكذلك قيادة الفرق التي كانت في عهدة الجنرال « ديموي » الى « كليبر » الذي اضطرته جروحه للبقاء وعدم استطاعته السير »
وفي اليوم السادس من يوليو بدأت الحملة سيرها من الاسكندرية الى دمنهور مما سنفرده فضلاً خاصاً بعد أن نتقل بالقارى الى القاهرة ، ونزوى له ما حصل فيها ، وكيف كان وقع خبر احتلال الفرنسيين على أفئدة المماليك والأهالي .

في القاهرة

لم يذكر لنا الجبرتي بالضبط متى وصل الى القاهرة، خبر دخول البوارج
الفرنساوية في مياه الاسكندرية . وكل ما قلّه بعد كلمات قلائل عن احتلال
الاسكندرية العبارة الآتية :

« ولما وردت هذه الاخبار الى مصر، حصل للناس انزعاج، وعول اكثرهم على
الفرار والهياج... وكذلك لم يعتن المؤرخون الحديثون بضبط اليوم الذي وصلت
فيه الأنباء الى القاهرة، لأننا نعرف أن السيد محمد كريم بعث لمراد بيك نبأ ظهور
العمارة الفرنسية بمجرد ظهورها، أو بعد رسو القارب، الذي يقل القنصل الفرنسي
للبارجة (أورويان)، ويقع ذلك في يوم الأحد ١٧ محرم سنة ١٢١٣، وأول يوليو سنة
١٧٩٨، فكم كان يلزم من الايام لوصول الأخبار الى القاهرة بالسرع ما يمكن؟ كان
لا بد من أربعة أيام على الأقل للفارس المجد، فتكون الأخبار قد وصلت
الى القاهرة ظهر يوم الخميس ٥ يوليو. والظاهر إن هذا هو الصواب، لأن الجبرتي يقول
« واخذوا في الاستعداد وقضاء اللوازم والمهمات وارتحل مراد بك بعد صلاة
الجمعة » وهو اليوم التالي لعقد المجلس وقرار ما اتفق عليه .

وكان السيد محمد كريم حين أبصر تلك العمارة الفرنسية، وهاله أمرها،
كتب إلى مراد بك يقول « إن العمارة التي حضرت الى ميناء الاسكندرية
تتألف من سفن كثيرة لا أول لها يعرف، ولا آخر لها يوصف، فبالحق ورسوله أدركونا
بالرجال » وتوالت رسائله بالاخبار المتقطعة، حتى قيل - كما روى أحد المؤرخين -
أنه بلغ عدد الرسل الذين بعث بها السيد محمد كريم، ثلاثة عشر رسولا في يوم
واحد، وهو يوم الأحد أول يوليو

جاء في كتاب تاريخ فرنسا الحديث، الذي سبقت لنا الإشارة اليه، البيان الآتي:

« ولما قرأ مراد بك التحرير الذي بعث به السيد محمد كريم غضب غضباً شديداً
ورمى به الى الارض، وهاج وماج، وسار الى منزل ابراهيم بك (كان مراد بك بقصره

في الجيزة، و ابراهيم بك في سرايه بقصر العيني) واجتمع به مدة وشاع الخبر في كل القاهرة فهاج الأهلون وخافوا، واجتمع الامراء والاعيان في قصر ابراهيم بك، وحضر أبو بكر باشا والى الدولة العلية من القلعة السلطانية ، واجتمع كل قواد المالك والاعيان، وهم ابراهيم بك الكبير ، ومصطفى بك الكبير ، وأيوب بك الكبير ، و ابراهيم بك الصغير ، ومراد بك الصغير ، وسليمان بك أبو دياب وعثمان بك الشرقاوى ، ومحمد بك الافى ، ومحمد بك المنوفى ، وعثمان بك البرديسى ، وعثمان بك الطوبجى ، وقاسم بك أبو شنب ، وقاسم بك أبو البحر ، والأمير مرزوق بن ابراهيم بك الكبير ، وعثمان بك الطويل ، ومن العلماء الشيخ السادات، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ خليل البكرى ، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ العربى ، والشيخ محمد الجوهري ، وكثيرون غيرهم وأخذوا يبحثون في محيى ، الفرنساويين وفتحهم الاسكندرية ويستغربون ذلك الامر جداً . أما مراد بك فكان يعلم أن الدولة العلية مغناظة منه ولذلك قال لوزيرها (أى للوالى) « إن الفرنساويين لم يدخلوا هذه الديار الا باذنها » (اعتمد مراد بك في قوله هذا ، على العبارة الواردة في منشور نابوليون بأنه قادم للقضاء على المالك ، وانه صديق الدولة والسلطان الخ) ثم قال أيضاً :

« ولا ريب أن حضرة الوزير يقدر أن يخبر نابشى عن ذلك غير أنه لا بد أن تسعنا العناية على الاثنين » . (يعنى الفرنسيس والترك) فأجابه الوزير قائلاً : أيها الأمير انه لا يليق بك أن تتكلم بمثل هذا الكلام ، لانه لا يمكن أن تسلم الدولة العثمانية لدولة نصرانية أن تستولى على بلاد اسلامية ، فدعوا عنكم هذا المقال ، وانهبوا جميعاً كلاً بطل ، وصادموا الذين أتوا ليفتحوا بلادكم » . وبعد ذلك أجمعوا رأيهم على أن يسجنوا قنصل فرنسا وجميع التجار الفرنساويين المقيمين بالقاهرة ، خوفاً من الخيانة فسجنوهم في قلعة الجبل »

نقلنا هذه العبارة من كتاب الشيخ الدحداح ، بنصها حرفياً لأن الجبرتى لم

يأت على شيء من هذا التفصيل، وهو إذ ذاك يقيم بالقاهرة، وله اتصال تام بكثير من الامراء والشيوخ الذين حضروا ذلك المجلس، وكل ما قاله في ذلك الصدد «إنه اجتمع بإبراهيم بك ومراد بك باقى الامراء والعلماء والقاضى وتكلموا فى شأن هذا الأمر الحادث، فاتفق رأيهم على ارسال مكاتبة بنخب هذا الحادث إلى اسلامبول، وأن مراد بك يجيز العساكر لملاقمتهم وحرهم، وانتضى المجلس على ذلك. وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا مع رسوله عن طريق البير «ليأتيه بالترىاق من العراق» اهـ. والعبارة الأخيرة مثل معروف فى مصر، والمراد به استحالة وصول المعونة من جانب تركيا، وبروى عادة بالتعبير الآتى: «على ما أتوا بالترىاق من العراق يكون العليل مات!» وذلك يدلنا على أن الجبرتى وأمثاله من المشايخ والمصريين، لم يكونوا مخدوعين فى قوة الدولة وأمكانها إسعاف مصر!!!

وفى رواية عن كتب الفرنسيين أنه لما وصلت الأخبار إلى القاهرة، بأن جيشاً من الكفار (كندا) هبط أرض مصر، وأن عدده كثير، وكل جنوده من المشاة وليس فيهم خيالة، طرب المماليك وكشافهم، وأثيرت القاهرة زينة، وقال المماليك ما هؤلاء الجنود الكفار إلا كحب «الفسق» للكسر والأكل «ولو كانوا مائة ألف لافئناهم عن آخرهم» وأخذ كل واحد منهم يمد بقطع مائة رأس من رؤسهم!!! اهـ فأما دعاوى المماليك، وغرورهم بأنفسهم، فقد يكون صحيحاً، وأما إن القاهرة أثيرت للزينة فغير صحيح، إلا أن تكون الإثارة من الخوف والفرع!!!

ورواية الجبرتى فى هذه النقطة أصدق الروايات، وهو القائل: «وفى أثناء خروج مراد بك والحركة، حركة الاستعداد، بدأت الوحشة فى الاسواق، وكثر الهرج بين الناس والارجاف، وانقطعت الطرق، وأخذت «الحرامية» فى كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشى الناس والمرور فى الطرق والاسواق، من المغرب. فنادى الاغا والوالى بفتح الاسواق والقهاوى ليلاً، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين»

وأخذ مراد بك فى الاستعداد للسفر لمقاومة الفرنسيين. قال الجبرتى وهو

شاهد عيان « وأخذوا في الاستعداد للثغر » (ربما كان الاصل للسفر) وقضاء
اللازم والمهمات في مدة خمسة أيام ، فصاروا يصادرون الناس ، ويأخذون أغلب
ما يحتاجون اليه بدون عن . ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة وبرز خيامه ووطاقه
الى الجسر الاسود ، فمكث به يومين حتى تكامل العسكر وصناعتهم ، وعلى باشا
الطربلسي ونصف باشا ، وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود وسار من
البر مع العساكر والخيالة . وأما الرجالة (الراجلون أى المشاة وهم الالداشات
القلينجية والاروام والمغاربة) ، فانهم ساروا في البحر مع الغلايين الصغار التي
أنشأها الامير المذكور .

فيؤخذ من رواية الجبرتي أن مراد بك تحرك بالجيش الذي جمعه من الخيالة
براً ، والمشاة بجزاً في النيل ، في يوم الاحد ١٢ محرم ، ٨ يوليو ، بدليل قوله بعد
ذلك « وفي يوم الاثنين وردت الاخبار بأن الفرنسيين وصلوا الى دمنهور » وفعلا
كان وصول نابوليون لدمنهور في الساعة الثانية من صباح يوم ٩ يوليو . وكانت
مقابلة الجيش الفرنسي لمراد بك وجنده وقواربه ، عند شبراخيت في يوم الجمعة ١٣
يوليو فكان مراد بك قضى أربعة أيام في السير من الجزيرة الى شبراخيت .

ولم يرد في الجبرتي ، ولا فيما كتب بعده ، أدنى بيان لمقدار القوة التي سار
بها مراد بك . ولا غرابة أن لا يذكر الجبرتي عدداً معيناً لما نظن أن مراد بك
نفسه كان يعرف عدد جنوده من خيالة ومشاة ، وهكذا كان نظامهم : ! الا أن
الشيخ الدحداح ، وهو كما قلنا ناقل عن المصادر الفرنسية يقول : إن مراد بك ركب
في جيش جرار يفوق العشرين ألف مقاتل وجمع غفير من فرسان الغز والبدو
وسار بهم الى الرحمانية « وهذه مبالغة غير معقولة . وكذلك (لاكروا) وهو
ناقل من المصادر الرسمية الفرنسية ، يقول إن مراد بك برح القاهرة في ٦ يوليو
(يوم الجمعة الذي ذكره الجبرتي) ومعه ثلاثة آلاف من المماليك الخيالة وألفين من
الانكشارية المشاة وعدد كبير من السفن يبلغ نحو الستين ، منها خمسة وعشرون
مسلحة ، وقوة من المماليك قابلت الجنرال ديزيه (Desaix) عند دمنهور
فجموع هذه القوة لا يزيد على ثمانية آلاف ، كما اعترف بذلك نابوليون

في مذكراته التي أملاها في سانت هيلانة . فعبارة الشيخ الدحداح مبالغ فيها بلا نزاع
ويقدر المستر كامرون في كتابه الذي سبقته الإشارة إليه ، في مقدمة هذا
الكتاب ، قوة الممالك في ذلك الحين بعشرة آلاف خيال وثلاثين ألف باشبوزق
(جندي غير نظامي) ، وهذا التقدير غير مضمون الخطأ ، خصوصاً والمستر كامرون
ليس من الموقنين في صحة الأرقام ، إلا ما كان خاصاً بالقوى الانكليزية لوقوفه عليها
في المصادر الرسمية ، فقد قدر قوة الحملة الفرنسية بأربعين ألفاً من خيرة الجنود ،
وهو كما عرف القراء مبالغ في نحو الربع . وان صعب تحقيقه للقوة الفرنسية ، فتحقيقه
لقوة الممالك أصعب ؛ وثابت في أقوال كتاب الفرنسيين ، وهم أحق بالمبالغة في قوة
الممالك ، لبيهاوا بما حازوه من تغار وانتصار ، - أن قوة الممالك لا تزيد على ثمانية
آلاف وخمسة مائة خيال من الممالك أخذ منها مراد بك نحو خمسة آلاف ، وبقي الباقي
في القاهرة . وأما الباشبوزق ، وهم الجنود غير النظاميين ، من خدم الممالك وأتباعهم
(الالدشات) ، فلا يسهل تعدادهم ، ولا نظمتهم يزيدون عن العشرين ألفاً ، وهم
لا يساؤون ألفاً من الجنود المنظمة

قال كامرون : إنه لما وصلت الاخبار للقاهرة هزأ الممالك بفكرة الغارة الفرنسية
على مصر ، وأرسل مراد بك للقنصل الفرنسي روستي^(١) وأخذ يستفسره عن
الغرض من غزوة الفرنسيين وأخذ يسب الفرنسيين ويشبههم بالملكازين (الحمار)
قائلاً للقنصل « أعطهم قليلاً من المال ودعهم يذهبون لأنني لأريد أن أؤذيهم »
وعبثاً يحاول القنصل تفهيمه أن قائد الحملة الفرنسية ، هو نابوليون بوناپرت بطل
واقعة (اركولا) ، ذلك الذي دوخ النمسا في سهول لومبورديا ؛ فلم تكن لمراد بك
معرفة بالجغرافيا ولا بالملك !!!

فترك مراد وجيشه ، سائراً ملاقة نابوليون وجنوده عن طريق الفرع الغربي
من النيل ، وتعود إلى متابعة الحملة الفرنسية في سيرها ، بعد أن تركناها تستعد للحركة
من الاسكندرية للمنبور

(١) هو بعينه روستي الذي كان تابعاً لعلي بك الكبير استخدمه الفرنسيون قسلاً لهم
في غيبة ماجلوث الذي كان في فرنسا وحضر مع نابوليون في الساخرة (اوريان)

« من الاسكندرية الى الرحمانية »

في اليوم السادس من شهر يوليو برح الجنرال فيال Vial الاسكندرية متوجهاً إلى دمنهور على نفس الطريق التي سار فيها الجنرالات ديزيه ، وبون ، ورينيه ، ماراً بالبيضة والعكرش وبركة غطاس . وسار الجنرال مينو بمحملة منظمة الاستيلاء على رشيد . ورتبت عمارة بحرية من السفن الخفيفة المسلحة تحمل الزاد والذخيرة والمدافع والمهمات للسفر من مصب النيل متجهة جنوباً ، لكيما تلتقي مع الجيش عند الرحمانية ، وعهدت رياسة هذه العمارة للكولونيل (بريه) وكان معه الجنرال اندرويسى Andreossi ، قومندان عموم المهمات ، مع ضباط آخرين من البحرية . وكان مجموع القوى التي تحركت من الاسكندرية ورشيدواحداً وعشرين ألفاً على رواية أصدق المصادر ، بين طوبجية وبيادة وسوارى وبحرية

وفي الساعة الخامسة تماماً من مساء يوم الاثنين ٩ يوليو الموافق ٢٥ محرم برح نابوليون بونابرت وهيئة أركان حربه ، مدينة الاسكندرية عن طريق الصحراء إلى دمنهور

وكانت مقدمة الجيش تحت قيادة الجنرال (ديزيه) ، أول من برح الاسكندرية كما قلنا ، مع قوة مؤلفة من أربعة آلاف وسبعمائة مقاتل . وقد قلبي هذا القائد وجنوده ، من شدة الحر وقلة الماء وصعوبة السير في الرمال ، مر العذاب ، وكان العربان قد ردموا الآبار ، وألقوا فيها النطرون المالح حتى صار ماؤها مرّاً وحامضاً ، ولم تكن المنطقة الخصبه الواقعة الآن بين دمنهور واسكندرية ، كما هي اليوم بعد مد السكة الحديدية ، وتطهير المصارف ، وحفر الترع والمساقى ، بل كانت خراباً يتعق على أطلالها اليوم ، ليس فيها الا بضعة أكواخ وعشش للعربان وقطاع الطريق ، فداخل قلوب الجنود الفرنسيين السكدر ، وشملتهم الكآبة ، ولم يجدوا في تلك المهامه القفر ما كان يمنهم به رؤساؤهم ، من أرض مشمرة ، وأنهار جارية ،

وأشجار معشوشبة، حتى اضطر (ديزيه) وهو القائد البطل الصبور، كما يدل على ذلك تاريخه، أن يكتب نابوليون قائلاً: «إذا لم يجتاز الجيش الصحراء بأسرع ما يمكن فقد قضى عليه الفناء»؛ وعلى رواية بوريين، سكر تير نابوليون، أنه أي (ديزيه) كتب يقول: «أما أن تأمرنا بالعودة إلى الوراء أو المسارعة في السير، فإن البقاء في هذه الصحارى مستحيل وقد بدأ الجنود يتدمرون ويتململون». . . . وشتان بين هذه الأرض الجرداء المحرقة، خصوصاً في شهر يوليو، وبين سهول لومبارديا في شمال إيطاليا، أو مناظر التبرول في جنوب النمسا!! تلك المناطق التي كانت تحارب فيها هذه الجنود). ولهذا يطعن كتاب الإنجليز - (الذين ما كانوا يريدون لنابوليون نجاحاً) - على المالك لعدم إسرعهم لمعاكسة الحملة الفرنسية في سيرها بين دمنهور والاسكندرية. أما نابوليون فإنه بعد أن برح الاسكندرية في الساعة الخامسة مساء استمر مع هيئة أركان حربه سائراً طول الليل في جو مقمر، إلى أن اختفى القمر في الساعة الثالثة صباحاً فسار في الظلام، وكاد يروح ومن معه ضحية لخصاص جنود فرقة من الفرق العسكرية في النقط الأمامية، إذ خيل للحراس أنهم هوجوا فنادوا بالتأهب، وأطلقت البنادق من الفريقين مدة ما حتى سمعت الأصوات، وتبودلت العبارات والإشارات، وسار نابوليون في طريقه إلى أن لاحت لانتظاره بلدة دمنهور في الساعة الثامنة صباحاً. فيكون قد قضى ركباً حوالي ستة عشر ساعة، دون راحة!! وكانت دمنهور في ذلك الزمن بلدة حقيرة تحيط بها أشجار نخيل وسنت كثيرة، وفيها بعض المساجد، وحوها بعض تلول عليها قبور وأضرحة للأولياء، وكان (ديزيه) قد احتل البلدة بلا مقاومة. وهناك استقبل نابوليون في دار، قال عنها المؤرخون الفرنسيون، إنها أشبه بزرية لا نوافذ ولا أبواب لها، وهناك اجتمع شيخ البلد والكشاف والمشايخ وبعض أعيان البلدة، فقدموا له جرعة من اللبن، ولقمة من الفطير الذي يسميه الفلاحون «الدمامي» أي المسوي تحت رماد النار!! فما كان أوسع الفرق بين تلك الدار الحقيرة، وقصور إيطاليا وزخارفها!!

وحكي بوريين فقال : « لما وصلنا دمنهور أخذت هيئة أر كان الحرب داراً كانت لأحد أعيان البلد مقراً لها ، وكان ظاهر هذه الدار حسناً ، لأنها مبيضة بالجير ، ولكن داخلها كان متهدماً ، ينم على فقر ومسكنة ، وكان نابوليون قد علم أن صاحب الدار ذو ثروة ، فلذلك سأله ، بعد أن طأن خاطره بواسطة المترجم : لماذا يحرم نفسه من التمتع برفاهية العيش ما دام غنياً وقادراً على ذلك ؟ وأكده المترجم أن صدقه يفيده ولا يضره ، فلما اطأن خاطر الرجل قال « انظر إلى قدمي ! منذ بضع سنوات أصلحت داري ، وابتعت بعض الاثاث ، فوصل خبر ذلك إلى مسمع الحكام في القاهرة ، فطلبوني وطالبوني بالمال ، لأنهم اعتقدوا أنني ذو ثروة ويسار ، فلم أعطهم ما أرادوا ، فعاقبوني بالضرب إلى أن أعطيتهم ما طلبوا ، ولكن بعد ان انكسرت رجلي كما ترون . ومن ذلك الحين هممت أن لا تكون لي دار غير هذه الدار الخربة ، والويل ثم الويل ، لمن يُعرف أنه غني في هذه البلاد ! ! وأضمن الأحوال للسلامة هو الفقر أو ادعاء الفقر »

واستمر الجيش في طريقه قاصداً الرحمانية ، حتى وصلها في نفس ذلك اليوم ١٠ يوليو ، ولما وقعت عيون الجنود على نهر النيل فرحوا واطربوا ، وخلق الكثيرون من الضباط والجنود ملابسهم ، ونزلوا للاستحمام بماء النيل . ووصل بونايرت وهيئة أركان حربه ، واستقر معظم الجيش في جوار الرحمانية وعلى شاطئ النيل طلباً للراحة ، حتى تصل العارة البحرية التي قامت من رشيد كما سبق لنا القول

وكان المايك قد سارعوا بإرسال نحو خمسمائة خيال على جناح السرعة لتعويق نابوليون عند دمنهور ، فوصلت هذه القوة بعد أن ارتحل معظم الجيش الفرنسي ووصلت مقدمته إلى الرحمانية ، ولم يبق إلا فرقة الجنرال ديزيه ، التي تركت في المؤخرة ، فالتقى المايك بالفرنسيين ، ودارت معركة غير مهمة بين دمنهور والرحمانية ، خسر فيها الفرنسيون أربعة من الجنود ، وخسرت تلك الفصيلة من المايك نحو خمسين .

وقد خلط الشيخ الدحداح ، فيما ترجمه في كتابه تاريخ فرنسا الحديث ، فردى حكاية التمرد الذي وقع بين الجنود الفرنسيين ، وكاد يؤدي إلى مالا محمد عقباه ،

كانها وقعت في المنطقة بين الاسكندرية ودمهور ، وهذا غير صحيح . ورواية هذا التمرد ستأتي في مكانها بعد انهزام المالك في واقعة شبراخيت ، وقبل وصول الجيش الفرنسي لامبابه ، بنحو يومين ، كما رواه نابليون نفسه تفصيلاً ، في مذكراته التي أملاها وهو أسير في سانت هيلانة .

موقعة شبراخيت

قال صاحبنا الجبرتي متبهما على مراد بك (وما كان أكثر تبهما عليه) « ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التخن (كندا) والمثانة ، طولها مائة ذراع وثلاثون ذراعاً ، لتنصب على البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر ، لتمنع مراكب الفرنسيين من العبور لبحر النيل ، وذلك بإشارة على باشا ، وأن يعمل عندها جسر من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع ظناً منهم أن الافرنج لا يقدر أن على محاربتهم في البر ، وأنهم يعبرون في المراكب ، ويقاؤونهم وهم في المراكب ، وأنهم يصابونهم ويطلقونهم حتى تأتيهم النجدة ! »

وكيفما كان غرض الجبرتي من هذه العبارة فإن مراد بك ، بعد أن التقى تلك الأوامر ، سار بجيشه المؤلف من نحو ثلاثة آلاف فارس من المالك ، والفين من الانكشارية ، ونحو ألف وخمسمائة أو ألفين من البحارة ، في القوارب التي سبقت الاشارة اليها ، وتابع سيرة ملازمًا ضفة النيل حتى وصل الى قرية الطرانة وهناك وصلت اليه الاخبار بما تم للفرنسيين في أرض مصر ، وعلم لأول مرة أن الجيش الفرنسي احتل رشيد وأن فرقة المالك التي بعث بها الى دمنهور تفرقت شذر منذر ، بين تلك البلدة وبلدة الرحمانية ، وأن كتلة الجيش الفرنسي زاحفة على مصر

فسار الى شبراخيت وأخذ في الاستعداد الحربي على قدر معرفته وكفاءته ، لملاقاة القوة الفرنسية ، فبدأ بإقامة طابقتين في بلدة شبراخيت ، ووضع في كل طابية ٩ مدافع ، وأخذ كذلك في حفر الخنادق حول تلك البلدة حيث وضع للدفاع عنها ، مشانته من الانكشارية ، ووقفت عمارته في النيل منتظرة قدوم السفن الفرنسية

والآن نترك الكلام في وصف هذه الواقعة المهمة، التي ذكرها الجبرتي في بضعة
سطور، وتابعه المؤرخون الحديثون - لنابوليون نفسه، فيها أملاه من مذكراته وهو
في منفاه قال ما خلاصته

« كان الجيش في يوم ١٢ يوليو عند الساعة السابعة مساءً معسكراً عند قرية
منية سلامة، على بعد فرسخ من الرحمانية، وصدرت إليه الأوامر بأن يسير عند
الساعة الواحدة صباحاً - لأنه كان من المهم كثيراً أن لا تعطى مراد بك الوقت الكافي
للتحصن والترس، وجمع شتات جيشه، فما كاد يظهر ضوء القمر حتى تحرك
الجيش، ثم لم تأت الساعة الثامنة صباحاً حتى كان وجهاً لوجه مع جيش مراد بك
المرتكز جناحه الأيمن، المؤلف من المماليك، على بلدة شبراخيت، وجناحه الأيسر
يتألف من نحو ألفين من العربان، ممتدين إلى داخل الصحراء، وكان مع كل مملوك
ثلاثة أو أربعة من الرجال لخدمته وكذلك كان العربان في حركة مستمرة منتقلين
من مكان لآخر، بحيث يخيل للناظر أن هذا الخط المؤلف من خمسة عشر ألفاً إلى
ثمانية عشر ألفاً.

ولما التقى الجيشان أخذ كل فريق يرقب الآخر وكان الفرنسيون ينتظرون
قدوم عمارتهم، التي كانت لم تنزل راسية بجوار الرحمانية، ولاستطيع السير قبل أن
تهب رياح الشمال، وهي لا تهب قبل الثامنة صباحاً، وأخيراً سطعت الشمس بأشعتها
الذهبية على خوذ المماليك وملابسهم، فأظهرت تلك الجنود البديعة في أجلى
مظاهرها، ودارت مناوشات بين الفرسان وبعضهم على الطريقة الشرقية أظهر فيها
المماليك من البسالة والرشاقة، وخفة الحركات، مما ملأ صدورنا بالاعجاب والاحلال،
فكان الفارس منهم، هو وجواده، كأنه قطعة واحدة متماسكة، وكأننا كان جواده
يشاركه في جميع عواطفه ومؤثراته وحركاته، التي كان يقوم بهان من إطلاق غدارته ولسل
سيفه، وإدارة جواده، بمهارة ورشاقة تفوق الوصف »

ولا نستمر مع نابوليون في أوصافه للحركات الحربية لهذه الواقعة، مما هو قبيح
محض، ونكتفي بالقول بأن المعركة دارت على ثلاثة أدوار - الدور الأول هجمة قام
بها المماليك ففتحوا بها ثلثة في مربع فرقة الجنرال (رينيه)، وأخرى في مربع الجنرال

(دوكا) ولكن نيران المدافع ، وبنادق المشاة من الخلف ، ردتهم على أعقابهم
بخسارة كبيرة . والدور الثاني المعركة البحرية في النيل ، وذلك أن العمارة الفرنسية
تحت قيادة الكولونيل بريه Perrée ، وصلت الساعة الأولى بعد الظهر فقابلتها
ال سفن المصرية بنار حامية ، وكانت تلك السفن تحت قيادة على باشا الطرابلسي
واحتدمت الحرب بين الفريقين فحسرت السفن الفرنسية خسارة كبيرة وكادت
تدور الدائرة عليها . وهنا يقول نابوليون في مذكراته « إن « بريه » أنقذ سفنه بحسن
تصرفه ومهارته في ادارتها . ويقول الجبرتي ومن تابعه ، نقلا عن أفواه المالك طبعاً ،
إن المصادفة هي التي قضت بفوز الفرنسيين ، ذلك لأن قنبلة من قنابلهم أصابت
المركب التي تحمل ذخائر المالك ، فأحرقتها وتطايرت اجزاؤها في الفضاء ، فاندعر
المالك وخابت آمالهم . . .

وأما الدور الثالث فهو أن نابوليون لما أدرك الخطر المحقق بعمرته في النيل
أصدر أمره ، بتلك السرعة التي طالما أنقذته من مهالك شتى ، للبيادة بالهجوم على
شبراخيت وقطع مواصلات الانكشارية الذين فيها عن المالك ، فشر أولئك
بانخطر فولوا الأدبار بعد مقاومة قليلة ، واستمرت المعركة دائرة حتى الساعة
السادسة مساء حيث انتهت بوصول الفرنسيين إلى بلدة « شابور » وتقهقر مراد بك
ومن معه إلى القاهرة

وكانت خسارة الفرنسيين في هذه الواقعة من ثلاثمائة إلى اربعمائة ، بين قتيل
وجريح ، وخسر المالك مثل هذا القدر من الخيالة ، بين قتيل وجريح وأسير ، ونحو
اربعمائة إلى خمسمائة من المشاة . ولقد كانت هذه الواقعة أول درس تلقاه المالك
عن الحرب مع الجيوش النظامية الأوروبية ، بعد أن كان يخيل لهم أنهم لا يغلبون ،
وأن الحرب هي عبارة عن امتطاء صهوة الجواد ، وأطلاق القرايينه ، وإشهار
السيف . . . عرفوا عند ذلك أن العدو القادم عليهم لا يستخف به ، وأن شمس أيامهم
قاربت الأفول

ومن الأدلة التي يجب أن تذكر للدلالة على كياسة نابوليون واجتذابه لقلوب قواده

وضباطه ، أنه لما علم بأن الكولونيل بيريه البحري جرح في يده ، وفقد سيفه في المعركة البحرية ، رفاه في الحال الى رتبة « كونتر اميرال » وبعث له بالخطاب الآتي :
« أننى أبعث إليك يا مواطني الجنرال بسيف عوضاً عن سيفك الذي فقدته في واقعة شبراخيت ، فأرجوك أن تقبله منى برهاناً على اعترافى لك بفضل الخدم التي قمت بها للجيش في فتحه مصر . »
« بونابرت »

ولا شك أن خطاباً كهذا يفوح عبيره في الجيش فيملأ قلوب القواد والضباط والجنود حباً لقائدهم ، ورغبة عظيمة في التفاني في خدمته وخدمة وطنهم ..
قال نابوليون في مذكراته عن هذه الواقعة .

« إن واقعة شبراخيت كانت مما يجلب الفخار للجيش الفرنسي . نعم إننا كنا عشرين ألف رجل ومعنا اثنان وأربعون مدفعاً في ساحة الوغى ، ولم يكن أمامنا في الحقيقة سوى ثمانية آلاف مقاتل ولكن هذه كانت أول مرة وجد فيه الجيش الفرنسي نفسه امام أولئك الفرسان البواسل الأبطال » (١)
وغريب ان صاحب كتاب « حقائق الاخبار » يسمي هذه الواقعة الكبيرة واقعة الرحمانية ، ولم يقع في الرحمانية منها شيء . وزيدان يخلط بين شبريس وشبراخيت ، والجبرتي لا يذكر اين مكاتبها ، بل يقول كماداته وردت الاخبار بحصول معركة .

من شبراخيت إلى امبابه

كان من السهل علينا أن ننقل بالقارىء من واقعة شبراخيت إلى الواقعة التي يسمونها واقعة امبابه ، ويسمونها آخرون واقعة الأهرام ، وغيرهم واقعة القاهرة ، وهي جديرة بأن تطلق عليها هذه الأسماء الثلاثة — لولا أن لنابوليون نفسه في مذكراته ، عبارات في غاية الأهمية عن الجيش الفرنسي في تلك المنطقة ، الواقعة بين شابور وامبابه ... تلك المنطقة التي قطعها الجيش المذكور في ستة أيام أي من صباح ١٤ إلى صبيحة ٢٠ يوليو (من السبت ٣٠ محرم إلى الجمعة ٦ صفر) ، وليس لهذه المدة أثر

(1) " Cette belle et redoutable cavalerie "

في الكتب العربية ، لأن صاحبنا « الجبرتي » لا علم له بها ، وكفاهما كان فيه من هم
وغم ، بعد وصول أخبار خذلان مراد بك في واقعة شبراخيت ، إذ لم تعد تخفى الحقيقة
عن سكان القاهرة ، على الرغم من دعوى المالك عن تلك الواقعة الكبيرة « بأنه لم يقع
فيها قتال صحيح وإنما هي مناوشة بين طلائع العسكريين بحيث لم يقتل إلا القليل
من الفريقين » كما روى الجبرتي ، وذلك عن ألسنتهم ، وسجله في كتابه ليكون
للأعقاب مثلاً على مقدار ما في البلاغات الرسمية في أيام الحروب من الصدق والكذب !

بعد أن استراح الجيش الفرنسي في شبراخيت وما جاورها على ضفة النيل
يوم الجمعة ١٣ يوليو صدرت إليه الأوامر بالسير صباح اليوم التالي فوصلت مقدمته
مساء ذلك اليوم إلى بلدة « كوم شريك » وفي تلك الجهة يكتر البطيخ في هذا
الفصل من العام ، وأكثره منزرع في الأرض الرملية التي تقارب النيل في تلك
البقعة فأكل منه الجنود كميات كبيرة وطابت نفوسهم نوعاً ما

وفي الخامس عشر عسكر الجيش على النيل ثم سار نحو أربعة فراسخ ونصف
حتى أدرك بلدة أبو نشابه وفي السابع عشر كان عند بلدة وردان وكان الجيش
يسير ببطء زائد لأسباب كثيرة منها شدة الحر ، وضعو به الحصول على المؤونة الكافية
للجيش ، في بلاد لحق أهلها الفقر المدقع ، وهاجر الكثيرون من سكانها ولم تبق
فيها الا بقية لا تسمن ولا تغنى من جوع

وكان يتابع الجيش من بعيد بعض العربان الذين كانوا يتصيدون من يتطرف
من الجنود الفرنسية ليقتلوه ، وليأخذوا سلاحه وما معه من قليل أو كثير ،
فكانت كل هذه الامور وغيرها مما ينغص على الجنود حياتهم ، ويزيد في ضيق
أنفاسهم وكدرهم . وكما كان بنو اسرائيل حين جاز بهم موسى البحر ، وأتقدم
من مظالم الفرعنة ، وأنزل عليهم المن والسوى ، يتشوقون الى مصر ، ويحنون الى فوطها
وعدسها وقتانها ، وصلها ، كذلك كانت الجنود الفرنسية ، كلما أتت الصحراء المحرقة ،
والبلاد القاحلة ، حنت الى فرنسا ، وتذكرت ايطاليا ، وسهولها وجمالها

قال نابوليون في مذكراته :

« ولقد غشت البكابة نفوس الجنود فأخذوا يقارنون بين هذا الشعب البربرى الذى لا يحسنون التفاعم معه ، مساكن أولئك الفلاحين البؤساء الذين يشابهون نيرانهم فى البلاهة والغبارة ، وهذه البلاد القاحلة العارية عن الظل والثمر ، وهذا النيل ، بل الحجر الحقىرة التى تحمل قليلا من الماء القدر الملوث بالطين ، وضموا إلى كل هذا أولئك العربان ، سكان الصحارى ذوى الأجسام الناحلة ، والقسوة المتناهية ، ونساءهم اللاتى هن أكثر قبحاً وقذاراً . . . أخذ الجنود يقارنون بين كل هذا ، وبين سهول (لومبارديا) المزهرة المثمرة ، وأهالى فينيسيا الأرقاء الظرفاء وتزايدت شكوى الجنود من أنه جىء بهم إلى بلاد لا خبز فيها ولا نبيذ ، ولم يستمعوا إلى ما يقال لهم من أن هذه البلاد ، التى ترونها فقيرة ، قد كانت أغنى بلاد الدنيا ، وكانت خزانة الحبوب لروما والقسطنطينية ، وأنهم متى وصلوا إلى القاهرة وجدوا فيها ما يطلبون من مأكل وشراب . . . فكان جوابهم على هذا : . . . »
« هكذا قلتم لنا فى الصحراء قبل دمنهور ، فغاية الأمر أن تكون القاهرة أكبر من دمنهور ثلاث مرات أو أربعاً ، أو مجموعة من العشش الحقىرة ، الفقيرة من كل ما يجعل الحياة مقبولة ومحتمة »

وذكر أيضاً بونابرت أنه كان يدنو من الجنود ويخطب فيهم قائلاً :

« إن النيل الآن فى آخر انخفاضه ، وانه بعد قليل من الزمن يفيض بالماء الكثير وسيدركون كل ما سمعوا عنه ، وبعد أيام قليلة ستكون لدى الجيش الطواحين والأفران لصنع الخبز ، وأن هذه الارض التى يرونها اليوم جرداء ، والتى يسرون فوقها بصعوبة سيرونها عما قليل خضراء زاهية بالمزارع مما يذكركم بمخضوبة وادى النيل . وكانوا كلما استقر بهم المقام فى نقطة على النيل خلعوا ملابسهم ونزلوا للاستحمام ، ثم يأخذون بعد ذلك فى الجدل والسياسة والمناقشة واطهار الغيظ من تلك الخال فكانوا يقولون : « لأى شىء جئنا إلى هذه البلاد ؟ » لا شك أن حكومة (الديركتور) قد أبعدتنا ونفمتنا من بلادنا » وفى بعض الأحيان يلتفتون إلى الجهة التى فيها قائدهم (نابوليون) ، وكان دائماً يعسكر على ضفة النيل ،

ولا يتناول من الطعام أكثر مما يتناول أحقر جندي ، ويظهرون نحوه علامتهم
الانعطاف والشفقة ، قائلين « لاشك أن رجال الحكومة أرادوا إبعاد قائمتنا والتخلص
منه ولكن كان يلزمه بدلا من أن يقودنا إلى هنا أن يأمرنا ونحن بأقل إشارة
منه ، كنا نطرد أعداءه من تلك القصور التي يحكمون فيها كما سبق لنا طرد أعداء
الجمهورية من مساكنهم ! »

وكان الجنود كلارأوا العلماء قد ذهبوا إلى مكان أو جهة من الجهات للوقوف
على بعض الآثار في الطريق ، خيل لهم أن أولئك العلماء هم الذين حرصوا
الحكومة على إرسال هذه الحملة ، فكانوا موضع سخطهم واحتقارهم ، وكانوا
يلقبونهم « حمير العلماء »

وكان الجنرال كفاريللي رئيس فرقة المهندسين، له رجل مبتورة وضع مكانها
رجلا من خشب ، - يكثر من التنقل بين الجنود لتطمئن خواطرهم ، وليذكر
لهم محاسن مصر وخيراتها فالتفت إليه أحد الجنود وقال له منكماً متبسكاً : « أنت
تقول كل هذا لتهزأ بنا، وأنت لك رجل في فرنسا، قبل أن تكون لك رجل هنا. !! »
قال الراوي فانتقلت هذه النكتة من فرقة إلى فرقة حتى امتلأت بها أفواه الجنود
ضحكاً وسخرية « اه

ولقد أطلنا في نقل هذه العبارات من المصادر الفرنسية لأهميتها من حيث
هي من مذكرات ذلك القائد العظيم ، ولأنها توصف حالة كان عليها الجيش الفرنسي ،
بحيث لو أتيح لقوة منظمة ، ولو صغيرة ، من المالك أو غيرهم ، أن تلتقي بذلك الجيش ،
وهو على ذلك الحال ، وفي تلك البقعة ، لكان من الممكن أن تتغير صفحة مهمة
من صفحات التاريخ :

وفي التاسع عشر من شهر يوليو (الخميس ٥ صفر) وصل الجيش الفرنسي
إلى أم دينار ، على بعد خمسة فراسخ من القاهرة . وهنا لاحظت له لأول مرة مناظر
الاهرامات وبعض المآذن العالية من مساجد القاهرة
وفي اليوم التالي اصطف الجيش وصدرت له الاوامر بالامتداد له محاربة في
الواقعة الفاصلة ، التي سنفرد لها فصلاً خاصاً .

القاهرة قبل الواقعة

بين وصول مراد بك لامباية، بعد هزيمته في شبر اخيت، وبين واقعة امبايه الفاصلة نحو خمسة أيام، نريد أن نأتى على وصف القاهرة في خلالها، وعمدنا في هذه النقطة، هو صاحبنا الشيخ عبد الرحمن الجبerty ، فان ما يرويه في هذه النقطة صحيح الرواية، لانه شاهد عيان، وأقوال مثله في أوقات كهذه مما يحرص عليها المؤرخون، هذا فضلاً عن أن وصفه لحالة الشعب وحكامه في ذلك الحين، مما يعطينا صورة صادقة اللون للحالة الاجتماعية والاخلاقية والنفسانية، للامة المصرية. وسنجد بقدر الامكان في اختصار عباراته المحولة، وفي الاقتصار منها على ما يساعدنا في تكوين وتلوين الصورة التي نريد إبرازها في هذه الصحائف

قال الجبerty : إنه لما وصلت الأخبار بانهزام مراد بك ، اشتد انزعاج الناس وكان العلماء يجتمعون بالازهر كل يوم، ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الاحمدية والرفاعية والبراهمة (لا يريد البراهمة الهنود، بل اتباع سيدى ابراهيم الدسوقى المعروف) والقادرية والسعيدية، وغيرهم من الطوائف، وأرباب الاشار ، ويعملون لهم مجالس بالازهر ، وكذلك أطفال المكاتب ، ويندكرون الاسم اللطيف وغيره من الاسماء (يعنى بهذا تلاوة أسماء الله الحسنى)

قال عن يوم الاثنين ١٦ يوليو (٣ صفر) ، وبعد ذكره خبر وصول مراد بك إلى امبايه، وشرعه مع بقية الامراء في إقامة المتاريس ، وترتيب الجنود حتى صار البر الغربى والشرقى مملوئين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة قال « ومع ذلك فلم تكن قلوب الامراء مطمئنة ، إذ شرعوا فى نقل امعتهم من البيوت الكبار المشهورة، إلى البيوت الصغيرة التي لا يعرفها أحد، واستمروا طول الليالى ينقلون الامتعة ويوزعونها على معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا البعض منها إلى بلاد الارياف ، وأخذوا فى تشييل الاحمال ، واستحضار دواب الشيل وأدوات الارتمال » وهذا من الأدلة القاطعة على أن أمراء المالك قد داخلهم الفزع والخوف ،

وأنهم لم يكونوا واثقين من أنفسهم ، ولا من قادتهم ، وأنهم ما كانوا يحرضون على ملك ، ولا يشعرون بعاطفة قومية أو دينية أو وطنية ، ولا فكروا في قبور أسلافهم ، ولا في معابد دينهم ، حتى ولا في أعراضهم ، كما يشعر كل قوم يداهم عن عدو أجنبي عن جنسهم ودينهم وخلقهم ، وكان كل همهم محصوراً في الحرص على مقتنياتهم وأموالهم التي سلبوها من المصريين المساكين!! وعندى أن مراد بك على الرغم من أنه أشجع الجميع ، وأحقهم بشيء من الثناء لمدافعته ومقاومته ، ما أسرع بالفرار الى القاهرة ، بعد واقعة شبراخيت ، الا ليجمع ما لديه من مال وخول ، ليهرب الى الصعيد!! فقد روى الجبرتي : أن مراد بك بعد واقعة امباريه الاخيرة فرّ إلى الجيزة ولم يقض في قصره أكثر من ربع ساعة ، وأنه قد أعد غليونه الكبير وجمع فيه كل ما يريد الحرص عليه ، وأنه اضطر الى حرق ذلك الغليون لما عجز عن سيره لقلّة الماء في النيل ؛ ورووا عن ابراهيم بك أنه أعد في السفن كثيراً من خيراته ومقتنياته

ومن الغريب في أمر أولئك المالك أنهم في ذلك الظرف العصيب ، حرموا على غيرهم ما أحلوه لانفسهم ، فقد روى « الجبرتي » أنه لما رأى الاهالي منهم ذلك الخوف ، والسعي في تحيئة أموالهم ومقتنياتهم ، أرادوا الاقتداء بهم ، فنعهم الامراء (المالك) وهددوهم بالقتل ، ولولا ذلك لما بقي بمصر من أغنيائها أحد .

وإلى القارىء ، صفحة من صورة القوم في ذلك الحين ، كما رسمها الجبرتي بريشة قلبي الساذج ، قال : « وفي يوم الثلاثاء ، (١٧ يوليو) نادوا بالتغير العام لخروج الناس للمتاريس ، فأغلق الناس الدكاكين والاسواق ، وخرج الجميع لبر بولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات ، يجمعون الدراهم من بعضهم ، وينصبون لهم خياماً ويجلسون في مكان خرب ، أو مسجد ، ويرتبون لهم قيعاً ليصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم ، وبعض الناس كان يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بدلوا ما في وسعهم ،

وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشئ ، يملكه ، ولكن لم يسعفهم الدهر « ... !!

ولعمري إن هذا لدليل ناصع على وطنية كامنة في نفوس المصريين لا تحتاج إلا الى التهذيب والارشاد وحسن القيادة ، اذ لم ينقصهم التضامن في تكوين فئات ، وجمع شتات ، وتسليح القادرين ، وانفاق المال عن طيب خاطر ... ولكن ماذا تنفع هذه الفوضى والجبل ، أمام النظام والعلم ؟ !

والى القارىء صورة أخرى.. قال صاحبنا الجبرتي: « وخرجت الفقراء وأرباب الأثاب بالطبول والزومور ، والاعلام والكاسات ، وهم يضجون ويصيحون ، ويندكرون بأذكار مختلفة ، وصعد السيد عمر أفندي (مكرم) نقيب الاشراف الى القلعة ، فأنزل منها بيراً كبيراً ، سفته العامة « البيرق النبوى » ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق . وحوله ألوف من العامة بالنبايئت والعصى يهتلون ويكبرون ، ويكثرون من الصياح وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بك ببولاق يدعون وينتهلون الى الله بالنصر »

قال: « وانقطعت الطرق ، وتعدى الناس بعضهم على بعض ، وأما بلاد الارياق فانها قامت على قدم وساق يقتل بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً ، وكذلك العرب غارت على الاطراف والنواحي ، وصار قطر مصر ، من أوله الى آخره ، فى قتل ونهب ، وإخافة طريق ، وقيام شر ، وانغارة على الاموال وحاول العامة التعدى على النصرارى واليهود فنعهم الحكام ، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت الفتنة »

ولم يغيب عن الجبرتي أن ينتقد نظام المماليك الحربى ، ويهزأ بهم ، وبسوء تصرفهم ، وعدم قيامهم بما يلزم لحماية البلاد ، فقال : « فى كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنديس الى مصر ، فمنهم من يقول إنهم اصلون من البر الغربى ، ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقى ، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين ، وهذا وليس لاحد من أمراء العساكر همة تحمله على أن يبعث جاسوساً ، أو ظليعة تناوشهم

القتال قبل دخولهم ، وقربهم ووصولهم الى فناء مصر ، بل كل من ابراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ، ومكث مكانه لا ينتقل عنه ، ينتظرون ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ، ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير ، وإهمال أمر العدو :
فالشيخ الجبerty الازهرى ، يقول فى ذلك الزمن ، بما يقول به كتاب الانكبايز الخبيريون عن اهمال المماليك أمر مناقشة نابوليون وجيشه ، خصوصاً فى جهات الصحراء ، وفى النقط التى ضاقت فيها صدور الجنود ، وكرهوا مصر وفتحها :
ولو أن قوة هاجمت فرنساويين من ورائهم عند (وردان) مثلاً.. فان مواصلاتهم مع شبراخيت والرحمانية لم تكن على ما يرام ، - لاضرت بهم ضرراً بليغاً ، ولربما أخطت بهم الفشل والانزمام

قال المستر كامرون فى كتابه : « ولقد أضع المماليك الفرص الثمينة فان نابوليون ترك حراً فى تسيير جنوده ، وهم منهوكة القوى فى الصحراء حتى دمنهور ، ثم كذلك فى الوصول الى النيل دون أن يضطر الى مقاومة فى الحصول على الماء ، ولما انهمز مراد بك فى شبراخيت عاد الى القاهرة وجمع معظم قوته عند امبابه ، ولم يتخذ أقل الوسائل لمناوشة عدوه وحرمانه من النوم والراحة ، ولا عمل شيئاً يودى الى تجريد السكة التى سار فيها جيش العدو من الزرع ، ثم لم يكن تمت من داع لمحاربة عدوه فى الجهة الغربية من النيل ، بل ما كان على مراد بك الا أن يتحول بجيشه الى الجهة الشرقية تحت أسوار العاصمة ، وأن يجبر نابوليون على عبور نهر النيل فى نقطة واسعة شديدة التيار بين امبابه وبولاق ، أو الجزيرة ومصر ، فى ظروف غير ملائمة لمصلحة فرنساويين . كل هذه الفرص أضعها مراد بك كبرياء وجهلاً ، وألقى نفسه غنيمه باردة فى يد المغير على بلاده »

وكذلك لم يخجل الجبerty المماليك أصحابه من قاذع اللفظ ، ومر القبول ، إذ وصفهم بعد ذلك فقال : « وفى يوم السبت ٢١ يوليو وصل الفرنسيين الى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجنود والرايا والغلاحين المجاورة بلادهم لمصر ، ولكن الاجناد متنافرة قلوبهم ، مشحولة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون

على حياتهم ، وتنعيمهم ورفاهيتهم ، مختالون في ريشهم ، مغترون بجمعهم ،
محتفرون شأن عدوهم ، مرتبكون في رويتهم ، مغرورون في غفلتهم ، وهذا كله
من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

والذي يؤيد عندك صدق عبارة الجبرتي في قوله « حريصون على تنعيمهم
ورفاهيتهم » ان الجنود الفرنسيين وجدوا في خيام المالك ، وفي علامة معسكرهم
الذي أقاموه في جهة امبابه ، بعد الفشل والهزيمة ، من فخر الرياش ، وأصناف
السجاجيد الفارسية ، والاراني الغالية الفضية والصينية ، ما دل على أن أولئك
القوم ما فرقوا نعيمهم ، ولا ملذاتهم ، الى اللحظة الاخيرة التي يدافعون فيها عن
ذلك النعيم ، والخير العميم ، بل عن ارواحهم وأعراضهم ، وسيأتي ذلك في مكانه
بعد وصف الواقعة التي قضت على تلك العصابة فلم تقم لهم بعدها قائمة تذكر .
ولنتقل الى الجانب الآخر قبل الواقعة ... جاء فيما أملاه نابوليون في سانت
هيلانه ما يأتي : -

« في ١٩ يوليو وصل الجيش الى قرية أمدينار تجاه ملتقى فرع الداتا ، وعلى
بعد خمسة فراسخ من القاهرة فشهد الجيش لأول مرة الاهرامات وصوبت
النظارات لرؤية هذه الآثار القديمة

استراح الجيش في اليوم العشرين من شهر يولييه ثم صدرت له الاوامر
بالتأهب لخوض المعركة

وكان العدو قد عسكر على الضفة اليسرى لنهر النيل تجاه القاهرة بين امبابه
والاهرامات بجيش عزم من المشاة والفرسان ، تجرسه عارة بحرية ، وبين سفنها
فرقاطة تحمي معسكره . أما العارة البحرية الفرنسية فقد بقيت في المؤخرة لان النيل
كان منخفضاً ولا بد من الاستغناء عن الامدادات التي يجب أن تنقل بواسطته .
اعتز المالك والاعوات والبحارة بكثرة عددهم وحسن موقعهم ، وملأت
الخاسة قلوبهم ، وشجعتهم نظرات امهاتهم وأولادهم وزوجاتهم ، فبات الرجاء يملأ
أفئدتهم . وكانوا يقولون إن تحت الاهرامات التي بناها أجدادهم سيلقى الفرنسيون
حتفهم ، وسيحفرون قبورهم ، ويحل القضاء بهم !! »

الواقعة

واقعة امبابه

على الرغم من رغبتنا الشديدة في نحاشي الخوض في تفصيل الحركات العسكرية، كما سبقت لنا الاشارة إلى ذلك، فاننا لم نر مناصاً من وصف معركة امبابه، وصفاً يليق بتزلما من التاريخ

حقيقة إن واقعة امبابه، على عظيم أهميتها، لا تعد من الوقائع الفاصلة في تاريخ الجنس البشرى، لان المعركة التي يسمونها « الفاصلة »، هي معركة يترتب على نتائجها تغيير كبير في الامم والدول، وأنه لومت على خلاف ماتت، اسكان الفرق هائلا، وربما غير سطح البسيطة بسبب ذلك

والمؤرخين اهتمام بالواقع الفاصلة في التاريخ، ولهم فيها كتب خاصة. ولا بأس أن نذكر على سبيل الاستئناس أن من الوقائع الفاصلة في تاريخ الجنس البشرى واقعة اليرموك، وواقعة القادسية... الاولى قضت على السلطة الرومانية المسيحية، في آسيا الصغرى، والثانية قضت على الدولة الفارسية، والديايمية الزردشتية. ومن هذه الوقائع الفاصلة في التاريخ القديم، واقعة ثرموبلي، بين الفرس واليونان. وفي تاريخ القرون الوسطى، واقعة فتح القسطنطينية، وواقعة ارتداد السيل التركي حول فينا، ومن هذه الوقائع أيضاً في تاريخ الاسلام، واقعة عبدالرحمن الثالث مع « شارل مارتيل » في سهول « طورس »، ومنها في تاريخ اوزيا وارتلو، وسيدان، والمارن

ولا تعد واقعة امبابه من الوقائع الفاصلة، لانه لو تغير « الطابق »، وقهر نابوليون فيها، لا يمكنه الرجوع الى الورا، ريثما ينظم نفسه، ويعيد الكرة، وكان في إمكانه على فرض فشله نهائياً، أن يعود الى سفنه في الاسكندرية بعد أن يخسر ربع أو نصف جيشه، ولم يكن نلسون قد حطم العمارة في ابى قير وقتئذ، اللهم الا اذا كان انتصار المالك في امبابه حادماً بالقضاء المبرم على نابوليون وجيشه، ولم يك ذلك من الامور التي تدخل في حيز الممكنات، ويضعها المؤرخون المدققون

موضع الاهتمام ، لما كان تمت من الفرق العظيم ، بين كفاءة القواد ونظام الجنود ، والفرق بين الاسلحة . ولكن لو حدث ذلك على فرض المستحيل ، كما يقولون ، اذاً كانت تعد واقعة امبايه من الوقائع الفاصلة الهائلة ، واذاً لما كانت الامبراطورية الفرنسية الاولى ، ولا الثانية ، ولما كانت مواقع أوسترليتز ، وجنا ، ومارنجو ، وواترلو ، ولما كان تمت من ضرورة اللاتيان بجيش عثمانى ، ولا انتقل محمد على من بلده قوله ، ولماش ومات لا يعرفه الا « أهل بلده » كما يقال في الامثال

لم تصل أخبار معركة امبايه للمؤرخ الجبوتي ، وهو صحنى تلك الايام ، الامتقطعة من أفواه الناجين من الجند والكشاف والماليك ، ولذلك كانت روايته عنها مضطربة ، فبينما يقول « ان الحرب والقتال استمر ثلاثة أرباع الساعة ، تراه يناقض نفسه فيقول ، ان الحرب بدأت من وقت القائلة (حوالى الساعة عشرة أو أحد عشرة صباحاً) ، ثم يذكر أن الحرب استمرت إلى المساء تقريباً . فنحن أمام هذا التناقض فى المصادر العربية ، نعتمد على الروايات الفرنسية ، وعلى مذكرات نابوليون ، ومذكرات بوريين وأشباهه ، وخلاصة أقوالهم تظهر فيما يأتى : —

كانت قوة الماليك من مشاة وخيالة ، ممتدة بين امبايه ونقطة الاهرام ، بحيث كان جناح هذا الجيش الأيمن مؤلفاً من نحو عشرين ألفاً من الانكشارية والجندرمة ، والالداشات والرجالاة والعربان ، وهذا الجناح قائم وراء خنادق أو متاريس أقاموها بسرعة كبيرة فى خلال الايام الاربع منذ عودة مراد بك إلى امبايه . وكان مع هذا الجناح من المشاة نحو أربعين مدفعاً من طراز قديم ، مثبتة على أرضة أعدت لذلك ، بحيث لا يستطيع نقلها من جهة إلى أخرى ، ولناحويل طلقاتها الى اتجاه مخصوص غير ما أعدت له ، بخلاف مدافع الفرنسيين ، التى هى من نظام حديث ، ونجرها الخيول ، وتحملها الجنود ، من مكان الى آخر حيث تقتضى به مصلحة الموقعة . وهذا الجناح الأيمن مرتكز على شاطئ النيل شمالى قرية امبايه ، ثم يتألف قلب الجيش من نحو عشرة آلاف مملوك ، ونحو ألفين من

الأغوات ، والشوريجية ، وبعض الخيالة من المصريين ، ومع كل طائفة أتباع
وخدم ، وكان على الجناح الأيسر بضع آلاف من العربان الخيالة منتشرين الى
نقطة الاهرام

وكانت السفن المصرية التي كانت في واقعة شبراخيت ، وما انضم إليها من
الغلايين ممتدة في النيل من امبابه إلى بولاق ، ووراءها سفن وقوارب عديدة رافعة
شراعها ، حتى كان المنظر في البقعة ، الواقعة من امبابه إلى الجيزة من جهة الغرب ،
ومن بولاق إلى مصر العتيقة من جهة الشرق ، في نهر النيل ذلك اليوم ، مما يأخذ
بالأبصار حتى وصفه أحد الكتاب الفرنسيين فقال أن تلك المنطقة بهاتيك الأشرطة
كانت كأنها غابة بأسفة الاشجار !!.. وعلى الضفة المقابلة لامبابه ، أى على شاطئ
بولاق وما وراءه من جهة قصر النيل والقصر العيني إلى مصر العتيقة ، خرج
سكان القاهرة رجالا ونساء ، وأرباب الطرق والأشيار ، بالطبول والزور كأنهم في
مولد من الموالد المشهورة في مصر

ولم تقف على بيان واف للنظام الذى وضعه ابراهيم بك للجنود التي بقيت
لحماية القاهرة ، ذلك لأن هذه الجنود لم تفد فائدة ، ولأن ما وضع من النظام من
الجهة الشرقية لم يؤد إلى نتيجة ، وكل ما نعرفه في هذا الصدد إن ابراهيم بك
أرسل إلى العربان المجاردين لمصر ورسم لهم أن يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا
وما ولاها

وعلى هذا النظام في البرين ، الغربي والشرقي ، كان الجيش المصرى — إن صح
أن يسمى بالمصرى — معسكراً انتظاراً لقدوم الجيش الفرنساوى .
قلنا في آخر الفصل الخاص بالحملة الفرنساوية من اسكندرية إلى القاهرة ، إن
جيش نابوليون وصل ام دینار يوم ١٩ يوليو .

وفي اليوم التالى تقدم إلى الأمام قليلا فوق بصر قواده على الجيش الرابض
فكان منظره مؤثراً عليهم ، لأن كثرة الذاهبين والأتين فيه ، وكثرة الأتباع والخدم ،
أكبرت في عيونهم قوة الجيش المصرى وخيل لهم ، على روايات بعضهم ، أن هذه
القوة لا تقل عن خمسين ألف مقاتل ، وهم (الفرنسيون) لا يزيدون على عشرين

ألفاً ، فلذلك اخذ نابوليون يركض بجواده متنقلاً أمام واجهة جيشه ، وهو يقول لهم بصوته الرنان ، مشيراً بأصبعه إلى قم الأهرام :

« إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم »

وأخذ الجيش الفرنسي في التأهب للقتال ، وصدرت الأوامر من القائد العام بأن يسير الجنرال (ديزيه) بفرقته في الميمنة ، ويجاوره الجنرال (رينيه) بفرقته ، وتتوسط فرقة الجنرال (دوكا) ومعها القائد العام ، عند قلب الجيش ، ويرتكز الجنرال (بون) على النيل ويجاوره الجنرال (فيال) مكلاً للجنح الأيسر فلما أشرق النهار بضوئه التقى الجيش الفرنسي بفصيلة من المماليك فيبدها

ببضع طلقات من المدافع وفي الساعة الثامنة صباحاً التقى الجمعان

فكان أول ملاحظه بونابرت أن الجناح الايمن للجيش المصري لا يعبا به ، لانه لا يستطيع الخروج من وراء الحواجز التي أقامها ، والتي لا تصد ، أو تعطل ، الا الخيالة . ثم ان مدافعه لثبوتها وعدم المقدرة على تحريكها ، لا تفيده الا اذا وقف الجناح الايسر من الجيش الفرنسي أمامها ، فلذلك أصدر بونابرت أمره بالانحراف عن مواجهة هذه المدافع ، وبتوجيه فرقة الجنرال (ديزيه) للفصل بين قلب الجيش المصري ، حيث توجد حقيقة القوة الفعالة ، وهي العشرة آلاف مملوك ، وبين جناحه الايمن ، فسار (ديزيه) وتبعته فرقة (رينيه)

وسارت الجنود الفرنسية على هذا الطراز نحو نصف ساعة بسرعة كبيرة وبسكون وهدوء ، إلا أن مراد بك ، وان لم يكن بالقائد المدرب ، الا أنه قد وهب بصراً ناقباً وإلهاماً حربياً ، أدرك الغرض من هذه الحركة ، وعرف أنه اذا وصلت القوى الفرنسية الى غرضها فقد قضت عليه في الحال ، فلذلك أصدر أمره للخيالة التي معه بالهجوم على المشاة الفرنسيين في خلال سيرهم لتعطيلهم في نفاذ خطة فصل قلب الجيش المصري عن ميمنته

وانقض مراد بك بنحو سبعة آلاف فارس ، من أنغر الفرسان الذين امتطوا صهوة جواد في التاريخ القديم والحديث ، وبسرعة كالبرق الخاطف ، فدخلوا بين فرقتي (ديزيه) و (رينيه) ، كالمروء بين الجفن والجفن ، وقد عملت هذه الحركة

بمخفة عجيبة حتى خيل لبونا برت أن (ديزيه) أصبح في خطر، وأنه ليس لديه الوقت الكافي للاصطفاف للقتال، ولكن لحسن حظه كانت الفئة الاولى من المالك الذين هاجموا قليلة، قتل نصفها بطلقات المدافع فتمكن في وقت سقوطها، وارتداد الباقي منها، من تكوين مربعه، ورتبت المدافع وطلقات البنادق على الجهات الاربع، ورأى الجنرال (رينيه) الخطر كما رآه (ديزيه) فشكل جنوده في مربع أيضاً، وتلقى الخيالة المالك من الجهات الاربع، وقامت فرقة الجنرال «دوجا»، التي يقودها بونا برت فعلاً، بحركة دوران حول ميمنة المصريين، فحالت بينها وبين النيل، واستطاعت أن تطلق المدافع من وراء الخيالة المالك المواجهين لمربع «ديزيه»، ومربع «رينيه»، فوقع بذلك المالك بين نارين من أمام ومن خلف، فصاروا يتساقطون جثثاً هامدة على الارض، واختل نظام الجيش المصري: ووقع زعماؤه في حيص بيص. فلم يبق أمام مراد بك إلا الانسحاب للوراء مع ثلاثة آلاف من الخيالة قاصدين الجزيرة، وكانت فرقة الجنرال (رامبون) الاحتياطية، قد وجهت الى الامام وراء الميمنة المصرية للاستيلاء على نقطة لكي تستطيع قطع المواصلات بين امبابه والجزيرة، وحين رأى من بقي من فرسان المالك انسحاب مراد بك الى الجزيرة، أرادوا اللحاق به فلقبهم (رامبون) بفرقة التي أشرنا اليها، وأطبقت عليهم فرقة «دوجا»، «وبون» فلم يبق أمام أولئك الفرسان الا ان يلقوا بأنفسهم في نهر النيل على أمل العبور الى البر الثاني، وفي ذلك الاضطراب قل من استطاع الوصول منهم سالمًا. قالوا ولهذا السبب غرق منهم بضعة آلاف

اما جيش المشاة من الانكشارية وغيرهم، وكانوا نحو عشرين ألفاً مترسين وراء الخنادق، بما معهم من المدافع، فانهم لما أبصروا هزيمة الخيالة تركوا ميدان القتال فارين لا يلبون على شيء، فمنهم من لقي حتفه، ومنهم من نزل إلى القوارب ووصل الى البر الشرقى ولو كانت هذه القوة الكبيرة تحت قيادة حسنة لاستطاعت أن تدور حول الجنود الفرنسية وتحصرها بين امبابه والجزيرة، حيث الخيالة، ولكن هذه القوة البيادة لم تكن على شيء من النظام، وكلمهم من الباشبوزق والخدم والأتباع، ولم يكن في الحقيقة في مصر قوة للقتال غير قوة الخيالة المالك،

التي كانت تحسن القتال مع جنود من نوعها ، لا أمام بطاريات من مدافع متحركة ، ولا أمام بنادق سريعة الطلقات ، ولا أمام حركات عسكرية فنية ، كالتى امتاز بها جيش نابوليون بونابرت ، وقهر بها جيوش إيطاليا والنمسا .

وحاول مراد بك القيام بهجمات جديدة ليفتح طريق المواصلات بينه وبين ماتبقى من جيشه ليسهل لهذا الأخير انسحابه ، فلم ينجح فى هجماته ، ودخل الليل بظلمته ، فلجأ الى الجزيرة وذهب إلى قصره ليأخذ منه ما لم يستعد لآخذه من قبل .

وبلغت خسارة الفرنسيين فى هذه الموقعة ، على رواتبهم ، ثلاثمائة ، بين قتيل وجريح ، أما خسارة المالك فقد روى أن لم يبق من مجموع قوة المالك إلا ثلاثة آلاف ، انسحب بهم مراد بك إلى الجزيرة ، ونحو ألف بقيت مع إبراهيم بك فى القاهرة ، وقتل وغرق فى النيل نحو سبعة آلاف من كبار المالك وأتباعهم ، وقتل نحو ثلاثة آلاف أخرى من العربان والفلاحين وأمثالهم .

ثم ماذا جرى على السفن الفرنسية والسفن المصرية ؟ أما السفن الفرنسية فأنها لقلة الماء فى النيل ، لم تقدر على السير فى محاذة الجيش ، وليس من البعيد أنها تأخرت خوفاً من السفن المصرية ، وقد لاقت من قناطرها الأمرين قرب شبراخيت ، فكيف وهى الآن أكثر عدداً وعدة ؟

كان « بوريين » سكرتير نابوليون ممن سار مع العمارة الفرنسية من الرحمانية إلى القاهرة كما سبق لنا القول ، وهو يروى لنا ، فى مذكراته ، « أن تلك العمارة ، يوم واقعة امبابية ، كانت راسية على مسافة عشرة فراسخ من القاهرة ، (قريباً من نقطة القناطر الخيرية) ، وأن ربح الشمال كانت تهب شديدة ، فكانت أصوات المدافع لاتصل إلى من هم فى السفن ، ولكن لما أقبل المساء ، وهدأت الرياح ، سمعت طلقات المدافع ، وأبصرنا جثث القتلى والغرقى من المالك يسير بها تيار النيل إلى رشيد ودمياط ، فعرفنا أن الدائرة دارت عليهم »

وأما السفن المصرية فإنها لم تستطع القيام بعمل ، وخاف مراد بك وقوعها فى أيدى الغزاة فأمر بإحراقها ، وسنأتى على ذكر هذا الإحراق ، وما أحدثه من الجزع فى القاهرة ، فى الفصل الآتى

والآن نقف عند هذا البيان الذى حاولنا فيه بقدر الامكان ، وصف معركة امبابة التى دامت من الصباح إلى المساء ، وإن تكن ساعات القتال الحقيقية قليلة ومتقطعة ، ولكننا قبل أن ننقل إلى وصف حال القاهرة فى ذلك اليوم العصيب ، وما جرى عليها فى الليلة التالية نصف حال الجيش الفرنسى بعد انتصاره . قال كاتبهم : « وصل نابوليون وأركان حربيه إلى الجزيرة عند الساعة التاسعة مساءً فاحتلوا قصر مراد بك الذى لم يبق فيه أنسان » ثم وصفوا ما فى ذلك البيت من فراش وثير ، ودمقس وحرير ، وأقمشة من فاخر صناعة كشمير ، ونمارق مزركشة من صنع امهر الصانعين ، وما فى بستانه من اشجار وأثمار نادرة المثال . وغنمت الفرقة التى عسكرت فى امبابة كميات كثيرة من المؤن والماء ككل اللذيذة والحلوى الفاخرة ، وجميع أدوات وفراش البكوات والكشاف ، من أبسطة فاخرة ، وفضيات وصينى ، فدب الفرح والسرور فى قلوب الجنود ، خصوصاً بعدما وجدوا فى ملابس البكوات والماليك القتلى أموالاً طائلة ، فقد رووا انهم كانوا يجدون فى ملابس الواحد منهم بين مائتين ومائتين وخمسين قطعة من الذهب ، وهذا غير ملابسهم الموشاة بالذهب والفضة ، وسلاحهم المفضض والمذهب ، فكان ذلك حاملاً للجنود الفرنساوية على انتشار جثث الغرقى من النيل طلباً للغنيمة ، وأكل الجنود وشربوا وطربوا ، وأقيم فى وسط المعسكر سوق للبيع والشراء ، فى السروج والخيول والملابس والسلاح ؛ كل ذلك بين جثث الموتى وأعين الجرحى ! واخلاصة أن الجنود الفرنسية سكرت بجمرة الظفر ، ورقصت على نعمة الغنائم !

وكانت النيران قد شبت فى السفن المصرية وماجاورها من القوارب الصغيرة فعلا دخانها وتأججت ناراها ، فكانت القاهرة تلوح بما ذمها ، وقباب مساجدها ، ودورها وقصورها ، وراء ذلك الدخان واللهيب ، فى حين كانت الجنود الفرنسية فى البر المقابل طرودة لاهية ، كأنما تبصر وراء الافق زينة بحرية ، أو ألعابا نارية ! ؛ هكذا كان حال الفاتحين الغزاة فى البر الغربى من النيل ، فانظر الى حال المساكين أهل مصر فى الضفة المقابلة !

القاهرة

يوم الواقعة

تركنا في ذهن القارىء صورة لما كان عليه الجيش الفرنساوى في الضفة الغربية، والآن نعود إلى صاحبنا «الجبرتي» في وصف ما حاق بالقاهرة يوم الواقعة ومساؤه فنقول: بلغ ما كتبه الجبرتي عن واقعة أمبابة بضعة سطور لا قيمة لها، إلا فيما ذكره من أسماء بعض البكوات الذين أبوا بلاء حسناً، فذكر منهم أيوب بك الدفتردار، وكان من كبار المماليك، وعبد الله كاشف الجرف وعدة كثيرة من كشاف محمد بك الأنفي، وغرق إبراهيم بك الصغير، وهو صهر إبراهيم بك الكبير. ثم قال «ولما عين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية، واختلاط الناس بالصياح، ورفع الاصوات بقولهم «يارب وبالطيف» «ويا رجال الله»، ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك، ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب، وضرب الرقاب، لا يرفع الأصوات، والصراخ والنباح، فلا يسمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرأ ومن يسمع!»

وليس بصحيح ما كتبه «الجبرتي» من أنه لما انهزم المماليك في البر الغربي حول الفرانسييس المدافع والبنادق على البر الشرقي، إذ لم يرد ذكر ذلك في المصادر الموثوق بها، كما أنه لا ينطبق على العقل أن يشتغل الفرنسيون بإطلاق قنابلهم إلى الجهة الشرقية، وهي لا تصل إلى تلك الجهة ولا تأتي بفائدة، كما أنهم لم يكونوا يخشون من عبور سكان القاهرة إليهم، وقد يمكن أن بعض الطلقات التي كانت موجهة لغنائم من المماليك سقطت في النيل، نخيل لهم أن الضرب كان بذلك القصد وفر إبراهيم بك وأبو بكر باشا، وعولا على الفرار إلى سوريا. وهذه كانت نية إبراهيم

بك من أول الأمر ، كما يظهر من أخذه أهبتة ، وجمعه مقتنياتة ... قال الشيخ الجبرتي ، وهو في هذا الوصف الحجة الثقة ...

« فلما استقر ابراهيم بك بالعادلية (الويلية الآن) أرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الامراء ... واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ، البعض بحريمه ، والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه ، والناس يضجون بالعويل والنحيب ، ويتهلون الى الله من شر ذلك اليوم العصيب ، والنساء يصرخن بأعلا أصواتهن من البيوت ، نخرج تلك الليلة معظم أهل مصر ، البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لجهة الشرق ، وهم الاكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه ، ومن لا يقدر على الحركة ممثلاً للقضاء ، متوقفاً للمكروه ، وذلك لعدم مقدرته أو لقلته ذات يده ، وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله »

وأى مصرى ، بل أى انسان ذى عاطفة ، يقف على ذكرى هذه الحال ، ويتصور ما كان يجيش فى صدور القوم من الآلام والاحزان ، فى تلك الليلة السوداء ، التى زادت القوم مصائب على مصائبهم السابقة واللاحقة ، ثم لا يتقطع نياط قلبه ، أو تنحدر الدموع من عينه ؟؟

وقال الشيخ الجبرتي « والذى أزعج قلوب الناس بالاكثر أن فى عشاء تلك الليلة شاع فى الناس أن الافرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها ، وكذلك الجزيرة ، وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يجرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء !! وكان السبب فى هذه الاشاعة أن بعض القلبنجية (البحارة) من عسكر مراد بك ، لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه (وهذا لا شك بأمر مراد بك وإن لم يعلم به الشيخ الجبرتي) وكذلك مراد بك ، لما وصل من الجزيرة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصعبه معه الى جهة قبلى ، فشوا به قليلاً ووقف لقلته الماء فى الطين ، وكان به عدة وافرة من آلات حربية والجبخانة ، فأمر بجرقه أيضاً فصعد اللهيب من جهة الجزيرة وبولاق ، فظن الناس ، بل أيقنوا

أنهم أحرقوا البلدين ، فاجوا واضطربوا زيادة عمائم فيه من الجزع والفرع والروع .
ولو كان ابراهيم بك ، أو كان أبو بكر باشا ، ذا حكمة وإخلاص ، وشفقة على
الرعيا ، لشكل حكومة وقتية من الكبراء والامراء ، وهدأ خواطر الناس ، وحافظ
على السكينة والسلام حتى الصباح ، وكان له أن يفر مع ذلك بمالكيه ونسائه وأمواله ،
إذا شاء . ولكن هكذا كان المالك لا يعرفون من الواجبات الا المحافظة على
أرواحهم ، واعتبارهم بقية الناس حشرات لا قيمة لهم .

وقال الشيخ الجبرتي : « وأخذ الناس يتلاحقون ويتسابقون ، وخرجوا من
كل صوب ينسلون ... وخرج أكثرهم ماشياً ، أو حاملاً متاعه على رأسه ،
وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته وابنته ، ومشى هو
على أقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات ، وأطفالهن على أكتافهن
يبكين في ظلمة الليل » ... والعياذ بالله .

ثم أتبع هذه الصورة المؤلمة بما هو أشد منها إيلاماً . قال عفى الله عنه :
« واستمر الناس على ذلك الحال طول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل
انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع ، فلما خرجوا من أبواب البلد ، وتوسطوا
الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون ، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحماهم ، بحيث لم
يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته ، أو يسد جوعته ، وربما قتلوا من قدروا
عليه ، أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وفتكوا بهن ،
وفيهن المخدرات ونسوة الاعيان ، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة ، جرى
فيها ما لم يتفق مثله في مصر ، ولا سمعنا بما شابهه بعضه في تواريخ المتقدمين ، فإراء
كمن سمعا »

ولما أصبح الصباح كان ابراهيم بك قد فر بجريمه وأمواله ومعه من تبعه من
ماليك وغيرهم من البكوات ، ويبلغ عددهم نحو ألف مقاتل ، واصطحب معه
أبو بكر باشا الوالي ، وفروا جميعاً قاصدين بلدة (بليس) وتركوا القاهرة بلا حاكم ولا
وازع . ولا ندري ان كان الخطاب الذي بعث به نابوليون قد وصل الى يد نائب

الدولة العلية ، وممثل جلاله السلطان بمصر ، وخليفة المسلمين ، أو لم يصل ، إذ الرواة مختلفون في ذلك ، فالجبرتي لم يشر الى هذا الخطاب ولا علم له به ، وكتاب الفرنسيين يقولون إن ذلك الخطاب وقع في أيدي المماليك ، ولم يعلم به أبو بكر باشا ، إذ من المحتمل أنه لو وصل إلى يديه ، ورأى أن قائد الحملة الفرنسية يقول إن فرنسا صديقة السلطان ، وإنه يريد أن يخلص البلاد من المماليك ، ويحفظ سيادة الدولة العثمانية ، لاختار البقاء في القاهرة ، ليرى إن كان ما يقوله نابوليون صحيحاً أو غير صحيح !!

ومن الغريب أن نابليون كتب خطاباً آخر للباشا الوالى في يوم ٢٣ يوليو ، أى بعد يومين من الواقعة ، وبعد مقابلته في الجزيرة لكثير من العلماء والاعيان ، الذين لا بد أنهم قد أخبروه بسفر الباشا الوالى مع ابراهيم بك الى بلبس . والظاهر أنه كتب ذلك الخطاب الثانى ليعث به للباشا فى بلبس ، على اعتقاد أرظن ، بأن الخطاب الاول لم يصله . وهذه ترجمة الخطاب الثانى الذى لم يظهر فى كتاب من السكتب العربية ، حتى ولا فى كتاب الدحداح ، الذى هو أوسع السكتب تفصيلاً ، لنقله عن المصادر الفرنسية .

« إن نية الجمهورية الفرنسية فى احتلالها لمصر هى بقصد طرد المماليك الذين طالما شقوا عصا الطاعة على الباب العالى وعاملوا الحكومة الفرنسية بالعداء . والآن وقد تمكنت الجمهورية الفرنسية ، بانتصار جيوشها ، من وضع يدها على مصر ، فإن من أقصى رغبات الجمهورية أن تحافظ على نفوذ ممثل جلاله السلطان ، وعلى استحقاقه ووجوده . فلذلك أرجوك أن تؤكد للباب العالى أنه لم يخسر بوجودنا فى مصر شيئاً ، واننى سأحرص على أن تتلقى حكومة جلاله السلطان الجزية التى كانت ترسل لها من مصر »^(١) « بونابرت »

وعلى كل حال فلم يأت هذا الخطاب بالنتيجة التى كان يريد بها نابوليون إذ لم يعد الوالى ، ولم تثق الدولة فى شىء من صحة هذه التصريحات

(١) من مكاتبات نابوليون تاريخ ٢٣ يوليو ١٧٩٨

قال الشيخ الجبرتي : ولما أصبح يوم الأحد (٨ صفر ، ٢٢ يوليو) والمقيمون لا يتدرون ما يفعل بهم ، ومتوقعون حلول الفرنسيس ، ووقوع المكروه . ورجع الكثيرون من الفارين وهم في أسوأ حال من العري والفرع ، فتبين أن الأفرنج لم يعبروا النيل الى البر الشرقي ، وأن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها ، فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى الأفرنج ، وينظروا ما يكون من جوابهم ، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم وآخر صحبته »

وفي كتب الفرنسيين أن الذين فكروا في فتح باب المحاربة هم جماعة من تجار الأفرنج في القاهرة وذكروا أنهم اجتمعوا بكخيا الوالى - نائبه - وأقتعوه بضرورة ذلك ، فسمح لهم بالذهاب الى البر الغربى لمقابلة القائد العام ، وفعلوا ذهبوا اليه ، فقال لهم : الأولى أن يحضر الى العلماء والمشايخ والأعيان ، لأطمئنتهم بنفسى وعندى أن رواية الجبرتي أقرب الى التصديق ، اذ لا يعقل أن أهل البلد لا يفكرون في حالهم ، في ذلك الوقت العصيب ، ويتركون لتجار من الأجانب النظر في هذا الأمر ، وليس من البعيد أن يكون السعى قد حصل من الجانبين والشيخ الدحداح يقول في كتابه « وفي الصباح اجتمع القاضى والأعيان وقالوا لا سبيل لنا الا التسليم لمن فتح البلاد عنوة فاتفقوا على هذا الرأى وأتوا بقنصل فرنسا والتجار الذين كانوا قد سجنوهم فى القلعة وطلبوا اليهم أن يسيروا معهم الى بولاق (والصحيح الجيزة) ، ليطلبوا الى بونابرت أن يقبل تسليمهم ويؤمنهم ، فأشار عليهم القنصل بأن يرسلوا اثنتين من الفرنسيين ومعه محمد الكاتب الأول لابراهيم بك ، الى الجنرال بونابرت فلما أتوه قابلهم الباشا وأمنهم على أموالهم وأنفسهم ، وطلب اليهم أن يرسلوا اليه بعض القوارب لينقل بها فرقة من جيوشه لتدخل المدينة ، وتمنع تعدى رعاى القوم على المنازل ، فرضوا وأخبروا العلماء والأعيان بما كان ، فبعثوا حالا بالقوارب الى بر امبابه فركبتها فرقة الجنرال

ديبوى Dupey وكان العلماء والأعيان فيها فاجتمعوا بالجنرال فأمنهم ... فنزل الجنرال ليلا في منزل ابراهيم بك الصغير وأرسل بعض الجنود الى القلعة فاستولوا عليها .

ورواية المعلم « نقولا الترك »^(١) وهو من المعاصرين للحملة ، ومن أنصار الفرنسيين تقول :

وكان أبو بكر باشا و ابراهيم بك حين انهزموا من بولاق وقلوبهم مفترمات بالחסرات ، وهم يتأسفون على ما فات ، ثم أخذوا عيالهم ورجالهم ، وخرجوا من المدينة من باب النصر ، قاصدين البرية ، والديار الشامية . وبقت بقية أهل القاهرة ، تلك الليلة بمخاوف وافرة . . . وعند الصباح ، اجتمع القاضى والأعيان ، وقالوا ان الحكماء ولت ، وأحوالهم اضمحلت ، فالتسليم لنا أصلح ، وحقن دماء الاسلام أوفق وأرجح . وقد ذكرنا أن القنصل والتجار الفرنسيين ، « تحت اليسق » في قلعة الجبل ، فأحضروهم وطلبوا منهم أن يسيروا معهم الى بولاق ، وأخذوا لهم الأمان ، فأشار عليهم القنصل أن يتوجه اثنان من التجار ، ومحمد كتنخدا ابراهيم بك ، وساروا الى برامبايه ، وفي وصولهم تقدموا الى الجنرال ديبوى ، وترحب بهم وسألهم عن أحوال المدينة ، وما مراد أهلها . فقالوا ان الحكماء ولت ، والرعية ذلت ، وقد أتينا من قبل علماء البلد والأعيان ، تطلب لهم الأمان ، فأجابهم الجنرال ديبوى : من أتى سلاحه حرم قتاله ، فلمن منى الأمان ، ومن أمير الجيوش ، ومن كل من في هذا المكان ، وانما يلزمكم أن ترسلوا المعادى والقوارب ... الخ »

وظاهر من هذه الرواية المعاصرة أن الذين اجتمعوا هم القاضى وأعيان القاهرة ، وأنهم قرروا في مداولاتهم الافراج عن القنصل الفرنسي والتجار الذين

(١) المعلم نقولا الترك من أدباء سوريا في ذلك العهد وستنكلم عن حياته وتاريخه عند البحث في مصادر هذا الكتاب وتكتفى الآن بالقول بأنه وضع رسالة مسجعة باللغة العربية عنوانها : (ذكر تملك جمهور فرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية) وقد طبعت هذه الرسالة بالعربية وترجمتها الفرنسية في باريس سنة ١٨٣٩ بواسطة ميسو ديجمانج

كانوا مسجونين في قلعة الجبل ، أو « تحت اليسق » ، كما كانوا يعبرون عن الاعتقال في ذلك الزمان

وكيفما تكن الحقيقة بين هذا أو ذلك، فإن ما لا نزاع فيه هو أن الجنرال دييوى عبر نهر النيل على قوارب ومعديات قدمها له المصريون في اليوم الثاني والعشرين من شهر يوليو سنة ١٧٩٨، ودخل القاهرة مساء، « وساروا قدامه بالمشاعيل الى أن دخلوا المدينة ، والمنادية تنادى أمامه بالأمان ، على الرعية والأعيان . وجلس الجنرال دييوى في منزل ابراهيم بك الصغير وأرسل بعض الصلداة تسلمت قلعة السلطان » كما يقول المعلم « نقولا الترك » بلهجته ، في رسالته .

وفي الصباح وجد أهالى القاهرة المنشور الآتى ملصقاً على الحيطان، ولم تقف على نص هذا المنشور باللغة العربية ، فلذلك نعر به نحن نقلاً عن المصادر الرسمية الفرنسية وتاريخه ٤ ترميدورسته ٦ (٢٢ يوليو) وهذا هو :

« يا أهل القاهرة: اننى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعاً بعدم اشتراككم فى العمل لمقاومتى

لقد أتيت هنا لاقضى على جنس المالك وأبيده ولاسى التجارة وحقوق البلاد الطبيعية

فليهدأ بال من دخل الخوف قلبه ، ونال الرعب منه ، وليعد الذين تركوا بيوتهم اليها ، ولتقم الصلوات اليوم فى المساجد كما كانت تقام من قبل ، وكما أريد أن تبقى دائماً . لا تخافوا شيئاً على عيالكم وبيوتكم وأملاككم ولا سباب دينكم ، دين النبى الذى أحبه وأقدسه

ولقد أسرع بتعيين رجال الشرطة حتى يعود الامن الى نصابه ولا يعثب به عابث ، وسيكون لكم ديوان مؤلف من سبعة أشخاص يجتمعون فى جامع « الدود » (كذا) ويكون اثنان منهم دائماً متصلين بالقائد ويبقى أربعة منهم للاهتمام بحفظ الامن ومراقبة الشرطة » اه حرفياً

ومدهش أن الجبرتي لم يأت على نص هذا المنشور، مع حرصه على نصوص تلك المنشورات وغاية ما ورد في كتابه قوله: إن الفرنسيين أعطوا الوفد الأول الذي قابل نابوليون (سواء أكان الرجل المغربي وصاحبه، أم بعض التجار وقنصل فرنسا، وكاتب إبراهيم بك) ورقة لتطمين أهل مصر، وعبارتها مغايرة للأصل الذي نقلنا تعريبه من المصادر الرسمية. وجاء الشيخ الدحداح بتعريب ذلك المنشور بعبارة مغلوطة ركيكة، تخالف كثيراً في نقطها الأساسية، الأصل الرسمي. ولم يذكره ولم يشر إليه المعلم نقولاً التترك

ورواية «الجبرتي» بعد ذلك أصح من غيرها قال «ولما رجع الجواب بذلك (وبعد ذلك المنشور) اطمأن الناس، وركب الشيخ الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجزيرة فتلقاهم نابوليون وضحك لهم، وقال لهم أنتم المشايخ الكبار؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال لأي شيء يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور ونحن نعمل لكم ديواناً لاجل راحتكم وراحة الرعية وأجراء الشريعة، فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والامان، ثم انفصلوا من معسكره بعد العشاء، وحضروا إلى مصر واطمأن برجعهم الناس وكانوا في وجل وخوف على غياهم. وأصبحوا فأرسلوا الامان إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والمشايخ، ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية. أما السيد عمر مكرم نقيب الاشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر»

وكانت العامة من الاهالي لما علموا بفرار البكوات وكبار المالك، انقضت على دورهم كالذئاب الخاطفة فتهبتهم وأشعلت النار في بعضها، وبيع ما كان في تلك القصور والدور، من فرش ونحاس وأمتعة، بأبخس الاثمان، وهكذا الغوغاء تفعل في كل مكان وزمان، حيث لا راع ولا وازع

قال (لاكروا) واستمرت المحادثات دائرة بين أهالي المدينة من جهة، والقائد العام، من جهة أخرى، فيما بين الثالث والعشرين إلى الخامس والعشرين من شهر

يوليو فلم يبق أحد ممن له حيثية في القاهرة لم يعبر النيل لملاقاة «السلطان الكبير» كما لقب الناس بونايرت اذ ذلك (ولم نر في الجهرتي ذكراً لهذا اللقب) وتقديم واجبات الطاعة والخضوع له فكان نابوليون يقابلهم جميعاً بالبشاشة والاستئناس ليعتد الطمانينة في نفوسهم »

وكان يساعد بونايرت في تطييب خواطر القوم المترجم بينه وبينهم ، وكان من ذوى الحصافة والعلم ، وهو المستشرق المعروف مسيو فاننير^(١) M. Venture ولما عزم نابوليون على الانتقال من الجيزة للقاهرة ، شرع أولاً في أخذ الحيطه اللازمة للجيش وله ، فأصدر أمره للجنرال «ديزيه» باحتلال الجهة الواقعة على بعد فرسخين جنوبى الجيزة ، واقامة الطوابى والماريس ، ووضع المدافع اللازمة توفياً من هجوم مراد بك ، وكذلك أمر الجنرال «دوجا» بأقامة خط دفاع عند نقطة الهرم توفياً من هجوم العربان ، وبعث بونايرت بكميات وافرة من الغلال والارز والمؤونة الى رشيد فى القوارب لتموين الجيش والاسطول

وفى يوم الاربعاء (٢٥ يولييه ١١ صفر^(٢)) عبر نابوليون بونايرت النيل ودخل القاهرة دخول الظافر الفاتح ، ونزل فى دار الأبنى بك المطله على بركة الازبكية . وكان ذلك المنزل كما روى الجهرتى ، فى خط الساكت وقد أنشأه محمد بك الالفي فى السنة السابقة لدخول الفرنسيين وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة ، وفرشه بالرياش الفاخرة

(١) Jean Michel Venture de Paradis كان فى زمانه أعظم وأشهر مستشرق فى أوروبا وولد فى مرسيليا سنة ١٧٤٢ وكان أستاذ اللغة التركية فى جامعة باريس حين استدعاه بونايرت للسفر معه فى حملته . وكان عمره اذ ذلك ٥٦ سنة وكان قد ساح فى البلاد العشائية والعربية سنين ومرات عديدة ، وفى حصار عكا أصيب بالدوسنطاريا ومات ، وكان موته خسارة للعلم اذ ذلك ولوعاد لكتب أفخر الكتب عن وجوده بالشرق مع نابليون

(٢) مما يثبت أن الشيخ الجهرتى لم يجمع مذكراته وما كتبه عن وقائع تلك الايام الا بعد عدة سنين ، كما سبق لنا ذكر ذلك فى المقدمة ، تقريره أن بونايرت وصل القاهرة يوم الثلاثاء مع أنه يوم الأربعاء ، وقول الجهرتى بعد ذلك « وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر ، يدل ذلك على خلط فى التاريخ ، لأن يوم الخميس يوافق ١٢ صفر لا ١٣ منه . تقولوا الترك يقول أيضاً ان نابليون دخل القاهرة يوم الثلاثاء ، وهو خطأ أيضاً .

فكأنه إنما كان يئنيه لاميرالفرنسيس . قال الشيخ الجبرتي « ولما عدى كبيرهم ، وسكن بالازبكية ، لم يدخل المدينة الا القليل منهم ، فمشوا في الاسواق بغير سلاح ولا تعد بل صاروا يضاحكون الناس ، ويشترون ما يحتاجون اليه بأعلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها في ثمنها ريال فرانسه ، ويأخذ البيضة بنصف فضة ، قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم » وفات شيخنا الجبرتي أن أولئك الجنود قد امتلأت جيوبهم من ذهب المالك وفضتهم ، وأن الأموال التي يتناعون بها البضائع ليست أموالهم ! ثم قال : فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا اليهم ، وخرجوا لهم بالكعك والفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك مثل السكر والصابون ، والدخان والبن ، وصاروا يبيعون لهم بما أحبوا من الأسعار ، وفتح غالب السوق الحوانيت والقهاوى »

ولنأت هنا على وصف كاتب فرنسى للأيام الأولى التي أعقبت دخول نابوليون مدينة القاهرة وما أسرع في اصداره من الاوامر وتنفيذه من الاعمال ما ليس له أثر في المصادر العربية قال : —

« في ٢٥ يوليه دخل القائد العام القاهرة ونزل في بيت الالفي بك الكائن بميدان الأزبكية والواقع طرف المدينة وكان لهذا البيت حديقة جميلة تتصل من الجهة الخلاء ببولاق ومصر القديمة

ولم يكدهم يستقر في هذا البيت ، هو وأركان حربه حتى وجه عنايته للاعتناء بالمرضى والجرحى والنظر فيما يعود على الجند بالراحة والرفاهية . فأمر بأن ينشأ في أقل من ثمانية أيام مستشفى في بولاق لمائتي جريح ، وآخر في مصر القديمة لمائتي مريض ، وثالث في الجزيرة لمائة من المرضى ، ورابع في القاهرة لمائة آخرين . وأن يبنى في الجزيرة فرن ومخبز لمكمل قسم من ادارة الجيش وفي بولاق ستة أفران ومخبز وفي القاهرة ثلاثة أفران ومخبز . وأصدر أمراً خاصاً بأن يكون الخبز الذي يقدم للجند من الدقيق النقي الذي لا يشوبه شيء غير دقيق الحنطة

ولسكي يحمي الاهالى ويؤمن المغلوبين على امرهم صرح للقوافل بالجنحى
بدون خوف إلى مصر ، ورفع الحصار البحرى عن الاسكندرية ليدع السفن
التركية تدخل اليها ، وليجعل التجارة حرة كالمادة

وأصدر منشوراً حث فيه العرب على الاخلاذ إلى السكينة وأن لا يخرجوا صدور
الفرنسيس بقناهم إياهم ، وجعل العرب تحت حمايته ورعايته كأهل مصر . ونظم
جيشاً من الجنود الاتراك مؤلفاً من خمس فصائل يبلغ عدد رجال كل منها ٦٥
رجلاً ووضعهم تحت قيادة الجنرال دبوى

وصرح لنساء البكوات والماليك ، اللواتى كن يهمن على وجوههن فى ضواحي
القاهرة ، بالعودة الى منازلهن وان يضعن ايديهن على املاكهن ، وقال فى هذا الشأن :
« لما رأى القائد العام ان نساء البكوات والماليك اللواتى يهمن على وجوههن
فى ضواحي القاهرة قد يقعن فرائس لرجال العرب ، اخذته الشفقة التى يتحلى بها
الرجل فأذن لكل نساء البكوات والماليك بالعودة الى المدينة والاقامة فى منازلهن
التي هى ملك لهن واعدأ اياعن بالامان . » اه

وطلب من كبار المشايخ ان يصدررو منشوراً فاطاعوا واصدروا منشوراً نصحوا
فيه المصريين بالخضوع لمن ارسله الله سبحانه وتعالى لانقاذهم ، هذا الرجل الذى
يحترم النبي صلى الله عليه وسلم ، والذى جاء لينتقم للمؤمنين من ظلم الماليك .

ونبت كبار المشايخ فى مرا كزهم وقراهم واعاد لهم كل الامتيازات التى كانوا
يتمتعون بها واحاطهم برعاية لم يروها من قبل ومن هؤلاء المشايخ الفديوانا لحكم
البلاد كما فعل فى الاسكندرية « اه من المصادر الفرنسية

وهكذا فتح الفرنسيون مصر واحتلوا عاصمتها ، واستقروا في دور أمراءها
وأسيادها ، وتم لهم ما أرادوا ، وطارت كآبتهم التي لحقتهم في الطريق ، وأخذوا
يقتربون من الأهالي ويتوددون اليهم ، كما رأى القارىء من عبارات الجبرتي
واقوال الكتاب الفرنسيين وبشر نابوليون المصريين بعهد سلام ورفاهية ورفق
واصلاح وأكثر من الوعود والأمانى ... فماذا تم على يد الفرنسيين ؟ وهل
كان عهدهم بمصر عهد اصلاح وسلام ، أو كانت كل هاتيك الوعود والاحلام ،
كلاماً في كلام !

النظام الذي وضعه نابوليون

لحكومة مصر

كنت أظن قبل أن أجوس خلال هذه المباحث التاريخية ، وأشغل نفسي بتحقيق نقطها وضبط موادها ، كما يليق بالمؤرخ الصادق ، أن كاتباً عربياً قد حام حول الحمى ، ووفى هذه الفترة القريبة مناشئاً من حقها التاريخي ، ولكنني لم أُر واحداً ممن وضعوا المجلدات الضخام ، قد أتعب نفسه وكلفها مؤونة البحث الصحيح ، الدال على إخلاص في خدمة التاريخ أو خدمة الوطنية . رأيهم كلهم قد اعتمدوا على الشيخ الجبرتي ، ونقلوا عنه حرفاً بحرف دون تقدير لظروف الرجل وكفاءته ، ومن غير نظر إلى انه كتب تاريخه لا نقلاً عن المصادر ، ولا من أوراق ثابتة ذات قيمة أثرية ، بل كان اعتماده على ما يصل إليه من أفواه الناس ورواة الاخبار ، وغلطهم أكثر من صوابهم . هذا فضلاً عن أن الشيخ الجبرتي يعترف في كتابه ، انه ابتدأ في جمعه وتنسيقه في السنة السادسة والعشرين بعد المائتين والالف ، أي بعد ثلاثة عشر عاماً من خروج فرنسا وبين وستة عشر من دخولهم ، فلا بد من وقوعه في أغلاط كبيرة وكثيرة . وكان من أقل الواجبات على اخواننا المؤرخين أن يلجأوا إلى المصادر الفرنسية ، ويكملوا ما نقص منها ، أو يقارنوا بينها وبين ماخالف منها أقوال الجبرتي . أفليس من المدهش والمحزن أن مؤرخاً مشهور الاسم يلخص عن الجبرتي حرفاً بحرف ويقع في أغلاطه ؟ بيد أن الكتب الفرنسية موجودة مفصلة تصحح له الصواب ، وتهديه إلى ساحل الحق ؛ وإن غفرنا له ذلك ، لاسرعه في وضع ذلك السفر في مبدأ حياته العملية ، فهل نعتفر لمثل حنا بك شاروليم المصري الصميم صاحب الكتاب الكافي في أربع مجلدات ضخام ؟ وهو ممن درسوا اللغة الفرنسية وتولى القضاء في المحاكم المختلطة ، ومادونه في هذه النقط التاريخية المهمة ، أضعف من صاحبه وقد تابع الجبرتي في جميع أغلاطه

وتخريفاته !! فالجبرتي مثلاً يقول : دخل نابوليون القاهرة في يوم الثلاثاء ١٠ صفر
فينقلون عنه ذلك !! ويقول الجبرتي بعد « وفي يوم الخميس ١٣ صفر أرسلوا يطلبون
المشايخ » وكيف يكون الثلاثاء ١٠ في الشهر والخميس ١٣ ؟ وكيف تابع أولئك المؤرخون
المحققون الجبرتي في أغلاطه ؟ وكيف يعقل أن نابوليون وأوامره ولوا محبه ومنشوراته
لترتيب شؤون البلاد - كانت تنهال كاسيل عشرات في اليوم الواحد - يبقى بين
الثلاثاء والخميس لا يشكل الديوان ! ثم ان هنالك اختلافاً في أسماء اعضاء الديوان
الأول ، بين صورة الأمر الرسمي الذي أصدره نابليون ، وهو محفوظ بنظارة الحربية
الفرنسوية ، وبين ماجاء في كتاب الجبرتي الذي جمعه بعد ست عشرة سنة !!
فعلى من نعتمد ؟ بالطبع لا تردد في الاعتماد على الأمر الرسمي . ولم يذكر الجبرتي
شيئاً عن النظام الذي وضعه نابوليون للمديريات ، وتشكيل دوائره فيها للنظر في
شؤون الرعية ، وكذلك لم يفعل مؤرخونا الحديثون ! وبين نابليون اختصاصات
ديوان القاهرة ، ولم يذكر الجبرتي عن هذه الاختصاصات شيئاً . وكذلك فعل
أخواننا المؤرخون !! وللجبرتي ألف عذر وعذر ، ولكن بماذا تعتذر عن المؤرخين
الحديثين ؟؟

ويسوءني أيضاً أنه لم يتم شخص واحد من رجال البعثات المصرية ، الذين أوفدهم
محمد علي و خلفاؤه الى فرنسا ، بجميع أو تعريب شيء من مئات الكتب والمذكرات
المستفيضة ، عن الحملة الفرنسية بمصر ، حتى بقي تاريخها مجهولاً في هذه الديار ،
وحتى وجدنا في العشرة التاسعة من القرن التاسع عشر من يقصر اعتماده على
الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الحبشي الازهرى ، ولا يعرف سواه من المصادر
الصحيحة والمواد الكثيرة التي تحرير المؤلف لكثيرتها ، وسعة مواردها ، والحق
يقال إن مؤلف تاريخ فرنسا الحديث ، سواء أ كان هو البستاني أو الدحداح ، قد
ألم بكثير من المعلومات والبيانات ، مع أنه بعيد عن مصر ، والكتاب خاص
في نظره بتاريخ فرنسا ، ولم يك كتابه أو معر به مصرياً ، أو قاصداً وضع تاريخ
لمصر . ولو كانت عبارة ذلك الكتاب فصيحة ، ووجه كتابه همته إلى تحقيق أسماء

الأشخاص ، والامّا كن في أصلها العربي ، لكان ما جاء منه في تاريخ فرنسا بمصر ، يستحق الثناء والاعجاب

لا أكتب هذه السكامة من باب التبجح والتعالى على من كتبوا قبلي في هذه الفترة ، ولكني أكتبها من قبيل التذكرة من جهة ، والاسف من أخرى .. للتذكرة لمن يكتب التاريخ بعدنا ، وللأسف لأنني كنت أحب أن أجد الطريق أملي ممهداً لكيما أجد من وقفي متسعاً لزيادة التعمق والتحقق والاستنتاج ، ولكيلا أقع فيما لا بد أن أكون قد وقعت فيه من الاغلاط ، لشعب المسالك وقلة المادة في المصادر العربية المصرية .

قبل ان نذكر المنظمات العديدة التي وضعها نابوليون لادارة البلاد المصرية ، والتي لم تؤد إلى نتيجة فعلية ، حتى في مدة وجود الفرنسيين هنا ، بل ولم يبق لها أدنى أثر بعد خروجهم ، نرى من الضروري خدمة للحق والتاريخ أن نعترف أن نابوليون كان مخلصاً في نية الإصلاح وان كان لم يوفق ، واذا كانت نتيجة حملته ، قد جاءت بعكس ما اراد ولم تحدث غير الخراب والدمار ، وفقدان الانفس والأموال ، والأخلال بالآداب ، والافساد للاخلاق ، فذلك إلا للظروف التي أحاطت بنابوليون وحملته ، والمقتضيات التي جاءت فوق طاقته ، وسنعود إلى هذا ببيان أوسع ، وإيضاح أكمل ، في الحكم النهائي على نتيجة الحملة الفرنسية في مصر ، بعد أن يكون القارىء قد وقف على أصول القضية وفروعها

وما ذكرنا هذه الكلمة الموجزة إلا تمهيداً لبيان أن خطة نابوليون في مصر مدت وجوده فيها وبعد سفره منها قد تطورت في أطوار مختلفة ، باختلاف المؤثرات السياسية الخارجية عنها ، الفعالة فيها

ولكي يستنير القارىء ويسير معنا على هدى ، تقسم له هاتيك التطورات إلى أدوارها ، مع بيان الأسباب الطبيعية التي قضت بها . والتقسيم الذي سنأتى عليه

هو من مبتكراتنا ، إذ لم نر أحداً من الكتاب الأجانب أو غيرهم ، قد فصله هذا التفصيل ، كما أننا ما جئنا به إلا ليتمكن القارىء المصرى الذى لم يدرس تاريخ أوروبا دراسة وافية ، من الوقوف على أهميات النقاط السياسية فى تاريخ هذه الفترة

تنقسم التطورات التى أشرنا إليها إلى خمسة أدوار

الدور الأول - من وصول الحملة الى الإسكندرية إلى وصول نبأ واقعة أبي قير

البحرية (من أول يوليو - ١٣ اغسطس)

الدور الثانى - من وصول الخبر بالواقعة البحرية (١٣ اغسطس) إلى ثورة

مصر الأولى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

الدور الثالث - من تاريخ الثورة المذكورة إلى مغادرة نابوليون مصر ٢٤

اغسطس سنة ١٧٩٩

الدور الرابع - مدة زعامة كليبر إلى قتله (٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩ - ١٤

يونيو سنة ١٨٠٠)

الدور الخامس - مدة زعامة ميتو إلى خروج الفرنسيين نهائياً من مصر فى

٢ نوفمبر سنة ١٨٠١

(١) الدور الاول

من ١ يوليو - ١٣ اغسطس

(من احتلال الاسكندرية الى واقعة أبي قير)

لما احتل نابوليون الاسكندرية، وسار بجيشه حتى وصل إلى قصبة الديار المصرية ، لم يكن يقوم بدهنه طول البقاء بمصر بالنسبة لذاته شخصياً ، إذ المعروف أنه كان منذ سطعت شمس حياته ، وتألق سنا مجده ، ولاح كوكب شهرته في أوروبا ، متطلعا إلى السيادة على فرنسا ، وبواسطتها على أوروبا ، كما أدرك ذلك فعلاً بعد - ولذلك قالوا أنه لما أدرك أن حكومة الديركتوار تريد ابعاده عن فرنسا خوفاً من شهرته التي نالها ، ومحبه التي تمكنت في قلب الشعب الفرنسي ، بردت نار حماسه التي اشتعلت بفكرة فتح مصر ، ولكنه كان قد تورط في الامر من جهة ، ومن جهة أخرى التفت يمنة ويسرة عليه يجد طريقة لاختاد السلطة من يد أولئك الحكام ، فرأى ، كما صرح بذلك «لبورين» ، « ان الثمرة لم تنضج بعد » (١) فقدم الى مصر بمحمله وكان من أمره ما كان

ونحن نريد أن نستنتج من هذا أنه لم يكن مصمماً على البقاء في مصر وكانت عينه متطلعة دائماً الى فرنسا فكان همه موجهها إلى وضع نظام حكومة راقية في هذه الديار ليكتسب بها مودة الشعب المصري وثقتهم ، ويسعى في التودد إلى حكومة الباب العالي ، فيوفق بين احتلال فرنسا لمصر ، وسيادة جلاله سلطان آل عثمان ، كما سبق لنا بيان ذلك . وعلى هذه الفكرة سار في الخطة التي وضعها

(١) وفي مذكرات (ميور) أن نابليون قد عدل نهائياً عن حملة مصر

Memoires pour servir a l'histoire des Expedition en Egypte et en Syrie.
Par J. Miot

وميو هذا كان مرافقاً للحملة في مصر بوظيفة مايسمونه الان « مأمور التعيينات » المنوط به اعداد مايلزم للجيش من لوازمه

لنظام حكومة هذه الديار ، إلى أن علم أن نلسون الانكابتزى قد دمر أسطوله في واقعة أبي قير (وكان علمه بذلك بالضبط يوم ١٣ أغسطس ، وهو قادم من مطاردة ابراهيم بك في مديرية الشرقية) فعرف أنه قد حيل بينه وبين العودة إلى فرنسا ، وأن مواسلاته بوطنه ، ومصدر الامدادات ، بل قل الحياة له وجيشه ، قد انقطعت ، فلجأ الى اتخاذ خطة أخرى ، والاصح أن يقال ، إلى توسيع خطته الاولى مع المصريين . كما سنشرح ذلك في حينه

قلنا أن خطته في الدور الاول كانت قائمة على وضع نظام راق وحكومة عادلة لمصر مع التشديد على جيشه وضباطه بالمحافظة على العادات والآداب الشرقية ، والتقاليد الاسلامية . فلذلك أصدر أمره يوم وصوله الى القاهرة بتشكيل ديوان من علماء مصر وشيوخها . وهذه صورة لأمره الرسمي بتشكيل الديوان واختصاصاته .

معسكر القاهرة (٧ ترميدور سنة ٦) - ٢٦ يوليو سنة ١٧٩٨

« بونايرت عضو المجتمع العلمى الاهلى وقائد عموم الجيش يأمر بما يأتى

(أولاً) نحكم مدينة القاهرة بواسطة ديوان مشكل من تسعة أشخاص

(ثانياً) يتألف هذا الديوان من المشايخ ، السادات ، والشرقاوى ، والضاوى

والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، ونقيب الاشراف سيد عمر ،

ومحمد الامير وعليهم أن يجتمعوا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بمنزل (كخيا

الشواهد) وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيساً لهم وينتخبوا سكرتيراً (كاتم

سر) من الخارج (أى من غير دائرتهم) ويختاروا لهم كتبة تراجم يعرفون

الفرنساوية والعربية ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من خيار الناس (أغات)

لادارة البوليس وعليه أن ينتخب قومسيوناً مؤلفاً من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة

دفن الموتى الموجودين فى القاهرة وضواحيها

(ثالثاً) يجتمع أعضاء هذا الديوان كل يوم من الظهر ويبقى منهم ثلاثة

أعضاء على الدوام فى دار المجلس

(رابعاً) يقام على باب الديوان حرس فرنساوى وآخر تركى
(خامساً) على الجنرال برتيه وقومندان المدينة أن يكونا عند الساعة
الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء ما يلزم لاعضائه واسكى يفهموم
أن لا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش « اه

هذا نص أمر تشكيل واختصاصات الديوان الاول كما نشره «لا كروا»،
تقاعن النص المحفوظ بديوان الحربية فى فرنسا تحت نمرة ٢٨٣٧، وهو يخالف فى
بعض الوجوه - وربما كان فى شكه فقط - ما كتبه الجبرتى فى هذا الصدد. فقد
ذكر الشيخ الجبرتى «أنهم (الفرنسيس) أرسلوا يطلبون المشايخ والوجاقلية
عند قائم مقام صارى عسكر، فلما استقر بهم الجلوس خاطبهم وتشاوروا معهم فى تعيين
عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات، فوقع الاتفاق على الشرقاوى
والبكرى والصاوى والغيومى والسرسى والعريشى والدمهورى والمهدى
والشبراخيتى والدواخلى «

فالسنة أعضاء الأول، هم كلورد فى أمر نابليون الرسمى، وأما الاربعة الآخرون
فقد ذكر مكاتهم ثلاثة فقط - عمر مكرم نقيب الاشراف، والشيخ محمد
الامير، والسادات

فأما السيد عمر مكرم فقد كان غائباً لانه خرج مع ابراهيم بك وأبى بكر
باشا هاربا من وجه الفرنسيس، ولم يعد إلى مصر الا بعد خروجهم، فمن المحتمل أن
يكون نابليون قد ذكره ليلبغه ذلك، وهو لا يزال فى بلبس، فيرتاح خاطره
فيحضر، وانه انتخب واحداً من العلماء الثلاثة الدمهورى والشبراخيتى والدواخلى.
وأما الشيخ محمد المهدى فمن المؤكد أنه انتخب ليكون «كاتب سر وباشكاتب
الديوان الخصوصى» وأما شيخ السادات فقد ذكره نابليون فى أول أمره المشار
اليه، ولكن لم يرد ذكره كمضون من أعضاء الديوان، فى كتاب الجبرتى، وأما المعلم نقولا
الترك، فقد خلط وخبط فقال: «ابتدأ نابليون فى النظمات لمدينة مصر فأحضر

أولاً خمسة من الاسماء الكبار وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل
البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ محمد المهدي والشيخ سليمان الفيومي
وأحضر معهم اثنين من الوجاقات وواحد من التجار وهم على كتحدا باشى
ويوسف شاويش باشى والسيد احمد المحروقي، وأفرز الى هؤلاء محلاً معيناً، وعين لهم
علائف (مرتبات) شهرية وأقامهم رؤساء في ديوان خصوصي « اه

ونحن لا نعرف شيئاً عن أولئك الاثنين من الوجاقاية ، إذ لم نعتبر على اسمهما
في أى كتاب، ولكننا نعرف أن السيد أحمد المحروق لم يكن في القاهرة في ذلك
الحين ، لأنه فر مع ابراهيم بك و بكير باشا ولم يعد للقاهرة الا بعد واقعة الصالحية
في ١٢ أغسطس ، أى بعد نحو عشرين يوماً من هذا التاريخ . ومن الغريب أن
يُرد بعد هذا في رسالة تقولاً الترك ذكر أسماء أعضاء الديوان الذين أمضوا على
المنشور الذي وزعه نابليون تحت أسمائهم رداً على المنشورات والاوراق التي كان
يبعث بها ابراهيم بك ورجال الدولة لتحريض الاهالى على الفرنسيين (كما
سيأتى ذلك في موضعه) وعددهم عشرة رجال وهم البكري والشرقاوى والساوى
والمهدي ومحمد الامير والغريشى والفيومي والدواخلى والسرسى والدمهورى ، فلم
يذكر من بينهم السادات ، ولا الشيخ محمد الامير مفتى المالكية ، ولا الشيخ
الدواخلى

ولم يذكر الجبرتي الاختصاصات التي أعطاها نابليون للديوان ، ولكن ذكر
أولاً أنه حضر مع المشايخ في جلسة الديوان مصطفى كتحدا باشا (وكيل الباشا الوالى)
والقاضي (التركي) وهذا من الادلة الكبيرة على رغبة نابليون في اتباع السياسة
التي شرحناها من حيث اتفاهه مع الدولة ومحافظة على حقوق السيادة العثمانية .
ثم قال الجبرتي « وقلدوا محمد أغا السلهامانى أغات مستحفظان (محافظ) وعلى أغا
السوارى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وذلك بشارة أرباب الديوان
فانهم أى (الفرنسيين) كانوا ممتنعين عن تقليد المناصب لجنس الماليك فغرفوهم
أن السوقة في مصر لا يخافون الا من الاتراك ولا يحكمهم سواهم » وذكر الجبرتي
أيضاً أنهم قلدوا محمد بك كتحدا لبونابرتة ومن أرباب المشورة الخواجة موسى

كافوا وكلاء فرنساوى... (وصوابهما موسى كافوا وكلى فرنساوى) وعينوا مسيو جان بنوا وكيل لليونان

هذا فيما يختص بنظام ادارة حكومة القاهرة . أما فيما يختص بداخلية البلاد فلم يذكر الجبرنى شيئاً وكذلك لم نجد فى كتاب المعلم تقولا الترك ، ولا فى كتاب البستانى الناقل عن كتب الفرنسيس ، ولكن رأينا فى المصادر الفرنسية ، أن نابوليون ألقى عدة أسئلة على المشايخ أعضاء الديوان للاستفسار منهم عن أحسن الطرق لادارة أحكام المديرية ، فأجابوه على أسئلته بجوابات أعجبه وسر بها ولذلك وضع النظام الآتى فى أمر له بتاريخ ٢٧ يوليو ، ومحفوظ أصله فى مخبرات نابوليون بمره ٢٨٥٨ وهذا تعريبه :

« المادة الأولى — يشكل فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان مؤلف من سبعة أعضاء للنظر فى شؤون الأهالى ، ول يعرضوا على كل شكوى تقدم لهم ، ول ينعوا التعديت التى تقع من الاهالى على بعضهم ، ول يراقبوا المشبهين ول يعاقبهم اذا اقتضى الحال بطلب قوة من قومندان الجهة فرنساوى وعلى هذا الديوان ارشاد الاهالى الى ما يراه موافقا لمصلحتهم

المادة الثانية — يقيم فى كل مديرية أغان من الانكشارية تكون علاقته متواصلة مع القومندان فرنساوى ، وتكون تحت أمرته قوة مؤلفة من سبعين رجلا من أهالى البلاد مسلحين لكي يسيروا فى البلاد لتوطيد دعائم الامن وإدخال الناس فى دائرة الطاعة والطمانينة

المادة الثالثة — يقيم فى كل مديرية مدير لجباية أموال الميرى وتحصيل جميع ضرائب الاطيان وجمع إيرادات أملاك المالك التى أصبحت الآن ملكا للجمهورية الفرنسية ، ويكون تحت إدارته العدد الكافى من العمال اللازمين لذلك .
المادة الرابعة — يعين مع المدير المشار اليه آنفا وكيل فرنساوى للمخابرة مع ادارة ديوان المالية وانفيذ الاوامر التى تصدر له من هذه الجهة ويكون تابعاً لها » اه

« بونابرت »

ووضع نابوليون عدا ذلك مذكرة تقضى بتثبيت جميع الملاك فى أملاكهم

وبالحفاظة على الاوقاف التابعة للمساجد والمعاهد الدينية وأن تستمر المعاملات التجارية
والمدينة على ما كانت عليه وأن يبقى السير في الاعمال القضائية على ما كان عليه

فأنت ترى من هذا النظام أن نابوليون قد وضع المهم من سلطة إدارة أمور
البلاد في أيدي أبنائها، مكتفياً بالرقابة العامة، ولكن البلاد كانت خالية من الرجال
المصريين الذين يصلحون لتولى مهام هذه الشؤون، بدليل اختيار أعضاء الديوان
في القاهرة بعض رجال المالك لتولى إدارة الاحكام، وقد ذكر المعلم نقولا الترك
ان محمد اغا المسلماني الذي عين محافظاً لمدينة القاهرة أرنهني اعتنق الاسلام - وتعيين
أغا من الانكشارية بقوة مسلحة تحت يده معناه بقاء السلطة الفعلية في أيدي
أولئك العتاة الظالمين .

ومع وضع هذا النظام الشبيه بالدستوري في شكله ، ومع عظيم تودد
الفرنساويين للمشايخ والاعيان والعلماء والسلمين عامة ، فان ذلك لم يمنعهم من فرض
ضريبة فادحة على مدينة القاهرة، فقد روى الجبرتي ، أنهم في يوم السبت (٢٨ يونيو)
اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة وهي مقدار خمسمائة ألف ريال (مائة ألف
جنيه) من التجار والسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الافرنج أيضاً
وأما المعلم نقولا الترك فيقول في رسالته « وكان أمير الجيوش بونا برته بعد دخوله
الى أرض مصر أحضر تجار ديوان البهار المعروف بديوان البن الوارد من الاقطار
وطلب منهم ألف وستمائة كيس ، وطلب من الأقباط المباشرين الدواوين ألف
وستمائة كيس ، أخرى ومن تجار النصارى ثمانمائة كيس . وتسلم تلك الاربعة
آلاف كيس ستة أيام ووعدهم بوفائها عند ما يروق الحال ويتسع المجال » اهـ فاذا
كانت قيمة الكيس كما ذكرها « بيره » ستين جنيهاً ، تكون الضريبة التي
فرضها نابوليون على القاهرة ٢٤٠.٠٠٠ جنيه .

ثم أخذوا أيضاً يجمعون الأموال بطرق شتى، ويحصلون على الغنائم ومقتنيات
المالك بأساليب عديدة ، فمن ذلك أنهم نادوا على نساء أمراء المالك بالأمان
وأنهن يسكنن بيوتهن ، وإن كان عندهن شيء من متاع أزواجهن يظهرنه، فان لم يكن

عندهن شيء يصلح على أنفسهن ، ويأمن في دورهن ! قال الجبرتي « فظهرت الست
نفسه زوجة مراد بك وصالحت عن نفسها وأتباعها من نساء الامراء والكشاف
بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرنساوى (٢٤٠٠٠٠ جنيه) :

ثم قال أيضاً لهم جمعوا أموالا طائلة من بقية نساء الامراء وصاروا يعملون
عليهن إرهابات وتخويات وكذلك مصالحت على الغز والاجناد المختلفين
والغائبين والفارين فجمعوا بذلك أموالا كثيرة »

ولم يكتفوا بكل هذا بل طلبوا الخيول والجمال والسلاح والابقار فحصلت
عليها مصالحت (أي دفع الناس بدلها أموالا)

وصاروا يفتشون الدور ويستخرجون الخبايا والودائع ويستعينون بالخدم
للاستدلال على مستودعات أسيادهم، وفرضوا ضريبة أخرى غير السابقة على أهل
الحرف من التجار في الاسواق.. فلائى سبب كانوا يجمعون هذه الاموال وبأى حق
كانوا يصادرون الناس وفي أي شريعة يدفع النساء اتاوة للاقامة في دورهن ؟
إن من حقوق الفاتح أن يغنم ما يقع في يده من الغنائم التي يتركها العدو في ميدان
الحرب، وله حق مصادرة أملاك أعدائه الذين حاربوه وماتوا في ساحة الوغى وله
أن يجمع السلاح ويتقى شر الثورات والقتل ، ولكن جمع هاتيك الاموال على
ذلك الشكل مما يسىء إلى سمعة نابوليون وقواده وضباطه الذين جمعوا تلك الاموال
وهاتيك المتنيات ، للانفاق على أنفسهم ، وللاحتفاظ بها لتقل معهم الى ديارهم .
وقد روى بوريين عن نابوليون أنه عاد من حروبها في ايطاليا بمبلغ ثلاثة ملايين
من الفرنكت . فلا شك أنه عاد من مصر بمثلها أو أكثر منها ، وقل مثل ذلك عن
القواد والضباط

ولو أن هاتيك المصادرات وقعت على المالك لقلنا تساط الظالم على الظالم
ولكنها تعدت الى أرباب الحرف من المصريين الساكين !

وفي الوقت الذي يتبجح كتاب الفرنساويين بأن بوناپارت ما كاد يضع
قدمه في مصر حتى أصدر أمره بالعفو عن الفارين والسماح لنساء المالك بالعودة الى
دورهن مطمئنين نجد أنهم ما سمحوا لمن بالعودة إلا ليضربن عليهن هاتيك

الضرائب القادحة . ولقد روى الجبرتي في أوقات مختلفة روايات عن تعرض
الفرنساويين لنساء المالك ومصادرتهن، وخلق الاسباب لدعوتهن الى منازل الحكم
مما ينجل القلم من ذكرها . وحكاية عن زوجة رضوان كاشف ، التي صالحت
عن نفسها بأن وثلمائة ريال، ثم نهبوا بعد ذلك بيتها، بحجة التفتيش على السلاح،
وأخذوا كل ما فيه، وقرروا عليها بمد اهانتها وإقامتها ثلاثة أيام عندهم أربعة آلاف
ريال أخرى، ليست الوحيدة في بابها .

ولا غرابة في ذلك فما خرج الكثير من أولئك الضباط والمقطوعين من
موظفي الجيش الا بقصد الحصول على الثروة ، وما نقول هذا من عندنا . فقد جاء
في كتاب (ميو) الذي سبقت الاشارة اليه قوله في الصحيفة الثالثة من مذكراته
ما يأتي تعرييه :

« أي ميدان واسع فتح أمام أصحاب النفوس النائرة التي نفذ منها الصبر .
وكان أصحاب المطامع يرقبون المستقبل لكي يزيدوا ثروتهم .
وكان كل منهم يأمل خيراً في هذه الحلة العظيمة وكان القائد العام بينهم
غالباً بالاقوال الخادعة ويدفع فيهم حب العظمة والثراء . وكان جنودنا قد اعتادوا
في ايطاليا الثراء والغنى عن نفقات البلاد التي فتحت وكانت مصر أمام أعينهم
منجماً مهجلاً ، وبلاداً عذراء لم تستغل بعد . ولم تسها الايدي العاملة » الخ الخ
فعل فرنساويون ما فعلوه لاغتصاب الاموال ، وهم ثملون بخمرة الفوز
في الوقت الذي كان فيه أسطول ناسرن يغرق ويحرق أسطولهم في أبي قبر في موقعة
بحرية قضت على آمالهم في هذه الديار قضاء مبرماً ، فما كان أصدق قول الشاعر
عليهم في تلك الآونة

يا نائم الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقت أسحارا
في الوقت الذي كانت فيه المارة الفرنسية تلاقى البلاء من مواقع الانكياز
كان نابوليون في القاهرة يستعد لتجهيز حملة لمطاردة ابراهيم بك ومن معه من
المالك النازلين في بليس

في الدور الاول أيضا

بعد الواقعة

يخطيء من يظن أن الفرنسيين بمجرد قهرهم للمالِك في واقعة امبابه واستيلائهم على مدينة القاهرة عاصمة الديار المصرية ، قد تملكوا هذه البلاد وخضع لهم فيها البعيد والقريب . قلت هذا لان ما كتبه اخواننا المؤرخون الحديثون يترك لأول وهلة في نفس القارىء ذلك الأثر . والحقيقة أن الفرنسيين لم يستقر لهم في مصر قرار بغير حرب وقاتل منذ وضعوا قدمهم فيها ، الى يوم خروجهم منها وانهم وإن كانوا قد ملكوا عاصمة الديار ، وأصدروا الأوامر ، وأنشأوا الدواوين ، فإن سلطتهم لم تكن قد توطدت إلا في الجهات التي مروا فيها ، وفي الثغور التي احتلوها كالاسكندرية ورشيد ، وأما مادون ذلك فقد كان ابراهيم بك لا يزال بقوة كبيرة من المالِك في الشرقية وكان مراد بك بقوة أخرى قابضاً مسيطراً على الوجه القبلي وكانت مديريات الدقهلية والغربية غير خاضعة للسلطة الفرنسية . وقد كتب مسيو « ميو » من الذين راققوا الحملة في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه كناية نرى من تعظيم الفائدة تعريتها بإيجاز ، قال :

« إننا وإن نكن قد احتلنا القاهرة ، وصرنا سادة فيها ، إلا أننا كنا أشبه بالمحصورين منا بالفاتحين ، إذ كنا لانستطيع الخروج من دائرة المدينة ومن ابتعد من الجنود لاقى حتفه . وكثيراً ما خسر الجيش من رجاله بهذه الصورة . وحتى الطريق من القاهرة لبولاق لم تكن مأمونة ، وكانت مواصلاتنا مخفوفة بالخطر بسبب العربان الذين كانوا يجرون على الدنو من أبواب القاهرة فكأننا في حرب مستمرة . ولطالما ذكرتني الحرب بموقفنا في مصر وهكذا كل حرب أهلية لأن احتلال جيش لبلد لا يريد أهلها إلا الحرية ، يجعل ذلك الجيش معرضاً للخطر فاما محو تلك الأمة ، وإما ترك البلاد لاهلها . ومع أن الشعب المصرى لم يقيم من نفسه لتعدى علينا الا أنه كان يميل ويعضد أعمال كل معاد لنا ، ولو أن المصريين لم

يكونوا على جانب عظيم من الضعف وخور العزيمة أو كانوا متحمسين بفكرة الوطنية، لما بقي لفرنسي في أرض مصر أثر، خصوصاً وقد امتنع عنا المدد وانقطع حبل الاتصال ببلادنا» (١)

كانت هذه الظروف قاضية على نابوليون بارسال الحملات المتوالية لجهات القطر المختلفة للاستيلاء عليها وتوطيد قدم الفرنسيين فيها، فبدأ أولاً بإيفاد حملة تحت قيادة الجنرال ديزيه الى الصعيد لاقتناء آثار مراد بك، وأرسل حملة أخرى تحت قيادة الجنرال فيال الى دمياط وكلف كليبر قومندان نقطة الاسكندرية أن يرسل قوة كبيرة تحت رياسة الجنرال ديموى لاختلال مديرية البحيرة وعين الجنرال زانشكوك لمديرية المنوفية وعين مورت للقليوبية وفوجير للغربية ومع كل واحد منهم قوة عسكرية لفتح البلاد ووضع النظام الذي خصص لها وكانت التعليمات الصادرة لجميع هؤلاء القواد محصورة في المسائل الآتية (١) تجريد الاهالي من السلاح (٢) جمع الخيول اللازمة للخيالة الفرنسية (٣) انشاء أفران للخبز (٤) إنشاء المستشفيات اللازمة (٥) الاستيلاء على ممتلكات ومخلفات المالك من أرض ودور وماضية (٦) دراسة أحوال الاهالي وأخذهم بالشدة اذا اقتضى الحال فان الطاعة عند هؤلاء القوم معناها الخوف

ونحن لانوى ان نتبع هذه الغزوات بتفصيلاتها الوافية الا فيما نجد منه فائدة في اظهار الروح المصرية أو بيان حال من الاحوال الاستثنائية فلطالما وقعت بين الفرنسيين والفلاحين المصريين معارك كثيرة في جهات مختلفة من جهات القطر لم أر لها ذكراً في الكتب العربية على الاطلاق، على انه يحسن ببناء كثيرين من اعيان القرى والبلدان أن يعرفوا اليوم أن آباءهم أو اجدادهم قد قاتلوا الفرنسيين حول بيوتهم وفي حقولهم

ولنبداً الآن باهم المعارك التي دارت في أرض مصر بعد واقعة امبايه. وقد سبق

لنا القول في ختام الفصل السابق ، انه في الوقت الذي كان فيه نلسون يفرق ويحرق السفن الفرنسية ، كان نابليون يعد حملة قوية لمطاردة ابراهيم بك وللقضاء على القوة الباقية معه في بليس ، لان وجود ابراهيم بك على مقربة من القاهرة ، وفي طريق القوافل الذاهبة الى السويس والقادمة من الحجاز ، كنتم لانقاس القوا الفرنسية في القاهرة . وقد صادف ان المحمل المصرى قدم من الحجاز بعد بضعة أيام من احتلال القونسويين للقاهرة ، ونصح بحمل عادة قوة من الجند ، وقد روى الجبرتي انه في ٢٠ صفر ١٢١٣ (٣ أغسطس) وردت مكاتب الحجاج من العقبة ، فذهب ارباب الديوان الى باشا العسكر (يعنى نابليون) وأعلموه بذلك ، وطلبوا منه امانا لامير الحج ، فامتنع وقال لا أعطيه ذلك الا بشرط أن يأتى فى قلة ، ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج فقال أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكرة يوصلونهم الى مصر . فكتبوا لامير الحج ^(١) بذلك ، واسكن ابراهيم بك كان قد سبقهم لذلك وطلب من أمير الحج أن يقدم بمن معه الى بليس وفعلا انضموا اليه ، ولكنهم لا قوا بذلك عناء شديداً من تعدي العربان وايدائهم . فكان ما حصل دافعاً لنابليون على الاسراع فى مطاردة ابراهيم بك ، لانه اتصل به ان ابراهيم بك ، بعد أن تقوى جانبه بالمدد الذى جاءه مع الحجاج ، سيهاجم القاهرة من الشمال ، وكذلك سيهاجمها مراد بك من الجنوب ، فخاف نابليون العاقبة فأخذ فى الاستعداد لمحاربة ابراهيم بك . فكان أول عمله أن أصدر أمره للجنرال لسكرك Leclerc بالزحف الى جهة الخانكة وكان « ميو » صاحب المذكرات ^(٢) فى الفرقة التى سارت تحت قيادة هذا الجنرال ويظهر من روايته انه كان تابعاً لقسم المهمات ، لانه روى عن نفسه فقال « كانت الساعة الخامسة من صباح ٢ أغسطس حين برحنا القاهرة مارين بالقرافة حتى وصلنا القبة حيث كان

(١) كان أمير الحج فى ذلك العام الامير صالح بك وهو من مماليك محمد بك ابراهيم ومن المقرين الى مراد بك ، وهو الذى ارتقى بواطته السيد محمد كريم السكندرى كما سبقت الاشارة اليه قال عنه الجبرتي « كان فصيح اللسان ، مهذب الطبع يفهم بالاشارة يظن من يراه انه من ابناء العرب اطلاقاً اللسان » . . . فتأمل . وفر مع ابراهيم بك الى الشام ومات تلك السنة فيها ولكن زوجته احضرت جثته بعد مدة ودفن فى قرافة المجاورين (٢) راجع ذيل صحيفة ١٥٩ من هذا الكتاب

الجنرال «دينيه» معسكرًا ووصلنا يوم ٣ أغسطس بلدة الخانكة دون ان تصادف مقاومة. ولما كنا قد صممنا على الإقامة طويلا في هذه النقطة أخذت في اعداد ما يضمن للجنود غذاءهم بأن شرعت في بناء عدة أفران للخبز «وروى أيضا انه في صبيحة يوم ٥ أغسطس هاجتهم قوة كبيرة مؤلفة من المماليك والفلاحين وبينما هم يشتغلون بمقاومتهم ثار أهل القرية (الخانكة) فصاروا يقتلون كل من يقع في يدهم من الفرنسيين، ودمروا الأفران التي بناها صاحبنا «ميو»، وانتشبت القتال بين الطرفين من صباح ذلك اليوم الى مساءه، وكادت تدير الدائرة على الفرنسيين لولا ان قائدهم انسحب بمن معه من الجنود تحت جناح الظلام عائداً ادراجها الى القاهرة. وكانت أخبار هذه الفرقة قد وصلت ناپوليون فاصدر أوامره للقوات المختلفة بالسير الى جهة الخانكة فاستردوها وخرج ناپوليون بنفسه يوم ٧ أغسطس من القاهرة وسارت تلك القوة حتى وصلت بلبس في يوم ٩ منه .

أما إبراهيم بك فإنه لما علم بذلك انسحب بمن معه الى الصالحية والجبرتي يقول انه انسحب المنصورة^(١) أولا، وأرسل الحريم الى القرين. ولم يذكر الجبرتي بالطبع شيئاً عن واقعة الخانكة ولكنه قال «فلما كانت ليلة الاربعاء (يوافق ٨ أغسطس) خرج كبيرهم بونابارته وكانت أوائلهم وصلت الى الخانكة واني زعبل وطلبوا كافة من ابني زعبل فامتنعوا (أي اهلها) فماتلوهم وضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها». ثم قال وفي ثامن عشر منه (من صفر - يوافق يوم السبت ١١ أغسطس) ملك الفرنسيون بلبس من غير قتال ومن بقي فيها من الحجاج فلم يشوشوا عليهم وأرسلوهم الى مصر ومعهم طائفة من العسكر»

وهذه الرواية عن الحجاج ذكرها ناپوليون في تقريره الرسمي الذي بعث به لحكومة فرنسا (الديركتوار) بتاريخ ١٩ أغسطس وقد نشر نصه (لاكروا) وفيه ذكر ناپوليون ان العربان فتكوا بالحجاج وسلبوهم ، وان تاجراً من المصريين

(١) لا نظن أبداً ان رواية الجبرتي عن انتقال المماليك الى المنصورة صحيحة لأن الطريق الطبيعي لهم هو من بلبس الى القرين الى الصالحية ، التي هي طريق القوافل الى قطية قلشام ولم يرد في كتب الفرنسيين ذكر لاتتال إبراهيم بك الى المنصورة أبداً

أكد له انه خسر من البضائع الهندية - من كشمير وغير ذلك - ما تقدر قيمته بمائتي ألف ريال « والتاجر المشار اليه هو السيد أحمد المحروقي كان حاجاً في ذلك العام المشؤوم وروايته في الجبرتي هي ان « ابراهيم بك ومن معه من المماليك لما علموا بقرب الفرنسيين منهم، ركبوا في الليل وترفعوا الى جهة القرين، وتركوا التجار واصحاب الاثقال من الحجاج، فلما طلع النهار حضر اليهم جماعة من العربان واتفقوا معهم على ان يحملوهم الى القرين وعاهدوهم، فلما توسطوا الطريق تقضوا عهدهم وخانوم ونهبوا حوهم وتناسموا متاعهم، وعروهم من نياهم، وفيهم كبير التجار السيد احمد المحروقي، وكان ما يخصه نحو ثلثمائة الف ريال فرنسي تقوداً ومتجرراً من جميع الاصناف الحجازية الخ «: قال الجبرتي إن الحجاج عادوا الى القاهرة تخرسهم شرذمة من الجند الفرنسيين فدخلوها، وهم في اسوأ حال وصحبتهم أيضاً جماعة من النساء اللاتي كن خرجن ليلة الحادثة وهن أيضاً في أسوأ حالة تسكب عند مشاهدتهن العبرات .»

ونحن نقول ان من الغريب في ذلك الزمن العصيب، ان تاجراً مصرياً يكون من بعض ثروته تجارة يقدم بها من الحجاز تحت انظار تقدر، على رواية نابوليون، عن صاحبها بمائتي الف ريال، وعن الجبرتي بثلاثمائة الف. والريال الفرنسي يقدر بخمسة فرنكات فتكون قيمة تلك البضائع التي خسرها السيد احمد المحروقي ستين الف جنيه على الرواية الثانية - (وقد استعمل نابوليون في تقريره الرسمي كلمة « écus » عن الريال، والمعروف انه بخمسة فرنكات) - وأربعين الفاً على الرواية الاولى !!

وفي يوم الجمعة (١٧ صفر - ١٠ أغسطس) وصلت مقدمة الجيش الفرنسي الى الصالحية، وكانت تلك المقدمة مؤلفة من نحو ثلاثمائة من الخيالة وكان فيها نابوليون فالتقت بهذه القوة، قوة كبيرة من ممالك ابراهيم بك، ودارت معركة ظهرت فيها بسالة المماليك ومهارة فرسانهم على الخيالة الفرنسية، وكادت تدور الدائرة على نابوليون ومن معه، لولا أن ادر كته البيادة والطوبجية فلم يستطع فرسان المماليك الوقوف أمامها، وقتل وجرح من الفرنسيين عدد كبير ومن بينهم كثيرون من

الضباط الكبار ، وترى وصف هذه المعركة في مذكرات «ميو» الذي شهد الواقعة بعينه وأطرى مهارة فرسان المالك إطراء عظيما
وفي اثناء اشتباك المعركة كان ابراهيم بك قد أعد عدته للرحيل الى الديار الشامية فتمكن من قتل كل ما أخذه معه من المقتنيات الثمينة والاموال الكثيرة وسار في جمع كبير من رجاله ونسائه وسراريه ومعه أيضاً السيد أبو بكر باشا والي الدولة العثمانية في الديار المصرية . واليك ما يقوله « ميو » في مذكراته وهو يؤيد رأينا السابق^(١) قال :

ولقد بقى نابوليون لغاية اللحظة الاخيرة يبنى نفسه بإمكان التأثير على والي الدولة بالبقاء في مصر ، كما كان في زمن المالك ، وقد سبق لنا ان ذكرنا نصوص الخطابات التي بعث بها نابوليون من الاسكندرية ومن الجزيرة لابى بكر باشا والآن نذكر أيضاً انه بعد استيلاء الفرنسيين على الصالحية، وفرار ابراهيم بك وأبى بكر باشا ، كتب نابوليون خطاباً أعطاه لاعرابى على هجين سريع ليلحق ابراهيم بك في طريقه الى غزة ، على أمل أن يتفق معه ومع والي الدولة ، وهذا هو تعريب ذلك الخطاب

المعسكر العام بالصالحية ١٢ اغسطس ١٧٩٨

الى ابراهيم بك

لم يعد عندك شك في تقوى الجيوش التي أقودها وها أنت خارج أرض مصر وامامك صحراء واسعة . وانك لتجد في واسع حلمى كل ما تريده من نعمة وسعادة واطمئنان . فهل لك أن تبلغنى في الحال رغباتك ؟ وانى أعلم ان باشا (نائب) جلالة السلطان موجود معك ، فليكن هو واسطة ورسولا للمخبرة بينى وبينك^(٢) .
« بوناپارت »

وليس لدينا أدنى دليل على وصول هذا الخطاب الى يد ابراهيم بك ، ولكن مما لا نزاع فيه هو أن نابليون لم يتلق ردّاً ولا رسولا ، حتى ولم يعد اليه الاعرابى الذى

(١) صحيفة ٥٩ - طبعة باريس سنة ١٨١٤ (٢) هذا الخطاب من محفوظات مكاتبات

بعث الخطاب معه . ولو جاز لنا أن نتخيل وصول ذلك الخطاب فعلا فهل كان من الممكن أن يؤدي إلى اتفاق ابراهيم بك مع نابليون ، كما اتفق مراد بك بعد مع الفرنسيين .. ??

الجواب على هذا ، أن كل الدلائل تفيد أن ابراهيم بك ما كان ليقبل مطلقاً لانه قد أعد من قبل عدته للسفر ، ولأن جميع الماليك كانت لهم ثقة في مقدرة الدولة على اخراج الفرنسيين من مصر . وما اتفق مراد بك معهم الا بعد أن انتصر نابليون على الجيش العثماني في واقعة أبي قير البرية ، بعد هذا التاريخ بنحو سنة كاملة (٢٥ يوليو ١٧٩٩) ، وما كان يعقل أن يكون والي الدولة العثمانية ، رسول الاتفاق بين ابراهيم بك ونابليون !! كما أنه لا يبعد أن تكون قد وصلت الي ابراهيم بك وأبي بكر باشا أخبار من جهة العريش عن رغبة الدولة العثمانية في محاربة الفرنسيين ومطاردتهم من أرض مصر بقى علينا أن نأتى على الصورة التي كتب بها الجبرتي نبأ انهزام ابراهيم بك وفراره الى الشام ، فإن روايته في هذه النقطة غريبة . ويلاحظ القراء اننا بعد أن نشرح حادثة من الحوادث ، نعود الى رواية الجبرتي ، واننا تفعل ذلك بقصد المقارنة بين المصادر المختلفة ، من جهة ، وبقصد بيان ما كان يصل من الاخبار الى القاهرة من جهة أخرى ، مع اظهار الحالة العقلية التي كانت لطبقة المتعلمين من المصريين في ذلك الوقت ، وهي التي يمثلها الجبرتي في أجلى مظاهرها ، قال :

« وفي يوم الثلاثاء ٢ ربيع الاول^(١) وصل الفرنسيون الى نواحي القرين وكان ابراهيم بك ومن معه وصلوا الى الصالحية ، وأدعوا ما لهم وحرّمهم هناك ، وضمّنوا عليها العربان وبعض الجنود ، فأخبر بعض العرب الفرنسيين بمكان الجملة فركب صارى عسكر (بونابارت) وأخذ معه الخيالة وقصد الاغارة على الجملة وعلم ابراهيم بك بذلك أيضاً فركب هو وصالح بك (الذي كان أميراً للحجج) وعدة من الامراء والماليك ، وتحاربوا معهم نحو ساعة أشرف فيها الفرنسيين على الهزيمة لكونهم على الخيول ، واذا بالخبير وصل الى ابراهيم بك بان العرب مالوا على الجملة يقصدون منها

(١) كانت هذه الموقعة يوم السبت ٢٨ صفر - ١١ اغسطس وفي يوم الثلاثاء كان نابليون في القاهرة وقد وصلت اليه أنباء تحطيم عمارته البحرية

فعند ذلك فر بن معه على أثره وتركوا قتال الفرنسيس وحلقوا بالعرب وجلوهم عن متاعهم وقتلوا منهم عدة وارتحلوا الى قطيا « اه
فان سحت رواية الجبرتي، فكان نابوليون لم يسرع بالقوة الخيالة، التي قدرها كتاب الفرنسيين بنحو ثلاثمائة، الا لينقض على مقتنيات ابراهيم بك وأمواله وعرض نفسه ومن معه بذلك للخطر الذي لم ينقذه منه الا قوة المشاة التي اجبرت بزيارتها المماليك على الفرار على رواية الكتاب الفرنسيين — وأما غدر العربان بالماليك في تعددهم على متاعهم، كما رواه الجبرتي، فأمر معروف مشهور والظاهر أن نابوليون كان يعلق أهمية كبرى على ما أخذه ابراهيم بك معه من المقتنيات والاموال، واذا كان العربان قد نهبوا من واحد من الحجاج ما تقدر قيمته بنحو ستين أو أربعين الف جنيه، فكيف يكون مع ابراهيم بك، وأبي بكر باشا والسيد عمر مكرم، ومئات من امراء المماليك الذين لم يتركوا في القاهرة ليلة الواقعة (في امبابه) شيئاً ثميناً لم يأخذوه معهم؟؟ ولا ينسى القراء أن الكثير من ضباط نابوليون وقواده ورجاله، وهو في مقدمتهم قدموا مصر برغبة الاثراء وجمع الاموال، ولا نقول هذا جزافاً فقد رواه بوربين عن نابوليون، وكتب عنه ميوف في مذكراته (١) فهل ياترى كانت رغبة الحصول على ثروة ابراهيم بك، هي التي دعت نابوليون لكتابة ذلك الخطاب الاخير؟؟

بعد خروج ابراهيم بك ومن معه، من أرض مصر وتوجههم الى غزة، لم يبق أمام نابوليون في تلك المنطقة الا أن يعمل على تحصينها فأصدر أمره للجنرال « كافر يلى » بإنشاء القلاع والطوابي والقشلاقات اللازمة في الصالحية وحواليها، وعين الجنرال رينيه قومنداناً لحامية الصالحية ومديراً لمديرية الشرقية. وفي الوقت نفسه عين الجنرال دوجا لمديرية الدقهلية وكان اسمها مديرية المنصورة، وبعد أن أصدر لهم الاوامر كالتى أصدرها للمديرين السابق تعيينهم، برح الصالحية قادماً القاهرة، ولم يكذب يتعد عن تلك النقطة بنحو فرسخين، حتى التقى برسول « كليبر » قادماً من الاسكندرية يحمل اليه اشأم الانباء، وهو تدمير الاسطول الفرنسي في أبي قير!!

المحاربات الفرعية

في صعيد مصر والجهات الاخرى

أما وقد خصصنا هذا المبحث بالحروب التي قام بها الجيش الفرنسي في أنحاء القطر المصري لنشر تفوذه في كافة الجهات، فهايننا أن نترك نابليون عائداً للقاهرة بذلك السهم المسموم في أحشائه (نبأ تدمير السفن الفرنسية) وفتقل الي الجهات التي وقعت فيها المعارك، حتى اذا فرغنا منها، لم يبق أمامنا الا شرح الحوادث السياسية التي كانت نتيجة لازمة لمعركة أني قير، واعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا، وانفاقها مع انكارتاروسيا أيضاً.

وليس لدينا في المصادر العربية، لا في كتاب الجبرتي، ولا في رسالة المعلم تقولا الترك المعاصرين للحملة، ولا في كتب المؤرخين الحديثين، كلمة عن تلك الحروب، كما أنها ليست موجودة في المصادر الانكليزية مطلقاً، فاعتمادنا فيها انما يكون على ما كتبه الفرنسيون أنفسهم وتبعة الصدق والكذب في الرواية تقع عدلاً عليهم ولنبدأ الآن أولاً بأهم هذه الحروب، وليس بالطبع بعد ابراهيم بك الا مراد بك، فنقول إن مراد بك بعد واقعة امبايه وفراره من الجزيرة، اجتمع عليه بقية من بقي من المماليك في الفيوم وانضم اليه كذلك خصومه الذين كانوا في الصعيد وكذلك التف حوله عدد عديد من العربان، وبهذا الجيش المكون من المماليك والعربان، اتخذ مراد بك مقره عند ناحية البهنسا في مديرية الفيوم، وكانت معه بتيمة من بعض السفن الحربية التي سلمت من الحريق في واقعة امبايه، وهذه سارت في النيل الى بلدة المنيا واستقرت امامها، واثقت القوارب والمراكب الصغيرة التي تحمل المؤونة والادوات وبعض مستلزمات المماليك مراسيها في بحر يوسف بالقرب من (أبوجرج) ففي ٢٣ اغسطس أصدر نابليون أمره للجنرال ديزيه بالسير لمقاتلة مراد بك بقوة مؤلفة من أربعة آلاف جندي، فشرع الجنرال «ديزيه» في مغادرة الجزيرة حيث أقام منذ واقعة الاحرام، فأمر قوة من جيشه أن تنزل الى النيل لتركب في السفن التي هيئت لتقلها. ودرغماً عن الفيضان الذي كان يغمر البلاد، نزلت فرقة

من الجيش وسارت بها السفن مخرقة النيل حتى وصلت بنى سويف في ٢٦ اغسطس
وتقدمت حتى وصلت بعد عناء شديد الى بحر يوسف . وبعد أن قطعت ثمانى ترع
أخرى ، وبحيرة كان الماء فيها قليلا وصلت السفن الى البهنسا . فبغت مراد بك
واسقط في يده ، لأنه لم يكن ينتظر أن يصل الفرنسيون الى هذه المدينة وأمر رجاله
أن يمروا على الضفة الاخرى من البحر اليوسفي ويذهبوا الى الفيوم الواقعة غرب
بنى سويف ، ولم يستطع الفرنسيون ادراكهم الا بعد ان اجتاز آخر جبل لهم البحر
ولما علم الجنرال ديزيه من الاهالي انه توجد اثنتا عشرة سفينة محملة بالمؤونة
والذخيرة على مقربة منه أمر رجاله فاستولوا عليها رغم النار الحامية التي كان يصيها
الماليك عليهم .

وكان في هذه المراكب بعض الماليك فلما رأوا انهم واقعون في أيدي الفرنسيين
ألقوا بانفسهم الى الماء وتمكن الكابتن راب ياور الجنرال ديزيه أن يجرد اثنين منهم
من السلاح بعد مقاومة شديدة ، لانهما رفضا التسليم ووجد في مركب من هذه
المراكب الاثني عشرة ستة مدافع وذخائرها .

ولما جاء الليل لم يستطع الفرنسيون اقتناء أثر العدو المحارب فأمر ديزيه
جنوده بالراحة .

وعلم الجنرال ديزيه ، وهو في البهنسا ، أن مراد بك بعد أن أقام في هذه المدينة
شهرآ غادرها منذ ثمانية أيام وذهب الى اللاهون بقرب الفيوم حيث يقيم محمد بك
الانفي وبعض الماليك ، ولا تزال المواصلات بين اللاهون والبهنسا سليمة وأن البكوات
عثمان رضوان وعمر وممالك ابراهيم بك الصغير قد كفوا بالمحافظة على البهنسا بجيش
مؤلف من اربعمائة رجل من الماليك وقبيلتين من العرب . وقد أحضر اولئك
العرب منذ ثلاثة أيام من أسبوط وأمروا بحماية الامدادات التي تأتي من البلاد الى
البهنسا بطريق البحر اليوسفي . أما الجنرال ديزيه فلم يكن معه في هذه الحملة الا
الاورطة الاولى من الفرقة الواحدة والعشرين أما بقية الفرقة فقد ظلت في المؤخرة
وقد زحفت العمارة البحرية التي كانت للماليك في أبي جرج الى الامام لنحمي

حركات مراد بك وتقدم الجنرال ديزيه الى ديروط الشريف ليقطع على هذه العمارة خط الرجعة . وتمكن الفرنسيون من إيقاف سبعة وعشرين مركبا محملة حبوباً وخضروات . فلما علم حسن بك قبودان السفن المصرية أن الفرنسيين طردوا المالك من البهنسا ، واستولوا على مقدار وافر من المؤن والذخائر ، صعد بهرا كبه في النيل قاصداً أسيوط ونزل فيها لينضم الى مراد بك . أما العمارة الفرنسية فقد وجدت انه يتعذر عليها السفر لأن القتال كان معوجا والريح شديدة حتى اضطر الجنود أن يجروا المراكب بالحبال في مياه لا يزيد ارتفاعها عن منطقة الرجل . واعياهم التعب فلم يستطيعوا السير بعد وصولهم الى ملوى . حينئذ أرسل الجنرال ديزيه عشرة من قرابه تحمل بعض المرضى من رجاله الى بنى سويف ليعالجوا هناك وظل هو وجنوده يتقربون وصول المالك . ولكنه لم يره منهم احداً »

وليس من السهل علينا أن نستمر في وصف تلك المعارك الثانوية المتقطعة وليس لنا سوى المصادر الفرنسية، فهي بالطبع وجهة النظر الفرنسية، دون سواها كما أنه ليس في مقدورنا أن نقارنها بغيرها، وممكننا نود أن نضرب صفحاً عن هذه المحاربات، ولكن ضرورة ذكرها، لأول مرة في اللغة العربية أجبرتنا على أن نقتصر على ملخص لها تيك الحوادث قطعة قطعة . فاذا وجدها القارئ جافة فليعلم أنها رواية حوادث، وسلسلة محاربات متقطعة ، وليس في الامكان صياغتها بشكل آخر .

واعتمادنا في أخبار هذه الحوادث المتقطعة على كتاب « ديس لاكروا » -

المعنون « بوناپارته في مصر » . قال بعد رواية ما تقدم :

« في ١٤ أكتوبر شوهدت أول فصيلة من فصائل مراد بك مؤلفة من ١٥٠ مملوكا

و بعض الاعراب في قرية بنى قره ، فقابلتها فصيلة فرنسية مؤلفة من اربعمائة رجل واكدهتها على الابتعاد عن الضفة النهر ليتيسر للجيش الفرنسي السير

» وفي ١٥ أكتوبر رأى الفرنسيون قوة اخرى من المالك عددها ستمائة مملوك

يسرون بنظام على الضفة اليمنى لبحر يوسف فأمر الجنرال ديزيه بعمارة بالتمهق

نحو نصف فرسخ لكي ينزل منها الجنود ، ولم تكد العمارة تنفذ الامر حتى أرسل العدو فصيلة لمنع هذه الحركة . ولكن حملة «القرابينات» من الفرقة الحادية والعشرين لم تدع هذه الفصيلة تقرب من الشاطئ . ونزلت الفرقة ونظمت صفوفها بدون أن تنقى مائماً . وأمر الجنرال ديزيه في الحال بوضع مدفعين وبزحف الجيش لمقابلة العدو . فتهقر المالك ببطء أمام الفرنسيين الذين كانوا يصلونهم ناراً حامية مدة اربع ساعات . وقد فرسان المالك الذين كانوا تحت قيادة محمد بك الالفي بعض خيولهم . وحينئذ أمر الجنرال ديزيه جنوده بالراحة

«وفي ٦ أكتوبر واصل الفرنسيون زحفهم وكانت العمارة تتبعهم رغماً من شدة هبوب الرياح ، فأرأوا جيش مراد بك قد احتل المرتفعات التي تشرف على النيل . وقد صف مراد بك جنوده وراء المرتفعات على خط طويل . فصف الجنرال ديزيه فرقته على هيئة مربعات يؤلف كل منها من مائتي رجل وأمر بالزحف حتى صار الفرنسيون على مقربة من مركز العدو ، فأمرهم بالوقوف وحينئذ استطاع أن يرى مراد بك واقفاً أمام خيمته يحيط به مماليكه وكشافه وكبار ضباطه فأصدر الجنرال ديزيه أمره باطلاق النار ففتحت البنادق افواهاها واصلت العدو ناراً حامية حتى اختل نظامه ، وفر رجاله ، لا يلوون على شيء ، واقفى الفرنسيون أثرهم يعملون السيف في رقابهم فقتلوا عددا عظيماً من الرجال والخيول .

وكان مراد بك ينوي ان يجر الفرنسيين الى الصحراء ليتمكن من اهلاكهم ، ولكن الجنرال ديزيه لم ينجح بهذه الحيلة وامر رجاله ان لا يتعدوا عن ضفة البحر اليسرى ليستولوا على قوارب المالك

وفي ٧ أكتوبر واصل الجنرال ديزيه الزحف حتى وصل الى بلدة سدمنت حيث جمع مراد بك المالك والاعراب من اعوانه وخيوله التي يبلغ عددها أربعة أو خمسة الاف جواد فصمم على الاستيلاء على هذه المدينة مهما كلفه الامر . ومع أن مراد بك هزم في موقعة سدمنت شرهزيمة فإنه لم يستسلم لليأس ولم يكف عن محاربة الجنرال ديزيه في بلاد الصعيد ، ولذلك رأى هذا الجنرال

أن الحاجة تدعوه للقضاء على قوات مراد بك وطرده الى الصحراء ، فاتخذ ديزيه مدينة بنى سويف مركزاً مؤقتاً لقواته وجعلها قاعدته الحربية ، وطلب من القائد العام للقوات الفرنسية فى القاهرة إرسال الامدادات اللازمة لاختراع الصعيد ، ولم يربو نارت لإجابة طلبات الجنرال كلها ، ولم يقبل أن يمدد بكل القوات التى سألها بإيها ، ولكن الجنرال « ديفو » الذى كان فى ذلك الوقت فى القاهرة ، سافر منها بقوة ومؤلفة من ١٢٠٠ من الفرسان و ٣٠٠ رجل من المشاة ومعه ستة مدافع ، وستة قوارب حربية ، مجهزة بالسلاح والمتاريس ، وهذه القوة مكنت الجنرال ديزيه من امتلاك ناصية الصعيد ، والبحث عن قوات المالك والجيوش التى كانت تعاون مراد بك ، والقضاء عليها قضاء مبرماً

« وفى ٣ يناير سنة ١٧٩٩ التقى الجنرال ديزيه بفرقة من جيش مراد بك بقرب قرية السواقي ، وسرعان ما وقع الاضمار عليها ، حتى تمهاً الجنرال « ديفو » ، لمحاربتها فصف رجاله وأمرهم بالهجوم فلم يستطع جيش مراد بك الوقوف طويلاً ، بل اختلفت صفه ، وولى الادبار ، والقوة الفرنسية مجتدة فى أثره ، بعد ان ترك ٨٠٠ قتيلاً وواصل الجنرال « ديفو » الزحف بجيشه ، حتى وصل طهطا فى ٨ يناير ، واضطر جيش مراد الى انتمقر منها ، بعد أن قذف الرجال الذين كانوا يدافعون عن المدينة بأنفسهم فى النهر فغرق منهم عدد عظيم

« ولما رأى الجنرال « ديفو » أن العدو كرت عليه ثانية بفصيلة من العرب والمالك أمر باطلاق النار فلستطاع أن يخضع كل مدن الاقليم ، وان يعيد المواصلات بينه وبين العارة البحرية الصغيرة التى انتزعت فرصة قيام الريح ، وواصلت السير فوصلت جرجا فى اليوم السابع عشر من شهر يناير ، وألقت مراسيها على الضفة اليسرى للنيل ، واستطاع الجنرال ديزيه بفضل ذلك الاتصال أن يواصل فتوحاته ولكن بعد أن أضع ثمانية عشر يوماً فى حروب متواصلة مع العدو

« علم مراد بك بهزيمة جيشه فى طهطا ، ولكن فى الوقت ذاته جاءته الانباء مبشرة بصلحه مع حسن بك الجداوي وبوصول شرفاء ينبع وانضمام حسن بك إلى مراد بك ومعه ثلاثة آلاف مقاتل ومائتين وخمسين من المالك

« وكان لحسن بك نفوذ عظيم في مصر العليا ، فأثرت أخبار صلحه مع مراد بك تأثيراً عظيماً ووصل الى الصعيد ألفاً شريف من أشرف ينبع الذين كان يتودم حسن بك بنفسه

« كان مراد بك ينسب هزيمته السابقة إلى عدم وجود جيش له من المشاة يحمي ذمارهم ويرد عادية الاعداء عنهم ، وظن الآن أن القدر جاءه بما كان ينقصه إذ علم أن الفين آخرين من الاشراف قد تجمعوا في ينبع ، ينتظرون وصول السفن لتحميلهم وتجتاز بهم البحر الاحمر ، ورأى مراد بك أنه أصبح له جيش يبلغ عدده اثني عشر إلى أربعة عشر ألف مقاتل ، فصمم على وضع مشروع جديد للقضاء على جيش العدو وإهلاكه

« أراد مراد بك أن يذهب الى جرجا عند ما يغادرها الجنرال ديزيه ليقوم على تحصينها ويؤيد العصاة فيها ، وبذلك يكون وراء الجنرال ديزيه ويضطره الى العودة للقتال بين المنازل حيث تكون النتيجة انتصار مراد بك ، ولذلك بقي في الصحراء على الضفة اليسرى لقناة الصعيد الكبرى

وفي ٢٠ يناير سافر الجنرال ديزيه مخترباً الطريق بين النيل والقناة ، وفي ٢٢ يناير التقى الجيشان في آخر النهار في بلدة سمهود ، وكانت القناة تفصل بينهما ولكن القناة كانت جافة لا ماء فيها

« أما الجيش الفرنسي فكان مؤلفاً من خمسة آلاف من المشاة والفرسان وأربعة عشر مدفعاً وعمارة بحرية صغيرة في النيل ، وجيش العدو كان مؤلفاً من ١٨٠٠ من المالك و٧ آلاف من فرسان العرب والفين من المشاة من أشرف ينبع وثلاثة آلاف من العرب ولا مدافع عندهم فكان مجموع جيش العدو نحو ثلاثة عشر ألفاً أو أربعة عشر ألفاً من المقاتلين

« وفي يوم ٢٢ تقابلت فصيلة الهوسار السابعة تحت قيادة القومندان دوبلسي بجيش العدو قريباً من أسوار قرية سمهود وبعد قليل وصل الجنرال ديزيه فأمر مشاته أن يؤلفوا مربعين متساويين ، وضع أحدهما على اليمين والآخر على

اليسار ، وجعل الفرسان في الوسط يؤلفون مربعاً آخر وليكونوا في حمي المشاة ، ومع ذلك تقدم العدو على المربعات كلها بدون خوف وأحاط فرسانهم وهم كثير و العدد بالقوة الفرنسية وألقت جماعة من المشاة مؤلفة من عرب ينبع بأنفسها في القنائة وبدأت تطلق النار بشدة ، فكبدت ميسرة الفرنسيين خسائر فادحة ، وحينذاك اضطر الجنرال ديزيه أن يأمر ضابطي أركان حربه وهما راب وسافاري بالهجوم على العرب ومعهما كوكبة من فرقة الفرسان السابعة من الهوسار بينما أمر فرقة حملة القرايينات الحادية والعشرين أن تنقدم تحت قيادة الكابتن كليمات على شكل طاوور الى القنائة لتحصر قوة العدو ، فنفذ ذلك الامر بشجاعة نادرة واضطر العرب الى الفرار من وجه القوة الفرنسية تاركين خمسة عشر قتيلاً وعدداً كبيراً من الجرحى ، ولم يفقد من فرقة حملة القرايينات غير رجل واحد أصيب بطعنة خنجر عند ما أراد أن ينزع علماً من أيدي الاعراب وسقطت سمهود في قبضة الفرنسيين ، ومع ذلك بقيت عصابت دديدة من المماليك تتقدم صائحة صياحاً مزعجاً يعاونها عرب ينبع ، وهي تريد استرداد سمهود من أيدي الفرنسيين ، ولكن فرقة حملة القرايينات الحادية والعشرين تصدت لهم وأصلتهم ناراً حامية واضطرتهم الى التقهقر بعد أن كبدتهم خسائر فادحة ، وفي ذلك الوقت انتقض المماليك على المربع الذي كان تحت قيادة الجنرال فرانيت بينما كانت فرقة من مشاتهم تضايق الفرقة التي كان يقودها الجنرال بليارد ، غير أن نيران المدفعية الفرنسية الحامية قضت على تلك الجهود التي كان يبذلها العدو حتى اضطر بعد هجوم لم ير فائدة منه أن يولي الادبار تاركاً عدداً كبيراً من القتلى والجرحى

« ثم صدر الامر للجنرال ديفو أن يحمل على المماليك الذين كانوا تحت قيادة مراد بك وحسن بك فصعد الجنرال بالامر وحمل على جيش مراد بك حملة صادقة ، حتى اضطره للتقهقر فكان تقهقر مراد بك علامة التقهقر العام

« وهرب العدو والفرنسيون يعملون السيف في أوقيته مدة أربع ساعات ، ولم يقف الفرنسيون الا في فرشوط حيث وجدوا عدداً عظيماً من رجال العدو قد

قضوا نحبهم ، وهم متأثرون من جراحهم ، ولم يفقد من الفرنسيين في تلك المعركة
غير أربعة رجال ، أما المالك فقد قتل منهم أكثر من مائتين وخمسين رجلاً
بخلاف الجرحى الذين لا يحصى لهم عدد

« وأراد الجنرال ديزيه أن يقتني أثر مراد بك في اليوم الثاني ولكن
العدو كان يحارب في بلاده وهو يعرف مسالكها بهاها ووهادها ، أما المشاة
والفرسان الفرنسيون فقد كان أنهمكهم التعب ولا يستطيعون جر مدافعهم
الثقيلة فاضطر الجنرال ديزيه أن يأمر جيشه بالمبيت في فلو يوم ٢٢ وفي يوم ٢٣
واصل الزحف حتى وصل دندره وعسكر بجيشه في خرائبها

« وفي يوم ٢٤ زحف وسط سلسلة جبال ليبيا مخترباً وادى النيل فشهد على
بعد آثار طيبة وهيا كلها ذات المائة باب وفي ٢٥ يناير بات الجيش الفرنسى بين
الجبليين ووصل في يوم ٢٦ الى اسنا وكان المالك يفرون أمام الجيش المنتصر ،
وهم يحرقون في طريقهم كل ما كان معهم من الخيام والمعدات بعد أن تفرقت
جموعهم أيدي سبا

« أما مراد بك وحسن بك ففرا الى بلاد البرابرة والتجأ فيها الاثني بك فاحتل
الجنرال ديزيه اسنا ، وأنشأ فيها استحكامات وبنى المخازن والافران لصنع الخبز
اللازم للجنود ومستشفى لترييض الجرحى والاعتناء بالمرضى وبقي الجنرال فرايزت
مع فرقته في اسنا لمراقبة الاثني بك وحسن بك قائداً اشرف ينبع ، واجتاز الجيش
ادفو وهي مدينة كبيرة على بعد عشرة فراسخ من اسنا وكان ديزيه مجدداً في
مقابلة العدو يروم الاسراع في التنكيل به والقضاء على قواته ، فاجتاز الجبال التي
يجرى بينها النيل وكانت الجنود تسير بصعوبة وقد أنهمكها التعب حتى وصلوا الى
قرية بنبان وباتوا فيها ، وفي ١٢ فبراير عسكر الجيش الفرنسى في قرية اسوان وهي
على الضفة الشرقية ، وفي ٣ فبراير تركها عابراً النهر وعسكر قبالتها وهناك يبلغ عرض
النيل ٥٠٠ تون (مقياس طوله سنة أقدام أو ٩٤٩ متر) وعند ما ترك
ديزيه الضفة اليسرى للنيل في المرة الاولى ، بقي المالك عليها لان الوادى

هناك عريض بينما كانت المناورات الحربية مستمرة على الضفة اليمنى ومنها يستطيعون الوصول الى سواحل البحر الاحمر

«وفي اليوم ذاته تمكنت فصيلة من الوصول الى جزيرة أنس الوجود، وهي آخر حدود المملكة الرومانية القديمة، فوجدت بقرب شلالات النيل نحو خمسين قارباً محملاً بأمثلة الممالك اضطروا لتركها أثناء فرارهم، ورفعت راية مثلثة الالوان على صخرة عالية هناك، حياها الجنود بين أصوات الابواق ودق الطبول، وتناول الخطباء الكلام فشبها الفرنسيين بالرومانيين الذين امتلكوا مصر من أقصاها الى أقصاها. وكان الجنرال ديزيه ينوي أن يقم معسكرات للجنود في البلاد من قرية اسوان الى جرجا حتى يضمن اخلاص البلاد الى السكينة، فترك في قرية اسوان الجنرال بليارد مع فصيلة من المشاة وعاد ديزيه سائراً بقرسانه، وقد قسمهم قسمين، أحدهما على الضفة النيل اليسرى، والآخر على ضفته اليمنى حتى وصل الى اسنا في اليوم التاسع من شهر فبراير

واضطر الجوع حسن بك أن يترك بلاد البرابرة ويغادرها مع أفراد أسرته ونسائه وأمتعته وكنوزه وثروته ولبي يخلى محلاً لمراد بك فانه ذهب الى الضفة النهر اليمنى حيث كان له أعوان ويملك هناك قرى، ولما علم الجنرال ديفو أن حسن بك اقترب من طيبة رأى أن يعبر النيل مع فرقة الرماة الثانية والعشرين وفصيلة الدراجون الخامسة عشر وفاجأه في يوم ١٢ فبراير

ولما رأى حسن بك أنه لم يعد في استطاعته أن يعسكر في الوادي اضطر أن يفر الى الصحراء ونزل هناك بجنوده

واحتل الجنرال ديزيه اسنا ونشر اعلام الأمن والسكينة وعمل على تنظيم الأقاليم ورفع لواء العدالة ولما علم من الرسل الذين أتوه من جهات مختلفة، أن مراد بك غادر مكانه وابتعد عنه قاصداً أسنا وأسيوط، وأن الأتقي بك ترك الواحات، وأن الاشراف وحسن بك خرجوا من الصحراء ونزلوا على الضفة النيل اليمنى، امرع بالقضاء

على مشرعات أعدائه فأمر الجنرال باليار أن يغادر اسوان ويذهب الى إسنا مع كل جيوشه، ليقطع على الأعداء خط الرجعة وليلمك ناصية الصعيد، وأمر الجنرال فراينت أن يجمع جنوده ويسير بهم إلى أسيوط ، وأمر العمارة البحرية أن تسير في النيل متبعة أثر الجنرال فراينت الذي سافر بنفسه في ٢ مارس ليضع يده على أسيوط قبل أن يصلها مراد بك وقبل أن تتصل قواته بقوات الالفي ، فوصل الجنرال فراينت إلى الصوامع في يوم ٥ مارس وكان هو في مقدمة الجيش وقد أمر أن يهيا مسكن لجنوده ودخل الى هذه المدينة فتو بل بإطلاق النار من البنادق إذ كان يحتل هذه البلدة نحو ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مقاتل من الفلاحين العصاة ، فهجم عليهم الجنرال فراينت من ثلاث جهات حتى اضطر كثير منهم أن يرموا بأنفسهم في النيل وفي الغداة واصل الجنرال السير الى جرجا فأسيوط حيث انضم الى الجنرال ديزيه . ورغما من ذلك فان مراد بك استطاع أن يتصل بالالفي بك ويضم قواته إليه في اسيوط ، وهناك علما أن الجنرال بونابرت استولى على العريش ، ودخل سوريا ولكن بقي في القاهرة من الفرنسيين أكثر مما معه في الصعيد وأنه اخلى القلعة وان أهالي القاهرة قدموا له فروض الطاعة وصرح علماء الأزهر بأنه لو اقترب المماليك من العاصمة فان الاهالي والمشايخ ينضمون الى الفرنسيين لأنهم سئمو الحرب ويريدون الجنوح الى السكينة والهدوء .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الجنرال ديزيه كان مقتنيا أثر المماليك وهو لا يبعد عنهم أكثر من يومين ، فاضطر مراد بك أن يفر الى الواحة الكبرى والالفي بك الى الواحة الصغرى ، وتفرق المماليك في البلاد متنكرين بثياب الفلاحين . ومع ذلك بقي حسن بك والشرفاء على ضفة النيل اليمنى ، وما كادوا يجمعون جموعهم في قنا حتى علموا أن العمارة الفرنسية عاكتها الرياح بقرب بلدة البارود فأسرعوا لمهاجرتها ، وكانت العمارة مؤلفة من اثنتي عشرة سفينة مسلحة بالمدافع الضخمة ومحملة بالمؤن ، والذخائر ، والامتعة ، وخزينة الحرب ، وآلات الموسيقى وتقل نحو ثلاثمائة رجل ، فقسم حسن بك جنوده الى قسمين وجعل كل قسم منهما على كل ضفة

من ضفتى النيل ، وانضم اليه نحو ١٠ الاف من الاهالي الذين دفعهم الطمع الى
السلب والنهب ، وكانت المعركة شديدة ، واحتل الاعداء الجزر النيلية والمآذن . ولما لم
يكن عندهم شئ ، من المدافع ، هجموا على العمارة البحرية باطلاق نار بتادقهم
فتمكنت السفينة «إيطاليا» من أن تبتدئ شمل العرب وتوقع الاختلال في صفوفهم ،
ولكن هذه الخسارة التي أصابت العرب لم تفت في عضدهم ولم تكن عزيزتهم ،
فأسرعوا إلى النزول في النهر واستولوا عنوة على كل السفن تقريباً ونهبوا الذخائر
وحاولوا الصعود إلى السفينة إيطاليا ، والاستيلاء عليها . ولكن قبودان تلك
السفينة وهو الكبتن «سوراندي» ضاعف جهوده وأمر باطلاق نيران المدافع فخصدت
صفوف المهاجمين ، غير أنه عند اقتراب ساعة الفوز ، كان الملاحون قد أصيبوا بجروح
منعهم من القيام بالمناورة بالسرعة اللازمة ، فدفعت الرياح السفينة الى تل من الرمال
حيث سقطت وأحاط بها العرب من كل جهة ، فلما رأى الربان سوراندي أن
لا أمل له في اتقاها أشعل فيها النار بنفسه ، ونسف ما فيها من الذخائر ، وقضى
نفسه فيها بعد أن قضى على المحيطين بها انتقاماً لنفسه وملاحيه وذخائره !! ووقعت
السفن الاخرى في قبضة العدو فاستولوا على ما فيها ، وقتلوا الملاحين وغنم العرب
الخزينة وما فيها من المال ، وكانت خسارة الجيش الفرنسى في تلك المعركة
مائتى ملاح ، وثلثمائة جندي ، والمجموع خمسمائة فرنسى وهذه كانت اكبر
خسارة تعرض لها الجيش الفرنسى في مصر . وكانت تلك الكارثة التي تبقى ذكرها
زمناً طويلاً سبباً دفع الجنود أن يتهموا قائدهم أنه أساء عملاً في وضع العمارة تحت
حماية قوة من جيشه ، وأنه ارتكب غلطة كبرى لانه ظن أن العمارة تستطيع أن تتفق
أثر الجيش في وقت انخفاض مياه النيل

ولما علم الجنرال بليار نزل في النيل ، وسافر في الحال إلى اسنا وسار على ضفة
النهر اليمنى حتى وصل الى قنا ، فعلم أن معركة شديدة دارت رحاها هناك وأن
الفرنسيين انهزموا شرسهزيمة وقتلوا عدداً عظيماً من جنودهم وأموالهم وأمتعتهم
وفي ٨ مارس التقى الجنرال بليار بجيش العدو عند بلدة «قنظ»

وقد رفع رجاله رهوس الفرنسيين على أسنة حراهم وتبعهم تدد كبير من الفلاحين يرتدون ملابس الفرنسيين التي سلبوها ، وبأيديهم بعض الآلات الموسيقية التي غنموها ، وقد مثل الاعتداء بخمرة النصر ، ونادى حسن الجداوى بأعلى صوته مصرحاً على رهوس الاشهاد ، ومتنبئاً أن ساعة الفرنسيين قد دنت ، وحان يوم هلاكهم وأنهم من اليوم فصاعداً ، لا يلقون غير الهزيمة بعد الاخرى ، وأن المؤمنين سيكون نصيبهم للنصر والفوز الاكبر

ولما وقعت عيننا الجنرال بليار على العدو ، صف جيشه الصغير على شكل مربع ، ووقف لمواجهة خصمه الذي أطلق عليه نيران البنادق ، وحينئذ هجم الجنرال ومعه فضيلتان من الرماة الفرنسيين على حسن بك وجيشه ودارت رحى معركة حامية وانقض فرسان «الدراجون» على العدو والسيوف بأيديهم ، فندبحوا ثلثي العرب وقتل الملاجور لبارو اثنين منهم بيده ، وغنم منهم ثلاثة أعلام . وبينما كانت المعركة دائرة ، أطلقت المدافع ناراها ، فمعت اشرفاء من التقدم لنجدة اخوانهم ، ولكن المايك اتقضوا على الفرنسيين من الورا ، فقطعوا خط الرجمة على نحو ٢٥ رجلاً من الرماة الفرنسيين ، وكانت معركة شديدة اذ اضطر الفرنسيون أن يتقاتل الواحد منهم ستة من رجال العدو ، وكان ذلك اليوم يوم مجد ونفار للجنرال بليار الذي أمكنه أن ينقذ جيشه ويظهر الصعيد من حسن بك ورجاله ، ولما كذت المواصلات قد قطعت بين الجنرال بليار ونفدت ذخائره ، أسرع بليار في العودة إلى قنا ، فوصلها في ١٢ مارس ومنها كتب إلى الجنرال ديزيه في اسبوط يشرح له الموقف الذي كان فيه وأنبأه أن المايك ورجال حسن بك وثمان بك واعراب ينبع ذهبوا الى جهة بئر البحر ، فجمع الجنرال ديزيه في الحال سفنه التي بقيت له وسار في النيل يوم ١٨ مارس ، وفي الغداة نزل البر ، وسار بجيشه لينجد الجنرال بليار ، وفر المايك بعد هذه المعركة عائدين الى السفينة بعد أن تركوا عدداً عظيماً من الجرحى والخيول في الصحراء ، فأمر ديزيه الجنرال بليار أن يقتفى أثرهم ويبحث عنهم أين ذهبوا وعاد ديزيه الى قنا ورتب قوة مؤلفة من فصيلة من

الفرقة الواحدة والستين وكوكبة من فرقة الهوسار السابعة ، وجعلها تحت أمره الجنرال ديفو ، وفي الوقت ذاته أمر القائد موراند قومندان جرجا أن يذهب الى الضفة اليمنى للنيل ، ويبقى أمام جرجا حتى يقف في وجه العدو اذا تمهقر ، ولما شعر العرب بخرج موقفهم لم ينتظروا حتى يسد الجنرال ديفو عليهم الطريق ، ومروا على شاطئ النيل بقرب برديس ، فلما علم قومندان جرجا بوصولهم ، قام في يوم ٥ ابريل عائداً الى جرجا وأخذ معه ٢٥٠ رجلا ، وذهب للقائهم في برديس التي استولى عليها ولما شاهده اعراب ينبع والملاحون والمالِك خرجوا منها وهم يصيحون صياحا عاليا وأرادوا أن يصدود عن برديس فلم يستطيعوا واضطروا إلى الفرار ليلا بعد أن تركوا عدداً عظيماً من القتلى ، وحينئذ عاد القائد موراند الى جرجا

وفي اليوم التالي دارت رحى معركة جديدة لان اعراب ينبع ساروا الى جرجا وهم ينهبون في طريقهم الاسواق ، فترك موراند قوة في المدينة وسار للقائهم خارجها ففرق جمعهم وقتل من استطاع منهم أن يدخل المدينة ، أما الباقيون فهاموا على وجوههم في الصحراء ، وقد فقد اعراب ينبع في هاتين المعركتين مائتي قتيل . أما الفرنسيون فخرج منهم عدد قليل

ولما انهزم العرب في جرجا ساروا الى طهطا لتدميرها ونحرقوا أهلها على الثورة ، ولما علم القائد لاسال بنجرهم ، أسرع في الحال بالفرقة الثانية والعشرين من الهوسار ، والثامنة والثمانين ، ومعه مدفع ، فوصل إلى جبهة في الساعة الاولى بعد الظهر من يوم ١٠ ابريل ، وكان اعراب ينبع فيها ، فحاصرها بجزء من جيشه ، وسار لمقابلة العدو بالجزء الآخر ، ولما رأى الاعراب ذلك ، انقضوا على الجيش الفرنسي وثبتوا امامه بضع ساعات رغم نيران المدافع التي كانت تلتهم صفوفهم فقتل منهم عدد عظيم ، ومن تبقى حياً فر هارباً ، ويمكن نحو مائتين منهم بفضل الاشجار أن يسبروا الى الصحراء ، وكان بين القتلى الشريف الذي بلى حسن بك في الزعامة ، وقد هلك اعراب ينبع كلهم تقريباً ، ومع ذلك فان الجنرال ديفو لم يكف عن مطاردتهم ، ولم يكفد ديفو يصل أسبوط حتى علم أن الثورة قامت في بني عدى

بقرب أسويط ، إذ قام أهلها وهم أشجع سكان مصر بالانضمام إلى المماليك والعرب
وأهالي دارفور الذين جاءوا مع القوافل من قلب أفريقيا وشاع أن مراد بك غادر
الواحات ليكون على رأس أولئك العصاة ، وأنه أرسل بتواته وكشافه لينظموا تلك
القوة ويثيروا حمية العصاة

وبينما كان الجنرال ديفو يحارب في بني عدى تلك الجموع ويعمل لاهلاكها
والقتضاء عليها ، كان عرب الحميمات والبقوشية يهددون المنيا ، وقد ثارت أيضاً
القرى المجاورة لبني عدى ، ولم يكن مع الجنرال «ديستريه» محافظ المنيا غير عدد
قليل من الجنود وأمل أن يصله الامداد حتى يتغير موقفه الحرج وسار اليه الجنرال
ديفو لينجده ، ولكنه وصل متأخراً ولم يستطع الجنرال «ديستريه» مقاومة العدو
وطرده الا بعد جهد عنيف ، ومع ذلك ذاعت اشاعة أن عرب ينبع وصلوا الزحف
الى بني سويف التي هبت فيها نيران الثورة ، وفي القرى المجاورة فأسرع اليها
الجنرال ديفو

ولم يبق في الصعيد الاعلى غير حسن بك الذي انسحب منذ زمن طويل الى
التصير ، وبقى فيها مطمئناً وأصبحت اسوان في قبضة يده ، فأرسل الجنرال ايلر
قومندان اسنا السكابتين رينو ومعهم ٢٠٠ رجل من المشاة للاستيلاء على اسوان وهو
إما يجبل تدد القوة التي مع حسن بك أو يظن أنها سارت مع القوافل ، ولما علم
حسن بك بوصول تلك القوة القليلة العدد تولاه الطرب لأن الفرصة مكنته من
الانتقام للمؤمنين ، وأسرع بلقائها ومعهم ١٨٠ مملوكا و ٢٠٠ من الاعراب و ٣٠٠
من البيادة ، وتند ما رأى السكابتين رينو تلك القوة العظيمة ، لم تأخذه الدهشة
ولم يتولاه اليأس ، بل أمر رجاله أن يقيموا على هيئة مربع ، ونادى فيهم بأعلى
صوته «أيها الرفق! ان ابطال ايطاليا^(١) لا يعبأون بكثرة عدد اعدائهم فليقاتل كل
واحد منكم خصمه وأنا اقضى على الباقي منهم» . فعلت هذه الكلمة فعلها في الجند
وأثارت حميتهم ، فلم يكادوا يطلقون بنادقهم أول طلقة حتى سقط من المماليك ١٠٠

(١) إشارة الى انتصاراتهم في ايطاليا

على الارض يمجون علمها ونجيعا . وبعد بضع ساعات تمكن الكابتن رينو من دخول اسوان ووضع يده على الامتعة والجرحى ، وجرح أيضاً حسن بك وعثمان بك جروحا خطيرة قضت على حياتيهما بعد بضعة أيام ، أما الكابتن رينو فلم يفقد من رجاله غير أربعة قتلى و ١٥ جرحياً ، وكانت هذه المعركة أجمل معركة للفرنسيين في مصر . أما مراد بك فعند ما علم بخبر تلك الكارثة فر الى الصحراء وهلك حسن بك والماليك ، ولم يبق منهم غير شريف واحد من أشرف ينبع

ولم يبق على الفرنسيين الا أن يحتلوا ميناء القصير والواحة الكبرى والواحة الصغرى ولكن شدة القيظ ووعورة الارض اضطرنا الفرنسيين أن يؤجلوا ارسال الحملة الى الواحات حتى شهر نوفمبر ، ولكنهم رأوا أن يحتلوا القصير في الحال لأن السفن الآتية من بلاد العرب وجدة وينبع كانت تأتي لنحمل الارز والمنطة وبعض الحبوب الأخرى الى بحيث الجزيرة ولا سيما مكة والمدينة ، فرأى الجنرال بليار أنه لا بد من امتلاك القصير في الحال وتحصينها

وقد عد الصعيد منذ ذلك الوقت أنه قد تم فتحه ولم يبق على الجنرال ديزيه إلا أن يسير حملة الى الصحراء الكبرى للقضاء على قوة مراد بك ، فرأى أن يعهد بها الى الجنرال فراينت ، ذلك القائد الذي اشتهر بالشجاعة والاقدام والقدرة في القنون العسكرية ، وكان مراد بك في موقف يرثى له وليس معه غير بعض الماليك والعرب ، فهو لا يستطيع عملا ولا يخشى منه ، ولذلك رأى الجنرال ديزيه أن يفرغ لتنظيم البلاد فقسم الصعيد الى قسمين وجعل عاصمة الاول اسيوط والثاني قنا واختار لنفسه القسم الاول وبقى في اسيوط وعهد بقنا الى الجنرال بليار

ولما خضع الصعيد واستتب الامن أظهر الجنرالان قدرة فائقة في الاعمال الادارية لم تكن أقل من قدرتهما في الاعمال العسكرية ، وذهبا الى القرى ليدبرا مع المشايخ والاهالي أمر حفر الترغ واطهيرها ، وإقامة الجسور ووضعها مع رجال البلاد القادرين القواعد التي تضمن تحسين حالة البلاد ، وعملا على اتفاق الحكومة مع الاهالي ، وتركوا الناس يهتمون بفلح أراضيهم ، وكان أغنياء البلاد يتمتعون

بثروتهم بدون خوف ، وتغلب العقل والحكمة على الطباع فلم يهيب الأهالي للانتقام ، ولم يقهر الفرنسيون في محاكمة الجنود الذين يعتدون على الأهالي حتى لقب بونابرت بلقب السلطان العظيم ولقب ديزيه بالسلطان العادل ، وأرسل بونابرت الى ديزيه كتابا يثني عليه قال فيه :

أرسل اليك يا مواطني الجنرال سيفاً جميلاً نقشت عليه هذه الكلمة - افتتاح الصعيد - وهو لم يفتح إلا بفضل مقدرتك وجهودك ، رأيتني أرى في تلك الهدية دليلاً على احترامك لي ، وإخلاصك لشخصك .
(بونابرت)
وأرسل أيضاً الى كل من الجنرال بليار والجنرال فراينت سيفاً مزينة قبضته بالماس .

والى القارىء كل ما جاء في الجبرتي متقطعاً عن المحاربات فى الصعيد قل :
« انه في يوم الاربعاء اول ربيع الثانى سنة ١٢١٣ وردت الاخبار بأن مراد بك ومن معه لما بلغهم ورود الفرنسيس عليهم رجعوا الى جهة القيوم وان عثمان بك الاشقر عدا الى البر الشرقى وذهب من خلف الى استاذة ابراهيم بك بغزة وخرج جماعة من الفرنسيس الى جهة الشرق ومعهم عدة جمال وأحمال فخرج عليهم الغز والعرب الذين يصحبونهم واخذوا منهم عدة جمال باحتمالها ولم يلحقوهم . وفي ليلة الاحد ١٢ منه ركب كبير الفرنسيس الى البر الجيزة وسفر عساكر الى الجهة التى بها مراد بك وكذلك الى الجهة الشرقية ومعهم مدافع على عجل . وعينت عساكر الى مراد بك وذهبوا اليه ببحر يوسف جهة القيوم . وفي يوم الثلاثاء سافر أيضاً جماعة من الفرنسيس الى جهة مراد بك ومن معه والقوا معهم وتراموا ساعة ثم انهزموا عنهم واطعموهم فى أنفسهم فتبعوهم الى أسفل جبل اللاهون ثم خرجوا عليهم على مثل حالهم رجالاً وتراموا معهم وكنوا لهم وثبتوا معهم وظهر عليهم المصريون وقتل من الفرنسيس مقتلة كبيرة

وجاء فى حوادث شهر جمادى الاولى قوله « وفى يوم الخميس اول جمادى الاولى

قدمت مراكب من جهة الصعيد وفيها عدة من العسكر جرحى . وفي أول شعبان جاءت الاخبار أن مراد بك ومن معه سافروا الى قبلى ووصلوا الى عقبة الهواء وكما قرب منهم عساكر الفرنسيين انتقلوا الى قبلى وقد داخلهم خوف شديد ولم تقع بينهم ملاقة ولا قتال . وجاء في حوادث شهر رجب تواترت الاخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربياً يقال له الشيخ الكيلانى كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف فلما وردت اخبار الفرنسيين الى الحجاز وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة وصار هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحرضهم على نصرته الحق والدين وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع من انضم اليهم من أهل ينبع وخلافهم وورد الخبر فى أواخر رجب انه انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض الأتراك والمغاربة ممن كان خرج معهم مع غز مصر عند واقعة انبأه وركب الغز معهم أيضاً وجرى بالفرنسيين فلم يثبت الغز كعادتهم وانهمزوا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعون من القرى وثبت الحجازيون ثم انكسروا قتلهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمالِك الى ناحية أسنا وحجبتهم حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن تابعه ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيين بعض حروب غير هذه المرة فى عدة مواضع وانفصل الفريقان بدون طائل « اه

* * *

هاتان هما الروايتان الموجودتان فى كتب التاريخ الفرنسى والعربى اثبتناهما تعريباً ونقلًا . وظاهر أن الجبترى لم يكن يعلم شيئاً عن أخبار فتح الفرنسيين لبلاد الصعيد الا ما يسمعه من أفواه الناس وما يصل من الاخبار المتقطعة الى القاهرة، وظاهر أيضاً أن هذه المحاربات فى الصعيد بين المالِك والاهالى والعرب من جانب، والفرنسيين من جانب آخر، وقعت خلال الحوادث التى افردناها فى الفصول الآتية . والآن ننتقل الى نابليون فى القاهرة وننتبه فى غزوته للشام حتى نصل الى نهاية أمره فى أرض مصر .

الدور الثاني

من معركة أبي قير الى ثورة القاهرة الأولى

أغسطس - ٢٢ أكتوبر - ١٠ جمادى الأولى

- ١ -

معركة أبي قير البحرية

كانت معركة أبي قير البحرية التي أبصرها « دينون »^(١) من برج « أبي مندور » بين الاسطول الانكليزي الذي يتوده الأميرال نلسون ، والاسطول الفرنسي الذي نزل جيوش الحملة الفرنسية لمصر تحت قيادة الأميرال (بروز) ، من المارك الفاصلة في تاريخ الجنس البشري ، لأن النتائج التي ترتبت على تلك الواقعة كانت على جانب عظيم من الأهمية ، بحيث لو أتبع النصر للفرنساويين ، أولو بقيت لهم من أسطولهم قوة تعادل ما لانكترافي البحر الأبيض المتوسط من القوة

(١) راجع هامش صحيفة ٢٧ من هذا الكتاب. وكان « فيفيان دينون » كاتباً مصوراً رافق ديزيه في حملته على الصعيد ، وهي الحملة التي عربنا حوادثها بإيجاز في الفصل المتقدم ، وقد وضع دينون كتابه المشار إليه باللغة الفرنسية طبعاً ، وقد اطلمت على ترجمة له بالانجليزية للمستر فرانسيس بلاجدين مطبوعة في سنة ١٨٠٢ (Francis Blagden Esq.) وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة كما توجد النسخة الفرنسية ، تقول كان هذا العالم دينون في جهة رشيد مع حملة الجنرال « مينو » التي فتحت بها ذلك الثغر وصادف أنه ذهب في ٣١ أغسطس الى دير في جهة أبي مندور وكان يوجد قريباً من ذلك الدير برج قديم صعد عليه دينون مصادفة وأبصر على بعد سفن الفرنسيين تحترق ، ومما يقوله بعد أن تأكد أن الدائرة دارت على الأسطول الفرنسي أنه بتلك المعركة قضى على الآمال الفرنسية في البحر المتوسط وانتقلت السيادة منه الى بريطانيا من ذلك اليوم ، وهذا كلام أيده التاريخ . ولقد رثى دينون الذين سقطوا في تلك الموقعة من الضباط والملاحين الفرنسيين بكلمات تنقطع لها زياط قلب كل فرنسي مصوغ في أبلغ ما يكتب الكتاتيون (صحيفة ٩٤ - ٩٥) من الطبعة الانكليزية جزء أول

البحرية ، لما كانت خاتمة الحملة الفرنسية في مصر كما تمت بعد ذلك ، بل لما كانت خاتمة نابوليون في الشرق كله كما حصلت !!

ولو شاء الكاتب أن يضرب بالسهم الأوفر في ميدان التخيلات ، وتصور الاحتمالات ، لوجد الباب واسعاً لمثل هذه التأملات ! فقد كان من الممكن أن تبقى مصر مستعمرة فرنسية منذ ذلك الحين الى الآن ! ولقد كان من الممكن أن ينجح نابوليون في الاستيلاء على عكه والتوسع في مطامعه وأمانيه وآماله في الشرق ، كما صرح بذلك « لبورين » في حديث سنأتي عليه . وكان من الممكن — نتيجة لازمة لذلك — أن لا يعود بالسرعة الى فرنسا ليقبض على صولجان ملكها ، ويدوخ المالك ، ويثمل العروش ، ثم يهوى كما يهوى الشهاب النازك !

ولقد أكد الثقة أن الدولة العثمانية ما كانت لتتضم الى انكترا في محاربتها فرنسا ، وتتفق مع الروسيا ، عدوتها التاريخية ، لذلك الغرض ، الا بعد أن وثقت أن قوة فرنسا في البحر الأبيض المتوسط قد تلاشت بعد وقعة أبي قير البحرية التي يقول عنها الانكيز في كتاباتهم: « انها لم تكن انتصاراً لحسب ، بل كانت فتحاً » ! وليس مما يهجم المؤرخ المصري أن يتوسع في تفصيل الحركات الحربية لتلك الواقعة ، اذ سواء أخطأ الأميرال « برويز » في أنه لم يعمل بنصيحة نابوليون ، ويذهب بالأسطول الى جزيرة كورفو... وسواء أخطأ في أنه حين أبصر الاسطول الانكيزي لم يقابله في عرض البحر بدلا من البقاء راسياً في مياه أبي قير ، وسواء أظن أن نلسون لا يهاجمه ليلاً لم يظن فذاك مباحث تمه كتاب الانكيز والفرنسيين والاختصاصيين من رجال الحروب البحرية . وأما نحن فلنا النظر الى النتائج وأثرها في وطننا المصري وأمتنا المصرية . ويكفيينا في هذا المقام ، من قبيل ما تقضى به الضرورة التاريخية ، أن نذكر أن الأميرال نلسون بعد أن رفض السيد محمد كريم السكندري السماح بتموينه^(١) ، اضطر الى مغادرة الاسكندرية قبل قدوم العمارة الفرنسية بثلاثة أيام ثم قصد سواحل الشام لأخذ

(١) راجع صحيفة ٩٤ من هذا الكتاب

ما يلزمه من الماء والمؤونة ، ثم عاد أدراجه الى المياه المصرية بعد شهرين تقريباً ، فأبصر السفن الفرنسية في خليج أبي قير فلم ينتظر منها أن تلم شعنها ، بحضور بحارتها الذين كان الكثير منهم في الاسكندرية ورشيد . وكان من صفات نلسون المعروفة ، الاقدام والجرأة والمجازفة ، وبذلك استطاع في ليلة واحدة أن يحطم السفن الفرنسية ، وأن يحرق ويفرق الكثير منها ، بحيث لم يبق من تلك العمارة الكبيرة ، الا بضع سفن صغيرة بقيت في مياه أبي قير استعمالها نابوليون بعد لنقل المدافع الى يافا في حملته على الشام ، واستطاع الكونتر أميرال فيانوف^(١) الهروب ببضع سفن فرنسوية الى جزيرة صقلية ومنها الى فرنسا

ولقد بلغ من انتهاك قوة الأسطول الانكليزي بعد هذه الواقعة الهائلة ، أنه لم يستطع القضاء على البقية الباقية من السفن الفرنسية ، وان كانت قد وقعت هذه السفن الباقية ، عند الحملة الشامية ، غنيمه لسفن الأسطول الانكليزي تحت قيادة السر سدن سميث .

ولنا بوليون أقوال كثيرة في الانتقاد على الأميرال (برويز) الفرنسي وعلى الكونتر أميرال فيانوف الذي كان في إمكانه — على رأى نابوليون — أن يعود بالسفن التي فر بها ليقضي على الأسطول الانكليزي في نهاية الواقعة في منتصف الليل أو في الصباح . ولكتاب الفرنسيين مناقشات كثيرة في هذا الموضوع ، بين مخطئ ، ومصوب ، ومنتقد على برويز ، ومعارض لنا بوليون ، نضرب عنها صفحاً ، لانها كما ذكرنا خاصة بهم ، غير أنه لا يفوتنا أن نذكر أن الفريقين من المتحاربين في واقعة أبي قير — فرنساويين وانجليز — رجالاً وضباطاً وقادة ، قد أظهروا في ذلك الموقف العصيب من صفات الشهامة والبسالة والتفاني في خدمة

(1) Contr-Amiral Villeneuve

(فيلنوف) أميرال فرنسي ولد في سنة ١٧٦٣ ورق في سنة ١٨٠٤ الى الاميرالية . وكان فيانوف سيء الطالع وشؤماً على الاسطول الفرنسي . في واقعة الطرف الاغر اضطر لنسف سفينه حتى لا تقع في يد الانكليز وهلك في هذه الموقعة سبعة آلاف فرنسي وغرقت ١٧ سفينة واسر الانكليز فيلنوف ولما عاد الى فرنسا سنة ١٨٠٦ اتجر في غرفة بأحد الفنادق لاسباب لم تشر الا بعد اثنين وعشرين سنة من وفاته

الوطن ، ما يجب أن يبقى درساً للأجيال الخالفة ، وأن تتعظ به الامم ، وتتفاخر به الدول ، فقد أصيب الأميرال (برويز) بقنبلة ألقته صريعاً على ظهر باخرته لاوريان - (الشرق) وأرادوا نقله الى سفينة أخرى فقال « أتركوني أموت هاهنا »! وأصيب نلسون الأميرال الانكليزي باصابات قطعت لحم جبهته فأنهدل على عينيه وظن أنه ماتت ، ومع ذلك رفع اللحم بيديه الى جبينه وعصبه ، بقي يصدر الأوامر لمتابعة القتال ! .. وحكاية ذلك القتى « كاسبلانكا » ابن الضابط كاسبلانكا الذى بقى والنار تحرق الباخرة أوريان ، لا ينتقل من مكانه لان أباه أمره بالبقاء فيه حتى احترق !! الى غير ذلك من الروايات التى تهنز الاوتار الحساسة ، وتولد عواطف الحماسة ، وتحل في أعقاب الأمم الراقية شعور الوطنية والعواطف القومية ؛ ولقد سبق لنا أن ذكرنا أن نابوليون علم بنكبة أسطوله ، وهو قادم من الصالحية ، ثم بنشوة الفرح والظفر على ابراهيم بك ومن معه ، وان يكن قد ساءه عدم استطاعته الحصول على ما كان مع ابراهيم بك وبقية الأمراء والمصريين من الثروة والخيرات ، وقد روى « بوريين » فى مذكراته أن كليبر قومندان الاسكندرية إذ ذاك ، لما علم بنتيجة واقعة أبي قير ، أوفد للقاهرة ضابطاً من أركان حربه ببيان مفصل فلما وصل الى القاهرة لم يجد نابوليون بها والتقى ببوريين كأنهم أسراره ، فلم منه بتفاصيل الواقعة وكلفه بالسفر الى الصالحية لملاقة القائد العام ، وهناك التقى به على بعد فرسخين من الصالحية .

روى كتاب الفرنساويين أن نابوليون لما تلقى نبأ تلك الفاجعة أظهر التجلبد ، وأسرع بالعودة الى القاهرة ، فدخلها فى يوم ١٥ اغسطس . وكانت الأخبار قد أشيعت فى القاهرة ، وشملت الكآبة من علم بذلك من الضباط والقواد . وقد روى الشيخ الجبرتي الحكاية الآتية . بمناسبة شيوع أخبار معركة أبي قير قال :

« تحدث الناس بتلك الأخبار فصعب على الفرنسيين واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد احمد الزور من أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك فأمروا باحضاره وذكروا لذلك (كذا فى الأصل) فقال

أنا حكيت ما سمعته من فلان النصراني فأحضره أيضاً ، وأمروا بقطع لسانها
أو يدفع كل واحد منها مائة ريال فرنسية نكالا بها ، وزجرا عن الفضول فيما
لا يعنيهما ، فتشفع المشايخ فلم يقبلوا فقال بعضهم أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدرهم فلم
يرضوا فأرسل الشيخ مصطفى الصاوي فأحضر مائتي ريال ودفعها في الحضرة »

فتأمل في هذه المعاملة الغريبة التي يظهر منها تمييز الفرنسيين وشديد رغبتهم
في أن لا يذاع نبأ تحطيم عمارتهم ، ويظهر أن الفرنسيين الذين فعلوا ذلك لما أحضر
الشيخ الصاوي التقود خجلوا من أنفسهم ، ووبختهم ضمائرهم ، إذ يقول الشيخ الجبرتي
« فلما قبضها الوكيل ردها ثانية إليه وقل فرقتها على الفقراء فأظهر أنه فرقتها كما
أشار وردها الى صاحبها ، فانكف الناس عن التكلم في شأن ذلك »

وكان وقع الخبر بطبيعة الحال على الفرنسيين شديداً ، والذي يقوله « ميو »
في مذكراته ، يعبر عن شعور الفرنسيين ، لان « ميو » كما سبق أن ذكرنا ، كان
مع نابوليون في محاربة ابراهيم بك ، وعلم بالخبر عند قدوم رسول كبير بالقرب من
الصلحية ، وقد أكثر « ميو » من الندب والعيول قائلاً : « يارب كيف تنتهي
هذه الحملة في مصر ؟ وكيف تؤمل المساعدة وقد حيل بيننا وبين بلادنا ؟ أنعيش
في مصر بقية حياتنا ، بعيدين عن أولادنا وآبائنا وأزواجنا وخليلاتنا ؟ فقدنا كل
هذا وأصبحنا في ديار مقفرة ، وبين قوم لا نألفهم ولا يألّفوننا الخ !! » . وقال بوربين :
« بالرغم من تجلد نابوليون وتدريعه بالصبر ليعث الطمأنينة في قلوب القواد والضباط
والجنود ، فانه كان كلما صار على انفراد معي يبدي الجزع ، ويظهر الغيظ والحنق ،
قائلاً : « إن حكومة الديركتوار ، مؤلفة من رجال سفلة أدنياء فهم يحسدونني
ويبعضونني ، وأحب ما يحبون أن أفنى أنا ومن معي في هذه البلاد ، فضلاً عن
كل هذا أفلا ترى أن جميع الجنود يتذمرون ولا يود واحد منهم الإقامة هنا » .
وقل بوربين أيضاً « وعبئاً كنت أهدى ، خاطره وأعز به بقولي : حقيقة إن الخطب
جلل ، ولكنك كان يكون أشد وأنكى لو أن نلسون عثر بالحملة وهي قادة لمصر
وحطم عمارتنا وأغرقنا مع جنودنا ، أو لو بقي نلسون في الاسكندرية أربعين وعشرين

ساعة لسكانت القاضية علينا . أما الآن فنحن حكم هذه البلاد ، ولدينا الجنود
والذخائر ، والخيبرات والاموال »

* * *

— ٢ —

سياسته بعد المعركة

كان نابوليون رجلا في مقتبل عمره ممتلىء الصدر بالآمال الكبار ، حديد
العزيمة ، قوى الارادة ، فلذلك وطد همته على النظر الى مركزه الجديد بعين الحكمة
تجمع لديه نخبة قواده وأركان حربه وألقى عليهم خطاباً حماسياً يحرك الأشجان إذ
قال لهم « إن كانت الظروف قضت علينا أن نبقى ها هنا وأن نقوم بأعمال عظيمة
لمنقم بها ! وإن قضت علينا أن ننشئ مملكة واسعة فلننشئها ! وإن كانت البحار
فالتى ليست لنا فيها سيادة ، قد فصلت بيننا وبين وطننا فإنه لا توجد بحار تفصلنا عن
أفريقيا وآسيا ! وها نحن كثير والعديد والعدة ، وإن لزمنا جنود أخرى فاننا نجد
من هذه الديار وغيرها ، وإن لزمنا ذخائر فعلى شامبي وكوتيه^(١) أن يقوموا بصنعها
لنا . فلنكن عظاما ولنفعل العظام ! »^(٢) ثم أخذ يشرح لهم مركز القطر المصرى ،
وموارده الطبيعية التى تحتاج الى حسن تدبير ونظام كي يعود الى ما كان عليه من الثروة
فى الأزمان الماضية ، واذا ساعدت تلك الموارد الطبيعية الصناعة الحديثة ، والعلوم
العصرية ، أمكن أن توجد على شواطئ النيل دولة عظيمة الشأن . ثم ذكرهم بأن
مركزهم فى مصر حصين ، تحده من الشرق الصحراء ومن الشمال البحر ، وأن أول
واجباتهم أن ينشطوا الجنود ، وليذكروا دائما أن الصفات الكريمة فى الانسان إنما تظهر
فى أوقات الشدائد ، وختم خطابه قائلاً « يجب علينا أن نرفع رؤوسنا ، ونصعد على
الموجة ، ونهزأ بالعواصف والزلازل ، فربما قد قدر لنا أن نذير صحيفة الشرق وأن
نضع أسماءنا بجانب أسماء أولئك الرجال العظام الذين خلد التاريخ أسماءهم^(٣) »

كان نابوليون فى « الدور الاول » يريد أن يجعل مصر مستعمرة فرنساوية

(١) من علماء الحملة (٢) عن لاکروا نقلا عن املاء نابوليون فى سانت هيلانة

(٣) عن هربرت فيشر

تتصل بفرنسا ، وأما في هذا الدور - بعد أن حيل بينه وبين وطنه - فقد صمم على أن يجعلها دار إقامة ، وقصبة ملك كان يحلم به في الشرق ، كما هو ظاهر من كلماته التي القاها على ضباطه ، ولذلك كانت خطته السياسية في هذه المدة ، التوسع في استجلاب رضاء المصريين والتقرب منهم ، والامتزاج بهم ، فكأنما يقول : أما وقد قضى علينا بالبقاء مع هؤلاء القوم فلنجتهد في إدراك تصوراتهم وفهم معتقداتهم ، والاشترك معهم في أخلاقهم وعاداتهم . ولطالما قيل أن نابوليون أسلم أو ادعى الاسلام ، والمؤرخين مناقشات في هذا الصدد سنأتى على شيء منها بعد ، والمؤكد في الامر أن فكرة إسلام نابوليون ترجع الى هذه الفترة .

يجوز لنا أن نتصور بحق أن نابوليون ، وقد أدرك واعتقد أو تصور (لانه لم يكن قط يحلم بأنه يستطيع العودة الى فرنسا ويؤسس فيها ما أسسه من الملك والصولة والامبراطورية العظيمة) أنه وقد حيل بينه وبين بلاده ، فإنه سيبقى في هذا الديار وقيم فيها سلطة تضارع سلطة المالك ، مثل السلطان حسن أو الغورى أو بيبرس أو صلاح الدين (ولم يكن الكثيرون من المالك مسلمين أصلاً) .. ولا يبعد أن نابوليون ، مع ما أوتى من سعة القرحة ومضاء العزيمة ، وبعد الخيال ، قد صور لنفسه وفي نفسه مملكة مصرية يملكها بونابرت ، تتسلط على البحر الاحمر و بلاد العرب والشام أيضاً ، ويتم له في مصر ما تم لمحمد على ، رهوا كفاءته سياسة واكثر علما ، ومعه رجال من الدرجة الاولى في الكفاءة العلمية .. فلماذا لا تكون فكرة الاسلام قد توطدت في نفسه واعتمدها ، وكان من الممكن - اذا لم يستطع مبارحة القطر المصرى - أن يقوم بتنفيذها ! وأي خيال يستطيع أن يصور لنا ماذا كان مستقبل مصر ، لو أن نابوليون أسلم حقيقة ، وصاغ مصر والشرق على درجة ما استطاع أن يفعل بعد في فرنسا !! وكانت الصفحة الثانية من سياسته الداخلية تقضى عليه بان يهيء لضباطه وجنوده أسباب الراحة والاطمئنان ووسائل التسلية ، ليخفف عنهم ألم الحنين الى الوطن وليوطد عزيمتهم على البقاء في هذه الديار واتخاذها وطناً ثانياً .

وأما خطته السياسية الخارجية ، تبعاً لمقتضى ظروف هذا المركز ، فكانت ترمى

الى التودد الي الدولة العثمانية، وامراء المسلمين في الشام والحجاز
وسنأخذ الان في بسط الاعمال التي قلم بها نابوليون لتنفيذ هذه الخطة
في وجوبها المختلفة . أمامع المصريين فانه ما كادت تستقر قدمه في القاهرة حتى
أخذ يزور علماء الازهر وكبار المسلمين في دورهم ، ويدعوهم إليه ويحادثهم . ومنهم
علم أن موعد الاحتفال بوفاء النيل قد حان، فانهز هذه الفرصة لاقامة شعائر ذلك
الاحتفال بمزيد الابهة ومظاهر الافراح التي يألفها المصريون ، ويتخذها رجال
السياسة آلة لالهاء الشعوب ، وصر فيها عن أمور كثيرة ، بما في ذلك من إدخال السرور
على الجنود ، وصر فهم عن التفكير في حقيقة موقفهم

- ٣ -

حفلات ومظاهر

كان وصول نابوليون للقاهرة مساء يوم الاربعاء (٣ ربيع الاول - ١٥ اغسطس)
قال الجبرتي « ففي يوم الجمعة خاصة أمر صاري عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة
كالمادة ، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين ، ونادوا على الناس بالخروج الى
الزهة في النيل والمقياس والروضة على عاداتهم وارسل صاري عسكر أوراقا لكتخدا
الباننا (وكيل الوالي الذي بقى بعدخروجه وكان اسمه مصطفى بك)، والقاضي التركي
(الذي ابقوه في وظيفة القضاء الشرعي لافهام المصريين أن صفة السيادة العثمانية
محافظة) ، وارباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور في
صبيحة (يوم السبت ٦ ربيع الاول و ١٨ اغسطس)، وركب (نابوليون) بموكبه وزينته،
وعساكره وطوبوله وزموره، الى قصر قنطرة السد وكسروا الجسر بحضرتهم وعملوا
شك مدافع ونفوطاً (أى اطلقوا المدافع والصواريخ) حتى جرى الماء في الخليج
وركب وهم محبته حتى رجع داره»

وكتاب الفرنسيين يصفون ذلك الاحتفال بالتطويل ويقولون إن المصريين
على بكرة أبيهم فرحوا وطربوا ، وطبلوا وزمروا ، وأن المشايخ جمعوا بين الدعاء لله

سبحانه وتعالى، والصلوات على نبيه الكريم، وبين الدعاء لنا بوليون وباركوه وبجلوه !!
هذا وصاحبنا الجبرتي يقول «وأما أهل البلد فلم يخرج أحد منهم تلك الليلة للتنزه في
المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والتقيط والاردام والافرنج البلديين ونسائهم
وقليل من الناس البطالين» ! !

والمعلم ننولا الترك يقول في هذا الصدد « وكان موكبا عظيما ومحفلا جسيما
يذكر جيلا نجيلا ، وحرم الامان كل الناس ، وخرج الرجال والنساء من دون بأس ،
وصنع امير الجيوش وليمة عظيمة لسائر العلماء والاعيان ، وأهل الديوان والجنرالية
والفسالية (لعلة يعني أوفسية - الضباط) وحكام الخطوط المغربية ، وقد أعجبت
أهل مصر القاهرة ، تلك الاحوال الباهرة »

والفرق بين جلال الجبرتي وتحفظه ، والمعلم ننولا الترك ومغالاته ، غير خاف سببه
ويظهر أن نابوليون سرته نتيجة ذلك الاحتفال فأخذ يسأل عن الموالد والاعياد ،

فعلم أن المولد النبوي يقع في العاشر من شهر ربيع الاول ، فاستدعى اليه السيد خليل
البكري وقلده نقابة الاشراف ، بدلا من السيد عمر مكرم الذي سافر مع ابراهيم بك
واستقر بغزه ، قال الشيخ الجبرتي - وروايته في هذه الامور أصدق الروايات -
« ثم سأل صاري عسكر الشيخ خليل البكري عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه
كعادتهم ، فاعتذر بتعطيل الامور وتوقف الاحوال ، فلم يقبل (نابوليون) وقال لا بد
من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنسية معاونة ، وأمر بتعليق تعاليق (كذا)
واحبال وقناديل واجتمع الفرنسيات يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم
ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة (الجوقة الموسيقية العسكرية) الى بيت
الشيخ البكري ، واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره
وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية ، وعدة آلات ومزامير
مختلفة الاصوات مطربة ، وعملوا حرقا نفوطة مختلفة وصواريخ تصعد في الهواء »
وفي رواية كتاب الفرنسيين أن نابوليون أعطى السيد البكري الفأ وثمانمائة
فرنك (فاما أن يكون الريال الفرنسي ستة فرنكات ، والمعروف أنه خمسة ، أو أن رواية

الشيخ الجبرتي أقل تسعين ريالا) وأن نابوليون ذهب الى منزل السيد البكري حيث جلس بجوار المشدين الذين أخذوا في تلاوة القصة النبوية وكان يهتز معهم كأنما هو مشارك لهم في التلاوة والنعفات ، ثم مدت الموائد . كاد عددها يربو على عشرين مائدة نصبت على الطريقة الشرقية في بهو كبير ، وكانوا يجلسون على وسائل لا على كراسي وحول كل مائدة خمسة أو ستة أنقار ، وقد جلس نابوليون حول واحدة من هذه الموائد وبجواره السيد البكري ، وتفرق كبار قواده حول الموائد الأخرى يأكلون مع القوم بأيديهم

وكان منزل السيد خليل البكري إذ ذاك بالقرب من بركة الازبكية في الجهة الجنوبية من ميدان الاوبرا الحالي، حيث العمارة المطلة على الميدان الآن ، وكان السيد خليل البكري من الذين توددوا للفرنساويين كثيراً ، ولحق بسبب ميله اليهم متاعب كثيرة في أثناء الثقلبات والثورات التي سيجي ذكرها ، ولم يكن السيد خليل البكري المشار إليه من ذوى الاخلاق الفاضلة ، بل كان كما يؤخذ من ترجمته في وفيات الجبرتي ومن أخباره الواردة عنه - ، متساهلاً في أمور دينه على شاكلة أبناء الاسر العريقة في الحسب الذين أخذوا بأسباب النعيم والترف . وللجبرتي كلام طويل عن خروج ابنة البكري « عن حدود الحشمة مع فرنساويين » ، وعن السيد البكري ومملوكه ، نضرب عنه صفحاً ، وإنما أشرنا إليه من قبيل وصف الحالة الاخلاقية لبعض دعاة الامة في ذلك الحين . وللعلم نقولاً الترك يذكر السيد البكري ، بعد حكاية مولد النبي فيقول عنه « وقد كان السيد خليل البكري محباً لجمهور فرنساوية ، فلاجل ذلك بغضه الاسلام (أى المسلمون) المصرية »

وما كاد يفرغ نابوليون من هذا الاحتفال حتى فكر في تقليد إمارة الحج : قال الشيخ الجبرتي « وفي عشرين (ربيع الاول - أول سبتمبر) قلدوا مصطفى بك كتخذ الباشا على إمارة الحج فحضر إلى المحكمة عند القاضي ولبس هناك الخلع بمحضرة مشايخ الديوان ، والتزم بونايرته بتشهيل مهمات الحج » وقد نشر لاكروا خطاباً كتبه نابوليون في ذلك الوقت ليبيعث به الى الشريف غالب بن مسعود أمير مكة

ولم يرد لهذا الخطاب ذكر في الكتب العربية ، ولذلك رأينا أن تأتي على نصه :

الى الشريف غالب بن مسعود

« في الوقت الذي اثبتوك فيه بدخول الجيش الفرنسي الى مصر ، أرى من الواجب عليّ أن أوكد لك بان نيتي ترمي إلى تأمين طريق الحج الى مكة بكل الوسائل الممكنة وستبقى المساجد والاملاك التي للحرمين الشريفين في مصر كما كانت في الماضي لا يتنازعها فيها منازع
أننا أصدقاء لنبي المسلمين ولدينهم وسنعمل كما نستطيعه لارضائكم وللتودد الى الدين الاسلامي

أريد منك أن تعلن الناس في كل مكان أن قوافل الحج لا تلتقي في طريقها مقاومة بل ستكون محمية بطريقة تجعلها في مأمن من اعتداء البدو عليها

(بونابرت)

فانظر الى هذه الدعوى وتفهم منها ما كان يرمى اليه نابوليون في سياسته وهكذا أخذ نابوليون يتودد بجميع الوسائل للصريين وعلمائهم وكبرائهم فكانت أوامره للقواد الذين عينهم في جهات القطر المصري مشددة بضرورة المحافظة على عادات المصريين وتقاليدهم ، وعدم التعرض لدينهم وأموالهم وأعراضهم ، وكان يوصي بذلك جميع الضباط والجنود المقيمين في القاهرة وضواحيها ، ثم كان لا يفتر حذقة عن استرضاء المشايخ والسؤال عن خاطرهم ، والاجتماع بهم ، والتحدث معهم في المسائل العمومية وفي الاديان ، مظهرًا عظيم ميله الى الدين الاسلامي الي غير ذلك من وسائل التلطف وحسن السياسة ونهاية الدهاء

وكان مما التفت اليه ، للتأثير على جيشه وحمله على الرضى بجهاته ، أن شرع في الاستعداد لاقامة احتفال كبير يوم تذكّر تأسيس الجمهورية الفرنسية ، وكان ذلك اليوم يقع في ٢٢ سبتمبر ، ولكن نابوليون شرع في الاستعداد للاحتفال به في الاسبوع الاخير من شهر اغسطس ، عقب الاحتفال بالمولد النبوي مباشرة ، ونص الامر الذي أصدره ، لبيان برنامج ذلك الاحتفال ، مؤرخ في ٢٦ اغسطس . وهذا

الامر يقضى بأن تحنفل الجنود الفرنسية الموجودة في القاهرة حول بركة الازبكية،
والتي في الاسكندرية عند عمود السوارى ، والتي في الصعيد على أطلال طيبة
(مع أنه في ذلك التاريخ لم يكن «ديزيه» قد برح بجيشه الفاتح للصعيد بلدة بني سويف)
وقد وصف الجبرتي الزينات التي أقامها الفرنسيون للاحتفال بعيدهم هذا ، فقال
« إنهم أقاموا في وسط بركة الازبكية صاريا عظيما (مسلة) نقشوا عليها تصاوير سواد
في بياض ووضعوا قبالة باب الهواء بالبركة شبه بوابة كبيرة عالية (قوس النصر) من
خشب مقفص وكسوها بالقماش المدهون مثل لون الصارى ونقشوا عليها تصاوير
حرب الممالك المصرية معهم وهم في شبه المهزمين بعضهم واقع على بعض ، وبعضهم
ملتمت الى خلف ، وعلى موازاة ذلك من الجهة الاخرى بناحية قنطرة الدكة التي
يدخل منها الماء الى البركة مثال بوابة أخرى ، وأقاموا أخشابا كثيرة منتصبة
مصطفة منها الى البوابة الاخرى شبه الدائرة منسعة محيطة بمعظم فضاء البركة ،
بجانب صار عمود السوارى (المسلة) الكبير المنتصف المذكور في المركز ، وربطوا
بين تلك الاخشاب حبالا ممتدة وعلقوا بها صفيين من القناديل ، وبين ذلك تماثيل
لحراقة البارود وأقاموا في عمل ذلك عدة أيام ... » ولا ينقص وصف الشيخ الجبرتي
شيء ، سوى أن تلك الاخشاب المنتصبة كانت مائة عمود وتسعة أعمدة عدا رفع على
كل عمود منها راية وكتب عليها أسماء مديريات فرنسا ، وأن تلك التماثيل التي ذكرها
كانت بشكل هياكل نقش عليها أسماء الذين قتلوا في معارك الممالك بمصر

وفي الساعة السابعة من صباح يوم السبت (١١ ربيع الثاني - ٢٢ سبتمبر)
اصطقت الجنود على النظام الذي اعد لها وتقدم نابوليون يحف به قواده واركان حربه
ورؤساء المصالح وأعضاء المجمع العلمي (سيأتي الكلام عليه) وأعضاء الدewan
وكتبخدا الباشا ... ولترك للشيخ الجبرتي الكلام على طريقته اللذيذة قال :

« وفي حادى عشرة كان يوم عيدهم الموعود به فضربوا في صبيحته مدافع
كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة ، وضربوا طبوخم ،
واجتمعت مساكرهم بالبركة الخيالة والرجال ، واصطفوا صفوفها على طرائقهم المعروفة بينهم ،

ودعوا المشايخ وأعيان المسامين والقبطة والشوام، فاجتمعوا ببديت صارى عسكر وجلسوا
حصة من النهار، ولبسوا في ذلك اليوم ملابس الافتخار، ولبس المعلم « جرجس الجوهري »
كركة بطرز قصب على اكتافها الى اكمامها، وتلى صدرها شمسات قصب بزرار
(سترة تشريفة فرنساوية) وكذا « فلتيسوس » وتعمموا بالعمائم الكشميري، وركبوا البغال
القارهة، واظهروا البشر والسرور في ذلك اليوم الى الغاية. ثم نزل عظامهم (الفرنساوية)
وحصبتهم المشايخ والقاضي وكتخدا الباشا وركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير الموضوع
بوسط البركة، وقد كانوا فرشوا في أسفله بسطا كثيرة ثم أن العساكر لعبوا ميدانهم،
وعملوا هيئة حربهم (مناورة) وضربوا المدافع والبنادق، فلما اتقضى ذلك اصطلقت
العساكر صفوفها حول الصارى، وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم، لا يدري
معناها الا هم وكاتبها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ

وليت شعري : هل كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أحد المدعويين في ذلك
الاحتفال، حتى أنه شهده من قرب واشترك فيه؛ أو أنه كان من المنفرجين من بعيد؟؟
كل الدلائل تشير الى أنه كان من المدعويين، لانه كان من كبار العلماء الذين يشار
اليهم، وكان قبل من المقربين الى المالك، فلا يعقل أن تترك دعوته، وإن
سأه من لعلم جرجس الجوهري والمعلم فلتيسوس لبسهما تلك الملابس المقصبة، إلا
أن النقطة التي يصعب علينا تحقيقها، هي قوله أن كبير قسوسهم (الفرنساوية) قرأ عليهم
ورقة بلغتهم، ولم يك مع الفرنسيين قساوسة، فقد كانوا خرجوا من جميع الاديان
في الثورة، وكتاب الفرنسيين يقولون أن الذي تلا ذلك الخطاب على الجنود،
هو نابوليون نفسه؛ فكيف أخطأ الجبرتي في تمييزه بين « صارى عسكر بونابرتة »،
وبين « كبير قسوسهم »؟؟ وإن يكن من المحتمل كثيرا، أن يكون نابوليون قد
كتب ذلك الخطاب وعهد إلى أحد كبار العلماء بتلاوته، إلا أن « ميو » وهو أيضاً
شاهد عيان، يقول أن الذي خطب في الجنود هو نابوليون بصوته الرنان، والمعلم
تقولوا الترك وهو شاهد عيان آخر، لم يذكر شيئاً عن خطاب ما، وأحسن ماورد
في عبارته عن هذا الاحتفال قوله عن الصارى الكبير الموضوع في وسط الازبكية.

« إن الفرنسيين كانوا يسمونه شجرة الحرية ، وأما أهالي مصر فكانوا يقولون إن هذه إشارة الى الخازوق الذي أدخلوه فينا باستيلائهم على مملكتنا » !
وإني لأشك في أن عبارة المعلم تقولاً هذه صحيحة ، فهي وإن تكون من نكات العامة في مصر ، ومع أنها سخافة من سخافاتهم ، إلا أنها تعبر عن شعور القوم في ذلك الحين ! وغريب تصورهم أنه كانت لهم مملكة وضاعت ، مع أنهم كانوا دائماً عبيداً للحكام الماليك ، وهم لا يقولون في الاجنبية عن أولئك الفرنسيين ، سوى أن أولئك كانوا مسلمين (وإن كان إسلامهم ضعيفاً) ، وهؤلاء كفار ، لا يعرف لهم دين ولا عقيدة

فهذه قوة اليقين عند المسلمين ، وهذه عقيدتهم الدينية التي جعلت مصطفى كامل بعد هذا التاريخ بمائة عام ، — تغيرت فيها المذاهب ، وتبدلت فيها العقائد ، — لما حاجه بعضهم في تعلقه بالدولة العثمانية مع ظلم الأتراك ، واستبداد السلطان عبد الحميد ، وهو (أى مصطفى كامل) من طلاب الحرية والدستور !! ، يصرح في إحدى خطبه بقوله « إننا نقول وسيف السلطان على رقابنا : ليحي جلاله السلطان » وفي هذا قد عبر مصطفى كامل عن شعور المسلمين في جميع بقاع الارض . وعلى كل حال فنحن نأتى على نص خطاب نابوليون من المصادر الفرنسية لاهميته التاريخية :

* * *

« أيها الجنود

اننا نحتفل بتذكر اليوم الأول من السنة السابعة لاقامة الجمهورية الفرنسية .
فمنذ خمس سنوات كان استقلال الشعب الفرنسي مهدداً ولكنكم أنتم باستيلائكم على طولون قد قضيتم على مقاصد أعدائكم . ولم تمض سنة على ذلك حتى كنتم قد قهرتم النمساويين في موقعة ديجو (Dego) وفي السنة التالية كنتم تشرفون من قم جبال الألب (على المالك النمسية) ، ومنذ سنتين فقط كنتم مهاجمون أسوار مانوا (Mantuoua) ، وحزتم ذلك النصر الباهر عند قرية سان جورج . وفي السنة الماضية كنتم عند منابع نهري درافا والاسونزو ، عائدتين من انتصاراتكم في ألمانيا ! فمن كان يظن أنكم في هذا اليوم تكونون كما أنتم الآن على ضفاف نهر النيل ،

في وسط هذه القارة العتيقة؟ ! فاعلموا أن أمم العالم — من الانكليزي المتمدين الراقى إلى البدوي المتوحش — تنظر اليكم محدة .

أيها الجنود — إن مستقبلكم باهر لأنكم جديرون بما قمتم به من جلائل الأعمال، وجديرون بالحكم الذي يحكمون به عليكم، فلما أن تموتوا موت الأبطال الذين نقشت أسماؤهم على هذا الهرم، ولما أن تعودوا لوطنكم مكللين بغار الضفر والفخار، ومصحوبين باعجاب العالم من صغار وكبار؛ واعلموا أننا منذ برحنا وطننا ونحن موضوع رعاية وعناية أبنائه . وفي هذا اليوم يحتفل مثلكم أربعون مليوناً من الفرنسيين بخلع نير الاستبداد وبإقامة الحكم الدستوري، وهم في أفراحهم يذكرون أنهم مدينون لأعمالكم ولدمائكم في حفظ السلم ونمو الثروة والتمتع بالحريّة المدنية؛ « فلما فرغ من تلاوة هذا الخطاب الذي قصد به مع كل هذا الاحتفال، تملق مشاعر الجنود وتطيبب خواطرهم، هنفوا فاتحبي الجمهورية؛ وليحبي الجنرال بونابرت؛ وذهبت شردمة من الجنود تحمل الراية المثلثة الألوان إلى الجزيرة لتقيم تلك الراية على أعلى نقطة في الأهرام وعاد نابليون إلى داره . قال الجبرتي : « ثم رجع صاري عسكر إلى داره فمد سماً عظيماً للحاضرين فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل وعملوا حرافقة وسواريح .. إلى آخره .

- ٤ -

المسلمون والأقباط

إن يكن الشيخ الجبرتي قد ساءه من العلم جرجس الجوهري، كبير الأقباط في ذلك العهد، وتشجحه بتلك الملابس المذهبة في الاحتفال، وخروجه مع أمثاله عما اعتاده من الملابس التي ألفها المصريون، إلا أنه مع ذلك قد كان من المحبين للمعلم جرجس، ومن المعجبين به، وحقيقة يظهر من غالب ما كتبه الجبرتي عنه، أو من بقية الأخبار التي وردت عن ذلك الرجل، أنه كان من أكبر القوم، جامعاً لكثير من الصفات الطيبة، فهو لم يفعل مثل المعلم « يعقوب » الذي خرج عن حدوده وجمع له جنوداً من بعض فقراء الأقباط، وكاشف المسلمين بالعداوة، كما سيأتي في مكانه .

وقد ذكر الجبرتي في وفيات سنة ١٢٢٥ - ، بعد الحوادث التي نحن بصددھا باثنتي عشرة سنة - ، ترجمة المعلم جرجس الجوهري وأطراه . . قال : « مات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين ، وهو أخ المعلم ابراهيم الجوهري ، ولما مات أخوه في زمن رئاسة الامراء المماليك تعين مكانه في الرئاسة على المباشرين والكتابة ، وبیده حل الأمور وربطھا في جميع الأقاليم المصرية ، نازد الكامة ، وافر الحرمة ، وتقدم في أيام الفرنسيين فكان رئيس الرؤساء ، وكذلك كان مع العثمانيين لما كان يسديه إليهم من الهدايا والرغائب ، ورأيته يجلس بجانب محمد خسرو باشا (سيأتي ذكره في تاريخ محمد علي) وبجانب شريف افندي الدفتردار ، ويشرب بحضرتهم الدخان ، وكان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان من الشموع العسلية والسكر والارز والكساري والبن ، ويعطي ويهب ، وأنشأ داراً كبيرة عند قنطرة الدكة »

وبهذه المناسبة لأنبج مناصباً - خصوصاً وقد ذكرنا تقرب نابليون من المسلمين وعلمائهم وتودده لهم ولدينهم ومعتقداتهم - أن تقول كلمة في هذا المكان عن سلوك الفرنسيين مع النصارى عموماً ، والأقباط خصوصاً في ذلك العهد ، ولقد كنت أظن أن حنا بك شاروبيم يخصص في كتابه (الكافي) فصلاً لهذا الموضوع فلم أجده أعاره أدنى نظرة ، ولعل له في ذلك حكمة

ليس لدينا تعداد موثوق به عن سكان القطر في زمن الفرنسيين ، ولكن يؤخذ من المصادر الفرنسية أن عدد الأقباط كان في ذلك الحين من تسعين الى مائة ألف على رواية (لاكروا) ، أي نحو ثمن عددهم اليوم ، فاذا لاحظنا أن عدد المسلمين ، منذ ذلك الحين قد تضاعف خمس مرات (أي من مليونين ونصف مليون) تقريباً الى ثلاثة عشر مليوناً في الوقت الحاضر فيكون الأقباط قد تضاعفوا ثمانية مرات وهي نتيجة غريبة مع وجود تعدد الزوجات عند المسلمين ، ومع التساوي في حالة الرخاء والطمانينة في القرن التاسع عشر ، وربما كان عددهم أكثر مما ورد في رواية (لاكروا)

وليس بضائر الأقباط اذ ذلك أن يلجأوا الى الفاتحين ويتوددوا اليهم ،
ويفرحوا بقدمهم للخلاص من مظالم المالك وسوء معاملتهم وبقائهم محقرين في
بلد ، يعتمدون أنها في الأصل بلدهم ، وان كان الاقباط على ما اعتقد قد كانوا
أحسن حالا من مواطنيهم المسلمين ؛ لان الاقباط كانوا آلات المالك في تحصيل
الضرائب ، وكانوا كتاب أيديهم والمباشرين لاعمالهم الحسابية ، وأمورهم الداخلية ،
ومن ذا الذي كان من المصريين المسلمين في زمن المالك « في يده حل الامور
وربطها في جميع الاقاليم المصرية ، نافذ الكرامة موفور الحرية » مثل المعلم جرجس
الجوهري ، كما قال عنه الجبرتي؟

كان ظم المالك في الحقيقة واقعاً في الأ كثر على الفلاحين المسلمين ولم يكن
الأقباط في ذلك الوقت ممن يشتغلون بحراثة الأرض وزرعها ، كما انه قد كان في
دهاء الاقباط وحسن حيلتهم وصفاتهم الكثيرة التي أوجدتها أثر الاستبداد في نفوسهم ،
خير واسطة للتخلص من المظالم والتقرب من الحكم ، بما لا يتيسر في كثير من
الاحوال لمواطنيهم المسلمين ، وزد على هذا أنهم اكونهم فئة قليلة مستضعفة ، كانوا
أ كثر انحاداً ، وأحسن معاونة لبعضهم البعض من المسلمين ، بحيث اذا لحق واحد
منهم ظم وجدت كبراءهم في ذلك الزمن يذهبون الى الحكم ويتوسلون اليهم في
منع الظلم عن ابن طائفتهم

وعم هذا نقول لا غضاضة عليهم اذا فرحوا بقدم الفاتح الاجنبي تخلصا من
احتمال الظلم على كل حال . ولم يكن عند الاقباط ، ولا عند المسلمين في ذلك الزمن ،
عاطفة وطنية ، اذا لم يكن الوطن لهؤلاء ولا لهؤلاء ؛ واما اذا كان المسلمون بعكس
ذلك من حيث عدم الرضى عن الفاتح الاجنبي ، وميلهم للترك والمالك ، فذلك لاسباب
كثيرة أهمها الرابطة الدينية بينهم وبين دولة الخلافة الاسلامية ، التي لم يكونوا يعتبرونها
دولة أجنبية عنهم ، وبسبب هذا الشعور تمكن الاتراك من المصريين في مصر ،
وكذلك من العرب في آسيا ، وأبقوهم تحت سلطانهم الى عهد قريب جداً
والآن نبحث في : هل كان من وراء تودد الاقباط للفرنساويين فؤدة للاقباط؟

وترقية أحوالهم؟ الجواب على هذا صريح واضح، وهو أنه إن لحق المسلمين ظلم واحد من الغاصبين، فإنه قد لحق الاقباط ضعف ذلك، والقضية في هذا الشأن بدينية لا تخفى الا على عمى البصيرة الذين تغرهم الزخارف، والذين تخدعهم أقوال الفاتحين الاجانب وتوقعهم في حبال مكرهم. إذ لا نزاع مطلقاً في أن الفاتح الاجنبي إنما يعمل جهده لارضاء الاغلبية بالتودد لها والتقرب منها ولا يهمه أن يستضعف جانب الاقلية أو تهضم حقوقها. وتبقى دائماً هذه خطه مهما تظاهر بعكس ذلك أمام الاقلية بقصد غرس أسباب النفرة ليسود بالحكم من جراء النفرة

ولو كان نابوليون يثق بأنه اذا أباد الاقباط على بكرة أبيهم ينال ثقة المسلمين ويحل في قلوبهم محل العثمانيين، لما تأخر عن ذلك طرفه عين!! ثم هل ادعى نابوليون المسيحية الأدرثذكسية كما ادعى الاسلام وتظاهر بمدح الدين الاسلامي؟ وقد كان أقرب للتصديق في الاولى من الثانية!

خذ المثال الآتي: قال الجبرتي في حوادث شهر رمضان من تلك السنة «نبهوا الفرنسيين بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولاً، ولا يتجاهرون بالاكل والشرب في الاسواق، ولا يشربون الدخان ولا شيئاً من ذلك بمرأى منهم.. كل ذلك لاستجلاب خواطر الرعية حتى أن بعض الرعية من الفقهاء مر على بعض النصارى وهو يشرب الدخان، فأنهره فرد عليه رداً شنيعاً، فقتل ذلك التعمم وضرب النصرائي واجتمع عليه الناس وحضر حاكم الخطة، فرفعها الى قائمقام، فسأل من النصارى الحاضرين عن عادتهم في ذلك فأخبروه عن عادتهم القديمة أنه اذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون في الاسواق ولا بمرأى من المسلمين أبداً. فضرب النصرائي وترك التعمم اسبيله!»
وذكر الجبرتي في حوادث يوم ٨ جمادى الآخرة قال «وفيه قتلوا (الفرنساوية) أربعة أنفار من القبط قيل إنهم سكروا في الخمارة وعربدوا فاغتاط لذلك القبطلة»
وقس على هذا كثيراً

ولكن الاقلية مع الاسف تنسى دائما هذه الحقيقة البديهية ، ونعني بها سعى الفئاح الاجنبى فى إرضاء الاكثرية ، فاذا حدثت قلاقل ومشاكل يحرض ذوو الاغراض من الطرفين الطبقة الواطئة فتتسع الهوة ، ثم متى تأكد الحاكم الاجنبى أن الاكثرية غير راضية عنه وغير ممكن استجلاب خواطرها ، كما تأكد ذلك الفرنسيون بعد ، فانه يأخذ فى إيفار صدور الفئة القليلة ويظهر نحوها انعطافه وحمائته فيحدث مثل ما حدث من المعلم يعقوب وتأليفه فرقة من فقراء الاقباط لمقاومة المسلمين ومحاربتهم ، وكانت عاقبة ذلك وبالاعلى شخصه هو ، حتى اضطر أن يهجر وطنه ويسافر مع الفرنسيين عند خروجهم ، كما سيحدث ذلك مفصلا فى مكانه

إلا أنه من مصلحة الاغلبية ، أكثر مما هو فى مصلحة الاقلية ، أخذ الاغلبية للأقلية تحت جناحها بما تظهره نحوها من واجب الانعطاف ، وما تبديه من حسن الصلات ، لأن الاقلية فى كل زمان ومكان مستضعفة ميالة إلى المودة والرعاية ، فاذا قبلتها الاكثرية فى ربع الطريق قطعت لها الأقلية ثلاثة أرباعه الباقية ، وباجتماع الكلمة تسهل للاكثرية مقاومة الاجنبى ، ومصادمة الحوادث ، ومقارعة الدسائس ، دون أن تشعر بثغرة فى حصنها ، أو ثلمة فى درعها ، أو فلول فى سيوفها . وبهذا تقضى السياسة والمصلحة ، وبهذا يقضى العدل ، وبهذا تقضى الوطنية ، بل بهذا يقضى الدين نفسه الذى يتخذ الفريقان آلة للتفريق .

والخلاصة أن أبناء الوطن الواحد متكاتفون متضامنون ، إن أصاب فريقاً منهم خير أصاب الآخر ، فإن أصلح الحاكم ، أجنيا كان أو غير أجنبى ، عم الإصلاح ، وإن أفسد ثم الخراب ولحق الواحد ما يلحق الآخر ، واليوم الذى يكون رائد المسلمين والاقباط الوطنية ومصلحة الوطن ، مع انصراف كل فريق لاصلاح شؤونه الخاصة به ، هو اليوم الذى يقال فيه إن مصر قد تكونت فيها قومية متماسكة جديرة بأن تحمل المحل اللائق بها بين الامم الراقية .^(١)

(١) كتبت هذه الكلمة فى سنة ١٩١٦ - خلال الحرب قبل اتحاد المسلمين والاقباط فى نهضة مصر الاخيرة ، ويدرنى انى اصبت كبد الحقيقة ، واستعجلت الحوادث ، ادام الله اتحاد الامة المصرية

سياسة الانشاء للمبقاء

كان من مقتضى سياسة نابوليون في هذا الدور أن يدرس طبيعة البلاد ويقف على جميع مواردها ويجمع الوسائل التي يستطيع بها طول البقاء فيها ، وبالجملة يوطن نفسه ومن معه على الرضاء بمصر والاستفادة منها ، وإن أمكن فليجعلها النقطة المركزية لفتوحاته وآماله في الشرق . ولكي يصل الى هذه الغاية فكر في انشاء المجمع العلمى المصرى (انسيتو ديجيت) الذى لا يزال موجودا بالاسم الى الآن ، يجمع بين أعضائه فى الوقت الحاضر زمرة من اهل العلم والفضل من الاجانب وبعض المصريين وكان صدور أمره بذلك فى ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ ولا حاجة بنا الى تعريب نص ذلك الامر، بما فيه من بيان اختصاصات ذلك المجمع وجلساته وأعضائه وأعماله، ولكننا نكتفى لفائدة التاريخ بالبيان الآتى :

يتألف أمر نابوليون بانشاء المجمع العلمى المصرى من ستة وعشرين مادة أهم ما فيها أن الغرض من المجمع (١) تقديم ونشر العلوم والمعارف فى الديار المصرية (٢) بحث ودراسة وطبع المباحث الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر (٣) استشارته فى المسائل المختلفة التى ترى الحكومة عرضها عليه . ومن هذا يرى أن المجمع انشئ ليؤدى وظيفتين، علمية بجمته وادارية حكومية، لتسهيل مهمة القائمين بادارة الاحكام . وجاء فى المادة الثالثة من هذا الامر أن المجمع يؤلف من اربع دوائر . وقال فى المادة الرابعة إن هذه الدوائر الاربع هى للرياضيات ، والطبيعات ، والاقتصاد السياسى ، والآداب والفنون . والمادة الخامسة قررت أن تتألف كل دائرة من اثني عشر عضواً وينتخب للجميع رئيس ووكيل وسكرتير ومدير أعمال ، وقرر أن تطبع اعمال المجمع كل ثلاثة شهور ، وعين أول رئيس للمجمع العالم الكبير مسيو مونج Monge وخص نابوليون بوكالة الرئيس ، ومسيو فوريه Fourier سكرتيرا ومسيو كوستاز Costaz لادارة الاعمال

قال لا كروا : إن إنشاء المجمع لفت نظر الاهالى فان المكتبة وجميع الآلات والادوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية والنباتات المختلفة والاحجار المتنوعة التي جمعها العلماء لتحقيق مباحثهم ، وما اشبه ذلك من الامور ، استمدعى اهتمام الاهالى فصاروا يفكرون في الاسباب الداعية لهذه المساعي ، حتى لقد خيل لهم أن الغرض منها صناعة الكيمياء أو صناعة الذهب ! ولكن لما أدركوا الغرض الحقيقي من ذلك تحببوا الى العلماء وتقربوا اليهم ومال اليهم المتعلمون من المصريين وكثير من الطبقة الواطية من اصناف العمال والصناع الذين كان العلماء يسألونهم عن صناعاتهم وأعمالهم .

ولنرجع الى شيخنا الجبرتي فهو من اهل العلم الذين يقدرون القائلين به حق قدرهم . ولقد كتب في هذه النقطة مطولا معجبا مثنيا على الفرنسيين وعلومهم ومباحثهم ، مما يدل على سعة صدر وشغف بالعلم . ولا بأس هنا أن ننقل مثالا من أقواله في هذا الصدد لانها مقياس لدرجة الرقي العقلي في الامة المصرية في ذلك الزمن . قال « وافردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية ، كالفنندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والمكتبة والحساب والمنشئين ، حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت ، مثل بيت قائم بك وأمير الحج المعروف بأبي يوسف ، وبيت حسن الكاشف جركس القديم والجديد الذي انشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد » ! وقل عن المكتبة:

« وانيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطالبة ومن يريد المراجعة . فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء من الكتب فيحضرها الخازن فيتصفحوه ويراجعون ويكتبون حتى أسأفلهم من المساكر »

وقال عن تلتفهم مع المصريين « واذا حضر اليهم بعض من المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنونه من الدخول الى أعز أما كتبهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بهجيته ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع

التصاوير وكرات البلاد والاقليم والحيوانات والطيور والنباتات ، و تواريخ القدماء
وسير الامم وقصص الانبياء ، ولقد ذهبت اليهم مراراً ورأيت عندهم كثيراً
من الكتب الاسلامية مترجما بلغتهم ، فمن ذلك كتاب الشفاء للقاضي عياض ،
والبردة للبوصيري ترجموها بلغتهم ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من اقرآن ولهم
تطلع زائد للعلوم (١) » وقال :

« وافردوا جماعة منهم بيت ابراهيم كتبخدا السنارى وهم المصورون لكل شىء
ومنهم اريجو المصور وهو يصور صورة الادميين بشكل يظن من يراه أنه بارز في
الفرغ ، مجسم يكاد ينطق ، حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد منهم على حدة في
دائرة وكذلك غيرهم من الاعيان (٢) » وآخر في مكان يصور الحيوانات والحشرات
وآخر يصور الاسماك والحيتان بأنواعها واسماها ، ويأخذون الحيوان أو الحوت
الغريب الذى لا يوجد بلادهم فيضعون جسمه بذاته في ماء مصنوع حافظ للجسم
فيبقى على حالته وهيبته لا يتغير ولا يبلى ، ولو بقى زمناً طويلاً . . . وسكن الحكيم
(روياً) (٣) بيت ذى الفقار كتبخدا ووضع آلاته وساحته وأهوانه في ناحية ،
وركب له كوابين وتنانير لتقطير المياه والأدبان واستخراج الاملاح
وافردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة المسكة والطب الكيماوى »
وذكر الجبرتى بعض عمليات كىاوية وطبيعية عرضت عليه مما لا يخفى أمره
اليوم على تلامذة المدارس في المعامل الكيماوية والطبيعية ! ولكنه يقول عنها « ولهم
في ذلك أمور كثيرة واحوال وترا كيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا تسعها
عقول امثالنا »

رحمك الله يا شيخ جبرتى وبرد تراك! لوعشت لرأيت أن عقول أولاد أحفادك
وسعت أكثر من ذلك! وما هو الا جهل الحكماء ، واستبداد الظالمة الذى جعلك

(١) كان مع نابوليون من المستشرقين قاتورا الذى سمعت الاشارة اليه وكان معه أيضاً
الاساتذة ريج وبلييه وشيزى ولاپورت وجوبير Jaubert, Laporte, Chezy Bellest, Raige.
(٢) هذه الصور محفوظة في متحف فرساي وقد رأيتها هناك وهى
صور باثريت المعاشيق القرقاوى والمهدى والبكرى والسادات (٣) أظنه الدكتور Larrey
الجراح الشهير في حملة نابوليون

تتصور استحالة ادراك تلك المبادئ من العلوم - علوم أولئك الذين كانوا همجا
وبربرة ، في الوقت الذي كانت مدارس بغداد وقرطبة وسمرقند والقاهرة نفسها ،
تقيض بالعلم والنور !! وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون

وهنا يجب أن نقول إن الحملة الفرنسية إن كانت قد فشلت من حيث هي ،
ولم تخلف وراءها لدى المصريين سوى الآثار المحزنة ، والتذكريات المؤلمة ، إلا
أن العمل العلمي الذي قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير
مما سنأتى على خلاصة وافية له في المكان اللائق به ، قد غطى على تلك العيوب
وأبقى الى اليوم أثراً علمياً فخرأً باهراً ، إن لم يكن قد أفادنا من وجهة مباشرة
فائدة مادية عملية ، وحتى وإن لم تستفد منه فرنسا ما أملته ، إلا أن ذلك لا يمنع
من الاعتراف بأنه عمل تطاطى ، أمامه الرؤوس اجلالا وإكبارا

الاستعداد الحربى

لم يكن ليخفى على نابليون انه في مصر محاط بالأعداء من الجنوب والشمال
والشرق والغرب، ففى الجنوب مراد بك ومعها قوة كبيرة من المماليك تعضده العربان
الحوارة وعرب الحجاز أيضاً، وقد وقف القراء على مطاردتهم لمراد بك فى القصل
السابق ، - ومن الشمال الأساطيل الانكايزية تهر ذاهبة وآتية تقطع عليه السبيل ،
بل وتحصره ومن معه حصراً تجارياً وعسكرياً ، ولا يزال ابراهيم بك ومن معه
من المماليك على حدوده الشرقية ، فى أول بلاد الشام ، وكذلك عرب درنة
وقبائل البدو من أولاد على والهنادى يناوشونه ورجاله من آن لآخر . فلذلك
وجه نابليون همته إلى تحصين البلاد وإقامة الطوائى والحصون حول القاهرة

وقد ابتداء الانكايز يدسون له الدسائس ويحرضون عليه الأتراك . قال الجبرنى
فى حوادث شهر ربيع الثانى « وفى ثالثه (الجمعة ١٤ سبتمبر) حضرت مكتبة من

ابراهيم بك خطاباً للمشايخ وغيرهم مضمونها : لانكم تكونون مطمئنين ومحافظين على أنفسكم والرعية وإن حضرة مولانا السلطان وجه لنا عساكر وإن شاء الله عن قريب سنحضر عندهم . فلما وردت تلك المكاتبة وقد كان سأل عنها بونابرت فأرسلوها له وقرئت عليه فقال : المالك كذابون . ثم لم يكن ليخفي على بونابرت أيضاً أنه على الرغم من كل ماعمله من أسباب التودد والتقرب الى المصريين ، فإن التوفيق بين الفريقين لا يزال بعيداً . . . وكيف يتصور عكس ذلك ولديه في كل وقت شاهد على ميل المصريين للعثمانيين ؟ ؟ فن الحوادث التي لا يخفي معناها على مثله أن أحد الأغوات الأتراك حضر من الاسكندرية في ذلك التاريخ بقصد زيارة المشهد الحسيني قل . الجبرتي « فشاهده الناس واستغربوا هيئته ، وفرحوا برويته ، وقالوا هذا رسول الحق ! (تأمل هذا التعبير) حضر من عند السلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر (وتأمل هذا أيضاً) ، فاختلقت روايات الناس وآراؤهم وأخبارهم وتجمعوا بالمشهد الحسيني وتبع بعضهم بعضاً وصادف أن بونابرت في ذلك الوقت بلغه مما نقل وتناقل بين الناس من أنه ورد مكتوب إلى المشايخ أيضاً وأخفوه فركب من فوره وحضر الى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسيني ، ثم جلس مقدار ساعة وركب ومر بعسكره من باب المشهد والناس قد كثر ازدحامهم بالجامع والخطاة (بسبب ذلك الأغا) وهم يلغظون ويخلمطون . فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله أمر من ذلك فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال « الفاتحة » ، فشخص اليهم وصار يسأل من معه عن ازدحامهم فلطفوا له القول وقالوا له إنهم يدعون لك ! وذهب الى داره وكادت تنشأ من ذلك فتنة » فلا غرابة إذا رأينا نابوليون يعمل جهده لتحسين القاهرة ، وحث رجاله واهل العلم منهم ، على الاسراع في تحضير الادوات الحربية ، وصناعة البارود والقنابل وأصدر أمره بإخراج سكان القلعة من منازلهم والسكنى بالمدينة . قال الجبرتي في حوادث شهر ربيع الثاني :

قال: «ومات الوجيه الأمثل السيد محمد كريم السكندري مقتولا بيد الفرنسيين»
(وبعد أن ذكر شطراً من ماضيه الذي سبق لنا الكلام عنه) قال: «فما حضرته الفريسي
ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وحبسوه في مركب
(وهذا غير صحيح . ولكن الجبرتي يريد أن يبرئه أولاً من ممالأته للفرنسيس
وخدمته لهم ، مع أنه وصفه في ماضيه بالظلم والاستبداد) ، ولما حضروا الى مصر
وظلعوا قصر مراد بك ، وفيه مطالعة باخبارهم ،^(١) وبالحث والاجتهاد على حربهم
وتهوين أمرهم وتنقيصهم ، فاشتد غيظهم عليه فأرسلوا وأحضروه وحبسوه فشفع
فيه أرباب الديوان عدة مرار فلم يمكن ، وجاءه « مجالون » (كان قنصل فرنسا مع
كريم في اسكندرية) وقال له المطلوب منك كذا وكذا من المال وذكر له قدرأ
يعجز عنه . وأجله اثنتي عشرة ساعة وإن لم يحضر ذلك القدر والا يقتل بعد
مضيها ، فلما أصبح أرسل الى المشايخ والى السيد احمد المحروقي فحضر اليه بعضهم
فترجاهم . وصار يقول اشتروني يامسلمين ، وليس بيدهم ما يقتلونه به ، وكل انسان
مشغول بنفسه ، ومتوقع لشيء يصيبه (لاحظ اضطراب الخواطر في هذه العبارة)
وذلك في مبادئ أمرهم ، فلما كان قريب الظهر ، وقد انقضى الأجل ، أركبوه
حماراً واحتاط به عدة من العسكر الى أن ذهبوا الى الزميلة وكنفوه وربطوه مشبوحاً
وضربوا عليه بالبنادق ، ثم قطعوا رأسه ، وطافوا بها في جهات الزميلة ، وهم ينادون:
« هذا جزاء من يخالف الفرنسيين »

ولصاحبنا المرحوم الحاج عبد الله براون الانكليزي المستشرق في كتابه
(بوابرته في مصر) أعجاب بالسيد محمد كريم وقال عنه إنه أبي دفع الفدية ومات
شهما مقداما !! وما أدري على من اعتمد في هذه الرواية ومصدره الوحيد في
هذا الجبرتي ، وهو يقول إنه تذلل وقال اشتروني يامسلمين ؟

(١) اي انهم حين احتلوا قصر مراد بك وجدوا بين اوراقه رسائل من السيد محمد كريم
وفيها ما ذكره

ولكن الذي يلفت النظر ولا يفوت المؤرخ هو ملاحظة أن الفرنسيين كانوا على استعداد للعفو عن السيد محمد كريم عفواً تاماً لو أنه دفع لهم ما ارادوه من المال فداء عن نفسه . واذن فلم يكن العدل أو القصاص هو المقصود بالذات ، وإنما كانت الغاية اغتصاب المال ممن يظنون انه كان رجلاً غنياً ، أو أن أغنياء البلد سيشفقون عليه ويجمعون المال لخلاص حياته . وفي ذلك من العار والشنار ما فيه

وسواء استحق السيد محمد كريم تلك العقوبة لخيانته عهداً قطعته على نفسه ، - وهو عهد أعطى لعدو البلاد تحت سيف القهر والقوة ، - أم أنه نال ذلك العقاب جزاء وفاقاً لمظالم سابقة ارتكبها ، وتقوس بريئة ازهقتها ، والعدل الالهى جرى مجراها ؛ - فإن ذلك شيء ، وتصور المصريين أن الفرنسيين قد ظلموا رجلاً من كبار رجالهم ، شيء آخر . خصوصاً اذا كان السيد محمد كريم ينتسب حقيقة الى الاشراف بلقب السيادة ، وإن كان لقب « السيد » يطلق في مصر على أبناء البلد فيقولون « سى السيد » فلان ، لكل معمم وتاجر ومن لاصفة له من العلم أو الوظيفة . ولا شك أن نابوليون أراد أن يلقى على المصريين درساً ثقيلاً ولكنه ككل الاوروبيين لا يصلون الى فهم الروح الشرقية ، ولذلك فانه بدلا من أن تستفيد سياسته من قتل السيد محمد كريم والتمثيل به ، قد خسراضعاف ذلك من تغير القلوب ، وإعطاء أعدائه سلاحاً ماضياً لمحاربتة وتنصيب سلطته .

وأصدر أوامره للجنرال كليبر بالاسكندرية بأن يقطع دابر الاعراب في مديرية البحيرة ، وأن يحفظ مواصلاته ببحيرة أدكو ورشيد . وكذلك أصدر أمراً طويلاً الى الجنرال اندريوسى (Andreossy) بدراسة وفحص بحيرة المنزلة حتى يأمن على البلاد من السفن المعادية

ولتحصين بحيرة المنزلة وفحصها حدثت محاربات ووقائع عسكرية بين الفرنسيين وبين أهالى الجهات الواقعة بالقرب من دمياط وفي مديرية الدقهلية ولما كانت المصادر العربية خالية كل انخلو من الاشارة الى تلك الوقائع

والملاحم رأيت من الواجب أن أتعهد على المصادر الفرنسية فألخص من «لاكروا» الروايات الآتية في مكانها، قبل أن تنتقل إلى مخبرات نابوليون مع والي عكا، وقبل أن تدخل في أسباب وتاريخ ثورة القاهرة، ليرى القارىء المصرى أن الفرنسيين لم يكونوا مطمئنين لا في الداخل ولا في الخارج، ولا في القاهرة ولا في الأقاليم، وفي ذلك من الموعظة السياسية والتاريخية ما فيه.

والى الفارىء ملخص لتلك الملاحم والحوادث التى جرت فى شمال القطر المصرى ملخصة عن «لاكروا» قال ما خلاصة تعريبيه:

«عين الجنرال مينو (الذى أسلم بعد وسمى عبد الله مينو) محافظا لرشيد وبعد أن وجه عنايته لنشر أعلام الامن فى ربوع هذه الارحاء واعادة الطمأنينة اليها قرر أن يتقدم الاحوال بنفسه فيها، واستصحب معه الجنرال «مارمون» الذى أرسله اقتائد العام بمهمة خاصة، وقاما للطواف فى البلاد ومعهما بعض أعضاء المجمع العلمى فى مصر الذين اتهزوا هذه الفرصة للبحث والتنقيب خدمة للعلم

وفى اليوم العاشر من شهر سبتمبر سافرت هذه البعثة من رشيد سائرة على ضفاف النيل ولم يكن رجالها يخافون أهل البلاد أو يرتابون فى اخلاصهم بعد أن رأوا احتفاء أهالى برمبال ومطويس وفوه بهم

وأراد الجنرالان أن يعبرا الى الضفة اليمنى، ولكن فيضان النيل حال بينهما وبين أمنيتهما إذ كان لا بد لهما من اجتياز جسور لا يزيد عرضها عن قدمين وهى مهددة بالسقوط من وقت لآخر

ولما وصلت البعثة الى كفر شباس عامر فى اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر ووثقت باخلاص الاهالى لم يأخذ الجنرالان معها للحراسة غير ستة أو ثمانية من الفرسان. ولكن لم تكسد البعثة تدخل هذه القرية حتى أحاط برجالها عدد كبير من الاهالى بأيديهم البنادق والحرايب. فلما رأى العلماء ذلك فروا هاربين وتقدمت جوع المصريين واستولوا على الجسر ليمنعوا الفرنسيين من اجتيازه. ولما رأى الجنرالان أنهما وقعاً فى الفخ تبعاً الهاربين. ووقع مصور اسمه «جولي» من فرق

جواده خوفاً ورعباً . وأراد الجنرال مارمون أن يعيده على الجواد ولكن الرجل ملكه الملح فلم يستطع أن يحرك قدميه أو يعتدل على جواده ، وسقط ثانية فاضطر الفرنسيون لتركه وذبحه الاهالي أمام أبناء جلده الذين لم يستطيعوا اتقاذه وكان الجنرالان قد تركا كتيبة من الجند لحفظ الامتعة فوصلا اليها وعادا مستصحبين مائة وأربعين رجلا ولكنهما وجدا أن الجسر قد قطع في عدة مواضع واضطرا أن يخوضا الماء برجلهما ولم تستطع هذه القوة الصغيرة أن تحاصر القرية إلا بمشقة كبيرة

ولم يثبت الاهالي إلا قليلا وانسحبوا الى المنازل والابراج في كفر شباس عامر وقاد الجنرال مارمون فصيلة من حملة القرايينات وزحف حتى وصل الى باب البرج الكبير، ولكن علو ذلك البرج ومناة بابه لم تمكنه من اقتحامه إذ كان من فيه يظلمون عليه نيران البنادق ويرمون رجاله بالاحجار الثقيلة بحيث لم يستطع الجنود القرب منه

وبعد قليل دخل الجنرال مينو الى القرية فقتل جواده برصاصة ووقع الجنرال في حفرة عمقها ثلاثة أقدام ولما رأى الجنرال مارمون حرج الموقف أراد أن لا يعرض رجاله للقتل وصمم على احتلال البلدة ، فأمر رجاله أن يشعلوا النار في المنازل وأن يدمروا جزءاً من البرج . وفي الساعة الحادية عشرة مساءً حينما اندلعت السنة النيران في البيوت هرع عدد عظيم من أهالي القرى المجاورة لاغاثة القرية التي تأججت فيها النار ، ولكن تمكن ثلاثون من الجنود الفرنسيين كانوا على الجسر من أن يصدوا هؤلاء القادمين وبمزقوا اشملهم ثم أكرهوهم على الفرار واستطاع الفرنسيون أن يدمروا القرية ويهدموا البرج ولم يفقد منهم غير ثلاثة من القتلى وتسعة عشر من الجرحى

ولما رأى الجنرالان مينو ومارمون ان الفرصة غير ملائمة لاستئناف الطواف في الدلتا ارجأ هذه المهمة حتى ينتهي وقت الفيضان وعادا الى رشيد برجلهما وقد حدث مثل هذه الحوادث في الوقت ذاته في اقاليم المنصورة ودمياط والمنزلة وجاءت قوة من العرب في مديرية الشرقية يعاونها عرب « درنة » وأهالي

المنزلة تحت قيادة زعيم قادر اسمه حسن طوبار^(١) صديق العماليك وحليف لهم فهجمت في ليلة ١٥ سبتمبر على حامية دميان ولكن هذه استطاعت ان تقف في وجه هؤلاء المغيرين وتصد لهم .

وفي ١٦ سبتمبر نارت قرية الشعراء السكائنة على رمية قوس من دمياط واجتمع فيها العرب واتخذوها محلا لقيادتهم العامة ، وفي ١٧ و ١٨ وصلهم امداد كبير وكذلك وصلت لحامية دمياط امدادات أيضاً

وفي ٢٨ سبتمبر صمم الجنرال « فيال » ان يهاجم قرية الشعراء وتولى الجنرال اندريوسى قيادة العمارة البحرية التي ألقت مراسيها بقرب القرية . وصف العدو (أى المصريين) رجاله صفواً واحداً واحتل المنطقة الواقعة بين النيل وبحيرة المنزلة وكان عدد رجاله نحو ١٠٠ الاف (كذا) . فارسل الجنرال « فيال » كتيبة من الفرقة الخامسة والعشرين لتمهيج على ميمنة العدو وتقطع عليه الطريق الى بحيرة المنزلة ، وفي الوقت ذاته هجم على المقدمة نفرق شمل العدو الذي غرق كثير من رجاله فى النيل وبحيرة المنزلة . وأشعل النار فى قرية الشعراء فمات نحو ١٥٠٠ من العرب بين غريق وقبيل وغنم منهم مدفعين جميلين من البروز وثلاثة اعلام ، اما الفرنسيون فلم يفقدوا الا قتيلا واحداً واربعة من الجرحى ، وهكذا استطاع جيش صغير من الفرنسيين قوامه ٥٠٠ رجل ان يقهر جيشاً عرمرم بالعدو عدده ١٠ الاف !! وامتاز فى هذه الموقعة بالسالة الكاتبين سابانيه وارسل القائد العام الى الجنرال فيال رسالة يهنئه فيها بالفوز جاء فيها « ان الموقعة التي قتت بها ايها الجنرال المواطن فى قرية الشعراء رذعت مكانك ومكانة جنودك » وكلف الجنرال فيرديه بالزحف على قرية سنباط بمديرية المنصورة فسار ومعه قوة مؤلفة من ٦٠٠ رجل وقم بمهمته خير قيام رغم ما لاقاه من ثبات العرب الذين قتل منهم نحو خمسين رجلاً دون ان يفقد الفرنسيون غير جندى واحد !!

ولرسلت عدة حملات صغيرة قليلة الاهمية الى بلاد الوجه البحرى وظلت الثورات من أواخر اغسطس حتى نهاية سبتمبر ولكن قضى عليها ووزعت الفرق الفرنسية فى اقاليم الدنا .

(١) لم يرد ذكر لهذا الرجل فى أى مصدر عربى والذي أعلاه أنه توجد أسرة طوبار فى بلدة المنزلة الى هذا اليوم

وبقى عرب «درنه» محتلين قرية «دنديط» فارسل نابوليون امراً الى الجنرال «مورات» قائد القوة بقليم التليوبية والجنرال «لانوس» بلزحف واستخلاص هذه القرية فوصل اليها في ٢٨ سبتمبر وفرقا شمال الثائرين بعد ان هلك منهم نحو مائتي رجل بين غريق وقتيل وتركوا قطعانهم وجمالهم وحميرهم ولم يصب من الفرنسيين غير بعض الجرحى .

وقدم الجنرال مورات تقريراً اني فيه ثناء عاطراً على الجنود واختص بالمدح الضابط نيترودو ، وكان هذا الضابط سويدي الاصل امتاز بالبسالة والاقدام ورقى الحاربة قائد فرقة وجرح بعد ذلك جرحاً مميتاً في سنة ١٨٠٣ اذ اعتدى عليه في «مدينة «بتي جواف»

وكان بونابرت يعلق اهمية كبرى على امتلاك بحيرة المنزلة ويظهر ذلك من تعليماته التي أصدرها الى الجنرال اندريوسى اذ جاء فيها :

« يا مواطني الجنرال علمت مسروراً خبر وصولك الى دمياط ويظهر لي انك وصلتها في الوقت الملائم لتساعد الجنرال «فيال» وتمده بنصائحك وآرائك الثاقبة وتقدم للجيش مرة اخرى خدمة كبيرة

يجب أن يكون معك عدد كبير من الجنود وقد أصدرت الاوامر الى الجنرال دوجا بالاستيلاء على المنزلة وأن يدخل الى البحيرة أكبر عدد يستطيعه من القوارب والسفن المسلحة بالمدافع الصغيرة، وأمرته أن يطوف بالجزر الموجودة في هذه البحيرة وأن يأخذ رهائن من كل القرى التي تظهر العداء وأن يقوم بكل مايلزم ، وقلت له يجب عليك :

(١) أن تسيطر على بحيرة المنزلة (٢) ولكي تستطيع الوصول الى «بيوس» (١) يجب أن تذكر كلماتي وتعمل بها وهي : اجتهد أن تدخل في البحيرة كل الفرقة التي معك ويجب أن يصل الجنرال اندريوسى الي بيوس

اننى أعتقد ان مصر لا يمكن أن مهاجم الامن بحيرة المنزلة وان الدفاع والهجوم يتوقف على ما تقوم به ، واذن يجب عليك السير بحذر وببطء ولا تتقدم الى الامام

(١) اسم قديم لعصب النيل هناك

الا اذا كنت متحققاً منه لانه ربما كانت حفرة صغيرة سبباً في خطأ حسابنا وتعرف :
(١) كم عدد المراكب الموجودة في بحيرة المنزلة (٢) وكم تستطيع كل منها أن تحمل من
الناس (٣) وما هو عمق البحيرة (٤) وهل يمكن لسكل قارب أو مركب أو سفينة
أن تمخر في البحيرة (٥) وما هو عمق كل من المصببات الثلاثة (٦) وهل يمكن
لسفينة مدفعية أن تمخرنيها (٧) وكم عدد سكان الجزائر الموجودة في البحيرة (٨) وما
السبيل الى اتصال دمياط بالبحيرة (٩) وهل ماء البحيرة حلواً أو مالح (١٠) وكيف
يستطيع الجنود الذين يعسكرون بين البحيرة والبحر أن يتصلوا ببعضهم ؟

لا تذهب الى « ييلوس » الا بتوات كبيرة وليكن معك على الاقل ست كتيبات
مسلحة كل منها بمدفع . ولا تغادر دمياط اذا لم يكن معك على الاقل ٥٠٠ رجل
وستة مراكب مسلحة بالمدافع وخذ معك من الماء ما يكفيك للاقامة في ييلوس خمسة
أو ستة أيام لابل عشرة أيام

وارسل لي مذكرات عن كل ما تجده في دمياط والمنزلة والصاحية وكل ما يتعلق
بدمياط والنيل والدفاع عن المرمى
« بونا برت »

و بعد أن عاد الجنرال اندريوسى الى دمياط عقب واقعة الشعراء قام بالمهمة التي
عهدت اليه خير قيام وكانت عمارة البحرية مؤلفة من ستة عشر مركباً منها ثلاثة
مسلحة ، وسافر من دمياط في ٣ أكتوبر ونزل الى النيل واجاز البوغاز وسار
ومعه ١٠٠ رجل في الطريق الفاصلة بين بحيرة المنزلة والبحر ، وترك بقية الجيش في
السفن . وفي اليوم الرابع من أكتوبر سبر عمق البوغاز في « ديبه » وخرج من البوغاز
قاصداً المطرية ، فرأى عمارة العدو البحرية تمخر مخفية وراء الجزر وقد ظهرت أشرفها
فأطلق عليها نارا حامية مدة ساعتين لكي يدمرها من جهة وليعان الجنرال « فيال »
من جهة أخرى أن المعركة قد بدأت . وكان هذا الجنرال متأهباً فلما احتل الجنرال
اندرىوسى منطقة قرية المنية (غرب دمياط) أرسل له الجنرال « فيال » بعض الجنود
لمزيد قوته . ولما جاءه أمرهم أن يطنثوا عطشهم قبل الدخول في المعركة فأجابوه لسنا
عطاشى ولا حاجة لنا بالطعام بل نريد الحرب . وهبوا للقتال ونشبت معركة شديدة

قتل فيها من العرب والفلاحين خلق كثير ولم يقتل ولم يجرح جندي فرنسي واحد، وكان قائد قوة العدو حسن طوبار فأرسل إليه الجنرال «دوجوا» كتاباً يدعو إلى الاتفاق مع الفرنسيين، فرد عليه الشيخ حسين طوبار بما يلي: «اننى لأريد أن أرى الفرنسيين لا عن قرب ولا عن بعد، وإذا أكدوا لي أنهم يبقون مسالمين هادئين في ضواحي المنزلة، فذنى أدفع لهم الضرائب التي كنت أدفعها للمالك، وإلا كنتي، لأريد أن يكون بيني وبين الكافرين أقل اتصال»

وبعد ثلاثة أيام أرسل الجنرال اندريوسى الضابط «تيرليه» رئيس فرقة عمال الجسور، والسكابتين ساباتييه من فرقة المهندسين للقيام بالأعمال المتعلقة بسبر غور البحرية ومعرفة ما أراده بونابرت

وقد أكرهت هذه الموقعة مراكب العدو على الابتعاد حتى المصب القديم في «يلوس» ومكنت الفرنسيين من إقامة حاميات عسكرية في المطرية والمنزلة لحماية العمارة البحرية الفرنسية التي خصصت للجولان في البحيرة»
والى هنا ينتهى التلخيص من الفرنسية عن بحيرة المنزلة وما جرى من المناوشات الفرعية في شمال الدلتا

- ٧ -

مخابرات سياسية

وبدأ يكتب حكومة الباب العالي، واحمد باشا الجزائر والى عكة ليتودد اليهما، وليأمن جانب اعتدائهما، ويتوصل من ذلك إلى اقناع المصريين بأن جلالة السلطان وخليفة المسلمين راض عن احتلال فرنسا وبين مصر تنفيذاً للسياسة التي وضع خطتها عند قدومه. وقد وقفنا في المصادر الفرنسية على نص الخطابين اللذين بعث بهما الى احمد باشا الجزائر، ثم الخطاب الذي أرسله الى الصدر الاعظم: أما أول خطاب بعث به لأول فقد أوفده اليه مع مسيو بوفوازين Beauvoisin وكانت وظيفته في القاهرة قومسير لدى الديوان المخصوص (أشبهه بالمستشار المالى في مجلس الوزراء سابقاً)

وقد اتى عليه التعليمات الآتية في خطاب محفوظ في أوراق نابوليون بنمرة ٣٠٨٧
وهذا نصه :-

المعسكر العام بالقاهرة في ٢٢ اغسطس ١٧٩٨ (يوافق ١٠ ربيع أول سنة ١٢١٣)
« على الستوين بوفوازين أن يذهب الى دمياط ومنها يبحر على سفينة تركية
أويونانية قادماً يافا ليحمل إليها الخطاب المرفق بهذا إلى احمد باشا الجزائر ، وليطلب
مقابلته لكي يصرح له بصوت عال أن المسلمين ليس لهم أصدقاء صادقون في أوروبا
مثلنا ، وانني قد علمت مع الاسف أنهم يعتقدون في سوريا أنني انوى الاستيلاء على
أورشليم (بيت المقدس) والقضاء على الدين الاسلامي . ليقبل له إن مثل هذا الظن
بعيد عن رغبتى وميولى . فليكن مطمئن الخاطر مستريح البال ، وإننى أعرفه بالسمع
لما اتصل بى من أنه رجل ذو فضل وكفاءة ، وليؤكد له أنه إذا احسن التصرف معنا ولم
يتعرض لمن لا نعرض له فإننا نصادقه . وبدلاً من أن يكون وجودنا فى أرض مصر
منقصاً لسطوته ، فانه يزيدها قوة وتمكيننا . واننى اعلم أن المالك الذين بددت
شتمهم قد كانوا أعداءه ، ويجب عليه أن لا يخلط بيننا وبين عامة الاوروبيين ، ذلك
لأننا بدلاً من أن نستعبد المسلمين فإننا بالعكس نفسح لهم طريق الحرية . وانخلاصة
إن على رسولنا أن يشرح لاحد باشا ما وقع فى مصر ، ويمسح أيضاً أن يزيل من
رأسه فكرة الاستعداد للحرب ، ويبعده عن التدخل فى المشاغبات . واذا لم يكن
احمد باشا فى يافا فعلى الستوين « بوفوازين » التوجه الى عكة . ولكن يحسن به أن يتميز
فرصة وجوده فى يافا لزيارة الأسر الاوروبية ، وخصوصاً ليقابل وكيل القنصل
« فرناوى » ، ولكي يقف على أخبار الاستانة وما يجري من الامور فى سورية »
« بونابرت »

وهذا نص الخطاب الموجه الى احمد باشا الجزائر (محفوظ بنمرة ٣٠٧٨)

« الى احمد باشا حاكم صيدا وعكا

معسكر القاهرة (فى ٢٢ اغسطس ١٧٩٧)

ت مصر محارباً للمسلمين بل جنبها محاربة البسكات . واعتقد أنى

بالتضامن عليهم قد عملت عملا عادلا وموافقا لاصالحك . لانهم كانوا أعداءك ولا بد
أنك تعلم أنني لما وضعت قدمي في مالطة كان أول عمل عملته أن اطلقت سراح الفين
من أسرى الأتراك الذين قضوا عدة سنين في ذل الاسر والعبودية . وما وصلت
الى مصر حتى طمأننت خواطر الاهالي وبالغت في احترام العلماء ورجال الدين
ومساجد المسلمين ، ولم يلق حجاج بيت الله مثل ما لاقوا من العناية والرعاية معي ،
ولم يحتمل بمولد النبي بمثل ما احتفلت به بالابهة الكاملة والاحترام العظيم
وقد بعثت اليك بهذا الخطاب مع ضابط يستطيع أن يوقفك على ميولى ورغبتى
في أن أكون معك على صفاء وسلام لتساعد معنا على رقية الوسائل التي تؤدى
تنمو التجارة وخير البلدين ، وأؤكد انه لا يوجد للمسلمين أخلص أصدقاء من
الفرنساويين . اه

« بونابرت »

وظاهر من عبارة هذا الخطاب ، ومن التعليمات التي وضعها نابليون
للاستوين (بوفوازين) ، أن نابليون قد اتصل به أن أحمد باشا الجزائر والى عكسا ، أو
أميرها فعلا ، قد شرع في الاستعداد للغارة على مصر بناء على تعليمات وردت
له من الاستانة ، أو بناء على اتفاق بينه وبين الانكيز ، لأن أحمد باشا الجزائر قد
كان رجلا مدربا عرك الدهر وحلب أشطره ، فهو لا يخفى عليه أن نابليون قد
قضى على سلطة المماليك في مصر ، وهو ليس بأكثر منهم عدداً وعدة ، فلو أن
يكون معضداً بقوة تعادل قوة فرنساويين ، لما تأخر عن الاتفاق مع نابليون .
ولم يك أحمد باشا الجزائر بالرجل الذي تهمة الهكرة الاسلامية ، ولا الارتباط بالخلافة
العثمانية ، إذ من المؤكد أن الجزائر لم يكن تابعاً للدولة العلية إلا بالاسم ، ولطالما
حاول رجال الدولة القضاء على سلطته فلم يفلحوا ، واستبد بالملك في تكا وصيدا
ويافا ، وامتد رواق سلطانه على الدروز في جبل لبنان ، وبلغ من الاستبداد مبلغاً
عظيماً حتى هابه الناس ، وقرت منه القلوب . فلما وصل اليه رسول نابليون أبي
مقابلته ، ومع بعد الشيخ الجبرتي عن معرفة هذه الأمور ، تكتم فرنساويين اياها ،
فإنه علم بها فقال : « وفي حوادث أواخر شهر ربيع الأول حضر القاصد الذي كان

أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية الى أحمد باشا الجزائر بعكا ، وصحبته أنقار من النصارى الشوام في صفة نجار ، فلما وصلوا الى عكا وتعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك افرنساوى فنقلوه الى بعض النقاير^(١) ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئاً ، وأمره بالرجوع من حيث أتى وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته .. وفى رواية المعلم تقولاً أن مندرب نابوليون، ويسميه « باضان » (بوفوازين) ، قد ركب سفينة من سفن أحمد باشا الجزائر ، كان الفرنسيون قد قبضوا عليها وأسروها فى دمياط ، فلما وصلت السفينة الى عكا نزل قبطانها وهو الذى أرسل الخطاب الى الجزائر ، فلما قرأه - على رواية المعلم تقولاً - « قل للقبطان وجه هذا الكافر ، ودته يسافر ، وإن لم يرجع فى الحال ، من هذه الديار ، أحرقتنه بالنار » !!

وذكر (لاكروا) ان نابوليون بعث برسول ثان الى عكا فكان حظه أشأم من الاول إذ أمر الجزائر بقتله والتمثيل به ، ولكن (لاكروا) على سعة اطلاعه ، ووجود المحفوظات الرسمية تحت أمره لتأليف كتابه ، لم يذكر نص الخطاب الثانى الذى بعث به نابوليون الى احمد باشا الجزائر ، فقد كان بونا بارت فى خطابه الثانى أقل صلفاً وأخف دعوى . وقد عثرت على نص هذا الخطاب الثانى فى مذكرات « ميو » وهذا تعريبيه^(٢)

« لا أريد أن أدخل معك فى حرب . نعم انك لست عدواً لى ولكن حان الوقت لتعلم انك اذا بقيت جاعلاً حدود مصر ملجأ لابراهيم بك ، فاننى أعد ذلك علامة للعداء وأذهب الى عكا

واذا كنت تريد أن تبقى فى سلام معى فابعد ابراهيم بك على مسافة أربعين فرسحاً من حدود مصر ، ودع التجارة حرة بين دمياط وسوريا
وحيثما أعدك باحترام البلاد التى تحت امارتك وأترك للتجارة الحرة التامة
بين مصر وسوريا فى البر وفى البحر »
« بونا بارت »

(١) سفن سياى الكلام عاينها فى حملة الشام

(٢) مذكرات ميو صحيفة ١٢٢ بتاريخ ١٩ برومبير السنة الرابعة للثورة أى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

وقد أكدت المصادر الوثوق بها أن الجزائر كان قد عقد مع الانكليز اتفاقاً على أنهم يحمون عكا بمدافع أساطيلهم . ولولا ذلك لما عجز نابليون ، في حملته على الشام عن فتح عكا وعن ادراك ما أرادته وكانت تطمح اليه آماله في الشرق ونرى من الواجب هنا ذكر شيء عن تاريخ نشأة أحمد باشا الجزائر ليكون لدى القارىء صورة في ذهنه عن هذا الرجل الغريب ، ويوفق بينها وبين حكمنا السابق عليه ذكر الشيخ الجبerty أحمد باشا الجزائر في وفيات سنة ١٢١٩ هجرية ووصفه . « بالجناب المكرم ، والمشير الفخيم ، والوزير الكبير ، والدستور الشهير » وأثنى عليه على الرغم مما ذكره من مظالمه التي قال فيها : « وأخاف النواحي ونواقب على الذنب الصغير بالقتل والحبس والتنكيل ، وقطع الأنوف ، والآذان والأطراف ، ولم يغفر ذلة عالم لعلمه ، أو ذى جاه لوجاهته ، وسلب النعم عن كثير جداً من ذوي النعم واستأصل أموالهم ، ومات في محبسه ما لا يحصى من الأعيان والعلماء وغيرهم ، إلى غير ذلك من الفظائع » ثم قال : « ولقب بالجزار لما قتل من شيوخ عربان البحيرة نيفاً وسبعين كبيراً وجاء برؤوسهم للناهرة » . وهنا يسأل القارىء وما كان شأن احمد باشا الجزائر والى عكا بالبحيرة والقاهرة ؟ فنقول : ان أصل هذا الرجل من بلاد ابوسنة . قال عنه المرحوم جودت باشا في تاريخه « إن الجزائر لم يكن من المماليك بل هو بوسنوى الأصل من طائفة البوشناق الذين هم أشجع وأقوى طوائف الروم ألبى » وقال عنه « إنه قدم الى دار السعادة وعمره ثمان عشرة سنة واشتغل حلاقاً ثم صار يتردد الى دائرة على باشا حكيم أوغلى ، الذى عين والياً على مصر سنة ١١٦٩ هجرية (١٧٥٥) م . فسافر معه الى مصر كواحد من الاتباع ثم أخذ يلتصق بالبكوات المالك ، وقلده على بك الكبير كشوفية البحيرة وقتل من الاعراب من قتل أخذاً بثار سيده عبد الله ، أحد أتباع على بك ، ثم فر من مصر في حوادث يطول شرحها فسافر الى الاستانة ثم عاد لمصر متنكراً وآواه عربان البحيرة الذين فنك من قبل برجالهم » : ومما قاله الجبerty : « وأقام بعرب الهنادى وتزوج هناك فلما أرسل على بك (الكبير) التجار يد الى ابن حبيب والهنادى حارب الجزائر معهم ثم سافر

الى بلاد الشام». وتقلبت به الأحوال من بؤس ورخاء. ولم يذكر الجبرتي أنه عاد لمصر مرة ثالثة ولكن جودت باشا يقول « إنه بعد إقامته بدمشق خاوى الوفاض مرتكباً لانواع السفالة والدناءة، توجه إلى مصر في زى أرمني وبعد أن بات في بيته ثلاث ليال أخذ المال الذى فى داره وجاء مرة أخرى إلى الشام »

وكانت فى سوريا (سنة ١١٨٥) منافسة بين أولاد الظاهر عمر والدروز فدخل بينهم وصدرت إرادة الدولة باستخلاص صيدا، من اولاد الظاهر وعين خليل باشا متصرف القدس قائداً للجند فكان الجزار معه وأخيراً توصل الجزار إلى أن صار محافظاً على قلعة بيروت ثم والياً لعكا

هذا مختصر موجز لحياة رجل يقول عنه الجبرتي « وبالجملة فكان من غرائب الدهر، وأخباره لا يفي القلم بتسطيرها، ولو جمع بعضها لكانت مجلدات ولو لم يكن له من المناقب إلا استظهاره على الفرنسية لكفاه »^(١)

ولكن شيخنا الجبرتي لم يكن يعلم أن الذى صد الفرنسية عن عكا لم يكن احمد باشا الجزار بل كانت سفن السيرسدى سميث^(٢) فى البحر وتديرات فليبو^(٣) المهندس الفرنسية فى البر، ولا يقل الحديد إلا الحديد

وفشل نابوليون أيضاً فيما حاوله من الاتفاق مع الدولة العثمانية ولما كان الخطاب الذى بعث به للصدر الاعظم فى غاية من الاهمية التاريخية رأينا أن نأتى على تعريبه من المصادر الفرنسية وهذا تعريبه.

القيادة العامة الفرنسية بالقاهرة فى ٥ فريكتودور العام الرابع للثورة، الموافق ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨

« الى الصدر الاعظم

يادولة السيد العظيم : إن الجيش الفرنسى الذى أشرف بقيادته قد دخل مصر يعاقب البكوات المالك على الاهانات التى لم يكفوا عن توجيهها للتجار الفرنسيين. وقد عين المواطن « تاليران بيريجور » وزير الشؤون الخارجية فى باريس

(١) يشير الى عجز نابوليون عن فتح عكا
(٢) و (٣) Sir Sydney Smith - Phéliepeaux وسيأتى الكلام عنهما فى حمة الشام

سفيراً من قبل فرنسا في الاستانة بدلا من المواطن « ادبرت دو باييت » وزود بالسلطة والتعليقات اللازمة من لدن « الديركتوار » للمفاوضة ، وعقد معاهدة وتذليل ما عساه يقف من الصعوبات بشأن احتلال الجيش الفرنسي لمصر ، ولتوطيد دعائم المحبة القديمة التي لا بد من بقائها بين الدولتين .

ولما كان يحتمل أن السفير لم يصل حتى الآن الى الاستانة ، فقد بادرت لادلاع دولتكم على نية الجمهورية الفرنسية فهي لا تريد نقط إعادة العلاقات المسنة القديمة بل تروم أيضاً الحصول على تأييد الباب العالي وهي في حاجة شديدة الى تأييده للقضاء على اعدائها الطبيعيين الذين يعملون ضدها

ولا بد أن يكون السفير « تاليران بريجور » قد وصل الآن واذا كان قد تأخر بسبب بعض الطوارئ ، فارجوكم أن ترسلوا الى القاهرة من يكون موضع ثقتكم ، وتزودوه بالتعليقات والسلطة اللازمة ، أو أن ترسلوا الي فرمانا حتى استطيع أن أرسل لكم وكيلاً ، ليحدد معكم مصير هذه البلاد ، ويدير الامور التي تكون في مصلحة عظمة السلطان والجمهورية الفرنسية حليفته الاكثر امانة ، وتوقع في الارتباك والخيرة البكوات والماليك اعداءنا المشتركين وأرجو دولتكم قبول الاحترامات ما

« بونابرت »

ولم يصل هذا الخطاب لحكومة جلالة السلطان حتى كانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب رسمياً على فرنسا في ٢١ ربيع الاول الموافق ٢ سبتمبر من تلك السنة وأخذت في جمع الجيوش بمدينة دمشق وبجزيرة رودس لارسالها لمصر وأتت الدونامة الروسية من البحر الاسود الى بوغاز الاستانة ثم خرجت الى البحر الابيض مع الدونامة العثمانية ، وذلك بمقتضى معاهدة ابرمت بين انكلترا والدولة العثمانية والروسيا لمحاربة فرنسا ، وإخراج جيوشها من أرض مصر ، فكان ذلك من أعظم الاسباب التي حملت نابليون على حرب الشام ومفاجأة الدولة قبل استعدادها كما اسيا في ذلك في مكانه

وحاول نابوليون التأثير على العالم الاسلامي ورجال الدولة العثمانية بواسطة علماء مصر فاستكتبهم رسالة مطولة للتنويه بذكر فرنساويين وحسن معاملتهم واحترامهم للدين الاسلامي ولم تقف على نص هذه الرسالة لان الشيخ الجبرتي ضمن بنشرها بالنص كأن نفسه لم تكن راضية عما فيها ، مع انهم طبعوها ونشروها في القاهرة ، ومع ذلك فهو نفسه عمدتنا الوحيد فيما كتبه عنها قال « وفي السبت ثامن عشر ربيع الثاني كتبوا من المشايخ (تأمل هذا التركيب) كتابا يرسلوه الى السلطان وآخر الى شريف مكة ثم انهم بصموا منه عدة نسخ والصقوها بالطرق وانما ارق وصورته بعد الصدور ، ذكر ورودهم (الفرنسيس) وقتلهم مع المالك وهروبهم ، وان جماعة من العلماء ذهبت اليهم بالبر الغربي فأمنوهم ، وكذلك الرعية دون المالك . وذكروا فيه انهم من أخصاء السلطان العثماني وأعداء أعدائه ، وان السكة (النقود) والخطبة باسمه ، وشعائر الاسلام مقامة على ما هي عليه . وباقي المنشور بمبنى الكلام السابق من قولهم انهم مسلمون وانهم محترمون للقرآن والنبي ، وانهم أوصلوا الحجاج المشتتين وأكرمواهم ، وأركبوا الماشي وأطعموا الجيعان وسقوا العطشان ، واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر ، وعملوا له شأناً ورونقاً استجلابا لسرور المؤمنين ، وأنفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقراء ، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوي وأنفقوا أموالا في شأن انتظامه واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المحترم مصطفى أغا كتحدا بكر باشا والى مصر حالا فاستحسننا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وهم أيضاً مجتهدون في آتمام مهمات الحرمين وأمرونا أن نعلمكم بذلك والسلام » هـ

وغريب أن يطلب نابوليون من المشايخ كتابة هذا المنشور في ١٨ ربيع الثاني بعد أن كانت الدولة العلية قد أعلنت الحرب على فرنسا وجمعت جيوشها لالخارج فرنساويين من مصر منذ شهر تقريباً ، ويبعد أن لا يكون نابوليون - ورسله وجواسيده - منتشرة في مصر وسوريا - على ينة من ذلك ، ومن الغريب أيضاً أن يذكر في هذا المنشور ان أبا بكر باشا لا يزال والياً على مصر !

تلميد الجوبالغيوم

أسباب الثورة الكبيرة

لانزاع في أن نابوليون قد تأكد في ذلك الوقت ان مركزه قد أصبح محفوظاً بالمخاطر، فالطريق الى فرنسا قد سدت في وجهه ولم يعد له أدنى أمل في العودة الى بلاده ، وكيف يكون ذلك وانجلترا مسيطرة على البحر الابيض المتوسط ، ولم يبق من سفن فرنسا ما يصلح لنقل شحنة من الجنود من موانئ فرنسا الى مصر ، وحكومة «الديركتوار» في باريس قد اختلت واعتلت وتلواها الخوصوم والاعداء من كل جانب ، والكثير من أعضاءها يخشى سطوة نابوليون وشهرته ؟؟ كل هذه أمور لم تكن لتخفى على ثاقب فكر ذلك الرجل العظيم الذي برهن في حياته على ذكاء نادر المثال .
وانتد ذكر «بوريين» في مذكراته أنه كان يجد نابوليون في القاهرة أثناء هذه الفترة شديد التفكير ، كثير الصمت ، باذي القلق والاضطراب . . ولا غرابة في ذلك فهذه حاله من جهة وطنه . فهو لا شك قد علم أن ثلاث دول كبار ، تركيا وروسيا وانجلترا ، قد أشهرت الحرب عليه وصممت على الفتك به ومن معه في أرض مصر ، فلا بد له من مقاومتها بكل الوسائل التي يستطيعها ، والوسيلة الوحيدة أمامه هي مهاجمة تركيا في سوريا والاستيلاء على تلك الديار ، إذ كان يعلم أن جيشه أحسن نظاماً وأكمل عدة من جيش الانراك في ذلك الزمن ، ولكن يلزمه لتقيام بهذه المهمة المال الوفير ، فمن أين يأتي به ؟ لم يكن لديه مصدر غير مصر ! وما أتعب حظ مصر !

ولقد سبق لنا أن شرحنا في هذا الكتاب أن موارد مصر قد نصبت وزد على ذلك أن تجارتها القليلة من طريق البحر الابيض أو من البحر الاحمر قد عطلت بحاصرة الانكايين لشواطئها . ولم يكن من مصلحة نابوليون وسياسته القاضية باستجلاب محبة المصريين ومودتهم ، أن يلجأ إلى ما كان يلجأ اليه المالك ، من مصادرة أموال

الناس وامتصاص دمائهم . نعم إن الفرنسيين فعلوا شيئاً من هذا على طرق شتى ، ودعاوى مختلفة ، ولكنهم فعلوه على شكل معقول ، كدعوى مصادرة أملاك المالك وتفتيش بيوتهم ، ومطالبة الذين ينسبون اليهم أو يخابروهم بشيء من المال على قدر طاقتهم ، ولوزاد الامر عن ذلك الحد لما اتفق مع دعوى الفرنسيين بأنهم قدموا لينقذوا البلاد من ظلم المالك ، وليحافظوا على الحقوق ، وليحترموا الواجبات ؛ فكيف يحصل نابليون على المال اللازم للانفاق على جيشه ورجاله ، وكلهم راغب في المكسب ، آلف لمعيشة الرفاهية ؟ ثم كيف يحصل على المال اللازم لتجهيز الحملة على الشام ومقاومة الدولة العثمانية والاساطيل الانكليزية والروسية ؟ لم يبق أمامه إلا أن يفرض ضرائب جديدة على أهالي القاهرة ومدن مصر وقراها على طريقة جديدة . وكان معه من رجال الاقتصاد الادارى ميسيو بوسيلج Poussielgue الذى عينه مديراً للامور المالية ، وكان الجبرتي يسميه « بوسليك الروزنامجى » . ويقول المعلم تقولاً إن المصريين كانوا يسمونه « وزير المشيخة الفرنسية » ^(١) فوضع له مشروفاً يقضى بتسجيل عقود الممتلكات وحجج العقارات للتصديق عليها في مقابل ضريبة مخصوصة ، فطالبوا أصحاب الاملاك بأحضار حججهم ومستنداتهم التي تثبت ملكيتهم .

(١) « كان من ضباط بونايرت الضابط بوسيلج الذى يجب أن يعد في أوائلهم . . . اذا امتاز منذ بداية الحملة بالمقدرة الفائقة في الادارة حتى لم يخف بونايرت أن يهد اليه بالادارة العامة في هذه الديار المصرية . وكان بوسيلج يبذل جهده ويضاعف كل ما في وسعه للقيام بكل التدبيرات التي رسمت معتمداً على عقله وبعد نظره في الامور المدنية والمالية وقد ظهرت خبرته في كل المسائل ووقوفه على دقائقها في المحاورات التي كانت تدور بينه وبين القائد العام . وكان له نفوذ كبير على مشايخ القرى بفضل جدارته وهيبته منظره ونال بوسيلج ذلك النفوذ العظيم بسبب اتصاله بكبار المصريين واختلاطه بهم لأنه تعلم لغة البلاد بسرعة مدهشة ولم يترفع عن مجالسة الاهالي الذين كانوا يجيئون به ويقبونه » « بالوزير » بل كان بالمكس يعمل لاقترب من قلوبهم ويهتم بعاداتهم ويسأل المشايخ والموظفين عن شراعتهم ويظهر السرور للاختلاط بهم والاجتماع معهم ويقبل دعوة كل من يدعو لزيارته وكان لا يأتمن من الجلوس معهم على الحصير يدخلن اتبع الذى يقدمونه اليه ويترقب من قلوبهم ويسمع أحاديثهم ويسأل ما يريد من الاستئذان ولا ينفك عن النظر حول المتفرجين حوله ليبر ما يضررونه في قلوبهم حتى عمده الناس قوة عظيمة ورضوا به حكماً في كثير من أمورهم . . . عن كتاب (بونايرت ومصر) تأليف «جيهان ديغرى» وهي سيدة فرانسوية أقامت في مصر زيارتها طويلاً .

Bonaparte et L'Egypte - par Jehan D'Ivray

قال الشيخ الجبرتي في هذا الصدد « إن الغرض من ذلك التحيل على أخذ الاموال
إذ طلبوا من الناس إثبات ملكيتهم فاذا حضروا حججهم وأثبتوا وجه تملكهم لها،
إما بالبيع أو بالاتقال لهم بالارث، لا يكتفى بذلك بل يأمر بالكشف عليها في
السجلات، ويدفع على ذلك دراهم بقدر عينه. فان وجدوا تمسكهم مقيداً بالسجل طلب منه
بعد ذلك الشبوت، ويدفع على ذلك الاشهاد وثبوتة قدر آ آخر، ثم ينظر بعد ذلك في قيمة
العقار ويدفع على كل مائة اثنين فان لم تكن له حجة، أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل،
أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد، فانها تضبط لديوان الجمهور وتصير من حقوقهم »
ووضع له بوسيلج مشروعا آخر للضرائب يقضى بتحصيل أموال عن الموارث
والتركتات. وفي هذا يقول الجبرتي، وهو أدرى بشعور قومه: « ومن جملة الشروط
مقررات على الموارث والموتى ومقاديرها متنوعة في القلة والكثرة كقولهم اذا مات
الميت يشاورون عليه ويدفعون معلوماً لذلك ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين
ساعة، فاذا بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضاً ولا حق فيها للورثة وإن
فتحت على الرسم باذن الديوان يدفع على ذلك الاذن مقررًا وكذلك على ثبوت
الورثة ثم عليهم بعد قبض ما يخصهم مقرر. وكذلك من يدعى ديناً على الميت يثبته
بديوان الحشريات ويدفع على إثباته مقررًا ويأخذ له ورقة يستلم بها دينه فاذا امتلته
دفع مقررًا أيضاً؛ ومثل ذلك في الرزق جمع (رزقة) والاطيان بشروط وأنواع
وكيفية أخرى غير ذلك والهبات والمبايعات والدعاوى والننازعات والمشاجرات
والاشهادات الجزئيات والكليات، والمسافر كذلك لا يسافر إلا بورقة ويدفع عليها
قدرًا، وكذلك المولود إذ ولد ويقال له إثبات الحياة، وكذلك المواجرات وقبض
أجر الاملاك وغير ذلك » اهـ

خلص المصريون من ظلم فوضى، فوقعوا في ظلم منظم؛ ولسكي يعطيه صفة
النظام، ويلبسه ثوب العدل، أصدر نابليون أمره بعقد مجلس عام مؤلف من كبار
الامة وأعيانها من جميع أطراف القطر المصري، للموافقة والتصديق على هذا المشروع
المالى. (كتصديق الجمعية العمومية على الضرائب) فحضر من الاسكندرية ورشيد

ودمياط وبقية بنادر القطر المصري بعض علمائها وأعيانها واجتمع هذا الجمع في بيت قائد أغا بالأزبكية. قال الجبرتي: «فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد وكذلك أعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومدبرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعاً موفوراً»

ثم افتتحت الجلسة بخطاب مطول عن مصر وتاريخها وكونها بلاداً خصبة أضربها الظلم وسوء الإدارة، وأن الفرنسيين بعثهم الله لينقذوها من الخراب والدمار، وأنهم يريدون اصلاحها وتنظيم أمورها، وأنهم استدعوا كبار المصريين في هذه الجمعية للاستفادة من خبرتهم... إلي غير ذلك. وبعد أن أتم المترجم قراءة هذا الخطاب الذي يظهر من لهجته أنه من إنشاء نابوليون نفسه، طلب من الحاضرين انتخاب رئيس لهم

وكان نابوليون قد حنق على الشيخ الشرقاوى لانه أبى أن يضع على كتفه طيلسان الجمهورية الفرنسية ذات الثلاثة ألوان، وزجر نابوليون وخرج مغضباً من عنده. وعبارة الشيخ الجبرتي في هذه النقطة ظريفة قال «ثم قال الترجمان تريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون رئيساً عليكم فقال بعض الحاضرين: الشيخ الشرقاوى: فقال «نوبو» وإنما يكون ذلك بالقرعة بأوراق فطلع الاكثر على الشيخ الشرقاوى فقال حينئذ يكون الشيخ الشرقاوى هو الرئيس». وانقضى الاجتماع الاول وكان ذلك يوم السبت ٢٥ ربيع الثانى وفي يوم الاثنين اجتمع المجلس وكلف العلم ملطى القبطى الذى شارك «بوسيلج» في وضع مشروع الضرائب، بتلاوته ولم يقرروا في ذلك اليوم شيئاً. وفي يوم الخميس اجتمعوا ثانية وأظهر المشايخ معارضة شديدة في تسجيل حجج الممتلكات وقالوا الأولى أن تفرض على العقارات ضرائب ليسهل تحصيلها ويكون ترتيبها بنسبة قيم الممتلكات، كعوائد الاملاك في الزمن الحاضر، ثم اجتمعوا مرة ثالثة وقرر المشايخ كيفية قسمة الورثة في الشريعة الاسلامية فلم يرض بها الفرنسيون، وكانوا يريدون أن يورثوا الابن كالبنت بدعوى أن الولد أقدر على الكسب من البنت! فاحتدم الجدل بين الطرفين ولكن يظهر من الاخبار القليلة

التي وصلت اليها عن هذا الاجتماع أن الاقباط والسوريين (ذكر منهم الجبرتي
الخواجه ميخائيل كحيل من اعضاء هذه الجمعية) قالوا اننا اعتدنا أن تقسم موارثنا
على شريعة الاسلام وقر القرار على أن يضع المشايخ بياناً بكيفية الموارث في الشريعة
المحمدية وكان آخر اجتماع لهذا المجلس الغريب يوم السبت ١٠ جمادى الاولى إذ
تقررت فيه عوائد الاملاك والعقار فجعلوها ثلاث درجات يدفع الاعلى ثمانية ريالاً
فرنسية ، والاطول ستة والاولى ثلاثة ، وما كانت أجرته اقل من ريال في الشهر فلا
يدفع عنه شيء . قال الجبرتي « واما الوكائل والحمامات والمعاصر والسيارج
والخوانيت فتمها ما جعلوا عليه ثلاثين واربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع ،
وكتبوا بذلك مناشير على عاداتهم والصقوها بالمفارق والطرقات وأرسلوا منها نسخاً
للإعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص تمييز الاعلى من الادنى وشرعوا في
الضبط والاحصاء وطافوا في الجهات لتحرير القوائم وضبط الاسماء وأرسلوها الخ »
ولا شك في أن هذه الاجتماعات ، وما نشر من قبل من مشروع الضرائب
الجديدة قد شغل بال أهالي القاهرة ، فكان ذلك حديثهم في مجتمعاتهم وكثير
لغظهم ، وتضاربت آراؤهم . وغير خاف أن ثروة مصر في ذلك الزمن تجمعت في
مدينة القاهرة وتنوعت طبقات أهلها ، من الملاك وأصحاب الدور الكبيرة والوكائل
العديدة والخوانيت الكثيرة ، إلى أرباب الحرف الصغيرة ، وهذه الضريبة تسهم
جميعاً من الكبير إلى الصغير ، وكانوا قد ألفوا عدم دفع ضريبة ما اكتشف بما كان
المالِك يتحصلون عليه من ائمان محمولات البلاد وما كانوا يفرضونه من الضرائب
والمغارم على الاغنياء من التجار المصريين والاجانب على حد سواء :

فلا غرابة إن أظهر أهل القاهرة التملل من هذه الضرائب الجديدة الفادحة
التي لم تخل منهم كبيراً ولا صغيراً ، ولا غنياً ولا فقيراً ، فكان ذلك سبباً لثورتهم
وهياجهم تلك الثورة التي عادت عليهم بالويل والنكال كما سنفصل ذلك في مكانه
ومن رأى (لا كروا) عن أسباب الثورة ، أن الاغنياء وأصحاب المصالح من
المصريين ما نوا الفرنسيين وامتنعوا عن مقاومتهم ، لان صوالهم تقضى عليهم

بتجنب أسباب القلاقل ، ولكن فرض هاتيك الضرائب على دورهم وعقارهم ،
وتركهم وديونهم وهواجراتهم ، ودخلهم وخرجهم ، قد نفر قلوبهم من الفرنسيين
فساعدوا على تحريض العامة والغوغاء ،

ومن رأى (بيرييه) أن بعض علماء الازهر وغيرهم من المشايخ الذين لم ينتخبوا
لعضوية الديوان ، ولم يشاركوا الفرنسيين في الأحكام وإدارة الامور ، حقدوا
على الآخرين الذين خصوا بذلك وصارت لهم كلمة مسموعة في شؤون البلاد ، فانتهم
أولئك الحاسدون فرصة تدمر الناس من الضرائب الجديدة ، فحرضهم على الهياج
والثورة تحت ستار الدين

ومن المؤرخين من ينسب ثورة أهالي القاهرة لتحريضات المليك وما ورد من
ابراهيم بك من المشورات ، ومن رجال الدولة العثمانية من المراسلات والمكاتبات .
ومن هؤلاء المعلم تقولا الترك ، وهالك ما يقوله في هذا الصدد ننقله بحرفه لما فيه
من الفائدة التاريخية ، وليقف القراء على أسلوبه ونظريته : قال « إنه من بعد أن مكثت
الفرنساوية ، في المملكة المصرية مقدار ثلاثة أشهر فكان المسلمون يظنون أن ستورد
لهم الاوامر من الدولة العثمانية بتقريرهم على المملكة حسبما كانوا يشيخون ، أنهم
حضروا إلى مصر بإرادة السلطان سليم ، وكان يخبر أمير الجيوش بقدم عبد الله باشا
العظيم من الشام إلى مصر وأعد له منزلا ينزل فيه وأمر بتدبيره وفرشه ومضت
المدة المعينة ولم يحضر أحد فتسبب من قبل ذلك أسباب كثيرة لثورة ، وإبداع الفتن
والشروع ، من قتل السيد محمد كريم لانه كان أحد الاشراف ، ومن ورود المكاتب
من الامراء المصريين ، وكتابات احمد باشا الجزائر إلى البلاد المصرية ، واستنهاضهم
على الفرنسية ، وإنه قادم عليهم بالعساكر العثمانية . وقد كان الفرنسية يخرجون
البنات والنساء المسلمات ، مكشوفات الوجوه في الطرقات ، ثم اشتهار شرب الخمر
ويبعه الى العسكر ، ثم هدم جامع ومنازل في بركة الازبكية لاجل توسيع الطرقات ، لمشى
العربات ، وكان المسلمون يتنفسون الصعداء من صميم القلوب ، ويستعظمون هذه الخطوب
وصاحوا لقد آن أوان القيام ، على هؤلاء اللثام ، فهذا وقت الانتصار إلى الاسلام »

ونحن لا نجد في أن الامور التي عددها المعلم نقولا قد آلمت المسلمين وجرحتهم
 في أدق مشاعرهم ، وليكنها لم تكن هي السبب الاصل في الثورة ، لان منشور الجزائر
 ومكاتيب المالك لم تصل القاهرة إلا بعد الثورة بنحو اسبوعين ، كما هو وارد في
 الجبرتي ، وما نظن الجزائر في عكا قد طبع منه المئات والالوف ، بل غاية ما كتب
 منه بضع نسخ وقعت في أيدي الفرنسيين فأبادوها ، حتى أن الجبرتي نفسه لم
 يحصل على نسخة منها ، وكذلك المعلم نقولا نفسه بدليل خلو كتابيهما منه . ثم أن
 المصريين كانوا قد ألفوا خروج النسوة العاهرات بكشوفات الوجوه مع الفرنسيين ،
 والكثير من أولئك النسوة كن من السراري والجواري البيض والحبشان اللاتي
 وجدهن الفرنسيون في دور المالك ، وأولئك النسوة لادين لهن ولا عرض ، وليسوا
 مصريات ، وما كان المصريون يعلمونهن من الحرائر إلا إذا اعتقن وتزوجن
 يعتقد نكاح . . . وهذا الجبرتي ، وهو من أقدم البيوتات العريقة في الحسب والنسب ،
 ومن أهل التقوى والشدة في الدين ، يذكر خروج أولئك النسوة مع الفرنسيين
 بغير تغيظ ولا انتقاد ، كقوله عند سفر الفرنسيين للشام « وكان معهم عدة مواهي
 ومخفات للنسوة والجواري البيض والسود والحبوش اللاتي أخذوها من بيوت الامراء
 وتزينا أكثرهن بزى نساءهم الافرنجيات » . وكتب الجبرتي عن حضور القومندان
 الفرنسي نخط المشهد الحسيني وجلوسه في القهاوي مع الأهالي فقال : « ويحضر معهم
 ذلك الضابط ومعه زوجته وهي من أولاد البلد الخلوعين » (كذا) ، وغير خاف
 أن أولئك النسوة الرقيقات ، من الارمنيات والروميات والجركسيات ، كن حلالا لمن
 يتاعهن من النصراري واليهود ، وكان أغنياء الاقباط يتخذون منهن السراري كعادة
 المسلمين في ذلك الزمن ، فما كان خروجهن مع الفرنسيين داعيا للثورة ، وإن كان
 فيه من تعيير القلوب ، واستنكار كشف وجرههن ، بعد أن كن نسوة للمالك
 وغيرهم ، بما فيه . ثم إن شرب الجنود الفرنسية للخمر وبيعه لهم بواسطة نصاري الشام
 أو الاروام لا ينقص عيش المسلمين ويدفعهم الى الثورة . ومن الغريب أن المعلم
 نقولا الترك يعدد كل هاتيك الاسباب وينسب السبب المباشر للثورة كما اعترف به
 الفرنسيون وشهد به المعاصرون

وقد كتب الشيخ عبد الله الشرقاوى في رسالته « تحفة الناظرين » قال « فلما قامت عليهم اهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة (كذا) على البيوت ، قتلوا منهم ما يقرب من الالف وهتكوا بعض الاعراض فى مصر وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً ودخلوا بخيولهم الجامع الازهر » . فالشيخ الشرقاوى ، كبير علماء المسلمين فى ذلك الزمن ، قد كان أولى من المعلم نقولا الترك بان يذكر أن خروج النساء حاسرات الوجوه ، وبيع الخمر ، وهدم المآذن والمساجد ، كل ذلك كان سبباً للثورة ، بدلا من تخصيصه السبب بذكر الضرائب على البيوت

وإخلاصة أن الباحث المدقق والمؤرخ المنصف يحكم لاول وهلة أن السبب الاصلى فى تلك الثورة هو مشروع هاتيك الضرائب الفادحة ولا نزاع مطلقاً فى أنه متى وجد السبب ، ودبت عقارب العدوان ، وغلت مراحل القلوب ، تكوّنت الاسباب الاخرى المرشحة للسبب الاول فتعطيه صفة تطير حولها قلوب العامة والغوغاء ، ومن يقبل فيعرض منهم حياته للموت الزؤام تحت مخدر المؤثرات الدينية ، والعوامل الملية ، والنعرات القومية . فالتعصب الدينى الذى ينسبه الكتاب المسيحيون من أمثال نقولا الترك ومن جراه من المؤلفين الحديثين ، كالشيخ الدحداح ومن على شاكلته ، لم يكن هو سبب الثورة بحال من الاحوال . وإن تكن الثورة قد لبست ثوب الدين فى شكل من أشكالها ، فما ذلك الا لمتعضيات الظروف التى لا بد منها والتى تصحب هياج العامة فى كل زمان ومكان

ولست هذه أول مرة نار أهالى القاهرة (أو كانوا على أبواب الثورة) بسبب الضرائب والمغارم فقد حدث فى سنة ١٢٠٢ أى قبل هذا التاريخ بأحدى عشر عاماً أن اسماعيل بك فرض ضريبة على سكان القاهرة فذهب رؤساء الحرف والطوائف إلى الشيخ العروسى ، شيخ الجامع الازهر ، كما ذهب القوم فى هذه المرة إلى دار القاضى ، وركب الشيخ العروسى معهم وقبل اسماعيل بك شفاعته خوف الفتنة ، وإن يكن قد جمع ما أراد بعد بطرق أخرى ^(١)

ثورة القاهرة

ذكرنا في الجزء الاخير من الفصل السابق العوامل التي كونت أسباب ثورة أهالي القاهرة التي حدثت في يوم الاحد ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ - ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ . وقد اطلعنا على نص التقرير الذي بعث به نابوليون لحكومة الديركتوار في باريس عن هذه الثورة . وهذا التقرير مؤرخ في ٢٧ أكتوبر ومحفوظ في مكاتبات نابوليون بنمرة ٣٥٣٨ ، فلم نر فيها أثراً لذكر السبب الذي حمل الاهالي على الثورة والهياج ، وكل ما فيه بيان للخطة الحربية التي اتخذها لاجراء تلك الثورة . وكنت أود أن أتقل عن الجبرتي وصفه لهذه الثورة الداخلية ، كعادتي في الاعتماد عليه في المواقف الاهلية التي تصور القارىء الذكي حالة الشعب المصرى العقلية والنفسية في ذلك الزمن . ولكن مولانا الجبرتي خرج عن أسلوبه الطبيعي البسيط الذي يدون الحقائق عارية عن نوب الخيالات ، واختار لوصف تلك الثورة الفريدة في بابها ، بل ربما كانت الأولى والأخيرة من نوعها . لأنها قد كانت في الحقيقة ثورة أهلية ضد مظلمة عمومية ، وأما الثورة الثانية في زمن كليبر ، فقد كانت حرباً بين جنود الترك والمماليك الذين دخلوا القاهرة بعد انهزام جيش الصدر الاعظم في المطربة وبين الجنود الفرنسية - تقول أن الشيخ الجبرتي اختار لوصف هذه الثورة أسلوب المقامات السجعية ، ليظهر كفاءته الكتابية في ذلك الاسلوب الذي كان يعجب به أهل زمانه إعجاباً كبيراً ، ومع ذلك فلا بد لنا من الاعتراف بان أداء ذنا واعتماد كل مؤرخ في وصف هذه الثورة من وجهة النظر المصرية عليه دون سواه ، لانه « شاهد عيان » وإن يكن - كما يخيل لى - قد أنشأ هذه المقامة التاريخية بعد مضي الحوادث بزمن طويل لانه لو دونها في وقتها لكان أسلوبه فيها بسيطاً دقيقاً كعادته انقضى المجلس العمومى ، أو الجمعية العمومية على اصطلاح زماننا ، يوم السبت بعد تقرير تلك الضرائب الجديدة الفادحة فكثير لفظ الناس وتناجوا فيما بينهم ، واندس فيهم من ذوى الاغراض وآلات الفساد من أوغر صدورهم . ومن هؤلاء

بعض آلات الانكيز وجواسيسهم ، كما يذهب اليه كتاب القرنساويين^(١) ، وإن لم يكن لدينا دليل تحقيقي - وقاما يوجد دليل يجزم في مثل هذه الامور - فلم يكف يلوح فجر يوم الاحد حتى امتلأت الطرقات بالغوغاء ، وليس لهم زعيم عاقل ولا مرشد مفكر . قال الجبرتي « ووافقهم على ذلك بعض المتعمين الذي لم ينظر في عاقبة الامور ، ولم يتفكر أنه في القبضه مأسور »^(٢) مما يؤيد أن حزبا من المشايخ قد كان حاقداً وحاسداً للعلماء الذين خصهم القرنساويون بالعناية والرياسة وكان في القاهرة في ذلك الوقت رجل اسمه - السيد بدر وهو رجل سورى الاصل من بيت المقدس - تقول إن ذلك السيد بدر جمع حوله جمعاً غفيرا من « حشرات الحسينية » وزعر الحارات البرانية » ، وانضم اليهم خلق كثيرون حتى بلغوا نحو الالف عدداً وقصد هذا الجمع القوضى بيت القاضي الكبير بتصد أن يطلبوا منه التوسط لهم لدي القرنساويين في محو تلك الضرائب أو تخفيفها . وكان القاضي المشار اليه ، هو القاضي التركي الذي بقى في مصر ولم يفر مع ابراهيم بك وبكبير باشا ، وكان حقا عليه ذلك ، لانه مولى من قبل السلطان بفرمان . ولما كان نابوليون ميالا لحفظ الصفة الدينية ، ومظهر السيادة العثمانية ، أبقى ذلك القاضي في وظيفته وتجب اليه كثيرا ومنحه المنح الكثيرة والعطايا الوافرة ، حتى لقد ذكره في تقريره عن هذه الثورة فقال عنه « إنه رجل محترم لعلمه وفضله » ، وكان اسمه ابراهيم أدهم افندي ، كما ورد في التقرير المشار اليه واسمه في كتاب الجبرتي « بجمقمشي زاده »

وكان من عادة المصريين أن يلجأوا الى علماء الدين وقضاة الشرع في شكواهم من ظلم المالك وأتباعهم ، ولذلك كان الغرض من التوجه الى بيت القاضي ، هو حمله على الذهاب إلي نابوليون . وفي رواية الجبرتي ، أن القاضي لما رأى تجمعهم خاف العاقبة « وأغلق أبوابه ، وأوقف حجابته » ، ولكن رواية نابوليون في تقريره تقول إنه دخل على القاضي في أول الامر نحو عشرين رجلا من الثائرين ، فركب فعلا جواده

(١) دنيس لاكروا صحيفة ٢٠٨ بونايرت بمصر

(٢) ما كان بين هاتين العلامتين « فهو من تعبيرات الجبرتي »

وخرج ، ولكنه ما كاد يسير قليلا حتى ألفت واجد من اتباعه نظره الى كثرة
المجتمعين وهاجهم ، فرأى أن تلك الملاحظة صحيحة ، ونزل في الحال عن جواده
ورجع إلى بيته ، فحنق عليه القوم واجتمعوا حول داره يرجونها بالحجارة
ولو أن القاضى حذرهم سوء العاقبة ولم يداخله الخوف من كثرة تجمعهم ، وسار
أمامهم إلى دار نابوليون ، أو من ينوب منابه ، لكان من الممكن أن تبدأ نائرة القوم
أثناء المناقشة ، سواء بالوعد أو بالوعيد . ولكنه لم يفعل ، فزاد بذلك هياج القوم
وغيظهم واندلع لهيب الثورة في أحياء القاهرة .

ولا نظن أن مولانا القاضى قد اتخذ تلك السياسة لكي يزيد الخرق اتساعا ؛
فقد يخطر ببال المفكر أن القاضى رجل تركى حاقدا على الفرنسيين ، وقد قضت
عليه الظروف ، التي فوق طاقته ، بالبقاء في مصر فصانع الفرنسيين ولاطفهم ، حتى
إذا رأى أهل القاهرة في ثورة صحيحة ضد أولئك المغيرين لم يشأ أن يقف عقبة
في سبيلها ، وفضل أن يزيد في إشعال نارها بلا متناع عن الشفاعة للقوم ، ولورمونه
بالخيانة ، ورجوه بالطوب والحجارة ؛ والترك مشهورون بالدهاء وسعة الحيلة !...

قد يكون هذا الظن معقولا لو كانت لدينا الأدلة على أن ابراهيم افندى
هذا كان من ذوى الاخلاق القوية . إلا أن تاريخه في حوادث مصر يشير الى عكس
ذلك . ويدل على أنه كان رجلا ضعيف الارادة ، جبان القلب ، كما يؤيد ذلك بقاؤه
في القاهرة مع استطاعته الفرار مع ابراهيم بك ومماليكه ورجال الدولة ، وكان هو
أولى بذلك من السيد احمد المحروقي والسيد عمر مكرم ، ثم حدث في أثناء غزو نابوليون
لسوريا أن مصطفى افندى ، كتحدا بكر باشا ، الذى عينه الفرنسيون أمير الحج
وقر بوه ورفعه خدع القاضى « وأخرجه معه على الفرنسيين » على غير إرادة منه كما
سيأتى ذلك مفصلا في باب

وكيفما كانت الحال فان الثورة اندلعت لطيها ، واشتد أوارها ، وأخذ الغوغاء يكثر
من الجذبة ، والصياح قائلين « نصر الله السلطان » ؛ وهكذا من خزعاتهم المعروفة ،
في تلك الاحوال المألوفة . ونادى بعض المغممين الضالين المضلين بالجهاد وقتل الكفار !!

وليت شعري أين كان هؤلاء وأين كانت هذه الوطنية والنعرة الدينية والفرنسيون لا يزالون في البر الغربي وبينهم وبين القاهرة نهر واسع عريض ! ومعهم من المالك عدد عديد ، ومن الآلات والأسلحة شيء كثير ! ولكنه الجول يقوم حيث يجب أن يقعد ، ويقعد حيث يجب أن يقوم !

كان نابليون في تلك الآونة خارج القاهرة لأنه برحها مبكراً مع بعض أركان حربه قاصداً مصر العتيقة وجزيرة الروضة . وكان الجنرال جونو Juno مقبياً في الأزبكية حيث يقطن الجزء الأكبر من الفرنسيين وكان الجنرال « ديبوى » المسكف بإدارة قومندانة القاهرة (أى حاكمها) في منزل ابراهيم بك الوالى المثل على بركة النيل ، فلما وصلت الى هذا الاخير أخبار تجمهر القوم وهياجهم خرج من داره قاصداً خط الغورية ليقابل الشيخ عبد الله الشرفوى ، كبير العلماء ورئيس الديوان ، للاستفسار منه عن هذه الحركة المفجائية ، فلم يجده في منزله ، وربما كان في ذلك الوقت في الجامع الازهر حيث احتشدت انخلائق وتكاثرت الجموع وكثر الصياح والغط . وكان الجنرال ديبوى رجلاً في سن الثامنة والثلاثين من عمره ، نشأ جندياً في ارتوا Artois ورقى ببسالته واقدامه في درجات الجندية حتى صار في رتبة الجنرال التي منحه اياها نابليون في مصر في هذه السن الفتية . وزيد بهذا الوصف أن نقول انه كان جندياً جسوراً مجازفاً فلذلك اندفع في وسط الجموع ، وليس معه الا شردمة من الفرسان ، وفصيلة من البيادة لتوجه الى بيت القاضي ، فمر من شارع الصنادقية ، فوجد الزحام شديداً ، قال الجبرتي « نجاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الأخطاط بانخلائق مزحومة » . وروى نابليون في تقريره المشار إليه أن أحد رجال الانكشارية الذين عينوا في بوليس القاهرة لما رأى ازدحام الناس ووقوفهم في وجه الجنرال (ديبوى) أطلق طبنجته الكبيرة فكان ذلك سبباً في إشعال نار الثورة ، وخروج القوم عن حد الصواب . وغزيب أن نابليون لم يرض أن يذكر في تقريره ، أن الذى اطلق طبنجته ، فكانت سبباً في إلهاب نار الثورة ، هو ذلك اللعين برطلمين الرومى صنعهم وسنأتى على طرف من سيرته . فلما رأى

ذلك الجنرال دييوى حمل على القوم المتجمعين بمن معه من الجنود واندفع هو شاهراً سيفه أمامه فرشقه واحداً لا يعرف من هو ، بسهم أو نوع من أنواع الحراب فقطعت له شرياناً وسقط قتيلاً يتدرج في دمايته . وفي رواية المعلم نيقولا الترك إن الذى قتل الجنرال دييوى ، رجل من الأتراك ضربه بخشبة على خصرته في سوق النحاسين . ومما جاء في كتاب الحملة الفرنسية ^(١) أن « مسيو بودوف كاف » ، من تجار الفرنسيين في مصر ، وأحد أعضاء الديوان ركب مع دييوى في ركبه المشؤومة فلما أحس دييوى بالسهم التفت لبودوف وقال له : « لقد قضى على » .

جرى الدم في شوارع القاهرة بين الفريقين فكان فاتحة الحرب وخاتمة الدمار إذ دار القتال بين الجنود والاهالي : قال الجبرتي « فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح ، وآلات الحرب والكفاح ، ومسكوا الاطراف الدائرة ، بمعظم الخطاط القاهرة ، كباب القموح وباب النصر والبرقية ، إلى باب زويلة وباب الشعريه ، وهدموا مساطب الحوائت ، وجعلوا أحجارها متاريس ، ووقف دون كل متراس ، جمع عظيم من الناس » وبعبارة موجزة إن الاهالي تحصنوا في الدور والطرقات الضيقة وعلى أبواب المدينة التي ذكرها الجبرتي كأنهم في حصار وأى حصار !

فلما شاعت الاخبار أسرع الجنرال (جونو) فبعث رسولا لنابوليون فحضر

(١) كتاب تاريخ الحملة الفرنسية الذى نشر اليه هو كتاب يقع في عشر مجلدات اطلقت على نسخة منه في مكتبة المجلس البلدى بالاسكندرية وليس له نظير في دارالكتب المصرية بالقاهرة ، وهو مطبوع في باريس سنة ١٨٣٢ ألفه جماعة من الرجال الذين اشترك بعضهم في الحملة على مصر وجمعت فيه الاوراق والرسائل والكتب والمذكرات التي لم تكن طبعت من قبل تحت اشراف الاساتذة ساتين ومارسيل ورييو. Saintine, Marcel, Reybaud. Histoire) ومارسيل هذا هو أيضاً واضع الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه ، واسم الكتاب (Histoire Scientifique et Militaire de L'Expedition Francaise en Egypte) ومن الذين كتبوا في هذا السفر مسيو « بيروس » Peyrusse سكرتير خصوصى للجنرال كليبر . ولهذا الرجل رسالة عن اقدمته بمصر ، ونسخة من ترجمة الجزء الخاص بالحملة الفرنسية من الجبرتي . والكتاب ليس قاصراً على الحملة بل فيه جزآن عن مصر من التاريخ القديم لحين الحملة وستة أجزاء عن الحملة وجزآن عن مدة محمد على

مسرعاً بن معه من جهة مصر العتيقة ، فوقف القوم في طريقه ولم يكن نابوليون متهوراً مثل «ديبوى» ولذلك رضى أن يقصد جهة بولاق ويدخل من جهة الازبكية وفي الحال أصدر أوامره بالسرعة التي امتاز بها في أدوار حياته العسكرية ، فعين الجنرال « بون » لقومندانية القاهرة بدلا من «ديبوى» وأخذ في إعداد المدافع في الجهات المناسبة ووجه بالجنود إلى أحياء المدينة المتطرفة فأطلقت البنادق على الاهالي بلا تمييز ولا تدقيق

وكان في القاهرة ، كما يوجد فيها الآن عدد وافر من المغاربة ، وهم عادة من اجلاف القوم وأهل الشرور الذين يودون مثل هاتيك الظروف السيئة ليعيشوا في البلاد سلباً ونهباً ، فالوئك القوم كانوا أول من تظاهر بالحمية القومية والغيرة الدينية ووقفوا ، كما يقول الشيخ الجبرتي ، عند جهة المناخلية ، فقصدهم الفرنسيون وأجلوهم عن تلك البقعة فارتدوا عنها منذعرين وأنسابوا في المدينة مع من انضم إليهم من أسافل القوم ، وامتدت أيديهم لنهب الدور وهتك النساء ، والتعرض للنصارى واليهود بالأذى . ومن الغريب أن أولئك المغاربة قد كانوا أول من انضم إلى الفرنسيين بعد إخماد هذه الفتنة ، واتخذوا منهم جنوداً بعثوا بهم إلى المنوفية لمقاتلة أهلها وخصوصاً آل شعير في كفر عشا ، وسندكر ذلك في حينه . قال الجبرتي عن أولئك المغاربة وأسافل العامة « وسبوا النساء والبنات ، ونهبوا خان الملايات ، وما به من الامتعة والموجودات ، وأكثروا من المعائب ، ولم يفكروا في العواقب »

وبقي الحال على هذا المنوال حتى أقبل الليل وأرخص سدوله على المدينة . وكم كان في تلك الساعة من امرأة تندب حظها ، وبنات يصرخن ، وأمهاث يولولن ، وشيوخ عاجزين عن صديار الفتنة ! ! وانتهز نابوليون فرصة دخول الليل . قال في تقريره « وفي منتصف الليل سار الجنرال دومرتين Dummartin ببطارية من المدافع فوضعها على مرتفع واقع بين القبة والقلمة وذلك المرتفع يتسلط بمسافة نحو خمسمائة قدم على حيّ الجامع الازهر » وفي هذا يقول الجبرتي « وأما الإفريج فانهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلمة واقفين ، ولأمر كبيرهم منظرين »

والحق يقال إن نابوليون لم يرد أن يأمر بأطلاق القنابل على المدينة لما في ذلك من تخريب الدور وازهاق الأنفس قبل أن يبعث للقوم برسول السلام، وكلمات النصيح والتجذير

قال الجبوتي « وكان كبير الفرنسيين أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ومن المظالمة ». وكانت الطلقات النارية ومن البنادق تتجارب في كل مكان وحتى ، بين الاهالي من جانب ، والنصارى المختمين في دورهم ، وبعض الفرنسيين والاجانب الذي استوطنوا في بعض أحياء القاهرة ، من آخر. قل (ميو) في مذكراته « وكان كثير من الفرنسيين الذين أنشأوا المطاعم والقهاوى متشتمين في أطراف المدينة فأولئك فك بهم الثائرون ونهبوا دورهم ، وكذلك حاضر القوم دار العلماء فاضطر هؤلاء أن يدافعوا عن أنفسهم » وذهب جماعة من الثائرين الى الدار التي يسكنها الجنرال (كفريللي) المهندس الكبير وهي دار مصطفي كاشف بالذرب الاجر ونهبوا أدواته وكسروها ، وقتلوا بعض الفرنسيين ومن بينهم اثنان من المهندسين وهما (تيفنو) و (دوفال) Trevenon و Duval فاضطر الباقون الى الفرار للقلعة وجاءوا بالمدد من جهة الحجر ، وأحاطوا بمن في الدار من المسلمين وقتلهم عن آخرهم ، وكان منهم أحد المشايخ المسمى الشيخ محمد الزهار . ولكن بعد أن كسر الثائرون أكثر الآلات الهندسية والنظارات انفلجكية مما يعجز وجوده بعد ذلك خصوصاً في ذلك الزمان والمسكن . ومن قتلهم الثائرون من العلماء والفضلاء مسيو (تستفويد) Testiviude وهو شيخ يبلغ من العمر فوق الستين وكان في ذلك الوقت يشتغل برسم خريطة للقطر المصري وقتل أيضاً دوبريه الرسام Dupres وخلص «جومار» العالم الكبير لحسن حظه وحظ العلم . وقد كتب (دينون) فصلاً مطولاً في كتابه عن مركز رجال العلم في دارهم وكيف كلفوا قلوبهم حتى اخذت الثورة ، وله كلمات حلوة جميلة عن الجنرال (ديبوي) وخصوصاً عن الضابط البولوني (بولسكي) الذي قتل بعد ذلك

رزوي نابوليون في تقريره أن المشايخ من أعضاء الديوان وعلماء الأزهر

قصدوا الجهات التي تترس فيها الناثرون ونصحوهم بالسكف عن القتال ، وإنما يذهبون الى كبير الفرنسيين ويمهدون أسباب الصلح . فلم يستمعوا لهم وسبّوهم وهددوهم بالقتل إن تعرضوا لهم . عند ذلك يئس نابوليون من إجابة القوم الى رشدهم فأصدر أمره عند الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين باطلاق القنابل على الجامع الازهر وما حوله من الجهات حيث يوجد الناثرون . قال الجبرتي « وتعمدوا بالخصوص الجامع الازهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المجاورين ، كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكن في عمرهم عينوه ، نادوا ياسلام ، من هذه الآلام ، ياخفي اللطاف ، نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا في الشقوق »

ولا يكاد الانسان يتلو عبارة الجبرتي ، التي نقلناها ، حتى يشعر بشيء من الاستهزاء أو الضحك ، الذي هو أشبه بالبكاء لسخافة أولئك القوم ، وتصورهم إمكان مقاومة الفرنسيين ، وهم عزل من السلاح ، ومحصورون من جميع الجهات ، ومع خصمهم المدافع الكبيرة ، والقنابل الكثيرة ! قال الجبرتي بعد كلام طويل على ذلك النسق الغريب « وتتابع الرمي من القلعة والمكيان ، حتى ترزعت الاركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل . فلما عظم الخطب ، وزاد الحال والكره ، ركب المشايخ الي كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمي المتراسل . . . فلما ذهبوا اليه عانهم في التأخير ، واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا اليه فقبل عذرهم ، وأمر برفع الرمي عنهم ، فقاموا من عندهم ينادون بالامان في المسالك ، وتسامع الناس بذلك ، فردت فيهم الحرارة ، وتسابتوا لبعضهم بالبشارة ، واطمأنت القلوب ، وكان الوقت قبل الغروب ، وانقضى النهار وأقبل الليل . . . »

وأول ما يتبادر لذهن القارى من تقرير نابوليون لحكومة الديكتور انه أراد تلطيف ذكر هذه الثورة وتخفيف شأنها لكي يفهمهم في باريز أن مركزه في مصر

محفوف بالاختطار ، وأنه مقيم بجيشه وسط شعب يتحين الفرص للاقتضاض عليه ،
أو للاقتضاض عنه ، فذلك اكتفى نابوليون بالقول إنه ما كاد يطلق قنابل المدافع
على الثأرين مدة عشرين دقيقة ، حتى تبدد شملهم ، واحتل الجنود الجامع الأزهر
وزهقت روح الفتنة ! ! في حين أن الحرب بقيت سجالاتاً في جزء كبير من الليل كما
يشهد بذلك الجبرتي ، إذ يقول إن أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ، استمروا على
القتال إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات ، وما منعهم عن الاستمرار إلا لأن
البارود قد فرغ منهم ، فعجزوا عن المقاومة ، ولم يدخل الفرنسيون المدينة - على
رواية الشيخ - إلا « بعد هجمة الليل ، دخل الأفرنج المدينة كالسيل ، ومرروا في
الازقة والشوارع ، لا يجدون لهم من ممانع ، كأنهم الشياطين ، أو جنود أبلس العين ،
وهدموا ما وجدوا من المدارس ، وكروا درجوعاً ، وترددوا وما هجموا ، ثم دخلوا
إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول »

وحكاية الشيخ الجبرتي الأزهرى عما عمله الفرنسيون في الجامع الأزهر من
أنواع الإساءة وخرق حرمة ذلك المكان المبجل ، من العبارات التي تملأ القواد
حسرة ، والنفس كآبة ، ولولا خوف التطويل نقلناها عنه فليراجعها من يشاء .
ولما نذكر هنا أن الجنود الفرنسية وخبولها بقيت في الجامع الأزهر من مساء
يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء . إذ يقول الجبرتي إن المشايخ ذهبوا في ذلك اليوم
إلى نابوليون ورجوه في إخراج العسكر من الجامع الأزهر « فأجابهم لذلك السؤال ،
وأمر باخراجهم في الحال » . . . ولكن المعلم نقولا الترك يقول إن نابليون لم يجب
المشايخ إلى طلبهم ثم قال « فأنصرفوا من أمامه باكين (كذا) وعلى أحوالهم نائحين ،
وتأسفوا على جامع الكنانة ، وخراب الديانة ، ثم في ذلك النهار أرسلوا له الشيخ
محمد الجوهري وكان في كل حياته ما كان يقابل أحداً من الحكام ، ولا يتعرض إلى
أمور العوام ، وفي دخوله قال له ما قابلت حاكماً عادلاً أو ظالماً ، والآن وقد
أثبت متوسلاً إليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الأزهر ، وتغفر ذنب
هؤلاء القوم العجبر ، واتخذني مدى العمر داعياً لك ناشراً فضلك ، فأشرح أمير

الجيش من ذلك الخطاب ، وانعطف قائلا أنني عفوت وصفححت عن أحبابك ،
لأجل خطابك »

وقد جاري جورجى زيدان المعلم نقولا فى روايته عن شفاعة الشيخ محمد الجوهري
ونحن لا نتعرض لنفيها أو إثباتها، ولكننا نستغرب افعال الجبرتي لها، مع أنه أولى بمعرفتها
لصداقته وثقته بالشيخ الجوهري ، ثم نقول إن ما ذكره المعلم نقولا عن الشيخ
الجوهري ، من حيث اعتكافه وعدم زيارته للامراء والحكام ، صحيح إذ كان
ذلك الرجل من أهل الفضل والمكانة السامية لأنه من أهل العلم ومن بيوت
الحسب والجاه ، ذكره الجبرتي في وفيات سنة ١٢١٥ وقال عنه إنه كان من الذين
حضروا على والده الشيخ حسن الجبرتي، وكان آية في الفهم والذكاء وألقى الدروس
بالأشرفية وأظهر التعفف والامتناع عن خلطة الناس ، والذهاب والتردد الى
بيوت الاعيان ، وساعده على ذلك الغنى والثروة وشهرة والده ، وتردد الامراء
على داره وسعوا لزيارته . وكانت شفاعته لا ترد عندهم ، وطار صيته فى الآفاق
ووفدت الوفود عليه من الحجاز والهند والشام والروم ، وطلب لمشيخة الجامع
الازهر فأبى ولكنه تقضى ما أبرمه العلماء والامراء ورد المشيخة للشافعية بعد أن كانوا
قد عينوا فيها الشيخ عبد الرحمن العريشى الحنفى ، وعين الشيخ الشرفاوى بعد
العروسى بإشارته . ولم يذكر الجبرتي فى ترجمة الشيخ الجوهري المطولة أنه زار
نابليون أورجاه وكل ما ذكره من علاقته بالفرنساويين قوله « ولم يزل وافر الحرمة
معتقدا عند الخاص والعام حتى حضر فرنساوية واختلت الامور وشارك الناس فى
تلقي البلاء وذهب ما كان له بأيدى التجار ونهب بيته وكتبه التى جمعها وتراكت
عليه الموموم والامراض ، وحصل له اختلاط ولم يزل حتى توفى يوم الأحد حادي
عشرين شهر القعدة بحارة « برجوان » وله عدة مؤلفات فى العلوم والمباحث
الشرعية ذكرها الجبرتي وهى تربو على الثلاثين مؤلفا ورسالة

ولم يقتصر أمر الثورة على سكان القاهرة اذ كان من الطبيعى أن تنتشر الاخبار
فى البلاد المجاورة فيسارع الفلاحون والعربان لنصرة اخوانهم ، وفعلا قدم الى

القاهرة من جهة القليوبية عدد كبير من الفلاحين والبدو فاضطر نابوليون أن يبعث بفرقة من الخيالة تحت قيادة الجنرال دو مانس Dumas لمقاومة الفلاحين بالقرب من بلدة القبة وعزبة الزيتون فحال بينهم وبين القاهرة

وكان زعيم العرب والفلاحين القادمين من القليوبية لنصرة الثائرين في القاهرة المرحوم شيخ العرب سليمان الشواربي جد آل الشواربي^(١) المعروفين في القليوبية وقد روى المعلم نقولا التركي أنه لما صمم أهل القاهرة على الثورة كتبوا إلى الشيخ الشواربي يستجدونه « وعينوا له زماناً يحضر بعشائر العربان وقد أتى في الميعاد إذ كانت الفرنسية محيطة بالقاهرة فصر بهم الفرنسيون بالمدافع والرصاص فولوا منهزمين »

وليس في الخبرني أثر لهذه الرواية. والقرائن كلها تدل على صحتها، ولعل السبب في ذلك هو أن الشيخ الجبرتي كان في حيّ الأزهر مع المحصورين المضروبين، بينما كان المعلم نقولا الترك مع الفرنسيين المحاصرين للمدينة ولذلك استطاع أن يعرف أن الفرنسيين صدوا القادمين للنجدة وضر بهم بالمدافع والرصاص فولوا منهزمين. والدليل على صحة الرواية هو ماورد بعد ذلك في حوادث أوائل شهر رجب في الخبرني قوله إن كبير الفرنسيين الذي بناحية قليوب حضر ومعه سليمان الشواربي شيخ الناحية وكبيرها فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل أنهم عثروا على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة إلى سرياقوس ليحرضهم على قتال الفرنسيين. وقال في حوادث آخر شهر رجب هذا، أنهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربي ومعه ثلاثة من عرب الشرقية قطعوا رؤوسهم بالرميعة ونقلت جثة الشواربي إلى قليوب ودفن هناك مع أسلافه، رحمه الله وكان حاكم القليوبية الذي قبض على الشواربي هو الجنرال مورات Murat صهر نابوليون وملك إيطاليا فيما بعد، وصاحب الشهرة الواسعة في تاريخ أوروبا وحروبها

(١) يتناقل آل الشواربي رواية عن مقتل جدهم سليمان الشواربي، وهي أنه لما احتل الفرنسيون القاهرة اعتمهم في الجبل الغربي ولم يسلم لهم واستمر بناوهم وبنائوشهم ويمتد هو وقبيلته على جنودهم كما سنحت له الفرصة، ولما هدأت الثورة أرسل نابليون الشيخ الشرقاوي إلى سليمان الشواربي للصلح معه فرفض ثم عاد الشيخ الشرقاوي بخطاب من نابليون يقول فيه أنه يريد أن ينصبه والياً على مصر فصدق الشواربي وسار مطمئناً مع الشيخ الشرقاوي إلى القاهرة فنكت نابليون عهده وأمر بقتله

النا بوليونية وتاريخ حياته أشبه برواية من الروايات الخيالية ويكفي أنه ارتقى من جندي بسيط الى ملك عظيم

وحاول المصريون أيضاً من أهل القرى المجاورة كالجيزة وما وليها الهجوم على القوي الفرنسية واجتمع منهم على رواية نابوليون في تقريره نحو أربعة أو خمسة آلاف فحملت عليهم فرقان تحت قيادة الجنرالين لان (Lannes) وفو (Veaux) فبددنا شملهم وكذلك اقبل جماعة من البدو الي جهة باب النصر فأوفد نابوليون الكولونل «سولكوسكي» البولوني أحد اركان حربه فقتل هو ومن معه الاقراً واحداً

وليس من الغريب أن يتبع الفرنسيون إتحادهم الفتننة بالانتقام من المصريين عن قتل من أبناء جنسهم، سواء من الملكيين أو من الحربيين ، كيف لا وقد قتل منهم من القواد الجنرال ديبوى وكان محبوباً لبسالته وجرأته ، وكذلك قتل العربيان كما ذكرنا الكولونيل سولكوسكي وكان ضابطاً بولوني الأصل من ذوى القضايل والمكالم ، وأى فضيلة أشرف من فضيلة الوطنية لدى رجل أبت نفسه أن يبقى في بلاده بعد أن هدمت المطامع الأوروبية سور استقلالها فارتحل عنها المجد والحريه ، فجاء مصر يفعل فيها مثل ما فعل في بلاده! حتى لقي حتفه في ارض ما عرفت الحريه ، ولا ذاقت طعم الاستقلال. ولقد أحبه نابليون حبا حتى لقد سالت الدموع من عينيه حين علم بمقتله . وكثيرا ما ذكره وأثني عليه ، ولقد رثا « دينون » مقتل سولكوسكي بكلمات هي السحر الخلال وقال : كان ذلك الضابط الجميل الرشيق صديقاً حقيقياً ، طموح النفس ، عالي الهمة الي آخر ما أسبغ عليه من الثناء والاطراء

ويقدر نابليون في تقريره عدد من قتل من المصريين في هذه الثورة السخيفة بنحو الفين إلي الفين وخمسمائة . وقدر خسارة الفرنسيين بنحو ستين نسمة من الجنود الملكيين

واما المعلم نقولا الترك فيقدر الخسارة باكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة فقال « وقد كان مات بهذه الواقعة الفا صلدات (استعمل المعلم نقولا هذه الكلمة عن الجنود وهي فرنسية Soldat عسكري) ومن أهالي المدينة ما يذيف عن خمسة آلاف »

وهي مبالغة لاشك فيها خصوصاً فيما يتعلق بخسارة الفرنسيين
والي القارىء سلسلة انتقامات الفرنسيين من المصريين تسردها واحدة
فواحدة ، فنبدأ بما رواه الجبرتي ، ثم نأتي على أقوال الفرنسيين انفسهم .
تقتطف من الجبرتي في الجزء الأخير من مقامته الثورية العبارات الآتية
قال : « ثم تردد الفرنسيين في الاسواق ووقفوا صنفوا ، مئين وألوفاً ، فإن
مربهم أحد فتشوه ، وأخذوا ما معه وربما قتلوه ، وتحزبت نصارى الشوام ، وجماعة
أيضا من الأروام ، واغتمنوا الفرصة في المسلمين ، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين . .
واتدب برطلمين للعسس ، على من حمل السلاح واختلس ، وبعث أعوانه في
الجهات ، يتجسسون في الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه
النصارى من أبعاضهم ، فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم
الكثير ، ويركب في موكب وبسير ، وهم موثقون بين يديه في الجبال ، ويسحبهم
الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم بالمتهوبات ،
ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب . . .
وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم . . . ومات في هذين اليومين
وما بعدها أم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله ! »

وليت شعري هل أحصى نابليون تلك الخلائق الذين فتكوا بهم بعد إخماد
الثورة وخلود الناس الي السكينة ، فيما قدره من خسارة الثائرين في تقريره الأنف
الذكر ؟ أو كان الألفان أو الألفان ونصف ألف خارج هذا العدد الذي لا يحصيه
إلا الله ، ، على رأى الجبرتي ، طيب الله تراه ؟

(ثانياً) ألقوا القبض على عدد كبير من كبار القوم المتهمين بأشغال جذوة
الثورة ومن هؤلاء ذكر الجبرتي الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميات ،
والشيخ أحمد الشرقاوي ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي ، والشيخ يوسف المصليحي ،
والشيخ اسماعيل البرواي ، وفي اليوم التالي (١٢٣ أكتوبر) أصدر نابليون أمراً
(محموظاً في مخاطباته بنمرة ٣٤٢٧) إلي الجنرال (بون) قومندان القاهرة « بأن

يقتل أولئك المشايخ، ومن قبض عليهم من زعماء الثوار وذلك بأن يؤخذوا ليلاً إلى شاطئ النيل بين مصر العتيقة وبولاق ثم يقتلوا وتلقى بجثثهم في مياه النهر »

وقد بقي أهل القاهرة عدة أيام لا يعرفون ماذا جرى لأولئك المشايخ والفرنساويون يخفون عليهم الأمر، والشيخ الجبرتي يقول: « أخذ الفرنسيون المشايخ من بيت البكري وعروهم عن ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ثم أخرجوهم وقتلهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة وتغيب حاكم عن أكثر الناس أياماً »

وكان ذلك ليلة الأحد ٢٥ جمادى الأولى، مع انهم كانوا قتلوا قبل ذلك بعدة أيام وطرحت جثثهم بالنيل ويظهر أنهم حقيقة عروهم عن ثيابهم وأخفوا رؤوسهم والا لوطرحت في النهر لطفتم رممهم وتعرفهم الناس في أماكن مختلفة. ولا ندرى من أين جاء المعلم نقولا التركي بأن الفرنسيين عقدوا مجلساً وحاكوا الذين القى القبض عليهم محاكمة قانونية، مع ان الفرنسيين، وهم أولي بالدفاع عن أنفسهم، لم يذكروا شيئاً من هذا! أفنكون ملكيين أكثر من الملك؟

ويقول المعلم نقولا الترك أيضاً « إن نابوليون وجد من بين أولئك المقبوض عليهم اثنتان من أعضاء المجلس العالى، فبعد قتلها أمر بالغاء المجلس»، ولا ندرى من كان من أولئك المشايخ في المجلس العالى الذى يشير اليه وكلهم ماعدا الشيخ الجوسقى من متوسطى المدرسين الذين يقرأون الدروس فى الازهر وفى غيره من المساجد مثل المشهد الحسيني وزاوية الجوهريه وجامع الكردي، ويظهر من تراجعهم أنهم كانوا من أهل التقوى والصالح والابتعاد عن المشاكل. أما الشيخ سليمان الجوسقى فكان من ذوى المطامع وأهل المشاغبات، وتاريخه من الامور العجيبة ولذا رأيت أن أذكره بشيء من التفصيل لانه يرسم لنا صورة من حياة ذلك العصر.

الجوسقى نسبة الى الجوسق وهى على الاغلب بلدة فى مديرية الشرقية (١)

(١) جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى إن « الجوسق » من قرى النهروان من أعمال بغداد ينسب اليها ابن على بن ابراهيم الجوسقى الضرير المتوفى سنة ٥٣٣ هـ قال والجوسقى

قال عنه الجبرتي أنه ولي شيخا على العميان بزوايتهم المعروفة الآن بالشنواني فسار فيهم بصرامة وجبروت ، وجمع بجاههم أموالا عظيمة وعقارات ، فكان يشتري غلال المستحقين المعطلة بالأبعاد (كأن يكون لاحد الناس استحقاق في وقف ما في جهة من جهات القطر البعيدة يستولى عليها الملتزمون من المالك ولا يدفعون المستحقين شيئا فيأتي الشيخ الجوسقي ويتناح من المستحقين غلتهم) بدون الطفيف ويخرج كشوقها وتحاولها على الملتزمين ، ويطلبهم بها كيلا وعينا ، ومن عصي منهم بعث اليه بالجيش الجارة من العميان فلا يجد بدأ من الدفع ! ! وله أعوان يرسلهم الى الملتزمين بالجهة القبيلة ، يأتون اليه بالسفن المشحونة بالغلال والمعونات (بدل الغلة) من السمن والعسل والسكر والزيت وغير ذلك ، ويبيعها في سني الغلاء بالسواحل والرقع ^(١) بأقصى القيمة ويطحن منها على طواحينه دقيقا ويبيع خلاصته في البطط ^(٢) بحارة اليهود ويعجن نخاله خبزا لفقراء العميان يقتاتون به مع ما يجمعون من الشحاذة في طوافهم بالليل وأطراف النهار بالاسواق والازقة ، وتغنيهم بالمدائح والخرافات ، وقراءة القرآن في البيوت ومساطب الشوارع وغير ذلك ومن مات منهم ورثه الشيخ الجوسقي . وكثير من أولئك العميان الشحاذين من ترك ثروة طيبة فصار الشيخ بذلك من ذوى اليسار والنفوذ تحشى سطوته ، وتسمع كلمته يركب البغال واتباءه محذوقون به « وعلى رواية الجبرتي أنه « تزوج الفتيات الجميلات واشترى السراري البيض والحبش والسود ، وكان يقرض الاكابر المقادير الوافرة

قريبة كبيرة عامرة بالخوف الشرق من أعمال بابيس من نواحي مصر والجوسق ناحية بالري قال شاعر عظمش الضبي

لعمري لحو من جواء سويقة أسافله ميت وأعلاه أجسرع

أحب الينا ان نجاور أهلها ويصبح منا وهو مرأى ومسمع

من « الجوسق » الملعون بالري كما رأيت به داعي المنية يلمع « اه

وقد لجأنا الى هذا البيان فقد يكون الشيخ سليمان الجوسقي الذي قتله الفرنسيون من النازحين الى مصر في طلب العلم بالجامع الازهر والاغلب كما قلت ان انتسابه هو لبلدة الجوسق في مديرية الشرقية وينطقونها « الجوسا » بالهمزة

(١) جمع رقمة وكان هذا اللفظ يستعمل بمعنى السوق فكان يقال « رقمة التمع » أى سوق التمع (٢) لا أعرف معنى هذا ولعله معناها الافران أو المعاجن أو طابونه

من المال ، ليكون له عليهم الفضل والمثنة ، ولم يزل حتى حمله التماخر في زمن الفرنسيين على إثارة الفتنة التي أصابته وغيره وقتل فيمن قتل بالقلعة ولا يعلم له قبر . ومن غريب أمر الشيخ الجبرتي أنه لما ذكر وفاة المشايخ الآخرين كان يختم ترجمة كل واحد منهم بقوله « أنهم في إثارة الفتنة وقتل شهيداً » أما عن الشيخ الجوسقي فلم يرض أن يقول عنه « مات شهيداً » !!

والثالث من سلسلة انتقامات الفرنسيين ما رواه كتاب الفرنسيين في كتبهم ومذكراتهم من أن نابوليون أصدر أمره للضابطين كروازيه Croizier وأوجين بوهارنيه (هو ابن زوجته جوزفين) وكلاهما من أركان حربه بمطاردة العربان الذين اعتدوا على المرحى القادمين من جهة الشرقية وفتكوا بهم أثناء ثورة القاهرة فأحاطا بين معهما من الجنود بكثير من مضارب البدو النازلين في الجهات الواقعة شرقي مديرية القليوبية فاحرق قواخيامهم وخر بوادورهم وفتكوا بنسائهم وأولادهم ، وقبضوا على مائتين من رجالهم . وكان أمر نابوليون قاضياً بدمج اولئك العربان ذبحاً وجز رؤوسهم من حلوقهم ، وجمع هاتيك الرؤوس المفصولة في اكياس ليتفرج عليها أهل القاهرة ؛ لا مبالغة في هذا القول فقد روى « بورين » كاتب يد نابوليون في مذكراته ما نصه حرقياً :

« بعد اخاد الثورة ببضعة أيام قضت ضرورة المحافظة على سلامتنا أن نعمل عملاً قاسياً فظيماً وذلك أن نابوليون بعث بالضابط كروازيه أحد أركان حربه وأمره أن يهاجم قبيلة من البدو كانت اعتدت على سرذمة من جنودنا ، وأن يحيط بتلك القبيلة ويحرق مساكنها ، ويذبح رجالها ، وكان الامر يقضى بأن يجمع رؤوس القتلى في اكياس ليعرضها على سكان القاهرة وكان (بوهارنيه) مع كروازيه في تلك المهمة القاسية فعادا في اليوم التالي ومعهما عدد عديد من الخيول محملة باكياس ملأى بالرؤوس البشرية ؛ وفتحت هاتيك الاكياس ، وافرغ ما فيها أمام أعين الناس المجتمعين ؛ واني لأستطيع أن أصف بشاعة ذلك المنظر ، ولا الشعريرة التي أحسست بها عند رؤيته . . . ! » وغريب أن الجبرتي لم يذكر شيئاً عن هذه

الحادثة وما أظنها خفيت عليه ولكن ربما نسى تقييدها أو سقطت من أوراقه قبل
تنسيقها وتلويينها

(والرابع) من ذلك إرسال برطمين الرومي وكيل محافظة القاهرة بفتنة من
الجند الي جهة سرياقوس لمطاردة الفارين من أهل القاهرة الذين خافوا العقاب
فلم يدرك أحداً منهم ، ولمكنه عوض عن فشله ، لارضاء أسياده الفرنسيين ،
بهب البلاد وإحراق القرى وفرض المغارم حتى ضج العباد واستغاثوا من مضالمه
وقد سبق لنا ذكر هذا الرجل الرومي الذي عينه الفرنسيون عند احتلالهم
القاهرة كمنخدا مستحفظان (وكيل محافظة) ولا أدري لماذا اختاروه لتلك الوظيفة
في الوقت الذي كانوا يتحجبون فيه إلى المسلمين ، ولكن الذنب في ذلك واقع على
المشايخ الذين افتوا لهم بأن سوقة مصر لا يخانون إلا من المليك وأشباههم ، ولذلك
عينوا محمد أغا المسلماني ، وهو أرمني حديث عهد بالاسلام ، أغات مستحفظان أي
مخائلا للقاهرة ، وعينوا برطمين هذا وكيلاله ، فبئس الاصيل وبئس الوكيل !
واسم برطمين الحقيقي « برتملي » وكان العامة في مصر - على رواية الجبرتي - يسمونه
« فرط الرمان » وقال عنه إنه من أسافل نصارى الاروام العسكرية القاطنين بمصر
وكان من الطبلجية عند محمد بك الالفي وله حانوت بخط تلوسكي يبيع فيه القوارير
الزجاج « فلما دخل الفرنسيون عينوه في تلك الوظيفة فسكن في بيت بحى كاشف
الكبير بحارة عابدين فأخذه بما فيه من فرش وممتع وجوارى وغير ذلك » (١)

وأما أولئك المغاربة الذين كانت لهم اليد الطولى في الفتنة والشاغبة فإن الفرنسيين
أطلقوا سراح الذين قبضوا عليهم بوساطة كبير من بنى جنسهم اسمه عمر القلقجى
وقد جمع هذا أولئك « الفتوات » من أوباش المغاربة فننقى نابوليون ثمة كبيرة
ألف منها فرقة عسكرية تحت زعامة عمر المذكور . قال الشيخ الجبرتي في حوادث
يوم ١٨ جادى الاولي (يوافق ٢٨ أكتوبر) « أن أولئك المغاربة بمشوا بهم الى

(١) جاء في كتاب الحملة الفرنسية الذي سبقت الاشارة اليه أن برتملي هذا كان بوا ، عند
محمد بك الالفي وكان رجلا ضخم الجثة يلبس ملابس غريبة نصفها شرق ونصفها أودوبي ويأق
على كتفه طباسانا واسا

جهة بحرى فضرىوا كفر عثما وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير ونهبوا داره ومناعه
وبهائه وكان شينا كثيراً جداً وأحضروا اخوته وأولاده وقتلوه ولم يتركوا منهم
سوى ولد صغير جعلوه شيخاً عوضاً عن أبيهم»

ورواية الجبرتى في هذه الحكاية مضطربة ، شأنه في كل الحوادث التى تبعد
عن القاهرة فان مهاجمة كفر عثما وقعت فى ٢٠ أكتوبر وهو يوافق ١٠ جمادى
الأولى أى قبل الثورة بيوم واحد. والفرنساويون يقولون أن ابن شعير أو أبو شعير
كان من كبار اللصوص وقطاع الطريق أو من يسمونه « شيخ منصر » ، ولقى منه
الفرنساويون فى مديرية المنوفية الأمرين فكان مهاجمهم ويفتك بجندهم ويسلب
ذخائرهم وأسلحتهم ويخفى بمن معه، فطاردهم وطاردوه ، وقتلهم وقتلوه ، حتى
كانت ليلة السبت ٢٠ أكتوبر اتصل بالجنرال لانوس Lanusse أن أباشعير
يبيت فى كفر عثما^(١) فى داره فاسرع بقوة عظيمة وأحاط بالقرية وحاصر الرجل فى
داره وقتلوه ومن معه. قال « لا كروا » إن أباشعير هذا كان رجلاً ظالماً عاتياً وكان له
النفوذ الأول فى جميع مديرية المنوفية وماجاورها ، وكان تحت أمرته من الرجال أكثر
من ألف ومائتين فلما حاصروه وقتلوه ، وفر من استطاع الفرار من رجاله ، استولوا على
منزله فوجدوا فيه - على رواية ذلك المؤلف - مقادير كثيرة من النقود والفضة الخالصة ،
وكميات وافرة من الذخائر والأسلحة المتنوعة ، وأخذوا من داره ثلاثين جواداً من
أخف الجياد المطهمة ، ثم طافوا برأسه فى جميع قرى المنوفية ليقنع الناس بموته . وفى
مكتابات نابليون خطاب بعث به للجنرال لانوس يقول فيه « أقدم لك مزيد
التهانى يا مواطنى الجنرال على ظفرك بابى شعير فقد كان فوزك على ذلك السلاب
Brigand انتصاراً كبيراً لنا »

وسواء كان ابن شعير أو أبو شعير لصاً وقاطع طريق ، أو كبير عزوة ورئيس
عشيرة ، فقد قتلوه ومثلوا به وغنموا أمواله ، ومن يدرينا ماذا فعلوا فى بلدته من الشرور
وهتك الأعراس وسلب العباد :

ومع هذا يقول الكتاب الفرنسيون إن نابليون عامل المصريين بعد الثورة

(١) كفر عثما فى المنوفية بلدة آل شعير وهى قريبة من دنشواى !!

بالرفق وأبدى لهم من التسامح والتساهل شيئاً كثيراً! فإذا كانوا يطلبون بعد قتل من ظنهم زعماء الثورة والقضاء جثث أولئك العلماء في النهر كأحط المجرمين بلا محاكمة؟ وبعد إزهاق أرواح أكثر من ثلاثة آلاف نسمة بشهادة نابوليون نفسه ثم تخريب القري وإحراقها؟؟ ثم ما هو أكبر من ذلك من خرق حرمة المعهد الاسلامي المقدسة وجعله اسطبلًا للخيل ومرحاضًا للجنود! ماذا كنتم تريدون أن يفعل بالمصريين أكثر من هذا يادعاة المدنية وأنصار العدل والانسانية! وحملة راية « الحرية والمساواة الاخاء » ...؟

أما أن المصريين قد أخطأوا بتلك الثورة السخيفة، فذلك ما لا شك فيه. ورحم الله الشعبي الخارجي لما قال للخليفة هارون الرشيد « لقد قننا بفتنة لم نكن فيها برة أتقياء، ولا نجرة أقوياء » وهكذا كان المصريون، ولكنهم من جهة أخرى قد حركتهم عوامل الاغراض المتباينة وحرصتهم آلات أعداء الفرنسيين من رسل الانكليز والروس والأتراك، وبقايا المالك في القاهرة، والويل للامم التي تقع العوبة في مهاب السياسة التي لا قلب لها ولا ضمير ...

تسفك دماء المصريين فلتسفك! تخرب ديارهم فلتخرب! ولكن لا يبقى الفرنسيون في أرض مصر ما دامت طريق انكارترا الي الهند!

ليس للمصريين في أي وقت من الأوقات، ولا في أي زمان من الأزمان، مصلحة ما في الثورات والاضطرابات لأنهم في حال خاصة لا يفيدهم فيه غليان العواطف، واضطرابات المشاعر القومية، في القلاقل التي لا يستفيد منها غير الأجنبي .. وتاريخ القرن التاسع عشر، الذي كانت هذه الحوادث التاريخية فاتحته في مصر، يشهد بذلك. وإن سحقت أو لزمت الثورات لتطهير جسم أمة من الأمم في أوروبا مثلاً، أو لقلب حكومة من حكوماتها، أو نظام من نظاماتها فلأنها أمة مستقلة بذاتها، فدورانها حول نفسها، وشرها لها، وخيرها لها، وأما في مصر، فكل اضطراب في جسم الامة يعود عليها بالنكال. وعلى المصريين أن يضعوا هذه الحقيقة دائماً نصب أعينهم ولا يتخذعهم الظواهر، فقد كفاهم من التاريخ موعظة، وليس تفيدوا من

سكونهم ، ولتركوا المتنافسين وشأنهم ، فذلك أسلم لهم ، اللهم إلا إذا اشتد ساعدهم وقوى بأسهم - وبينهم وبين ذلك أمد بعيد ، وسفر طويل - فلهم أن يسيروا على السنن الطبيعية للامم... ليحرص المصريون وليتعدوا عن الوقوع في حبائل المحركين لعواطفهم ، وليلازموا السكينة ولا يكتنوا اعداءهم من صدمهم وتعويقهم عن السير المضمون في طريق الحضارة الصحيحة والعلم النافع ، والاستفادة من ظروف الزمان والمكان ، فان لم تكن نجرة أقوياء ، فلنكن بررة أتقياء ، حتى يحكم الله بأمر من عنده وهو خير الحاكمين

يقول الكتاب الفرنسيون إنهم قهروا الممالك في واقعة امبابه وقهروا المصريين في ثورة القاهرة ! ذلك أن المصريين بعد أن رأوا من قوة القونساويين ما رأوا أظهرها المذلة والمسكنة وحاموا حول الفانحين يتطلبون منهم الفخر والمفخرة ، وأكثر الكثيرون منهم التزلف والتملق والصغار كما داتهم ، التي أورثهم إياها الاستعباد والاستبداد... وهذا المعلم نقولا الترك يقول « وقد خسرت الاسلام ، ولم ترجع بهذا القيام ، سوى الذل والاهانة ، وافتضح جامع الديانة »

فلا غرابة بعد ذلك اذا شتمخ الفرنسيون بأنوفهم وأستباحوا ما استباحوا من حى المسلمين وأعراضهم ، ونفذوا ما أرادوا من ضرائبهم

قال الجبرتي « وفي السابع والعشرين من الشهر (جمادي الاولي) شرعوا في إحصاء الأملاك والمطالبة بالقرر (من الضرائب) فلم يعارض في ذلك معارض ولم يتفوه أحد بكلمة ، والذي لم يرض بالتوت يرضى بحطبه »

وكان من نتائج تلك الثورة ومقتضياتها أن يغير نابليون خطته وسلوكه نحو المصريين ويعاملهم معاملة الشدة ويشك في إمكان إخلاصهم ، ولولا أنه قد كان عالما بأن الدولة العثمانية قد اتفقت مع انجلترا وروسيا على محاربتة وإخراجه من أرض مصر ، فكان ذلك قاضيا عليه بأز يتودد للمصريين بعض التودد ، ويكثر من نشر المنشورات ، ويلقى عليهم النصائح والارشادات ، ويدكرهم بعدله وحلمه وعفوه ، ويقارن ذلك بظلم الممالك وغطرستهم - فنقول لولا ذلك لكان أشد وطأة على المصريين مما كان بعد الثورة وفي الدور الثالث

بقي علينا أن نسأل أين ذهب السيد بدر المقدسى السورى زعيم القوم وقائد
« أولاد الحسينية والحارات البرانية » ومسبب كل هاتيك الشرور والفضائح فى
بيوت النصارى والمسلمين على السواء؟ أين ذهب ذلك البطل المغوار؟ كان أول
من فر إلى بلاده محملاً بالغنائم مما خف ثقلاً وغلاً ثمناً. فقد روى الجبرتى بعد ذكره
القبض على أولئك المشايخ الازهريين الذين قتلهم أو ذبحوهم فى القاعة أو على ضفة
النيل « أما السيد بدر المقدسى فإنه تغيب وسافر إلى جهة الشام » وهكذا يفعل
دائماً الدخلاء الذين لاناقة لهم فى البلاد ولا جمل، لأنهم آفاقيون لا دين لهم ولا
وطنية عندهم، وليس لهم فى البلد ذمار، ولا عرض يصاب، ولا مال يحرص عليه، ولا
قبور آباء وأجداد ترعى كرامتها وتحفر ذمتها

وهنا صفحة أخرى بيضاء للمصريين فى خلال تلك الفتنة الا وهى معاملة
كثير من أهالى القاهرة لكثير من الفرنسيين والافرنج الذين التجأ اليهم واستظلوا
بحمائيتهم من العامة والغوغاء. ولا أتقلمها عن الجبرتى، ولا المعلم نقولا اللذين شهدا
حوادث تلك الايام وركزا لنامد كراتهما عنهما، فلهما لم يكتبيا عن هذه الامور والحوادث،
التى اشتهر فى ذلك الوقت بالطبع أمرها، ولكي أتقل تلك الصحيفة البيضاء عن
ذلك الكتب البليغ والمصور الماهر « فيفان دينون » وهو شاهد عيان أيضاً قل:

« مع أن عامة الاهالى والغيورين على الدين مع بعض كبار الناس، كانوا متعصبين
قساة فى اثاره التى قامت فى القاهرة، إلا أن العاطفة المتوسطة، وهى فى جميع البلدان
اكثر الناس عملاً باحكام العقل والفضيلة، كانت تعاملنا بتمام الاحكام والانسانية
على الرغم مما بيننا وبينها من الفارق الكبير فى الاخلاق والدين واللغة. وهذا بينما
كان التحريض على القتل يجرى من شرفات المآذن بغيره دينية، وبينما كانت
الشوارع ملاءى بالجرحى وبأ كداس القتلى

وجميع الذين اكنوا يأوون فى ديارهم أى رجال من الفرنسيين، كانوا يتوقون الى
اخفائهم واتقاذهم، والى امدادهم بكل حاجاتهم فى الحال وبمجرد الطلب. وقد افهمنا
عجوز كانت فى الحى الذى أقننا فيه، أنه لا يسعنا إلا الاتجاء الى مقر الحریم فى

دارها ، لان جدراننا اضعف من أن يقينا اذا هوجمنا
وحيثما لم يكن من المستطاع الحصول على طعام من البلد ، وحينما كان كل شئ يندل
بجلاء على قرب حدوث مجاعة ، عمد جار لنا الى امدادنا بقوت مما خزنه لديه دون
أن نطلب منه شيئاً ، بل أنه جرد دارنا من كل شئ يجعلها ظاهرة للعدو ، ثم جلس
أمام بابنا يدخن غليونته مخادعة المعتدين حتى يظنوا أن هذه الدار ما هي الا داره
وحدث أن شابين كان يقتفي أثرهما في الشوارع ، فأمسك بهما أناس مجهولون
فتوقعا أن سيسقتا فريسة لقسوة مفزعة ، وبينما كانا يجاهدان بعنف في سبيل
التخلص ، رأى المسكون بهما انهم لا يستطيعون اقناعهما بحسن مقاصدهم ، فاودعوا
لديهما اطفالهم كبرهان على اخلاصهم
ومن المستطاع ايراد كثير من اشباه هذه الحكاية الدالة على رقة الشعور التي
اعادت الروابط بين الطبائع البشرية في ساعة غليان واضطراب « اه
ولا اختم هذا الفصل عن ثورة القاهرة دون أن أسجل على صفحات التاريخ
بالعربية الحادثة التي نقلتها السيدة « جيهان ديفرى » من بعض المذكرات عن
مسيو مارسيل المستشرق ، وشغفه العظيم بالأثار العربية . قالت :
« وسمع الضباط الفرنسيون فجأة صرخة مزعجة فاخذوا مجاهرهم ووقفوا في
البيت البعيد الذي كانوا يرقبون منه شبوب النار فشهدوا شبحاً ينسل بين المحاصرين
وقد شد بيديه على كومة له قد سودها الدخان والبارود ، وهي كأنها كرة هوائية
منفوخة ، اما الأهالي فلم يرونها لشدة ما اصابهم من البلبا وتولاهم من الذعر !
وقال أحد الضباط الفرنسيين « انني أراهن بأن ذلك الشبح هو مارسيل »
وكان هو بعينه لانه لم يكن احد غيره يهتم بانقاذ المخطوطات النفيسة والدفاع
عنها — تلك المخطوطات التي كانت مودعة في الجامع ونجت من شرور الحرب
وقد ذهب مارسيل لانقاذها وهو بملابس النوم ملتفاً بعباءة ومحتدياً بجذاه
البيت ، وانفدع بين الثائرين وحمل ذلك الكنز الي مركز القيادة العامة وكان
من حسن التوفيق انه استطاع انقاذ نسخة خطية من القرآن كتبت في القرن الثالث
عشر (انيلادى) على رق وزينت صفحاته بنقوش بديعة ذات قيمة فنية »

الدور الثالث

من ثورة القاهرة إلى مغادرة نابوليون مصر

من أول نوفمبر سنة ١٧٨٨ إلى آخر أغسطس سنة ١٧٩٩

ندخل الآن في الدور الثالث من أحوال الحملة الفرنسية في مصر ، وشو الدور الذي أدرك فيه نابوليون بعد ثورة القاهرة أنه لا يزال غريباً عن المصريين وبعيداً عن قلوبهم ، فاختار لنفسه السياسة التي يقضى بها ذلك التغير ، وهي سياسة الشدة عليهم ، والحذر منهم ، وعدم الاكتراث بهم ، ولذلك كان أول بادرة من أعماله الغاء الديوان وعدم الاهتمام بالمشايخ ، ثم إدارة الأحكام بواسطة رجاله وأعوانه إلا أن إعلان تركيا للحرب على فرنسا واستعدادها بالجيوش الجرارة براً وبحراً لمحاربتة ، ونحر يعضها المصريين والمسلمين عامة على مقاومة الفرنسيين ، وتنعيس حياتهم في وادي النيل كل ذلك قضى عليه بالرجوع إلى خطة المداهنة والتودد إلى المصريين مع بقاءه على حذر منهم ، ولما كان هذا الدور طويل المدة وتخلته الحملة الفرنسية على سوريا ، وكان تلك الحملة ، وفشل الفرنسيين فيها ، تأثير على سياستهم وخطتهم في هذا الدور رأينا أن تقسم هذه الفترة إلى ثلاث مدد

المدة الأولى — من الثورة إلى بدء الحملة السورية (من أول نوفمبر سنة ١٧٩٨

إلى أول فبراير ١٧٩٩)

المدة الثانية — الحملة السورية (من فبراير إلى يونيو ١٧٩٩)

المدة الثالثة — من عودة نابوليون من سوريا إلى مغادرته أرض مصر (من يونيو

لغاية أغسطس ١٧٩٩) وغير خاف أن سياسة الفرنسيين مع المصريين كانت تأخذ في هذا الدور أشكالاً متنوعة متقاربة ومتباعدة بنسبة هاتيك المدد الثلاث وما يحيط بها من المؤثرات السياسية فعلى القارىء أن يلاحظ تلك الظلال المختلفة

الالوان في خلال تلك المدد لكي يدرك منها الظروف الخارجية التي قضت بها

المدة الأولى

- ١ -

كان هم الفرنسيين في المدة الأولى موجها الى تحصين البلاد اتقاء لغارات
الغديرين من البر والبحر. قل الجبرتي بعد الثورة بأسبوعين « وفي مدة هذه الأيام
بطل الاجتماع بالديوان المعتاد وأخذوا في الاهتمام في تحصين النواحي والجهات وبنوا
ابنية على التلول المحيطة بالبلد ووضعوا فيها عدة مدافع وقنابر، وهدموا اما كن
بالجزيرة، وحصنوها تحصينا زائداً وكذلك مصر العتيقة ونواحي شبرا، وهدموا
عدة مساجد منها المساجد المجاورة لفنطرة امبابه ومسجد المقس (المعروف الآن
بأرلاد عنان) على الخليج الناصري بباب البحر ». ولا شك ان التفاصيل الواردة
في كتب الفرنسيين في هذه النقطة أدق إيضاحا، وخلاصة ما كتب في هذا
الصدد إن نابوليون أصدر أمره للجنرال المهندس « كفيريلي » بأن يضع مشروعا لثحصين
مدينة القاهرة بحيث يجعلها راقية تحت رحمة القلاع والطوابي فبنوا على التل
الذي اطلقت منه المدافع على حي الأزهر خلال الثورة حصنا منيعا يتسلط على جميع
تلك الأخطاط وحولوا جامع المقس الذي كان ذكره الجبرتي إلى قلعة سموها
قلعة سلو كوسكي، تذكراً لذلك الضابط البولوني الذي قتل عند باب النصر، ثم
أقاموا برجاً عالياً على مرتفع في الطريق الموصل من الأزبكية إلى بولاق ووضعوا فيه
السكيات الوافرة من المدافع والذخائر وأطلقوا عليه اسم « برج كامين »^(١)
وأقاموا أيضا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية، قرب الدار التي
اختاروها للمجمع العلمي طوابي وعدة أبراج وثكنات للجنود وجعلوا جامع الظاهر
بيبرس المعروف بالقرب من الحسينية قلعة، وحولوا منارته برجاً ووضعوا على أسواره
المدافع واتخذوا بقيقه معسكراً وبنوا في داخله عدة مساكن للجنود. وكانت الشعائر

(١) كامين هذا ضابط فرنسي قتله العربان بجهة مربوط وكان قادما من فرنسا على باخرة
في شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ بمراسلات من فرنسا فاتفق الانجليز أثره بالقرب من شواطئ
مصر فتمكن من النزول في جهة مربوط عند برج العرب فقتله ومن معه العربان

الدينية في هذا المسجد قد عظمت منذ زمن طويل وجاء في الامر الذي أصدره نابوليون بتاريخ ٢٧ أكتوبر، ومحفوظ نصه بنظارة الحربية في باريس، أنهم هدموا المقياس بلروضة وبهوه بشكل طابية وضعت فيها المدافع وحولوا قناطر السباع التي بناها السلطان صلاح الدين لقل المياه الى القلعة، ولا تزال آثارها باقية للان، إلى طابية أخرى. والخلاصة أنهم اتخذوا كل الاحتياطات الحربية الفنية لاختضاع أي حركة في القاهرة أو ضواحيها، ولقاومة الجيش المهاجم للمدينة.

وفي الايام الاولى من شهر جمادى الثانية، أي في خلال إنشاء تلك الحصون، واقامة هاتيك الاستحكامات، لم ينس نابوليون أن يتن على أهالي القاهرة بأنه قد صفح عنهم، وعفان زلتهم، وعاملهم — بعد كل الذي جري عليهم — بالتساعل والتسامح وأصدر هذه الافكار في منشور كتبه عن لسان المشايخ ووزعه ملصوقا بالشوارع والاسواق، والى القارىء نصه :

« نصيحة من كاتبة علماء الاسلام بمصر المحروسة :

نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ونبرأ إلى الله من الطاغين في الارض بالفساد، ونعرف أهل مصر المحروسة أن طرفاً من الجعيدية وأشراز الناس حركوا الشرور بين الرعية، وبين العساكر الفرنسية، بعد ما كانوا أصحاباً واحباباً بالسوية، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين، ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت الطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونايرته، وارتقت هذه البلية، لأنه رجل كامل العقل عنده شفقة ورحمة على المسلمين، ومحنة إلى الفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلوا كامل أهل مصر. فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولا تتبعوا الأشرار، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول، الذين لا يقرؤون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم، وتطمثوا على عيالكم وأديانكم، فإن الله سبحانه وتعالى يعطي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد. ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم

وأراح الله منهم العباد والبلاد ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واشتغلوا
بأسباب معاشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم والدين النصيحة والسلام اه
ثم التفت نابوليون الي إتمام ما شرع فيه، وأشرنا اليه فى الدور الاول من
تحسين مدينة القاهرة وتجميلها ليجعل الاقامة فيها للفرنساويين مقبولة محبوبة، فهدّ
الشوارع الواسعة من الازبكية الى بولاق، ومن الازبكية الى قبة النصر، وردموا
الجهات الواقعة حول بركة الازبكية وجددوا قنطرة المغربى ومدوا شارعاً آخر بين
باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب، ومهدوا جسراً
آخر ممتداً من هناك الى خارج الحسينية... الي غير ذلك من أسباب تسهيل المواصلات
وفكروا فى إقامة أماكن للهو والنزهة فوضع مسيو دارجيفال Dargeval مشروع
إنشاء « كلزينو » أطلق عليه لقب ثيفولي Tivoli تشبهاً بنظره فى باريس واختير لاقامة
ذلك المكان احدى دور الامراء المماليك وعهد الى مسيو دارجيفال المذكور تنفيذ
مشروعه فى تلك الدار وحديقتها، فحوّلها الى ملهى يجمع بين دفتيه أسباب التسلية
المعروفة فى أمثال هذه الاماكن، فجعل فى جزء منها بهواً للعب البليارد، وقاعة للعب
الورق، وأخرى للمطالعة، وفى مكان آخر أعد محلاً أشبه بالمرح للرقص والغناء
ومطعم ومحال للشراب وما أشبه ذلك. واليك ما يقوله شيخنا الجبرتى فى هذا الصدد
قال فى أواخر حوادث شهر جمادى الثانية « وانقضى هذا الشهر وما حصل فيه من
الحوادث الكالية والجزئية، التي لا يمكن ضبطها لكثرتها، منها أنهم أحدثوا بغيظ
النوبى المجاور للازبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال
لهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل اليها قدراً مخصوصاً
يدفعه، أو يكون مأذوناً ويده ورقة » ... رحم الله الشيخ الجبرتى ! لم تقته صغيرة
ولا كبيرة !

وشكل التجار الاوروبيون الموجودون فى القاهرة شركة تجارية رأس مالها
٣٠٠٠٠٠ فرنك وجعل ثمن السهم فيها ثلاثة آلاف فرنك ومدتها ثلاث سنوات
واشترك الجيش الفرنساوى فى عشرة أسهم منها بناء على أمر أصدره نابوليون

الى بوميلج مدير الامور المالية . وهذا الامر محفوظ في أوراق نابوليون بباريس
مرة ٣٦١٩ وتاريخه ١٤ نوفمبر سنة ١٧٩٨

وفي هذه الفترة ظهرت للمجمع العلمي جريدتان فرنسويتان وهما « الديكاداجبسيان »
Le Decade Egyptien « والكوريه دى اجيبى » Le Courier d'Egypte
وابتداً الباحثون من الفرنسيين في إقامة وإنشاء الاعمال النافعة التي تقضى
بها ضرورة الإقامة في هذه الديار . وكان من الرجال الذين أحضرهم نابوليون معه رجل
اسمه كونتية Conté كانت وظيفته رئيس فرقة الطيران الذي لم يكن في المنزلة التي
هو فيها الآن ، ولكنهم كانوا قد بدأوا في خلال الثورة الفرنسية في اختراع المناطيد
« البالونات » وجعلوا لها عملاً خاصاً في الادارة الحربية . فكان مسيو كونتية هذا
من أكثر الناس نفعا للحملة الفرنسية لأنه كان نادرة الذكاء والمقدرة على الاختراع
والفنون ، فأنشأ لهم معامل لصناعة الاقمشة والقبعات والورق ، وأخذ يدرس
الصناعات الوطنية ويجمع كثيراً بالصناع المصريين ويستفسر منهم عن الآلات
التي يستعملونها في صناعاتهم المحلية . ولاتس أن مراد بك كان قد انشأ في الجيزة
دار صناعة الآلات الحربية والقنابل والبارود ، وان مثل هذه الصناعات كانت
معروفة في مصر ولكن الفرنسيين تحت إدارة كونتية دشامبي وولده Champy
أدخلوا محسنات الصناعة الأوروبية فصنعوا البارود ، وسبكوا المدافع والبنادق
وجميع ما يلزم من أدوات الحرب . كل ذلك لعلمهم أنه قد قضى عليهم بالبقاء في
وادي النيل ، وأن طريق البحر الى وطنهم قد سد في وجوههم . والحاجة أم الاختراع

وفي هذه المدة بدأت الدولة العثمانية بتحريض من إنجلترا في مقاومة الفرنسيين
بايغار صدور المصريين عليهم فأرسلت عدة منشورات ووالث إرسال الرسل بالرسائل
والكتب لاعتيان البلاد وكبار القوم . ومن هذه المنشورات منشور طويل لم يذكره
الجبerty لان الفرنسيين صادروه وأحرقوه وقد وقفنا على صورة باللغة الفرنسية

لنص ذلك المنشور فرأينا من باب الفائدة التاريخية أن تأتي على أهم ماجاء فيه من عبارات الطعن على الفرنسيين، وتسفيه أعلامهم، والاستهزاء بمعتقداتهم . ويقول (لاكرو) إن المطالع على هذا المنشور، وما فيه من الطعن على مبادئ الثورة الفرنسية، يرى من خلاله أنه كتب بقلم أوروبية « يشير بذلك إلى أنه كتب بإرشاد الانكليز وبتعليماتهم . والمنشور مستفتح «ببسملة» والصلاة على النبي محمد خاتم المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين الى يوم الدين . ثم يقول : -

«إن الفرنسيين أباد الله ملكهم، ونكس اعلامهم، قوم كفار ملاحين، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يعتقدون في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويسخرون من جميع الاديان، وينكرون البعث والشور، وما كتب لعباده تعالى من الثواب والعقاب في الدار الآخرة، ويعتقدون أن المصادفة العمياء هي التي أوجدت هذا الكون وهي التسلطة في الحياة والموت، وإن الانسان متى وضع في التراب انحل جسمه ولا يعود إلى حياة ثانية يعاقب فيها، أو يثاب على عمله في الحياة الدنيا . ولهذا السبب هدموا كنائسهم، وخربوا معابدهم، وكسروا صلبانهم، وطرذوا قساوسهم ورهبانهم، وعندهم أن كتب الانبياء والمرسلين ليست إلا أكاذيب وخرافات ملفقة، وأن القرآن والتوراة والانجيل، ليست إلا أساطير الاولين، ويعتقدون أن الانبياء ك موسى وعيسى ومحمد ليسوا إلا أفراداً امتازوا عن غيرهم قليلاً ما، بمعنى إن الله سبحانه وتعالى لم يبعثهم برسالة، ولم يختصهم بنبوة، ولا يعتقد فيهم غير ذلك سوى الاغبياء والفتونين . ومن رأيهم أن الناس قد خلقوا سواء ولهذا يجب أن يكونوا متساوين في الحرية، يعتقد الواحد منهم ما يشاء فيما يشاء

وعلى أساس هذه المعتقدات الفاسدة، وضعوا لهم نظاماً جديداً وشرائع شيطانية بها هدموا أساس المعتقدات الدينية وأحلوا ما حرم الله وفتحوا للشهوات البشرية أبواب الفساد، فصاروا بذلك أمة همجية بعيدة عن الانسانية لاتعرف غير الدعارة والشور

ومن مبادئ اولئك القوم الضالين، إيقاع النفرة، وغرس بذور الخلاف بين

الملوك والامم، وخلق الاسباب للمشاكل والقلاقل بين العباد، ويوهمون الناس بانهم
أنصار الحريه، ويفنونهم انهم اخوان وأنهم يعتقدون مثل ما يعتقدون، ويدخلون بذلك
في صدور عباد الله أوها ما بطله، ومطامع سافله، وبذلك سقطوا في بحر لا ساحل له
من الفضيحة والقبائح، ولم تعد لهم ضمائر رادعة، ولا نفوس زاجرة، فالحيلة عندهم مهارة،
والسلب شراسة، وسنك الدماء مهارة وجسارة، والكذب فصاحة ونباهة، ولقد
ذبحوا وقتلوا وأهلسوا من قوتهم من لا يدين بدينهم

ولقد اهتزت جوانب اوربالهذه الطغمة الشريرة التي انتشرت كالذئاب الجائعة،
تهاجم الامم الطمئنة لهدم قواعد الحكومات، وإبادة الاديان، واختطاف النساء
والاطفال، فسالت من جراء ذلك الدماء انهاراً، وفازوا في إخضاع الامم التي رضخت
لشرهم وخضعت لأمرهم!

فأنتم فاعلون يا حماة الاسلام وأنصار الدين الخفيف؟ يامن قؤمنون برسالة محمد
بن عبد الله! إن أولئك القوم الضالين قد ساء فألمهم فضنوا المسلمين كأولئك الكفار
المنافقين الذين صدقهم واتبعوا مبادئهم الفاسدة، وغاب عنهم أن الاسلام محفور على
صفحات قلوبنا، وانه يجرى مجرى الدم في عروقنا. فهل يمكن أن نترك ديننا الطاهر
الخفيف، بعد أن أنار الله قلوبنا بنوره وهدانا إلى الصراط المستقيم؟ كلا! كلا!
أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده المؤمنين أن يزعموا إيمانهم وقد قال سبحانه
وتعالى في كتابه العزيز « إن ينصركم الله فلا غالب لكم »

فكونوا يا عباد الله على حذر منهم ولا تقعوا في أشراكهم وحبائلهم ولا
ترهبكم كثرتهم ولا تدعسكم هيتهم، فالأسد لا يهرب الثعالب مهما كثرت ددها،
والنسر لا يخاف البغات مهما استنسر، وستصلكم الجيوش الجاررة على الصافات
من الجياد لتقضى على عدو الله وعدوكم، وتقذف به إلى النار وبئس القرار، فلا تيأسوا.
من روح الله فإنه تعالى حارسكم ومؤيدكم وناصركم، فبعونه تعالى وحول رسوله الكريم
ستمحق جيوشنا أولئك الكفرة الضالين، والساعة آتية لا ريب فيها. نصر الله
جيوش الموحدين وأعز سلطان المسلمين! اه

ليس في المصادر الفرنسية إشارة إلى التاريخ الذي وصل فيه هذا المنشور إلى القاهرة، ولكن ورد في الجبرتي، كما سبقت لنا الإشارة، أنه في ليلة السبت ٢٤ جمادى الأولى حضر هجان من ناحية الشام وعلى يده مكاتبات وهي صورة فرمان وعليه طرة ومكتوب من أحمد باشا الجزائر وآخر من بكر باشا إلى كتخداية مصطفى بك ومكتوب من إبراهيم بك خطاباً للمشايخ. أما خطاباً بكر باشا وإبراهيم بك فلانظن أنهما نشرأبداً، وأما فرمان أحمد باشا الجزائر فهو لاشك هذا المنشور، وفيه بلامرية روح السر سدي سميت في طعنه على مبادئ الثورة الفرنسية إذ هي نفس المطاعن التي كان يوجهها الانكايي للفرنسيين في ذلك الزمن، مثل كارليل الكاتب المشهور والمستر برايتون الخطيب البرلماني الكبير، وكان السر سدي سميت في ذلك الوقت كثير التردد على عكا، وله من هذا النوع منشور بعث به في حرب الشام لنصاري سوريا ويحذرهم، كما في هذا المنشور، من أن الفرنسيين مسيحيون، بل هم كما وصفهم في هذا المنشور قوم لادين لهم ولا عقيدة وأنهم هدموا أركان الدين المسيحي

ومن التاريخ المذكور لوصول هذا المنشور يتضح جلياً أن لا صحة لدعوى المعلم نقولا الترك، ومن نقل عنه من أمثال الشيخ الدحداح، إن العلماء وزعوا ذلك المنشور على أهالي القاهرة ليحضوهم على الثورة السالفة الذكر. ونقول إن عبارة هذا المنشور، من حيث معتقدات الفرنسيين، تطابق ما وصفهم به الشيخ عبد الله الشرقاوي في رسالته الذي وضعها للصدر الأعظم يوسف باشا بعد الاتفاق على خروج الفرنسيين من مصر وسماها (تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين) إذ قال فيها « وحقبة رجال الفرنسيين منهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصاري قاتوليكية، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الانبياء والمرسلين، ويقولون ان الله واحد، ولكن بطريق التعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدرسون يدبرون الاحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة

عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم»

ولنعد إلي منشور الجزائر فنقول إن من السهل كثيراً تصنيف مثل هاتيك المنشورات، والدعوة إلى الجهاد ضد الكفار مألوفة، وطريقة من الطرق التي يابغها اليها، ولكن ما فائدتها في ذلك الزمن وفي أي زمن سواه؟ هل يمكن أنها حركت أمة أو حررت شعباً أو أدت إلى نتيجة مرضية حيث يكون القابض على نواصي الأمة قوياً قادراً على قمع أية ثورة في إبانها، وإخماد أي فتنة في مكانها؟ اللهم لا فائدة لهذه الأعمال الا ايقاع النفرة وغرس بذور الاحتقاد، وتحريك الضغائن والاضرار بالذين يراد الخبز لهم. والاولى بالذين يريدون امتلاك البلاد أو نصرة أهلها - إن كان هذا صحيحاً - أن يستعوضوا عن الأفعال بالافعال. ورحم الله من قال «السيف أصدق أنباء من الكتب»!

ولا شك في أن هذا المنشور قد أزعج نابوليون ورجاله لأنه دب على المواضيع الحساسة في نفوسهم ووجه اليهم من المطاعن ما هو مؤلم، ولأنه نقض أساس دعواتهم للمصريين بأنهم مسلمون، أو أنهم يحترمون الدين الاسلامي، أو أنهم أصدقاء أمير المؤمنين وخليفة المسلمين

قال الجبرتي «إنه لما وصلت هذه الاوراق - يعني فرمان الجزائر هذا وكتب بكر باشا وابراهيم بك أخذها مصطفى بك وكيل بكر باشا وذهب بها الي صاري عسكر (بونابرت) فلما اطلع عليها قال هذا تزوير من ابراهيم بك ليوقع بيننا وبينكم العداوة والشاحنة، وأما أحمد باشا الجزائر فهو رجل فضولي وسيأتي بعد أيام وال من الدولة يقيم معنا وقيم معه كما كان الحال مع الماليك». وإن سحت هذه الرواية، فيكون ماقله نابوليون إنما هو جواب على خلاصة ترجمه المترجمون من تلك الكتب الكثيرة، فلما اطلع على ترجمتها بالنص رأى من مقتضى السياسة أن يحمل العلماء الازهر على كتابة منشور ضد منشور الجزائر فكتب له بمضهم ما أراد وطبعوا من صورة ما كتب عدة نسخ وزعوها في البلاد، والصقوا منها كثيراً بالاسواق والحارات... وهذا نصها عن الجبرتي

نصيحة من علماء الاسلام بمصر الخروسة

نخبركم بأهل المدائن والأمصار من المؤمنين ، رياسكان الأرياف من العربان
والفلاحين ، أن ابراهيم بك ومراد بك وبتية دلة المليك أرسلوا عدة مكاتبات
ومخاطبات إلي سائر الاقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين الخلوقة ، وادعوا
أنها من حضرة مولانا السلطان ، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ، وبسبب
ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد واعتاضوا غيظاً شديداً من علماء مصر
ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم فإرادوا أن
يقوموا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية ، لأجل خراب البلاد وهلاك
كامل الرعية. وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم
من مملكة مصر العجمية . ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين ، بأنها من حضرة سلطان
السلطين ، لارسلوها جباراً مع أغوات معينين . ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية
بالخصوص عن بقية الطوائف الارمنية دئماً يحبون المسلمين وملتهم ، ويغضون
المشركين وطبيعتهم . احباب لمولانا السلطان وذمّون بنصرته ، وأصدقاء له ملازمون
لمودته وعشرته ومومنته ، يحبون من والاه ، ويغضون من عاداه ، ولذلك بين
الفرنساوية والموسكوف غاية العداوة الشديدة ، من أجل عداوة المسكوف القبيحة
الرديئة ، والطائفة الفرنساوية ، يعارون حضرة السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله
تعالى ولا يقبضون منهم بقية ، فننصحكم بأهل الاقاليم المصرية ، أنكم لا تحركوا الفتنة
والشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية ، بشيء من أنواع الأذية ،
فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام القسدين ، ولا تطيعوا أمر السرفين
الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . وإنما عليكم
دفع الخراج المطلوب منكم لكامل المنتزعين ، لتكونوا بأوطانكم سالمين ، وعلى أموالكم
وعيالكم آمنين مطمئنين ، لأن حضرة صاري عسكر الكبير أمير الجيوش بونابرتة
اتفق معنا على أن لا يذاع أحداً في دين الإسلام ، ولا يعارضنا فيما شرهه الله من
الأحكام ، ويرنع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويترك ما أحدثه

الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم ببرهيم ومراد ، وارجعوا إلى مولاكم مالك الملك وخالق العباد ، فقد قال نبيه ورسوله الاكرم ، « الغنمة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم » — عليه أفضل الصلاة والسلام »

ولا شك ان نابوليون قد أدرك من منشور الدولة العثمانية لأهل مصر أن الحرب مع الاتراك آتية لا ريب فيها ، وأن من مقتضى السياسة أن يزيد في التودد إلى المصريين ، ويعيد انشاء الديوان الذي ألغاه بعد ثورة القاهرة ، ولكن على طريقة جديدة بعد الذي اكتسبه من الخبرة ، وعرفه من مكانة الأفراد ومنزلتهم عند الشعب ، وبعد ما عرف من عرف من الموالين له من المصريين والسوريين والاجانب في مصر . لذلك ارتأى أن يشكل الديوان على نظام مختلط من المشايخ والتجار والاجانب فأصدر أمره في ١٦ رجب (٢٥ ديسمبر) بإنشاء ديوان مؤلف من ستين عضواً ، وسماه الديوان العمومي ، وقرر أن يتمخ من هؤلاء أربعة عشر عضواً يتألف منهم ديوان سماه (الديوان الخصوصي) وكان في بالورد دوفرين ، بعد أربعة وثمانين سنة من هذا التاريخ ، استعار هذا النظام « البونابارتي » ، مع بعض التحوير ، عند وضعه نظام مجلس شورى التوانين والجمعية العمومية عقب الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢

وقرر أن الديوان العمومي لا يجتمع الا عند الضرورة . أما الخصوصي فيجتمع كل يوم للنظر في الأمور المختلفة ولوضع امضات أعضائه (!) على منشورات نابوليون وبلاغاته المطولة عن حرب الشام كما سيرى القراء ذلك .

أما أعضاء الديوان الخصوصي فلم يذكر الجبرتي الا ثلاثة عشر منهم حتى أن مصححي الطبعة الاميرية ، الذين أحسنوا تصحيح الطبعة الأولى من كتاب الجبرتي ، وهي التي طبعت في زمن الخديو توفيق باشا سنة ١٢٩٧ هجرية — أي بعد موت الجبرتي بأحدى وستين سنة — ، لاحظوا في هامش الكتاب انه لم يذكر الا ثلاثة عشر عضواً . والمعلم نقولا الترك لم يشر إلى تأسيس هذا الديوان ، ولم يأت على المنشور

الخاص به ، ولكنه عند ذكره سفر نابوليون من مصر جاء بمشور نائبه على لسان
أعضاء الديوان وعليه ستة عشر امضاء وهي تخالف الأسماء الواردة في الجبرتي ،
وكلاهما — على أي حال — منفق على الأسماء الآتية

الشيخ عبد الله الشرقاوي . الشيخ محمد المهدي . الشيخ مصطفى الصاوي
السيد خليل البكري . الشيخ سليمان القيومي . السيد احمد المحروقي . لطف الله
المصري . يوسف فرحات .

واختلاف في الخمسة الآتية أسماءهم :

فالجبرتي ذكرها كالاتي :

حسن بن محرم . كحيل . رواحه الانكايزي . بودني . موسى كافر الفرناوي
ونقولا الترك ذكرها هكذا :

على كتبخدا مجري . يوسف باش جاويش . جبران سكروج . لومار .
بودوف . ذوالفقار كتبخدا . وأسقط حسن بن محرم

وجاري زيدان الجبرتي حرفاً بحرف مكثفياً بثلاثة عشر ولم يذكر رواحه
الانكايزي بل قال « وواحد انكايزي وآخر يدعى أبايدف »

فلما رجعت للمصادر الفرنسية المطولة وجدت في كتاب (الحملة الفرنسية)
الذي سبقت الإشارة اليه ^(١) وهو أحق بالثقة من سواه ، الترتيب الآتي من نفس
نص الأمر النابوليوني المحفوظ في أوراقه الرسمية ، اذ صدر أمر نابوليون كما يأتي :
يؤلف الديوان الخصوصي كالاتي : —

من العلماء — المشايخ عبد الله الشرقاوي . محمد المهدي . مصطفى الصاوي .

السيد خليل البكري . سليمان القيومي

من التجار — السيد احمد المحروقي . حسن بن محرم

من الاقباط — المعلم لطف الله المصري . المعلم ابراهيم جبر العايط

(١) انظر هامش صحيفة ٢٤٥ من هذا الكتاب

من السوريين — يوسف فرحات . مخايل كحيل
من الاجانب — ولمار (وهو طبيب سويدي من السويد) وفرنسا بودوف ،
وكاف^(١) (Caffé & Beaudenf) وهما تاجران فرنسيان من أهالي مرسيليا
فالذي سقط من الجبرتي هو المعلم ابراهيم جر العايط القبطي ، وخلط بين ولمار
السويدي ، وسماه رواجه الانكليزي ، ولا يعد انه كان يتسمى باسم « رواجه » قبل
مجيء الفرنسيين ، إذ كان الاجانب قبل مجيئهم يرتدون الملابس الشرقية ويتخذون
القباب المصرية . وكيف يعين نابوليون في الديوان الخصوصي انكليزيا وهو في حرب
معهم في البر والبحر؟ .. ثم « بودني » الذي ذكره الجبرتي هو لا شك « بودوف »
الفرنسي ، وكاف هو الذي سماه موسى كافر ! وأما الاسماء التي جاءت في رسالة المعلم فتولا
الترك فلا يصح الاعتماد عليها لان تاريخ المنشور الذي وضعت عليه تلك الامضات
يقع في ٢٠ ربيع الاول سنة ١٢١٤ ، وتشكيل الديوان العمومي الذي نحن بصدده
كان في رجب سنة ١٢١٣ ، فمن المحتمل حدوث تغيير في الاعضاء في خلال تلك
المدة خصوصاً وان من الثابت لدينا أن مخايل كحيل السوري مات في ٢٩ محرم
سنة ١٢١٤ (٢)

أما أعضاء الديوان (عدا أعضاء الخصوصي) فلم نقف على اسمائهم في الكتب
العربية وكل ما ذكره الجبرتي عنهم قوله « وأما العمومي فأكثره مشايخ حرف »
وكننت ، قبل أن أعتز على الاسم الساقط في الجبرتي من أعضاء الديوان الخصوصي ،
أميل الى الظن بأنه قد يكون الشيخ عبد الرحمن الجبرتي نفسه ، هو ذلك العضو

(١) كان كاف — لوى كاف Louis Caffé de Saint-Menehould هذا تاجراً
فرنسياً حين حضر نابوليون لمصر وهو الذي ساعد الفيكونت شاتوبريان الكاتب الفرنسي العظيم في
رحلته في ارض مصر حين قدم اليها بعد زيارته لفلسطين بعد هذا التاريخ بمدة . وقد ولد
لكاف هذا فتاة بارعة الجمال اسمها ماري اديلايد Marie Adelaide اقترنت بها مسيو
فيلكس مانجين Felix Mangin الذي استقدمه محمد علي من فرنسا وهو مؤلف (تاريخ محمد
علي) في جزئين كبيرين ولا يزال تبراها موجود الاثر في مدين مصر العتيقة
(٢) جاء في الجبرتي وفي تاسع عشره (محرم) هلك ميخائيل كحيل النصراني الشامي وهو
من رجال الديوان الخصوصي وذلك لتهره ونغمه وسبب ذلك انهم قرروا عليه في السلطنة الاخيرة
سنة آلاف ريال وأن الجزائر قتل شريكه وأخذ ماله

وأنه لم يرد ذكر اسمه تواضعاً منه أو ترفعاً عنه ، خصوصاً بعد خروج الفرنسيين
وقدوم الأتراك ، وهو لم يجمع كتابه إلا بعد هذه الفترة بزمان طويل ، كما سبق لنا تحقيق
ذلك . وسبب هذا الظن أن (كاردين) وغيره من الذين ترجموا هذه الفترة من
تاريخ الجبرتي ، قالوا عنه إنه كان عضواً في الديوان الخصوصي مدة وجود الفرنسيين
في مصر ، ولكن هذا الظن زال أثره بعد أن تحققت من أن الشيخ عبد الرحمن
الجبرتي كان عضواً في الديوان الذي أنشئ في زمن الجنرال مينو^(١)
ومما جاء في مرسوم نابوليون بتشكيل هذا المجلس أن يكون في المجلس مندوب
فرنسي وهو مسيو جلوتيه Gloutier وأن الذي يأمر باجتماع المجلس هو قومندان

(١) بعد جهد كبير عثرت على بيان واف لجميع أعضاء الديوان العمومي في مجلة الكوريه
ديجيت التي كانوا يصدرونها بالقاهرة . وهامى اسماؤهم ثبثتها خدمة لتاريخ ولائاً كثيراً من
المصريين اليوم من سلاسة أو تلك الرجال
مشايخ وعلماء — السيد الكبرى . الدمرداش . السيد حسين الرفاعي . عبد الله الشرفاوي
محمد المهدي . مصطفى الصاوي . موسى السرسى . محمد الامير . سليمان الفيومي . احمد المريني
ابراهيم بن الفتى . صالح الخنبلي . محمد الدولخي . مصطفى الدمهنيوري
وجاقية — من رجال العسكرية أو بنايا الممالك — محمد أغا شرجي . علي كيخيا المجدلي
خليل أغا شورجبي . احمد ذو الفانار . يوسف شورجبي . باش شاويش توزكيخان . يوسف
شورجبي باش شاويش جليان . مصطفى أفندي شراكه . ابراهيم شرابي
عرب — مصطفى أفندي العالى . مصطفى كيخيا باش اختيار . حسن شورجبي بركاوي
تجار الغورية — الحاج محمد الاشرفي شيخ الغورية . الحاج محمد أبو النصر . الحاج سيد
شيخ المغاربه

تجار البهار — الحاج أحمد محرم . الحاج أحمد المحروقي . ابراهيم أفندي كاتب البهار . الحاج
حسين جاد ابراهيم . المعلم ميخائيل : المعلم يوسف فرحات : الحاج احمد حسين
تجار البضائع التركية — سيد احمد العقاد المحروقي : الحاج مصطفى شيخ العقادين : الحاج
احمد القازاني
تجار العطورات — السيد مصطفى الصباح . الحاج حسين النحاس . ومن صياغ وجواهرجية
الحاج سالم الجواهرجي : محمد البغدادي . ومن تجار الورق — علي بن الحاج خليل الوراق . ومن
تجار الاقمشة الحاج ابراهيم المصري وعلي الصالحي ، ومن تجار الصابون سيد احمد الزرو وسيد
يوسف فخر الدين ومن تجار الدخان احمد فظام ومن مشايخ الاقسام شيخ جزايرن الحسينية
وشيخ العطوف
اقباط — المعلم لطف الله المصري . المعلم ابراهيم جر العايظ . شيخ ابراهيم مقار . شيخ ابراهيم
كاتب الصرة
الاجانب — ولما ، وكاف ، وبودوف

(حاكم) المدينة ويجب أن تنتهي جلسات الديوان العمومي بعد ثلاثة أيام ، ولا
ينعقد ثانية الا بدعوة فوق العادة وأن أعضاء الديوان الخصوصي يجتمعون يومياً
للعمل «على ما يؤيد العدل ويؤدي الى اسعاد الاهالي وخدمة صواالح الجمهورية الفرنسية»
وجعل مرتب رئيس الديوان الخصوصي في كل شهر مائة ريال ولـكل عضو ثمانون
وأعقب نابوليون الامر بإنشاء الديوان على الطريقة المتقدم بيانها ينشور طويل
قصده به اكتساب مودة المصريين ، مع الارهاب والانداز! وإن كان الجبرتي قد
نشره مع طوله «للاطلاع على ما فيه من التموهيات على العقول والتسلق على دعوى
الخواص من البشر بفساد التخيلات ، التي تنادى على بطلانها بديهية العقل فضلاً
عن النظر» - فنحن كذلك نشره لسبب آخر وهو مقارنته بالأصل الفرنسي ،
لاظهار ما في ذلك من تصورات نابوليون في نفسه ، واظهار ما كان يعاينه المشايخ
في تنقيح ونحوير عباراته ، بالفاظ تقرب من مراده ، ولا تخرج المسلمين في عواطفهم ،
ولا تؤلمهم في معتقداتهم. وهذا هو النص العربي كما ورد في الجبرتي وفي غيره ممن نقل
عنه ، ولم يأت به المعلم نقولا الترك .

(بسم الله الرحمن الرحيم) — من أمير الجيوش الفرنسية الى كافة أهل
مصر الخصاص والعام ! نعلمكم ان بعض الناس الضالين العقول ، الخالين من المعرفة
وادراك العواقب ، سابقاً أوقعوا الفتنة والشروع بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله
بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة على
العباد فامتثلت أمره وصرت رحماً بكم شفوفاً عليكم . ولكن حصل عندي غيظ
وهم شديد بسبب تحريك تلك الفتنة بينكم ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذي
كنت رتبته لنظام البلد واصلاح أحوالكم من مدة شهرين . والآن توجه خاطرنا
الى ترتيب الديوان كما كان ، لأن حسن معاملتكم وأحوالكم في المدة المذكورة انساناً
ذنوب الاشرار وأهل الفتنة التي وقعت سابقاً . أيها العلماء والاشراف أعلموا امتكم
ومعاشر رعيتكم بان الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد
فكره فلا يجد ملجأ ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم ولا ينجو من بين يد الله

لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو أحق وأعمى البصيرة . واعلموا أيضاً أنتم ان الله قدر في الازل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصليبان على يدي ، وقدر في الازل اني أجيء من الغرب الى ارض مصر هلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي أمرت به . ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه واعلموا أيضاً أنتم ان القرآن العزيز صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات اخرى الى امور تقع في المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف اذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم فلتراجع انتم جميعاً الى صفاء النية ، واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوته خوفاً من سلاحه وشدته سطوته ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لاحكام الله ومناقضاً ، وعليه اللعنة والنقمة من الله وعلام الغيوب . واعلموا أيضاً اني اقدر على اظهار ما في انفس كل واحد منكم لانني اعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذي عنده ، ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة ان كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم ألهي لا يرد ، وأن اجتهاد الانسان غاية جهده لا يمنعه عن قضاء الله الذي قدره وأجراه علي يدي ؛ فطوبى للذين يسارعون في انجادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام . « اه

كتب نابوليون هذا المنشور الغريب في ٢١ ديسمبر وهو يوافق يوم الجمعة ١٣ رجب ولكنه لم ينشر في القاهرة الا يوم ١٦ رجب اي بعد ثلاثة أيام قضائها المترجمون في تعريب وتحويل عبارة نابوليون الاصلية التي ادعى فيها لنفسه منزلة النبوة ان لم نقل الالهية . وهذا ما يقصده الشيخ الجبرتي بقوله « التسلق على دعوى انخواص من البشر » كالأنبيا المرسلين واولياء الله الصالحين مثلاً ، ولو عرف الشيخ الجبرتي أن نابوليون يقول في الاصل الفرنسي « ان الذين يبلغ بهم الاستخفاف الى معاداتي لا يجحدون ملجأ لا تقسمهم لا في هذا العالم ولا في عالم الآخرة » لما اكتفى

يوصف نابوليون بالتسلق على دعوي الخواص من البشر ، بل لزمه بالاغراق والتسلق على مقام الله سبحانه وتعالى

وغيره أن نابوليون الذي ما صح له اعتقاد بوجود الخالق كما اثبت ذلك كل المحققين من كتّاب تاريخه ، يدعى ان الله عز وجل أمره أو أوحى اليه بالشفقة والرحمة على العباد!! ومن رأى اللورد «روزبري» في كتابه الجليل عن نابوليون في سائت هيلانه — ذلك الكتاب الذي حلل فيه اخلاق نابوليون ومعتقداته تحليلاً فلسفياً علمياً ، معتمداً فيه على أقوال نابوليون وشهادة الذين عاشروه ونقلوا عنه ، أن نابوليون كان من الوجهة الدينية رجلاً مادياً لا يعتقد بوجود الخالق ولا يصدق بالانبياء ولا بالبعث والنشور . ولنا في هذا الموضوع كلمة سنأتي عليها بشيء من البيان والتحقيق في فصل سنعقده لما كان يقال ، ولا يزال يعتقد لدي بعضهم ، من أن نابوليون اعتنق الاسلام أو ادعاه

وكيفما كان معتقد نابوليون وهو يكتب ذلك المنشور ، فلا نزاع في أنه أراد به التمويه على العقول وإرهاب المسلمين وتحذيرهم من الانقلاب عليه وعلى جنوده اذا «قبل العثمانيون خلاص مصر من أيدي الفرنسيين . وفاته أن للمسلمين اعتقادات ثابتة ، وديناً قائماً على أسس راسخة رسوخ الجبال ، وقد فصل فيه كل أمر تفصيلاً ، فهم لا يؤخذون بمثل هذه التموهيات ، وهم لا يتقون بالمسلم الا اذا حسن اسلامه واتبع أوامر الدين الحنيف واجتنب نواهيه . وفاته أيضاً أن فكرة الخلافة الاسلامية متأصلة في نفوس المسلمين ، وانهم مادامو يعتقدون ان الخلافة في بني عثمان ، فبها جاءهم نابوليون بالمعجزات ، ومهما صور لهم من أمثال تلك العبارات ، فأنهم يعتقدون أن نصرة آل عثمان على المسلمين فرض مقدس عليهم — اخطأ المسلمون المصريون وغير المصريين في ذلك أم أصابوا ، فإن ذلك لا يغير الحقيقة التي شرحناها في هذا المقام ، والمعنا اليها في كثير من مواطن الكلام .

ورأى نابليون ضرورة تحصين القطر المصري من الجهات المختلفة اتقاء للطواريء .
فبعث الجنرال مارمون Marmont بفرقة من الجنود ليساعدوا في تحصين الشواطئ .
المصرية الواقعة بين برج العرب (مارابوط) ورشيد . وكان الاسطول الانكليزي
ومعه بضعة سفن روسية وعثمانية يظهر من آن لآخر أمام الشواطئ المصرية فيضطر
الفرنساويون إلى مضاعفة قواهم في الجهات الواقعة على السواحل والثغور ، وانشئت
القلاع والطوابي حول ثغر دمياط وعلى مصاب نهر النيل . وكانت في ذلك الوقت
أكثر من اثنين وانتقل الجنرال كليبر من قومندانية الاسكندرية إلى القاهرة
وعين مكانه الجنرال مارمون المشار إليه

والآن وقد ظن نابليون أنه قد أطأن بالأبد أن حصن القاهرة أو جعلها
تحت رحمة طوابيه وقلاعه ومدافعه ، وبعد أن حصن الشواطئ من الاسكندرية إلى
العريش وأقام في الصاحية القوى الكافية والحصون اللازمة ، وبعد أن ضعفت الجنرال
(ديزيه) قوي مراد بك في الوجه القبلي ولم يبق في نظر نابليون معارض ولا
مقاوم ، انصرف إلى التفكير في المشروع العظيم الذي لم يتم على يديه ، ولكن بقي
نظاره لفرنساوي آخر . ونعني به مشروع قنال السويس — أي اتصال البحر الابيض
بالبحر الأحمر — ولم يكن فرنساويون لهذا الوقت (أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨)
قد امتلكوا السويس لا تقطع المواصلات بينها وبين القاهرة ، ولسلطة العربان
في الصحراء الواقعة بين البلدين ، وقد كانوا حاولوا احتلال ذلك الثغر بواسطة نفر
من المماليك وبضع نفر من فرنساويين فلم ينجحوا ، فقد روي الجبرتي في حوادث
١٥ ربيع الأول أنهم عينوا ابراهيم العمار اغات المتفرقة قبطانا للسويس وسافر معه
أنفار « بيبوت » فرنساوي تفرج عليهم العربان فمهبوهم وقتلوا ابراهيم أغا المذكور
ومن معه « (١)

(١) هذه الرواية لم اعثر ثابها في كتاب من الكتب الفرنسية العديدة التي اطلعت عليها .
واظنهم لم يدكروها اما لعدم اهميتها واما لانها لم يدونوا نيا فمثل كذا ولم استطع ضبط الاسم
الفرنسي الذي ذكره الجبرتي لعدم امكان العثور عليه وقد يكون اسما لجندى بدرجة تاويش
او امباشي مثلا

فكان احتمال السويس ضروريا لوصول التجارة القادمة من البحر الأحمر،
ولتأمين الحجاج، ولقطع المواصلات مع ابراهيم بك ومن معه في سوريا، فلذلك انتخب
نابليون فئة من العلماء وأوفد الجنرال (بون) بفرقة ليكون في مقدمة الحملة على السويس
وأصدر له أمراً مطولاً بالتعليمات التي يتبناها، وهي محفوظة في مكاتبات نابليون نمرة
٣٦٩٧ وكلها تعليمات عسكرية لانزى ضرورة لتعريفها. وفي يوم ٢٤ ديسمبر عسكر
نابليون ومن معه من الجنود والقواد والعلماء في بركة الحج ثم وصل بلده (اجرود) بعد
ظهر اليوم التالي وسار منها إلى السويس فوصلها في الليل وبات في خيمة.

وكانت السويس في ذلك الزمن فرضة صغيرة يقيم فيها بضعة مئات من الناس
في غير موسم الحج، وكان الماء ينقل إليها على ظهور الجمال من عيون موسى وليس
فيها من الصحاريح التي تحفظ فيها المياه إلا عدداً قليلاً قد تخرب أكثره وكان
يصل عدد سكانها إلى نحو الألفين أو ثلاثة آلاف في أيام موسم الحج وحركة
التجارة. ولما وصلها نابليون في ٢٧ ديسمبر أصدر أمره بأقامة المعازل والحصون
وعزم على زيارة عيون موسى. وهذا البيان ملخص من بيان طويل أملاه نابليون
وطبع في كتاب (حروب مصر وسوريا للجنرال براتران)

والجنرال يقول في حوادث ١٦ رجب، إن ساري عسكر بونابرتة سافر إلى
السويس وأخذ صحبته السيد احمد المحروقي و ابراهيم افندي كاتب البهار (ديوان
البن والبضائع التي ترد من البحر الأحمر) وأخذ معه بعض المدبرين والمهندسين
والمصورين وجرجس الجوهري وانطون ابوطاكية وغيرهم وعدة كثيرة من عساكر
الخيالة والمشاة وبعض مدافع وعربات وتختروان وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء
والقومانة (الماكولات)

وروي أيضاً أنه لما عاد السيد احمد المحروقي ومن معه من السويس حكوا أن
أهل السويس لما بلغهم مجيء الفرنسيين (أي الفرقة التي ذهبت مع الجنرال بون
لاحتلال الثغر قبل وصول نابليون) هربوا واخلوا البلدة فذهب بعضهم إلى الطور
وبعضهم إلى عرب البادية قهبا الفرنسيون ما وجدوه في البندر من البن والمتاجر

والامتعة وهدموا الدور وكسروا الاخشاب وخوابى المياه» ثم قال « فلما حضر كبيرهم وكان متأخراً عنهم كله التجار الذاهبون معه ، وأعلموه أن هذا القمل غير صالح فاسترد من العسكر بعض الذي أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقي أو دفع ثمنه بمصر» وقال الجبرتي أيضا « إن نابوليون في مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل النواحي ووجهات ساحل البحر ليلا ونهارا »

ولا شك أن نابوليون كان ينظر الى أمواج البحر الأحمر وهو يحرق الارم لعدم وجود السفن التي تقبل وتحمل جيوشه الى البلاد الهندية ليأخذ بثأره من الانكليز؛ فكانت كآته هاتيك الأمواج تجيبه بتلاطمها على الصخور، وحفيفها بالرمال « إن أولئك الذين تحقد عليهم سيحاربونك وتحاربهم ، ويخذلونك وتخذلهم ، ثم يكون ، بالمهم من السيطرة على هذه المياه، القول الفصل في شأنك لهم، فيأخذونك الى سائر هيلانة، وتعيش فيها كثيراً لا مؤنس لك غير مثل هذه الاصوات ، من مثل هذه الامواج والمستقبل لله ! والملاك لله! » ولو كشف له قناع المستقبل وهو ينظر ويتأمل شواطئ البحر الاحمر ، لرأى كما يرى النائم في حلمه ، خيالات السفن مارة من البحر الابيض المتوسط الى البحر الاحمر ، حاملة رايات الزينة المصرية والفرنساوية ، وفي وسط إحدى هاتيك السفن رجل من بنى جنسه يشير بأصبعه قائلاً : « إنني أفح الطرق للام »^(١) ثم يرى بعد ذلك خيال المدرعات الانكليزية والمدافع البريطانية مع سفن بلاده وأبناء قومه وعشيرته يتفنون كتفا لكتف مع أولئك الذين صدوه وقبروه ليحفظوا لهم هذه الديار^(٢) بعد أن أخرجوهم منها منذ قرن من الزمان؛ فيفيق من سباته مذعورا ، وهو يقول في سره مباكتا نفسه : كلاً لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً؛ انما هي أضغاث أحلام، وخيالات من خيالات هذه البلاد المشهورة بالطلاسم والسحر في غابر الايام ؛ أو لم يضرب موسى بعصاه البحر في هذا المكان فانفلق وعبره هو و بنو اسرائيل ، وغرق فرعون فكان من الهالكين . . . ؟

(١) اشارة الى داييس وكلمته المنقوشة على تمثاله في مدخل القنال

(٢) اشارة الى تحالف الفرنسيين مع الانجليز في الحرب الكبرى واشتراكهم معهم في

صد الترك عن أرض مصر

كأني بنا بولبون وقد أفاق من غيبوبة كهذه فقال لمن معه من العلماء والمفكرين:
« هلموا نعب البحر حيث عبره موسى وبنو إسرائيل ! »

وليس هذا من قبيل الخيال فإن نابوليون صمم حقيقة على قطع البحر الأحمر عند النقطة التي عبر منها موسى وقومه ولذلك أصدر أمره إلى الجنرال (برتية) في يوم ٢٧ ديسمبر بأن ينبه على الكونت أميرال « غانوم » أن يذهب مع نحو ستين رجلاً من الأدلاء إلى جهة عيون موسى وأعلنه بأنه سيركب مع الخيالة في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي وليكن مع المشاة والأدلاء ما يلزمهم من المؤونة لمدة ثلاثة أيام وفعلاً ركب نابوليون ومعه الجنرالان كفيريللي رئيس المهندسين والجنرال دومرتين قومندان الطوبجية مع عدد من الفرسان وعبر البحر عند نقطة المعديفة، في الوقت الذي تنسحب فيه المياه بالجزر وكان ذلك في الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٩ ديسمبر والمسافة بين السويس وعيون موسى تبلغ نحو ثلاثة فراسخ وكان الكونت أميرال غانوم قد سافر بسفينة مسلحة مع عدد كبير من البحارة والمهندسين وكثير من العلماء عن طريق البحر . وقد روي نابوليون فيما أملاه على (برتران) أنهم وجدوا عند عيون موسى آثار مبان كان أقامها الفينيقيون (البندقيون) في القرن الخامس عشر حينما أرادوا مقاومة البرتغاليين في طريقهم إلى الهند ^(١)

ونلخص القطعة الآتية من كلام مطول من كتاب برتران المشار إليه قال « وفي المساء امتطى نابوليون صهوة جواده ليعود إلى السويس والذين جاءوا عن طريق البحر ركبوا السفينة . وفي الساعة التاسعة مساء نادى الجنود الذين في المقدمة أنهم ضلوا الطريق وطلبوا الأدلاء وكان الجنود في النهار قد تسلوا بستي أولئك الأدلاء الخمور حتى سكروا وغابوا عن الصواب وضل الركب الطريق ، وكانت الليلة مظلمة وخيل للجنود في مقدمة الركب أنهم يبصرون نارا في السويس فنجحوا إليها ولكن تلك النار كانت عبارة عن مصباح السفينة التي تقل الجماعة الآخرين فازداد الركب ضلالا وكانت الساعة قد صارت عشرة وأخذ المد يعلو ، والمياه تدنو ، والتحليل تسير في تلك الرمال الى أن وصلت المياه إليها وأخذت تزداد شيئاً فشيئاً حتى وصلت

(١) راجع صحيفة (١٣) من هذا الكتاب

الى بطون الخليل والقوم حيارى لا يدرون ماذا يصنعون حتى قال نابوليون منذعراً (أجشنة هنا لتغرق كما غرق فرعون من قبل ؟ فما يكون أحسن من هذا موضوعاً للوعظ في كنانيس رومه !)^(١) ولكن الهامية كانت مؤلفة من جنود أقوياء من الذين خدموا الجيش من ثمان الى عشر سنوات وهم على جانب من النباهة والدراية فمن هؤلاء اثنان أحدهما اسمه لويس وكربونيل فالأول اكتشف الطريق الاصلى في الحال وعاد بسرعة لارشاد الجماعة وكانت المياه قد وصلت الى سروج الخيل وكاد يغرق الجنرال كفيريللى بسبب رجله المصنوعة من الخشب ولكنهم بعد جهد جهيد وصلوا الى الشاطئ .

وقال صاحب هذه الرواية إن الذين بقوا في السويس أدركوا أن الجماعة قد ضلوا فحظر لهم أن يقيموا نارا لهدايتهم فلم يجدوا الخشب اللازم لذلك فهدموا دارا من الدور ولم يكادوا يشعلون النار حتى كان الجماعة قد وصلوا الى البر . ولم ينس نابوليون أن يكافئ الجندي لويس الذي دلم على الطريق واتخذ الجنرال كفيريللى من الفرق فرقى درجته وأهداه سيفاً نقش على إحدى صفحتيه (من الجنرال بوناپارته للغارس لويس) وعلى الصفحة الثانية (عبور البحر الاحمر)^(٢)

(١) ترجم الدحداح عبارة نابوليون وهي بالفرنسية هكذا

Serions-nous venus ici pour périr comme Pharaon ? Ca sera un beau texte pour les prédicateurs de Rome !

« لو هلكت غرقاً كغرق فرعون لجعل الواعظون المسيحيون غرق موضعاً حسناً للوعظ ضدى »

والعبارة اشارة الى الحاد الفرنسيين عقب الثورة وتنيط البابوية في روما من ذلك

(٢) من الذين رافقوا نابوليون في هذا الحادث الغريب الذى لم يرد له ذكر في الكتب

العربية اللهم الا في الجزء الذى عبره الشيخ الدحداح من تاريخ فرنسا - الضابط « جان بيير

دوجرو » Jean-Pierre Doguereau ارتقى فيها بعد لترتبة جنرال في الطوبجية ولما ذكرات

كان يكتبها عن مصر وسوريا اثناء وجوده في مصر وفي حملة الشام وقد حصل على هذه

المذكرات الضابط جوتكيير G. de la Jonquière الذى وضع « تحت اشراف وزارة

الحربية الفرنسية » كتاباً مطولاً عن الحملة الفرنسية في مصر عن الوجهة الحربية وهو مطبوع

في ستة اجزاء كبيرة

وقد قرأت في مذكرات « دوجرو » وصفاً شيقاً لما حصل لنابوليون في تلك الرحلة وكان

« دوجرو » من الذين أشرفوا على الفرق فترك جواده وسبح في الماء حتى وصل الى البر

صحيفة ١٠٨ Journal de l'Expédition d'Egypte

وفي أثناء وجود نابوليون جبهة الطور حضر اليه رهبان دير طور سيناء وطلبوا منه أن يشملهم برعايته كما أعطاهم النبي محمد عهد الأمان وكما فعل صلاح الدين والسلطان سليم فأعطاهم عهداً بأن لا يعتدى عليهم أحد من الفرنسيين بصورة عهد نابوليون لهم محفوظه بنمرة ٣٧٨٢ في مجموعة مكاتباته

كان نابوليون موقفاً في جميع أموره ولطالما عرض بنفسه للأخطار، ففي (أركولا) بإيطاليا كاد يصعق تحت سنابك الخيل، واتفق بمعجزة من معجزات الزمان، وهاهو ينخلص من سيل البحر ومداه ويعلو على الامواج وارتفاعها، وكأني به وهو يقول « أجبنا لنغرق كما غرق فرعون ؟ » يسمع هانفاً يهتف في تلك الليلة الليلية، وفي ذلك المكان المملوء بالذكريات الرهيبة :

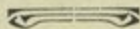
« لا تخف ! إن الله حارسك وحافظك ، فان المهمة التي خلقت لأجلها لم تم بعد ! جئت إلي هذه الديار فقطعت دابر فئة ظلمت العباد وسفكت الدماء ، وخرجت عن حدود الانسانية حتى ضجت منها الارض والسماء ، فجاء الله بك جلاداً لتنفيذ عدله الألهي ، وسنذهب بك إلى الشام فنعمل فيها في الضالين الظالمين مثما فعلت في أوائلك المماليك في مصر ، والنسايين في إيطاليا ، ثم تعود الى فرنسا فتشعل نار الحرب في أوروبا ، وتتسمن ذروة المجد الشاهقة ، وتأخذ في غزو الامم وإذلال العباد ، وأهراق الدماء ، وتبقى كالسيف المعلق على الرقاب ، تنظف أوروبا كما ينظف الخادم دار مولاه ! حتى إذا انقضت مهمتك سقطت من ذلك المكان العالي ، سقوط الشهاب الثاقب ، نعيش بعد ذلك ستة أعوام متوالية يتقطع فيها نياط قلبك ، كما تقطع أوتار الآلة الموسيقية ، فيسمع طارنين غريب ، قد بقي دويته الى اليوم ، يرن في آذاننا ، وآذان من يأتي بعدنا ، إلي يوم الساعة ! وما كنت في الأولى ، ولا في الثانية ، إلا آله في كنف القضاء ، وألوهة في يد الأقدار ، وكل ميسر لما خلق له » :

ولنعد إلى ما كنا فيه من رحلة نابوليون إلى السويس فنقول إنه في اليوم التالي لخلاصه من ذلك المأزق الحرج ، ركب في جماعة من العلماء وفيهم مونج ورتللو وبعض قواده وضباطه أركان حربه وسار بهم شمالاً بقصد استطلاع طريق مواصلة البحر

الأبيض بالأحمر وكان قبل قد أصدر أمره إلى القوة المرابطة بالسويس بالسيرة عادة للقاهرة عن طريق أجروود وبلبيس أما هو فعثر على آثار تلك التربة التي كانت تنقل مياه النيل في الوادي من بوسط على فرع النيل القديم الذي كان يسمى "و بيايز"، Peluse

وفي الثالث من شهر يناير سار نابليون ومعه بعض القواد والجنود في اتجاه وادي الطميلات وهناك أبصر برجل يسير على هجين يحمل رسالة ولما رأى الرجل الجنود الفرنسية حاول الاختفاء والابتعاد وكانت الرسائل التي معه من إبراهيم بك والجزار باشا إلى مصر معلنة بابتداء المعارك على حدود سوريا وبأن جيش الجزائر دخل الأراضي المصرية ، وأن مقدمة هذا الجيش احتلت قلعة العريش وهي تعمل في تحصين القلعة لتكون قادرة على الدفاع

وفي هذه الاثناء وصلت مراكب من جدة إلى السويس حاملة مقداراً عظيماً من البن وبضائع الهند فاجتاز بونابرت الصحراء وعاد إلى السويس . وكانت حوالة هذه المراكب تبلغ نحو اربعمائة او خمسمائة طن . وجاءت أيضاً قافلة من القاهرة واصبحت مدينة السويس كمدينة هندية وقابل بونابرت التجار الذين عادوا من الهند وبعد ذلك سار من السويس إلى الصالحية واخذ في اقامة الاستحكامات فيها استعداداً للحملة على سوريا .



المدة الثانية

الحملة الفرنسية على الشام

— ١ —

ندخل الآن في المدة الثانية من الدور الثالث وهي عبارة عن الزمن الذي قضاه نابوليون في غارته على الديار الشامية — إلى أن عاد الي القاهرة يائساً من تحقيق أحلامه في بلاد الشرق . وقد سبق لنا القول إن الدولة العلية أحدثت مع انكلترا وروسيا على محاربة فرنسا وإخراج جنودها من أرض مصر فأعلن الباب العالي الحرب على فرنسا رسمياً في ٢١ ربيع الاول سنة ١٢١٣ الموافق ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . والحق يقال إن نابوليون كان أبعد نظراً من جميع رجال السياسة في فرنسا لانه فكر في امكان قيام الدولة العلية عليه ، فحسب لذلك ما حاسب من سوء العواقب قبل أن يبرح فرنسا بحملته ، بدليل أنه كتب من إيطاليا إلى مسيو تاليران (Talleyrand) وزير الامور الخارجية بتاريخ ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ (أي قبل اعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا بسنة كاملة) خطاباً محفوظاً الآن بوزارة الخارجية يطلب منه اتخاذ الوسائل اللازمة لارضاء الباب العالي وحمله على قبول الاحتلال الفرنسي لمصر ، بل وزاد نابوليون في ذلك إذ طلب من تاليران أن يذهب بنفسه الي الأستانة ليمدّل ما أوتى من حكمة ودهاء للتأثير على رجال الدولة العلية

إلا أن تاليران لم يكن في الحقيقة صافى النية نحو نابوليون ، كما يشهد بذلك تاريخه معه حتى بعد ارتقاء نابوليون إلى عرش فرنسا ، وطالما أظهر نابوليون المحقد عليه وطقن في ذمته وإخلاصه في مذكراته وأحاديثه في سانت هيلانه ، ولذلك لم يذهب تاليران الى الأستانة . قال (ميو) في مقدمة كتابه « ولما كان نابوليون يحب دائماً أن يشرك الرجال معه فيما يذهب اليه من الاخطار (١) طلب من تاليران أن يذهب

(٢) أخذ نابوليون معه ميرلين Merlin ابن رئيس الديركتوار

الى الآسانة . وبرح نابوليون فرنسا وهو معتقد بصدق وعود تاليران ولكن الأول لم يدرك أن الثاني كان أكثر منه دهاءً وخبثاً لأنه تركه يرحل لمصر وهو عارف بما ستؤدى اليه نتائج تلك الحملة ، وبقي في باريس وخدم بذلك أحد أعضاء الديركتوار الذى كان يتطلع الى منصب وزارة الخارجية »

ومع ذلك فإن تاليران لم يندس أن يكلف سفير الجمهورية الفرنسية فى الآسانة أن يبذل نفوذه للتأثير على الباب العالى لاجل منعه عن الانضمام الى انككترا وروسيا . فقد رأيت فى كتاب المرحوم سرهنك باشا (حقائق الأخبار فى دول البحار) وهو فى هذا ناقل عن المصادر التركية قوله « إن الدولة العلية أخذت تسعى فى استرجاع مصر وإخراج نابوليون منها بالقوة رغمًا عن المساعى التى أجراها مسيو روفن Ruffin سفير فرنسا لدى الباب العالى لاقناع الدولة وجعلها تعتبر حركات بونابرت حبية لاعدائية لأن الدولة وقتئذ عدت ذلك بمثابة إعلان حرب من فرنسا عليها وسجنت السفير روفن المذكور فى (يدى قلله) مع باقى الفرنسيين المقيمين فى القسطنطينية كالعادة ثم أخذت تجهز جيوشها وأساطيلها وعقدت لذلك معاهدات دفاعية مع دولتى روسيا وانككترا على يد مندوبها المسمى عصمت بك أحد الصدور العظام وعاطف افندى رئيس السكتاب »

ونحن لا نحتاج الى تذكير القارىء بأن انككترا لما انفقت مع الدولة العثمانية على محاربة فرنسا فى مصر ، إنما كانت تنفذ خطتها السياسية ، وتقاليدها الأساسية ، وهى أن لا توجد على ضفاف النيل دولة قوية — تلك السياسة التى ظهرت واضحة جلية فى جميع حوادث القرن التاسع عشر الميلادى بمصر ، من إخراجها الفرنسيين من هذه الديار ، وبمقاومتها محمد على باشا وإضعاف دولته وخضد شوكره ، وفى مقاومة انشاء قناة السويس ، وفى مساعدتها اسماعيل باشا على الاسراف ، وباتخاذ ديون مصر وسيلة للتدخل فى شؤون البلاد ، وإخاؤها شرارة الثورة العربية توسلا لاحتلال مصر وأما روسيا التى لم تكن فى ذلك الحين قد رسمت سياستها الاسيوية — تلك السياسة التى حولت بها وجهها شطر التوسع فى آسيا والتطلع الى الهند فأبها لعداوتها

لجمهورية فرنساوية ، وخشيتهما من انتشار أفكار الثورة الفرنسية في البلاد الروسية ، رضيت أن تدخل في اتفاق مع عدوتها تركيا وانكسرت ، لاجراج فرنسا من أرض مصر . وهكذا السياسة دائماً تعادى وتصافى للمصلحة قبل كل شيء .

بدأت تركيا حربها ضد فرنسا باحتلال الجزر اليونانية الواقعة في بحر الادرياتيك وكان نابوليون ، لما قهر جمهورية فينيسيا (البندقية) ، احتل تلك الجزر وضمها الى الجمهورية الفرنسية . قل سرهنك باشا في كتابه المشار اليه « وصلت الدونما الروسية من البحر الاسود إلى الآستانة وانضمت اليها الدونما العثمانية ثم أقطع الاسطولان سوية من البوغاز وقصداً بحر الادرياتيك واستوليا على البلاد التي كانت فرنسا واضعة يدها عليها هناك بمساعدة دنلي على باشا ، وبعد أن تم لها ذلك شكلت الدولة الروسية هناك جمهورية مكونة من عدة جزائر يونانية عرفت بجمهورية الجزائر السبع وكنمت الدولة وقتئذ احمد باشا الجزار والى عكا أن يبعث جيشاً لاحتلال العريش »

ويرى القارىء من الشذرات التي نقلناها واعتمدنا عليها من كتاب سرهنك باشا ، الفرق بين ما يكتبه في التاريخ أهل المعرفة والاطلاع وذوو الامم بلغة أولغتين من اللغات الاجنبية ، وبين ما يكتبه في هذا الفن من لا يكلف نفسه مشقة الفحص والتحصيل ، وينقل من الكتب العربية أغلاطها ، ويقع فيما وقع عليه فيه كتابها عن جهل قهرى . فالجبرتي مثلاً إنما يعتمد عليه في الامور المحلية والحوادث الوقية اليومية ، ولكن معرفة الامور الخارجية والمسائل السياسية تحتاج للرجوع الى الكتب التركية أو الاوروبية إجمالاً . ولقد وقع سرهنك باشا في كتابته عن هذه الفترة في أغلاط حجة ربما أشرنا اليها في سياق الكلام .

ولنعد إلى تاريخ حملة نابوليون على سورية فنقول : ذكر نابوليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلانة أنه لو بقي الفرنسيون في مصر ينتظرون الغارة عليها من البحر والبر لعرضوا أنفسهم لأخطار كبيرة لا قبل لهم بها ولذلك صمم نابوليون على مهاجمة أعدائه قبل أن يهاجموه وبدأ في تجهيز الحملة على سورية .

وكان نابوليون يؤمل أن ينضم اليه مسيحيو سوريا ودرروز جبل لبنان لما يقاسيه أولئك من ظلم الجزائر وقبائحهم ، وكان من جهة أخرى يصور لنفسه إمكان تأليف جيش كبير من اهالي سوريا ليسير بهم إما شمالا الى الاستانة وإما جنوبا بشرق الى بلاد فارس والاقطار الهندية ليعيد ذكرى الاسكندر المقدوني ويتوج قيصرًا على كل هاتيك الممالك والاصقاع : فقد جاء في مذكرات «بورين» أن نابوليون التفت اليه وهما سائران بالقرب من الشاطيء أمام عكا وقال :

« بورين ! إذا نجحت في فتح هذه المدينة ، كما أعتقد أنني سأنجح ، فأنتي سأجد فيها كنوز الجزائر ، وأجد أسلحة تكفي لثلاثمائة ألف جندي ، وعند ذلك أهبج أهالي سورية الذين يبغضون الجزائر لظلمها ، ويسألون الله صباح مساء أن أنجح في دخول عكا ، ثم أسلح منهم جيشاً عرمرما وأقصد دمشق وحلب فينضم الي القوم كخلص لهم من المظالم ، ثم أسير بجيوش لفتح الآستانة والشىء في الشرق امبراطورية عظيمة الشأن تنقش اسمي على أحجار الابدية ، وربما عدت إلى باريس من طريق أدرنه وفيينا بعد أن المحي من صحيفة الوجود بيت هابسبورج»^(١)

ليه أيتها الاحلام ! ما أحلاك ساعة التصوير وأمرك عند نحو التحقيق !
تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فضحك الاقدار !

عاد نابوليون من رحلته إلى السويس في السابع من شهر يناير سنة ١٧٩٩ - قال الجبرتي « وفي ليلة الاثنين غاية شهر رجب حضر ساري عسكر بونابرت من ناحية بليس إلى مصر ليلا واحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أبظه أخوسلميان أبظه شيخ العبادرة وخلافه رهائن وضربوا أبو زعبل والمنير وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم للقاهرة ، وخلقهم أصحابهم رجالا ونساء وصغاراً »

(١) لقب الاسرة المالكة في النمسا والمجر . ويريد الله ان تلك الاسرة كانت ممن ساعدوا على هدم نابوليون ، بعد أن خضعت له وزوجته بأمراته الثانية (ماري لويز) وقضت على ولده «الفسر الصغير» فأت كذا في فينا . ويريد الله ان اسرة هابسبورج تبقى أكثر من مائة سنة أخرى حتى قضت عليها الحرب الكبرى الأخيرة ، والله ، والبقاء لله !

وما فعل ذلك نابوليون بعرب الشرقية وأخذ زعماءهم رهائن إلا ليأمن جانبهم في حملته على الشام ، أو ليتقى شرهم في حال هجوم الجنود التركية التي كانت في ذلك الوقت قد احتلت العريش وأخذت في الزحف على مصر . وأول ما بدأ الشيخ الجبرتي ينوّه بمحالة الشام قوله في حوادث يوم ١٢ رجب « وقد ذهب عدة من العسكر الفرنسية الى قطية وشرعوا في بناء أبنية هناك واشيع سفر ساري عسكر الى الشام والاغارة عليها » . وذكر في حوادث ١٩ رجب أيضا أنه كثر الاهتمام والحركة لسفر الفرنسيين الى جهة الشام ، وأخذوا جمال عرب الترابين ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبسماط ثم رسموا على الاهالي عدة كبيرة من الخير والبغال يخاف الناس على حميرهم وامتنع خروج السقايين والبراسمية وحصل للناس ضيق بسبب ذلك »

تقلنا هذه العبارة من الجبرتي ليرى القراء أسلوب الفرنسيين في الاعتداء على المساكين وأخذهم دوابهم التي يتعيشون منها وكأنهم استحلوا كل ما في أيدي المصريين واعتبروه ملكا لهم يأخذونه انى شاءوا وكيفما شاءوا

وقبل أن يعلن نابوليون المصريين بعزمه على غزوة الشام كتب منشورا على لسان أعضاء الديوان الخصوصي تزلف فيه الى المصريين وبالغ في التلطف معهم الى حد بعيد ، وهذا المنشور مكتوب بعبارة عربية مسجعة تشابه أسلوب المعلم تقولا في رسالته . ولعل نابوليون كلفه بتحرير ذلك المنشور بعد أن مدحه ببيصده المألومة التي جعلها مسيو مارسل المستشرق موضوع محاضرة له في دار المجمع العلمي . وقد وزع المنشور في يوم ٢١ من شهر شعبان سنة ١٢١٣ - ٢٨ يناير سنة ١٧٩٩ وهذا هو :

« الحمد لله وحده . هذا خطاب الى جميع أهل مصر من خاص وعام ، من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الآنام ، علماء الاسلام ، والوجاقات والتجار الفخام . نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرة ساري عسكر الكبير بونا برته أمير الجيوش الفرنسية صفع الصفح الكلي عن كامل الناس والرعية ، بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجمعيدية ، من الفتنة والشر مع العساكر الفرنسية ، وعفا عفوا شاملا وأعاد الديوان

الخصوصى فى بيت قائد أغا بالأزبكية. ورتبه من أربعة عشر شخصا أصحاب معرفة
 واثقان ، خرجوا بالقرعة من ستين رجلا كان انتخبهم بموجب فرمان . وذلك لأجل
 قضايا حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام ، وتنظيمها على
 أكمل نظام وإحكام ، كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ، ومزيد حبه لمصر
 وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره ، رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لأجل
 خلاص المظلوم من الظالم . وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد
 الجوهرى ، وقتل اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالى الى أدنى مقام ،
 لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيس ، خصوصا مع النساء الأرامل فان ذلك قبيح
 عندهم لا يفعله الا كل خسيس ، ووضع القبض بالقلمة على رجل نصرانى مكاس ، لانه
 بلغه أنه زاد المظالم فى الجرك بمصر القديمة على الناس . ففعل ذلك بحسن تدبيره
 ليمتنع غيره من الظلم ، ومراده يرفع الظلم عن كامل الخلق ، ويفتح الخليج الموصل من
 بحر النيل الى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز الأنجم ،
 وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطريق ، وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند
 واليمن وكل فج عميق ، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم ، وأتركوا الفتنة والشور ،
 ولا تطيعوا شيطانكم وهو اكم ، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة ، لأجل
 خلاصكم من العطب والوقوع فى الندامة . رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم ، ومن
 كانت له حاجة فليات إلى الديوان بقلب سليم ، إلا من كانت له دعوة شرعية ،
 فليتوجه إلى قاضى العسكر المتولى بمصر المحمية ، بخط السكرية ، والدلام ، على أفضل
 الرسل على الدوام » اه

وأما حكاية اقتصاص نابوليون من جنوده الذين « أساءوا بمنزل الشيخ محمد
 الجوهرى » — ذلك القصاص الذى يتدل به على المصريين ويوم به أن الاعتداء
 على النساء ليس من عادة الفرنسيس — فهى إن الشيخ محمد الجوهرى الذى سبق
 الكلام عنه لما رأى نزاحم فرنساويين على السكنى بحى الأزبكية ، هجر داره التى
 كانت له مطلة على البركة بالقرب من باب الهواء وترك فيها بعض الخدم من رجال
 ونسوة فحبل لبعض الفرنسيين فى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب — وذلك قبل

عودة نابوليون من السويس بثلاثة أيام — التحدى على تلك الدار لامرما ، فاستيقظ النسوة الخادومات وصرخن فضربوهن وقتلوا منهن امرأة وحاولوا هناك عرض بنت خادمة ، فمرت منهن الى مكان خفي في قعر الدار . قال الجبرتي « دعائوا في الدار وأخذوا متاعاً ومصاعاً ونزلوا فاستيقظ البواب واخفق منهم » وقال « فلما قدم سارى عسكر من سفره ركب مشايخ الديوان وأخبروه بأمر ذلك الاعتداء على منزل الشيخ الجوهري فاعتم لذلك وأظهر الغيظ »

ولولا أن الشيخ الجوهري له تلك المنزلة العالية التي يركب لأجلها مشايخ الديوان ، لما اغتم ولا اغتم نابوليون بأمر ذلك الاعتداء القبيح على داره وخدمه ؛ ولو كان فيه نساؤه وبناته للحقن مالمحق خادماهن ؛ ولكن ألم يكن يقع مثل ذلك مع أسر كثيرة في جميع أحياء القاهرة ؟ وهل كنا نتنظر من الشيخ الجبرتي أن يدون لنا كل ما حصل من ذلك في دور محمد واسماعيل وابراهيم وسيد احمد مثلا ... ؟

ولولا أن نابوليون في ذلك الوقت كان قادماً فيه على حرب عوان مع جميع المسلمين شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، لما تزلف الي المصريين ، ولا همه منزل الجوهري وخادماته ، مهما عظم مقامه وجل شأنه ، اذ لا نزاع في أن نابوليون كان أحوج الى جندي فرنسي من أن يريق دمه فداء لمصرية أو لمصري ؛ ولكنه رضى مكرها أن يقتص من اثنين أو ثلاثة من الجنود ليبرهن للمصريين على عدله وليقربهم اليه زلفي . ومع ذلك فنحن لانعرف كيف اقتص من الجنود ، وغاية ما نعرفه هو أن الجبرتي ذكر في حوادث أول شعبان العبارة الآتية « أنهم قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بلميدان تحت القلعة قيل لهم من المتسلقين على الدور » ؛ ومن يدرينا ، أو يدري الجبرتي ، أن أولئك الثلاثة ليسوا من المجرمين الذين ارتكبوا الإجراما فحشة ضد القواد أو الضباط أو الجيش مثلا ... ؟

ولنعد الى الحملة الشامية فنقول ان نابوليون شرع في الاستعدادات لتلك الحملة وبدأ في تسييرها من القاهرة في الايام الاولي من شهر رمضان من تلك السنة الموافق شهر فبراير سنة ١٧٩٩ ولم يجد مناصاً أمام ما ظهر للناس من حركة الجنود ، وما

أذيع في طول البلاد وعرضها من قرب هجوم الأتراك على مصر ، أن يعلن للمصريين بصفة رسمية عزمه على غزو الشام ، فجمع لديه أعضاء الديوان وقال لهم كلاماً طويلاً خلاصته أنه قد قضى على الممالك في الوجهين والقبلي البحري من أرض مصر وأنه قد عزم على أن يذهب لبييد البقية الباقية منهم ، أي أولئك الذين فروا مع إبراهيم بك إلى سوريا ، وصاروا يهددون الاقطار المصرية وبيعثون بالمكاتبات والمنشورات المهيجة للأمة ، ليقضى عليهم ، ويربح العباد من شرورهم ، وألقى على المشايخ كلاماً ثقيلاً وهددهم وألهم بالفناء والعدم إذا حصل في البلاد أثناء غيبته شغب أو فتنه . قال الجبرتي « وكتبوا أوراقاً مطبوعة في هذا المعنى وألصقوها بالطرق » ولا ندرى لماذا لم ينشر الجبرتي نص هذا المنشور كأثر من الآثار التاريخية لتقف منها الاجيال الخالفة على توبيعات السياسة في ذلك الزمن ، ولهذا يحق لنا أن نذكر المعلم نقولا الترك بالخير لوضعه نص ذلك المنشور في رسالته . وقبل أن تأتي على نصه نقول إن نابوليون قد تحاشى ، سواء في خطابه الذي ألقاه على أعضاء الديوان ، وسواء في هذا المنشور ، ذكر انه يحارب الدولة العثمانية أو الأتراك ، وقصده بذلك ظاهر ، اذ انه لا يزال يوهم المصريين بأن الدولة العلية غير غاضبة على احتلاله مصر ، وانه إنما جاء لحق سلطة الممالك الظالمين

الا إنه مع هذا الحرص مهدّ أذهان القوم لقبول فكرة الانفصال عن تركيا باعطاء نفسه لقب « السلطان أمير الجيوش » ولعل الجبرتي لم ينشر ذلك المنشور بنوع خاص لوجود ذلك اللقب فيه . نعم ان كتاب الفرنسيين قالوا وكرروا وأكثروا أن المصريون كانوا يلقبون بونابرت « بالسلطان الكبير » من أول يوم وطئت فيه قدماه أرض القاهرة ، ولكننا لانزال نؤكد أن ذلك لم يكن الا من أفواه اللداجين والمنافقين ، سواء من بعض المسامين أو النصارى السوريين أو بعض الاقباط ، والجبرتي لم يذكر هذا اللقب قط ، وضح أن يكون في مصر لقب سلطان مع وجود سلطان آل عثمان خليفة المسلمين ، وكذلك لم يرد في كل منشورات نابوليون ، سواء القولة عن لسانه ، وسواء المنسوبة الى المشايخ وأعضاء الديوان ، ذكر لذلك اللقب الا في

هذا المنشور الذي رفض الجبرتي تسطيحه ودونه المعلم نقولا الترك ، ولم يكن لنا بليون مصلحة في انتحال هذا القرب لنفسه ، اذ كانت تقضى عليه السياسة والحكمة بعكس ذلك ، فهو ابن الثورة الفرنسية التي نلت عروش الملوك ، والتي تنادي بالحرية والاخاء والمساواة ، ولا يخاطب الوزير أوالحقير الا بلفظ ستواين « مواطن » وهذا نص المنشور نقلا عن رسالة المعلم نقولا ننقله بنصه وفصه :

« من محفل الديوان الخصوصي إلى جميع الاقاليم المصرية نخبركم أن أمس تاريخه خامس شهر رمضان المعظم ، توجه حضرة الدستور المكرم سرعسكر الكبير بونابرتيه ، أمير الجيوش الفرنسية مسافراً يغيب ثلاثين يوماً لاجل محاربة ابراهيم بك الكبير وبقية المماليك المصرية حتى تحصل الراحة السكاية للاقاليم المصرية ، من هؤلاء الاعداء الظالمين ، الذين لا راحة فيهم ، ولا رحمة في دولتهم على أحد من رعيتهم ، وقد وصلت الآن مقدمة الجيوش الفرنسية إلى العريش ، وعن قريب يأتيكم خبر «قطيعة» ابراهيم بك ومن معه من المماليك نظير ما وقع في «قطيعة» اخيه مراد بك ومن معه في إقليم الصعيد . فيقطع دابرهم من بر الشام كما انقطع دابرهم من إقليم الصعيد بالتمام ، ويبطل القيل والقال ، وتذهب الكاذبة التي تسمعونها من أوباش الرجال ، ونخبركم أن حضرة الساري عسكر المشار اليه ، يتجدد له كل يوم نية الخير والرحمة ، ويحدث في تصميم الشفقة والرأفة . هذه هي نيته لكم في كل الاقطار المصرية ، ويحصل لهم النجاح والصلاح ، ويكمل في سائر أقطارها السرور والاصلاح ، وتفرح أقاليمها على يد سلطانها بونابرتيه بمشيئة الله الذي يمكنه فيها ، ونصره على من ظلم فيها من المماليك المفسدين ، ولا يتم خلاصها بالكفاية وتنظير من دولة المماليك الردية ، إلا ببذل همته ورأيه السديد ، في تكميل نظامها بخضوعهم لسيوفه الباهرة ، وتكمل زروعها الفاخرة ، وأنواع تجارتها الباهرة ، ويحدث فيها برأيه وحسن تدبيره التحف من أنواع الحرف والصناعات النفيسة ، ويجدد فيها ما اندثر من صناعات الحكماء والأولين ، ويرتاح في دولته كل الفقراء والمساكين ، فالتمزوا يا أهل سكان الارياف والفلاحين بحسن المعاملة والأدب ، واجتنبوا في غيبته أنواع

الكذب والقبايح حتى يراكم حين يعود بعد هذا الشهر قد احسنت المعاملة «
ومشيتم على الاستقامة ، وينشرح صدره منكم ، ويرضى عليكم ، وإن حصل منكم في
غيابه أدنى خلل ومخالفة حلّ بكم الوبال والدمار ، ولا ينفعكم الندم ، ولا يقر لكم
قرار ! واعلموا أن ذهاب دولة المالك بقضاء الله وقدرته ، ونصرة سلطانكم أمير
الجيوش عليهم بتقدير الله وأمره ، والعامل يمثل الى احكام الله ، ويرضى بمن ولاء
والله يؤتي ملكه من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله »

- ٣ -

واتبع المعلم نقولا هذا المنشور بامضاء تين فقط وهما على الشكل الآتي : « الداعي
لكم الفقير عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان الخصوصي عنى الله عنه ، والداعي
لكم الفقير السيد محمد المهدي الحفناوي كاتب السر ، وباشكاتب الديوان عنى الله عنه »
وقد كان هذان الشيخان يمشيان دائما على منشورات الفرنسيين وبلاغاتهم عن
الحرب في الشام . وكان قد اختار نابوليون جماعة من العلماء لمرافقته لتلك الاقطار
ليومهم العالم الاسلامي بأن رجال الدين يسرون في ركابه ويشهدون بعدله وإحسانه ،
ولا شك في أن اختيار هذين الشيخين لامضاء المنشورات راجع في الاكثر الى الصفة
التي لكل واحد منهما في الديوان الخصوصي ، لأن الشيخ عبد الله الشرقاوي كان
رئيس الديوان والشيخ محمد المهدي كاتب سره . ولكن وجودهما في هذه المنزلة له
أيضا سبب آخر ، وهو انهما كانا من صنف المشايخ الذين نعرفهم ويعرفهم كل من له
خبرة بأحوال هذه الديار وطبقات أهلها . كانا من ذلك النوع الذي كان أولى به
الزهد في الدنيا وزخارفها ، من أن يكون شرها في حب المال والتعلق بمظاهر
الحياة الفانية .

كان الشيخ عبد الله بن حجازي بن ابراهيم الشافعي من بلدة الطويلة بمديرية
الشرقية ، لذلك سمي « الشرقاوي » وكان في مبدأ أمره من الفقراء المعوزين
يعيش من فضلات الناس الذين يلتصق بهم في أيام طلبه للعلم . ثم أخذ في التردد

على الشيخ محمود السكردى من مشايخ الطرق الصوفية فلما توفي هذا أخذ في القاء الدروس بالازهر ، وكان يجمع الطلبة والمجاورين للذكر في حلقات في دور الناس ليأخذوا بذلك الدراهم ، وليأكلوا من قصع التريد ، ثم ارتقى به الحال حتى عد في طبقة العلماء ، وتوصل إلى مشيخة الجامع الازهر . قال الجبرتي الذي نخلصنا منه ما تقدم عن الشيخ الشرقاوى ، في وفيات سنة ١٢٢٧ (أى بعد المدة التي نحن بصدددها بأربعة عشر عاما) ، « فلما حضرت الفرنسية جعلوا المترجم رئيس الديوان ، فانتفع في أيامهم بما يتحصل اليه من المعلوم والمرتب له عن ذلك ، وقضايا وشفاعات ببعض الاجناد المصرية ، وجعالات واستيلاء على تركت وودائع خرجت أربابها في زمن الفرنسيين وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها وكبر عملمته . وزوجته بنت الزعفرانى هي التي تدبر أمره ، ونحز كل ما يأتيه ويجمعه ولا يروح ولا يغدو إلا عن مشورتها ، واشترت العقارات والحمامات والحوانيت » اه .

وكان هذا الشيخ الشرقاوى أول من استقبل الانتر الكوالمف كتيباً ببناء على طلبهم سماه « بحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » وقد سبق لنا نقل شذرة من هذه الرسالة ، وهي الحكمة الوحيدة التي توجد في ذلك الكتيب ، وجاء في مقدمته « إنه لما حل ركاب الصدر الاعظم ، والوزير الانغم ، والدستور الاكرم ، حضرة مولانا الوزير يوسف باشا ، بلغه الله من المرادات ما شا ، بمدينة بلبليس في شهر رمضان سنة ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنسية في قلعة العريش وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاه ، طلب منى بعض الاخوان من أتباع ذلك الصدر الاعظم أن اجمع كتاباً متضمناً لواقعة الحال المذكور »

« فأين هذه الانقلاب للوزير الاعظم ، والدستور الاكرم ، من « سلطاننا بونابرتة أمير الجيوش ذي العدل والاحسان والاصلاح والخير للرعية والملة المحمدية » ؟ وكان ينظر من أكبر علماء زمانه أن يكتب للاعتقاد الخالفة تاريخاً ذا قيمة عن الحملة الفرنسية في مصر ، كما طلب منه ذلك من طلب من أتباع الصدر الاعظم ، ولكن رسالته المذكورة ليس فيها عن الحملة الفرنسية الا نحو ثلاث صفحات لا قيمة

لها . قال الجبرتي في ترجمة الشيخ الشرقاوي « والمترجم طبقات جمعها في تراجم
المنتهى الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن
الثاني عشر نزل تراجم المتقدمين منهم من طبقات السبكي والاسنوي، وأما المتأخرين
فنتقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد »

وهذه العبارة تدلنا على أن بعض أجزاء تاريخ الجبرتي هذا كان مكتوباً ومتداولاً
بين الأيدي . والغالب على الظن أن بعض أجزاءه الخطية كانت توضع في مثل
مكتاب الأزهر . ثم قال الجبرتي « وعمل تاريخاً مختصراً في أربعة كراريس وأهداه
لوزير يوسف باشا عدد فيه ملوك مصر وذكر في آخره خروج الفرنسيين ودخول
العثمانية في نحو ورقتين ، وهو في غاية البرود وغلط فيها غلطات .. » ؛ وكانت وفاة
الشيخ الشرقاوي في أول حكم محمد علي باشا

وأما الشيخ محمد المهدي فتوفي بعد الشرقاوي بثلاث سنوات أي سنة ١٢٣٠ هـ
هجرية . قال عنه الجبرتي إن والده كان من الاقباط وأسلم الشيخ وهو صغير دون
البلوغ على يد الشيخ الحفني الذي احتضنه ورباه ثم دخل الأزهر وقصد لتدريس
في سنة ١١٩٠ وتقرّب من اسماعيل بك كتحدا وكيل حسن باشا الجزائري وصاهر
الشيخ محمد الحريري الحفني وأقبلت عليه الدنيا وزادت ثروته ورغبته وسعيه في
أسباب تحصيل الدنيا ، واشتغل بالشركات والتجارة في الكتان والقطن والارز وغير
ذلك ، والتزم بعدة حصص في البحيرة والمنوفية والجيزة والغربية ، وابتني داراً
بالأزبكية ناحية الرويعي . ولما حضرت فرنساوية وخافهم الناس لم يقبض الشيخ
المهدي عن المداخلة فيهم ، بل اجتمع بهم وواصلهم وانضم اليهم ، وسائرهم ولاطفهم
وجارهم في أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله . فكان
هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر والواسطة بينهم وبين الناس في
قضايهم وحوائجهم ، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاية أعمالهم ، وراج أمره في
أيامهم وزاد إيراده وجمعه ، وأقاموه وكبلا عنهم في أشياء كثيرة وبلاد وقرى ينجي ،
خراجها اليه ، ويأتيه الفلاحون بالهدايا فيفعل بهم ما كان يفعله أرباب الالتزامات

من الحبس والضرب وأخذ المصالح، وصار له أعوان وخدم وتبع من وجهاء الناس .
ثم قال الشيخ الجبرتي الذي نلخصنا ما تقدم عنه مانصه : « وبالجملة فكان لوجوده
وتصدره في تلك الأيام النفع العام . سد بعقله ثقباً واسعاً وخرقاً ، ودراوى برأيه
جروحاً وتوقاً ، لاسبأ أيام اليهازع ، والخصومات والتنازع ، ومايكدر الفرنسيون به ،
من مخارق الرعية، فيتلافاه بمراهم كلمته، ويسكن حديثهم بملاطفاته ، ولما مضت أيامهم ،
وتنكست أعلامهم ، وارتحلوا عن الأفطار المصرية ، ووردت الدولة العثمانية ، كان
المترجم أعظم للتصديرين في مقابلاتهم ، وأوجه الوجهاء في مخاطبتهم ومسكالمهم ،
وبهرهم بتحليله واحتياله، واسترهبهم بسحره وخياله . . . وبعد كلام طويل عنه وعن
أولاده: قال، إنه اشترى داراً كبيرة بناحية الموسيقى (وهى المعروفة الآن بدار
الشيخ المهدي) وكانت لبعض عتقى بقايا الامراء الأقدمين ، وتنتهي حدودها من
الموسكي الى حارة المناصرة أو الي كوم الشيخ سلامه ولم يدفع من ثمنها الا العربون
وكتب الحجة وسكنها ، وماطل في دفع ثمنها كعادته في دفع الحقوق وغاب خمس
سنوات منتقلا في البلاد حتى مات في غيبته بعض أصحاب الدار التي اشتراها منهم
واستمر الحال بالشيخ المهدي حتى زمن محمد علي باشا فكان ممن أوقع النفرة بين
الباشا وبين السيد عمر مكرم ، ونال بذلك أغراضه ، ومنح النظر على أوقاف كان
السيد عمر يحصل منها على أموال حبة ، وأكثر المهدي من التردد على محمد علي
باشا وأكبر دولته مثلما كان يفعل في زمن الفرنسيين وعين شيخاً للجامع الازهر
أياماً قلائل ، وكان كلما وجد امرأة من نساء البكوات المالك ذات اليسار بغير
زوج يقترن بها ويسقط مالها ونوالها في بئر عميق (هكذا تعبير الشيخ الجبرتي) .
وترك المال الكثير والمقارن الواسعة والأطيان الشاسعة لأولاده وأولاد أولاده
المعروفين الآن في القاهرة

هذه خلاصة موجزة اقتطفناها من عدة صحائف من وفيات الجبرتي الطويلة
التي يكون القارئ لنفسه صورة عن زعماء العلماء في ذلك العصر، وما ذكرناها الا
لاختصاص الشيخين الشرقي، والمهدي بأمضاء منشورات نابوليون وبلاغاته
وتتمويهاته على المصريين خاصة، والمسلمين في جميع بقاع الارض عامة ، حتى إذا وضعت

راجم أولئك العلماء، بجانب ما في تلك المنشورات من العبارات، وجد للقاري، معيار
يزن به الحقائق التاريخية ولهذا يهتم المؤرخون المحققون بالبحث عن صفات وأخلاق
وظروف الأشخاص الذين يمثلون دوراً من الأدوار في حوادث عصر من العصور

- ٤ -

ليس من غايتنا أن تتبع الحملة الفرنسية في غارتها على الديار السورية لأن ذلك
يعتبر صفحة من تاريخ تلك البلاد، ونحن إنما نكتب تاريخ مصر في هذه الفترة ولكن
ذلك لا يمنعنا من أن نلم بالمأما تماماً بحركات تلك الحملة في سوريا وتائجها التي لها
بلا شك ارتباط بتاريخ مصر، خصوصاً إذا لاحظنا في ذلك تاريخ محمد علي باشا
وحملته على سورية واستيلاء الجيوش المصرية على الجزء الأكبر من سورية والناضول،
وانتصارات جنود مصرية نجحت حيث فشلت الجنود الفرنسية تحت قيادة
أعظم قائد عسكري أوجده الزمان، - فنقول إن الحملة الفرنسية تألفت من نحو
ثلاثة عشر ألف جندي تحت قيادة الجنرالات كليبر ورينيه ولان وبون ومورات
ودومرتين وكفريللي وسارت هذه الحملة من جهات مختلفة من دمياط والصالحية
وبلييس والقاهرة، وكان خروج نابوليون من العاصمة في يوم الاحد ٥ رمضان سنة
١٢١٣ - ١٠ فبراير ١٧٩٩ وأخدمه من المشايخ سليمان الفيومي ومصطفى الصاوي وعبد
الرحمن العريشي ومحمد الدواخلي واستصحب معه أيضاً قاضي عسكر ابراهيم أدهم افندي
(بيمقشي زاده) ومصطفى بك (الذي كان كتنخدا الوالي والذي ولاه أمير الحج)
واستصحب أيضاً جماعة من التجار والوجاقلية والاقباط والشوام

وكان غرض نابوليون من استصحاب أولئك المشايخ والقاضي وأمير الحج التأثير
بهم على المسلمين في سوريا لكي يفهمهم أنه على اتفاق تام مع المسلمين في مصر وأنه
إنما قدم سورية ليخلصها من مظالم الجزائر، ولمكنه لم يوفق في النهاية إلى وجود أولئك
المعتمدين معه لأنهم تخلفوا عنه في الطريق ولهم حكاية طويلة كادت تحدث منها
ثورة كبيرة سنأتي عليها في مكانها

وقبل أن تتبع نابوليون في غزوته للديار الشامية ونعدد انتصاراته المتوالية - إذ لم

بعض على خروجه من القاهرة أكثر من شهر من الزمان حتى كان قد استولى على العريش وغزة وخان يونس والزملة ويافا وحيفا ، وابتدأ في حصار عكا ، - تقول قبل هذا نسأل : ماذا أعدت الدولة العثمانية لذلك المغير على بلادها ، بعد أن حالفت انكترا واتفقت مع الروسية على محاربتة وإخراجه من ارض مصر منذ ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، أي قبل تحرك نابوليون للشام بنحو أربعة أشهر ونصف ؟

كل ما نعلمه هو أن الدولة أعدت جيشا في جزيرة رودس لإرساله لمصر ، وعهدت الى احمد باشا الجزائر والى عكا بإرسال الجيوش الى الديار المصرية عن طريق الصحراء ، ولكن الجزائر كان رجلا داهية لا يخفى عليه أن تجريد ولايته ، التي استقل بها عن الدولة من جيوشه ، يعرضه للوقوع في شرك الدولة ، فلذلك لم يحفل بفرمانات الدولة وأوامرها كما يؤخذ ذلك من خطاب بعث به يوسف باشا ضياء حين عين لقيادة الجيش الزاحف على مصر ، وهذا الخطاب موجود بنصه في الجزء الثاني من (تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي) واكتفى الجزائر بأرسال أربعة آلاف ، خليطا من المالك المصرية والغاربة والارنوط الى قلعة العريش لتكون هذه القوة على مقربة منه ، حتى اذا رأى من العثمانيين عين الغدر ، استدعى تلك القوة اليه ثانية. وكانت هذه السياسة الخرقاء من اسباب ضعف الدولة في ذلك الحين وبعده الي آخر عهد الامبراطورية العثمانية ولتعد الى نابوليون فنقول إن فرقة الجنرال «رينيه» وصلت الى العريش في ٢٠

فبراير وحصلت بينه وبين القوة المرابطة فيها بعض وقائع حتى اضطرت تلك القوة الى الالتجاء الى القلعة ، ولم يكن فيها من المدافع غير ثلاث قطع ، فكيف تفعل أمام تلك الحلة المنظمة والمدافع الكثيرة والجنود العديدة ؟ وقدّم عبد الله اغا^(١) من قبل الجزائر من جهة نزوة بقوة تزيد عن ستة آلاف مقاتل فتلقاها الجنرالان كايبر وريديه وهجمت عليهما الجنود الفرنسية ليلا فبددت شملها قبل أن تتمكن من الوصول الى نجدة العريش . وامتعت القوة المرابطة في قلعة العريش وأبت التسليم الى النهاية إلا

(١) ذكر الجبرتي وتابعه جورجى زيدان وشارويهم بك ان القوة التي كانت في العريش لم يزد على ثمانمائة رجل وأن المدد الذي كان آتيا للعريش من جهة الجزائر كان تحت قيادة قاسم بك ألكسوى والرواية في العدد خطأ لا نزاع فيه. أما اسم قاسم بك فله أثره في المصادر المتوفرة وربما عدن عبد الله اغا اسمه عبد الله بك قاسم مثلا

على شريطة أن يسمح لها بالخروج بكامل سلاحها ، ولم يرد نابوليون أن يفقد في هجومه على تلك القلعة نحو خمسمائة جندي من رجاله ، وهو في أشد الحاجة اليهم بعد أن دام الحصار ثمانية أيام ، ولذلك قبل شروط الحماية فسلمت وخرجت بسلاحها ، بعد أن شاهد رجالها نابوليون وأقسموا بالشرف العسكري أن لا يرفعوا في وجهه سلاحا ، مادام يحارب سورية (وعلى رواية أخرى لمدة عام) ولكن هذه القوة بعد أن خرجت قاصدة دمشق تحولت ثانية إلي يافا وانضمت الي المحاربين فكان عملها هذا مسوغا لنابوليون أمام نفسه وضميره لقتل من قتل في تلك الجزيرة البشرية التي بقيت وصمة في تاريخه على الرغم من الاسباب الوجيهة التي دافع بها عن نفسه وعمله في مذكراته في سنت هيلانة

ولما استولى الفرنسيون على العريش أرسلوا إلي القاهرة بجيران نصارهم فاقبمت الزينات وأطلقت المدافع . قال الجبرتي في حوادث ٢٥ رمضان « وبعد الظهر عملوا الشنك للموعود به و ضربوا عدة مدافع بالقلعة والازبكية وأظهر النصارى القرح والسرور ، بالاسواق والدور ، وأولموا في بيوتهم الولائم ، وغيروا الملابس والمعائم ، وتجمعوا للهو والخلاعة ، وزادوا في القبح والشناعة »

ولما استولى نابوليون على العريش أصدر منشورا لاهالي سوريا كما فعل في الاسكندرية لاهالي مصر وقد رأينا من باب المقارنة والفائدة التاريخية أن تأتي على بعض شذرات منه فيما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . وبه نستعين

من طرف بونا برته أمير الجيوش الفرنسية إلى كافة المفتين والعلماء وكافة أهالي نواحي غزه والرملة ويافا حفظهم الله تعالى : بعد السلام نعرفكم اننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم اننا حضرنا إلى هذا الطرف بقصد طرد المالك وعسكر الجزائر عنكم . وإلى أي سبب حضور عسكر الجزائر وتعديه على بلاد يافا وغزة التي ما كانت من حكمه ، والي أي سبب أرسل عساكره الي قلعة العريش . بذلك هجم على أرض مصر فلا شك كان مراده اجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه « ومن هذا بري القاريء أن نابوليون مع أنه يحارب الدولة العثمانية في بلادها ،

ومع أنها أعلنت الحرب عليه وعلى فرنسا فإنه لا يزال متمسكاً بأنه لا يجازى تركياً ولا يقصد التعدي إلا على الممالك واحمد باشا الجزائر الذي باداه العدوان؛ ثم جاء في هذا المنشور: « وقصدنا أن القضاة يلازمون وظائفهم وأن دين الاسلام لا يزال معتزلاً ومعتبراً والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين . . . والذي يتظاهر لنا بالحب يفلح والذي يتظاهر بالعدو يهلك . الخ »

وللاحظ أن اسلوب هذا المنشور الموجود نصه في الجبرتي يخالف لجهة المنشورات الاخيرة التي طبعت في القاهرة بعبارة مسجعة فصيحة نوعاً ما ، ويظهر أن هذا التركيب الركيك من انشاء « فتور » المستشرق الذي سحّب نابوليون في حملة سورية ومات أمام سكا بالطاعون ، أو من انشاء بعض كتبة الدواوين الذين أخذهم معه . وكان من الذين سلّموا في العريش عدد كبير من الممالك المصريين الذين تبعوا ابراهيم بك ، وأولئك اختاروا أن يعودوا لمصر فأرسلهم نابوليون مع بعض جنده إلى مصر وانضم ثلاثمائة من المغاربة إلى الجيش الفرنسي فسلموا ، وانقلبوا من محاربة الفرنسيين ، إلى محاربة الذين كانوا يجازون معهم غيرة على الدين والملة ! !

ولما احتل الفرنسيون العريش كلفوا مشايخ الديوان بنشر بلاغ وضعوه لهم وأمضاه السيد البكري بصفته نقيب الاشراف ، والشيخ الشرفي بصفته رئيس الديوان ، والشيخ المهدي بصفته كاتبه . وعجيب أن الجبرتي لم يكتب نص هذا المنشور أو البلاغ ولكن المعلم نقولا الترك نشره في رسالته ، فرأينا أن نأتي على نصه لعدم وجوده في الكتب المتداولة ولأنه يشرح كيفية الاستيلاء على العريش . وهذا نصه : (١)

« لا إله إلا الله الحق المبين ، ومحمد رسول الله الصادق الوعد واليقين . نعرف آل مصر وسائر الاقاليم إن توجهت الفرنسية إلى الديار الشامية وحاصروا قلعة العريش من عشرة رمضان إلى سبعة عشر منه ووقعت مقاتلة عظيمة خارج القلعة وكان في القلعة نحو الف وخمسمائة نفر غير من قتل خارجها فلما طال عليهم الحصار

(١) نقل عن طبعة باريس التي ترجمها ديبرانج وطبعها سنة ١٨٣٩ بالديوان الآتي

وتهدمت أسوار القلعة من ضرب الفرنساوية بالمدافع عليها وتيقنوا بالهلاك، وهكذا أصحاب المروآت ودؤلاء اعتقهم وأطلق في سبيلهم . وبعض الكشاف والماليك الذين كانوا في القلعة نحو ستة وثلاثين جنديا طلبوا من حضرة السر عسكري أن ينم عليهم برجوعهم الى مصر الى عيالهم وبيوتهم فأحسن اليهم وأرسلهم اليانالي وكيله ودخلوا عليه يوم الاحد في ٢٦ رمضان معزوزين مكرومين^(١) وأرسل السر عسكري أن يؤتي باكرامهم (لعله يوالى اكرامهم) ان داموا على عهدهم الذين حلفوا به في العريش وان خانوا وهانوا فيحصل لهم من يده الانتقام؛ وأمر في الفرمان أن الجنرال دوكا يأمر التجار بالسفر في القوافل الى الشام لينتفعوا بالمكاسب أصحاب التجارة وتنفعو سكان الشام ببضائع مصر بحسب العادة السابقة ليحصل الامان بحلوله في تلك

(١) هكذا في الأصل وكنت أتصور ان هذا اللحن في منشورات العلماء صدره تحريف الناقل أو الفرنسي الذي بشرط طبع رسالة المعلم نقولا، ولكن وقد رأيت نص عبارة خطية عليها أمضاء الشيخ الشرقاوي وبها اللحن الفاضح لم أستغرب ذلك؛ والعبارة المشار اليها وردت في ورقة نقلت بالفوتوغراف في كتاب «شرفيس» الممنون «بونا برت والاسلام» وفيها كما يرى الناظر في الصحيفة المقابلة لهذه العبارة الآتية :

كتامه وفزاره والفينية ١ وديبي وقف عبد الرحمن كتبخداي يقبض ما لها ليصرف منه الميرى المطلوب لاساطنة والباقي يصرف على الازهر وعلى ثمانية واربعين مسجد وعلى ضغفاء وقراء واولاد ايتام وعلى حجة المرتبات وعلى نسوان ارامل مقاطيع وليس عليها كشوفية فالتقصود من حضرتم الافراج عنها لاجل عمار المساجد ومعروف الفقراء ودعاهم لكم فانه يلزم على تعطيل ذلك الحراب وموت الفقراء وانتم لاتحبوا ذلك

من عند

الشيخ عبد الله الشرقاوي وباقي العلماء

ويرى الناظر في تلك الورقة ان عبارة الشيخ ترجمت الى الفرنسية وعرضت على بونا بارت فأشتر عليها بعضها على بوسيلج وفيها امضاء بونا بارت بخط يده وعرضت على بوسيلج «الروزنجي» وامضى عليها فكتب الشيخ ورقة أخرى يراها القارئ في الصفحة التالية للاولى وفيها بخطه ما يأتي :

« اعرضت على الروزنجي فأمرنا بالتوجه الى ديوان القضاة نصلح على بلاد وقف عبد الرحمن كتبخدا فاختارنا بان يصارى عسكري رشيد من حين مادخلنا يأخذ منها كلف وقرء نحو اربع مرات مقدار الفين ريال واذا دفنوا الفلاحين مقدار المصالحة زاد القدر ولم يبق من المال الا قدر يسير قليل لا يكفى المساجد والخيرات نرجو من فضلكم تجعلوه من احسانكم للفقراء المستحقين من جملة دفن الانعام والمستحقين ناس نحو الفين نفس فقراء مقبدين بالمساجد ولو كان لها صاحب معين كان يدفن المصالحة دام خيركم وعزكم »

كتابه وفزان والتعنين وقف عبد الرحمن كسرى تقي
 مالها لصفحة من المير الطلوب للسلطنة والباقي تصرف
 على الازهر وعلى ثمانية واربعين شيخا وصلى منقادا
 واولادها وعلما وعلى حنة الميرتبان وعلما سنوان اراما مقاطعه
 وليس عليها كسوفية فالعصوة من حضرتك الافراجه
 لا حل عمار المساجد وصعروف العزاود على كفاية بلزم
 على تعظيمه والادب والوفاء والاحسان بحمدا لله

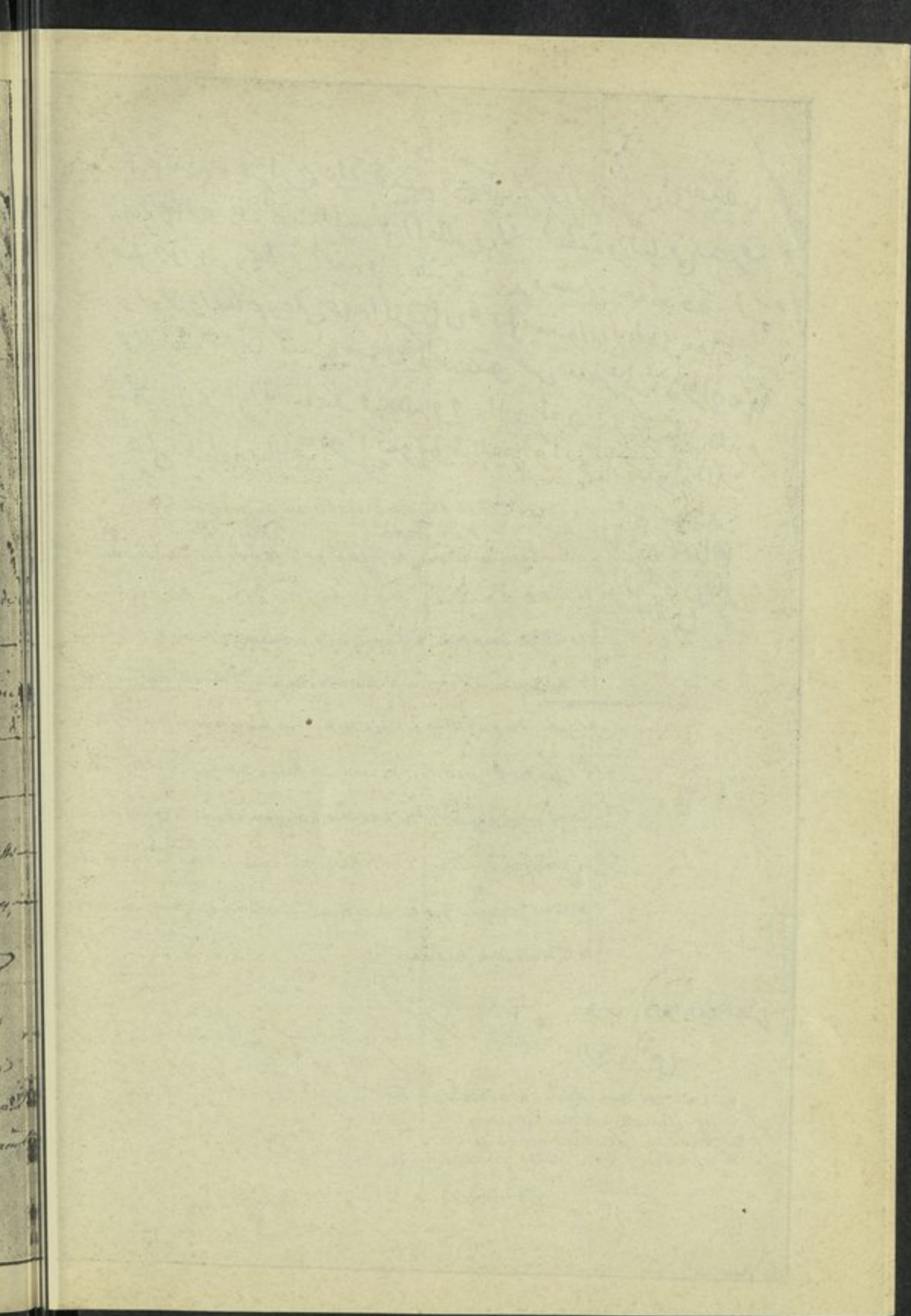
من عند
 السيد عبدالم
 السيد فادى وياق
 القلم

Le cheikh ad-din ali-el-cherani au service de
 De Gardia Diliy Efeni
 Les villages de Melani, de Fegza et de ... dans la province
 de ... sont des fondations d'adoul-Nabouza Aiyd.
 Ces villages sont bons a payer le milt, l'abonnement et le zere de leur revenu
 et appartiennent a l'Etat. Les habitants de la province d'Allepia, de nos jours, sont
 malades, des gens d'Allepia incapables de payer leur zere, des enfants orphelins,
 de l'hospitalité malade, des veuves et femmes indigentes. Ces villages ne
 doivent point payer les droits de milt, de zere, de milt, de zere, de milt, de zere.
 Les provinces d'Allepia et de Fegza ne retirent rien de ce qui se fait
 comme de payer, pour que leurs revenus sont les biens de leurs parents, qui les font
 de la province d'Allepia

يعرض ذلك ابي حضرت
 الوداعية

Renvoye aux administrateurs de
 l'Empire et des provinces
 pour l'execution des titres et courtoisies
 et y faire faire le zere de leur revenu
 et de leur parents

(Signature)
 (Signature)

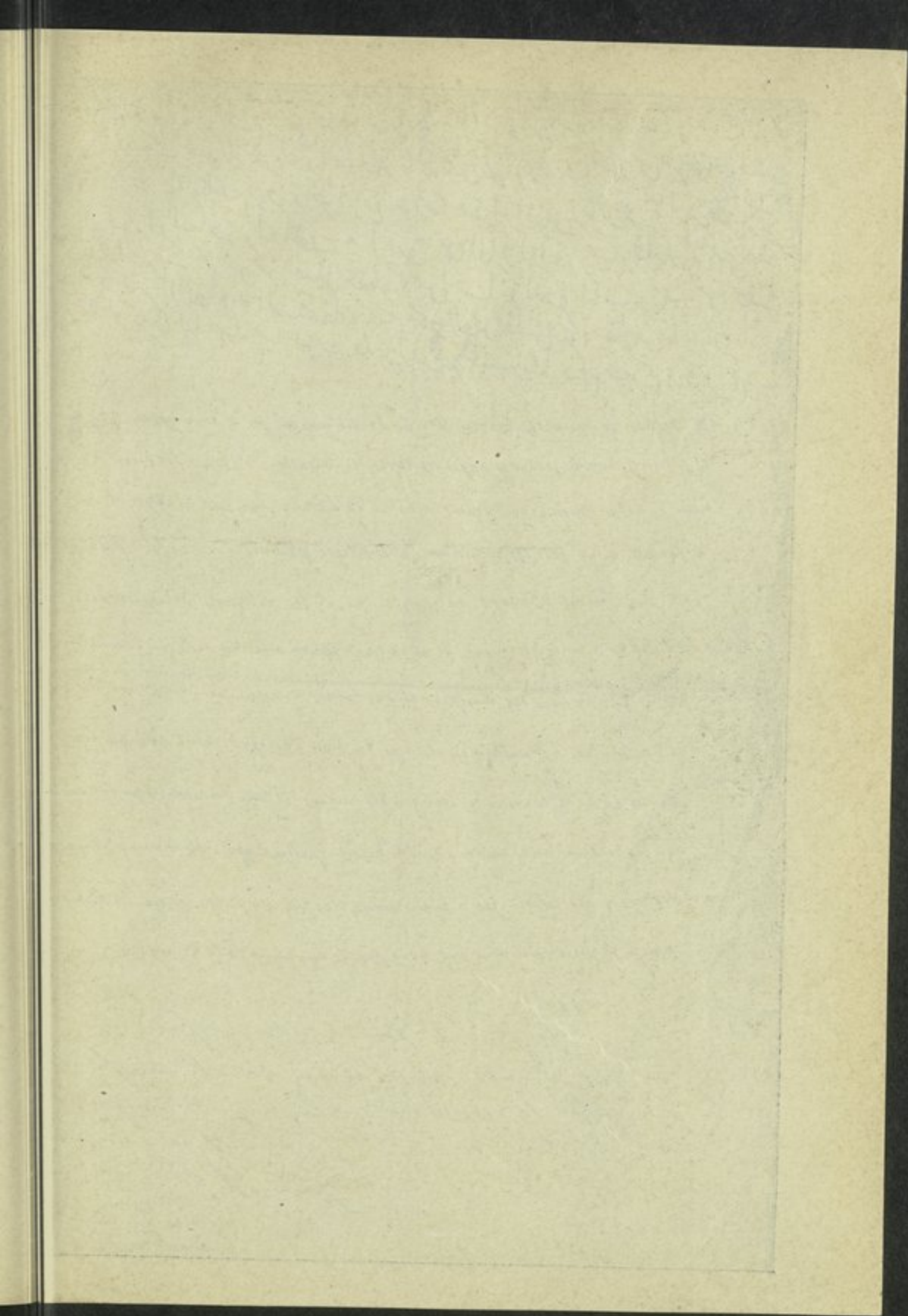


اعرضنا على الرعي فامرنا بالتوجه الى بواند القضاء لفتح عارده
 وقف بعد الرعي لحدافا خبرناه ان ما يملكه السيد من حياض
 ياض منها كلف وقره كوارع سرات مقدار الفين ربا و اذا
 مقدار الصاخره زاد القدر ولم يقع من الماء الا قدر يسير قليلا لا يلفي الماء
 والجزرات من حياض ففضلكم جعلوه من احسانه للفقراء المسحقين من حياض
 دفترا الانعام والمسحقين من حياض الفين نفس فوالله انما لنا حياض
 ولو كان لها صاحب معين كان له من الصاخره درهم خيركم وعزكم

les cheffes de ces presentes au Croy. A quelques qui les a renvoyés au Bureau
 de l'enregistrement pour y payer les droits de mutation d'Abdul Bahman K...
 nous lui avons répondu que depuis l'entrée de l'armée française en Egypte, de...
 de Rosette avait fait les acquisitions a ces villages pendant que trois fois différentes
 pour une somme de 2000 pataques, et que si les villageois, sans en être obligés
 pour le droit de l'enregistrement, il ne s'agira point d'une loi modique d'argent
 pour l'achat de ces villages et des terres annexes, sans un supplément
 de usulobien a bracher ces villages du droit d'enregistrement afin que les
 paires qu'on a contracté de l'achat des terres, des cette mutation, et qui sont au
 nombre de deux mille environ, qui ne nécessitent quelque chose, nous pourrions aller
 a l'obscure que ces villages n'ayant point d'autres propriétaires que les K...
 ceux qui se présentent pour eux n'ont pas le moyen de faire des avances

Je prie le Croy de vouloir bien me faire une
 réponse sur cette nouvelle demande de l'achat de ces villages
 comment si on accorde ce la de quelque somme d'argent
 et la somme est combien il y a de villages qui sont
 Croy et c. B. P.

Le Roy
 B. P.



الاراضى ، وكتب حضرة وزيره الجنرال اسكندر برنيه فرماناً يخبرنا ويخبر حضرة
الوكيل بالحالة التي وقعت إلى عساكر ابراهيم بك وبعض من عساكر الجزائر والمساعدين
له وأن الفرنسيين وجدوا في قلعة العريش مخازن ارز وبقسماط وشعير وثلاثمائة رأس
من الخيل الجياد وحمير كثيرة وجمال غزيرة اكتسبته جميعه الفرنسيين ومع ذلك
عندهم الصفع عند قدرتهم عليه، وهذا من صفات أصحاب المروءة من الرجال الابطال،
فيا اخواننا لاتعارضوا الملك المتعال ، واتركوا انفسكم من القيل والقال ، واشتغلوا
في اصلاح دينكم والسعى في معاش دنياكم وارجعوا إلى الله الذي خلقكم وسواكم
والسلام عليكم . اه

وبعد احتلال العريش تقدمت القوة الفرنسية نحو خان يونس ثم إلى غزوة
ودارت في الجهة الواقعة بين هاتين البلديتين موقعة كبيرة بين الفرنسيين والجنود
التي يقودها عبد الله باشا انسكر فيها هذا الاخير وانسحب بمن بقي معه من القوة
إلى يافا وسلمت غزوة وتقدم الجيش الفرنسي في سيره فاحتل الرملة وسار منها قاصداً
يافا، وهو أول ميناء بحري في الديار السورية من جهة القطر المصري . وكان نابوليون
قد أصدر امره للكابتن «بريه» بأن يحمل في بعض سفن بقيت للفرنسيين المدافع
الكبيرة والآلات العديدة التي كان يريد استعمالها في حصار عكا ، ولذلك أسرع
في الاستيلاء على يافا ليتلقى تلك الآلات ويسير بها إلى مكناها غير حاسب للاسطول
الانكليزي الذي يقوده السر سدنن سميت حساباً

وكانت يافا محصنة تحصيناً حسناً وفيها قوة كبيرة من عساكر الجزائر والمماليك
وجميع من بقي من القوة التي يقودها عبد الله باشا، وفيها عدد كبير من المدافع وتقدر
القوة التي كانت في يافا بنحو اثني عشر ألفاً . ولم تكن القوة الفرنسية كلها أكثر
من ذلك . وقد حاول نابوليون أن يؤثر على تلك القوة ويحملها على التسليم فبعث
بضابط ودليل من عنده يحمل راية السلام بقصد المفاوضة فكان جوابها على ذلك ،
قتل الضابط ومن معه ووضعت رأسهما على المزاريق فوق الاسوار وطرحتا
جثثهما وراءها ، فاعتاظ الفرنسيون وسلطوا على المدينة المدافع الكبيرة وهجموا

على الاسوار حتى سقطت المدينة واستباح الجند الفرنسيون حماها يقتل وينهب ويسلب
ويهتك الاعراض ويفعل ما يشاء

وقد نشر الجبرتي صورة الخطاب الذي بعث به نابوليون لحاكم يافا وصورة
البلاغ الذي نشر في مصر بالاستيلاء عليها وكان السيد عمر مكرم نقيب الاشراف
الذي فر مع ابراهيم بك، وكان له شان عظيم في تاريخ مصر في أيام محمد علي باشا،
من حوصروا في يافا فبعد سقوطها ذهب ومن معه من المصريين إلى نابوليون فأكرمهم
وأرسلهم إلى مصر في السفن إلى دمياط

وقد وردت الفقرة الآتية في البلاغ الذي نشر في مصر على لسان المشايخ
نأتى عليها لاهميتها في البحث التالي قل : « وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصبح
الجميل من حضرة ساري عسكر الكبير، ورق قلبه على أهل مصر من غني وفقير الذين
كانوا في يافا وأعطاهم الامان ورجعوا الى بلدتهم مكرمين . وكذلك أمر أهل دمشق
وحلب برجوعهم الى أوطانهم سالمين، لأجل أن يعرفوا مقدار شفقتهم، ومزيد رأفته
ورحمته، يفوق عند المقدرة، ويصفح وقت المعذرة، مع تمكينه ومزيد ائقانه ومحصيله .
وفي هذا الوقت قتل أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزائر بالسيف والبندق
لما وقع منهم من الانحراف . . . الخ » وعلق الجبرتي رحمه الله على هذا المنشور
الطويل بقوله « فلما تحقق الناس هذا الخبر تعجبوا وكانوا يظنون استحالة ذلك
خصوصا في المدة القليلة . ولكن المتضى كائن »

ولم يعلم الجبرتي ، ولم يفهم الشيخ المهدي الذي حرر ذلك البلاغ المسجع، الغرض
من العبارة التي روى فيها المنشور قتل أكثر من اربعة آلاف من عسكر الجزائر
بالسيف والبندق، وإلا لو علم الكاتب أو الناقل كيف كان ذلك أو على أية حالة،
ولاي سبب قتلوا، لارتجف القلم في يد الاول ولاستعاذ بالله، ولما تركها الثاني تمر دون
أن يعلق عليها بكلمة استهجان واستنكار؛ ويسأل كيف يتفق ذلك العمل الوحشي
مع وصفه نابوليون ومقدار شفقتهم ومزيد رأفته ورحمته !

ونحن وان كنا وعدنا أن لانطيل الكلام في أخبار الحملة السورية لاعتبارها صفحة من تاريخ قطر غير قطرنا ، الا أنه لا يمكن المرور بها دون الوقوف أمام ذلك الحادث العظيم التي امتلأت به صفحات الكتب الأوروبية ، وكان موضوع مناقشة ومناظرة واضطر نابوليون أن يبرر عمله فيه في الايام الاخيرة من حياته

وحكاية هذه المسألة أن نابليون لما فتح يافا أباح لجنده تلك المدينة مدة يومين كاملين يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون ، وما أدري لماذا فعل ذلك نابوليون ، وهو يريد استجلاب الخواطر واكتساب ميول أهل الشام من مسلمين ونصارى ؟ وأعله قد غاظه ما فعل حاكما برسوله ، أو لعله خسر في الواقعة بعضا من جند جيشه ، وهو حريص عليه لقله عدده ، أو لعله أراد أن يعوض على الجنود ما قاسوه من المشقة في قطع فيافي الصحراء والاحتراق بشواظها ، لكيلا يدب ديب التذمر والشكوى من جرأء ما يلاقونه من النصب والعناء . ولقد فعل جده في تلك البلدة البائسة من الشرور والفضائح ما تشعره الأبدان حتى أن نابوليون نفسه كتب في تقريره الذي بعث به لحكومة الديركتوار : « إنه لم تتصور له فظائع الحرب مثلما ظهرت له في يافا » ! وقد كتب الشيخ الدحداح ، فيما عربه عن تاريخ فرنسا ، وهو من المحبين للفرنساويين المادحين لهم فقال « فان شدة الحر وعناد المحصورين أضرا بالفرنسيين وحلاهما أثقالا شديدة ، ولذلك لما دخلوا المدينة حدث فيها ما تشعره الأبدان من ذكره ، فان القتال الذي جرى في أسواق يافا كان قتالا لا يسوغ أن نسميه بشريا فان الشياطين لا تقدر أن تقوم بشرأ أعظم منه »

فلما رأى نابوليون الشرور التي تجرى في البلدة وخره ضميره وأرسل ضابطين من ضباطه لمنع الجنود عما يفعلون فوجدوا أن طائفة كبيرة من جند الجزائر ومن غيرهم قد تحصنوا في بعض المنازل والخانات وصاروا يدافعون عن انفسهم دفاع المستميت فطلب اليهم أولئك الضباط الفرنسيون أن يسلموا فأبوا الا أن يؤمنوا على حياتهم ، فأمنهم فسلموا اسلحتهم وقبض عليهم كأسرى . وهنا اختلفت الروايات

في عدد أولئك الاسرى ، ففي رواية انهم كانوا أربعة آلاف، وفي رواية أخرى انهم كانوا الفين فقط ، والرواية الاولى أقرب الى الصحيح بدليل ذكر هذا العدد في بلاغ نابوليون للمصريين^(١)

والى القارىء حكاية ماجرى نقلا عن مذكرات بوريين : قال :

« كنت أتمشى مع الجنرال بونايرته امام خيمته واذ به قد أبصر ذلك الجمع المحتشد من الاسرى يسوقه الجند فقبل أن يقع نظره على الضابطين اللذين بعث بهما من أركان حربه التفت لى بصوت يتهدج من الحزن قائلاً : « ماذا يريدون منى أن أفعل بهؤلاء الرجال ؟ هل عندى من الزاد ما يكفيهم ؟ ألى من السفن ما يلزم لنقلهم الى مصر أو الى فرنسا ؟ لماذا أو قمونى فى هذا المشكل » وبعد أن أصاخ بونايرته سمعا لما قاله الضابطان وهما بوهارنيه وكروازيه وبخهما توبيخاً شديداً على سلوكهما، ولكن لا ينفع اللوم إذا لواقع أنه أصبح أمامنا أربعة آلاف أسير ويجب البت فى امرهم . ودافع الضابطان عن نفسيهما بأنه امرهما أن يوقعا تيار القتال، فكان جواب بونايرت « انما أردت أن تمنعوا التعدى على النسوة والاطفال والعجزة والمستسلمين من الاهالى ، ولكن لم أرد بذلك الجنود المسلحة ولقد كان الاولى بكما أن تقتلهم بدلا من أن تأتبانى بهذا القدر من الاسرى النكودى الحظ ! فاذا تريدون أن أصنع بهم ؟ »

قال كتاب الفرنساويين انه عقد مجلس حربى للبت فى أمر أولئك الاسرى وانقض على انه لم يقرر رأيا حاسماً ، وانعقد مجلس آخر ولم يوفق لقرار ، وطال الجدل والاخذ والرد، وانتهى الامر بأن تقرر إعدامهم جميعاً رمياً بالرصاص وهم عزل من السلاح !!

ووصف « ميو » فى تنفيذ ذلك القرار فى أولئك البؤساء، مما تشعره الابدان

(١) قدر الكولونيل روبرت ويلسون، من ضباط الحملة الانجليزية التى قدمت لمصر لخراج الفرنسيين فى آخر مدتهم، عدد أولئك الاسرى بثلاثة آلاف وثمانمائة و« ميو » وهو شاهد عيان يقول ان هذا العدد مبالغ فيه نوعاً ما واما بوريين وهو شاهد عيان ايضا فيؤكد انهم كانوا اربعة آلاف

ويفتت الالكباد ، ويندى له جبين الانسانية خجلا ، ويبقى ذكره في التاريخ
وصمة عار للذين قاموا بذلك الجرم الفظيع والعمل الوحشى . حقا إن دفاع نابليون
عن نفسه في سانت هيلانه وجيه ومنطقي ، وربما كان فيه شيء من العذر اذا لوحظ
مركز الفرنسيين في ذلك الظرف ، واذا لوحظ أيضا أن بعض أولئك الاسرى
كانوا من الذين اقساموا بشرفهم العسكري أن لا يجاروا الفرنسيين مدة عام بعد أن
سمح لهم بونابارات بالخروج سالمين بسلاحهم من قلعة العريش ، وسيّرهم الى داخلية
البلاد ، وانه اذا أخلى سبيلهم — لانه لم يكن في استطاعته أن يبعث بهم الى
مصر ، ولا إلى غيرها ، ولا أن يعطيهم الغذاء اللازم لهم — فانهم لا يعودون لقتال جيشه
وتقوية عدوه . وفي دفاع نابليون أو تبريره لذلك العمل قوله : « واني مستعد أن
أعيد ذلك العمل اذا وجدت في نفس الظروف التي كنت فيها ، وكذلك كان يفعل
الدوق ولنجتون الانسكايزي وغيره من القواد الذين يوجدون في مثل ما وجدت فيه
من الظروف » . ولكن على الرغم من كل دفاع وظروف حربية اضطرارية ، فان
ذلك العمل انما ينظر اليه ، ويحكم عليه ، من الوجهة الانسانية ، وحكمها في ذلك واحد
لا يتغير ، وهو ان قتل الاسرى العزل من السلاح الذين أمنوا على حياتهم ، على
لسان ضباط من الجيش ، جريمة لا تغفروا ولا يمحي ! وغريب دفاع بعض الكتاب
الفرنساويين الذين كانوا مع الحملة مثل فيجوروسويون Vigo-Rousillon في دعواه
« إننا لما كنا في الشرق اتبعنا عادات الشرقيين » ! فلو سلمنا جدلا أن الشرقيين
كانوا يفعلون بالاسرى مثل ذلك الفعل ، فأين الفرق ، على دعواكم ، بين المدنية
والهمجية ، يا أبناء الثورة الفرنسية ، ورافعي راية الاخاء والمساواة والحرية ؟

إن يكن العدل الالهى قد قضى ، ولا راد لقضائه ، أن يسلط الفرنسيين
على أولئك الجنود من رجال الجزائر الظالم وغيرهم من الارنؤوط والماليك الظالمين ،
لما ارتكبوه من الشرور وهتك الاعراض ، وقتل البريئين من عباد الله ، سواء
في سورية أو في مصر ، فان ذلك العدل الالهى قد قضى أيضا أن يتمشى الطاعون في
يافا ويقتك بالجنود الفرنسيين فتكا ذريعا حتى مات بسببه ، في أيام قلائل ، عشرات

من الجنود ، وكاد يفرض الامر الى انتفاض الجيش ونورته على ضباطه ، وحتى امتنع
الاطباء عن العناية بالمرضى خوفاً من العدوى ، ولولا جرأة نابوليون (أو اعتقاده
في طالع سعده) على الدنو من المظعونين ومحادثتهم ، مما شجع قلوب الجنود والضباط
والاطباء ، لفضى على تلك القوة الفرنسية في يافا وضواحيها قضاء مبرماً

بقيت الصفحة الاخيرة من تاريخ الحملة الفرنسية في سورية وهي حصار عكا
وفشل نابوليون بونابرت وعوده من آسيا بجنمى حنين !

تفصيل الحصار وما أظهره الطرفان من آيات البسالة والاقدام ليس من موضوع
كتابنا كما سبق لنا ذكر ذلك ، ولكن أموراً كثيرة لها علاقة بتاريخ مصر ، وتاريخ
النزاع بين فرنسا وانسكاترا على وادي النيل ، بدأت في حصار عكا وكان لها شأن
يذكر في حوادث القرن التاسع عشر الميلادي ، وهناك رجال كانت لهم اليد الطولى
في التأثير على مركز فرنسا وبين في مصر ، بل وجلائهم منها ، لانجد بدأ من النظر
في أمرهم ، والحديث بشأنهم ، فنقول :

كان من أغراض نابوليون في حملته على الشام كما ذكر ذلك هو في تقريره
لحكومة الديركتور ، بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٧٩٩ ، « منع تموين الاسطول الانكليزي
من الموانئ السورية » فكان من مقتضى ذلك أن تبذل انكثرا غاية جهدها في وقف
تيار التقدم الفرنسي في سورية ، وكان ذلك من دواعي اتحادها مع الدولة العثمانية
ولذلك كاف السرسدني سميت قائد الاسطول الانكليزي في الشرق أن يذهب
الي عكا ليساعد في الدفاع عنها ، وليبذل كل الوسائل للقضاء على نابوليون وحملته .
وكان للسرسدني سميت هذا الفضل الاول في فشل الحملة الفرنسية في الشرق
باعتراف نابوليون نفسه

وجدت في كتاب تاريخ الامير حيدر الشهابي صورة فرمان بعث به سلطان
تركيالى أهالى طرابلس الشام وفيه ذكر للاتفاق مع الدولة البريطانية والمهمة التي
عهدت الي السرسدني سميت هذا ، والفرمان مكتوب بعبارة عربية مسجعة ، وغريب

في بابه، حتى لم أجد بداً من الإتيان على نصه، مثلاً للمكاتبات الرسمية في ذلك الزمن .
وها هو نصه :

« أقضى قضاة المسلمين نائب افندى بطر ابلس الشام وأعيانها عموماً زيد قدرهم
فليكن معلوماً كما لا يخفى أن الفرنسيين الأوغاد ، قد هجموا على أخذ مصر
القاهرة وما يليها من البلاد. والآن قد اختلسوا يافا وغزة والزمالة وملحقاتها. وعلى زعمهم
الفاستديرون تدمير أمة الاسلام، وهدم كعبتها وجوامعها فاقتضت صداقة المحب
الصادق ، واخلل الموافق ، أجل الأحياب ، وكريم الانساب، سعادة أختينا المحترم
سلطان الانكايز المفخم ، المتحد معنا بإخلاص الطوية ، على تدمير الأمة الفرنسية .
لأنه لغزير مكارمه ، ووافر مراحه ، ستر مع عمارتنا الهمايونية، عمارة انكايزية، وأقام
عليها سارى عسكر افتخار الأمراء الكرام في الطائفة المسيحية ، وعظيم الكبراء
الفخام في الملة العيسوية ، جناب محبنا المحترم السير بلام^(١) سدنى سميث الأكرم
فوجهناه من لدنا بالتفويض الخاقاني ، والتوقيع السلطاني ، مشيراً مطلقاً في تلك
الديار ، كما يراه بعين الاعتبار ، فعليكم أن تحبوه ، ومهما مرّ عليكم من مراكبه
وحاشيته ، فقدموا لهم الاكرام ، وحفظ الحرية والمقام ، وليعلم الخاص والعام ،
حسن صداقته مع الاسلام ، والاعانة لنا على الدوام ، . اعلموا ذلك واعتمدوه
غاية الاعتماد والسلام » اهـ بحروبه

* * *

بعد أن احتل الجيش الفرنسيون الجزائر قد تحصن فيها وقد دام الحصار الفرنسيون
في ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ وكان الجزائريون قد تحصن فيها وقد دام الحصار الفرنسيون
حولها ستين يوماً كاملة عجزت فيها الفنون العسكرية ، والحيل الحربية ، والتدابير
الهندسية ، والشجاعة الفردية والعمومية ، عن تدويج ذلك الحصن وإسقاطه حتى
ضرب بذلك الحصار المثل في الشرق والغرب ، ولا زال المصريون لهذه الساعة
يقولون لمن يباهى بنفسه : « هل فمحت عكا » ؟

والسبب في فشل نابوليون وقواده وجيشه الباسل راجع الى البسالة التي حاربت

(١) اسمه الصحيح ويام لا بلام وربما كانت في الاصل التركي فلهم

بها جنود الجزائر، وإلى أن الدولة العثمانية بارشاد انكائرا وتحر يضاتها ، لم تتأخر عن إمداد حامية عكا بالقوات الكافية في الوقت المناسب ، وفوق كل هذا إن قيادة وإدارة الدفاع عن المدينة كانت في أيدي أوربية لا تقل كفاءة وخبرة وعلماً عن مثل ما يوجد من هذه الصفات في القوة المحاصرة ، بل لقد كان تهور نابوليون ، وثقته بنفسه ، واعتقاده في طالع سعيده ، من الأسباب المهمة لفشله في إخضاع ذلك الحصن المنيع . فقد روى الكاتب الفرنسيون الذين لم تبهرهم أقوال نابوليون أن « كليبير » انتقد خطة الهجوم واسلوب الحصار حتى لقد روي عنه أنه قال « اننا هاجمنا عكا على الطريقة التركية ، بينما كان الدفاع عنها على الطريقة الفرنسيه » ، والمراد بهذا ان خطة الهجوم كانت عن جهل وطيش ، في حين أن الدفاع عن الحصن كان مرتباً منظمًا على القواعد العلمية

فن أين كان للجزائر وجنوده ذلك النظام العلمي الذي صد نابوليون وأذاقه طعم أول فشل في حياته العسكرية ؛ الجواب على هذا يقتضي التصريح بان الدفاع عن عكا كان في يد الانجليز تحت إرشاد السر سدن سميث ، ذلك الرجل الذي قضى على نابوليون وأحلامه في الشرق . إذ لو تسر لنابوليون فتح عكا ، لما وقف في تيار فتوحاته في آسيا عائق ، ولأدى به الحال الى الاضرار الصحيح بمركز الدولة العلية ، فقد كانت ولايات الشام والعراق والناضول تابعة لها بالاسم وكثيرون من أمراء سوريا كانوا ينتظرون سقوط عكا لينضموا الى نابوليون كما اعترف بذلك فيما بعد الامير بشير الشهابي كبير أمراء جبل لبنان^(١)

ومن غريب الحوادث في تصارييف الارادة الالهية أن السر سدن سميث هذا كان مسجوناً في باريس في الوقت الذي برح فيه نابوليون بمحلمته فرنسا قاصداً مصر . قال بوريين في مذكراته : « برحت باريس برفقة نابوليون في ٣ ما يوسنة ١٧٩٨ (قاصدين طولون للسفر الى مصر) وقبل هذا الموعد بعشرة أيام فقط فرَّ أحد المسجونين في سجن التامبل Temple وكان ذلك الرجل هو السر سدن سميث

(١) راجع رحلة الشاعر لامرتين في الشرق سنة ١٨٣٣

الذي قدر أن تكون له اليد الطولى في إحباط مشروع تلك الحملة ، وكان فراره بواسطة أمر مزور باسم مدير البوليس - ورقة مزورة منعت الانقلاب في الشرق !!»

وكان السرسدننى سميت هذا رجلاً غريب الأطوار ، جمع بين البسالة والاقدام والجرأة والصراحة والتهور والغرور والفاش ! ولما كان الانسكايز محتلين طولون في سنة ١٧٩٣ أحرق الاسطول الفرنسي ، وصادف في سنة ١٧٩٦ وقوعه في يد الفرنسيين فخبسوه في ذلك السجن ، وبقي سجناً فيه نحو سنتين حتى ساقته له المتادير رجلاً فرنسائياً اسمه فيليبو Philippeaux ساعده على الفرار بواسطة ذلك الجواز المزور . وكان فيليبو هذا مهندساً حروبياً من كبار المهندسين الذين تقموا على الثورة الفرنسيّة وهجر بلاده ثم عاد إليها في الوقت الذي ساعد فيها السرسدننى سميت على الفرار فتوطدت بين الرجلين صداقة جمعت بينهما في الخير والشر حتى انه جاء معه الى سكا وكان له الفضل الاول في تدبير الدفاع عن المدينة واحباط كل الخطط الحربية والهندسية التي كان يديرها نابوليون وكفريللى ، ولم يكن فيليبو أقل من كفريللى خصمه كفاءة . ومن غريب المقادير أن الاثنين ماتا في ذلك الحصار ، الاول خارج الاسوار ، والثاني داخلها ! ولم يكن فيليبو غريباً عن نابوليون ايضاً ، فقد كان قرينه في المدرسة الحربية في باريس وتلقى الاثنان دروسهما الرياضية على «مونج» أحد علماء البعثة العلمية في مصر ، وأمضيا الامتحان معاً تحت رياسة لابلاس Laplace واندمج في نفس السنة التي اندمج فيها نابوليون في الطوبجية ، والآن جمعت الظروف الغريبة ، حول أسوار عكا داخلاً وخارجاً ، جميع الالك الرجال !

وكان للسرسدننى سميت نوادر ومشاعبات مع نابوليون تظهر منها أخلاق الرجلين اللذين وقف الشرق بينهما حائراً في تلك الايام العصيبة ، فمن ذلك أن السرسدننى سميت علم أن أمراء جبل لبنان المسيحيين يظهر دن الميل للفرنساء بين ، على فكرة أنهم مسيحيون مثلهم ، وأنهم سيخلصونهم من مظالم الجزائر وولاية الدولة العثمانية . وكان نابوليون في سوريا أمام المسيحيين يظهر المسيحية ، كما كان شأنه مع المسلمين في مصر ، فقدر روى المؤرخون الثقات أن نابوليون بعد معركة «طابور» التي قهر فيها بأقل من ستة

آلاف جندي ، جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً من المليك والانكشارية والترک ،
سار الى الناصرة ونزل في دير الرهبان الفرنسيسكان وطلب من رئيس الدير أن
يقيم الصلاة بصفة رسمية شكراً لله على ذلك الانتصار العظيم ودخل نابوليون الكنيسة
وجثا على ركبته وقت الصلاة

فلما علم السرسدني سميث بمساعدة المسيحيين للفرنساويين واغترارهم بهم بعث
لهم بمجموعة من منشورات نابوليون التي وزعها على المصريين وخصوصاً منشوره الاول
الذي يقول فيه إنه هدم أركان الدين المسيحي وثل عرش البابوية ، فاندحش السورويون
المسيحيون ، وامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود وعن تقديم المساعدات
للفرنساويين .

ولم يكتب السرسدني سميث بذلك بل كتب أوراقاً باللغة الفرنسية ونثرها
بين جنود نابوليون . وقد نشر «ميو» في مذكراته نص تلك المنشورات التي يقول لهم
فيها إنه قد سدت عليهم السبل ، ولم تبق لديهم سفينة تعيدهم الى بلادهم وإن من أراد
منهم أن يعود الى وطنه فانه مستعد لنقله في السفن الانكليزية وإن حكومة فرنسا
نفتهم الى هذه الديار النائية لتقضى عليهم وعلى قوادهم ، الى غير ذلك من الاقوال
التي يقصد بها التحريض على شق عصا الطاعة . فلما وقعت تلك الاوراق في يد
نابوليون حنق على السرسدني سميث ونشر منشوراً على الجند قال فيه « لاشك
أن السكومودور الانكليزي قد أصيب بداء الجنون » فعد السرسدني هذا القول
طعناً في شخصه وكتب الى نابوليون يطلبه الى المبارزة !

فأجابه نابوليون جواب استهزاء وامتنصاف :

وللسرسدني سميث حكايات غريبة عن بسالته وإخلاصه وجرأته في حوادث
هذه الحرب وهو الذي يقال إنه انقذ (محمد علي) من الفرق بعد واقعة ابى قير البرية ،
كما سندكر ذلك في مكانه ، وله رسائل موجودة باللغة العربية في تاريخ الامير حيدر
الشهباني مع الامير بشير الشهباني يظهر منها أن احمد باشا الجزائر لم يقم للسرسدني بحق
الولاء مع أنه لولاه تقضى نابوليون على سلطة الجزائر في عكا وسورية ، كما قضى على سلطة

أخوانه وأسياده مراد و ابراهيم في مصر . ولاغربة فان من أظهر أخلاق المالك
عدم الوفاء وقلة الاخلاص

ولنعد الى حصار عكا وحوادثه الغريبة فنقول إنه اذا ضم الى علم « فيليبو »
وحسن إدارته في الدفاع ، أن الانكايز بعثوا بجنود وضباط كثيرين لتحصين المدينة،
كما يظهر ذلك من أسماء الضباط الانكايز الذين قتلوا في ذلك الحصار ، واذا ضم
الى ذلك أيضاً أن المدافع التي بعث بها نابوليون من مصر في السفن وقعت في أيدي
الانكايز ، واستعملت في الدفاع عن عكا، وأن نابوليون ارتكب غلطات كثيرة بشهادة
الفرنساويين، وأن الدولة العثمانية في آخر وقت بعثت بالإمدادات الكثيرة ، وأن
الطاعون كان يفتك بالجيش الفرنسي فنكا ذريعا ، وان الذخائر اللازمة لموالة
الحصار قد نفذت إلا قليلا - اذا ضم كل هذا الى بعضه عرفنا كيف فشل نابوليون
أمام حصن صغير كحصن عكا، فتحه بعد ثلاثة وثلاثين سنة ، ابراهيم باشا بجيش من
الفلاحين المصريين !

- ٧ -

وعلى الرغم من الانتصار الباهر الذي ناله الفرنسيون على جيش الدولة عند جبل
طابور وعلى الرغم من تعضيدات بعض أمراء سوريا وبعض المسيحيين والدروز لنابوليون
وجيشه، فقد رأى نابوليون، للأسباب التي ذكرناها في الفقرة السابقة، ضرورة الانسحاب
من حصار عكا والعودة الى مصر. ولم يذكر التاريخ انسحابا مقرونا بالفشل والخسائر
والمشاق، مثل انسحاب نابوليون من موسكو في روسيا في عام ١٨١٢، ولا يزال يضرب
به المثل في عظم الفشل الحربي. وكانت عودة نابوليون من سورية صورة مصغرة لذلك
الانسحاب من روسيا .. ناب في هذا العطش والقيظ والشمس المحرقة في الصحراء
الفاصلة بين آسيا وأفريقيا ، مناب الثلج والبرد القارس والزمهرير في روسيا ! وناب
الطاعون في فتكه بالجند الفرنسيين ، مناب القوزاق في مطاردتهم للمنتقطعين من ذلك
الجيش الذي دوخ أوروبا في عدة وقائع فخره باهرة !

وكان نابوليون معشديد عزمه، وبلغ صبره وجلده، أسفاً كثيراً يحرِّق الأرم على الانكباب الذين قضاوا على آماله، وسدوا الطريق على أحلامه، وقطعوا بينه وبين الوصول الى بلاده، وكان الجيش لتغيظه وانحطاط قواه المعنوية كما وصل الى بلدة أو قرية من قرى الشام يمن فيها قتلاً ونهباً وسلباً، ثم يشعل فيها النار خوفاً من اقتضاض القوم على الجند بدعوى أن ذلك خير وسيلة حرية مشروعة لتعطيل العدو عن تعقبه ومطاردته ..!

ودرى المؤرخون من فرنساويين وانكباب أن نابوليون وجد في يافا عدداً كبيراً من جنوده المصابين بالطاعون وأمراض أخرى فتحير في امرهم ولم يرد أن يتركهم فريسة في يد أعدائهم، اشتقاداً منه بأن جنود الجزائر لا يقون عليهم ولا يرحمون ضعفهم ومرضهم، ولا غرابة أن يعتقد نابوليون ذلك الاعتقاد إذ أنه هو لم يرحم الأسرى العزل من السلاح، ولم تسلم النسوة ولا الشيوخ ولا الأطفال من اعتداء جنوده، وكذلك لم تكن لديه وسائل لنقل أولئك المرضى الى مصر فافترح نابوليون على الأطباء أن يجرعوهم السم ليموتوا موتة هينة بدلاً من تعريضهم، على ظنه، لتساوة أعدائهم والتثليل بهم! فكان جواب الأطباء: « إن صناعتنا تقضى علينا أن نبرئ لا أن نميت »!

وهناك اختلاف كبير في هذه الرواية فكثير من الكتاب يؤكدها، وكثير منهم ينفىها وينكرها، ونابوليون نفسه في سانت هيلانه ينكر أشد الانكار أنه أصدر أمره بتسميم المرضى، ولكن من جهة أخرى يقول إنه لو وجد نفسه في مثل ذلك الحال، أى لو كان كواحد من أولئك المرضى، لفضل أن يتجرع السم ليموت موتة هادئة سريعة، وأنه لو أصدر أمره للتعجيل على حياة المرضى الذين قضى عليهم بالوت، لما وبخه ضميره ولما كان في عمله محققاً

والظاهر من اختلاف الروايات ومن أقوال بعض قواد نابوليون، ومن دفاعه هو عن نفسه في مذكرات سانت هيلانه، أن نابوليون اقترح على الأطباء تجريع المرضى نوعاً من السم أو الأفيون، وأنه لما رأى شدة معارضتهم له، ترك مع المرضى

بعض الجند لحراستهم ، ونقل من أمل فيه الشفاء معه . بدليل أنه ورد في أخبار الانسحاب أن نابوليون كان يمشى على قدميه في الصحراء واقتدى به الضباط وانخيلة تاركين المرضى الخيول والدواب

والخلاصة أن حملة الشام قد فشلت فشلا ذريعا ولم يعد من القوة التي سار بها نابوليون ، وهي كما ذكرنا ثلاثة عشر ألفاً ، غير سبعة آلاف على تقدير الكتاب الانكليز قد انحلت عزائمهم ، وانحطت قواهم . ولكن بعض الكتاب الفرنسيين يؤكدون أن الجيش الفرنسي عاد من سورية وكان عدده في الصالحية ١١٣٣١١ فيكون النقص الفين فقط ، قتل منهم خمسمائة في ساحات القتال ومات في المستشفيات ٧٠٠٠ وترك في معسكرات العريش وقطية نحو سماية ونحو مائتين تقدموا الجيش الى مصر ، فكان الخسارة الحقيقية للجيش لا تزيد عن الف ومائتين الى الف وخمسمائة على تقدير أولئك الكتاب ، ووفق كبير بين هذا العدد وسبعة آلاف كما يقول الانكليز . وفي رأى « بيري » أن الحملة الفرنسية في سورية فقدت ثلث رجالها أى نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح ومطعون وربما كان هذا التقدير أقرب الى الصواب ، وهذا يوافق ما قاله المعلم نقولا الترك في رسالته إذ ذكر أن الفرنسيين « خسروا ثلاثة آلاف وخمسمائة « صلدات » على أسوار عكا ومات بالطاعون نحو الف وزيادة « أى أن الخسارة كانت حوالي أربعة آلاف وكسور وكيفما كانت الخسارة فنابوليون مع هذا لم يرد أن يفهم جيشه انه عاد من سورية بالخيبة والفشل ، ولذلك نشر بينهم منشوراً طويلاً قال فيه : أيها الجنود . إنكم قد قطعتم القفار الواقعة بين آسيا وأفريقيا بسرعة تحاكي سرعة مسير جيش من العرب على خيولهم و بددتم الجيش الذي كان ذاهباً ليهاجم مصر ، والزتم الجيش الثاني الذي كان يقصد به الاغارة على وادي النيل ، أن يأتي الى عكا لامدادها ، وقد فتحت العريش وغزة ويافا ، وهدمت قلعة عكا ؛ فلآن سندهب الى مصر لان العدو مصمم على مهاجمتها .. الى غير ذلك من الاقوال التي قصد بها طبعاً تقوية عزائم الجند على اجتياز تلك الصحارى المحرقة مرة ثانية

وكذلك لم يرد نابوليون أن يدرك المصريين أنه قد باء بالخيبه والخسران في حملته السورية ، فبعث قبل مقدمه الى مصر بمنشور للديوان الخصوصي قل فيه : « الى محفل ديوان مصر . نخبركم عن سفري من بر الشام الى مصر فاني بغاية العجلة بحضورى لطرفكم نساfer بعد ثلاثة أيام تمضى من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوماً وجايب معى جملة محاييس بكثرة ومحقت سرابة الجزائر وسور عكا ، والقنبرهدمت البلد ، ما ابقيت فيها حجراً على حجر ، وجميع سكانها انهزموا من البلد الى طريق البحر والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت . ومن جملة ثلاثين مركبا موسوفة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزائر ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا . . » اه بحروفه

ومما يجب ملاحظته على هذا الكذب والتضليل انه لا توجد صورة لهذا المنشور بأية لغة أوروبية وليس له أصل فرنسي لأنه - مع هذا التضليل - أعقل من أن ينشر هذه السخافات في لغة أوروبية يحاسب عليها من قوم يفهمون ويعلمون !

وختم خطابه هذا بالعبارة الآتية (نقلا عن الجبرتي) « واني مشتاق الى مشاهدتكم لأنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم لكن جملة « فلاتية » (كذا) دائرون بالفتنة لأجل ما يجركون الشر في وقت دخولي . كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس وقتتورة^(١) مات من التشويش وهذا الرجل صعب علينا جداً والسلام »

ولكن على الرغم من هذا الخطاب ، وعلى الرغم من الاحتفال الفخيم العظيم الذى أعده الفرنسيون ، ونظمه نابوليون على طريقة التهويل والارهاب ، فان المصريين لم يخف عليهم أن نابوليون وجيشه قد فشلوا في الشام وعادا منها بخفي حنين . وهذا الشيخ الجبرتي يقول « وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً حرابمستقيماً ليلاً ونهاراً وأبلى احمدباشا الجزائر وعسكره بلاء حسناً شهد له الخصم » وكتب الشعراء في سوريا ومصر قصائد الابتهاج بخلاص عكا وفشل الجندالفرنساوى في تدوينها .

(١) قنتورة المشرق - سبق لنا ذكره في هامش صحيفة ١٥١ رزبد على ما كتبناه هناك أن الجبرتي ذكره فقال « وقتتورة هذا كان ترجان سارى عسكر وكان ليدياً متبحراً ويعرف اللغات العربية والتركية والطلياني والرومي والفرنساوى »

العودة لمصر

من سورية

في اليوم الثاني من شهر يونيه سنة ١٧٩٩ وصل الجيش الفرنسي الى العريش واتخذت الاحتياطات الكافية لتحسين تلك البقعة وفي يوم ٤ يونيه سكر الجيش في قطية ، وفي يوم ٧ وصل الجيش الى بلدة الصالحية وهي أول حدود مصر من جهة الصحراء الشرقية ، وهناك استراح الجيش ، وأصدر نابوليون أمره للجنرال كليبر بالسفر مع فرقته الى دمياط للاقامة بها ، وكان غرض نابوليون من ذلك ابعاد كليبر عن القاهرة ، ليتيسر له الاستعداد للسفر الى فرنسا ، قبل أن يعلم به كليبر وذلك لاسباب كثيرة سنأتي عليها في مكانها

قال الجبرتي في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٤ « وفي يوم الثلاثاء (يوافق ١١ يونيه) حضر جماعة من العسكر بأقلام وحضرت مكاتبه من كبير الفرنسيين أنه وصل الى الصالحية وأرسل درجا الوكيل (Dugua) ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده بأمر بذلك »

ومن لنا بالوقوف على التعليمات الخاصة التي بعث بها نابوليون الى الجنرال « درجا » مع أولئك الرسل بقصد الاستعداد العظيم للاحتفال بقدومه واحتفال القائد الظافر ، ليوم المصريين أنه قد ملك سورية ودوخ أهلها ، وقضى علي الجيوش التي أشيع في طول البلاد وعرضها أنها قادمة لتخلص مصر من أيدي الفرنسيين؟؟ ولسكننا وإن لم نعرف تلك التعليمات فاننا نعرف أن في صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم (١٤ يونيه) جمع الفرنسيون في القاهرة أهل المدينة من شيوخ واعيان وموظفين وعامة وسوقة ، وأقيمت الزينات ودقت الطبول وترزت الجوقات الموسيقية عربية وفرنسية ، وتوشح كل ذى حيشة بالملابس المزخرفة ، وتألف من الجنود والاهالي موكب عظيم ، خرج من الازبكية في صباح ذلك اليوم ، يستقبل نابوليون بونا بارت خارج المدينة ، وكان هو قد عسكر بجيشه في المنطقة الواقعة بين سراي القبة والعباسية وكانت تسمى هذه الجهة بالعادية واليوم يقال لها الوايلية التي هي في الحقيقة جزء منها

وقد وصف كثيرون من كتاب الفرنسيين ، ذلك الموكب المنظم والاحتفال الفخم الذي قوبل به نابوليون بعد عودته من سورية لمصر وبالغوافيه وكان هو أول المبالغين في وصفه لحكومة الديركتوار ! وليس لدينا في اللغة العربية غير أقوال الشيخ الجبرتي والمعلم نقولا ، والاول لا يزيد في الوصف على كلمات موجزة والثاني لم يذكر شيئاً عن الهدايا الفاخرة التي قدمها التجار بالقاهرة وأعيانها وأشرفها لنابوليون وذلك بالطبع ، كما نعرف أمور بلادنا ، بناء على تحريصات وأوامر من الحكام الفرنسيين ، وكان أكثر الناس تملقاً وتزلفاً لنابوليون الشيخ خليل بكري الذي لم يزل تقيب الأشراف ، مع حضور السيد عمر مكرم من يافا . فقد قدم الشيخ خليل من أنواع الهدايا جواداً عربياً كريماً يقود زمامه « رسم » ذلك المملوك الذي اشتهر في أوروبا وبقي ذكره في التاريخ خالداً بجوار اسم نابوليون ، لانه سافر معه الى فرنسا وبقي معه مراقباً له في غدواته وروحاته ، وغزواته وانتصاراته ، حتى كان يلقب « مملوك الامبراطور » ، وكانت له في قصر التويلري مكاتبه معروفة . ولم يكن رسم هذا هو ذلك المملوك الذي كان له مع الشيخ البكري حكايات مرّ بها الجبرتي مرور النسيم ! بل كان واحداً من مماليك كثيرين للشيخ البكري الذي قدم لنابوليون عدا الجوارى والمملوك هدايا كثيرة فاخرة ثمينة فكان سرج الجواد مطرزاً بالذهب واللالى والياواقيت ، وأهداه أيضاً عدداً من الفجج السريع الخطا ، وقدم له أيضاً الجوارى الحسان ، من الجركس والمبشان ، والشيلان الكشميرية والاسلحة ذات القبضات المحلاة بالذهب والجواهر الكريمة ، الى غير ذلك من العطر والعود والصندل والاقمشة الحريرية من صنع الهند والصين

وإخلاصة إن الشيخ خليل البكري ، غفر الله له وتجاوز عن سيئاته ، لم يدخر وسعاً في إرضاء الفرنسيين ، فجاد بخير ما عنده وتجاوز الامر حتى قالوا أنه جاد بعرضه ! فقد روى ثقة المؤرخين أن ابنة الشيخ خرجت عن حدود الحشمة وسلكت مع الفرنسيين مسلكاً شائناً فوصت بيت البكري بوصمة عار لا تمحى ، وقد روى الشيخ الجبرتي ، وهو عفيف القلم ، تلك الرواية وهو يتململ غيضاً ، وقال

إن اعداء الشيخ أنهموه بان خروج ابنته مع الفرنسيين كان بعلمه ورضاه ،
والعياذ بالله . وروى بعضهم أنها كانت تسقى أباه وضيوفه من كبار القواد
الفرنساويين الشراب فكان ما كان . ولكن هذا على ما أعتقد غير صحيح .
وأغرب ما في حكاية هذه الفتاة وقصتها الغربية التاريخية ما روته الكاتبة « جيهان
ديفري » في كتابها عن نابوليون في مصر ، فقد أكدت أن ابنة البكري (وذكرت
أن اسمها زينب البكرية) كانت معشوقة نابوليون بونابرت نفسه . ونحن ننقل روايتها
هذه بكل تحفظ لاننا لانعرف على أى المصادر اعتمدت هذه الكاتبة الباحثة ،
إذ من الجائز إنها اعتمدت على مذكرات أو مصادر لم نوفق الى العثور عليها

ورواية جيهان ديفري هي أنه كان لنابوليون بونابرت في مصر معشوقة
اسمها بولين فوريس Pauline Fourès وكانت من قبل خائطة من بلدة
كاركسون Carcassone في فرنسا وتزوجت من الضابط فوريس ، وكان رجال
الجيش يعلمون بعلاقة القائد العام بها ، وكذلك كان يعرف المصريون وكانوا يسمونها
« ست السلطان الكبير » ، فحدث في زيارة ابنة البكري وأمها لتلك السيدة الفرنسية
أن وقع نظر نابوليون على الفتاة العذراء ابنة سليل بيت الصديق فاعجب بظرفها وشكلها
الشرقي . وكانت الاخبار قد وردت اليه من فرنسا بسوء سلوك زوجها جوزيفين وأخبار
علاقتها ببعض الضباط في باريس ومهدت له بولين الاجتماع بزینب واتخذها خلية
أخرى له وكان الفرنسيون يسمونها (La petite Egyptienne du Général)
كما كانوا يسمون بولين فوريس (Notre Dame de l'orient) وروت كاتبة هذه
الرواية أن حب نابوليون لزینب لم يدم طويلا لأن بولين مكرت بالفتاة وغيرت
ملابسها الشرقية بملابس باريسية وقامت لها بالطرية الغربية ، ففقدت ميزتها
وغرابتها لدى نابوليون ومال قلبه أكثر الى بولين

واتخذ كاتب انجليزى من كتاب الروايات الخيالية الممزوجة بالحوادث التاريخية
حادثة ابنة البكري جزءاً من موضوع رواية اسمها « المملوك المفقود »^(١) تتداولها

(1) The lost Mamluke, by David M. Beddoe.

الأيدى في كل مكان وزمان. ولكن مؤلف هذه الرواية وصف الشيخ البكري بأنه كان متألماً وأنه كان يسير في شوارع القاهرة ليلاً نادماً صاحباً على ما أصاب ابنته وذكر مؤلف الرواية اسم تلك الفاجرة وقال أنها هامت بحب كولونيل افرنسي وكيفما كان الحال فقد لاقت جزاءها بعد خروج الفرنسيين وعودة المليك والاتراك إذ قطعوا رقبتهما أمام والديها

ومن أغرب الامور ان ذلك يحصل و نابوليون بونابرت وهو شبه ملك لفرنسا (الفصل الاول) لا يستطيع ان يخلص الفتاة التي عثت بعفافها من القتل !!

وان قال قائل أما كان الأولى التجاوز في هذا الكتاب عن ذكر هذا ! كان جوابنا ان لنا غرضاً في وصف أخلاق القوم في ذلك الزمن والاشارة إلى من لا يكرمون أنفسهم ولا أمتهم ولادينهم ، أمام الغاصب الاجنبي « ومن لا يكرم نفسه لا يكرم » وقال المعلم نقولا الترك عن ساءة الاستقبال والسلام « واقبلوا عليه وهنوه بقدومه وبعد الجلوس قال لهم لقد بلغنى أن بعض المفسدين والأعداء الكاذبين قد أشاعوا عنى الأخبار ، اننى مت في تلك الديار ، فأمعنوا بى النظر ، لتتحققوا الخبر ، وانظروا هل أن بونابرت مات ، أم لا يزال بعد في الحياة ، وقولوا للمفسدين لا يتأملوا بهذا الأمل وبونابرت قد جاء سالماً غانماً وبأذن المالك العزيز لا يموت بونابرتة حتى يدوس جميع الممالك » فأجابوه « لا بأس على أمير الجيوش لقد كذب كل من قال أطل الله لنا بقاءك ، ولا شمت بك أعداك ، وجعلنا من الدنيا فداك »

وهكذا يقول الناس لكل ذى قوة وسلطان ! وما نظن الا أن نابوليون وهو يقول لهم هاتيك الاقوال الطنانة كان يتصور أمام مخيلته السير سدى سميت في بلجته وهو يشير اليهم بأصبع الاستهزاء ، يذكره بالفشل أمام عكا ، وعودته من من سوريا منكوباً مهزوماً ، فيقول نابوليون في نفسه :

وتجلى للشامتين أريهمو انى لريب الدهر لا أتضعع

ثم تحرك الموكب على نظام رتبوه وعلى شكل يقصد به القاء الرعب واطهار الابهة وجلال الملك وعظمة السيادة في نفوس المصريين ، حتى لقد استمر ذلك

الموكب - على رواية الجبرتي - خمس ساعات متوالية في شوارع القاهرة الى أن وصل الى داره بالازبكية. وقد ذكر لنا «ميو» في مذكراته الصريحة أن نابوليون سير الجند في موكب دخوله القاهرة صفوفاً منفردة حتى يوم القوم بأنه لم يخسر كثيراً من جيشه كما أشاعوا عنه في مصر... ولهذا استمر الموكب خمس ساعات !

ومع ذلك لم يخف عن المصريين ، كما روى الجبرتي ، أن العساكر قد تغيرت ألوانهم واصفرت وجوههم ، وقاسوا مشقات عظيمة من الحر والسغب

ولم يكتف نابوليون بذلك الموكب العظيم بل أراد أن يجعل دخوله في القاهرة عيداً كبيراً أو مولداً من الموالد ، استمر ثلاثة أيام متوالية. وفي هذا يقول الجبرتي « فلما وصل ساري عسكر الفرنسي الى داره بالازبكية تجمع هناك أرباب الملاهي والبهالوين ، وطوائف الملاحين ، والحواة والقرادين ، والنساء الراقصات والخلابيص ، ونصبوا أراجيح مثل أيام الأعياد والواسم ، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام ، وفي كل يوم من تلك الايام يعملون شنكاً وحرقات ومدافع وسواربخ ، ثم اتقضى الجمع بعدما أعطاهم ساري عسكر دراهم وبقاشيش »

من للتاريخ بمن يشرح للأجيال الخالقة ما كان يجول بخاطر نابوليون وهو ينظر من نافذة بيت الأتفي ، في ليلة من تلك الليالي المقمرة ، إلى اولئك المهايس من الحواة وملاعب القردة والنسوة الراقصات ؟ وهو يعلم أنه في أخرج المراكز ، وان جيشه قد قلّ عدداً ، وان مراكبه قد حطمت ، وأن دول أوروبا العظيمة قد تجمعت لمحاربه ، وان الجيش العثماني ، تعضده الأساطيل الانكليزية والروسية والعمانية ، قادم لمحاربه من طريق البر والبحر ، وأن الحكومة في باريس قد خذلتها ، وأنه لا بد له من الهرب من هذه الديار المصرية ليصل الى فرنسا لينال فيها ما تطمح اليه نفسه من المجد والفخار ، ويفكر كيف يهرب وسفن الانكليز في البحر الابيض المتوسط ذاهبة وآتية !!

لا نزاع في أن كل هاتيك الافكار المقلقة كانت تجول في رأس نابوليون فتمتاعب فيها الآمال بالآلام ، وتمتزج الاوهام بالاحلام ، فكان لا شك يتسم

تبسمة صفراء لاولئك اللاعبين الصاخبين ، ويقول لهم « العميوا العبوا يا عبيد
الايهام ، وآلات الحكم » : ولو أجابه واحد من اولئك البهاليل الراقصين «
اللاعبين ، لقال له على لسان الفلسفة الشرقية « نحن أحسن منك حالا ، وأنعم
منك بالا ، وأفضل في النتيجة مآلا ! ما لنا ولأمواج سانت هيلانه ، تدوى في
آذاننا ، وتذيب من أرواحنا ، وتفتت في أكبادنا ، بعد الهيل والهيلمان ،
والتاج والصولجان؟؟ ومن لم يقامر بالدنيا أبداً ، كان كمن قامر بها ، فكسبها في يوم ،
وخسرها في آخر !! وملك كسرى تغنى عنه كسرة» !

يقول هذا ويرقص !

يقول « بوريين » في مذكراته إن نابوليون ما كاد يستقر في القاهرة حتى أصدر
منشوراً من تلك المنشورات التي سداها الكذب ولحمها التلغيف ولا ينخدع بها الا
ذوو البلاهة والجنون. وعن هذا المنشور أو البلاغ يقول الشيخ الجبرتي «إنهم في
تاسع عشر من الشهر (محرم) كتبوا أوراقا وطبعوها والصتوها بالاسواق ، وهي
من ترصيف وتميق أحد الفصحاء » ، فاذا لاحظنا أن نابوليون دخل القاهرة في
١٠ من الشهر رأينا أنهم قضوا نحو أسبوع في تعريب وترصيف وطبع ذلك البلاغ
الذي يدل اشاؤه على قلم مصرى ولعله من ترصيف وتميق الشيخ المهدي الذي
يقول عنه المؤرخون في كتاب الحملة ، إنه كان ينظم منشورات القائد العام شعراً ،
مما يدل على أن نابوليون أو من معه من المستشرقين ينزلون النثر المسجع منزلة
الشعر الموزون المقفي والمنشور المشار اليه مكتوب على لسان أعضاء الديوان

وقد كنا عزمنا على الاكتفاء من هذا المنشور المطول بشذرات تدل على
اسلوبه وتركيبه ، ولكن عثرنا في الوقت الاخير على صورة مأخوذة بالفوتوغرافية
من أصل لذلك المنشور ، فرأينا اتماما للفائدة أن ننقل تلك الصورة وأن نأتي على
نص المنشور نقلا عنها ليسهل على القارئ مطالعته . ومقارنته بنصه في الجبرتي :

الجمهور الفرنسيون

من محفل الديوان الخصوصي بمحروسة مصر
خطاباً لأقاليم مصر الشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والجيزة والبحيرة

النصيحة من الايمان

قال الله تعالى في محكم القرآن « ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، وقال تعالى
« ولا تطيعوا أمر السرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون » فعلى العاقل
أن يتدبر في الامور قبل أن يقع في المحذور
نخبركم معاشر المؤمنين أنكم لا تسمعوا كلام الكذابين فتصبحوا على
ما فعلتم نادمين

وقد حضر الى محروسة مصر المحمية أمير الجيوش الفرنسيون ، حضرة بونايرته
محب الملة الحمديّة ، ونزل بعسكره في العادلية ، سليماً من العطب والاسقام ، شاكراً
الله موحداً للملك العلام ، ودخل الى مصر من باب النصر ، يوم الجمعة عاشر شهر
محرم الحرام سنة الف ومايتين واربعة عشر من هجرته عليه السلام ، في موكب
كبير عظيم ، وشكك جليل نفيم ، وعسكر كثير جسيم ، وصحبته العلماء الازهرية ،
والسادات والبكرية ، والعنانية والدمرداشية ، والمسنية والاحمدية والرفاعية
والقادرية ، والوجاقات السبعة السلطانية ، وأرباب الاقلام الديوانية ، وأعيان
التجار المصرية ، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً عظيماً لم يقع نظيره في المواكب
السابقة قديماً ، وخرجت سكان مصر جميعاً لملاقته (كذا) فوجدوه هو الأمير
الاول بونايرته بذاته وصفاته ، وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه . شرح الله صدره
للإسلام ، ونظر بعين لطفه اليه . والذي أشاع عنه الاخبار الكاذبة ، العربان الفاجرة ،
والغز الهاربة ، ومرادهم بهذه الاشاعة هلاك الرعية ، وتدمير أهل الملة الاسلامية ،
وتعطيل الاموال الديوانية ، لا يحبون راحة العبيد ، وقد أزال الله دولتهم من شدة
ظلمهم ، إن بطش ربك لشديد ، وقد بلغنا أن الانبياء توجه إلى الشرقية مع بعض

المجرمين من عربان « بلي » والعيادة الفجرة المفسدين، يسعون في الارض بالنساذ وينهبون أموال المسلمين، ان ربك لبالمرصاد، ويزورون على الفلاحين المسكيتب الكاذبة الفاجرة، ويدعون أن عساكر السلطان حاضرة، والحال أنها ليست بحاضرة، فلا أصل لهذا الخبر، ولا صحة لهذا الأثر، وإنما مرادهم وقوع الناس في الهلاك والضرر، مثل ما كان يفعل ابراهيم بك في غزه حين كان، ويرسل فرمانات بالكذب والبهتان، ويدعى أنها من طرف السلطان، ويصدقوه أهل الارياف خسفاء العقول، ولا يقرؤن العواقب، فيقعون في المصائب، وأهل الصعيد طردوا الغز من بلادهم، خوفاً على أنفسهم وهلاك عيالهم وأولادهم، فإن المجرم يؤخذ مع الجيران، وقد غضب الله على الظلمة، ونعوذ بالله من غضب الدين. فكانوا أهل الصعيد أحسن عقولاً من أهل بحرى بسبب هذا الرأى السديد، ونخبكم أن احمد باشا الجزائر، سموه بهذا الاسم لكثرة قتله الانفس ولا يفرق بين الاخيار والاشرار، وقد جمع الطموش الكثرية، من عسكر العثملى ومن الغز والعرب وأسافل العشيرة، وكان مراده الاستيلاء على مصر وأفالمها، وأحبوا اجتماعهم عليه لأخذ أموالها وهتك حرمتها، ولكن لم تساعده الاقدار، والله يفعل مايشاء ويختار.

أطافه خفية، والكلام على صفو النية، وقد كان أرسل بعض هذه العساكر الى قلعة العريش، ومراده يصل الى قطيه. فتوجه حضرة سارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية وكسر عسكر الجزائر الذين كانوا فى العريش، ونادوا الفرار الفرار، بعد ما حل بأكثرهم القتل والدمار، وكانوا نحو ثلاثة آلاف، وملك قلعة العريش وأخذ ما فيها من ذخائر الجزائر بلا خلاف، ثم توجه صارى عسكر الى غزة فهرب من كان فيها من عسكر الجزائر، وفروا منها كما يفر من الحرة العصفور والفار، ولما دخل قلعة غزة نادى فى رعيته بالأمان، وأمر بأقامة الشعائر الاسلامية وأكرم العلماء والتجار والاعيان، ثم انتقل الى الزملة وأخذ ما فيها من ذخائر الجزائر، من بسماط وأرز وشعير وخرب أكثر من ألفين قرية عظام كبار، كان جهزها الجزائر، لذهابه الى مصر ولكن لم تساعده الاقدار، ثم توجه الى يافا

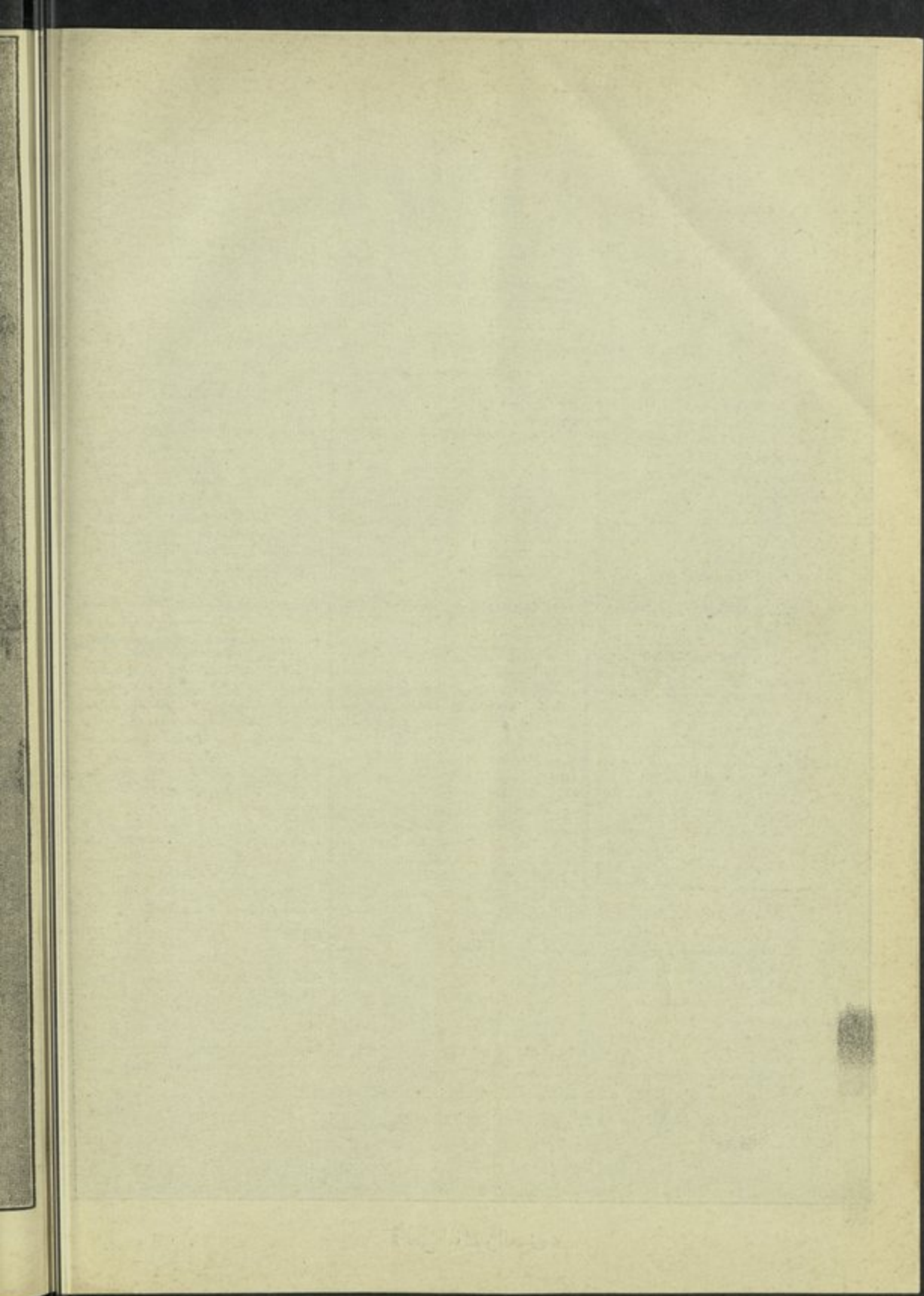
وحاصرها ثلاثة أيام ثم أخذها وأخذ ما فيها من ذخائر الجزائر بالتام ، ومن نحوسات أهلها أنهم لم يرضوا بأمانه ، ولم يدخلوا تحت طاعته واحسانه ، فدور فيهم السيف من شدة غيظه وقوة سلطانه ، وقتل منهم نحو أربعين ألفاً أو يزيدون بعد ما هدم سورها . فعل الله الذي يقول للشئ كوز (كذا) فيكون ، وأكرم من كان فيها من أهل مصر وأطعمهم وكساهم وأنزلهم في المراكب الى مصر وغفرهم بعسكر خوفهم من العربان ، وأجزل عطاياهم . وكان في يافا نحو خمسة آلاف من عسكر الجزائر ، هلكوا جميعاً وبعضهم ما نجاه إلا الفرار ، ثم توجه من يافا الى جبل نابلس فكسر من كان فيها من العساكر بمكان يقال له فاقوم وحرقت خمسة بلاد من بلادهم وما قدر كان . سبحان مالك الملك الخي القيوم ، ثم أخرب سوق عكا ، وهدم قلعة الجزائر التي كانت حصينة لم يبق فيها حجر على حجر حتى أنه يقال كان هناك مدينة ، وقد كان بنى حصارها وشيد بنيانها في نحو عشرين من السنين ، وظلم في بنيانها عباد الله ، وهكذا عاقبة بغيان الظالمين

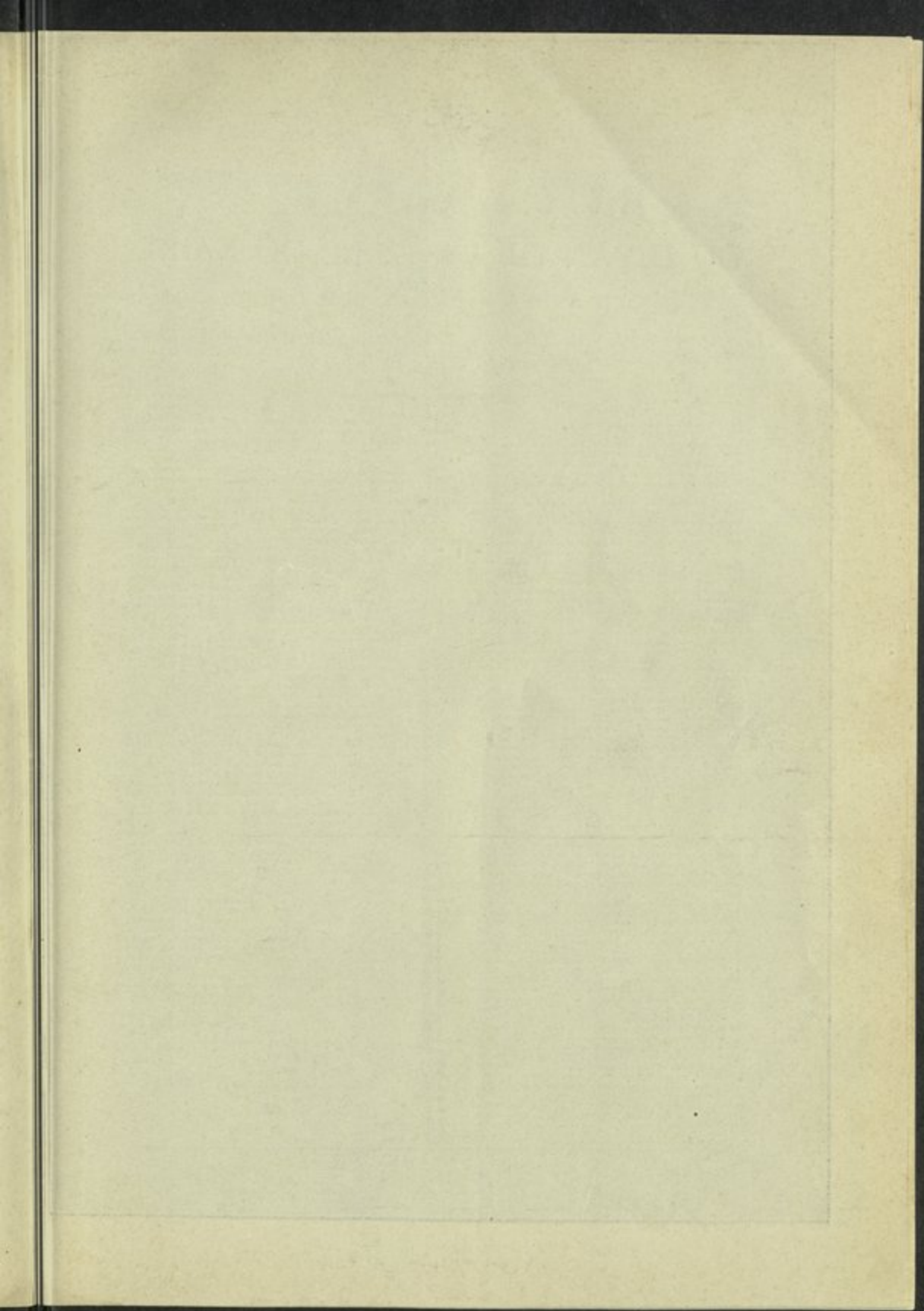
ولما توجه اليه أهل بلاد الجزائر من كل ناحية كسرهم كسرة شنيعة ، فهل ترى لهم من باقية ، نزل عليهم كصاعقة من السماء فان قتل أهل الشام لما قلنا كما (كذا) ثم توجه راجعاً الى مصر المحروسة لأجل سببين (الأول) أنه وعدنا برجوعه الينا بعد أربعة أشهر ، والوعد عند المردين (والسبب الثاني) أنه بلغه أن بعض المفسدين من الغز والعربان يحركون في غيابه الفتن والشورور في بعض الاقاليم والبلدان ، فلما حضر سكنت الفتنة ، وزالت الاشرار مثل زوال الغيم عند شروق الشمس وسط النهار . فان همته العلية ، وأخلاقه المرضية ، متوجهة في البكرة والعشية ، لازالة الاشرار والفتنة من الرعية ، وحبه لمصر وأقليمها شئ عجيب ، ورغبته في الخير لأهلها ونيلها وزرعها بفكره وتدبيره المصيب ، يجب الخير لأهل الخير والطاعة ، ويرغب أن يجعل فيها أحسن التحف والصناعة ، ولما حضر من الشام ، أحضر معه جملة اسارى من خاص وعام ، وجملة مدافع وبارق اغتمتها في الحروب من الاعداء والاصنام . فالويل كل الويل لمن عاداه ، والخير كل الخير

لمن والاه ، فسلموا يا عباد الله لقضاء الله ، وارضوا بتقدير الله فان الارض لله ،
وامتثلوا الاحكام الله . فان الملك لله يؤتية من يشاء . من عباده . هذا هو الايمان بالله
ولا تسعوا في سفك دمائكم ، وهتك عيالكم ، ولا تسبوا في قتل اولادكم ونهب
أموالكم ، ولا تسمعوا كلام الغز الهار بين الكاذبين ، ولا تقولوا إن في الفتنة أعتلاء
كلمة الدين ، حاشا لله لم يكن فيها إلا الخذلان التام ، وقتل الانفس وذل أمة النبي
عليه الصلاة والسلام . والغز والعربان يطعموكم ويغروكم لأجل أن يضروكم فينبهوكم ،
وإذا كانوا في بلد وقدمت عليهم الفرنسيس فروا هاربين منهم كأنهم جنود أبليس .
ولما حضر سارى عسكر الى مصر أخبر أهل الديوان من خاص ومن عام ، أنه
يجب دين الاسلام ، ويعظم النبي عليه السلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ فيه كل
يوم باتقان ، وأمر بأقامت (كذا) شعائر المساجد الاسلامية ، وأجرا مخيرات الاوقف
السلطانية ، وسلم عوائد الوجاقلية ، وسعى في حصول أقوات الرعية ، فانظروا هذه
الالطاف والزية ، ببركة نبينا أشرف البرية ، وعرفنا أن مراده يبني لنا مسجلاً
عظيماً بمصر لا نظير له في الاقطار ، وانه يدخل في دين النبي المختار ، عليه أفضل
الصلاة وأتم السلام .

ويرى القراء في الصورة القوتوغرافية أسماء أعضاء الديوان الخصوصى كالاتى :
السيد خليل البكرى تقيب السادة الاشراف . الفقير عبد الله الشرفاوى رئيس الديوان .
الفقير محمد المهدي كاتب سر الديوان . الفقير مصطفى الصاوى خادم العلم .
الفقير سليمان الفيومى خادم العلم . على كتحدى باش اختيار مستحفظان . يوسف
باش جارش تفككجيان . السيد احمد المحرقى (١)

(١) قارن بين هذا النص وبين ما ورد في كتاب الجبرتي وفي رسالة المعلم نقولا الترك
فوجدنا اختلافاً كبيراً بين الاصل وبين ما تركه لنا ذلك المؤرخان فدل هذا جلياً على وقوع
التحريف في روايتهما وأثبت أيضاً أن الاعتماد عليهما بغير تحقيق ولا تدقيق اساءة للتاريخ





يلاحظ القارئ أن جميع أعضاء الديوان انخصوصى الذى شكل فى (١٦ رجب سنة ١٢١٣ - ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩) أى قبل هذا الموعد بنحو ستة شهور ، وسبق لنا الكلام بشأنهم ، لم يوقعوا كلهم على هذا المنشور ، واكتفى بوضع امضاءات العلماء ، والسيد احمد المحرقى من تجار القاهرة ، واثنين من الضباط الأتراك ضباط الوجاقات . ولم يكن قد ورد اسمهما فى الاسماء التى ذكرها الجبرتنى عند تشكيل الديوان ولا فى كتاب الحلة كما هو موضح فى كتابنا هذا فلا بد إذن من أنه حصل تغيير أو زيادة عضوين من ضباط الوجاقات بقصد إرهاب المصريين لانهم ، كما قال عنهم المشايخ للفرنساويين عند دخولهم ، لا يخافون الا من الحكم للمالك ، ثم يظهر أن نابوليون ارتأى إخلاء هذا المنشور من اسماء الاعضاء غير المسلمين ، لان اسماء مثل بودوف وكاف ولطف الله وكحيل وولمار لاتنطق مع دعاوى « قراءة القرآن باقتان ، واحترام النبي عليه الصلاة والسلام ، والعزيمة على الدخول فى دين الاسلام » !!

وقد خصص مسيو كرسيتيان شرفيس فى كتابه الحديث المسمى « بونا بارت والاسلام » بحثاً خاصاً عن هذا المنشور ومتى كتب ومن كتبه ، وهو الذى نتلنا عنه الصورة القوتوغرافية التى حصل على صورتها الاصلية من وزارة الحربية ، وظاهر من التحقيقات التى عملها على الاصل الخطى أن نابوليون هو الذى أملى عبارة للمنشور على كاتب يده بور بين ، وإنه بعد ذلك أخذ ما كتبوه وأدخل عليها بخطه تصليحات وزيادات ثم أمر به فنسخ ، وإن كل ذلك حصل بين ١٥ و١٦ يونيه ، أى ثانياً يوم لدخوله القاهرة . والجبرتنى يقول لنا إنه فى التاسع عشر من محرم كتبوا أوراقاً والصقوها (١٩ محرم الموافق ٢٣ يوليو) ولم يك من السهل ترصيف وتسجيل عبارة المنشور لموافقها للأصل الفرنساوى فى مدة قصيرة بسبب ما يدور من المناقشات والأخذ والرد بين المترجمين والمصححين

بقي علينا أن نذكر أن العبارة العربية قريبة جداً من الاصل الفرنساوى ،

ومن الغريب إنه لم يرد في النص المطبوع في الصورة الفرنسية ذكر لقب «السلطان الكبير» وكذلك لا يوجد لهذا اللقب أثر في النص العربي الموجود في الجبرني ولا في المعلم تقولا ، ولا في الأصل الصحيح المنقول بالفتوغراف ، ولكن ورد في كتب الفرنسيين ، وورد في الصورة الخطية الفرنسية المنقولة بالفتوغراف في كتاب شرفيس ، فيظهر من ذلك جلياً أن نابوليون أراد لنفسه ذلك اللقب ، وأملاه على كاتب يده ، ولكن معارضة المشايخ مثلاً ، أو عدم قبولهم وضع أمضا آتهم على منشور يلقب فيه نابوليون بالسلطان الكبير ، أو غير ذلك من أغراض لبعض المستشرقين أو القواد الآخرين ، أدى إلى رفع ذلك اللقب من المنشور العربي والفرنسي . ومع وجود الصورة الاصلية ، في اللغتين كما يراه القارىء في الصورتين المأخوذتين بالفتوغراف ، فلا يزال بعض كتاب الفرنسيين يؤكد أن نابوليون كان يلقب في مصر بالسلطان الكبير ! !

وأما ما ورد في هذا المنشور من دعوى اعتناق الدين الاسلامي وتلاوة القرآن وإنشاء مسجد كبير إلى غير ذلك من موضوع الفكرة الاسلامية لدى نابوليون ، فسنفرد له فصلاً خاصاً لا يماطه النقاب ، عن كل ما قيل في هذا الباب . وكنا نود أن نقف بالقلم عند هذا الحد فيما يخص بالحملة السورية لولا أننا عثرنا على رسالتين ، بعث بهما على لسان أعضاء الديوان الخصوصي ، إلى نابوليون وهو في سوريا . وهاتان الرسالتان نقلها مسيو كرستيان شرفيس في كتابه الذي سبقت الإشارة اليه ليتخذهما دليلاً على ثقة المسلمين بنابوليون وحبهم له ومدحهم إياد ، مع أن أولئك المشايخ كانوا يمضون ما يكتب لهم وذلك باعتراف مسيو شرفيس نفسه ، فقد قال في خلال تحقيقاته عن المنشور الآنف الذكر أن نابوليون كان لا يكتب فقط ما سيوقع عليه باسمه ، بل كان يكتب أيضاً ما سيمضيه سواه ، ولذلك أملى وكتب ذلك للمنشور الذي أمضاه بعض العلماء بعد تحوير وتلطيف . وتريد بهذا أن تقول أن وجود تلك الرسالتين اللتين بعث بهما إلى نابوليون في سوريا بل والثالثة التي بعث بها إليه وهو الحاكم الأول في فرنسا ، لا يثبت أبداً أن المسلمين إعتقدوا في نابوليون بونا بارت مثلاً تصور هو أنهم يعتقدونه فيه

والرسالتان المشار اليهما لها أهمية عظيمة في نظرنا لان أصلهما غير موجود باللغة العربية، لا في الجبرتي ولا في المعلم تقولا، ومع أن ثالثهما بعث بها بعد هذا التاريخ بنحو سنة ونصف، أى في مدة رياسة الجنرال «منو» وكان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي قد صار عضواً في الديوان وامضاً آتة موجودة بين الذين أمضوا تلك الرسالة الثالثة، فإنه لم ينشر لنا نصها العربي، بل ولم يشر اليها إشارة صغيرة مما يثبت دون أقل شك أن المشايخ لم يكونوا يعترفون بان تلك الرسائل صادرة منهم عن اعتقاد و يقين، وإن كانت إمضاً لهم عليها واسماؤهم واردة فيها

ومع اعتقادنا هذا الذي نقره مع الأسف لما نيه من نسبة الضعف الاخلاقى لأكبر مشايخ المسلمين وعلمائهم في ذلك الزمن، نرى من الضرورى للفائدة التاريخية أن نأتى على تعريب تلك الرسائل من المصادر الفرنسية، ونكتفى هنا بالرسالتين اللتين بعث بهما إلى نابوليون في سوريا وترك الثالثة إلى حوادث المدة الاخيرة من تاريخ فرنسا وبين بصر

وقبل أن نأتى على تعريب الرسالتين المذكورتين نقول إن مسيو كرستيان شرفيس قد نقلها وغيرهما من الرسائل التي لا أصل لها في العربية، من مجموعة رسمية ولم يذكر لنا عن أصلها العربي شيئاً بخلاف الثلاثة التي روى عنها أن سلفستر ده ساسى، العالم المستشرق الكبير هو الذي ترجمها من العربية الى الفرنسية

وقد يخاطر بالبال أن الرسالتين المشار اليهما لم تكتبتا بالعربية قط وأنهما وضعتا بالفرنسية في القاهرة وأنهم المشايخ ما فيها ووضعت امضاءاتهم عليهما ولكن أسلوب عبارتهما في الفرنسية يدل على أنهما مترجمتان من العربية. ونحن مع فقد النص العربي لا نجد، كما قلنا، مناصاً من تعريبهما ثانية وإن كنا لانقطع عن أن نعيدهما الى ما يقرب من نص الفاظهما، مجتهدين في تقليد أسلوب ذلك العصر

وليس في احدى الرسالتين تاريخ زمن وضعهما ولكن يظهر أن الاولى كتبت لنابوليون في أول زمن الحملة الشامية وهذا نصها:

الرسالة ككتاب من ديوان القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعضاء الديوان الخصوصي بالقاهرة العزبة ، الى نصير الضعفاء والمساكين ،
وحامي العلوم والتعلمين ، وصديق الدين الاسلامي ومن به يدين ، وذخر الياسمي
والمساكين ؛ ومنظم شؤون الممالك والجيوش ، الاجل الامجد ، ساري عسكر الجيش
الفرنسي القائد العام بونابرت . حياه الله بصنوف السعادة ، بشفاعه اشرف الخلق
سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

بعد الدعاء بدوام بقائكم ، وتمني عودتكم الميمونة والوجود بيننا ، واذا اردتم
الوقوف على احوال القاهرة والجهات البحرية والقبليية ، والاقليم الشرقية والغربية
فهي على احسن حال من الهناء والرفاهية ، بعيدة عن الاضطراب ، وصنوف
العذاب ، والمساجد والاسواق على نظام يدعو الى الاعجاب ، والاعيان والتجار
والاهالي يحفظون الجميل ويعترفون بلئمة لذلك الذي اغدق عليهم هذه الخيرات
ولا يكفون عن التضرع للعمة الالهية بدوام عزه ومجده .

ولما كانوا قد غمرتهم النعم الالهية ، وتمتعوا بالراحة والرفاهية ، فقد اصبحوا
يعجبون بحكمة القائد الذي باسمه يحكم القطر المصري ، ويرون في اختياركم هذا
القائد دليلا على عطفكم السامي

اما حاكم الخلط فقوى العزم ، يعمل بقواعد العدل والحزم ، والمدير العام للعالية
على جانب عظيم من النبل والرافة والحلم ، وتقيب السادة الاشراف الشيخ البكري
لا يزال دائماً على عهد الولاء مقيم ، ورئيس الديوان الشيخ الشراوي يصرف الامور
تصريف حكيم ، والشيخ المهدي يحفظ لكم المنة والشكر ، والناظر قوسقيار
كيخيا ، هو دائماً زينة الدنيا . واخيراً فان سكان مصر كلهم لا يرغبون غير عودتكم
التي ستكون ان شاء الله عودة قريبة ميمونة ، ويسألون الله عز وجل ان يحفظ
جيشكم من كيد الظالمين ، ويفتح لكم ابواب النجاة والسلامة

وفي غداة سفركم جمع الجنرال دوجا الاعضاء الستين ، الذين يؤلفون الديوان
العام وأوصاهم أن يراقبوا الحوادث بعين الانتباه والحذر ، وزاد على ذلك قوله ان

الذين يسلكون سبيل العدل والحكمة يستحقون عفوك ورحمتك ، ولكن الذين يريدون بذربذور الشر والاضطراب ، عليهم تقع المصائب والويلات التي تأتي مما عملت أيديهم ، فأظهر الناس اعجاباً بهذه النصائح الحكيمة . وفي اليوم نفسه عاد واستدعى مشايخ الحارات والأسواق ووجهاء المدينة والاعيان ، وأذرعهم بأنه إذا أقدم أحد على تكبير السلام والأمن في الاحياء والأسواق ، فإنه ينزل العقاب على الرؤساء الذين لا يمتنعون ذلك وأوصاهم بمعاقبة الوشاة الذين يروجون الاخبار الكاذبة التي هي منبع الشر

وكان لهذه النصيحة وقع عظيم على سكان القاهرة ووزعت في ماناتكم الشريفة في الاقاليم وبفضل ما سبق أن اتخذتموه من التدابير الحكيمة انطبعت في العقول مقاصدكم الكريمة ومحت إلى الابد كل أثر من آثار العصيان والاضطراب وتنازلوا بافادتنا عن ما يجري من الحوادث ، وطمنوننا عن صحتكم وليحفظكم الله بحق شفاعته النبي عليه الصلاة والسلام

السيد خليل البكري	نقيب الاشراف
عبد الله الشرفاوي	رئيس الديوان
محمد المهدي	كاتب سر الديوان
علي كخيا المجدلي	عضو الديوان
السيد احمد المحروقي	»
يوسف فرحات	»
بودوف	»
يوسف باش جاويش	»
ميخائيل كحيل	»
لطف الله المصري	»
ولمار	»
جورج نصار	ترجمان
ذو القنار كخيا	قومسير الديوان

وهذا تعريب الرسالة الثانية

قال الله تعالى وقوله الحق « قل إن الأرض لله يرثها من يشاء والعاقبة للمتقين »
من ديوان مصر المحمية الى القائد العام للجيش الفرنسية ، صاحب العظمة
التي لا تحمد والروية ، وجامع الخلال السنيه المرضية ، أدامه الله ذخراً للضعفاء
والمساكين ، والعلماء المتقين ، وأظله بجايته السرمديه

بعد الدعاء بدوام مجدكم ، وطول بقائكم ، وتمنى عودتكم الميمونة الينا والسلام .
نشرف باخباركم اننا تلقينا كتابكم الشريف المتضمن أخبار الحوادث التي جرت
حينما وقعت يافا في أيدي جيوش الجمهورية الفرنسية ، وما أصاب أعداءكم من
الذل والانحجار ، وكان الافضل أن يكفوا عن مقاومة أوامركم العالية ، ويقبلوا
نهايئاً عن وسائل الخيلة والخداع ، والكذب والنفاق ، التي كانت سبباً لهلاكهم
ولكن متى حم القضاء عمى البصر ، ولا تنفع القوة والخيلة في دفع ما كتب في لوح القدر
وقد كتبنا أخبار هذه الحوادث وطبعتها ، وأفهمنا الأمة المصرية فخواها ،
وجعلناها تشعر بان لو دخل الجزائر الظالم أرض مصر لما أبقى على أحد ، ولا ميز
بين الصالحين والاشرار ، وظلمه لشعب سوريا أقوى دليل . وذكرنا لهم أن هذا
الطاغية من جنس المماليك وهم أصل نعمته ورفعته . ولكن الله الذي يقرأ ما في
الصدور ، فلا تخفى عليه خافية ، قد أنقذهم من جوره ، ولذلك فإن الأمة المصرية
تشكر بعد الله سبحانه وتعالى كبار علمائها الذين أسرعوا لاستقبالكم في الجيزة حين
مقدمكم السعيد ، والذين حصلوا لهم على حمايتكم العالية ، والنعم التي أعدتموها عليها
وهم يحمدون الله عز وجل على أنه لم يلهمهم ما لهم أهل يافا من التمرد والعصيان ،
لأن أهل مصر من غير شك أحسن عباد الله . وهكذا أذعنا هذه الأخبار التي
تشهد بملككم ورافتمكم

وقد أفنا لاستقبال الاعلام التي غنتموها في يافا احتفالاً عظيماً ، وكان النظام

فيه بديعاً ، وهرع الى هذا الاخفال جميع الاعيان والعلماء والتجار ، وسكان مصر حتى كان هذا اليوم فرحاً للعامة والخاصة . وحملنا هذه الاغلام الى الجامع الأزهر ورفعتها مع المصحف فوق المنابر والأبواب ، وباليات اهل يافا اقتنوا أثرنا ونسجوا على منوالنا ، فكانوا يدركون عظيم مكارمكم ولكن اذا أراد الله قصاص شعب ظالم فلا راد لمشيئته ، والويل لمن يخالف ارادته

وإذا أردتم الوقوف على حال مدينتنا السعيدة فهي في غاية السرور والاطمئنان والاخلاص . والجنرال دوجا ، وقائد الموقع ، ومدبر المالية العام ، والعلماء والشعب ، يعيشون على أتم وفق ، بعيدين عن الاضطرابات والوشايات ، ولا ينقصهم شيء غير وجودكم الميمون ، ولا ينفكون عن التضرع لله عز وجل أن يعيدكم قريباً اليانارافلين في حبل المجد والعز

وتقدم الف سلام للجنرال الكسندر برتية الذي نعرف مزاياه ورأفته ، ولصديق المساكين الشفوق العادل الترجمان الأول فنتور ، ولولدنا «الياس» (١) حفظه الله بشفاعه ابن عباس ، ولولدكم وتلميذكم أرجين (٢) ، الذي هو عندكم أعز من حذقة

(١) لا يعرف من هو وربما كان شخصاً من أتباع الامبراطور وحاشيته الخاصة وقد ورد اسم هذا الشخص في المذكرات التي وضعها رسمت - المملوك الذي أهدهم الشيخ خليل البكري نابوليون بعد عودته من سورية - بعد سقوط نابوليون . فقد قس علينا رسم هذا في مذكراته كيف كانت مقابله لأول مرة مع نابوليون فقال

« ذهب بن مسيو «الياس» الى الجبرال قبائلي في بهو الدار وكان أول ما عمله أن شد أذني ثم سألتني اذا كنت أستطيع ركوب الخيل الخ . »

واذن فالياس هذا المذكور في رسالة المشايخ الى بونابرت ، كان أحد رجال الحاشية أو الحجاب وبمناسبة هذه المذكرات نقول ان رسمته هذا تزوج في باريس من بنت «دوفيل» خادم جوزفين . فلما أفل نجم نابوليون رفض رسمته مرافقته الى جزيرة «ألب» وعاش أخيراً في «دوران» بلدة زوجته ومات وهو في السنة الرابعة والستين من عمره . وهكذا كانت خاتمة رسمته مملوك السيد خليل البكري سليل ابني بكر الصديق .

(٢) هو اوجين بوهارنيه ابن جوزيفين زوجة نابوليون بونابرت

العين . ولصرافكم أستاذ المعروف بغيرته وإخلاصه في خدمتنا ، ولكاتم أسراركم
بوربين ذو الصفات المدوحة حفظهم الله جميعاً

واننا ان لم نكن بحاجة للتوصية ، نوصيكم بالمعطف على أولاد مصر وسوريا
المساكين الذين أظهرتم لهم تلك الرأفة العظيمة . وليحرس الله سلامتكم وبعيدكم
الينا محفوفين بعنايته الربانية بشفاعه النبي عليه الصلاة والسلام

السيد خليل البكري	تقيب الاشراف
محمد المهدي	كاتم سر الديوان
عبد الله الشرفاوي	رئيس الديوان
ذوالفقار كخيا	قومسير
على كخيا المجذلي	عضو الديوان
يوسف باش جاووش	»
احمد المحروقي	»
ميخائيل كجيل	»
يوسف فرحات	»
لطف الله المصري	»
بودوف	»
ولمار	»
جورج نصار	ترجمان

الاحوال والحوادث في مصر

أثناء الحملة السورية

أى من ١٠ فبراير — ١٤ يونية سنة ١٧٩٩

سرنا وراء نابوليون في غزوته للبلاد السورية إلى أن عاد إلى الديار المصرية ، كما هو مفصل في الباب السابق . ولم نرد أن تقطع سلسلة التاريخ في ذلك الباب بذكر ما وقع في مصر من الحوادث والشؤون التي لها أهمية تاريخية ، واختارنا أن نخصص لها بحثاً يؤلف منشورها ويجمع شتاتها وقبل أن نأتى على الحوادث المختلفة نذكر أن نابوليون قد أحسن اختيار نائبه ، أو وكيله في مصر ، ونعني به الجنرال «دوجا» إذ يظهر من الخطة التي سلكها ذلك الرجل في إدارة شؤون مصر ، ومن تناوله الحوادث المختلفة ، وتصريفه أمورها ، أنه كان على جانب عظيم من القدرة السياسية ، مع تودة وأناة وحلم وحسن روية ويقظة تليق بالحاكم الحكيم . ولقد كان سلوكه مع أهالي المنصورة والمنزلة بعد ثورة الشيخ حسن طوبار ، جديراً بالثناء والاعجاب ، ولعل سياسته في ذلك الظرف هي التي أهلتها في نظر نابوليون ورشحته لتولى الزعامة في غيبته . وكان الفرنسيون في حاجة إلى رجل لين في غير ضعف ، شديد في غير عنف ، مثل الجنرال دوجا ، في الوقت الذي غادر فيه نحو نصف الجيش الفرنسى أرض مصر إلى سوريا ، والذي هدد فيه للمالك وعرب الحجاز ، بل وعرب الغرب ، أرض مصر من جميع الجهات ، فكان من المحتم على مديري الامور منهم ، ولادة وحكاماً ، أن يتوددوا ويتلطفوا مع المصريين وأن يعاملوهم بأحسن أساليب المعاملة ، مع المحافظة الدقيقة على تقاليدهم وعاداتهم . وكان من خير المساعدين للجنرال دوجا في مهمته الشاقة ، مسيو بوسيلج مدير الامور المالية الذى كان يسميه الجبرتي « بوسليك الروزناجى » والجنرال دوستين ، الذى كان حاكماً للقاهرة ، وكان يلقب بالقائمقام

وكانت إدارة أمور الوجه القبلي وملاقة حوادثه العصبية ومحارباته العنيفة مع مراد بك وحسن بك الجداوى وعثمان بك الشرقاوى ، وعرب الحجاز تحت زعامة الشريف الجيلانى ، موكولة إلى الشجاع الباسل الجنرال ديزيه الذى وطد سلطة الفرنساويين فى الوجه القبلي من الجزيرة إلى اسوان

وقد أحسن الجنرال درجا السياسة مع المصريين فى العاصمة واهتم بالأمور الصغيرة والكبيرة حتى اكتسب ثقة المشايخ والاعيان والمصريين عامة . فمن ذلك أن نابليون لما برح مصر إلى سوريا فى الخامس من شهر رمضان اجتهد الفرنساويون بإرشاد الجنرال دوجا فى أن يسلكوا مع المسلمين سلوكاً لائقاً بالأداب الاسلامية فى ذلك الشهر ، وأصدروا الأوامر المشددة للمسيحيين من أقباط وشوام بأن يحافظوا على التقاليد المرعية فى السنوات السابقة ، وبأن لا يتجاهروا بالأكل والشرب فى الأسواق ، ولا يدخنوا التبغ ولا يلبسوا العمام البيض والشيلان الكشمير إلى غير ذلك من التقاليد المرعية فى تلك الايام . ثم أخذ الفرنساويون يزورون المسلمين فى ليالى رمضان « ويدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور ويعملون لهم الولائم ، ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعاداتهم ، ويتولى ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطميناً لخواطرهم ، ويذهبون أيضاً ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم وقت الافطار ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم ، ووقع منهم من المسيرة للناس ، وخفض الجانب ، ما يتعجب منه » : وقال الشيخ الجبرتى صاحب السكامة المتقدمة « وانقضى شهر رمضان ووقع فيه السكون والطمانينة وخلو الطرقات من العسكر واختفائهم بالليل جملة كافية وانفتاح الأسواق والذهاب والحجى ، وزيارة الاخوان ليلا والمشي على العادة بالقوانين ودونها واجتماع الناس للسهر فى الدور والقهاوى ووقود المساجد وصلاة التراويح وطواف المسحورين والتسلى بالرواية والنقول وترجى المأمول وانحلال الاسعار » ثم قال « ولما كان يوم العيد أطلق الفرنساويون المدافع تكريماً واجلالاً وطافوا على أعيان البلد للتهنئة والتبريك والمجاملة ... إلى غير ذلك من الحال الاجتماعية التى تدل على تلطف

الفرنساويين ، وسلوكهم مسلك الحكمة والسياسة بفضل دهاء الجنرال دوجا وفطنته
ومما يجب ذكره في باب الاعمال الطيبة التي تمت في تلك المدة ، إنشاء أول
جسر على نهر النيل بين الجيزة والقاهرة وقد أنشئ ذلك الجسر في النقطة التي
يوجد فيها الآن كبرى عباس . قال الجبرتي « وضع فرنساويون جسراً من
مراكب مصطفة وعليها أخشاب مسمرة من بر مصر بالقرب من قصر العيني إلى
الروضة قريباً من موضع طاحون الهواء تسير عليه الناس بدوابهم وأنفسهم إلى البر
الأخر وعملوا كذلك جسراً عظيماً من الروضة إلى الجيزة »

وكذلك ذكر مع الثناء على الجنرال دوجا ورجاله تلك الاحتياطات الصحية
الشديدة لمنع انتشار الطاعون وتفشيهِ في البلاد ، إذ أصدروا الأوامر الصريحة
للأهالي ونشروا المنشورات في الطرق والجهات المختلفة وقرروا العقوبات الصارمة
لمن يتهاون في أمر الطاعون وعدواه . ولعل تلك الاحتياطات الصحية كانت
الأولى من نوعها في هذه الديار لوقاية أهلها من أوبئة الطواعين التي فتكت بأهلها
فتكا ذريعاً في أوقات عديدة (١)

ويجمل بنا أن نقول هنا إنه كان من المحتمل ، لو ترك فرنساويون وشأنهم
مع المصريين ، ولم توجد لهم انجلترا القلائل والمشاكل وساروا بلقطة سيرة دوجا
خلال الحملة الشامية ، أن تتوطد بين الفريقين دعائم الودق والنفاهم
أما الحوادث المهمة التي وقعت في مصر في الحملة السورية فتتخصر في المسائل
الآتية . —

١ — ثورة أمير الحج

٢ — ثورة المهدي بمديرية البحيرة

٣ — المخبرات مع أمراء المسلمين

٤ — حروب ديزيه مع مراد بك والمالِك وعرب الحجاز في الصعيد

ومنشرح مع الإيجاز المفيد تلك المسائل واحدة واحدة

(١) راجع ما كتبناه عن الطواعين في المقدمة الأولى

١ - مسألة أمير الحج

كانت وظيفة إمارة الحج من الوظائف الكبرى في القطر المصري وكان لا يتقلدها إلا كبار الامراء من المماليك. وهذه الوظيفة مرتبات ثابتة وأوقف كثيرة فلما قدم الفرنسيون إلى مصر كان أمير الحج صالح بك من أتباع مراد بك، قدماً بالحمل والحجاج المصريين من الاقطار الحجازية وحاول نابوليون أن يستدعيه إلى القاهرة كما سبق لنا ذكر ذلك فرفض وانضم إلى ابراهيم بك عند بلدة بلبليس وسافر معه إلى الاقطار الشامية وتوفي بها في تلك السنة. ولكن يؤيد نابوليون للمصريين إنه محافظ على تقاليدهم الدينية وعاداتهم الاسلامية، ارتأى أن يسند وظيفة إمارة الحج للمدعو مصطفى بك الذي كان في وظيفة كستخدائية الباشا أو وكيله أو نائبه. قال المعلم تقولا الترك في حوادث الايام الاولى من احتلال الفرنسيين « ثم ان أمير الجيوش أحضر مصطفى أغا كستخدا با كبير « بكر » باشا وأمنه وألبسه فرواً وجعله أمير الحاج وأمره أن يباشر لوازم الحج وما يحتاج اليه، وقاله، لماذا الوزير فرهار با مع المماليك؟ ألم يعلم أننا متحدون مع الدولة العثمانية ونحن ما حضرنا هذه الديار إلا باذن السلطان. ثم أمر أن يجرر إلى بكر باشا وأن يرجع إلى القلعة كما كان، وله الكرامة والامان» وظاهر من هذا أن نابوليون تعطف على مصطفى بك وأحسن اليه وقلده أكبر المناصب

وقد بحث كثيراً على اهتدى إلى ترجمة لمصطفى بك هذا في مجلدات الجبرتي أو في سواه فلم اعثر على اسمه الا في وقت اختياره لإمارة الحج. ويغلب على الظن انه كان من المماليك، وانه كان في وقت من الاوقات أغتال الانكشارية « قومندان وجاق أي فرقة الانكشارية » ثم تولى كستخدائية الباشا، وبقي بعد دخول الفرنسيين مقرباً منهم وقد عهدوا اليه تشغيل الكسوة الشريفة ومنحوه مرتبات ومخصصات إمارة الحج وجعلوه اميناً على ممتلكات الباشا الولى التي لم يمسوها بسوء. فلما قصد نابليون القارة على سوريا إختار كما ذكرنا من المشايخ مصطفى الصاوي وسلمان الفيومي والدواخلى والعريشى لمراقبته، وأختار معهم مصطفى بك.

امير الحج وأدم افندى بجمعتشى زاده قضى القضاة . وكان النظام الذى رسمه لهم نابوليون هو ان يسبقهم بمرحلة . فلما وصل الى الصالحية كانوا هم فى بلبيس . ولما برح الصالحية طلب اليهم ان ينتقلوا اليها . قال الشيخ الجبرتى « فبلغهم وقوف العرب بالطريق فخافوا من المرور فذهبوا الى العرين » كذا « فاقاموا هناك واخذ عسكر الفرنسيس جالم فأقاموا مكائهم فقلق المشايخ الدواخلى والصاوى والعريشى وخافوا سوء العاقبة فمارقوم وذهبوا الى العرين، وتخلف الفيومى مع كتخدا الباشا والقاضى » وذكر الجبرتى أيضاً ان الشيخ انصاوى والعريشى والدواخلى وآخرين خافوا عاقبة الأمر ، وذهبوا الى القرين « بالقاف » وحصل للدواخلى توقعك وتشويش » وقال أيضاً « واتفق ان الشيخ الصاوى ارسل الى داره مكتوباً وذكر فى ضمنه ان سبب افتراقهم من الجماعة انهم رأوا من كتخدا الباشا اموراً غير لائقة ، فلما حضر ذلك المكتوب طلبه الفرنساوية القيمون بمصر وقرأوه وبخثوا عن الأمور غير اللائقة فأولها بعض المشايخ انه قصر فى حقهم والأعتناء بشأنهم فسكتوا وأخذوا فى التفحص فظهر لهم خيائته ومخامرتهم عليهم » .. وزاد الجبرتى على ما تقدم ايضاحاً لحوادث ١٧ منه ، إلا انه لم يذكر لنا غرضه من عبارة تخوف المشايخ الثلاثة « سوء العاقبة » ، سوى قوله « ان الفرنساويين ظهرت لهم خيانة مصطفى بك وعصيانه »

وحقيقة ما وقع من مصطفى بك ، كما يؤخذ من أقوال المؤرخين الفرنسيين ومن عبارات الجبرتى المتقطعة ، ومن روايات العلم قولاً المتبصرة ، ان مصطفى بك لما كان فى جهة الشرقية وصلت اليه أنباء من احمد باشا الجزائر ، ومن رئيسه السابق بكر باشا يخبرانه فيها ان الجيش العثمانى قادم لتخليص مصر من جهات شتى ، وخيل له ان نابليون قد ذهب بجيشه الى سوريا وأنه يستطيع بما له من مركز امارة الحج ، ومن صفة الوكالة عن والى الدولة فى مصر ، ان يشير على الفرنسيين حرباً عواناً ، فأثر على القاضى الذى سبق لنا وصفه بالضعف والخور فى حوادث ثورة القاهرة ، وأراد ان يؤثر على المشايخ الأزهريين ، وهم حريصون دائماً على رعاية صولهم ، فلم يتأثر

بعض التأثير إلا الشيخ سليمان الفيومي وعاد الثلاثة الآخرون للقاهرة، وانتقل مصطفى بك والقاضي والشيخ الفيومي وبعض التجار والجند الوجافلية الذين كانوا معهم، ونادوا بالجهاد وخلص البلاد، وفي حوادث يوم ١٧ شوال، يقول الجبرتي « ان مصطفى بك انتقل ومن معه الى كنفور نجم، ثم الى منية غمر ودقوس وبلاد الوقف، وانضم اليه الجبالى وبعض العرب العصاة، فأكرمهم وخلع عليهم وأخذ يقبض الأموال. وحين كانوا على البحر (يريد على نهر النيل في جهة ميت غمر) مرت بهم سفن تحمل الميرة والدقيق الى الفرنسيس بدمياط، فأغتصبوا تلك السفن وأخذوا ما فيها قهراً »

والخلاصة ان مصطفى بك قلب للفرنسا وبين ظهر المجن وبأدهم بالعدوان اعتماداً على قدوم جيش الجزائر و ابراهيم بك من سوريا، فأمتد هيب الثورة في مديرتي الشرقية والدقهلية. قال لاكروا « وهو ناقل عن كتاب برتران باملاء نابليون » ان مصطفى بك امير الحج وصلت اليه رسائل من الجزائر بأن يونابرت قد قتل، وان الجيش العثماني محيط بالجيش الفرنسي، فرفع مصطفى بك راية العصيان جهاراً، وأصدر منشوراً يحرض اهالى مديرية الشرقية على الثورة، وذكر في ذلك المنشور، ان يونابرت قتل وان جيشه قد تبدد. فانضم اليه بعض الأهالى حتى بلغت قوته نحو خمسمائة من المشاة ومثلها من الخيالة. فلما وصلت الأخبار الى القاهرة، اصدر الجنرال دوجا أمره الى الجنرال لانوس حاكم إقليم المنوفية بمطاردة مصطفى بك والقضاء عليه، فصدع بما أمر، وبعد عناء ومشاق ومقابلات عديدة، تفرقت قوة امير الحج شذر مذر، وفر هو هارباً الى دمياط. وبحث لانوس عن القرى التي اشتركت في الثورة وأحرقها، لتكون لغيرها مثلاً وعبرة. وقد قال نابليون في خطابه الى حكومة الديركنتوار المؤرخ ١٨ يونيه رأى بعد أربعة أيام من وصوله الى القاهرة) « وهكذا فقد ذلك الرجل — يريد مصطفى بك — في يوم واحد جميع الخيرات التي نالها على يدنا واصبح مشرداً مطروداً من وطنه، بعيداً عن أسرته، التي لا تزال بالقاهرة، وفقيداً لكل كرامة واجترام »

وذكر الجبرتي في حوادث ٢٤ شوال ، ان الفرنسيين صادروا ممتلكات مصطفى بك وقبضوا على كتبخانه الذي كان ناظراً على الكسوة وأخذوا ما تركه بكر باشا من الأمتعة والملابس والسروج والخيل والجمال . قال « فتنقضت خواطر الناس لذلك لأنهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضي ويتوسلون بشفاعتهما عند الفرنسيين وكتبهما عندهم مقبولة وأوامرهم مسموعة » . فليتأمل القارىء في الغرض من قول الجبرتي « وكان الناس مستأنسين بوجود القاضي وأمير الحجج » كأنما كان وجود هذين الرجلين الممثلين للسلطة العثمانية خير ضمان للمصريين من الاحتلال الفرنسي ؟ : أو كأنما كان وجودهما يمثل في نظر القوم في ذلك الزمن ما كان يمثله وجود الغازي احمد مختار باشا في زمن الاحتلال الإنجليزي : أم ليت شعري ماذا اراد الجبرتي من معنى الاستئناس بوجود ذينك الرجلين ؟ وقد سبق لنا ذكر القاضي واخلاقه ، فلنضرب عنه صفحاً . وأما مصطفى بك هذا فلم يكن من أهل المروءات ولا من ذوى الكفايات ، يدلك على هذا بقاؤه في مصر وعدم سفره مع رئيسه ، كما يدلك على انحطاط نفسه وجبنه ، ان المنشورات التي بعثت بها الدولة الي مصر ، وهي التي جئنا على نصها العربي في صحيفة ٢٦٨ وصلت الي مصطفى بك فأخذها هذا وذهب بها الي نابليون يتقرب اليه ويتملق^(١) . ومن دلائل سخافته وضعف خلقه انه بعد ان أغرى القاضي وأضر به وباولاده وأمرته ، وبعد أن سبب الأذى للأهالي الذين عضدوه ، وحرقت قراهم ، وصودرت أملاكهم ، يكتب الي الفرنسيين متملقاً مستعظماً ، فقد ورد في حوادث يوم الثلاثاء ٢٦ شوال في الجبرتي ما نصه حرفياً « وفيه حضر امام كتبخدا الباشا (الأمام الذي يصلح به) ومعه مكتوب فيه الثناء على الفرنسيين ، وشكر صنيعهم واعتنائهم بعملمهم موكب الكسوة والدعاء لهم وانه مستمر على مودته ومحبهته معهم . وفي آخر المكتوب وان بلغكم من المنافقين عنا شيء فهو كذب ونميمة » . قال فقري ، كتابه بالديوان فلما فهمه الفرنسيين كذبوه ولم يصفوا اليه ، وقلوا ان خيائته

(١) جبرتي من ٢٨ جز ٣٠ طبعة ميري

ثبتت عندنا فلا ينفع الاعتذار ، وكتبوا له انه ان كان صادقاً في مقالته فليذهب الى سارى عسكر بونابارت بالشام ، وأمهلوه ست ساعات بعد وصول الجواب اليه ، وبعدها يأمرن العساكر بمطاردته والقبض عليه . ثم اصدر الجنرال دوجا منشوراً للمصريين يعلمهم بعزل امير الحج ويثني على المصريين لعدم اشتراكهم في تلك الفتنة ويشير على الحجاج بمرافقة الكسوة والصرة . . . الخ

ولم يعرف الجبرتي ماجرى على مصطفى بك سوى انه ذكر انه ربما رحل الى الشام ، ولكن المعلم تقولاً روى ان مصطفى بك فر الى غزة ومنها الى عكا . فلما دخل على الجزائر ، قال انت الذى كنت اغاة الانكشارية وأمير الحج (يريد عند الفرنسيين) قال نعم ولكنى هربت منهم وأتيت اليك ، فقال الجزائر ، ما انت إلا جاسوس ثم أمر بقتله »

وهكذا كانت خاتمة مصطفى بك كتمخدا الباشا وأمير الحج وزعيم هذه الثورة أما الشيخ سليمان الفيومي الذى اشترك مع مصطفى بك أمير الحج فى هذه الثورة أو سار معه شوطاً بعيداً فيها ، فلم أعتز على ما يثبت أن الفرنسيين عاقبوه أو عنفوه ، لاسيما وانه عضو فى الديوان الخصوصى ومن كبار هيئة العلماء ، ولم يذكر الجبرتي عند ذكره الفيومي فى وفيات سنة ١٢٢٥ هجرية ، - وهى السنة التى توفى فيها الشيخ سليمان الفيومي أى بعد هذا التاريخ بنحو ثلاثة عشر عاماً - شيئاً عن هذه الثورة وانضمامه الى القائم بها : بل بالعكس قال عنه « أنه لما طوقت الفرنسية البلاد المصرية وأخرجوا منها الامراء وخرج النساء من بيوتهن ، وذهبن الى داره أفواجاً أفواجاً حتى امتلأت داره وما حولها من الدور بالنساء ، فصدى هن وتداخل فى الفرنسية ودافع عنهن ، وأقن بداره شهوراً ، وأخذ أماناً لكثير من الاجناد ، وأحبه الفرنسية وقبلوا شفاعته ويحضرون الى داره ، ويعمل لهم الولائم ، وساس أموره معهم وقرروه فى رؤساء الديوان الذى رتبوه لاجراء الاحكام » وقال أيضاً :

« وما نظموا أمور القرى والبلدان المصرية على النسق الذى جعلوه ، ورتبوا

على مشايخ كل بلد شيخاً ترجع أمور البلدة ومشايخها اليه ، جعل الشيخ سليمان الفيومي شيخاً للمشايخ ، مضافاً ذلك لمشيخة الديوان وحاكمهم الكبير فرناوى . يسمى « ابريزون » ، فازدحت داره بمشايخ البلدان ، فيأتون اليه أفواجا وينهبون أفواجا ، وله مرتب خاص خلاف مراتب الديوان واستمر معهم في وجاهة الى أن اقتضت أيامهم وسافروا الى بلادهم ، وحضرت العثمانية والوزير يوسف باشا كان الشيخ في عداد العلماء المتصدرين « اه

وغرضنا من نقل هذه الشذرات ، من ترجمة حياة الشيخ سليمان الفيومي ، لإظهار حالة العلماء وتصرفهم مع الفرنسيين ، واستفادتهم من تلك الظروف ، وأردنا كذلك أن نلفت النظر الى الفقرة الخاصة بالنظام الذى وضعوه لمشيخة البلاد فان هذا البيان الذى ذكره الجبترى عفوياً ، فى ترجمة الشيخ سليمان الفيومي ، لم يذكر فى الكتب الفرنسية ولا فى غيرها ، حتى لقد صعب علينا رد الاسم الفرنسى - « ابريزون » - الى أصله (١)

٢ - ثورة المهدي فى مديرية البحيرة

دعوى المهديوية قديمة العهد فى الاسلام ، ولطالما جلبت على المسلمين من أسباب المشاكل والحروب والريزايا واتحزبات والانقسامات ، مالا تزال ذكره مؤلة لنفوس المسلمين . وقد حدث فى أواخر شهر ذى القعدة من سنة ١٢١٣ هجرية ، أن رجلاً مغربياً لم يذكر لنا واحد من المؤرخين اسمه ، وكل ما ذكره الجبترى عنه لا يتعدى بضع سطور نأتى على نصها قبل شرح ثورته ودعاويه الطويلة العربية ومحارباته للفرنساويين أياماً عديدة . قال الجبترى فى ختام أخبار شهر ذى القعدة « ومن حوادثه أن طائفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الغز ، جاءوا وضمروا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيين وعانوا فى نواحي تلك البلاد حتى وصلوا الى الرحمانية ورشيد ، وهم يقتلون من يجدونهم من الفرنسيين وغيرهم ، وينهبون

(١) عثرت فى اللحظة الاخيرة فى كتاب ألفه مسيو جورج ريجول George Rigault (Docteur ès Lettres) عن الجنرال عبد الله منو والمدة الاخيرة عن الحملة الفرنسية فى مصر — عن النظام الذى وضعه الجنرال منو لمشايخ البلاد والذى جعل به الشيخ سليمان الفيومي شيخاً للمشايخ بالاشتراك مع مسيو بريزون (Brizon) — ولما كانت هذه البيانات خاصة بالجزء الاخير من الحملة فترك مسكتها فيه

البلاد والمزروعات . ثم قال في حوادث ٣ من شهر ذي الحجة « ونجم كثير من الفرنسيس وذهبوا الى جهة دمنهور وفعولوا بها ما فعلوا في بني عدى من القتل والتهب لسكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربي يدعي المهديوية ، ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد ، وصحبته نحو الثمانين نفرأ . وكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم للجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا الى دمنهور وقتلوا من بها من الفرنسيس واستمر أياماً كثيرة يجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفترق ، والمغربي المذكور تارة يغرب وتارة يشرق » اهـ

هذا كل ما ذكره الجبرتي عن ثورة المغربي المدعي المهديوية في مديرية البحيرة . واضطراب روايات الجبرتي وتقصها راجع الى أنه مقيم في القاهرة وان الفرنسيس ، لمقتضى السياسة ، يمتنعون تسرب الاخبار الصحيحة عن الثورات والحوادث في داخلية البلاد . والظاهر من رواية المؤرخين الفرنسيين أن ثورة هذا المغربي استفحل أمرها وعظم شأنها حتى اضطربوا لأمرها . أما المعلم فقولا فلم يذكر كلمة واحدة عن حوادث هذه الثورة

وخلاصة ما كتب الفرنسيون في هذا الصدد هو أن ذلك الرجل المغربي كان من أهالي « درنه » من ولاية طرابلس الغرب وانه اشتهر بالتقوى والصلاح بين قومه حتى كبر اعتقادهم فيه فادعى المهديوية ، وكان رجلاً جريئاً فصيح اللسان ، قوى الجنان يدعى أنه لا يأكل ولا يشرب ، وان الملائكة تغذيه ونحميه وخرج ذلك الرجل من بلده وليس معه إلا خمسة وعشرون رجلاً فلما وصل الى واحة سيوة وجد بها قافلة من الهجاج المغاربة فيها نحو اربعمائة رجل من الاشداء الاقرباء والمسلحين فخطب فيهم وحرضهم على الجهاد ضد الكفار

قال اولئك المؤرخون إنه في ما بين ٢٤ و ٢٥ ابريل سنة ١٧٩٩ « الموافق ١٨ القعدة » انقض ذلك المغربي على رأس نحو ستماية رجل على مدينة دمنهور فاستولى عليها بقتة ، وقبض على من فيها من الجنود الفرنسيين وقتل بهم قتلاً وذبحاً من أولهم الى آخرهم ، واستولى على سلاحهم وعلى مدافع كانت معهم ، فلما اشيع أمر انتصاره هذا في مديرية البحيرة هرع اليه الناس من كل فيج ، وكبر اعتقادهم

فيه فاستفحل أمره ، وعظم شأنه، وغلا في دعاواه ، فكان يقول إن رصاص الكفار وسيوفهم لا تنال منه شيئاً وأنه يذر الرماد في عيون الفرنسيين فيقتلهم ، الى غير ذلك من دعاوى الكرامات التي بني عليها أمثاله ترهاتهم وخزعبلاتهم وشهرتهم، وبلغ عدد الذين انضموا تحت لوائه، على رواية الفرنسيين، أكثر من اربعة آلاف مقاتل ، ولكن ليس فيهم سوى خمسمائة رجل مسلحين ، وكان في الرحمانية فرقة من الجند الفرنسي تحت قيادة الضابط ليفيقر «Lefebvre» فلما اتصلت به أخبار استيلاء المهدي على دمنهور وقتله حاميتها الصغيرة ، سار بقوة مؤلفة من خمسمائة جندي بسلاحهم الوافر لملاقاة المهدي والقضاء عليه . ف وقعت بين الفريقين معركة كبيرة بين دمنهور والرحمانية ، فقتل من الفلاحين العزل من السلاح خلق كثير إلا أن الثائرين تمكنوا بكثرتهم من الالتفاف حول القوة الفرنسية وقتلوا منها عدداً كبيراً فاضطر الضابط « ليفيقر » بعد معركة دامت عدة ساعات الى الانسحاب والالتجاء الى الطابية القائمة في الرحمانية

ولما وصلت أخبار هذه الثورة الى القاهرة اضطرب الجنرال دوجا وأصدر أمره للجنرال لانوس الذي كان مكثراً بمطاردة مصطفى بك امير الحج ، بأن ينتقل بالقوة التي معه الى البحيرة وأصدر أمراً ثانياً للجنرال فوجير « Fugiere » حاكم إقليم الغربية بالسير بقوة كافية الى الرحمانية . فوصل الى تلك النقطة في ٥ مايو ، ورح الجنرال لانوس ميت غمر في ذلك اليوم وانضم الى القوة المحاربة في الرحمانية يوم ٩ من ذلك الشهر ، وتولى لانوس قيادة الجند التي تحت رياسة فوجير وليفير وسار بتلك القوة الكبيرة قاصداً دمنهور فدخلها في اليوم التالي (١٠ مايو) وكان الجند الفرنسي قد بلغ منه الخنق والغیظ مبلغاً شديداً فأخذ يقتل بالاهالي فتسكا ذريعاً ، انتقاماً على رأيهم للذين قتلوا من حاميه دمنهور . قال « لاكرو » ما نصه : « ولما كان أهالي دمنهور قد اشتركوا في الثورة وضرربوا مثلاً سيئاً لأهالي البحيرة لذلك قضى عليهم رجالاً ونساء واطفالاً بالقناء قتلاً بحد السيف واشعلت النار في دمنهور حتى احترقت عن آخرها ولم يبق من دورها ومساكنها غير أطلال قائمة ، وأحجار قائمة ، وجثث هامدة »

وكان أول الماربين الفارين من تلك الواقعة المحزنة ذلك التقى الورع صاحب
السكرامات والآيات اليبينات، الذي نحرسه الآلهة، وتغذيه الملائكة، ولا يمتيه السيوف،
ولا تحرقه الزيران؛ انتهز ذلك الكاذب المنافق فرصة دفاع الأهلين عن أولادهم
وأعراضهم وما يمتلكون من حطام الدنيا، وفر مع جماعة من أتباعه على ظهور الخيل
إلى حدود الصحراء من شمال مديرية البحيرة، تاركاً وراءه أولئك المساكين
يتجرعون غصص الموت، ويرون بأعينهم حشاشات أفئدتهم، وفلذات أكبادهم
تذبح على سفار السيوف وتحترق في لهيب النار!

وجرم جرّه سفهاء قرم فخلّ بغير جانيه العقاب

ولكن ذلك المفتون لم يسلم من يد القصاص العادل لأن الجنرال لانوس
لم يكف بتبديد شمل تلك القوى المهدرية، بل سار بقوة كافية لمطاردة الفارين
حتى أدرك في العشرين من شهر مايو « المهدي المنتظر » عند الصحراء، وهناك
اخترقت صدره رصاصة فسقط يتضرج في دمايته

ومن غرائب مقتضيات الجهل أن أولئك المغاربة والعربان المفتونين بمهديهم
لم يريدوا أن يعتقدوا أن قائدهم قد مات بل تفرقوا شذر مذر عصابات وجماعات
في أنحاء البلاد يوهمون الناس أن المهدي لم يموت وإنما قد اختفى وهو يجارب بسيفه
البتار، من وراء ستار! .. اه رواية الفرنسيين

ما تقدم من رواية ذلك المغربي السائر ضد الفرنسيين مستقى من المصادر
الفرنسية التي لم يكن لدينا سواها، ولكنني عثرت في اللحظة الأخيرة على بيان من
مصدر موثوق بصحته وروايته، لأنه أولاً مصدر محايد، وثانياً شاهد عيان. وصاحب
هذه الرواية هو الكولونيل روبرت توماس ويلسون الأنجليزى أحد ضباط الحملة
الانجليزية التي قدمت لمصر تحت قيادة الجنرال أبر كرومي للاشتراك مع الجيش التركي
في إخراج الفرنسيين من أرض مصر

فقد وضع الكولونيل ويلسون كتاباً ذا قيمة تاريخية عظمى عن تلك الحملة^(١)

(1) History of The British Expedition to Egypt by Robert Thomas Wilson Lieut. Colonel. — London 1803

روى فيه أن الذي يسميه الفرنسيون « المهدي » صاحب الثورة في البحيرة لم يقتله الفرنسيون وأنه اجتمع بالجيش الإنجليزي بالقرب من الرحمانية وصار معه حتى وصل الى القاهرة، وأنه لم يكن شخصاً عادياً بل كان أحد أمراء المغرب الأقصى واسمه مولاي محمد. وقد أطال السكولونيل ويلسون في وصف ذلك الرجل فقال عنه انه اجتمع به وأنه رجل مهيب الطلعة، حسن البزة، نبيل النزعة، وانه رأس الحركة الثورية التي قلمت في دمنهور في غيبة نابوليون في سورية. قال « وكان يركب فرساً عربية من أجمل الجياد التي وقعت العين عليها وكانت عمامته وجبته ناصعتي البياض، موشاة حوافيها بالذهب وتندلى على كتفيه شراريب من الدمقس الاحمر، الى غير ذلك من جميل الملبس وجليل الخلق »

فمن يكون هذا الأمير المغربي مولاي محمد؟ ذلك ما لم أتمكن من تحقيقه وغاية ما وصل اليه بجثي انني عثرت على الرواية الآتية في الجبوتي، وهي قبل قدم الفرنسيين الى مصر بنحو سبع سنوات، إذ قال في اخبار ١٣ رمضان سنة ١٢٠٦ هجرية ما يأتي: « وفيه حضرت صدقات من مولاي محمد صاحب المغرب ففرقت على فقراء الازهر وخدمة الاضرحه والمشايع المفتيين والشيخ البكري والشيخ السادات والعمرين على يد الباشا بموجب قائمة ومكاتبة »

وهذا النبأ وحده من بين أنباء الجبوتي ورواياته في مجلداته الأربعة يثبت أنه كان هناك من امراء المغرب أمير يدعى « مولاي محمد »، وانه كانت له صلة بمصر، وأنه كان يرسل الصدقات الى العلماء والمشايع وطلاب العلم في الازهر الشريف. فاذا ضم هذا الى رواية ويلسون الذي قابله وراه وحادثه ووصفه كما عرفه، كان من المحقق أنه لم يكن رجلاً مشعوذاً، وأنه قدم مصر بغنة بجماعة من عرب الصحراء الغربية وأهل الغرب لمحاربة الفرنسيين عن غير دينية، وانه لم يقتل كما روى كتاب الفرنسيين الذين أجمعوا على اخلاصة التي تقدم بيانها.

وكان من سوء حظ الفرنسيين أن عصابة من تلك العصابات المقتونة طوحت بها خاتمة المطاف، بعد ذلك التاريخ بنحو شهر من الزمان، الى جهة بحيرة ادكو وكان الجنرال دومارتين « Doumartin » وهو من أكبر القواد الفرنسيين ورئيس

فرق الطوبجية ومن كبار المهندسين، وهو الذي أخضع ثورة القاهرة الاولى كما يذكر القراء بمدافعه التي سلطها على المدينة من تلال البرقية والمرتفعات المحيطة بها» ، — يسير في قارب مسلح ووجهته الاسكندرية للوقوف على كيفية تحصينها وخطط الدفاع عنها ، و يظهر أنه كان موفداً من قبل نابوليون لأداء هذه المهمة بعد عودتهما معا من سورية ، أي بعد ١٤ ، يونيه بقصد التثبت من قوة الدفاع عن شواطئ مصر خوفاً من الاساطيل الانجليزية والعمانية القادمة بجيش مصر . كان ذلك القائد الكبير يسير في ذلك القارب فالتقت به عصابة مشردة من عصابات ذلك المهدي فصبت عليه ومن معه في القارب ناراً حامية قضت على أكثر من نصف البحارة وأصيب (دومارتين) بعدة رصاصات ، فنقل بها جريحاً الى رشيد ومات بسببها في التاسع من شهر اغسطس فحسر الفرنسيون بموته خسارة كبيرة . وتولى مكانه في رئاسة الطوبجية الجنرال سونجي « Songis »

ولا نجد مناصراً من تذكير القراء بما كتبناه عن ثورة القاهرة وما يجلبه أولئك الأفاقون مثل بدر المقدسي السوري ، وذلك المهدي ، أو الامير المغربي ، على الاهالي الآمنين المطمئنين ، من البلايا والمصائب ، كما حصل لأهالي دمنهور ، وكا وقع لسكان القاهرة من قبلهم . ولا زلنا نقول ونكرر انه مع شديد رغبة الناس في انخلاص من الحاكم الاجنبي ، فان مصلحتهم وظروفهم تقضى عليهم بالتزام السكينة والابتعاد عن القلاقل مالم تتكافأ القوى ويضمن الفوز ، ولا يفيل الحديد إلا الحديد . وكانت تلك المصلحة وتلك الظروف تقضيان على الحاكم الاجنبي من جانب آخر أن يدرك شعور العامة ولا يمكن المهيجين المفتونين من إثارة الخواطر بالضرب على الاوتار الحساسة من العواطف القومية ، وأن يسلك مع الذين قتر عليهم القضاء بالوقوع تحت سيطرته مسلك الحكمة والعدل والانصاف ، وأن يدع لإدارة أحكام البلاد في أيدي أبنائها حتى لا يشعر الاهلون بثقل وطأة السلطة الاجنبية . فبذلك — وبه وحده — يقفل باب التحريض والتهبيج في وجوه طلاب الصيد في المياه العكرة ، ممن لاناقة لهم في البلاد ولا جمل .

٣ - المخبرات مع أمراء المسلمين

كانت حملة نابوليون على سورية مدعاة للتأثير العظيم على العالم الاسلامي ، لان محاربة الدولة العثمانية في سوريا بجيش مدرب تحت قيادة رجل مثل نابوليون بونابارت كان من شأنه أن يبعث الوجل والاضطراب في قلوب أمراء المسلمين ، الذين كانوا تابعين للدولة العثمانية اسما وكانوا يتحينون الفرص للخلاص من سيطرتها المركزة في القسطنطينية - تلك السيطرة التي كانت تخول لها ارسال الولاة الظالمين المتعطسين الضالين الى ولاياتها المختلفة . ولهذا الاسباب كان كبار الامراء وذوى العصية من ولايات الدولة العثمانية ينظرون الى نتيجة الحملة الفرنسية في سوريا لينضموا ، أولشايعوا ، أو ليظهروا الولاء للغالب ، أملا في الخلاص ، ووسيلة للاستقلال عن الاسطانة . وكان من هؤلاء الامير بشير الشهابي وأمثاله في فلسطين وسوريا ، ومنهم أيضاً أمير مكة الشريف مسعود بن غالب

وقد سبق لنا أن ذكرنا ^(١) أن نابوليون انتهز فرصة موسم الحج فأرسل خطابا الشريف مكة يذكر له فيه استيلاءه على مصر ويدعوه الى المصادقة ، ويظهر أن الشريف غالب لم يحفل باراد على نابوليون ، ولكنه حين علم أن الفرنسيين قلموا بحملة على سورية وأخذوا يهاجمون عكا ، وانه مما يدخل في حيز الممكنات أن تنفك عرى الدولة العثمانية ، بعث بخطاب مطول الى القاهرة يظهر فيه التودد نحو الفرنسيين ويعددهم بالمعونة والتأييد

وقد نشر الجبرتي نص هذا الخطاب ، لان الفرنسيين أذاعوه في مصر ليقوموا البرهان على ان أمراء المسلمين يرسلونهم ويظهرون العطف نحوهم وقد رأينا من الواجب إثبات صورة ذلك الخطاب في هذا الكتاب ، لانه من القيمة الاثرية التاريخية ولاظهار أسلوبه العربي في ذلك العهد . وصورته كما يأتي :
« من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة الى عين أعيانه ، وعمدة أخوانه « بوسليك » مدير أمور جمهور فرنساوية ، ومهد بنيان السياسة بسداد

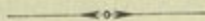
(١) صحيفة ٢٠٢ من هذا الكتاب

همته الوفية . وبعد فانه وصل الينا كتابك ، وفهمنا كامل ما حواه خطابك ، مما
ذكرت من وصول « قنجنا » وانك أرسلت هجانا برفع العشور عن البن . وبذلت
الهمة في شأن التصرف في نفاذ بيعه . وتأملنا في كتابك فوجدنا من صدق مقاله
ما أوجب تمسكنا بوثق الاعتماد عن تموه غياهب الشك في كل المراد . ووجب الآن
علينا تكوين أسباب المصادقة . والمبادرة فيما ينظم مهمات تسليك الطرق بيننا
وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة ، وشملنا الآن الى طرفكم خمسة مراكب
مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة في هذا الاوان . ولا أمكن لنا خروج هذا
المقدار إلا بمشقة علاج مع سلب اطمئنان التجار . لأن كثرة أكاذيب الاخبار ،
أوجبت لهم مزيد الارتياب والاعذار ، بحيث ما بيننا وبينكم إلا العربان المختلفة
دواياتهم على ممر الازمان ، وأما نحن فقد جاءتنا منكم قبل هذا المكاتب ، التي
أوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والاكاذيب ، فحاطرنا مستقر
بالطأينة من قبلكم ، لما ثبت عندنا من الفاظ كتبكم ، والمطلوب في حال وصول
كتابنا اليكم ارسال عسكر من لديكم الى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس ،
ويصلوا بالأبنان الى مصر . ويبيع التجار ، ويزول وقف الاسباب والباس ،
وتهتموا في رجوعهم كذلك قبل بأوان ، ليكون ذلك سبباً في كثرة وفود الابنان ،
وعند رجوعهم يعد المبيع من مصر الى السويس كذلك تصحبوهم بالعسكر من
طرفكم الوثيق ، ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق ، لأن هذه المرة ما أرسل
اليكم هذا المقدار ، لإلا تجربة واستخباراً من أعيان التجار ، وعند مشاهدة الاكرام
والاحتفال بهم ، في كل حال يرسلون اليكم تقانس أموالهم ، ويهرعون بالجلب
لطرفكم ، ويزول الريب عن قلوبهم ، ورجو الله بهمتنا تسليك الطرقات ، وتنجيح
المطالب ، وتحصيل الميراث بأحسن مما كانت من الأمان ، وأعظم مما سبق في
غابر الازمان ، ويكثر بحول الله الوارد اليكم من الاسباب المجازية ، وكذلك

لنا بن في المراكب ، فأمولنا منكم القاء النظر على خدامنا ، وبذل المهمة على ما هو من طرفنا ، وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الاكرام في كل مرام . ولا يخفك أنه ورد علينا قبل بأيام كتب من طرف أمير العسكر الفرنسية ، محبنا بوفائته ، فما كان لنا منها فتأملناه ، وصار اليه الجواب فوصله اليه . وما كان منها معولا في ارساله علينا الى نواحى الهند وابن حيدر وإمام مسكت ، ووكيلكم الذى فى الخاء ، فجميعاً أصدرناها من طرفنا مع من نعمده الى أربابها . وإن شاء الله عن قريب ياتيكم الجواب والسلام

تحريراً في ثمانية عشر شهر ذي القعدة سنة الف ومائتين وثلاثة عشر *

وظاهر من هذا أن مخبرات نابوليون لم تكن قاصرة على شريف مكة بل اتخذها أيضاً واسطة لاىصال كتبه وأغراضه الى حيدر آباد فى الهند ، والى إمام « مسقط » على الخليج الفارسى ، والى القنصل الفرنسى فى الخاء ، أو موخا ، باليمن . أما حوادث محاربة الفرنسيس للماليك فى الصعيد فقد أجملناها تحت عنوان المحاربات الفرعية بصفحة ١٧٥ من هذا الكتاب



المدة الاخيرة

لنابوليون في القطر المصرى

من ١٤ يونيه — ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩

١ — مسألة القضاء الشرعى

كانت المدة التى قضاها نابوليون فى القطر المصرى بعد عودته من سورية الى مبارحته هذه الديار (من ١٤ يونيه الى ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩) مملوءة بالحوادث الهامة، منها ما هو محلى موضعى، ومنها ما هو عام دولى فن الحوادث المحلية التى كان لها شأن هام واهتمام فى الهيئة الاجتماعية المصرية حادثة ابن القاضى التى فتحت باب القضاء الشرعى فى مصر، وقد سبق للقارئ أن علم من الفصل السابق . فى الحوادث التى وقعت أثناء الحملة السورية، أن مصطفى بك أميرالحج قد استغوى ابراهيم أفندى أدم قاضى قضاة القطر المصرى المعين بأمر جلالة السلطان، خليفة المسلمين صاحب السلطة الشرعية، فأصبحت مصر فى ذلك الحال بغير قاض شرعى تصدر باسمه الاحكام ويأذن للقضاة بالنظر فى الدعاوى . ويظهر أن الجنرال دوجا لما تغيب القاضى خاف من اضطراب القضاء، فساس الأمور بحكمة ودهاء، وترك مركز القاضى لولده المدعو ملا زاده افندى . ويظهر أن العلماء والمشايخ والأعيان لم ينكروا عليه ذلك بل سرهم ورضوا به، كما يتبين لنا من تمسكهم بابن القاضى واهتمامهم بأمره كما سيبنى، بيانه . ولا أدرى كيف كان تصور التوم فى ذلك الزمن. ألمجرد أن أباه كان متولياً للقضاء بفرمان سلطانى، يكون لذلك القضى ما كان لأبيه من السلطة الشرعية ؟ أم لمجرد أنه تركى وابن تركى، يكون له حق النظر فى شئون المسلمين والفصل فى قضاياهم وخصوماتهم ؟

وعلى كل حال فإن الذى ارتضاه الجنرال دوجا لم يرضه نابوليون، وأراد البت

في مسألة القضاء الشرعي في مصر حتى يقطع الصلة بينها وبين السلطنة العثمانية بعد كل الذي أظهره من رغبة الاتفاق مع الدولة العلية، وبعد علمه بأن تركيا قد اشتهرت عليه الحرب، وان الجيوش العثمانية، بالاتفاق مع انكارترا، قادمة للنزاع معه على السلطة في هذه الديار ! فلم يكذب يفرغ نابوليون من حفلاته وزياراته، وتوزيع منشوراته، حتى أصدر أمره في ٢٢ محرم سنة ١٢١٤ بالقضاء القبض على ملاّ زاده، ابن القاضي، وسجنه في القلعة. فاحدث عمله هذا ضجة في الدوائر الأهلية، كما يظهر ذلك من رواية الجبرتي الذي يقول « فلما اجتمع أرباب الديوان حضرت اليهم ورقة من كبير الفرنسيين فقرئت عليهم ومضمونها أن ساري عسكر قبض على ابن القاضي وعزله وأنه وجه إليكم أن تقرعوا وتختاروا شيخاً من العلماء يكون من أهل مصر ومولوداً بها يتولى القضاء ويقضى بالاحكام الشرعية، كما كانت الملوك المصرية يولون القضاء برأى العلماء. فلما سمعوا ذلك أجاب الحاضرون بقولهم أننا جميعاً نتشفع وترجي عنده في العفو عن ابن القاضي فإنه انسان غريب ومن أولاد الناس. وإن كان والده قد وافق كتحدا الباشا (مصطفى بك أمير الحج) في فعله فولده مقيم تحت أمانكم. »

فانظر كيف أهمل المشايخ الافاضل المسؤولون عن اقامة العدل وارشاد الناس أمر مسألة القضاء التي فتح بابها عليهم نابوليون، واهتموا باذي ذى بدء بأمر ابن القاضي وخلاصه ! ذلك لان الهيبة التركية ونفوذها متأصلان في نفوس القوم. ولم تكن جلسة الديوان هذه قاصرة على أعضائه كما يؤخذ ذلك من رواية الجبرتي عن وجود السيد السادات. فقد روى أنه كان حاضراً في المجلس وأغلظ القول للفرنساويين. ولم يذكر الجبرتي شهوداً آخرين من العلماء والاعيان، ممن ليسوا أعضاء هذه الجلسة التي قصد فيها الفصل في مسألة القضاء الشرعي، ولكن يؤخذ من العربية التي قدمها المجتمعون لنابوليون، والتي عثرنا على صورتها بالفرنسية في كتاب شرفيس، أنه حضر تلك الجلسة التاريخية، عدا السيد السادات، المشايخ الامير الشيخ الحريره (كذا في الاصل وصوابه الحريري) والدسوقي الجوهري والسرمسي

والعريشى والعنانى ، وكثير من أعيان القاهرة وقد شدد السيد السادات فى طلب العفو عن ابن القاضى وقال للمندوبين الفرنساويين الحاضرين « كيف تفعلون هذا وأنتم دائماً تقولون أن الفرنساوية أحباب العثمانية وهذا ابن القاضى من طرف العثمانى فهذا الفعل مما يسيء الظن بالفرنساوية ويكذب قولهم خصوصاً عند العامة »

قال الشيخ الجبرتى « فلما ترجم هذا الكلام للوكيل الفرنساوى قال لا بأس بالشفاعة ولكن بعد تنفيذ أمر سارى عسكر فى اختيار قضى خلافه » ثم هددهم بقوله « ولا تكونوا مخالفين يلحقكم الضرر بالمخاطبة فامثلوا ، وعلوا القرعة فطلعت لأكثرية باسم الشيخ احمد العريشى الحنفى ثم كتبوا عرضحالا بصورة المجلس والشفاعة »

فيظهر من هذه الرواية أنه لولا تهديد الفرنساويين للمشايخ لما قبلوا انتخاب واحد منهم من علماء مصر لتولى القضاء فى الديار المصرية ، ولفضلوا أن تنتقل تلك الوظيفة السامية من الوالد الى ابنه ولو كان الابن فتى غير عالم بالشرع الشريف ، وذلك لجرد أنه تربي وابن تربي ! وهذه العاطفة جديرة بالنظر وكان لها ولا يزال لها شأن مهم فى أمور هذه الديار ، ويجب أن تبقى دائماً موضع اهتمام وعناية من يتم له الأمر على ضفاف وادى النيل

ولما علم نابوليون بما دار فى المجلس من الكلام والأخذ والرد حنق على السيد السادات واستدعاه اليه ولامه وعنفه ، ولولا تلمظ الشيخ المهدي وحيلته ونبله ثقة نابوليون وحسن ظنه ، لاتسعت مسافة الخلف ، ولربما صودر السيد السادات وعوقب كما وقع له بعد ذلك فى مدة الجنرال كايبر

وواجب علينا أن نقول فى هذا الموقف أن السيد محمد ابا الأنوار شيخ السجادة الوفاية فى ذلك الزمن ، كان من ذوى الكفاية والجرأة وكان له من النفوذ والمنزلة فى العالم المصرى ما جراه مراراً وتكراراً على مقاومة النفوذ الفرنساوى والاحتفاظ بالكرامة الاسلامية ، وكان على جانب عظيم من العلوم

الدينية وتلقى دروسه على أكبر مشايخ ذلك العصر : قال عنه الجبرتي ، وهو قليل المدح ، إنه لما انتظم أمره أحسن سلوكه بشهادة وحكمة ورياسة وتؤدة ، مع التباعد عن الأمور الخلة بالمرودة . ومع أنه كان صديقاً للشيخ عبدالرحمن الجبرتي بدليل قوله عنه « ولما قدمت الفرنسية لم يتعرضوا له في شيء وراعوا جانبه وقبلوا شفاعته وتردد إليه كبيرهم وأعظمتهم وعمل لهم الولائم وكنت أصاحبه في الذهاب إلى مساكنهم والتفرج على صنائعهم وتقوشهم وتصاورهم وغرائبهم » ... الخ ... فإنه لم يخله من الانتقاد والذم اللذين كان يميل إليهما الجبرتي بطبعه ، وكان سبباً في نكته في آخر عمره ، فوصف الشيخ السادات بالشره في حب المال ، وبالكبرياء والدعوى الكاذبة . فمن قوله عنه ، إنه ترفع على العلماء والأقران وصار يلبس قروفاً بعمامة خضراء ، متشبهاً بالأكابر من الأمراء ، وبعداً عن التشبه بالتعممين والقرئين والفقهاء ، ولما طالت أيامه ، وماتت أقرانه ، الذين كان يستحى منهم ويهابهم ، غالى في دعواه وصار في داره كبيت حاكم الشرطة يضرب ويجلد ، ومدحوه على منبر الخطابة في صلاة الجمعة في زاويتهم المعروفة أيام الموالد ، حتى أن الجبرتي سمع قائلاً يقول بعد الصلاة لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا الشيخ السادات ، إلى غير ذلك من الصفات التي حفظ بها هيبة ذلك انبيت القديم ، وألبسه بها هالة من المجد والوقار ، ولكن خلطهم لانسابهم ، وامتزاج دماهم بأبناء السراي من النسوة الرقيقات من الجراكس والأرمن والأروام ، أدخل في خلفهم بذور الفساد والانحلال ، فانقرض ذلك المجد وهوى ذلك الجلال :

وقد الشيخ احمد العريشي قضاء مصر ، ولم يذكر لنا الجبرتي ولا سواه صورة المسكينة التي بعث به المشايخ يرجون العفو والافراج عن ابن القاضي . وقد رأيت صورتها باللغة الفرنسية فيما نقله كرسنبان شيرفيس في كتابه « نابوليون والاسلام » وخلاصة تلك العريضة أن أعضاء الديوان قد انضم إليهم في جلسة خصوصية المشايخ السادات ، والأمير ، والحري ، والدسوقي ، والجوهري ، والسرمسي ، والعريشي ، والعناني ، وكثيرون من أعيان المدينة قد اختاروا بالاقتراع بناء على طلب الجنرال

بو نابرته الشيخ احمد العريشي لتولى قضاء مصر مكان ابن القاضى المعزول ، وان أولئك المجتمعين من أعضاء الديوان والعلماء والاعيان يرجون بو نابرته فى الصفح أو الافراج عن ابن القاضى الذى لم تكن له علاقة بعصيان أبيه وانضمامه الى أمير الحج ، ثم ذكروا له أن الاهالى تولاهم الكدر والحزن على ما أصاب القاضى وولده وان أمه وجدته وأخته فى غم شديد واضطراب عظيم قلقاً عليه . ومما قالوه أيضاً إنه لو عين للبلد كل يوم قاض جديد فانه لا يرتاح لهم بال ، ما دام الذى كان متولياً للقضاء معتقلاً مسجوناً ، وأن أعضاء الديوان يتكفلون بابن القاضى ويضمنون حسن سيره وولاءه للحكومة ، وذكروا له أن واجبهم هو الذى قضى عليهم بهذا الطلب لى بوقفوا بو نابرته على عواطف الامة وشعورها ، إزاء ذلك الحادث ، ودعوا له بطول العمر والسلامة ! فلما وصل هذا الخطاب الى نابوليون أصدر أمره باعداد حفلة لتولية الشيخ العريشي قضاء مصر ، وخلع عليه خلعاً ثميناً وسار فى موكب كبير الى دار المحكمة الكبرى بين القصرين . ثم أصدر أمره بأطلاق سراح ابن القاضى ، وكان الرجل الطيب الوجيه السيد احمد المحرقى كبير تجار مصر قد أخذ أسرة القاضى الى داره تطميناً لخواطرم وانتهى ذلك الحادث الذى أظهر فيه المشايخ والاعيان تضامناً يحمدون عليه

ويظهر حقيقة أن الشعب المصرى كان متأثراً من اعتقال ابن القاضى حتى أن الفرنسيين رأوا من الضرورى ، على رواية الجبرتى ، عند ما أفرجوا عن ذلك الفتى ، « أن يركب مع أرباب الديوان والأغا وساروا به وسط المدينة ليراه الناس ويبتل القيل والقال »

وسرعان ما فعل ذلك نابوليون حتى اتبع خروج ابن القاضى من سجن القلعة بنشور طبعه ووزعه وألصقه بالاسواق كرد على خطاب العلماء . وقد ترك لنا الجبرتى صورة هذا المنشور كعادته فى جمع ما طبع ووزع ، وعدم وصول يده الى غير ذلك ، مما كتبه أعضاء الديوان . ولما كان هذا المنشور على جانب من الأهمية لانه يشرح سياسة نابوليون ورأيه فى مسألة القضاء الشرعى رأينا أن نأتى على أهم ما جاء فيه . قال :

« من سارى عسكر الكبير بو نابرته أمير الجيوش الفرنساوية محب أهل الملة المحبوه . خطاباً إلى السادات العلماء أنه وصل لنا مكتوبكم بشأن القاضى فنخبركم أن القاضى لم أعزله وإنما هو هرب من إقليم مصر وترك أهله وأولاده وخان صحبتنا من المعروف والاحسان الذى فعلناه معه ، وكنت استحسننت أن ابنه يكون عوضاً عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته، ولكن ابنه لم يكن قاضياً متولياً للأحكام على الدوام، لأنه صغير السن وليس أهلاً للقضاء، فأنا لا أحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين . فاستحسننت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعاً أن يكون لابساً من عندى وجالساً فى المحكمة، وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الاول باختيار جميع المؤمنين وسبب دفعنا لابن القاضى (دفعه للقلمة أى اعتقاله) سكون الفتن والاصلاح بين الناس، وأعرف أن أباه ما كان يكرهني ولكننه ذهب عقله وفسد رأيه . وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس الى الصواب والنور من جنابكم لأدل العقول، فعرفوا أهل مصر أنه اتقضت وفرغت دولة العثماني من إقليم مصر وبطلت أحكامها منها، وأخبرهم أن حكم العثماني أشد تعباً من حكم الملوك وأكثر ظلماً، والعامل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الاقاليم . وأنتم يا أهل الديوان عرفوني عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم ^(١) لأن الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم فان سيفنا طويل ليس فيه ضعف، ومرادى أن تعرفوا أهل مصر أن قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بجز النيل أفضل الأنهار وأسعدها، كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين ، بأذن رب العالمين . اه

ومع أن نابوليون قد أكد على المشايخ فى خطابه الذى وجهه اليهم أن يكون

(١) تعبير فى ذلك الزمن يراد به أى « أعاقبهم »

القاضي الذي ينتخبونه من أهل مصر ومولوداً بها فإن الشيخ احمد العريشي لم يكن مصري الأصل ، لانه في الواقع ونفس الأمر سورى ، ولد في بلدة خان يونس واسمه احمد اللجام الخانيونسي أو اليونس ، وقدم الى الدار المصرية علم ١١٨٧ هـ أى قبل هذه الحوادث بنحو اثنين وعشرين سنة وتلقى الدروس بالأزهر والتحق بابن بلدته الشيخ عبدالرحمن اليونسي الملقب بالعريشي أيضاً وحضر الفقه على الشيخ حسن الجبرتي ، والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ ، ثم تولى بعد الشيخ عبد الرحمن العريشي مشيخة رواق الشوام وكان يسكن في دار واسعة بسوق الزلط وقال عنه الجبرتي انه كان فصيحاً مستحضراً متضلعا من المعقولات والمنقولات وتوفي سنة ١٢١٨ هجرية

٢ — استعداد الانكليز والترك

لم يكن ليكفي انكثرا اخفاق نابوليون في غاراته على سوريا ، أو فشله في مشروع تأسيس مملكة شرقية يسطو بواسطتها على الهند ، بل بقيت انكثرا مصممة على إخراج مصر من سلطة الفرنسيين ، ولم تكن انكثرا وحدها بقادرة على ذلك لصغر جيشها ، وعدم إمكانه مجارة الجيش الفرنسي المدرب الذي يقوده نابوليون ، نابعة الحرب في ذلك الزمان

صحيح أنها سدت في وجهه السبل ، وحطمت سفنه ، وحالت بينه وبين بلاده ، إلا أن نابوليون قد أظهر في غارته على سوريا ، ومقدرته على البقاء في مصر ، أنه قادر بمن معه من الجيوش والقواد والعلماء أن يغير مركز مصر ، ويرقي مواردها الطبيعية ، ويصلح من شئونها الادارية ، بحيث يستطيع أن يوجد على ضفاف النيل دولة جديدة قوية ينشئ فيها السفن في البحر الاحمر ، ويغير على الهند او غيرها متى توفرت معداته ، هذا عدا أن وجوده في مصر معطل لسير التجارة الانكليزية ، ولمشروعات انكثرا الامبراطورية . واذا كان محمد علي الأمي ، بلاقواد عضاء ولا علماء فضلاء ، ولا مشرعين ولا مخترعين ، استطاع بعد ذلك بعشرين عاماً أن يوجد من مصر الاساطيل والجيوش ، فهلا كل في استطاعة نابوليون

ومعهم ، إذا بقوا في أرض مصر ، أن يفعلوا فعله ؛ لا شك في أن ذلك هو ما كان يفكر فيه نابوليون بعد واقعة أبي قير البحرية ، كما صرح بذلك في كثير من أقواله ولم يكن لدى انكترا من الوسائل إلا استخدام الفكرة الاسلامية ، وتجريز الدولة العثمانية والماليك الذين اغتصب نابوليون الحكم من أيديهم ، لمقاومة الفرنسيين . وتكدير صفو عيشهم في أرض مصر حتى يتركوها ، إما بالقهر وإما بالرضا والصلح . فلما تم اتفاق انكترا مع الدولة العثمانية وعاد نابوليون بالقتل من سوريا وضعت انكترا خطة لاحتلال مصر بواسطة الجيوش العثمانية في البر ، واسطولها ، تحت قيادة السر سدي سميت ، في البحر

وكانت تلك الخطة تقضى بأن تبعث الدولة العثمانية جيشين ، أحدهما تنقلها السفن العثمانية والانجليزية من رودس والموانئ العثمانية إلى أبي قير ، والجيش الثاني يزحف من سوريا وتكون مقدمته مؤلفة من ابراهيم بك ومماليكه ، ومن ينضم اليه من جيش الجزائر . وإتماماً لضم نجاح هذا المشروع تقرر الاتفاق مع الماليك الموجودين في مصر تحت إمرة مراد بك وغيره من كبار الزعماء ، مثل عثمان بك الطنبرجي وعثمان بك الشرقاوي وحسن بك الجداوي وغيرهم . ووضعت لذلك خطة من مقتضاها أن يكون مراد بك مستعداً بجيشه في مديرية البحيرة وأن يكون عثمان بك الشرقاوي بعزوة ومماليكه في الشرقية ، فالاول يلتقي بالجيش العثماني القادم بجراً إلى أبي قير ، والثاني ينضم الى الجيش القادم من سوريا عن طريق العريش

وربما سأل سائل : وكيف كان يمكن الاتفاق والمخاطبة مع الماليك في الوجه القبلي ، والفرنساويون في جميع بلاد القطر المصري قد سدوا في وجوههم السبل وضيعوا عليهم المذاهب ؛ والجواب على هذا هو ان طرق الصحراء شرقاً وغرباً ، كانت في أيدي العربان ، وهم موالون للماليك والأتراك ، فأولئك كانت مهمتهم إيصال الاخبار والمراسلات بين مصر وسوريا وشواطئ طرابلس الغرب حيث تلتقي السفن الانكليزية مراسيها ، ويلتقي ضباطها بالعربان ، ويزودونهم بالرسائل والأموال لرؤساء البدو والماليك ، فيسير أولئك في الصحراء من واحة سيوه إلى وادي التطرون ثم الى الفيوم وغيرها

فلما تم وضع نظام تلك الخطة تحرك مراد بك بن معه من المالك من الصعيد إلى مديرية البحيرة ، وانحدر محمد بك الأتقي وعمان بك الشراوى على الضفة اليمنى من النيل ومعهم نحو ثلاثمائة من فوارس المالك ، وانضم اليهم نحو ثلاثمائة أخرى من عرب الصحراء الشرقية ، وعسكر هذا الجيش فى البقعة المسماة « سبع آبار » بين السويس ومصر ، وكان ذلك فى ٧ يونيو سنة ١٧٩٩ (الموافق يوم الاحد ٣ صفر سنة ١٢١٤) وأخذت الرسل تذهب وتجيء بين ذلك المعسكر وأهالى الشرقية لتحر يرضهم على الثورة فى وجه الفرنسيين . فتنبه لذلك الجنرال لاجرانج Lagrange المتولى القيادة فى الشرقية، فزحف بفرقة من الخيالة ونصف أزرطة من الهجانة وباغت ذلك الجيش الصغير من المالك والاعراب واحتاط به فى ليلة (١١ يولييه — ٨ صفر) ودارت بين الطرفين معركة غير منتظمة انتهت بثقت المالك وقتل كثيرين منهم ، وغنم الفرنسيون عدداً وافراً من الجمل ، وجميع ما كان مع تلك القوة من الميرة والذخيرة وأسروا نحو ثلاثين مملوكاً جرى بهم الى القاهرة . وهذه الرواية ، عن المصادر الفرنسية، لا تختلف كثيراً عن رواية الجبرتى التى سردتها فى حوادث ١١ صفر، (أى بعد أربعة أيام من حدوث الواقعة) ، وإنما ذكر الجبرتى أن القوة التى داهمت المالك كانت مؤلفة من « جماعة من العسكر المنضمة اليهم » ثم قال « فلما داهمهم بادروا بالفرار وركب عمان بك بقميص واحد على جسده وطاقيه فوق رأسه ، وتركوا متاعهم وحملتهم ، ووجدوا على فراش عثمان بك مكتوبة من ابراهيم بك يستدعيهم للحضور اليه بالشام »

والحقيقة أن عثمان بك ومن معه استدعوا لانتظار ابراهيم بك ومماليكه وجيش الجزائر ، بناء على التعليمات الواردة من رسل الانكيز . فأما ابراهيم بك — وهو دائماً شديد الحرص — فكان يسير من غزة على مهل لكيلا يدخل مصر قبل قدوم الجيش العثماني من رودس ، وذلك خوفاً من الوقوع فى أيدي الفرنسيين ، فلما بلغه خبر تلك الهزيمة لعثمان بك والاتفى بك عاد أدراجه الى سوريا . وأما الجزائر انخيلث فاكتفى بعودة الفرنسيين من سوريا ، واستخلاصه هو عكاً ، وامتداد نفوذهم

في الولايات السورية ، ثم قلب للدولة العثمانية وللانكليز ظهر المحن ، ولم يحفل بفرمانات الدولة ، ولا برسائل يوسف باشا الصدر الاعظم ، الذي قدم بحميش عظيم الى سوريا قاصداً مصر . وكذلك لم يحفل بخطابات السرسدني سميت صاحب الفضل الاكبر عليه ، ذلك الذي انقذه من مخالب الفرنسيين وأبقاه سلطاناً مستبداً في عكا وسوريا ، فلم يبعث ذلك الطاغية بما وعد به من الجند ، ولا ما وعد به من الميرة والذخيرة الى الجيش العثماني القادم بجرأ ، ولذلك حنق عليه السرسدني سميت وعزم على التنكيل به ، كما يؤخذ ذلك صريحاً من نص خطاب عثرت عليه في كتاب تاريخ الامير حيدر الشهابي ، مكتوب من السرسدني سميت إلى الامير بشير الشهابي بعد هذا التاريخ بسنة أشهر^(١) . وأما مراد بك فتحرك بمن معه من المالك والعربان من القيوم سائراً في طريق الصحراء الى أن وصل الى جهة وادي النطرون في مديرية البحيرة وهناك وقعت بينه وبين الجنرال (مورات) قائد الخيالة المشهور في

(١) لما كان هذا الخطاب مجهولاً لدى المؤرخين وله قيمة أثرية ، فضلاً عما فيه من غرابة أسلوب التخاطب بين السرسدني سميت والامير بشير ، ولما فيه من الاشارة الى موقعة ابي قير البرية ، رأيت أن آتي على نص هذا الخطاب في هذه الحاشية :

» من سميت ساري عسكر سلطان بلاد الانكليز ونائب حضرة الساطع سليم ، الى الاخ الحبيب بشير الكامل الشرف والاحترام

أما بعد فاني لما وصلت الى بيروت سألت عن احوالك يا أخي وصديق الحبوب فلنني ما وقع لك من احمد باشا الجزائر فانه ولي مكانك اولاد الامير سيف وطردك من الولاية التي أنعمت بها عليك الدولة العثمانية عن نصرها ، فعلا صرت اتوجه الى غزة لمواجهة أخينا الصدر الاعظم وقائم مقام الدولة العلية . وانشاء الله عن قريب تصل مني الاخبار التي تسرك . ولا تظن يا أخي الحبيب ان انقطاعي عنك لسبب غير كثرة الحروب والامتعاب التي حصلت لي في ابي قير الاسكندرية وذلك لعدم اسماع الجزائر باشا ايأى ، لانه تمهد أن يوجه الى الاسعاف بالمرაკب الذخائر والآلات ونكت وعده وعهده والآآن صار عدواً لي وللدولة العلية لان العهد بيننا أن عدو الدولة عدو الدولتين ، وصديق الدولة صديق الدولتين ، وانت يا أخي كن براحة بال انشاء الله قريباً تتال كل ما ترغب فيه وقد تركت لك مركبا في بيروت لاجل كل ما يترجمك من الذخائر وغيرها وانشاء الله لا ابطيء عنك في الاخبار وأنا اعلم أن بعض الوشاة في دولتك يوصلون صورة كتابتي هذه الى جزار باشا ، ولكن فليعلم انه سيحل به الندم . وتنزل عليه النقم ، وقد حررت لك هذه الاسطر من ظهر الطامور في ه كانون الاول (ديسمبر) ولا بد ان تخبرني دائماً عنك والسلام »

تاريخ الحروب النابوليونية في أوروبا ، موقعة انتهت بهزيمة مراد بك ورجوعه بمن معه من فوارسه الى مديرية الجيزة جنوباً . وفي رواية أخرى أن الجنرال (مورات) سبق مراد بك الى وادى النظرون فلما قدم هذا ورأى استعداد الفرنسيين ، انسحب بيجيشه راجعاً الى الجيزة وقتل وأسر منه أفراد قلائل في أثناء تعقب الفرنسيين له . وتجد أخبار الذين أسروا من المماليك في حوادث الاسبوع الاول من شهر صفر من يوميات الجبرتي

وقتل لاكروا عن المذكرات التي أملاها نابوليون في سانت هيلين أن مراد بك لما عاد من البحيرة الى الجيزة وصل الى جهة الاهرام وصعد الى قمة الهرم الكبير في يوم ١٣ يوليو ، وأخذ يتبادل الاشارات مع زوجته السيدة نفيسة وهي فوق سطح منزلها . قل ولما تناقل الناس في القاهرة خبر هذه الاشارات قلقت السيدة المذكورة وخافت أن يلحق بها الفرنسيون أذى فذهبت الى منزل الجنرال بوناپارت وطلبت مقابلته ، فتلقاها بكل احترام وإكرام وأكد لها أنه لم يخفل بما وجه لها من التهم ثم قل لها :

« ولو أنك تريدين الاجتماع بزوجك لما تأخرت عن أن أهادنه أربعة وعشرين ساعة لسكى تلتقيا ، إذا كان في هذا مايسرك ويسره . » ولولا أن سند هذه الرواية قوي ومصدرها مما يجب الوثوق به ، لما حفلنا بها ولما اعتقدنا صحة وقوعها على تلك الصورة . وكيفما كانت حقيقتها فما لاشك فيه هو أن نابوليون كان شديد الميل — وخصوصاً في ذلك الوقت — الى الاتفاق مع مراد بك . ولا يبعد أنه أراد أن يتخذ من منزلة السيدة نفيسة ومكاتها لدى زوجها ، وسيلة للصلح والتحالف معه . ولقد كانت السيدة نفيسة دائماً موضع إكرام الفرنسيين وإجلالهم ، وكان يحتفى في نفوذها نسوة أمراء المماليك وغيرهن من كبار وصغار^(١)

(١) كانت السيدة نفيسة ، الملقبة بالمرادية نسبة الى مراد بك ، جركسية الاصل من بلاد الكرج ، تسرى بها على بك الكبير المشهور وبني لها — ككاروي الجبرتي وغيره — داراً مطلة على بركة الازبكية بدرب عبد الحق قريباً من ميدان الاوبرا الحالي . ولما جرى لعل بك ماجرى له بسبب خيانة مملوكة محمد بك ابو الذهب ، زوجها هذا الى مملوكة مراد بك . وكانت سيدة محترمة مبهجة حازت شهرة واسعة في مدة امارته مراد بك ومدة الاحتلال الفرنسي . وعاشت الى زمن

ولقد أدرك نابوليون بثاقب فكره أن تلك الحركات المتناقضة في الشرق والغرب،
وتلك التنقلات في الصحارى المحرقة في فصل الحر الشديد، ليست إلا مقدمة لحركة

امارة محمد علي باشا لأنها توفيت في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨١٦ - ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٣١،
أي بعد الحملة الفرنسية بثمانية عشرة سنة ودفنت بجوار الامام الشافعي

والسيدة نفيسة هذه روايات تاريخية مع نابوليون والسياسة الفرنسية ترى من الضروري
اثباتها في هذه الحاشية، لأنه لا أثر لها مطلقاً في المصادر العربية. فمن هذه الروايات مارواه فيليكس
مانجن Felix Mangin مؤلف تاريخ محمد علي من أن الحكومة الفرنسية قبل الحملة بيضع
سنوات كلفت مسيو ماجاللون، فنصل فرنسا في مصر، بأن يقدم للسيدة نفيسة المرادية، باسم الحكومة
الفرنسية، ساعة ذهبية مرصعة بالاس اعترافاً بأفضالها، وجيل أعمالها، فلما كانت الحملة الفرنسية واحتل
نابوليون بجنوده القاهرة لم تفرغ السيدة نفيسة ولم تفر مع زوجها بل أخذت تقوم بحماية السيدات من
زوجات المماليك، وتسهر على مصالح الفقراء والمساكين، وتمتد يد المعونة لمن يقضي عليهم الفرنسيون
بالمغارم والضرائب، وكانت موضع احترام الجميع من المصريين والاجانب. قال «مانجن»: وحدث
أن الفرنسيين لما احتلوا القاهرة فرضوا على نساء البكوات والكشافة ضريبة قدرها خمسمائة الف
فرنك فتقدمت الست نفيسة (كما كانوا يسمونها) الساعة التي أهدتها اياها الحكومة الفرنسية من
حصتها في الغرامة، فتدردت باربعة وعشرين الف فرنك وعملت عنها لورتبة فكانت من حصة
«بوسيلج» فاعطاها لنابوليون، وهذا اهداها لحليلته «بولين فوريس»

ومما جرى للسيدة نفيسة مع نابوليون بونابرت مارواه ويلسون في كتابه عن الحملة الانجليزية
نقل عن الثقات، ان لم يكن عن السيدة نفيسة نفسها، وهو أن هذه السيدة أقامت في منزلها أذبة
لبعض ضباط الجيش الفرنسي من باب الجمالة والتلطف، وعند انصرافهم من المنزل بعثت بخاتم
مرصع بالجواهر الكريمة ذي قيمة كبيرة الى أوجين بوهارنيه (ابن جوزفين زوجة نابوليون)
كهدية وتكريم. قال ويلسون «فلد يمض على هذه الهدية بضعة ايام حتى فرض الفرنسيون ضريبة
فادحة على السيدة نفيسة، فلما اعترضت على ذلك وشكت من فداحة الضريبة، أهموها انه مادام
عندها مثل هذه الجواهر الثمينة قتها قادرة على أن تدفع أكثر من ذلك» . فتأمل

ومات مراد بك زوج السيدة نفيسة بالطاعون قبل جلاء الفرنسيين عن مصر، فلد يصف لها
من بعده عيش، وعاكسها الدهر، ومال ميزان عزاها وسعدها بعد ذلك الجاه والجلال. وذلك
لان الانتراك لما دخلوا، مصر بعد خروج الفرنسيين، ونفثوا سموم بعضهم وحقدهم على المماليك
صبوا جام غضبهم على السيدة المذكورة، ووجه اليها خر رشيد باشا الاهانات المتواليه حقدا لما كان
يظهره الاهالي والعلماء والامراء نحو تلك السيدة من الاحترام والاحلال

ولعل أمر جرعة تيجرتها في أواخر أيامها، ما لقيته من محمد علي - بعد توليه اماره مصر - من
المعاسكات والمشاكسات اذ صادر املاكها واغتصب ما لديها من مال وعقار فضاعت ذات يدها
وعاشت في فقر وفاقة، مع مروءة وحشمة حتى ادركتها الوفاة في سنة ١٨١٦

ومما رواه (مانجن) ان نابوليون، وهو في قمة مجده في فرنسا واوروبا، لم ينس السيدة نفيسة
المرادية، اذ بعث بأوامره الى مسيو (ماتيو دل بيس) فنصل جنرال فرنسا في مصر، في اوائل حكم
محمد علي، ليتخذ كل الوسائل لحماية السيدة نفيسة والدفاع عن صوالحها. ولكن لم يجدها ذلك نفعا

حربية من جانب أعدائه ولذلك انتقل بجزء كبير من الجيش في ١٤ يوليه إلى جهة الجزيرة وأصدر أمر الجنرال برتبه رئيس هيئة أركان الحرب، بأن يجهز حملة بالبطاريات والمدافع وينتقل بها إلى جهة الأهرام، وقضى نابوليون ليلته معسكراً في تلك البقعة . وإلى هذه الفترة تنسب الاشاعة التي رواها بعض المؤرخين الذين قالوا إن نابوليون استدعى مشايخ المسلمين إلى الجزيرة وسار بهم إلى الأهرام ، ثم أعلن اسلامه هناك، وأنه دخل الهرم الكبير . وقد نفي « بوريين » في مذكراته هذه الرواية ، وقال إن نابوليون لم يستدع المشايخ ولم يعلن اسلامه ، بل ولم يدخل الهرم ابداً !

وفي اليوم التالي (١٥ يوليه) عند الساعة الثانية ظهراً أبصر نابوليون فارساً ينهب الارض نهباً فتلقاه ووجد معه رسالة من الجنرال مارمون (Marmont) قومندان حامية الاسكندرية ، وفي هذه الرسالة ينبئهم بان ثلاث عشرة سفينة كبيرة وتسع فرقاطات وثلاثين غرابا (Chaloupes) مسلحة، وتسعين نقالة محملة بالجنود العثمانية وقد أقت مراسيها في مساء ١٢ يوليوي في مياه خليج أبي قير، وأنها استطاعت أن تنزل جنودها إلى الساحل في يوم ١٤ ، وأنها استولت على الطاية المقامة في تلك النقطة

٣ - قبل معركة أبي قير

فلما تلقى نابوليون هذا الخبر أدرك في الحال عظيم أهميته إذ لم يخف على مثله، ولا سيما وقد قتل المسائل فكراً وتمحيصاً بعد عودته من سوريا وعرف حرج مركزه في هذه الديار ، أن المعركة الفاصلة بينه وبين الانكليز في مصر قد حان وقتها . فاذا استطاعت القوة العثمانية التوغل في أرض مصر، واستطاع الانكليز والترك الاستيلاء على الثغور المصرية ، فقد قضى على نابوليون وجيشه ، وقضى على هاتيك المطامع الكبرى القضاء المبرم

ولقد أدرك نابوليون بثاقب فكره وخبرته العسكرية ، أن الجيش العثماني الذي جيء به إلى أبي قير هو بقية الجيش الذي كان في رودس والذي أخذ منه جزء

للامداد عكا ، وأن هذه البقية لا تزيد عن خمسة عشر الف مقاتل ، مع فئة من الضباط الانكليز ، وان هذا الجيش إنما جاء معتمداً على أمرين : أولهما : تعضيد المماليك الذين يقومون مقام الخيالة لهذا الجيش الذى لم تكن معه الخيول الكافية

وثانيهما : قيام الاهالى والعربان فى وجه الفرنسيين فى جميع جهات القطر المصرى . فاذا استطاع نابوليون أن يحول بين اتصال الجيش العثمانى بالمماليك ، ويمنع حدوث الاضطرابات فى داخلية البلاد ، فقد استطاع ان يخلص من ذلك المأزق الحرج

ولقد أجمع كتاب المذكرات الخصوصية ، ورواة الاخبار العمومية ، ومؤرخو هذه الفترة من المتقدمين والمتأخرين ، أن نابوليون لم يبد فى حياته نشاطاً وذكاء وقادراً ، وبعداً فى النظر ، مثلما أظهره فى ذلك الحين ، فانه ما كاد يتلقى نبأ نزول الجنود العثمانية فى ساحل أبى قير حتى أخذ يصدر الأوامر تباعاً بسرعة البرق ، وبحيث لم تسكد تمضى أربعة وعشرون ساعة ، حتى كان جميع الجيش الفرنسي المتشتت فى وادى النيل ، شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، يسير الى نقطة معينة وهى الرحمانية . فالجنرال (ديزيه) فى الصعيد صدرت له الأوامر بالتخلى عن جميع الوجه القبلى ليقدم بجيشه الى القاهرة ، والجنرال (رينيه) المعسكر فى بلبس أمر بترك ثلاثمائة جندى فى الصالحية لمراقبة الحدود الشرقية ، وأن يسير هو بجميع الجنود الفرنسية ، من أقرب طريق الى نقطة الرحمانية ، وكذلك تلقى الجنرال كليبر الأوامر بالتحرك من دمياط الى جهة أبى قير ، وكذلك تلقى الجنرال كليبر الأوامر بالتحرك من دمياط الى الاسكندرية ، وكذلك تلقى الجنرال منو الاوامر بالسير من رشيد

واختلاصة إن نابوليون لم يبت تلك الليلة فى الجيزة حتى كان الجيش الفرنسي من جميع الجهات يسير قاصداً نقطة واحدة ولم تمض ثلاثة أيام حتى كانت جميع القوى الفرنسية مجتمعة فى الرحمانية

وهناك أصدر نابوليون منشوراً للمصريين يعلمهم ويهددهم ويحذرهم ، ويتملقهم
ويتقرب منهم ، موجهاً فيه الخطاب الى أعضاء الديوان . وقد حفظ الجبرتي وتقولاً
الترك ذلك المنشور باللغة العربية وهذا نصه :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . نخبركم يا محفل الديوان
بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكلمهم بالعقل والتدبير . عليكم سلام الله تعالى
ورحمته وبركاته . بعد مزيد السلام عليكم ، وكثرة الاشواق اليكم ، نخبركم يا أهل
الديوان ، المسكرمين العظام ، بهذا المكتوب أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل
الطرانه وبعد ذلك سرنا إلى اقليم البحيرة لأجل أن نرد راحة الرعايا المساكين ،
ونقااص اعداءنا المحاربين . وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفواً عموماً
عن كامل أهل البحيرة حتى صار الاقليم في راحة تامة ، ونعمة عامة . وفي هذا
التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركباً صغيراً وكباراً حتى ظهروا بغير الاسكندرية
وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب وجلل المدافع النازلة
عليهم ، فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبي قير وابتدأوا ينزلون الى البر ،
وأنا الآن تاركهم وقصدي أن يتكامل الجميع في البر وأنزل عليهم أقتل من
لا يطيع وأخلى بالحياة الطائعين ، وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لاجل أن يكون
في ذلك شأن عظيم في مدينة مصر . والسبب في ذلك في محي ، هذه العماره الى
هذا الطرف العثم بالاجتماع على المالك والعربان ، ولجل نهب البلاد وخراب
القطر المصري ، وفي هذه العماره خلق كثير من « الموسقو » الافرنج الذين
كراهم ظاهرة لكل من يوحد الله ، وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ،
ويؤمن برسول الله ، يكرهون الاسلام ، ولا يحترمون القرآن ، وهم نظراً لكفرهم
في معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة ، وان الله ثالث تلك الثلاثة ، تعالى الله عن
الشركاء . ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة ، وان كثرة الآلهة
لا تنفع ، بل إنه باطل لان الله هو الواحد الذي يعطي النصره لمن يوحدده ،
هو الرحمن الرحيم ، المساعد المعين ، المقوى للعاديين الموحدين ، المالحق رأي
القاسدين المشركين ، وقد سبق في علمه القديم ، وقضائه العظيم ، أنه أعطاني هذا

الاقليم وقدر وحكم بحضوري عنكم الى مصر ، لأجل تغييرى الأمور الفاسدة ،
وأنواع الظلم ، وتبديل ذلك بالعدل والراحة ، مع صلاح الحكم . وبرهان قدرته
العظيمة ، ووحدايته المستقيمة ، ان لم يقدر الذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة
مثل قوتنا ، لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذى عملناه ، ونحن المعتقدون وحادانية
الإله ، نعرف أنه العزيز القادر ، القوى القاهر ، المدير للكائنات ، والمحيط علمه
بالأرضين والسموات ، القاسم بأمر المخلوقات ، هذا ما فى الآيات ، والكتب
المنزلات . ونخبركم بالمسلمين إن كانوا بصحبتهم ، يكو نوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم
وصية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، بسبب اتفاقهم مع الكافر بن الفجرة اللثام ،
لأن أعداء الاسلام ، لا ينصرون الاسلام ، ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله !
وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً ، أو يكون مسلماً ساقته المقادير ،
للهلاك والتدمير ، مع السفالة والردالة ، وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق
الصليب ، ويسمع فى حق الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، من الكفار ، كل يوم تخريباً
واحتقاراً ، ولا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال ، أقبح من الكافر الاصلى فى الضلال
نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار ،
لأجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية ، فى سائر الاقاليم والبلاد ، لأن
البلد الذى يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص . انصحوهم بحفظوا
أنفسهم من الهلاك خوفاً عليهم أن تفعل فيهم مثل ما فعلنا فى أهل دمنهور ، وغيرها
من بلاد الشرور ، فانهم بسبب سلوكهم المسالك القبيحة قاصصناهم . والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته

تحريراً بالرحمانية فى يوم الاحد ١٥ صفر ١٢١٤ — طبع بالمطبعة الفرنسية الميرية.



ولقد قصد نابوليون بهذا المنشور عدة أمور: أولها وأهمها ، إلقاء الرعب فى قلوب
المصريين ليخلدوا الى السكينة ، وليخافوا عاقبة الفتك بهم ، كما حصل لاهالى
دمنهور عقب ثورة المهدي ، أو مولاى محمد . وأراد نابوليون أن يفهم المصريون

أن القادمين ليسوا أتراكا مسلمين بل هم روسيون مسيحيون لا يعتمدون بالوحدانية مع أنه لم يكن مع الجيش العثماني الذي نزل في أبي قير جنود من الروس ، ولا من الانكاييز . ولم يثبت التاريخ سوى وجود بعض الضباط الانكاييز الذين قدموا مع الاسطول البريطاني ليكونوا في هيئة أركان حرب للمشير مصطفى كوسه باشا قائد ذلك الجيش . وما قصد نابوليون بذلك الاختلاق الا الإيهام والتغريب بالعقول وتلك خطة تهرها السياسة في أيام الحروب ، ولكن المعلم تقولوا الترك أراد أن يعتذر عن هذا الاختلاق — أي دعوى أن الجيش القادم معظمه من الروس المسيحيين — فقال :

« وخشى أمير الجيوش من العامة في مصر وغيرها من البلدان فكتب فرماناً الى علماء مصر وأرباب الديوان يخبرهم بورود المراكب وخروج عساكرها الى البر وانها مراكب نصارى ، ولكن ربما معهم بعض المسلمين . وتعريفه بذلك استناداً على الفرمان الذي ورد من الدولة العثمانية الى الجزائر والأقطار الشامية حيث يقول « قريباً نحضر لكم الدونمة الهايونية مع دونما الدولة المسكوية المتحدة مع دولتنا بالحب والصدقة ، ونحضر لكم عشرين الف مقاتل في البر مع الدولة القوية غير العساكر البحرية ، لأجل طرد الملة الفرنسية » وهذا الفرمان قد حضرت صورته الى أمير الجيوش وأطلع عليه العلماء والأعيان وأهل تلك البلدان » اهـ

والمعلم يقولوا يشير بالطبع الى المنشور الذي سبق لنا الكلام عنه وليس فيه شيء مما يقوله المعلم تقولوا ، اللهم إلا اذا كان يشير الى منشور لم تقف له على أثر في الكتب الفرنسية ولا الانكاييزية ولا العربية ومع ذلك فان ذكر العارة الروسية وقدموها مع الجيش العثماني ليس معناه انزال جنود روسية مع العساكر التركية في أرض مصر . ولكن يظهر أن المعلم تقولوا أراد أن يعتذر لنابوليون بما لم يعتذر به نابوليون عن نفسه !!

وأغرب من هذا تعليق المرحوم مخائيل بك شارو بيم على هذا المنشور في كتابه (الكافي) بالعارة الآتية :

« قلت وفي هذا الخطاب ، إن كان صحيحاً ، من النقد على بونا بارتة والتعيب ،
ورميه بالفش والخديعة ، ما يزرى به ويحط من عظمته ويذهب بشهرته »
ولماذا لا يكون ذلك المنشور صحيحاً ونصه في الجبرتي ورسالة المعلم تقولا وصورته
المطبوعة محفوظة في أوراق نابوليون المحفوظة (١) ثم لماذا يزرى من نابوليون ويحط
من عظمته ويذهب بشهرته الأبدية الخالدة ، وهو إنما فعل ما تقضى به السياسة
وأساليبها . وأكاذيبها أيضاً . !

ولقد أحدث قدوم ذلك الجيش العثماني حركة في نفوس المصريين فانتعشت
أرواحهم ، وأنتشت آمالهم ، وخيل لهم الخلاص من الاحتلال الاجنبي ، مع ان القاديين
عليهم لا يريدون لهم خلاصاً ، ولا يودون لهم حرية واستقلالاً . ولكن هكذا
فطر المصريون على أنهم والأترك أمة واحدة ، وإن لم يرض الأترك باعتبار
المصريين كذلك ، ولا سيما في ذلك الزمن إذ الجندي جندي ، والقلاح فلاح ! !
ولذلك خشى الفرنسيون عاقبة هيجان المصريين ، وقيامهم عليهم ، فترك نابوليون
في القاهرة الجنرال « روجا » الذي اشتهر بدهائه ولينه وحسن تصرفه مع المصريين
أثناء الحملة السورية وترك له قوة كبيرة من الفرنسيين في القلعة عدا قوة أخرى
من الأروام الذين جندوهم ودر بوم ، وكف الجنرال ديزيه بالتخلي عن الصعيد
والقدوم بجيشه إلى القاهرة

ولقد كانت ساعة الفرنسيين عصيبة والجو أمامهم مظلماً قائماً لأنه مع هذه
الاحتياطات الكثيرة ، ومع ذلك المنشور الذي أكرر فيه نابوليون من التزلف
للمصريين ودعوي الاسلام والطعن على المسيحية ، فان الحركة التي دب دبيبها
بين المصريين كانت تشعر بما داخل نفوس القوم من الفرح والسرور بقدوم الجيش
العثماني ، فقد روى الجبرتي الحادثة الآتية : قال في حوادث يوم ١٦ صفر

« ولما تحققت هذه الأخبار (نزول الجيش العثماني في أبي قير) كثر اللغظ
بين الناس وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين
بجارية البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة مع بعض نصارى الشوام فقال المسلم

لنصراني : إن شاء الله بعد أربعة أيام نشق منكم . وكلام من هذا المعنى فذهب ذلك النصراني مع عصبية من جنسه الى الفرنسيس . وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين إثارة فتنة فأرسل قائمقام إلى الشيخ المهدي وتكلم معه في شأن ذلك وحاجته وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدي خطيباً وتكلم كثيراً وبنى الريية وكذب أقوال الخصوم وشدد في تبرئة المسلمين عما نسب اليهم وبالغ في الخطيطة والانتقاص من جانب النصارى . وهذا المقام من مقاماته المحموده ، ثم جمعوا مشايخ الاخطاط والحارات وحبسوهم »

فهذه الحادثة البسيطة تمثل لنا صورة مجسمة للشعور القومي في تلك الفترة وهي حال يجب على المؤرخ أن لا يفوتها، والدليل على تخوف الفرنسيين أنهم زادوا في الخيطة فجمعوا، كما ذكر الجبرتي، مشايخ الأخطاط والحارات واعتقلوهم

فلنترك أهل القاهرة في آمالهم وتصوراتهم ، ولنبتع نابوليون وجيشه الى تلك المعركة الهائلة التي وقعت بينه وبين الجيش العثماني وكانت عاقبتها وبالاعلى العثمانيين — تلك الواقعة التي قال عنها نابوليون للجنرال مورات: «على هذه الواقعة سياترب مستقبل العالم بأسره» ولكن نابوليون وحده هو الذي كان يدرك السبب في ذلك ويعلم أن انتصاره في تلك المعركة يمهده له سبيل العودة الى فرنسا، وعلى جيبه إكليل القوز والنصر، فيستطيع أن يقبض على السلطة في تلك الديار، ويستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه من الملك والمجد والفخار

— ٤ — واقعة أبي قير

أخطأ سرهنك باشا وغيره من المؤرخين الذين قالوا إن نابوليون قهر الجيش العثماني الذي نزل في أبي قير ستة آلاف مقاتل . والحقيقة التي أثبتتها الكتاب الفرنسيون أن الجيش الذي جمعه نابوليون في الرحمانية وسار به الى أبي قير كان لا يقل عن عشرين الف مقاتل من خيرة الجنود المشاة المدربين عدا ثلاثة آلاف من الخيالة . ولم يكن الجيش العثماني يزيد عن ثمانية عشر الفاً من الجنود وليس معهم

سوى ما تقي جواد للقائد وأركان حربه . وبعض الضباط ، وذلك باعتراف نابوليون في المذكرات التي أملاها في سانت هيلانة

قلنا إن القائد العثماني أنزل جنوده في يوم ١٤ يوليو على ساحل أبي قير، ونقول إنه كان يؤمل أن تصل إليه المماليك بانخيول والامدادات . وروى المعلم نقولا في رسالته أن المشير مصطفى كوسه باشا لما أنزل جنوده واستولى على القلعة التي أقامها الفرنسيون ، أرسل المنشورات الى المصريين والعربان يستنهضهم للقيام في وجه الفرنسيين ، وان كبار القوم ذهبوا اليه وخلع عليهم الخلع الثمينة . ولا أثر لهذه الرواية ، لا في المصادر العربية ولا في المصادر الفرنسية ، وكل ما ذكره الجبرتي من علاقة الجيش التركي بالمصريين، قوله في حوادث ١٨ صفر «انه وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الاعيان وكلها على نسق واحد تزيد عن المائة مضمونها ان المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الاسكندرية فصار الناس يحكي بعضهم لبعض ... الى آخره »

ولاشك في أن السرعة التي جمع بها نابوليون جيشه وهاجم العثمانيين لم تمكنهم ، لا من الاجتماع بالمماليك ، ولا من دعوة سواهم . وكان ذلك سرفوز نابوليون في تلك الموقعة ، وفي كثير من المواقع الكبيرة التي كسبها في أوربا . ولو أن الجنرال منو ، بعد هذا التاريخ بنحو سنتين ، قد رئسه في السرعة والنشاط وعدم إضاعة الوقت ، لما استطاع الجيش الانكليزي الذي قدم تحت قيادة الجنرال «أبركرومبي» أن يحصره في الاسكندرية ، وينتهي بالاشتراك مع الجيش العثماني بالوصول الى القاهرة ، واخراج الفرنسيين منها

وكان نابوليون يتصور أن الجيش العثماني لا يبقى في أبي قير بعد أن احتل قلعتها أكثر من يوم واحد ، وأنه سيزحف في داخلية البلاد فيجتمع عليه المماليك المشتتون في الوجه البحري ، وياتف عليه عربان البحيرة وسواها ، ولذلك عسكر نابوليون عند الرحمانية في يوم ١٩ يوليو ، فلما وصلت اليه الاخبار بأن الجيش العثماني لا يزال مرابطاً في أبي قير أسرع في نقل مراكز جيشه من الرحمانية الى بركة غطاس الواقعة بالقرب من بحيرة المعديه ، وعلى مسافة قريبة من الاسكندرية وأبي قير ، فنع بذلك

الجيش العثماني من التحرك الى داخلية البلاد ، أو الى محاصرة الاسكندرية دون أن يلتقى مع الجيش الفرنسي في معركة فاصلة

وفي ٢٤ يوليو أخذ نابوليون الاسكندرية مقراً للعسكر العام، ولم يكن قد رأى ذلك الثغر منذ احتله عند قدومه منذ سنة وشهر ، ولما التقى نابوليون بالجنرال مارمون (Marmont) ، قومندان حامية الاسكندرية، لأمه وعنفه على تمكين الجيش العثماني من النزول الى البر ، وكان هذا الجنرال قد خرج بألف ومائتي مقاتل لمقاومة العثمانيين، فلما رأى أنه لا يقدر على مقاومة ذلك الجيش الكبير عاد أدراجه الى الاسكندرية وتحصن فيها . ولو أسرع القائد العثماني ، ولم ينتظر قدوم نابوليون من الرحانية لكان من الممكن أن تكون النتيجة غير ما كانت ولكن الجيش العثماني بقي في أبي قير من يوم ١٤ الى يوم ٢٤ حتى تمكن نابوليون من الوصول الى الاسكندرية والوقوف في وجه خصمه . كل ذلك والجيش العثماني لا يظن أن الفرنسيين قد أصبحوا أمامه وجهاً لوجه، وأن المسافة بين الفريقين لا تزيد على بضعة كيلو مترات

ولقد سبق لنا أن قلنا أن وصف الحركات العسكرية في المواقع الحربية ليس من اختصاص المؤرخ المصري الذي يقصد تدوين تاريخ أمته . وأما وصف المعارك الحربية من الوجهة الفنية فهو من اختصاص كتاب الافرنج الذين بهمهم وصف المعارك لاسباب فنية وقومية ، ولهذا نكتفي بأن نقول إن الجيش العثماني في هذه المعركة لم يكن مستوفياً الاسباب التي تساعد على الفوز لعدم وجود قوة كافية من الخيالة . ولأن المالك الذين اعتمد على مساعدتهم لم يستطيعوا تقديم تلك المساعدة، ولأن سرعة نابوليون ونشاطه لم تمكن الأتراك من التحصن اللازم واستعمال الوسائل التي يستطيع بها شل حركات الجيش الفرنسي

وخلاصة ما يمكن ذكره من وصف هذه المعركة التاريخية أنه في فجر ٢٥ بدأ الجيش الفرنسي في الزحف وكان الجنرال (مورات) Murat على رأس جيش عدده ٢٣٠٠ فارس في المقدمة ، والجنرال (لان) Lannes ومعه ٢٧٠٠ في اليمين ، والجنرال (لانوس) Lanusse ومعه ٢٤٠٠ رجل لحفظ خط الرجعة ، والجنرال

دافو Davout ومعه ثلاثمائة من فرسانه يقوم بحفظ المواصلات بين الجيش والاسكندرية، ويمنع الاعراب من دخول شبه جزيرة أبي قير

وتلقى الجيشان وجهاً لوجه ومكثا ساعتين وقد لزمنا السكون ثم بدأت المدافع الكبيرة تقذف نيرانها على مراكب صغيرة للآراك دخلت بحيرة ادكو ففرق بعضها وانسحب البعض الآخر، وتقدم الجنرال مورات بفرسانه وباربعة بطاريات من المدفعية ونزل الاتراك الى السهل حيث كان الفرسان الفرنسيون ينتظرونهم وقذفت المدافع عليهم النار وفجرت البنادق أفواهاها تمطرهم الرصاص فحاولوا العودة والنزول الى المراكب

وكانت النتيجة أن نابوليون تمكن في يوم واحد (٢٥ يوليو) من القضاء على ذلك الجيش العثماني المؤلف من خيرة الجنود الانكشارية بسالة واقداماً، وقتل منهم في هذه الواقعة عدد كبير، واختل نظام الجيش العثماني فأركن جنوده الى الفرار طالبين النجاة بالالتجاء الى القوارب في مياه أبي قير ولكن الجزء الاكبر منهم لم يتمكن من اللحاق بالسفن ففرق منهم خلق كبير

وقد ذكر الفرنسيون أن نحو عشرة آلاف من الجنود الانكشارية غرقوا في محاربتهم الفرار، وذكروا أيضاً أن السرسدني سميت أميرال الأسطول الانكشاري كان في البر مع فئة من ضباط الانكبايز هيئة أركان حرب المشير مصطفى باشا، فلما رأى هزيمة الجيش العثماني، وبعد أن كاد يقع أسيراً في يد الفرنسيين، أسرع بالنزول في القارب للحقوق بسفينته. وهنا ذكر المؤرخون رواية لا أجد ما يدعو الى عدم تصديقها، وإن كنت لم أجد ما يثبتها أو ينفيها في المصادر الاخرى، تلك الرواية هي إنه كان بين الجنود العثمانيين الذين ألقوا بأنفسهم في البحر فراراً من الفرنسيين، جندي من الباشبوزق قد غلبته الامواج، وحامت حوله رسل الموت، وهو يقف مرة ويرسب أخرى، حتى أقتسه المقادير بجوارق قرب السرسدني الذي أبصر ذلك الجندي المشرف على الهلاك فمد يده لا تقاذه وتمكن، بمساعدة من معه من رفعه الى القارب فلم يكن من المفرقين

أفتدري أيها القارىء، أو كنت تعلمين أيها المقادير، من كان ذلك الجندي المشرف على الهلاك الذي طرحته أمواج القدرة الإلهية بجوار ذلك القارب الذي يحمل بحارة من الانكاييز؟ ولم ترمه بجوار قارب من القوارب التي وصل إليها بعض أولئك الجند الذاهلين عن اخوانهم في الملة والدين، وكل منهم قد ذهل عن أخيه، وفصيلته التي تأويه؟

ذلك الجندي هو محمد علي من بلدة قولة الحقيرة، قدم مع القادمين المنطوعين لخلاص مصر من أيدي الفرنسيين، وما كان هو يدري، ولا المنجم يدري، أنه جاء هو سيجيئها ليستخلصها لنفسه، ولأولاده من بعده، سواء من أيدي الفرنسيين، ثم المماليك، ثم الانكاييز، ثم الاتراك... ولكن الى حين!! وهل كان يدري السر سدنى سميث، وهو يمد يده الى ذلك الجندي البائس الضائع الذي يكاد يلفظ النفس الأخير، أن هذا الرجل، بعد ثمانية أعوام بالضبط من هذا التاريخ، سيسحق بنفسه ورجاله الحملة الانكاييزية التي بعثت بها انكلترا إلى مصر في سنة ١٨٠٧، تحت قيادة الجنرال «فريرز»، ويلحق بها العار والشنار، ويبيع بعض جنودها الأسرى من الانكاييز، بيع السلع والمماليك والعبيد في سوق الرقيق؟ أترأه لو كان يدري ماذا كان يفعل؟ أظنه كان ينقذه من الغرق، ولكن ما أظنه كان يسمح له بالعودة الى أرض مصر في الحملة العثمانية الثانية؟! ولو غرق ذلك الجندي في تلك اللحظة، لتغيرت صحائف التاريخ ولما رأت مصر نبوغ محمد علي وهيمته، ولا بسالة ابراهيم وبطوانته، ولا إصراف اسماعيل ومهارته، ولا ذكاء عباس وكارنته!

أما قائد الحملة العثمانية السرعسكر مصطفى كوسه باشا فإن الجنرال مورات — قائد الخيالة الفرنسية التي أبلت بلاء حسناً في هذه الواقعة وكانت لها اليد العليا في ذلك الفوز الذي أنعمش قلوب الفرنسيين وأحيا ميت آمالمهم — أسره بيده بعد أن أطلق عليه القائد العثماني رصاصة من غدارته أصابت يده، وجاء به الى نابوليون فأحسن وفادته وأكرم مثواه

وكان مع المشير مصطفى كوسه باشا أحد أولاده فامتنع مع نحو ثلاثة آلاف من

الانكشارية وتحصن في طابية أبي قير وأبي التسليم على الرغم من النصائح التي أسداها إليه أبوه ، وقد كاف الجنرال منو ، الذي قدم بفرقة من الجند الفرنسيين من رشيد واشترك في المعركة ، بأن يوالى حصار ذلك الحصن حتى يسلم من فيه . وقد سلموا فعلا بعد قليل من الزمن .

ولما وصلت أخبار هذا الفوز الفرنسي الى القاهرة طرب الفرنسيون وشاركهم في أفراحهم وسرورهم جميع الذين كانوا يحشون قدوم الأتراك ، سواء في ذلك النصارى وبعض أفراد المسلمين الذين انحازوا للفرنساويين ، وارتبطت مصالحهم بوجودهم معهم . فقد روى « ميو » في مذكرةاته : أنه لما أذيع في القاهرة انتصار الفرنسيين في واقعة أبي قير كان النصارى يعانقون الفرنسيين فرحاً وطرماً ، وأقيمت الاحتمالات والزينات ثلاثة أيام متوالية ، وقال الشيخ الجبرتي في حوادث شهر صفر « وفي عشرينه أشيع أن الفرنسيين تحاربوا مع العساكر الواردين على أبي قير وأخذوا مصطفى باشا أسيراً وكذلك عثمان خجا وغيرهما ، وأخبر الفرنسيين أنه حضرت لهم مكانة بذلك من أكابره ، فلما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وبقي القلاع المحيطة بصحن الأزبكية وعملوا في ليلتها (أعني ليلة الأربعاء) حرقاً بالأزبكية من تقوطة وبارود وسواريح تصعد في الهواء ... ولم يذكر الجبرتي صورة الخطاب الذي بعث به الجنرال دوجا الى المشايخ واكتفى بقوله . . . « وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه (صفر) حضرت مكانة من الفرنسيين بحكاية الحال (عن واقعة أبي قير) التي وقعت لم أقف على صورتها » . ولكن المعلم نقولا الترك حفظ نص ذلك المذخور الذي طبع في المطبعة الفرنسية في القاهرة وتاريخه ٢ ربيع الأول . وهذا نصه حرفياً من رسالة المعلم نقولا :

« من حضرة ساري عسكر الجنرال « دركا » قائم مقام أمير الجيوش بمصر

حالا : الى علماء الاسلام ، وكافة أرباب الديوان

بعد السلام عليكم ، وكثرة الاشواق اليكم ، لا يخفاكم انه وصلني خبر صحيح بأن العساكر الفرنسية ملكت قلعة ابو قير في ١٤ ترميدور الموافق شهر صفر

سنة ١٢١٤ ، وأنهم استأسروا فيها ثلاثة آلاف نفر ومن الجلة مصطفى باشا . وغاية ما وقع أن العارة التي نزلت في أبو قير كانت بها عساكر خمسة عشر ألف لم يخلص منهم أحد بل الكل تلاشوا وهلكوا . ثم اخبركم عن لسان حضرة الساري عسكر الكبير بوزارته انكم في الحال تظهرون هذا الخبر بين الخاص والعام ، وتشهروه في الاقاليم المصرية فإنه خير فيه سرور وفرح . والزمكم أن تعرفوني في الحال عن إشهار هذا الخبر الفاخر المعبر . واخبركم ان حضرة الساري عسكر الكبير بوزارته يحضر اليكم عن قريب . والله تعالى يحفظكم والسلام ختام .

تحريراً في ٢٢ ترميدور سنة السابعة لمشيخة الفرنساوية الموافقة الى ٢ ربيع الاول سنة ١٢١٤»

وأما عثمان خججا أو خواجه الذي ذكره الجبرتي ، فقد كان من المماليك الذين تولوا الاحكام في مدة مراد بك ، وكان من أتباع صالح بك الذي كان أميراً للحج عند قدوم الفرنسيين ، وكان مولى من قبله على نغر رشيد فسام أهلها سوء العذاب ظلماً واستبداداً ، وكان مع صالح بك في حجته الأخيرة فلما مات هذا بالشام ، ذهب عثمان خججا الى الاستانة وجاء مع المشير مصطفى باشا وحيشه

ومع أن نابوليون أحسن معاملة مصطفى باشا وولده تودداً للعثمانيين وتقرراً منهم ، ورغبة منه في اتخاذ أسيره العظيم واسطة في الصلح والمخابرات مع رجال الدولة ، فإنه أراد ، من جهة أخرى ، أن يفهم المصريين والعثمانيين أنه لا يعفو عن المماليك ولا يعاملهم كما يعامل الاتراك ، فأصدر أمره بقتل عثمان خججا ، وفي رواية الجبرتي ، إنهم ذهبوا به إلى رشيد «وظافوا به في البلدة يزفونه بطبولهم وهو مكشوف الرأس حافي القدمين حتى وصلوا به إلى داره فقطعوا رأسه وعلقوه على شباك داره ليراها الناس أجمعين» .. وهذه الرواية ناقصة لأن نابوليون ما كان ليأمر بقطع رقبة كبير من أمراء المماليك بعد أن وقع في يده أسير حرب ، كما وقع مصطفى باشا وولده وغيره ، إلا بناء على تهمة توجه اليه ، وحكم يصدر عليه ، وقد وفق المعلم نقولا الترك في رسالته ، إلى الحصول على صورة التهمة التي وجهت الى عثمان خججا ، والفتوى بالحكم عليه

بالاعدام ، وقد طبعت تلك الفتوى في المطبعة الفرنسية . ولا أهميتها التاريخية
ولعدم تداولها في المصادر العربية تأتي على نصها

« هذه صورة الفتوى حكم الشرع الشريف الذي صدر من محكمة رشيد دام
جلالها على عثمان خجا (خواجه) خطاباً إلى حضرة الجنرال الحاكم في البلد المذكورة
مؤرخ في اربعة وعشرين من شهر تمديدور من إقامة الجمهور الفرنسي ، الموافق ٨
ربيع أول سنة ١٢١٤

وصلتنا مكاتبتكم بالأمر اننا نستخير ونكشف عن جميع الأعمال التي حدثت
من طرف عثمان خواجه كردلى، وننظر ان كان حصل منه الشرأ أكثر من الخير،
وبموجب هذا الأمر بحضور حضرة سيدنا شيخ الاسلام العالم المتورع الشريف
احمد الخضرى مفتى حنفى ، وتقيب الاشراف المكرم المحترم الشريف بدوى ،
وقدوة الأعيان الحاج احمد أغا السلحدار ، والمكرم على شاووش كستخدا، وقدوة
التجار احمد شجال ، والمكرم ابراهيم الجمال والشريف على الجمانى (لعله الجمانى)
والشيخ مصطفى ظاهر والشريف ابراهيم سعيد والمكرم محمد القادم والحاج باشى
سليمان وبحضور جماعة المسلمين خلاف المذكورين أعلاه

ثم حضر رمضان جمودى ومصطفى الجيار واحمد شاووش وعبدالله والحاج حسن
أبوجوده والحاج بدوى المقرالى وعلى أبو زرازين، وبدوى دياب وحسن عرب، وثبت
من لإقرارهم ومن شهادتهم أن عثمان الخواجه المذكور كان ظلمهم ظلماً شديداً
بالضرب والحبس من دون حق ، ونهب أملاكهم وخلاف ذلك — سئل جماعة من
المسلمين الحاضرين فى المجلس إن كان حصل من عثمان خواجه الشرأ أكثر من
الخير فكأنهم قالوا بلسان واحد أنه حصل من طرف عثمان خواجه الشرأ أكثر
من الخير ، وبسبب ذلك انقطع رأس عثمان خواجه حاكم رشيد سابقاً

مطابق لأصله وهناه باسم حاكم رشيد الآن — طبع بالمطبعة الفرنسية
بمصر المحروسة »

فهل كانت تلك المحكمة الغريسة تصدر هذا الحكم على عثمان خواجه

حاكم بلدتهم سابقاً ، لو أتيح للعثمانيين الظفر والفوز في واقعة ابي قير ؟ أو ما كان أولئك المشايخ والإعيان يستقبلونه بالطبول والزمور ، ويقيمون له الولائم ، ويمدحونه بالقصائد ، وينذكرون ما كان عليه من عدل وكرم وسماحة ؟؟
الإلهام الايام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات
إن في ذلك لعبرة !

ومع أن انتصار الفرنسيين في واقعة ابي قير قد كان عظيماً وحاسماً، إلا أنهم ابتاعوا ذلك الفوز بثمن غال وبأرواح ثمينة عزيزة خصوصاً لدى جيش سدت في وجهه السبل وصار إمداده بالرجال مستحيلاً، فقد خسر الفرنسيون في هذه الواقعة — على رواية نابوليون في تقريره لحكومة الديركتوار (ولاحظ أنه كان في جميع هاتيك التقارير يخفف من ذكر الخسارة ويباهى بانتصاره ويبالغ في خسائر أعدائه) — خمسمائة قتيل وخمسمائة جريح. ومات من قواده وضباطه الجنرال لاتورك (Leturcq) والقائد دوفيفيه (Duvivier) والقائد كريتين (Cretin) ^(١) ومن أركان حرب الضابط (Guilbert) وجرح الجنرالان لان ومورات وفوجيبر والضابط مرانجيه ومما يدل على سرور الفرنسيين بنتيجة تلك الواقعة ، ذلك المنشور الذي أصدره الجنرال نابوليون الى جيشه في اليوم التالي وفيه يقول :

« ان اسم ابي قير كان شؤماً لدى عموم الفرنسيين ولكن يوم ٧ ترميدور (٢٥ يوليو) جعل ذلك الاسم مقروناً بالفخر ، وان الانتصار الذي حازه الجيش في هذا اليوم سيساعد على عودته الى أوروبا في وقت قريب . لقد فتحنا « ماينيس »

(١) من أغرب الروايات عن (كريتين) هذا ما رواه زميله الكبتن تورمان في مذكراته التي نشرها فيما بعد الكونت فليري Le Comte Fleury وقد شهد الكبتن تورمان واقعة ابي قير بنفسه مع الضابط كريتين وكان كلاهما من متخرجي مدرسة الهندسة بفرنسا فقد روى عن زميله كريتين ما قبل الواقعة بزمان طويل بينما كانا يجوسان خلال تلك البقعة أن أبصر نجداً أو ما يسمونه تبة مرتفعة فقال لتورمان انني سأموت وسأدفن على هذه التبة . وجدت فعلاً انه قتل في واقعة ابي قير فدفنوه على تلك الربوة وأقاموا فيها قلعة ومرصدًا عرفا باسم « حصن كريتين » في الحرب مع الحملة الانجليزية بعد ذلك

وامتلكنا حدود «الرين» بغارتنا على جزء من المانيا ونعيد اليوم فتح املنا كنا في الهند واملنا حلفائنا . وهكذا تمكنا بواسطة معركة واحدة من أن نضع في يد حكومة بلادنا الوسائل اللازمة لاجبار حكومة انجلترا ، على الرغم من انتصاراتها البحرية ، على عقد صلح تفتخر به الجمهورية . ولقد تكبدنا كثيراً من المشاق وقاتلنا أعداءاً من جميع الأجناس والعناصر ، وسنضطر أن نقهر غيرهم ولكن النتيجة ستكون جديرة بفخارنا ، وجديرة بتقدير الوطن لاعمالنا حق قدرها »

وبدأ نابوليون في تنشيط رجاله بمكافأتهم على أعمالهم ومجهوراتهم فأصدر أمره لقومندان الطوبجية بأن يسلم إلى فرقة الجنرال مورات الخيالة المدفعين اللذين كانت الحكومة الانجليزية أهدهما للباب العالي وغنمهما الفرنسيون في هذه المعركة ، وأمر أن يحفر على ذينك المدفعين اسم الاورط الخيالة التي اشتركت في الواقعة وأن يحفر عليهما كذلك اسم الجنرال مورات والادجوانانت جنرال (رواز) وأن يكتب على حافة كل مدفع «واقعة أبي قبر» ثم أصدر أمره بأن تسمى ثلاث قلاع من قلاع الاسكندرية بأسماء كريتين ودوفيفيه ولاتورك ، تذكاراً لأولئك القواد والضباط الذين قتلوا في المعركة . وقد ورد ذكر أسماء هذه القلاع في حصار الانجليز للاسكندرية في الحرب الاخيرة مدة الجنرال منو وأصدر كذلك نابوليون أمره بترقية الجنرال فولتريه والجنرال برتران ومنح الاطباء الذين عالجوا الجرحى ثلاثة آلاف جنيه

ومما هو جدير بالذكر ، فيما له مساس بتأثير الظروف والمخاطب أو المقادير على بني الانسان ، أن واقعة أبي قبر هذه أثرت في تاريخ الجنس البشري ، وفي حياة الاشخاص الذين اشتهر اسمهم فيها ولا سيما نابوليون بوناپرت وصهره (فيما بعد ذلك) الجنرال مورات ، فواقعة أبي قبر مهدت لنابوليون العودة الى فرنسا متوجاً بفار الفوز والانتصار والشهرة الحربية فسكنه ذلك من القبط على صولجان الحكم في فرنسا ، وواقعة أبي قبر الذي أظهر فيها مورات من المهارة العسكرية في حركات الخيالة ، ومن الجرأة والاقدام ما جعل نابوليون ينسى ، او يتغاضى عما نسب الى مورات من العلاقات الغرامية مع زوجته جوزيفين أثناء معارك ايطاليا . فقد كان

مورات فتى رشيق القوام ، حلو الشائل ، محبوباً لدى السيدات ، وكانت له منزلة خاصة لدى « مادام تاليان » ولدى « جوزيفين » . وطن في أذن نابوليون نبأ هذه العلاقات النسائية مع مورات فغضب عليه وأساء معاملته في ايطاليا وما قبله في حملة مصر الا مضطراً بتأثير مادام تاليان ، أو رغبة من نابوليون في إبعاده عن فرنسا خلال غيبته في حملة مصر . ومع ان مورات أبلى بلاءً حسناً في واقعة امبابه ، فان قلب نابوليون لم يصف له إلا بعد ذلك الفوز الحاسم في أبي قير — ذلك الفوز الذي اشتراه مورات بتعريض حياته للخطر والهلاك

وكان ذلك سبباً في توطيد علائق المحبة بين الرجلين ؛ وكانت أبي قير سبباً في زواج مورات « بكارولين » أخت بونابرت ، ثم الى ما وصل اليه حتى صار ملكاً لنابولي في ايطاليا . وهكذا الاقدار !!

* * *

ولما وصلت أنباء تلك الواقعة الى أوروبا اهتزت لها جوانب فرنسا طرباً وسروراً سيما وقد كانت فرنسا في ذلك الوقت مخذولة في حروبها مع النمسا وغيرها من الدول للعادية .

وأما الباب العالي فانه أظهر السخط على السرسدي سميت الذي كان سبباً في المجازفة بتلك الحملة ، وتعريض جيش كبير من عساكر الدولة العثمانية للانكسار ، دون اتخاذ الوسائل الكافية للنصر ، وانهز أحمد باشا الجزائر حاكم عكا فرصة انخزال السرسدي سميت فأكثر من التشجيع عليه ليبرر لدى رجال الدولة تأخره عن المخاطرة برجاله في تلك الحملة المشؤومة

وكان أميرال الاسطول العثماني يدعى باترونابك فلما فشلت الحملة اتهمه الانكشارية في رودس بأنه مالا أعداء الاسلام وقصر في واجباته فحكموا عليه بالاعدام وقتلوه أشنع قتلة . ومن آراء نابوليون في هذه المعركة قوله في مذكراته التي أولحى بها للجنرال برتران في سانت هيلانة

« ليت شعري ماذا كان يؤمل السرسدي سميت من تقرير تلك الحملة والاشارة

جها؟ أكان يؤمل الاستيلاء على مصر بواسطة ثمانية عشر ألف رجل من المشاة
عديبي الخبرة والدربة ولا خيول عندهم ولا مدافع ولا آلات حربية تحمي ظهورهم؟
أم كان يرجو من وراء ذلك أن يحمل الجيش الفرنسي على فتح باب المحابر
السي يعود الى أوربا؟ فهل نسي أن بونابرت كان قائد ذلك الجيش وبطله المغوار؟
لا يوجد إلا جواب واحد على هذه الاستئلة وهو أن جهل ذلك الضابط البحري
بشؤون الحرب البرية هو الذي برّر عنده مشروع تلك الحملة . ولقد ارتكب مثل
هذه الغلطة الفظيعة حين ألقى في يد الهلاك والفناء ، على سواحل دمياط ، بضع
مئات من أحسن الجيوش الانكشارية بعد هذا التاريخ بشهور قلائل « اه

ولكن هناك جواباً آخر غير جهل السر سدي سميت القائد البحري ، بالحرب
البرية ... ذلك الجواب الذي أثبتته تاريخ انكثرا الاستعماري في جميع حوادث
القرن الماضي ، هو أن الانكاييز لا يبالون بتقدير ما يعرضون من الرجال للموت
والفناء ، ما دام أولئك الجنود من جنس غير جنسهم ، وطينة غير طينتهم ، فلم
الغنم وعلى غيرهم الغرم . ووقائع السودان ، وحملة هيكس باشا ، وحوادث الحرب
الأخيرة في شمال فرنسا ، أعظم برهان على هذا الرأي ، والسياسة لا قلب لها
ولا ضمير . وهكذا فعلت فرنسا بأهل مرا كس والجزائر في الحرب الاخيرة .
وهكذا تفعل جميع الامم والدول

٦ - استطلاع أخبار فرنسا

وفي صبيحة اليوم التالي للواقعة (٢٦ يوليو) ، وقبل أن يعود نابوليون الى
الاسكندرية أوفد اثنين من ضباطه لمقابلة السر سدي سميت في بارجهت المسماة
« نايجر » (النمر) بحجة المحاربة معه في تبادل الأسرى من الفريقين ، إذ كان
عند الاميرال الانكاييزي نحو ثلاثين من الجند الفرنسيين الذين أسروا في حصار
عكا ، كما أنه كان عند الفرنسيين كثير من أسرى الاتراك ولم تكن رغبة تبادل
الأسرى هي التي حملت نابوليون على ايجاد ذينك الضباطين لمقابلة عدوه اللدود

بل كانت له من وراء ذلك غاية أخرى ، وهي الوقوف من السر سدنى سميث على أخبار فرنسا وأحوالها ، بعد أن انقطعت أخبارها عن نابوليون عدة شهور ، وربما كانت له غاية أخرى ، وهي الوقوف على حركات خصمه وسكناته ، لعله يتمكن من الافلات من يده ، خصوصاً وقد صمم نهائياً على مغادرة القطر المصري والعودة الى فرنسا بعد أن تحقق لديه أن الحملة الفرنسية في مصر مقضى عليها بالفشل ، لضعف الحكومة المركزية في باريس ، ولانقطاع المواصلات والمدد بين فرنسا ومصر بعد تحطيم الاسطول الفرنسي ، وعجز البحرية الفرنسية عن مجاراة الانكليزية . فلما وصل الضابطان المشار اليهما آنفاً الى البارجة الانكليزية ، استقبلهما السر سدنى سميث بالحفاوة والتكريم . وذكر « بورين » في مذكراته أن نابوليون بعث مع رسوله بهدايا نفيسة للسر سدنى سميث فأهدى هذا مثلها للضابطين ولاطفها كثيراً وقبل منهما ما جاءه الأجله من تبادل الاسرى

ولم يكن ليخفي على مثل السر سدنى سميث أن وراء فكرة تبادل الاسرى وزيارة أولئك الضباط غاية أخرى لنابوليون ، ولكن لم يثبت لنا التاريخ في مذكرات أو معلومات ما كان ينويه الاميرال الانكليزي حين أعطى الضابطين الفرنسيين ، فيما أعطاهم ، بضع نسخ من الجرائد الانكليزية ومجموعة من أعداد جريدة (لاجازيت فرنسيه ده فرانكفورت) الصادرة في المدة الواقعة بين أول ابريل وآخر يونيو من تلك السنة ، وقد كانت أعداد هاتيك الصحيفة والصحف الانكليزية مشحونة بأخبار انخزال الجمهورية الفرنسية وخسائرها في حروب المانيا والنمسا وايطاليا

ويرى فريق من كتاب الانكليز أن السر سدنى سميث أراد ، بإرسال تلك الصحف لنابوليون ، ايقافه على أحوال بلاده واختلال شؤونها ليحمله على فكرة الانجلاء عن مصر والعودة الى فرنسا ، وكانت نظرية عقد صلح ، مع قائد الجيش الفرنسي في مصر ، يقضى بجلء ذلك الجيش عن وادي النيل ، جلاء مقرراً بالحقوق العسكرية ، أو ما يسمونه « شرف الحرب » ، — فكرة قائمة برأس السر سدنى سميث .

والدليل على ذلك أن قرر تنفيذها مع الجنرال كبير ووضعت لذلك معاهدة وافية بعد سفر نابوليون ، دون أن تكون لدى السر سدنى سلطة تحول له ذلك العمل من حكومة بلاده . ويرى فريق من كتاب الفرنسيين أنه أراد أن يحرك في نفس نابوليون فكرة الفرار من مصر حين يعلم باختلال الاحوال في فرنسا ونضوج الثمرة التي كان يتطلع اليها ، وربما كان يؤمل السر سدنى سميث من وراء ذلك أن ينقض على نابوليون ويأسره في البحر ويأخذ كل ما معه من التحف والطرف غنيمة باردة !! ويرى غير هؤلاء أن السر سدنى سميث أراد مجرد النكاية بنابوليون حين أرسل له تلك الصحف ، كأن يقول له « كيفما كانت انتصاراتك في البر فأنت في قبضة يدي وبلادك مخدولة في حروبها مضطربة في داخلتها » وربما أراد الاميرال الانكليزي كل هاتيك الاغراض . ولكن ما لا نزاع فيه ، والذي عليه ثقة المؤرخين ، هو أن نابوليون لم يكن جاهلا بأحوال بلاده واضطراباتها . فقد ثبت من التحقيقات التاريخية أن يوسف بونابرت ، شقيق نابوليون ، بعث له رسائل وصلت اليه ، على رواية بعضهم ، وهو في حصار عكا ، وعلى رواية آخرين ، وصلت اليه في القاهرة ، شرح له فيها حالة فرنسا وحثه على الاسراع في العودة اليها وقد روى (ميو) في مذكراته حكاية غريبة ، وهي إن أسرة نابوليون في فرنسا استأجرت رجلا يونانياً اسمه (بورباكي) وكانت له سفينة راسية في ميناء (ليفورنو) بإيطاليا ، واتفقت معه على مبلغ أربعة وعشر الف فرنك تدفع له إذا هو استطاع إيصال الخطابات التي كتبها شقيقه الى يده في مصر ، وذكر (ميو) أن بورباكي وصل الى الاسكندرية وتواترت اشاعة في الجيش الفرنسي ، بعد عودته من سوريا ، بقدم رجل يوناني في بعثة سرية من فرنسا . وشك « ميو » في وصول خطاب من حكومة الديركتوار لنابوليون يدعوه الى العودة الى فرنسا لتولي قيادة جيوشها . ولكن المؤرخين المعجبين بنابوليون ، ذكروا نص ذلك الخطاب وتاريخه من باريس في ٢١ مايو سنة ١٧٩٩ ، فيكون وصوله الى القاهرة في أواخر شهر يونيو معقولا .

وعنى كل حال فلا نزاع في أن نابوليون لم يكن في حاجة الى صحف السردنى سميث ليصمم على العودة بنفسه الى فرنسا ، فإنه ، قبل أن يتولى قيادة الحملة على مصر ، كان متطلعاً الى السيادة على فرنسا . ولا يخفى على ذكاء مثله الوقاد ان مصر لا تكون إلا في يد صاحب السيادة البحرية ، وان اتصاله بفرنسا قد أصبح مقطوعاً ، وان آماله في الشرق قد قضى عليها القضاء المبرم في عكا ، فعودته لبلاده في ذلك الوقت كانت ضربة لازب . وانما اتخذ ما ورد في تلك الصحف واسطة للتأثير على من أراد أن يعود بهم من القواد ، وليبرر خطته أمام بقية ضباط الجيش وقواده ورجال البعثة العلمية الذين جاء بهم ، ثم تركهم وانسل الى وطنه قال بوريين في مذكراته ما نصه :

« لما وصلت الصحف التي أرسلها السردنى سميث انكب نابوليون على تلاوتها طول الليل » ومن حديثه بعد ذلك مع بوريين قوله :
« لقد وقع ما كنت أخشاه ! لقد خسر أولئك البلهاء ايطاليا ، وذهبت انتصاراتنا هباء منثورا : فلا بد لى من مبارحة مصر حالا »

ثم أمر بان يستدعى اليه الجنرال الكسندر برتنيه فلما حضر أمره بالجلوس وقال له « ان الأمور في فرنسا سائرة من ردى الى أردأ ولا بد لى من السفر وأحب أن تكون معى » ثم اجتمع نابوليون بالاميرال (غانتوم) واستدعوا اليهم (بوريين) ، ناقل هذه الرواية ، وانفق الاربعة فيما بينهم على كتم السر وأمر غانتوم بأعداد البارجتين لامويرون ولاكاربير La Carriere—La Muiron وإعداد سفينتين آخريين صغيرتين وهما لارافانث ولافورتون (الانتقام والحظ) ، وأن تكون بحارة هاته السفن لا يزيدون عن ٤٠٠ الى ٥٠٠ ، وأن يعد ما يلزم من المؤونة والمياه ما يكفي لمدة شهرين ، واختلى نابوليون بغانتوم وتباحث معه في طريقة الفرار والتحيل للخلاص من الوقوع في أيدي السفن الانكليزية

وأصدر نابوليون أمره بالسفر الى القاهرة ، وذلك أولاً لكي يوهم السردنى سميث ، الذى كان واقفاً بالمرصاد في بارجته « النمر » ، بأنه مصمم على البقاء في مصر

ونانياً يدعو معه من يشاء من خاصة رجاله ، وليأخذ الى فرنسا كل هاتيك
الجواهر الثمينة ، والمتقنيات الفاخرة ، والطرف النادرة ، التي جمعها من دور
الماليك ومن نسايمهم ... ولا نقول هذا القول الذي سبقت لنا الاشارة اليه
جزافاً ، فقد ذكر المعلم نقولا الترك العبارة الآتية بحروفها « ودبر بونا بارت أمر
السفر وهياً ثلاث مرات وأرسل لهم ليلا عدة صناديق مملوءة بالجواهر الثمينة ،
والاسلحة العظيمة ، والامتعة والقماش ، والامور التي كان اكتسبها »

* * *

٧ - آخر عهد القاهرة بنابوليون بونا بارت

في الخامس من شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ - الموافق يوم الاثنين ٣ ربيع
الاول سنة ١٢١٤ - برح نابوليون الاسكندرية قاصداً القاهرة فبات يوم ٦ في
الرحمانية ، وفي مساء يوم السبت ١٠ اغسطس وصل الى القاهرة . قال الشيخ
الجبرتي في حوادث ذلك اليوم « وفي ليلة الاحد تاسعه حضر ساري عسكر
الفرساوية بونا بارت ودخل الى داره بالازبكية وحضر صحبته عدة أناس من
أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضوره فذهب كثير من الناس الى الازبكية ليتحققوا
الخبر على جلسته فشهدوا الاسرى وهم وقوف في وسط البركة ابراهم الناس ثم
أنهم صرفوهم بعد حصه من النهار فأرسلوا بعضهم الى جامع الظاهر خارج الحسينية
وأصعدوا باقيهم الى القلعة ، وأما مصطفى باشا ساري عسكر فأنهم لم يقدموا به لمصر
بل أرسلوه الى الجيزة مكرماً » اهـ

وفي نفس ذلك اليوم الذي كان يتفرج سكان القاهرة على أسرى الاتراك
الذين اختار الجبرتي أن يسميهم « أسرى المسلمين » - مما يدل على أن المسلمين
لا يميزون في الدين جنسية - كان المشايخ العلماء والاعيان في القاهرة وسرايتها
يسمعون من فم نابوليون ، على لسان تراجمته ، مرّ الكلام وقادح اللفظ توبيخاً لهم

على ما أظهره المصريون من السرور والاستبشار بمقدم العثمانيين . وقد نقل لنا الجبرتي كلمات قليلة من العبارات التي فاه بها نابوليون في ذلك الموقف ، إلا أن المعلم نقولا الترك جاءنا بملخص خطبة تمقها قلمه بعبارات مسجعة ، كأنما كتبها لنابوليون ليلقيها بذلك النص !! والمؤرخان الجبرتي ، ونقولا الترك ، إنما جمعا شتات كلمات سمعها كل واحد منهم على حدة من أفراد من الذين حضروا ذلك المحفل . ولا يبعد أن يكون كل واحد منهما حاضراً ، لأن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وإن لم يكن إذ ذاك عضواً من أعضاء الديوان ، إلا أنه كان من كبار العلماء ، وشيخ رواق الجبرتية ، فله حق الذهاب مع العلماء والاعيان للسلام على نابوليون ، كما أن المعلم نقولا الترك قد كان بالطبع من الادباء المعروفين ، وقد مدح نابوليون بقصيدة، وله صلات بالمشترقيين والسوريين المترجمين من أبناء جنسه . فمن الممكن أن تكون روايته لأقوال نابوليون أصدق وأوفى من عبارة الجبرتي ، خصوصاً وإن في عبارات نابوليون شيئاً من التعريض بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يرضى الجبرتي أن يثبتها في كتابه

لهذا نرى من الضروري أن تثبت العبارتين ولا سيما أن المسيو « كرسيتيان شرفيس » صاحب كتاب (بوناپارت والاسلام) اهتم بعبارة المعلم نقولا ونقل صورة فوتوغرافية للصحيفة الواردة فيها ، من النسخة المطبوعة في باريس

وإلى القارىء عبارة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . قال : « ولما استقر سارى عسكر بوناپارته في منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والاعيان وسلموا عليه . فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن سارى عسكر يقول لكم انه لما سافر إلى الشام كانت حالتهم طيبة في غيابه وأما في هذه المدة فليس كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسي لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم فكنتم فرحانين مستبشرين وكنتم تعارضون الأغا في أحكامه وأن المهدي والصاوي ما هم « بونو » أي ليسوا بطيبين ونحو ذلك . وسبب كلامه الحكاية المتقدمة التي حبسوا بسببها

مشايخ الحارات فان الاغا الخبيث^(١) كان يريد أن يقتل كل يوم أناساً بأذنى سبب فكان المهدي والصارى يعارضانه ويتكلمان معه في الديوان ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة وهو يرسل إلى سارى عسكر فيطالعه بالاخبار ويشكو منها . فلما حضر عاتبهم في شأن ذلك فلاظفوه حتى أنجلى خاطره وأخذ يحدّثه على ما وقع له من القادمين الى أبى قير والنصر عليهم وغير ذلك « اه

وأما عبارة المعلم تقولوا الترك فهي كما يأتي « وفي خامس شهر ربيع أول (هذا خطأ وصوابه عاشر) حضر أمير الجيوش إلى مصر، ودخل بالعز والنصر، وبلدت أعداؤه بالذل والتهير، وصحبته مصطفى باشا وولده مأسورين مع جملة الاسارى (وهذا أيضاً غير صحيح لان مصطفى باشا وابنه أرسلوا للجيزة قبل قدوم نابوليون بعدة أيام) وفي ثانی يوم من وصوله حضرت عنده جميع الحكام والعلماء والاعيان وأرباب

(١) كانت كلمة الاغا اذا ذكرت منفردة يراد بها المستحفظان أى محافظ القاهرة أو بمبارة أصبح حكمدار البوليس، لان الوجاق السادس في زمن المماليك كان يسمى وجاق الافكشارية ويسمى أيضاً المستحفظان، أى وجاق الحراس الذين يناط بهم حفظ المدينة، فأغوا وجاق المستحفظان أى ومندان أورطة الانكشارية يسمى «أغات مستحفظان» أى حكمدار البوليس في الوقت الحاضر وان كانت هناك في ذلك الوقت وظيفة اسمها رئيس الشرطة، هي دون وظيفة أغات مستحفظان وكان أول من عين لهذه الوظيفة عند قدوم الفرنسيين محمد اغا المسلماني الارمني الاصل، ثم عين بدله رجل يقال له مصطفى اغا، وكأل من آلات الفرنسيين وصنائهم وقتله الاترك لما دخلوا القاهرة في مدة كايبر، وكان من أتباع هذا الاغا رجل اسمه عبد العال وصل في المدة الاخيرة للفرنساويين في مصر الى أن صار هو أغات مستحفظان وله حوادث مشهورة واضطر أن يسافر مع الفرنسيين عند خروجهم خوفاً من انتقام الاترك والمصريين منه لظلمه وجره . وقد أقام في مرسيليا وتوفي بها . قال عنه رقاعة الطهطاوى أحد رجال البعثة العلمية التي أرسلها محمد على الى فرنسا العبارة الاتية

« ثم أنه يوجد في مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنسيين حين خروجهم من مصر وهم جميعاً يلبسون لبس الفرنسيين . ويندر وجود أحد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيين فان منهم من مات ومنهم من تنصر والعياذ بالله خصوصاً المماليك الجورجية والجركية والنساء اللواتي أخذهن الفرنسيين صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوز باقية على دينها . ومن تنصر انسان يتنازل له عبد العال ، ويأل أنه كان ولاءه الفرنسيين بمصر أغات أنكشارية في أيامهم فلما سافر تبينهم وبقي على اسلامه نحو خمسة عشر سنة ثم بعد ذلك تنصر والعياذ بالله بسبب الزواج نصرانية ثم مات بعد قليل . ولقد رأيت له ولدين وبناتاً أتوا في مصر وهم على دين النصرانية أحدهما معلم الآن في مدرسة أبى زعبل »

الديوان ، وهناؤه بقدمه وانتصاره ، فنظر اليهم بعين فراسته واختباره ، وقد وجدهم في حزن شديد . وقد بلغه الهرج الذي حصل في غيابه ، وعزمهم عليه في انقلابه ، والكتابات التي أتت إليهم من مصطفي باشا وعثمان خواجه حين حضروا إلى أبي قير فقال لهم « لقد أخذني منكم العجب أيها العلماء والسادات إذ أني أراكم تغتمون وتجزنون من انتصاري ، حتى الآن ما عرفتم مقداري ، وقد خاطبتكم مراراً عديدة وأخبرتكم بأقوالى بأنني أنا مسلم موحد ، وأعظم النبي محمد ، وأود المسلمين ، وأنتم إلى الآن غير مصدقين ، وقد ظننتم أن خطابي هذا خشية منكم مع أنكم شاهدتم بأعينكم ، وسمعتم بأذنكم ، قوة بطشي واقتداري ، وحققتم فتوحاتي وانتصاري ، فقولي لكم اني أحب النبي محمد ، ذلك لأنه بطل مثلي ، وظهوره مثل ظهوري ، بل وأنا أعظم منه ، إذ أني غزوت أكثر منه ، ولى باقي غزوات غزيرة ، وانتصارات كثيرة ، سوف تسمعونها بأذانكم وتشاهدونها بأعينكم ، فلو كنتم عرفتموني ، لكنتم عبدتموني ، وسوف يأتيكم زمان به تذلون ، وعلى ما فعلتم تندمون ، وعلى أيامنا تنحسرون وتبكون ، فأنا قد بغضت النصارى ولاشيت ديانتهم ، وهدمت معابدهم ، وقتلت كهنتهم ، وكسرت صلبانهم ، ورفضت إيمانهم ، فهل تريدون أن أرجع نصرانياً ثانياً ، فإذا رجعت فلا تجدون في رجوعي فائدة ، فدعوا عنكم هذه الاحوال ، وأمتلوا الأمر الله المتعال ، وكونوا فرحين مطمئنين ، ليحصل لكم النجاح والصلاح . وقد نهيتكم مراراً عديدة ، ونصحتكم نصائح مفيدة ، فان كنتم تعرفونها وتذكرونها ، فترجحوا وتنجحوا وان كنتم رفضتموها تنحسرون وتندمون » اه كلام نابوليون . وقال المعلم نقولا « ثم انصرفت العلماء وهم منذهلون من هذا الخطاب ، ومتعجبين كل الاعجاب ، ولم يقدر أحد أن يرد له جواب » اه

ونحن نترك مناقشة ما كتبه مسيو شرفيس تعليقاً وبحثاً في هذه الأقوال المنسوبة إلى نابوليون بونا بارت ، إلى الباب الذي سنخصصه في الكلام على مسألة بونا بارت وإسلامه ، وقد وعدنا بذلك في مواقف سابقة . ولكن لا بد لنا من القول ها هنا بان عبارة المعلم نقولا مبالغ فيها وان نابوليون ما كان ليخطر له بيال في

تلك اللحظة ، أن له بقية من « غزوات غزيرة وانتصارات كثيرة » ولعل المعلم نقولا كتب رسالته ، أو أعاد تنقيحها ، بعد أن ذاعت شهرة نابوليون وغزواته في أوروبا فاختلق من دماغه ما اختلق

وكان من نتائج فوز الفرنسيين في واقعة أبي قير ، كما هو ظاهر من عبارات نابوليون التي أذاعها في طول البلاد وعرضها ، أن يقوى النفوذ الفرنسي ، وأن ينجح الذين أظهروا الميل والولاء للفرنسيين الى التغالى والتعالى على المصريين ، وعدم المبالاة بشعورهم ، ولا سيما بعد أن بدت من المصريين بوادر الشئمة والاستبشار بقدم الأتراك . وما كان المصريون في ذلك الزمن يظنون أو يتخيلون أن الجيش التركي يقهر وينزل على أيدي جماعة كالفرنسيين . ومن العبادة الآتية التي نقلها عن الجبرتي ، دليل جلي على الحالة السياسية والشعور المصري في تلك الفترة . والعبارة على بساطتها لها دلالة قوية على ما كان يحس به المصريون بارزاً ، في صورة أبقمتها لنا ريشة الجبرتي : قال بمناسبة الاحتفال بحفلة وفاة النيل عقب عودة نابوليون للقاهرة :

« خرج النصارى ابليدية من القبطة والشوام والاروام وتأهبوا للخلاعة والقصف والتبرج والهو والطرب ، وذهبوا تلك الليلة الى بولاق ومصر المتيقة والروضة واكثروا المراكب ونزلوا فيها وصحبهم الآلات والمغاني ، وخرجوا في تلك الليلة عن طورهم ، ورفضوا الحشمة ، وسلكوا مسلك الامراء سابقاً من النزول في المراكب الكثيرة المقاديف وصحبهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم ، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين ، وبعضهم تزيوا بزى أمراء مصر ولبس سلاحاً وتشبه بهم وحاكى ألقاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك ، وأجرى الفرنسيون المراكب المزينة وحليها البوارق وفيها أنواع الطبول والمزامير في البحر ، ووقع في تلك الليلة في البحر وسواحله من القواش والتجاهر بلعاصي والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف ... الى آخره ...

وتترك للقارىء ما يستنتجه من مغزى هذه العبارة ونتقل إلى بقية أعمال

نابوليون في مصر قبل مبارحته أرضها

٨- محاولات سياسية مع تركيا

كانت المدة التي قضها نابوليون بوناپارت في القاهرة بعد معركة أبي قير عبارة عن أسبوع واحد (من يوم الأحد ١١ أغسطس إلى الأحد ١٨ منه) وصادف يوم ١١ ربيع الأول الموافق ١٣ أغسطس المولد النبوي فاحتفل السيد خليل البكري بالمولد كما عاده احتفالاً كبيراً أقام له مهرجاناً فخماً في الازبكية ودعا إليه نابوليون بوناپارت إلى منزله فلقى الدعوة. وإلى القارى رواية الجبرتى في هذا الصدد. قال: « دعا الشيخ خليل البكري سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده و ضربوا ببركة الازبكية مدافع و عملوا حراقة وسوارىخ و نادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الاسواق والدكاكين ليلا واسراج قناديل واصطناع مهرجان » اه وهكذا شارك نابوليون في احتفال المولد النبوي للمرة الثانية والاخيرة في حياته وهو مشغول البال بالاستعداد للسفر، أو بعبارة أصح للهرب من القطر المصرى

وفي هذه المدة حاول نابوليون الصلح مع الدولة العثمانية، خصوصاً وقد علم أن الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا قد برح الاستانة وحضر بنفسه الى الانضول وسوريا ليجمع جيشا يهاجم به مصر من طريق الشرق وأراد نابوليون أن يتخذ من وجود المشير مصطفى كومه باشا في القاهرة أسيراً، واسطة في المخاطبة مع الصدر الاعظم فكتب خطاباً طويلاً، لا تزال صورته باللغة الفرنسية محفوظة في أوراق وزارة الحربية، وفي مكاتبات نابوليون بنمرة ٤٣٦٥، وتاريخه ١٧ أغسطس، أى قبل سفره من القاهرة لاسكندرية ومنها لفرنسا بيوم واحد. ولما كان هذا الخطاب على جانب عظيم من الهمية السياسية، رأينا أن نأتى على تعريبه من الاصل الفرنسية. قال بعد الديباجة مخاطباً الصدر الاعظم

« أريد بواسطة هذا الخطاب أن أوقفكم على مركز مصر الحقيقي اعلى بذلك أساعد على فتح باب المخابرات بين الباب العالى والجمهورية الفرنسية فيما عساه يؤدى إلى وضع حد للحرب القائمة بين الامتين، تلك الحرب التي لا تعود إلا بالخسارة على الجانبين، وإنى لأدرى أى طالع نحس قضى بشبوب نار الحرب

بين أمتين عاشتا طول الزمان على صفاء ووفاق لبعد ما بينهما من الشقة ، ولعداوة فرنسا للروسيا ، وعداوة هذه الأبدية لتركيا . وكيف لا ترى دولتكم أن كل جندي تخسره فرنسا ، هو خسارة للامة العثمانية ؟ وكيف خفي على فطنتكم السياسية ، وخبرتكم بشئون ممالك العالم ، أن روسيا وألمانيا طالما اتفقتا على تجزئة المملكة العثمانية ولم يمنعها عن ذلك إلا معارضة فرنسا ؟

إن مثل دولتكم لا يخفى عليه أن العدو الحقيقية للاسلام هي روسيا ! أوليس القيصر بولس الاول رئيس فرسان مالطة يعلن أنه يحمل شعار الصليبيين ضد الاسلام ؟ أوليس هو حامى ذمار الارثوذكسية الرومية وأتباعها أ كثر أعداء المسلمين عدداً وأشدهم حقداً ؟

وأما فرنسا فلها بالعكس من ذلك قضت على فرسان مالطة وأفرجت عن الاسرى الاتراك الذين اعتقلهم المالمطيون ، وفرنسا هي التي تعتقد الآن كما يعتقد المسلمون أن الله واحد فرد صمد

ومعنى هذا كله أن الباب العالي قد أعلن الحرب على أصدقائه الاوفياء ، وحالف عليهم أعداءه الالاء ، ومن الغريب أن الباب العالي يبقى صديقاً لفرنسا وهي مسيحية حتى إذا خلعت رداء المسيحية ، وقاربت في معتقداتها دين الاسلام ، قلب لها الباب العالي ظهر المجنّ وبادأها بالشر والعدوان ! فلا نزاع إذن في أن روسيا وانكلترا قد خدعتا الباب العالي ، ومنعتا وصول رسلنا الذين بعثنا بهم للاستمانه ليشرحوا لحكومتها فكرة وخطة الخلة الفرنسية على مصر ، تلك الخطة التي صرحت مراراً وتكراراً من أنها لا ترمى إلا للقضاء على المماليك والاضرار بمصالح انكلترا ، دون التعرض إلى حقوق صديق فرنسا جلالة السلطان سليم ، وان المعاملة التي عاملت بها جميع رجال الدولة العثمانية الذين وجدتهم في مصر ، وكذلك معاملتنا لاسفن التي تحمل الراية العثمانية ، لأصدق برهان على حسن نيات الجمهورية الفرنسية . ولكن مع كل هذا أعلن الباب العالي الحرب على فرنسا في أول يناير ، ومع علمي بذلك فأننى لم أياس من إمكان اعادة المياه الى مجاريها ، فبعثت بالسنتين « بوشان » قنصل

الجمهورية الفرنسية رسلوا للباب العالي فقوبل بالقبض عليه وسجنه ، وقوبلت
مساخر بجشد الجيوش في غزة وأمرها بالزحف على مصر فاضطرت ان احاربها في
سوريا ، بدلا من ان تحاربني في وادي النيل

ولا يخطرن على بالكم اني اكتب هذا خوفاً ورتافاً ؛ كلاً فان جيشي قوى
مدرّب جامع لكل الصفات التي تؤهله لتقهر أعدائه ، وقد أقت القلاع والحصون
على الحدود وعلى شواطئ البحار فأصبحت في أمن ، وأضحت جيوشي لا تغلب ،
ولكني مع كل هذا رأيت من واجبي نحو الانسانية ، ونحو السياسة الرشيدة
الصحيحة ، ونحو أقوم وأصدق حليف لفرنسا ، أن أسعى هذا المسعى

وإني رائق من أنه لا يمكن للباب العالي أن يدرك بالحرب وإراقة الدماء ،
ما يناله بالمسألة والصفاء ، وإني لعلى قدم الاستعداد لسحق أى جيش يقصد به
الاغارة على مصر ، ولكني مستعد من جهة أخرى أن أقابل كل مسعى للتوفيق
بأحسن ما تريده الدولة العثمانية من التساهل . فعليكم بعد هذا أن توقفوا نيار هذه
الاستعدادات التي تبذلون فيها نهاية جهدكم عبثاً ، ولتعالوا أن أعداء تركيا ليسوا
في مصر ، بل هم على مقربة من البوسفور ، وهم الآن في جزيرة كورفو تمخر سفنهم
في مياه الأدرخيل بسبب سوء تصرفات رجال الدولة (يشير الى وجود السفن
الروسية في البحر الابيض وخروجها من البوسفور)

على تركيا أن تقوى جيوشها وتمكث من بناء السفن وتسليحها ولتدعو المسلمين
تحت ظل البيرق النبوي ، لا لمحاربة فرنسا ، بل لمحاربة الروس والامان الذين يريدون
جميعاً إضعاف تركيا ونيل أغراضهم . وان قلتم إن تركيا تريد مصر ، تقول لكم
إن فرنسا لم ترد ولا تريد أن تسلبكم إياها

فاما أن تبعثوا بسفراء مفوضين لباريس ، وإما ان تبعثوا برسول منكم الى
القاهرة ، وإني أؤكد لكم أنه لانتقضى ساعتان من الزمان في المناقشة والابضاح ،
حتى يتم الاتفاق على الصلح والسلام ، ونحن مستعدون أن نقفل البحر في وجه
الروسيا ونقاوم تلك الدولة التي تتخذنا جميعاً العوبة لأغراضها ومطامعها ، فليس

من مصلحة فرنسا أن توجه مهارة جيوشها وبسالة جنودها ضد المسلمين ، بل بالعكس تقضى مصلحتها بالاتفاق على الدوام ضد أعدائها وأعداء الاسلام . وأظن لاني وفيت المقام حقه من الشرح والبيان ، فان أردتم المخاطبة في إمكانكم استدعاء الستوين بوشان الذي بلغني أنه محجوز عندكم . وفي إمكانكم اتخاذ أية وسيلة أخرى ، واني أؤكد لكم إن أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي أستطيع فيه إيقاف تيار العداوة بين تركيا وفرنسا ، والقضاء على هذه السياسة العقيمة الخ
الامضاء « بونا بارت » (١)

وبعث نابوليون هذا الخطاب مع أحد الضباط العثمانيين المأسورين ، بانفاق وتعليقات من المشير مصطفى باشا . ولا علم لمولانا الشيخ الجبرتي بهذه المساعي لأنه لم يشر إليها بحرف واحد ، ولكنها اتصلت بالمعلم فتقولا الترك فأشار إليها بقوله « وابتدأ (بونا بارت) يكتب الدولة على يد مصطفى باشا ويذكرهم صداقة الفرنسيين ويحذرهم من باقي الدول وأن الافوق لهم إقامة الفرنسيات في مصر وأنهم أنسب من الغزوت بقى الخطبة والسككة باسم الدولة العثمانية وبمشي الحج كعادته القديمة ويدفعون الأموال المعتادة للخزينة ، وارسل مصطفى باشا هذا الخطاب مع أحد أتباعه »
ومثل هذه البيانات لا بد أن يكون قد سمعها المعلم نقولا من المحيطين بالمشير الألماني من السور بين التراجمة ، ومثل هذا لا يتيسر طبعاً للشيخ الجبرتي

ولا شك في أن هذه المساعي النابوليونية ، لم تلق من الأترك آذاناً صاغية لأن تفوذ انكابترا كان بالغاً حده في الاستانة بواسطة الصدر الأظم يوسف ضيا باشا ، الذي كانت صلته مع السير سدي سميت تلى غاية الإحكام والوفيق ، وكان مع ضيا باشا عدد كبير من الضباط الانكابتز ، كما يظهر ذلك جلياً من أخبار متقطعة ، وجمل متفرقة ، يراها القارىء في تاريخ هذه الفترة من كتاب الأمير حيدر الشهابي وكان السير سدي سميت تعرف بالامير بشير الشهابي في بيروت وسعى للتوفيق

(١) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية — مكاتبات نمرة ٣٦٥ ؛ (١٧ أغسطس سنة ١٧٩٩)

والصلح بينه وبين احمد باشا الجزائر ، فلم يحفل به ذلك الطاغية ، فأراد الاميرال الأنكاييزى الاستعانة بنفوذ الصدر الاعظم فلم يحفل به الجزائر أيضاً .

وليس هذا مجال البحث فى تلك الآراء النابوليونية فيما يختص بعلاقات تركيا مع فرنسا السياسية ، ولا سيما فيما له علاقة بمصر وبتناء السيادة العثمانية مع الاحتلال الفرنسى فإن أحوال الزمان قد تغيرت ، ومراكز الدول قد تبدلت ، إلا أن ذلك لا يمنع أن نقول أن ما قرره نابوليون من عداوة روسيا لتركيا — تلك العداوة الدائمة الأبدية التى قضت بها صوالح الدولتين وتجاوزهما ، وتعارض أغراضهما — لا يختلف فيه اثنان ، ولكن مع هذا وقعت بينهما السياسة الأنجليزىة فى ذلك الزمن كما وقعت بين فرنسا وتركيا ونفسها ضد روسيا فى حرب القرم ، وكما وقعت بين فرنسا وروسيا ونفسها أيضاً ضد ألمانيا وتركيا فى الحرب الاخيرة الكبرى ؛ فهل معنى هذا أن السياسة الأنكاييزىة أرقى وأدق وامهر من جميع سياسات الدول الاخرى؟ وهل أوتى الأنكاييز من الحكمة والدهاء وبعد النظر ما لم يؤتة غيرهم ؟ الحقيقة فى رأينا القاصر أن الفضل فى نجاح السياسة الأنكاييزىة فى جميع الادوار ، راجع إلى تماسك أجزاء الامة البريطانىة ، وتوحيد أفكار القائمين فيها بأدارة الامور وتدبير مهام الملك ، وإلى الكثير من الحظ الذى لا يزال طاعه ملازماً لهذه الدولة البريطانىة

الاستعداد للسفر

فى اليوم الذى كتب فيه نابوليون بونابارت ذلك الخطاب إلى صاحب الدولة الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا كتب خطاباً بهت به إلى أعضاء الدewan من المشايخ والاعيان ، لم يذكر نصه الجبرتى ، ولا المعلم تقولا سوى ما قاله الاول « وفى ثالث عشر اشيع أن كبير الفرنسيس سافر إلى جهة بحرى ولم يعلم أحد أى جهة يريد وسأل أحدهم بعض اكابرهم فأخبر أن سارى عسكر المنوفية (الجنرال لانوس) دعاه إلى ضيافته بمنوف ، وراج ذلك على الناس وظنوا صحته »
وإلى القارىء نص خطاب نابوليون معرباً عن المصادر الفرنسىة :

« إلى أعضاء الديوان الموقرين

« غداً أسافر إلى منوف حيث أتوى التنقل في جهات الوجه البحرى لأقف بنفسى على المظالم التى يمكن أن يكون قد ارتكبها الحكام ، وأتفقد الاحوال ، وأتعرف بأهالى البلاد ، ولذلك أطلب منكم أن توطدوا دعائم الثقة عند الخاصة والعامه ، وأكثروا للامة المصرية ، أننى أحب المسلمين ، وأسعى فى خيرهم وسعادتهم ، وفهموا الناس أن لدى من الوسائل ما أنفع به الاصدقاء ، وأنكّل بواسطته بالاعداء ، وأحب أن تبعثوا لى دائماً بأخباركم ، وتوقفونى على حقائق الامور ومقتضيات الاحوال . اه :

الامضاء « بونا بارت »

وظاهر أن نابوليون إنما قصد بهذا الخطاب التعمية والابهام لسكيا يذيع سر سفره من القطر المصرى .

وروى بعض المؤرخين أنه قد كان فى نية نابوليون قضاء أسبوع آخر فى القاهرة لكثرة ما لديه من المهام التى تقضى وضع خطط ونظامات ، ولانه كان يود أن يأخذ ، معه صديقه الجنرال (ديزيه) فاتح الصعيد ليكون من أكبر أنصاره وأعوانه فيما يطمع إليه من الاغراض فى فرنسا ، ولكن (ديزيه) كان فى أقصى الصعيد وتلزم لحضوره مدة طويلة ، وما منع نابوليون من انتظاره ، إلا ما ورد إليه من الاخبار التى بعث بها الاميرال غاتوم من الاسكندرية يخبره فيها بابتعاد السفن الانكليزية عن المياه المصرية ، أنه إن لم تسافر السفينتان اللتان ستقلان نابوليون وحاشيته فى ٢٤ اغسطس ، فلا يبعد أن تعود البواخر الانكليزية ويكون السفر إلى فرنسا مهدداً بالخطر إن لم يكن مستحيلاً

ففى يوم ١٨ اغسطس برح نابوليون القاهرة قاصداً منوف ، وكان القواد الذين صمم على أخذهم معه الجنرالات مورات ، وبرتران ، وأندريوسى ، ومارمون ، ولان . ومن رجال البعثة العلمية مونيخ وبرتلو ودنون وبرسفال . وروى يوربين سكرتير نابوليون فى مذكراته قال « وبقى سر السفر الى فرنسا مكتوماً ، إلا أن الجنرال (لانوس) ، قومندان مديرية النوفية ، لما نزلنا عنده فى يوم ١٩ لم تخف عليه وجهتنا ، فقال لى « لانكم مسافرون الى فرنسا » ولم يزد جواى بالنفى إلا زيادة فى الشك »

وفي يوم ٢٢ وصل نابوليون ومن معه إلى الاسكندرية . وقد قال برتران في مذكرات سانت هيلانة عند اختياره للجنرال كليبر في قيادة الجيش الفرنسي في مصر مانصه : « كان الجنرال ديزية أ كفاً ضابط لتولى رئاسة جيش الشرق ولكن وجوده في فرنسا كان أنفع ، ويليهِ في الدرجة الجنرال كليبر ، ثم الجنرال رينيه . ولقد فكر نابوليون في استصحاب أولئك الثلاثة معه إلى فرنسا وفي أن يترك القيادة في مصر للجنرال لانوس ، ولكن لما فكر في أخطار السفر في البحر ، فضل أن يترك رئاسة الجيش في مصر في يد ضابط ذى كفاية ووقع اختياره على الجنرال كليبر »

وهذه العبارة كتبت بعد ستة عشر عاماً من هذا التاريخ ، وأراد بها نابوليون تبرئة نفسه مما وجه إليه من التهم ، مع أنه لم يكن يحب الجنرال كليبر ولم يرد أن يقابله قبل سفره من مصر خشية من جرأة كليبر ولسانه المرّ ، ونحاشياً من أن يقول له « إما أن نساغر معاً وإما أن نبقى معاً » ، وإلا لو أراد أن يجتمع بالجنرال كليبر قبل سفره ، لضرب له موعداً مناسباً ، بل وما كان ليكفمه مشقة العودة إلى دمياط بعد أن حضر إلى أبي قير بعد نهاية الواقعة . والدليل على هذا الرأي أنه اختار لمقابته واعطائه الرسائل والتلميحات التي كتبها خلفه ، الجنرال منو المعروف بوداعته وخضوعه وولائه لنابوليون (١)

وكان نابوليون لما وصل إلى الاسكندرية أقام خيمته في الجهة المعروفة الآن

(١) يحسن بنا في هذا المقام أن نبين العلاقة التاريخية بين نابليون بونابرت والجنرال (عبدالله) جاك منو . وإن كان الجزء الأكبر من تاريخ الجنرال منو وحكومته في مصر بعد مقتل الجنرال كليبر ، مما يدخل في الجزء الثاني من تاريخ بقية الحملة الفرنسية في مصر . ولكننا نتول هنا ان نابليون كانت له يد قديمة وفضل سابق على الجنرال منو ، إذ كان هذا قدم للمحاكمة أمام (الكونغرسيون) لتقصير في واجباته الحربية سنة ١٧٨٩ (أى قبل الحملة على مصر بتسع سنوات) فدافع عنه نابليون بونابرت عند (باراس) وعنى عنه ، ولهذا بقي الرجل ذا كراً جليل بونابرت وكان من أكبر أعوانه بيزقواد الحملة . وأما كليبر فكانت علاقته سيئة مع نابليون . وكان هذا الأخير يحشاه كثيراً . وكبير ألماني العنصر لائمه «أزاسي» المواطن

وهذه المعلومات مأخوذة من كتاب Le General Abdallah Menou par

George Rigault

في الرمل بمحطة « كامب سيزار » (معسكر القيصر) فلما اجتمع به منو أعطاه كتاب التعليقات التي وضعها لسكايير وترك معه أيضاً عدة رسائل منها واحدة إلى ديزيه بدعوة إلى السفر لفرنسا بأقرب فرصة ورسالة أخرى لصديقه الخيم « جونو » يعتذرفيه لعدم تمكنه من أخذه معه ، وفي هذه الفترة ، وفي تلك البقعة الأثرية ، صرح نابوليون للجنرال منو ، لأول مرة ، بما تنوق إليه نفسه من التطلع إلى ملك فرنسا ، إذ قال له كما ورد في مذكرات سانت هيلانة :

« سأصل الى باريس وأطرد أولئك المحامين (أعضاء حكومة الديركتوار) الذين يهزأون بنا والذين لا يصلحون لإدارة أحكام الجمهورية ، وعند ذلك أضع نفسي في رئاسة الحكومة وأجمع حولي الأحزاب المتنافرة ، وأعيد الجمهورية الإيطالية وأثبت قدم فرنسا في هذه المستعمرة الفاخرة (مصر) »

رسالة بوناپارت

لسكايير خليفته

ترك نابوليون كايير خلفاً له في القيادة العامة على الجيش الفرنسي في مصر ، وبعبارة أخرى حاكماً عاماً مطلق التصرف في شؤون القطر المصري . وكتب له خطاباً مطولاً له قيمة تاريخية عظيمة لأن نابوليون رسم في ذلك الخطاب أو في تلك المذكرة السياسية ، الخطة التي يسلكها الجنرال كايير في الامور الداخلية والخارجية وهذا الكتاب محفوظ بالنص الاصلى في وزارة الحرب الفرنسية (وثيقة نمره ٤٣٧٤) ، ولأهمية هذا الخطاب ، وعدم وجود أثر له في اللغة العربية ، رأينا أن نأتي هنا على تعريبه بدقة واتقان ، قال :

« تجدد أيها القائد المواطن طي كتابي هذا أمراً تستلم بهوجه قيادة الجيش العليا فأني قد عازمت على تقديم موعد سفري يومين أو ثلاثة أيام خوف عودة السفن الانجليزية . وقد اصطحبت معي القواديرتيه وأندريوسى ومورات ولان ومارمون والمواطنين مونج وبرنوليه — وتجدد مع كتابي هذا بعض الأوراق التي ترى منها

أنا قد خسرتنا لإيطاليا وأن مدن مانتو وتورين وتورتون محصورة^(١) على أنه يوجد مجال للأمل بأن المدينة الأولى تتحمل الحصار إلى نهاية شهر نوفمبر المقبل، وأنا أرجو أن أصل إلى أوروبا — إذا اتسم لي الحظ — قبل ابتداء شهر أكتوبر

ونجد أيضاً لغة اصطلاحية للمخاطبة مع الحكومة ولغة أخرى للمخاطبة معي أنا أرجو أن تسفر في شهر أكتوبر (جونو) ومعهم خدمي وجميع حوائجي التي تركتها في القاهرة . ولا مانع أن تبقى لديك من تریده منهم

ترغب الحكومة في سفر الجنرال ديزيه إلى أوروبا في شهر نوفمبر ما لم تطرأ حوادث مهمة وستعود لجنة الفنون إلى فرنسا في شهر نوفمبر أي حالاً تنتهي مهمتها وأعضاؤها يهتمون الآن في إنجاز الاعمال الباقية التي تقوم بها في زيارة صعيد مصر . على أنه يجوز لك أن تستبقي منها من تنوّم فيه المنفعة لك

سافر الأزدى الذي أسرناه في أبي قير إلى دمياط وقد كتبت لك لترسله إلى قبرص فهو يحمل إلى الصدر الاعظم كتاباً تجده فيه نسخة منه

إن وصول أسطولنا إلى برست وطولون ، ووصول الاسطول الاسباني إلى قرطجونة لا يدع مجالاً للشك في امكان ارسالنا إلى مصر البنادق والسيوف والمسدسات وبقى المهمات التي نحتاجها والتي سأرسلها لك مع قسم من الجيش الاحتياطي لتعويض الخسائر التي أصابتنا في الموقعتين ، وستعدهم الحكومة حينئذ عن نياتها ، وأنا شخصياً بصفتي العمومية وبصفتي الخصوصية سأعد الاجراءات اللازمة لارسال لك ما يهمك من الأخبار من آن إلى آخر

وإذا لم تنجح الوسائل التي سنستعملها للاتصال بك لطروء حوادث ليست في الحسبان، ولم يصلك من الآن إلى شهر مايو أية نجدة وأي خبر من فرنسا، وإذا تقشى الطاعون في مصر على الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذت هذه السنة وقضى على ١٥٠٠ جندياً من جيوشك مما يعد خسارة كبرى ، فعليك والحالة هذه أن لا تترك متن الخطر في اثاره المعركة المقبلة بل أنك مفوض في عقد الصلح مع الباب العالي العثماني حتى ولو كان الجلاء عن مصر من شروط الصلح الأساسية، وإنما

(١) مدن ايطالية محصنة Mantone, Turin et Tortone

يجب أن ترجى ، تنفيذ هذا الشرط إلى حين عقد الصلح العام
وانك تقدر ، أكثر من أى شخص آخر ، أيها الجنرال المواطن ، أهمية امتلاك
مصر وبقائها في يد فرنسا . إن السلطة التركية المتداعية الأركان تهدم شيئاً فشيئاً
وسيكون إجلاء فرنسا عن مصر من المصائب التي تعظم نتائجها إذ قد نرى في
أيامنا ، هذه البلاد تنتقل إلى يد أوروبية أخرى
وعند ما تضع خططك يجب أن تراعى الأنباء التي ترد اليك عن انتصار أو
انكسار الجمهورية في أوروبا

إذا أجبك الباب العالي قبل أن تصلك أنباء من فرنسا ، وقبل فتح باب
مفاوضات الصلح التي اقترحتها عليه ، فيجب أن تصرح أنك حائز على كافة
السلطات التي أحوزها أنا ، وباشر المفاوضات ، وأبد ما سبق وصرحت أنا به من
أن فرنسا لا تنوى اقتطاع مصر من أملاك الباب العالي . واطلب انفصال الباب
العالي عن التحالف ، ومنحه إيانا حق التجارة في البحر الأسود ، واطلب هدية ستة
أشهر تبادل في أثمنها المصادقة على المعاهدة .

وإذا فرض أن الظروف حملتك على أن تعقد أنت بنفسك المعاهدة مع الباب
العالي ، فيجب إشعاره بأنه لا يمكنك تنفيذها قبل التصديق عليها ، وحسب المتبع
بين كافة الدول تكون المهلة بين إمضاء المعاهدة والمصادقة عليها هدية لا يحدث
فيها أى عمل عدائى

وانك تعرف ، أيها القائد المواطن ، ما هي نظريتي في سياسة مصر الداخلية
فإنك مهما تفعل فستجد المسيحيين دائماً أصدقاءنا . إنما يجب منعهم على كل حال من
الاستخفاف بمواطنيهم حتى لا يتعصب الأتراك ضدنا كما هم متعصبون ضد النصارى
فتصبح العلة لا شفاء لها ، ويجب أن تحذر روح التعصب وتنومها إلى أن تتمكن
من استئصالها . إذا حزت ثقة كبار مشايخ القاهرة فانك تجمع حولك أفكار مصر
بأجمعها ، وأفكار كل زعيم من زعماء الشعب . لا شئ أقل خطراً علينا من المشايخ

الذين يهربون القتال ولا يعرفون طرقه ، ولكنهم مثل القسيسين يوحون بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين

من جهة التحصينات فإن الاسكندرية والعريش هما مفتاحا مصر . كان لدى مشروع لأقامة متاريس من النخل في الشتاء المقبل ، منها متراسان من الصالحية إلى القطية ، ومتراساً من القطية إلى العريش ، وأحد المتراسين الآخرين يقام حيث وجد الجنرال مينو مياهها صالحة للشرب

يطلمعك الجنرال سانسون قائد فرقة الهندسة والجنرال سونجي قائد مدفعية الجيش على كل ما يتعلق بأموار جيشهما

المواطن بوسيلج قد عهد إليه بالشئون المالية فقط ، وعهدى به رجل جد وعمل وقد صار لديه الآن بعض المعلومات عن الإدارة المصرية المتربكة . كنت أفكر في انشاء طريقة جديدة لجمع الأموال الأميرية فيما إذا لم يحدث أمر جديد مما يغنيننا عن استخدام الأقباط تقريباً ، وإني أوصيك بالتفكير ملياً في هذا الأمر قبل الاقدام عليه ، فالأفضل أن تبتدىء بمثل هذا العمل متأخراً قليلاً ، من أن تبتدىء به قبل أوانه

ستظهر السفن الحربية الفرنسية بلاريب في هذا الشتاء أمام الاسكندرية أو البرلس أو دمياط . يجب أن تبني برجاً في البرلس . اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصاً من المالك حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم في القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا ، وإذا لم نجد عدداً كافياً من المالك فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين يشاهدون في أثناءها عظمة الأمة ، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا ولما يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم

كنت قد طلبت مراراً جوقة تمثيلية وسأهتم اهتماماً خاصاً بارسالها لك لأنها ضرورية للجيش وللبدء في تغيير تقاليد البلاد

إن المركز السامي الذي ستشغله بصفقتك رئيساً أعلى ، سيفسح المجال أمام

المواهب التي خصتكم بها الطبيعة واعلم أن مايجرى هنا لذنو أهمية كبرى وستكون نتائجه عظيمة على التجارة فمنحن في عهد ثورات كبيرة

لقد اعتدت على أن أرى مكافأة أعمال الحياة ومتاعها في أفكار حكم الاجيال الخالفة فإني أبرح مصر مع أسف كبير ، لان مصلحة الوطن ومجده ، والطاعة الواجبة على نحوه ، والحوادث الاستثنائية التي وقعت أخيراً ، هي وحدها التي تحملني على المرور بين اساطيل الأعداء في ذهاني إلى أوروبا ، ولكنني سأبقى بقلبي وأفكاري بينكم وسأنخر بنجاحكم مقدار نفري بنجاح ما أباشره بيدي ، وأني أعتبر الايام التي تمضي دون أن اعمل فيها عملاً نافعاً للجيش الذي أترك لكم قيادته ، تعدّ من الايام التي أسأت التصرف فيها ، وقد عهدت إليكم بإشادة البناء العظيم الذي وضعنا أحجاره الاساسية

إن الجيش الذي أتركه في عهدتكم مؤلف جميعه من أبنائي فقد شاهدت علامات الاخلاص والتعلق بي على وجودهم حتى في أشد أيام محنتهم ، فدعهم يسرون في هذا السبيل ، وستقوم بهذه المهمة نحوه نظراً للاعتبار الخاص الذي أكنه لك ونظراً لتعلمتي الحقيقي بهم وسلام عليك !

« بونا بارت »

وقع الخبر في مصر

دهش الناس في مصر من فرنسيين ومصريين حين وصل إلى القاهرة نبأ ارتحال الجنرال بونا بارت من مصر فروى الجبرتي فقال :

« وفي ثامن عشرينه (أى ٢٨ ربيع الاول) ورد من بونا بارت سارى تسكر الفرنسية كتاب من الاسكندرية خطاباً لاهل مصر وسكانها ، فأحضر قائم مقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب ومضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادى عشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنسية لاجل راحة أهل مصر وتسليك البحر

فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره ليصفوه ملك مصر ويقطع دابر
المفسدين . وأن المولى على أهل مصر وعلى رئاسة فرنساوية جميعاً هو
كليب ، سارى عسكر دمياط »

ونحن لا نعلم ما إذا كان الجنرال دوجا قد اكتفى بقراءة خطاب نابوليون
لاعضاء الديوان من المشايخ أو أنه أمر بترجمته وطبعه ونشره . إذ لو فعل ذلك
لجاز لنا أن نعتقد أن الجبرتي كان يحرص على نصه كما أن للعلم تقولاً لم يشر اليه
مطلقاً — وان يكن قد حفظ لنا صورة الخطاب الذى وزع بمضاء المشايخ ، وهو
ما لم يأت به الجبرتي على نصه ، ولهذا فاننا نأتى على تعريب نص آخر خطاب بعث
به نابوليون إلى أعضاء الديوان نقلًا عن كتاب الكابتن لاجونكيير (١)

« من القائد العام بونابرت الى ديوان القاهرة المنتخب من خيرة الرجال
وأوسعهم معرفة وأكثرهم حكمة

القيادة العامة بالاسكندرية في ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩

« لما كنت عالمًا ان اسطولى على قدم الاستعداد وان جيشاً كبيراً سيسافر .
وكنت أعتقد كما قلت لكم مراراً بأننى اذا لم أضرب أعدائى ضربة شديدة
أسحقهم بها . فلا أستطيع أن أتمتع هادئاً بامتلاك مصر التي هي أجمل بلاد الدنيا ،
فقد عولت على أن اكون على رأس اسطولى تاركاً القيادة العامة أثناء غيابي
للجنرال كليب وهو رجل ذو مزايا خاصة وقد أوصيته أن يحفظ المشايخ العلماء
ما كنت أحفظه لهم من المحبة والود .

فابدلوا جهديكم ليثق به الشعب المصرى ثقته بي . ومتى عدت بعد شهرين أو
ثلاثة أكون مسروراً لأنى أحمل لهذا الشعب المدح والثناء ، وللعلماء حسن الجزاء .
« بونابرت »

وكتب نابوليون الخطابين الآتيين للجنرال « دو جا » ولبوسيلج الروزناجى

(1) Histoire de L'expédition d'Egypte par M. le capitaine G. de la Jonquière

« من القائد العام بونايرت إلى الجنرال دوجا
القيادة العامة بالاسكندرية في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩
حينما تقرأ هذا الكتاب أكون أيها المواطن الجنرال في وسط البحر لان
أحوال فرنسا توجب على السفر اليها . وفضلا عن ذلك فان سفري هو الوسيلة
الوحيدة لتأمين هذه السفن ورجال الجيش
إن كبير يحفظ لك حبا واحتراما . وأنت واثق أن بعض السفن الحربية
الفرنسية ستصل في الشتاء . وتستطيع أن تبحر عليها للعودة إلى منصبك في القسم
التشريعي لتتمكن من استخدام مهارتك وحزمك لحفظ السكينة في هذه المدينة
العظيمة وفي مصر والجيش
وتأكد أنه مهما كانت الظروف التي يحكم علينا بها القدر فاني أحفظ لك
دائما من الاحترام والود مثل ما تشعر به نحوي

بونايرت

من القائد العام بونايرت إلى المواطن بوسيلج
القيادة العامة بالاسكندرية في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩
إن الحوادث التي جرت في أوروبا منذ ١٥ يونية تجعل من واجبي الاسراع
في السفر . وأرجو أن أصل قبل سقوط مدينة ماتو
إن الجنرال كبير الذي تولى قيادة الجيش بملك ويحبك
وسأطلع الحكومة في باريس على ما تقدم لهذه البلاد من الخدم الجليلة في
كل يوم . ومهما كانت الظروف فانك تستطيع أن تعتمد على نيتي في أن أقوم
بتأدية كل عمل يسرك .
بونايرت

قلنا إن العلم نقولا الترك حفظ لنا في رسالة نص الخطاب الذي وزع بامضاء
المشايع عن سفر نابوليون وهذا نصه :

« من محفل الديوان الخصوصي ، خطاباً الى سائر الاقطار المصرية ، من الاقاليم القبلية والبحرية ، وكامل الرعايا وفقهم الله !
نخبركم انه حضر الى الديوان مكتوب من حضرة الجنرال (دوكا) القائم مقام ، بأن سارى عسكر بونا برته الكبير ، أمير الجيوش الفرنسية ، توجه الى البلاد الفرنسية ، لأجل حصول الراحة الكاملة الى الاقطار المصرية ، وأنه كان حضر له استعجال من الجمهور في بلاده ، لطول غيابه ، أقام عوضه رجلاً كاملاً عاقلاً فيه شفقة ورحة عامة على الرعية ، جعله أميراً على الجيوش الفرنسية ، وأخبرنا القائم مقام اننا نكون في غاية الأمان والاطمئنان ، على ديننا وعرضنا ومتاجرنا ، وأموالنا وأسباب معاشنا ، وكما كنا في زمان حضرة السارى عسكر الكبير بونا برته ، ننصحكم بأبيها الرعايا لا تطيعوا أهل الفساد ، وتركوا الفتن والعناد ، وامتلوا أمر خالق العباد ، والسلام عليكم ختام

الفقير السيد خليل البكري الفقير عبد الله الشرقاوي الفقير محمد المهدي

نقيب الاشراف رئيس الديوان كاتب سر الديوان

الفقير مصطفى الصاوي الشافعي . الفقير سليمان القيومي المالكي . الفقير السيد احمد

المحروفي . — الفقراء : على كتحدا . يوسف باش شاويش . لطف الله المصري .

يوسف فرحات . جبران سكروج . ولما . بودوف . ذو الفقار كتحدا

نظر وعلم — وكيل الفرنسية « جلوته »

طبع بمطبعة الفرنسية بمصر المحروسة

ثم قل المعلم نقولا « ثم حضر الجنرال كبير من دمياط إلى بولاق والتقاء

القائم مقام دوكا (Dugua) وشيخ البلد دوسطين (Dustin) ودخل مصر بالعز

والنصر ، وقدم للسلام عليه القواد والحكام والعلماء ، والاعيان »

وقال الجبرتي في ختام روايته عن سفر نابوليون

« فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب

الانكليز ووقوفهم بالغر وصددهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء . ولكيفية خلاصه انباء وحيل لم أقف على حقيقتها »
ونحن سنكمل لمولانا للرحوم الشيخ الجبرتي هذه الانباء والحيل التي لم يقف على حقيقتها نقلا عن أقوال الذين رافقوا نابوليون في سفره وبجازفته لتم بهذه الصورة ،
وتختتم الرواية

وقع الخبر على كليبر

عرف القارىء من الفصل السابق ان نابوليون لم يكن ينوى الاجتماع بكليبر ولذلك ترك أوامره وتعليماته للجنرال منو في ضواحي الاسكندرية . أما كليبر فانه وصل إلى رشيد انتظاراً لمقابلة نابوليون فعلم من منو أن القائد العام سافر من الاسكندرية ولم يذهب الى مكان المقابلة في رشيد . عند ذلك أحس كليبر بأن نابوليون خدعه وانه سافر قبل أن يقابله أو يستشيره في قبول تلك المهمة الشاقة في تلك الظروف العصيبة . كيف لا وقد كانت حالة الفرنسيين في مصر مما لا يغتبط به بحال من الاحوال على الرغم من انتصارهم في واقعة أبي قير، اذ لم يبق من الثلاثين ألفاً من الجنود الذين احتل بهم نابوليون مصر أكثر من عشرين ألفاً وكانت الاحوال المادية في غاية الحرج، ومرتبات الموظفين والجنود متأخرة مما ساعد على الاضطراب الادبي ، وتمشى هذا الشعور بين طبقات الجيش وأسلحته المختلفة .
وإذا ضمنا الى كل هذا استعداد الأتراك ، بالاشتراك مع الانجليز ، للهجوم على مصر ، وشعور المصريين بالاشتباز من الفرنسيين وسلوكهم وآدابهم ومعاملاتهم الشخصية والعمومية، ونفور المصريين أيضاً من الحاكم الاجنبي ، ولو كانت حكومته أحسن نظاماً وأوفر عدلاً من حكم المالك أو الأتراك

تقول اذا ضمنا كل هذه الامور بعضها الى بعض ، أدركنا حالة الجنرال كليبر النفسية وتغيظه من بونابرت وسفره وتركه له هذه المهمة الشاذة القاسية ، على الرغم من الظهور بظهر الرياسة والسلطة الكبيرة التي كانت لسلفه نابوليون بونابرت روى منو فيما كتب من مذكراته بعد ، أن كليبر حين وصل الى رشيد --

حيث تلقاهم ليسانسه أوامر نابوليون — وعلم بسفر القائد العام وأنه لم ينتظر مقابلته ووقف على أسماء القواد الذين اختارهم نابوليون للسفر معه — أظهر منتهى الحق والغيظ وسلق نابوليون بالسنة حداد

وكان من أثر حقه وغيظه أنه أصدر أوامره في الحال بتسفير خلية نابليون (بولين فورس) كما تتبعه الى باريس وكما تعلم بأمرها جوزفين وفي ذلك من النكايه ما فيه ولكيما يفهم نابليون أنه (أى كليبر) رفض الهدية التي أهداها له !

سفر نابوليون من مصر

كان سفر نابوليون بو نابرت من مصر أشبه بالتقصص الخيالية وأساطير الأولين منه بالحقائق التاريخية والحوادث الواقعية فإنه كان يعلم علم اليقين أن السفن الأنكليزية الكثيرة العدد والعدد واقفة له بالمرصاد ، وأن أعظم ما تتوق إليه نفس السر سدن سميث ، أو أى ربان سفينة من سفن الأسطول الأنجليزى ، هو أن يلتقى القبض على نابوليون بو نابرت رجل فرنسا وعدو انكائرا اللدود . وكان يعلم فوق ذلك أن القبايضين على زمام الأحكام فى باريس يفارون منه ولا يريدون وجوده بينهم ، لان الشعب الفرنسى متحمس له ، معجب به ، والعقلاء من القوم لا يريدون الخلاص من استبداد الملوك ليقعوا فى يد استبداد حربى ، أشد نكايه وأثقل وقعاً

فنابوليون الرجل المملوء بالآمال كان يعلم كل ذلك ، فلا الطريق مأمونة ، ولا أصحاب السطوة فى بلاده يرغبون فى وجوده ، ومع كل هذا سحت عزيمته على اقتحام الأخطار والمقاومة بكل شىء فى الوجود ، ولا أعز فيه من الحياة ، التي خاطر بها ! فما للسمك وإما للسمك !

ونحن لا نريد أن نتبع نابوليون فى سفره المحفوف بالأخطار ، فتلك صحيفة من تاريخ الرجل وأخرى من تاريخ فرنسا ، ونحن إنما نكتب تاريخ مصر ويكفيننا فى هذا القام أن نذكر ما له مساس بسفره من حوادث هذه الديار فنقول :
إن نابوليون اتفق مع الأميرال غانتوم على أن تكون تحت أمرته السفينتان

لا كاريري La Carrière ولامويرون La Muiron وركب في الأولى بونايرت والجنرالان « برتیه ومونج » ومعهما « برتلو » العالم الرياضى ، و « بورين » سكرتير نابوليون . وركب في الثانية الآخرون . وقد روى « بورين » لنا فى مذكراته أن عدد الذين ركبوا السفينتين كان يبلغ من اربعمائة إلى خمسمائة بين قواد وضباط وعلماء وأتباع . وكان من سافر مع نابوليون رسم المملوك المشهور الذى أهدها إليه السيد خليل البكرى وسبقت لنا الاشارة الى تاريخه معه ، ومما رواه سافارى (كونت ده رفيجو) فى مذكراته ، أن نابوليون ومن معه غادروا ضواحي الاسكندرية ليلاً بحيث لم يعلم بهم أحد ، ولما نزلوا البحر من نقطة على الشاطئ ، (لا بد وأن تكون برج العرب قرب المسكس) تركوا الخيول التى كانوا يركبونها فعادت أدراجها جافة إلى الاسكندرية فدعرت الحامية وارتفعت أصوات الأبواق ، وهب الحراس ظناً منهم أن هناك حملة فاجأهم على غرة ، حتى إذا ابصروا الخيل بلا فارس لها ، ظنوا أن كميناً من الأعراب فكث بشردمة من الجنود الفرنسيين ، فأصدر قائد الحامية أمراً بأعداد حملة للاستكشاف ، وصارت المدينة فى هرج ومرج ، وضجيج وصخب ، حتى اتضح الأمر ، وعرف جواد نابوليون وأخبر بعض الخدم العائدين بما جرى

ولما كنا قد وعدنا أن نكمل لمولانا الشيخ الجهرتى عبارته بذلك أنباء الخيل التى استطاع بها نابوليون بونايرت الوصول الى فرنسا « مع وجود مراكب الانجليز ووقوفهم بالثغر وصددهم الفرنسيون » فلا مندوحة لنا من نقل بيان موجز للوسائل التى اتخذت لتخلص من الاساطيل البريطانية ، ولدينا فى مذكرات بورين ، كاتم أسرار نابوليون ورفيقه فى هذه الرحلة المخوفة بالآخطار ، العبارة الآتية :

قل بورين :

« فى يوم ٢٣ اغسطس سنة ١٧٩٩ ركبنا فى السفينتين (لامويرون ، ولا كاريري) وكان عددنا يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ وكانت الليلة حالكة الظلام بحيث كنا نلتمس الوصول الى السفينتين تحت نور النجوم الضئيل

ولم يكن الاميرال غانتوم حراً فى تصرفه ونخاض السبل البحرية التى يراها

موصلة بنا الى الشواطىء الفرنسية لان نابوليون استبد بالامر وقال للاميرال بصراحة
وصرامة : إن ارادتى هي أن تسير بمحاذاة الشواطىء الافريقية الى أن نصل الى
جنوبى جزيرة سردينيا .. إن معى بضعة أفراد من الرجال الابطال ومعى كمية من
الذخائر والمدافع فاذا انقض علينا الانجليز ونحن بجوار الشاطىء الافريقى ، فانى
أستطيع أن أنزل الى الارض اليابسة وأشق طريقى بهؤلاء الشجعان الصناديد الى
وهران ، أو الى تونس ، أو الى أية فرضة بحرية أخرى لعلنا نستطيع الحصول على ما
يوصلنا الى بلادنا «

تلك كانت إرادة نابوليون وعزيمته الصارمة !

ثم استمر بوريين فى وصف الرحلة والقلم الذى كان يساور نابليون ومن معه
من انقراض السفن الانجليزية عليهم ، حتى أراد الله الذى اختار نابليون بونابرت
لعرش فرنسا لينفذ على يديه ارادته العالية فى اوروباء ، أن تصل السفينتان الفرنسيتان
الى خليج (مريجوس) فى جنوب فرنسا فى الثامن من شهر اكتوبر من تلك السنة

وهنا تقف بالقلم بعد أن وصلنا بنا نابوليون بونابرت الى بلاده
والى هنا ينتهى أمرنا مع نابوليون بونابرت و ينتهى هذا الكتاب

ذيل أول

بحث في رواية اسلام نابوليون

كثيراً ما أشرنا في مواقع عديدة من هذا الكتاب الى رواية اسلام نابوليون ،
أو رغبته في اعتناق الدين الاسلامي ، أو اعتقاده الشخصي في دين محمد عليه الصلاة
والسلام، ووعدنا بأن نخصص بحثاً في هذا الموضوع لما له من الاهمية العظمى من الوجهة
التاريخية، ومن جهة رأى رجل من أعظم عظماء الرجال، في الدين الاسلامي. رجل فتح
مصر للعالم الاوروبي ، وتولى الحكم فيها ، بل وضع أسس النظمات والمباحث
التي سارت في طريقها مصر، منذ ذلك العهد الي يومنا الحاضر. وسنحاول التحقيق
والتدقيق ما استطعنا ، معتمدين في هذا المبحث العويص على تصريحات نابوليون
وآرائه الشخصية في منفاه بسانت هيلانه ، وكذلك على آراء الذين عاشروه في مصر
وفي أوروبا ، أو في منفاه أيضاً . فنقول :

تناقل بعض المؤرخين رواية اسلام نابوليون بونابرت في مصر ، وردد هذه
الرواية كثير من من لا يحرصون الحقائق ، بحيث صارت ، بغير حذر ولا تحفظ ، كأنها
حقيقة تاريخية ، على الرغم من أن حياة نابوليون ، بعد مبارحته أرض مصر نهائياً ،
معروفة مفصلة ، وتمسكه بالمسيحية ، وتوحيج البابا له ، وزواجه من ماري لويز بجميع
المظاهر والطقوس المسيحية ، — من الحوادث المقررة المعروفة في صحائف التاريخ
ونحن نقرر هنا قبل الدخول في الموضوع ، أو اطالة البحث :

أولاً — أن نابوليون بونابرت لم يعتنق الدين الاسلامي مطلقاً
ثانياً — أن نابوليون ابن الثورة الفرنسية لم يكن له اعتقاد صحيح في دين
من الاديان

ثالثاً — أنه كان ينوى التظاهر باعتناق الدين الاسلامي اذا استحال عليه
العودة الى فرنسا

رابعاً — أنه كان يرى في سهولة الدين الاسلامي وموافقته للفطرة الانسانية
ما حبه فيه وأمال قلبه اليه

ولدينا تصريحات نابليون نفسه فيما أملاه على الجنرال برتران في مذكرات
سانت هيلانه عن فتح مصر، وعن فكرة اعتناق الدين الاسلامي ، وهي الحجة
القاطعة في هذا الباب

قال عن لسان برتران ما تعرييه :

« كان دهاة السياسيين الذين خبروا مصر ووقفوا على أحوال سكانها وطبايعهم
يعدون الدين أكبر عقبة تعترض توطيد اقدام الفرنسيين في مصر . وقد قال
(فولني) الرحالة في سنة ١٧٨٨ : « للبقاء في مصر يجب مواجهة حروب ثلاثة .
أولها ضد إنجلترا ، والثانية ضد الباب العالي ، والثالثة — وهي أشدها صعوبة —
ضد المسلمين الذين يتألف منهم شعب مصر » . وقد سببت هذه الاخيرة للفرنسيين
بلاء شديداً ، وكبدتهم خسائر جساماً ، وكانت أشد العقبات التي يصعب تذليلها
وضع الفرنسيون أيديهم على الاسكندرية والقاهرة ، وانتصروا في شهر اخيت
وامبابه ، ومع ذلك بقي مركزهم مزعزعاً يعث به المسلمون الذين أذهلهم سرعة
الحوادث ، تخضعوا واستسلموا أمام القوة ، ولكنهم لبثوا ينظرون بعين الكراهية والقت
الى فوز « الكفار » الذين دنسوا بوجودهم مياه النيل المقدسة . وكان المسلمون يعدون
من الفضيحة والعار وقوع الطريق الاول لبلد الكعبة المقدسة ، بيد غير المؤمنين ،
وظل العلماء والأئمة يرددون الآيات التي تنص على مقاومة الكفار
ومن المبادئ الاساسية التي سار عليها الاتراك والماليك في سياستهم ، أنهم
أبعدوا المشايخ عن المناصب الادارية والقضائية . ولذلك دهش العلماء والمشايخ
الاجلاء ، حينما رأوا أنفسهم في (زمن الفرنسيين) يولون القضاء والمناصب الادارية ،
ويحكمون بين الناس . وعلامقامهم في أعين الشعب ولم يمر شهر واحد من دخول الجيش
الفرنسي الى القاهرة ، حتى تغير احساس المشايخ نحو الفرنسيين ، وتعلقوا تعلقاً شديداً
« بالسلطان الكبير » !! واخلصوا له الود . وما كانت أشد دهشتهم حينما رأوا الفرنسيين
الذين انتصروا في موقعة امبابه يظهرون اهتماماً كبيراً بقرى هؤلاء المشايخ وأملاكهم
الخاصة ، ويحافظون عليها محافظة كبيرة . ولم يتمتع أولئك المشايخ من قبل بمثل الاحترام
والانصاف والرعاية التي تمتعوا بها تحت حكم الفرنسيين . بل سعى الناس الى العلماء

يطلبون حمايتهم ، لا المسلمون وحدهم فحسب ، بل المسيحيون أيضاً من الاقباط واليونانيين والارمن الذين كانوا يقيمون في مصر

وكان المسيحيون قد اشتهروا بفرصة دخول الجيش الفرنسي، وأرادوا أن يطرحوا عن أعناقهم النير القديم ، وأن يخرجوا عن تقاليد البلاد وعاداتها وأن يحتقروا المسلمين أو ينادوا بهم. فلما بلغت هذه الاخبار آذان القائد العام عنف اولئك المسيحيين، وأغلظ لهم القول، وأكرههم على مراعاة العادات القديمة وعدم الاخلال بها^(١)، فقبول عمله هذا من المسلمين بالفرح ، ونال القائد العام ثقتهم التي لا حد لها

لم يخجل الجيش الفرنسي بالدين منذ الثورة ، ولم يدخل رجاله الكنائس في ايطاليا ، ولم يغشوا كدنة كنائس مصر، ولم تغب هذه الملاحظات عن أعين العلماء والمشايخ الذين كانوا يغارون على الدين الاسلامي ، وطربوا لهذا الامر واعتقدوا أن الفرنسيين، إن لم يكونوا من المسلمين ، فهم على الاقل ليسوا من الكافرين ، وأن «السلطان الكبير» من غير شك بحميه النبي؛ وجعلوا يذيعون هذه الفكرة، ويعملون على ترويحها بين الشعب ، ويقولون للناس إن الفرنسيين لم يكونوا لينتصروا على المؤمنين ويقهروهم، لو لم يكن قائدهم متمتعاً بحماية النبي ورعايته، وأن جيش المماليك، وهو أقوى جيش في الشرق دون جدال، لم يستطع أن يقف أمام الجيش الفرنسي الا لأن المماليك كانوا من الملحدين، وأن هذا الانقلاب ورد ذكره عدة مرات في القرآن. وجعل نابليون بعد ذلك يضرب على الوتر الحساس ويتكلم عن الوطنية العربية، قائلاً: «لماذا تخضع الامة العربية للترك؟ وكيف تكون مصر، جنة الله في أرضه، وبلاد العرب المقدسة، مهبط الوحي، خاضعتين لشعب يخرج من القوقاز؟ واذا هبط الآن النبي من السماء، فالى أين يذهب؟ أيزهد الى مكة، وهي لم تبق عاصمة المملكة الاسلامية؟ أم يذهب الى الأستانة وهي مدينة دنسة يزيد فيها عدد الكافرين على المؤمنين؟ ولو ذهب اليها لكان في وسط أعدائه. !! إنه بلا شك يفضل مياه النيل المقدسة، وينزل في الجامع الازهر وهو أول مفتاح للكعبة المقدسة»

وكان المشايخ الاجلاء يسمعون هذه الاقوال وعلى وجوههم علامات الفرح

(١) قارن هذا التصريح بما شرحناه في صحيفة ٢٠٦ وما بعدها عن المسلمين والاقباط في عهد بونابرت

وأيديهم مشتبكة على صدورهم وهم يتمتمون « طيب ! طيب ! »
ولما فرَّ مراد بك من أمام نابليون الى الصعيد قال لهم نابليون « إنني أريد
أن أعيد مملكة العرب، ومن ينبغي من ذلك ؟ لقد أهلكت الممالك وجيشهم
أقوى جيش في الشرق بأسره، ومتى تفاهمنا وعرف المصريون ما أريد من الخير
لهم، فإنهم سيظهرون لي الود والاخلاص، وحينئذ أعيد الى مصر مجد الفاطميين ». .
وكان هذا الحديث الذي فاه به نابليون موضوع سمر كبار المصريين في القاهرة
وكان الذين شاهدوا منهم موقعة الاهرام يعززون ذلك القول ويقولون للناس إنه
سهل هين على الفرنسيين

وكان الشيخ المهدي أفصح المشايخ لساناً، وأوسعهم معرفة، وأصغر علماء الازهر
سنًا، وأكبرهم ثقة بنا بليون، فعرّب أقواله هذه ونظمها شعراً حفظه الناس وتغنوا
به في صحارى أفريقيا وبلاد العرب !!!

وكان يرد على العلماء الذين كانوا يؤلفون الديوان الكبير، تقارير من الاقاليم
تذنيء بانتشار الفوضى التي كان سببها سوء التفاهم، ولأن الناس كانوا يستمون الفرنسيين
بالكافرين. وبدأ « السلطان الكبير » يشكو من الشكوى في حديثه مع العلماء مما كان
ينشره أئمة المساجد ويندعيونه بين الناس وتجر بضهم لإيهم على الفتنة
وفي ذات يوم وجد نابليون الفرصة سانحة فقال لعشرة من كبار المشايخ الذين
كان يثق بهم « يجب وضع حد لهذه الحال ولا بد إذن من فتوى تصدر من الجامع
الازهر تأمر الناس أن يقسموا لي يمين الطاعة »

فاصفرت وجوه المشايخ، وتولاهم رعب شديد، وارتبكوا في أمرهم، وارتج عليهم
القول. وكان الشيخ الشرقاوي، شيخ الجامع الازهر، أربطهم جأشاً فقال لنابليون
« إنك تريد حماية النبي وهو يحبك وتريد أن يسرع المسلمون للانضواء تحت بنودك،
وتريد إعادة مجد العرب، وتقول إنك لست من الكافرين، فاسلم إذن وأدخل في دين
النبي وحينئذ يهرع اليك ١٠٠ الف من المصريين و ١٠٠ الف من العرب يأتون من
مكة والمدينة، وينضم الجميع تحت لوائك ويلتفون حولك. ومتى مرَّت بهم على أساليبك،
ودر بهم على القتال، استطعت أن تفتح بهم الشرق كله، وتنقذ وطن النبي ». فانبسطت

أسارى المشايخ وركعوا جميعهم على الارض يطلبون المعونة من السماء .. ودعش نابليون وأخذ العجب ، لانه كان يرى ان الانسان يجب أن يموت على دينه ولكنه أدرك بثاقب فكره وسرعة خاطره أنه يستطيع أن يستغل ذلك القول لغائده ، فأجاب « إن عقبتين من أصعب العقبات تعترضاننى ورجالى لنصير مسالمين . أولاهما الختان ، والثانية الحجر الذى تعود جنودى منذ الصغر احتساءه ، وأنا لا أستطيع أن أقتعهم بالعدول عنه »

فأقترح الشيخ المهدي أن يعرض المسألة على ستين عالماً من علماء الازهر للمناقشة فيها . وذاعت الاشاعة فى كل الجوامع أن كبار المشايخ يعملون ليلا ونهارا لتعليم « السلطان الكبير » وقواده قواعد الدين الاسلامى ، وانهم يريدون إصدار فتوى يسهلون بها اعتناق الفرنسيين للدين الحنيف ، فطرب المسلمون وفرحوا وأذيع أن الفرنسيين يعجبون بالنبي محمد ، وأن القائد العام يحفظ القرآن ويعتقد أنه مذكور فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، وأن الكتاب يحوى كل الحكمة ، وأنه يريد اعتناق الدين الاسلامى . ولكن تحول بينه وبين بغيته مسألة الختان وشرب الحجر ، وظل أئمة المساجد والمؤذنون متحمسين مدة أربعين يوماً لهذا الخبر ، وأفادت هذه الحادثة الفرنسيين فائدة كبيرة إذ لم يعد المصريون يعدونهم من الكافرين

وذاعت أشاعات كثيرة بين الشعب ، فمن قائل إن النبي محمد ظهرا « للسلطان الكبير » وقال له « إن المالك لم يحكموا الا طبق أهواهم ولذلك أعنتك عليهم وأنت تحفظ القرآن ونجبه ، وقد أعدت السلطة للعلماء والمشايخ ، ولكن يجب عليك أن تتم ما بدأت به فاعتنق مبادئ شريعتى واعمل بها . أنها مبادئ الله نفسه . إن العرب لا ينتظرون غير هذه الاشارة وسأعهد اليك بفتح آسيا كلها »

وقد اغتم نابليون فرصة رواج هذه الاشاعات ، وورد على العلماء قائلًا إنه طلب من النبي أن يمهله سنة لتهيئة جيشه ، وإعداده للدخول فى دين الاسلام ، فأجابه النبي الى ما طلب ، وإنه وعد ببناء جامع كبير وأنه سينجح فى حمل جيشه كله على اعتناق الدين الاسلامى ، وإنه منذ الآن يعده الشيخان السادات والبكرى كذلك « اه

هذا ما أملاه نابليون بو نابارت بنفسه على الجنرال برتران لينشره في كتابه الذي سبقت اليه الاشارة في هذا الكتاب . وفي هذه الاقوال يصف نابليون نفسه « بالسلطان الكبير » حين كان بمصر ، مع أن هذا اللقب كان كبيراً عليه أيام وجوده في هذه الديار . حتى اننا شككنا في أنه خوطب في مصر بهذا اللقب الذي لم يذكره الجبرتي ، ولا المعلم نقولا الترك وهما معاصران ، والاخير منهما سورى مسيحي ممن مالاً والفرنسيين في ذلك الزمن وله في مدح نابليون قصيدة كلها مبالغة واغراق وفيها يقول

الشهيم بو نابارة ليث الوغى والاقترار
من فلق قدراً وارثي اوج العلا وسما الفخار

الى غير ذلك من مبالغات الشعراء ، ومع ذلك لم يذكر ذلك اللقب ! والخلاصة هي أن هذه التصريحات الصريحة من نابليون بو نابارت، وهو في منفاه في سانت هيلانة وعلى حافة القبر، بعيداً عن مظاهر السياسة ومطالبها واكاذيبها، دليل قاطع على أن نابليون لم يعتنق الاسلام ، وانما كان يفكر فيما يفعله لو قضت عليه الظروف بالبقاء في مصر مقطوع الصلة بفرنسا، وهو ما كان يريد طبعاً الا أن يتخذ من اعتناق الدين الاسلامي هو وجيشه في مصر ، وسيلة للتغريب بالمصريين والمسلمين في الشرق

فاذا ضمنا الى هذه التصريحات الغريبة، ما ورد في بعض منشورات نابليون في القاهرة عن معتقداته الدينية ، وإشاراته العديدة الى الدين الاسلامي ، نتحقق لدينا أن نابليون ، ابن الثورة الفرنسية ، لم يصح له اعتقاد في دين من الاديان فقد ورد في منشور المشايخ الذي صدر بعد عودة نابليون من حملته على سوريا قول المشايخ (١)

« ولما حضر ساري عسكر الى مصر (٢) أخبر أهل الديوان من خاص وعام،

(١) صحيفة ٣٣٢ من هذا الكتاب

(٢) لقب ساري عسكر وأمير الجيوش هو غاية اللقب الذي سمح به المشايخ لنابوليون وليس « السلطان الكبير »

أنه يجب دين الاسلام ، ويعظم النبي عليه السلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ فيه كل يوم باتقان وعرفنا أن مراده ينبي لنا مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له في الاقطار ، وأنه يدخل في دين النبي المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام »

وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على ما رواه نابوليون ، فيما نقلناه آنفاً ، عن نفسه في سانت هيلانه ، بعد تاريخ هذا المنشور بواحد وعشرين عاماً !

اما اعتقاد نابوليون في الاديان وخاصة في الدين الاسلامي ، فأمر يرجع فيه الى تصريحات نابوليون وآرائه الخاصة التي نطق بها في أوقات مختلفة من حياته ، وخصوصاً في الجزء الاخير منها ، اى في السنوات الست التي قضاها في جزيرة سانت هيلانه منفياً ، وحين كان يعتقد بقرب انفراط عقد الحياة ودنوه من حافة القبر . وقد نخص اللورد روزبري معتقدات نابوليون الدينية ، من احاديثه المختلفة مع لاس كاس ، وانتوماراشي وجورجو وغيرهم^(١) فقال ما تعريبه :—

« ولقد كان من أهم النقاط التي تدور حولها احاديث نابوليون في منفاه مسألة الدين وكان الانجيل من الكتب التي كان نابوليون يحب تلاوتها بصوت عال وليس من الغريب أن توجه أفكار نابوليون في تلك الساعات المظلمة الى مسائل الاعتقادات الدينية ويؤكد (برتران) بلهجة صارمة أنه لم يحدث قط أن سمع نابوليون ، — سواء أكان ذلك في فرنسا أم في جزيرة ألبا ، أم في جزيرة سانت هيلانه ، — ينكر وجود الخالق ، أو يشك في « الوهية » المسيح ، وكان نابوليون على الدوام يمنع المناقشات التي تدور حول موضوع معتقده الديني ، ويقول إنه يؤمن بما يؤمن به قسيس كنيسته !

ولسكن العالم لا يقتنع بهذه الموارد ، ويجب أن يقف على حقيقة اعتقاد نابوليون ورأيه في الدين . ولا نظن أن « جورجو » اخترع من عنده جميع ما كتبه في مذكراته عن احاديث نابوليون وآرائه الدينية في سانت هيلانه »

ثم انتقل اللورد روزبري الى بيان موجز عن اعتقاد نابوليون فدكر فيما ذكر أنه كان يميل الى الدين الاسلامي ، ويعترف أن علماء الازهر في مصر زرعوا أفكاره

(1) Las Cases, Antomarachi, Gourgau.

بآرائهم وحججهم ، وأقنعوه بان من يعبد ثلاثة آلهة لا يكون إلا وثنيا ومن معتقدات نابوليون في المسيح أنه لم يوجد ، وغاية ما في الأمر أن واحداً من الناس الكثيرين الذين يتحمسون ادعى أنه نبي أو مسيح — وفي كل زمان كثيرون من هذا الطراز — ، وانه قتل أو صلب لذلك السبب. وكان يعتقد نابوليون في موسى كزعيم شعب وقائد، ولكن اليهود كانوا قساة وجبناء. وبلغ اعتقاد نابوليون في المسيح الى درجة أنه كان يقول : إنه لا يستطيع أن يتصور أو يصدق أن رجلاً ذكياً مثل البابا بيوس السابع يعتقد حقيقة في المسيح ! وأما الدين الاسلامي فانه بعكس ذلك سهل ، وأرقى من المسيحية، لأنه افتتح نصف العالم في عشر سنوات، في حين أن المسيحية لم توعد قدمها قبل ثلاثمائة عام ، وصرح نابوليون في وقت آخر بان الدين الاسلامي أحلى وأظرف الديانات الموجودة ، وقال عن نفسه مرة « نحن المسلمون » !

ويرى القارىء من هذه المعلومات المستقاة من مصادرها الأصلية ما يؤيد بجلاء آراءنا التي أثبتناها في صدر هذا البحث ، وأن ما ادعاه بعضهم ، من أن نابوليون أسلم ، لا حقيقة له على الاطلاق، وان الرجل لم يكن الا من أصحاب الآراء الحرة، المتشككين في جميع الأديان

ذيل ثان

مكتبة السكتاب - أى مصادره

يهتم كتاب الغرب بذكر المصادر التي اعتمدوا عليها في تأليف كتاب من السكتب وخصوصاً التاريخية منها ، فينشرون بياناً للسكتب والتقارير والمذكرات وجميع المصادر التي استقوا معلوماتهم منها ، ويسمون ذلك مكتبة السكتاب Bibliographie أى مصادره ، وقد زاد بعضهم اهتماماً بالمصادر الى درجة ان خصص لها بحثاً مستفيضاً عن أصحاب تلك المصادر ومبلغ ما لهم من القيمة في تصوير الحقائق وتقريرها ، ومن هؤلاء اللورد روزبرى في كتابه عن نابوليون في سانت هيلانه فانه خصص الفصول الأولى من كتابه للبحث في المصادر ووصفها بأنها كلاً أساس الذي يبني عليه المنزل .

ولقد أعجبنى هذا الرأي حتى اننى قلت عنه في رسائل « من والد الى ولده » ، في باب دراسة التاريخ ، ما يأتى :

« ومما تجب العناية به في دراسة التاريخ والاشتغال به ، تمحيص المستندات والمصادر التي اعتمد السكتاب المؤرخ عليها ، وتقدير ما لتلك المستندات والمصادر من القيمة الحقيقية . ولم أر من المؤرخين من محص مصادر مؤلفه وعرضها على القراء بنقد صحيح ، ليكون القارىء على بصيرة بقيمة ما يسند الى تلك المصادر ، مثل اللورد روزبرى في كتابه العظيم عن نابليون بونابرت في منقاه بجزيرة سانت هيلين ، فانه بدأ بذكر المصادر التي اعتمد عليها ، وهم اولئك القواد والضباط ورجال حاشية الامبراطور المنفي الذين كتبوا عنه ونقلوا أقواله أو أحاديثه وتصريحاته ، وما كان بينه وبين حاكم الجزيرة من المشادة والخلاف والمشاكل . فبعد ان وصف منزلة كل كاتب منهم لدى الأمبراطور ، وكيف كان من الممكن ان يكون موضع سره ، والى أى حد يصح الاعتماد على رواية للسكتاب في موقف من المواقف ، ومسألة من المسائل ، وما هو ماضى ذلك السكتاب ، وما هي صفاته وأخلاقه ، وما هي آراؤه السياسية والحزبية ،

كيا تقدر قيمة الثقة التي يحق له التمتع بها ، وعلى هذه الطريقة وضع اللورد روزبرى قاعدة جديدة في كتابة التاريخ . وقد عولت ان شاء الله أن اسلك هذه الطريقة في مقدمة الكتاب^(١) الذي وضعته عن تاريخ الحملة الفرنسية و نابليون في مصر إذ يتحتم أن يقف القارىء على القيمة الحقيقية لا كبر المصادر العربية في تلك الفترة التاريخية ، وهو كتاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي والى حد تمكن الثقة بروايته ، وكيف كانت علاقة ذلك المؤرخ بالماليك أولاً ، وبالفرنساويين ثانياً ، وماهى منزلته في درجة التحقيق وصدق الرواية ، وما يصح الاعتماد فيه على قوله ، وما لا يصح منه ، في الظروف المختلفة ، ثم مقارنة ذلك بالمصدر العربى الآخر ، وهو رسالة المعلم نقولا الترك ، وبيان الفارق بينهما من وجهة نظر الشيخ الازهرى المسلم ، والمسيحى اللبنانى ، الى تلك الحوادث والحالة السياسية ، ويتبع ذلك مقابلة هذين المصدرين العربيين بالمصادر الفرنسية رسمية وغير رسمية . . .

على هذا النحو كنت أطمع في دراسة ، ووصف ، وتحليل ، المصادر التي اعتمدت عليها في هذا الكتاب ، ولكن أرانى عاجزاً عن تناول هذا البحث وإيفائه حقه كما تصبو اليه نفسى

ولا ينكرن القارىء على أنفى تعرضت في متن الكتاب للحكم على أشخاص المؤلفين الذين اعتمدت عليهم ، وتقلت عنهم ، واستشهدت بهم ، فيما كتبتة عن عبد الرحمن الجبرتي والمعلم نقولا الترك وعن الشيخ الشرقارى ، وعلى غيرهم من الكتاب الافرنجى ، ولكن تلك الامامات البسيطة الخفيفة لا تشبع مطمعى الادبى فامام هذا المطمع ، ومع الشعور بذلك العجز ، لا أرى مناصاً من التوسط بين الممكن والمستعصى فاكثفى بكلمات موجزة عن لا مناص من التكلم عنهم لايضاح قيمتهم التاريخية ، ومكانتهم فى التحقيق والتدقيق ، مع بيان لتاريخ حياتهم ولظروفهم الخاصة .

(١) بعد تردد كبير اخترت أن أضع هذا البحث ذيلاً للكتاب لا مقدمة له

ولست من رأى الذين ينشرون، فى مقدمة الكتاب أو فى آخره، قائمة بأسماء الكتب التى قرأوها أو اعتمدوا عليها كمصادر لكتابتهم، ما داموا قد أشاروا إلى تلك المصادر وذكروها فى ذيل الصحائف أو فى متنها، وإنما أردت فى هذا البحث أن أبين للقارى قيمة المصادر وتاريخ أصحابها، ومنزلتهم فى درجة تقرير الحقائق، وبعدهم أو قريبهم من الأشخاص الذين كتبوا عنهم فأقول: إن المصدر الذى يصح الاعتماد عليه، والثقة به، أو الاقتباس منه. والنقل عنه، واحد من اثنين:

إما معاصر وشاهد عيان، — حتى ولو كان متحيزاً أو ضالماً مع فريق دون فريق — وإما حجة ثقة، وباحث مفكر، ممتاز بعبقرية خاصة

فالأول من دون الحوادث والوقائع التى رآها بيته، أو سمعها من معاصريه بأذنه. وأهل العرف لا يعدون ما يضعه المعاصرون من المذكرات والأخبار تاريخياً بالمعنى الصحيح، لاسباب كثيرة أهمها قريبهم من الحوادث وتأثرهم بالأشخاص، واقتصرهم على تدوين الحوادث، دون ابداء الآراء، أو استنتاج الأحكام، ويصفون كتب المعاصرين بأنفسها مذكرات تصلح لأن تكون مادة أو غذاء كما وصف (ميو) مذكراته متواضعاً بقوله *Memoires pour servir a l'histoire* وأما الثانى فهو الباحث المدقق المتفكر المشهود له بسعة الاطلاع والنبوغ، والذى سبى له الظروف، الوقوف على المعلومات والمخطوطات والمخطوطات، من الوثائق الرسمية وغير الرسمية، مما لا يتيسر لسواه من الكتاب. فإذا قيل مثلاً أن «إدوارد جيبون» أو أن «اللورد ما كولى» قال كذا وكذا فى تاريخه، أو أن مونتسكيو أو جيزو أو تيير، قال كيت وكيت، وأبدى رأيه فى حادث أو أمر (لم يقع فى زمانه)، فلا مناص من الثقة بذلك الرأى، وإحناء الرأس إجلالاً لمنزلة قائله، لانه حجة ثقة وآراؤه نتيجة بحث عويص مستفيض

وليس لدينا فى اللغة العربية، عن الفترة التى كتب عنها هذا الكتاب، من الفريق الأول سوى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الأزهرى والمعلم نقولا بن يوسف الترك (أو التركى) البيرونى اللبنانى:

وليس عندنا في هذه الفترة ، مع الاسف الشديد ، واحد من الصنف الثاني .
حقيقة أنه يوجد معاصر آخر وضع رسالة جاء فيها على شيء من تاريخ الحملة
الفرنسية في مصر ونعني به الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر في ذلك
الحين وصاحب رسالة (تحفة الناظرين فيما ولى مصر من الولاة والساطين)

وقد سبق لنا أن جئنا على ترجمة حياة الشيخ الشرقاوى (في صحيفة ٢٩٦)
وأشرنا الى رسالته التي لا قيمة لها على الاطلاق ، اللهم إلا من وجهة صدورها من
رجل كانت له صفة العلماء ، وكان شيخاً للجامع الازهر ، ورئيساً للديوان في أيام
الفرنسيين . ولما كانت رسالته لا تعتبر من المصادر التاريخية ، وسبق لنا الكلام
عنها (في صحيفة ٢٩٧) فليس لها دخل في بحث تقدير المصادر التاريخية

بقي الكلام عن المصدرين الآخرين وهما كتاب (عجائب الآثار في التراجم
والاخبار) ، للشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وكتاب (ذكر تملك الفرنسيين للديار
المصرية) تأليف المعلم نقولا الترك اللبناني

هذان هما المصدران العربيان اللذان يصح الاعتماد عليهما لأن صاحبيهما عاشا
في تلك المدة ، وشهدا بأعينهما ، وسمعا بآذانهما ، الحوادث التي دونها ، وان كان كل
واحد منهما يختلف عن الآخر اختلافاً يبنياً ، لأن الأول (الجبرتي) كان من علماء
الازهر وشيخ رواق الجبرتية وكانت له علاقات وصلات بكبار المماليك ، واما الثاني
فقد كان سورياً لبنانياً نزولاً في هذه الديار ، وكانت له صلوات بالترجمة والمستشرقين
من رجال الحملة الفرنسية

ولنته أولاً من المعلم نقولا لقصر موضوع الكلام في شأنه ، فنقول : كل ما
استطعت أن أحصل على معرفته من تاريخ هذا الرجل ، هو أنه ولد في دير القمر بلبنان
سنة ١٧٦٣ وتوفي سنة ١٨٢٨ أى أنه كان يبلغ من العمر نحو ٣٥ سنة حين كان في
مصر أيام الحملة وأصل عائلته من الاستانة ، واسم أبيه يوسف الترك أو التركي ، ويظهر أنه
حضر لمصر قبل الحملة بزمن قصير وانه كان في خدمة الامير بشير الشهابي الدرزي
الذي أرسله لمصر . وأذكر اني قرأت له أبياتاً من الشعر في مدح الامير بشير
الشهابي في كتاب تاريخ الامير حيدر

أما رسالته عن الحملة الفرنسية فقد سبقت الإشارة الى وصفها في مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، وعبارتها مسجعة ، وفيها ركافة . والغريب أنها لم تطبع في مصر ولا في سوريا كرسالة مستقلة ذات قيمة تاريخية ، ولولا أن مسيو «ديجرانج إينيه» حفل بها وطبعها في باريس مع ترجمتها الفرنسية لضاع أثرها بتاتاً . وقد ذكر ديجرانج أنه نقل هذه النسخة من ثلاث واحدة بخط المؤلف ، أهداها لأحد مشايخ المارونية ، والثانية أعطاها له مسيو كوسين ده برسينال والثالثة وجدها في المكتبة الملكية في باريس

والرسالة في رأي جديرة بالثقة في مواضع كثيرة ، وخاصة في الحوادث والمسائل التي كانت في الجانب الفرنسي ، والجالية الاجنبية في مصر ، حيث البيئة التي يعيش حولها مثل المعلم نقولا الترك . وفضلاً عن ذلك فإنه من مزايا هذه الرسالة أن صاحبها حفظ لنا بعض المنشورات التي أمهلها الجبرتي عمداً أو سقطت من أوراقه ولا أدري بالضبط متى كتب المعلم رسالته ، وما أظن أنه كان يكتبها في أثناء وقوع حوادثها وهو في مصر . ولكن يظهر أنه جمع مذكرات وأوراقاً ومنشورات ، وصنف رسالته بعد عودته الى سوريا حيث ترك النسخة الخطية لدى أحد شيوخ الموازنة . ولم يذكر في مقدمة رسالته شيئاً عن تاريخ وضعها ، ولا إشارة الى أنه شهد حوادثها بنفسه ، ولا متى حضر لمصر ، ولا متى برحها ، فإن من الجائز انه لم يحضر الايام الاولى من الاحتلال الفرنسي ، ولم يشهد بنفسه واقعة إمبابه ، وان كانت روايته عن اجتماع المماليك في دار ابراهيم بك في القصر العيني ، عند وصول خبر نزول الفرنسيين في الاسكندرية ، تدل على أنه كان بالقاهرة وعارفاً بأسماء كبار المماليك الذين شهدوا تلك الجلسة التاريخية

ويؤكد ديجرانج مترجم رسالة المعلم نقولا الى الفرنسية وطابعها بالعربية أنه قابل المعلم نقولا الترك في دير القمير بلبنان قبل وفاته ولم يذكر لنا في أي وقت بالضبط قدم المؤلف القاهرة ، ولكنه أكد لنا أن الذي أوفده الى مصر هو الامير بشير الشهابي حوالى عهد الحملة الفرنسية ^(١) (كذا) وأنه بقي في مصر مدة الحملة

(1) Vers l'époch de notre expédition

الفرنسية لغاية دخول الترك مع الانجليز، كما هو ظاهر من الرسالة إذ ورد في آخرها
ثناء على الاتراك (بعد الثناء على الفرنسيين) ، وبعض أبيات قالها في مدح
يوسف باشا الصدر الاعظم القائد للجيش التركية

أتى صدر الصدور لارض مصر بنصر أشرفت فيه الديانة
بعام قد كساه النور أرخ به فتحت بيوسف السكناة

وكما مدح من قبل نابوليون ورتي كبير، مدح يوسف باشا!!
وفي رواية «كاردين»^(١) ان الامير بشير الشهابي زعيم الدروز أوفد المعلم نقولا
الترك لا يقافه على حوادث مصر واحتلال الفرنسيين لها لانه كان يتوقع حملتهم
عل الشام . وكان يرغب الانضمام الى الفرنسيين لو أن نابليون نجح في الاستيلاء
على عكا (كما انضم فعلا الامير بشير الى ابراهيم باشا بعد سقوط عكا في يد المصريين)
وذكر «كاردين» أن الامير بشير لما أوفد المعلم نقولا أمره بالاقامة في دمياط لموافاته
بالاخبار منها ، ولكنه اعتقد انه برح دمياط وجاء الى القاهرة في خلال الحوادث
التي كتب عنها ، وذكر «كاردين» أيضاً أن أحمد باشا الجزائر ضبط كتاباً من
الكتب التي كان يبعث بها المعلم نقولا لمولاه الامير بشير فكان ذلك سبباً في
إلحاق الاذى بأخ المعلم نقولا كان مقيماً في عكا

ومما رواه كاردين أيضاً عن المعلم نقولا أنه بعد جلاء الفرنسيين عن مصر
عاد الى دير القمر وفتح بصره في أواخر أيامه فكان يملئ شعره على ابنته «ورده» .
وليس في مقدمة الرسالة ولا في ختامها إشارة الى زمن وضعها ولا الى السبب الذي
دعاها للحضور الى هذه الديار ، وكيفما كان الحال فانه كتب عن حوادث شهداها
بنفسه ورآها بعينه

ومن هذه الملاحظات وما تقدمها يحق للتماري، والباحث المدقق، والمؤرخ
الحقيق، أن يقدر منزلة رسالة المعلم نقولا الترك من الوجهة التاريخية

(١) اسكندر كاردين كان مترجماً بقنصلية فرنسا الجزائرية في مصر حوالي سنة ١٨٣٠ م
وتوفي في السنة التي طبعت فيها ترجمته للجبرتي وخلاصة رسالة المعلم نقولا عن الجملة الفرنسية
سنة ١٨٣٨ — وعنوان كتابه بالفرنسية كما هو في ذيل الصحيفة التالية

وكننت أتصور أن المعلم نقولا الترك يعرف الفرنسية حتى أن الامير بشيراً أوفده لمصر للاختلاط بالفرنسيين، ولموافاته باخبارهم، وإيقافه على حقيقة أحوالهم، ولكن «ديجرانج» ، الذي قابله في دير القمر وترجم رسالته، يؤكد أن المعلم نقولا لم تكن له ادنى معرفة باللغة الفرنسية . وهذه نقطة ذات أهمية لانها تفسر لنا كثيراً من اسباب غلطاته وسقطاته

ومما هو جدير بالذكر عن المعلم نقولا الترك أن قصيدته في مدح نابوليون ترجمها مسيو مارسل المستشرق الذي سبقت الاشارة اليه في صحيفة ٥١ من هذا الكتاب وأذكر انني اطلمت على ديوان شعر له بخط اليد في مكتبة المرحوم مخلع باشا ، ولا ادري ماذا جرى له

ومما هو جدير بالذكر أيضاً وصف المعلم نقولا لنا نابوليون بو نابرت كما رآه بعينه في مصر، وهي صورة يحرص عليها المؤرخون لمقارنتها بالصورة التي صار اليها نابوليون حين أصبح امبراطوراً عظيماً . قال المعلم نقولا « وكان نابوليون قصير القامة رقيق الجسم، اصفر اللون، باعه اليمين أطول من اليسار ، مملوءاً من الحكمة، مشمولاً بالسعد والنعمة ، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة »

والآن ننقل الى المصدر التاريخي الثاني وهو كتاب « عجائب الآثار ، في التراجم والخبار » مؤلفه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، أحد علماء الازهر، وشيخ رواق الجبرتي في مدة الاحتلال الفرنسي ، وما بعده حتى زمن محمد علي

ولد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في مدينة القاهرة سنة ١١٦٧ هجرية (١٧٥٤ م .) وكان جده السابع يدعى ايضاً الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وهو أول من قدم مصر من الجبرتيه « نسبة الى جبرت احدي المقاطعات الاسلامية

Journal d'Abdurrahman Gabarti: Pendant l'occupation Française en Egypte; suivi d'un précis de la même Campagne par Mou'allelem Nicoula El Turk :

Traduite par Alexandre Cardin, Dragoman-Chancelier du Consulat Gén. de France en Egypte, 1838.

في بلاد الحبشة في اوائل القرن العاشر الهجري . فتكون أسرة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي قد قضت في هذه الديار اكثر من ثلاثمائة عام وانقضت بوفاة المؤرخ في ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هـ . (١٨ يونيو سنة ١٨٢٣ م .) لأن الشيخ عبد الرحمن لم يعقب من الاسرة الجبرتية غير ابن وابنة . توفي الولد بعد وفاة والده ببضع سنوات ، وعمرت الابنة ولا يعرف عنها ولا عن ذريتها شيء .

وأهم من اشتهر من الاسرة الجبرتية بالعلم والفضل ، الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ ، فقد كان ممن يشار اليهم بالبنان في زمانه ، وتلقى العلم عليه كثيرون من العلماء الذين ذكرت أسماءهم في هذا الكتاب وكانوا اعضاء في الديوان الذي انشأه نابوليون ، وصور بعضهم لا تزال معلقة في متحف فرساي ، مثل المشايخ الشرقاوي والمهدى والصاوي والفيومي وتوفي الشيخ حسن سنة ١١٨٨ هـ . ولم يترك من الذرية ، على كثرة ما ولد له من الذكور والاناث ، وعلى كثرة من تزوج من الحرائر ونسري من الرقيقات الجركسيات والحبشيات ، غير المؤرخ عبد الرحمن . ويظهر أن والدة المؤرخ كانت واحدة من تلك السراري التركية أو الجركسية الاصل . وذكر الذين ترجموا كتاب الجبرتي الى الفرنسية ان والده ترك له ثروة كبيرة وكانت له ضيعة في بلدة إبيار ذهب اليها — كما يقول كاردين — عند احتلال الفرنسيين ولم يعد الى القاهرة الا بعد مدة من الزمن — وهي رواية اذا صحت فانها تثبت أن الشيخ عبد الرحمن لم يشهد بنفسه كثيراً من الحوادث التي وقعت في ارائل دخول الفرنسيين ويكون ما كتبه عنها منقولاً من أفواه الناس ويضعف الثقة بكثير من رواياته

اما عن الكتاب (كتاب عجائب الآثار) فاقول إن الكثيرين من الأدباء وأهل الفضل لا يقدرّون كتاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي حق قدره ، كأثر تاريخي عظيم ، وعمل أدبي مجيد ، ومذكرات يومية ذات قيمة كبرى للمؤرخ . والسبب في النظر اليه بهذه العين يرجع الى أن الناس لا يميلون الى هذا النوع من الاسلوب من جهة ، ولأنه مجموعة من عبارات وروايات وحوادث غير متمازجة ولا متسقة ، من جهة اخرى !

ولسكن الذين لا يأخذون الامور بظواهرها ، والذين يتعمقون في البحث ، عن حوادث تلك الايام وظروفها وأحوالها ، لا يسمعون الا الاعجاب بذلك السفر الجليل ووضعه . فالشيخ عبد الرحمن الجبرتي هو بلا نزاع مؤرخ هذه الفترة وجامع شتات أخبارها ، باخلاص وحسن نية ومجهود كبير . بل هو كاتبها العظيم وصحافها الأمين ، والذي لولاه لبقى تاريخ هذه الفترة ، التي تبلغ نحو خمسين سنة — أي من نهاية القرن الثاني عشر الهجري الى أوائل القرن الثالث عشر — صحيفة بيضاء ، او قطعة جرداء ، في اللغة العربية .

والذي يهمننا في كتابه (من حيث علاقته بهذا الكتاب) هو القسم الواقع في الجزء الثالث ، وقليل مما تقدمه من أخبار كبار المالك في النصف الاخير من الجزء الثاني . ومهمتنا في هذا البحث تنحصر في قيمة الاخبار الواردة فيه ، وصدق الوثائق المحفوظة به من منشورات وتعليقات وغيرها ، وقرب ذلك أو بعده من الحقيقة التاريخية .

ولا تردد مطلقاً في الحكم على أن الصدق في الرواية كان رائد الشيخ في كل ما كتبه ، ولم يكن يحابي ولا يداجي ، الا في النادر من ميوله الشخصية وعلاقته الخاصة بكبار المالك كميله الى ابراهيم بك ووقاره ، وتقوره من مراد بك وطيشه وجرأته .

أما من وجهة أن كتاب عجائب الآثار ، كتاب تاريخي فلاندحة من الاعتراف بأنه ليس من التاريخ ، على أسلوبه الصحيح ، في شيء ، وإنما هو مذكرات وروايات قيد المؤلف شواردها ، بغير ترتيب ولا تنسيق ، تصلح ان تكون مادة للمؤرخ ، مع شيء غير قليل من الصعوبة والعناء .

وكتاب الجبرتي في نظري أشبه بالتلول الاثرية لا تكاد تحفر فيها ، او تزيل الأثرية من جانب ، حتى تعثر بجمهرة ثمينة ، أو تحفة نادرة ، وقد لا تعثر بشيء مطلقاً في جزء كبير منها ، وهكذا لا يمكن الاستفادة من كتاب الجبرتي إلا إذا عالجته حفرًا ، وبحثًا وغزيلة ، ومقارنة ومقابلة ، واستخرجت الدر من الصدف ، والمعدن

من التراب ، وميزت بين ما له قيمة وبين ما ليست له قيمة . . . ولا يسهل هذا إلا بعناء ومقارنة بينه وبين المصادر الأخرى . في اللغات الأجنبية — وهي قليلة ونادرة جداً في الجزء الخاص بالمليك قبل الاحتلال الفرنسي — وكثيرة فيما يختص بالجملة — من مذكرات ومؤلفات ، وأوراق رسمية ، وغير رسمية

وليس من السهل معرفة كيف كان يكتب الجبرتي مذكراته هذه ، ولكن المعقول المستنتج من كثير من رواياته أنه كان يجلس لنفسه بعد مرور بضعة أيام فيدون ما يكون قد رآه أو سمعه أو وصل الى علمه . وهو يعترف في مقدمة كتابه فيقول « كنت سؤدت أوراقاً في حوادث آخر القرن الثاني عشر ، وما يليه وأوائل القرن الثالث عشر الذي نحن فيه ، جمعت فيها بعض اللواقع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها نحن أدر كناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلميذها ، فاحببت جمع شملها وتقييد شواردها في أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام . . . وما بعدها الى التسعين أمور شاهدناها ثم تسينها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعلمناها وقيدناها وسطرناها وسنورد ان شاء الله تعالى ما نذكره من الوقائع ، بحسب الامكان والخلو من الموانع ، الى أن يأتي أمر الله ، وان مردنا الى الله . ولم اقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفائق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفساني ، أو غرض جسماني »

والشيخ الجبرتي نفسه يعترف في كتابه أنه ابتداء في جمع أوراق كتابه وتنسيقه في السنة السادسة والعشرين ، بعد المائتين والألف ، أي بعد ثلاثة عشر عاماً من خروج الفرنسيين من مصر . فتأمل مقدار الأغلط التي يقع فيها رجل أزهري يجمع أوراقه المتناثرة بعد مرور ثلاثة عشر عاماً على الحوادث التي يكتب عنها ؛ ولكن ذلك منك على بال ، لتقدير روايات الجبرتي حين تنقل عنه ، أو تعتمد عليه ^(١)

ومما يجب ملاحظته ان كتاب الشيخ عبد الرحمن ، عن الفترة التي شهدتها بنفسه ،

(١) راجع صحيفة ١٥٥ و ١٦٥ من هذا الكتاب

إنما هو تاريخ للقاهرة، أكثر مما هو تاريخ لمصر، لأنه لم يقف الا على النادر جداً من
الحوادث التي وقعت خارج القاهرة في الوجهين القبلي والبحري. فهو لم يذكر ثورة
(المهدي) في البحيرة الا بكلام لاقيمة له ، كما أوضحنا ذلك عند الكلام عليها ،
ولم يعرف أ كان المهدي هو «مولاي محمد» من أمراء الغرب، الذي سبق له ذكره في
الجزء الثاني من كتابه^(١) أم كان شخصاً آخر؟ مع أن «مولاي محمد» دخل القاهرة مع
الانجليز والأترک عند جلاء الفرنسيين ولا يعقل أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي
لم يقابله ولم يتعرف به

ومما ثبت ان معلومات الجبرتي لم تمتد القاهرة انه لم يشر الى محاربات
الصعيد ولا غيرها إلا بعبارات قصيرة متقطعة ليس فيها شيء من المعلومات الصحيحة .
ومع انه من كبار العلماء في القاهرة فانه لم يذكر اسم الشيخ المسيري كبير علماء
الاسكندرية ، الذي كان موضع ثقة نابوليون وكانت كلمته النافذة في ذلك الثغر ، ولم
يشر اليه إلا حين جاء ذكره في ايام حكم محمد علي^(٢) والشيخ عبد الرحمن معذور في
قصر أخباره على ما يصل إلى عامه ، وهذا هو شأن المذكرات أو اليوميات التاريخية ،
ولكن ليس للمؤرخ في هذا الزمن أدنى عذر في قصر اعتماده على ما كتبه الجبرتي ،
وهذا شأنه

بقي علينا أن نشير إشارة موجزة إلى خاتمة صاحبنا الجبرتي وموته مقتولاً في
طريق شبرا ، فقد ذكروا انه وظف إماماً في سراي محمد علي باشا بشبرا وان محمد
بك الدفتردار حقد عليه فسلط عليه من أودى بحياته وهو عائد من شبرا الى
القاهرة على حماره، وليس بصحيح ما ادعاه «كاردن» من ان الذي قتل بطريق شبرا
هو ابن الشيخ عبد الرحمن وليس هو . وهذا غريب من «كاردن» مع انه كان موظفاً
بقنصلية فرنسا في القاهرة حوالي سنة ١٨٣٠ أي بعد وفاة المؤرخ بنحو سبع سنين

(١) راجع صحيفة ٣٥٤ و٣٥٦ من هذا الكتاب

(٢) كان الشيخ محمد المسيري كبير علماء الاسكندرية وله ذرية باقية فيها ولما جاءت مدة
محمد علي باشا طارضه الشيخ في كثير من المسائل التي كان يراها مخالفة للشرع ففر الى سوريا
سنة ١٢٢٢ هـ . وتوفي في بيروت سنة ١٢٣٨ أي بعد وفاة الجبرتي بعام واحد ودفن في بيروت

ولا تحجة لما يداع أيضاً من أن هناك جزءاً خامساً من كتاب «عجائب الآثار» لم يصرح بطبعه لما فيه من الطعن على محمد علي باشا، لأنه توجد نسخة خطية من تاريخ الجبرتي في مكتبة وزارة الحربية الفرنسية في باريس، ولو كان فيها شيء، لم ينشر في الطبعة المصرية، لما خفي أمره على المستشرقين

وفضلاً عن ترجمة الجزء الخاص بالحملة الفرنسية في مصر إلى اللغة الفرنسية بواسطة مسيو «كاردن» فقد ترجم كتاب الجبرتي إلى اللغة الفرنسية بأكمله في ثمان مجلدات جماعة من فضلاء المصريين وعلى رأسهم المرحوم شفيق بك منصور يكن

وترجم الجزء الخاص بالحملة الفرنسية إلى التركية مصطفى أفندي بهجت الطيب الخاص للسلطان سليم الثالث تحت عنوان (إنقاذ مصر من الفرنسيين)

وكنت أحب أن أتوسع في بيان المصادر الفرنسية والإنجليزية التي اعتمدت عليها في هذا الكتاب، ولكن المقام يضيق عن ذلك من جهة، ولاني مكنتف بالإشارات والتعليقات والبيانات التي كتبها عن هذه المصادر في متن الكتاب وفي حواشيه فهي في هذا الباب كافية وافية.

فهرست

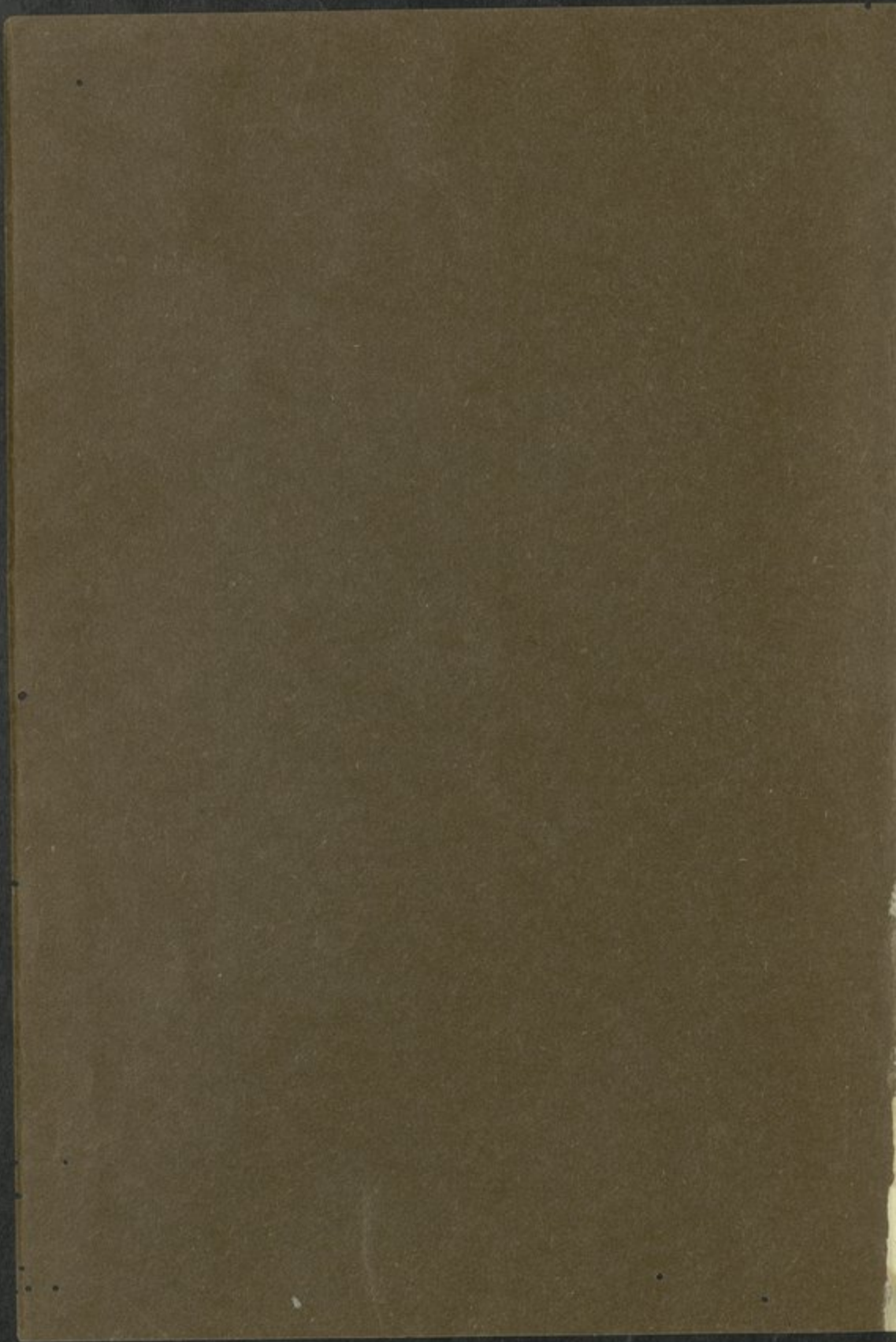
صفحة

- ٣ مصر قبل الحملة الفرنسية
- ١٢ المالك ونشأهم وطبقاتهم وثروتهم - ١٤ الفتح العثماني - ٢١ الحالة
الادارية والاقتصادية لمصر قبل الحملة - ٢٨ تجارة مصر قبل الحملة -
٣١ استعمار إنجلترا في الهند وتأثيره على مصر - ٣٣ المالك والمال -
٤١ الاوبئة التي فتكت بأهل مصر في عهد المالك - ٤٣ أخلاق المالك -
٤٩ مراد بك و ابراهيم بك - ٥٤ حكاية اصلاح جامع عمرو
- ٦٥ تاريخ فكرة الحملة الفرنسية ونشأة نابليون
- ٩١ الحملة الفرنسية في الاسكندرية
- ١١١ سير الحملة لفتح مصر
- ١١٦ في القاهرة
- ١٢١ من الاسكندرية الى الرحمانية ١٢٥ موقعة شبراخيت ١٢٧ من
شبراخيت الى امبابه
- ١٣١ القاهرة قبل الواقعة
- ١٣٦ واقعة امبابه
- ١٤٣ القاهرة يوم الواقعة
- ١٥٥ نظام بونابارت لحكومة مصر
- ١٥٩ الدور الاول من ١ يوليو - ١٣ أغسطس
- من احتلال الاسكندرية الى واقعة أبي قير البحرية-١٧٥ الحرب في الصعيد
- ١٩٢ الدور الثاني
- من معركة أبي قير الى ثورة القاهرة الاولى - معركة أبي قير البحرية -

فهرست




تجدید

- ۱۹۷ سیاست نابولیون بعد المعركة - ۱۹۹ حفلات ومظاهر - ۲۰۶ المسلمون
 والاقباط - ۲۱۱ سیاسة الانشاء للبقاء - ۲۱۴ الاستعداد الحربى - ۲۲۵
 مخبرات سياسية - ۲۳۳ تلبد الجو بالغيوم وأسباب الثورة الكبيرة
 ۲۴۱ ثورة القاهرة
 ۲۶۳ الدور الثالث : من ثورة القاهرة الى مغادرة نابليون مصر
 ۲۸۷ الحملة الفرنسية على الشام
 ۳۲۳ العودة لمصر من سورية
 ۳۴۵ الاحوال والحوادث فى مصر أثناء الحملة على سورية
 ۲۸۴ مسألة امير الحج - ۳۵۳ ثورة المهدي فى مديرية البحيرة - ۳۵۹ المخبرات
 مع أمراء المسلمين
 ۳۶۲ المدّة الأخيرة لنابليون فى مصر
 مسألة القضاء الشرعى - ۳۶۸ استعداد الانكباب والترك - ۳۷۴ قبل
 معركة ابي قير
 ۳۸۰ واقعة ابي قير البرية ۳۸۱ استطلاع أخبار فرنسا
 ۳۹۵ آخر عهد القاهرة بنابوليون بونابرت
 ۴۰۰ محاولات سياسية مع تركيا ۴۰۴ الاستعداد للسفر
 ۴۰۷ رسالة بونابرت لكليبر ۴۱۱ وقع الخبر فى مصر
 ۴۱۵ وقع الخبر على كليبر ۴۱۶ سفر نابليون من مضر
 ۴۱۹ حكاية إسلام نابليون ۴۲۷ مكتبة الكتاب أى مصادره



M.S.B.J

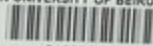
DATE DUE

عوض، احمد حافظ

فتح مصر الحديث او نابوليون بوناپارت

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002016



